برهان الدين دلّو

حضارة مصر والعراق

التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي الثقافي والسياسي

مكتبة السائح

الفارابي

برهان الدين دلّو
حضارة مصر والعراق
مصر
التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي
في عيون المرشد السياحي
دار الفارابي
مكتبة السائح
You Tube

الكتاب: حضارة مصر والعراق

المؤلف: برهان الدين دلّو

الغلاف: فارس غصوب

الناشران: * دار الفارابي ـ بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

* مكتبة السائح

طرابلس ـ لبنان ـ شارع الراهبات

تلفون 009616431549

www.saehlib.com

الطبعة الأولى: 1989

الطبعة الثانية: نيسان 2014

ISBN: 978-9953-71-979-5

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

الفصل الأول

مقدمة في علم التاريخ

التاريخ علم يدرس تطور المجتمع البشري وفق صيغة محددة وحسب تنوع نماذجه ومجمل تناقضاته من أجل فهم ماضيه وآفاق تطوره المقبل. ويعتبر تاريخ المجتمع جزءاً وتتمة لتاريخ الطبيعة. وقد ظهر تاريخ المجتمع بعد ظهور الإنسان الأول. ويعد ظهور المجتمع نتيجة للتفاعل والتأثير المتبادل بين الناس.

وموضوع التاريخ هو الإنسان. ومهمته دراسة وعي الناس في الماضي والحاضر بغية فهم المرحلة الراهنة وآفاق التطور اللاحق.

إن علم التاريخ يستند في استنتاجاته إلى دراسة كميات هائلة من الحقائق التي جمعتها جهود أجيال كثيرة من العلماء، كما يعتمد على إنجازات حقول المعرفة المشتركة والمواد التاريخية المساعدة. فالآثار المادية والمكتوبة تحتل المكانة الأساسية بين المصادر التاريخية العديدة. ويقوم علماء الآثار والمصكوكات بدراسة المصادر التاريخية المادية كما تقوم علوم المصادر والمخطوطات القديمة وتسجيل التواريخ والمتروبولوجيا والجغرافيا التاريخية والاتنوغرافيا - علم دراسة الشعوب - بدراسة المصادر المكتوبة.

بيد أن المسألة الأساسية التي اختلف حولها الفلاسفة وعلماء التاريخ، في الماضي ولاتزال موضع خلافهم إلى اليوم، هي النظرة إلى التاريخ والمجتمع وتطورهما. هذه المسألة الكبرى، مسألة أسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية، هي التي تشكل موضوع ما كان

يسمى سابقاً فلسفة التاريخ، أو علم التاريخ اليوم أي التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الأمور، بل يريد معرفة لماذا حدثت على نحو معين وليس على نحو آخر.

ولفلسفة التاريخ تاريخها، أعني أن المفكرين الذين كانوا يهتمون في عهود مختلفة بمسألة سبب الحركة التاريخية، قد أجابوا بأشكال مختلفة عن هذا السؤال الكبير:

فهناك من تصور أن التاريخ الإنساني وجميع مجريات الحياة: الفيضانات والزلازل وثورانات البراكين والأوبئة والمجاعات والحروب المدمرة والغنى والفقر وقيام الدول وأفعال الحكام هي من صنع قوى غيبية وأن الناس غير قادرين على التأثير بشكل واعٍ في مجرى التاريخ، وأن ما يجري في المجتمع هو شيء مقرر سلفاً بصورة لا راد لها.

ويرى الفلاسفة والمؤرخون المثاليون أن التطور التاريخي تحدده أعمال النخبة من الملوك والقادة والأغنياء، أو هو من عمل الرأي "الرأي يحكم العالم". ففولتير يفسر التطور التاريخي بتطور الطبائع، وسوار بتطور الأفكار (الرأي) وأوغستين تييري بالحالة الاجتماعية. وفي رأي هيغل أن التاريخ ليس سوى تفتح هذا الفكر الكوني (الفكر المطلق) وانبساطه في الزمان، وبمعنى أوضح أن شعباً ما عندما ينتقل في تطور، من درجة إلى أخرى فمرد ذلك أن الفكر المطلق (الكوني)، وهذا الشعب ليس إلا أداته، قد ارتقى إلى مرحلة أعلى في نموه. ولما كانت مثل هذه التفسيرات لا تعلل أي شيء على الإطلاق فقد وجد هيغل نفسه في الحلقة المفرغة ذاتها التي وقع فيها علماء الاجتماع والمؤرخون الفرنسيون. فهم يفسرون الوضع الاجتماعي بحالة الأفكار وحالة الأفكار بالوضع الاجتماعي، وبمعنى آخر ما دامت هذه المسألة، الوضع الاجتماعي، بدون حل كان العلم لا ينفك عن الدوران في حلقة مفرغة، بإعلانه أن (ب) سبب (أ) مع تعيينه (أ) كسبب لـ(ب). وفي المقابل فكل شيء سينجلي عند حل مسألة الوضع الاجتماعي[1].

إن عزل التاريخ عن عوامله الاقتصادية وعن الحركات والثورات الشعبية المرتبطة بهذه العوامل أساساً، يعني النظر إلى التاريخ من جانب واحد. وهذا النظر الأحادي هو الصفة الأولى المميزة للنظرة المثالية في تفسير التاريخ.

---

(1) بليخانوف: فلسفة التاريخ، ص 42 – 44.

وقد استهدف ماركس حل هذه المسألة، أصل الوضع الاجتماعي، عندما صاغ مفهومه المادي للتاريخ وخلاصته: إن تطور المجتمع البشري ما هو إلا عملية حتمية طبيعية تاريخية. فالأساس المحدد الذي ترتكز عليه حياة المجتمع كله هو إنتاج الخيرات المادية الضرورية لهذا المجتمع. فالإنتاج المادي بالذات، وليس الوعي، هو الذي يحدد تطور المجتمع، وأن الوعي يتطور بجميع أشكاله تبعاً لمستوى تطور الإنتاج. إن جميع الأفكار الحقوقية والدينية والأخلاقية والجمالية والفلسفية وخلافها وما يناسبها من مؤسسات الدولة، رهن بمستوى الإنتاج. كذلك يحدد مستوى تطور الإنتاج العلاقات المتكونة في المجتمع، وتركيب المجتمع وتنظيمه. وهكذا فإن أسلوب الإنتاج في آخر الأمر هو الذي يحدد جميع جوانب حياة المجتمع، حيث إن طابع علاقات الإنتاج يحدد البناء الاقتصادي في المجتمع. وهذا البناء الاقتصادي هو ذلك الأساس، البناء التحتي، الذي تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية، والأفكار والمؤسسات الحقوقية والسياسية والثقافية، أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقي أيديولوجي وسياسي للمجتمع، وأن تبدل الأساس الاقتصادي، البناء التحتي، أو حدوث تغيرات فيه تفترض تبدلاً وتغيّراً في طابع البناء الفوقي، أي في طابع المؤسسات السياسية والفكرية. بيد أن البناء الفوقي، رغم أنه رهن بالأساس، بالبناء التحتي، يؤثر بدوره في البناء الاقتصادي وعلاقات الإنتاج، وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبدلها[1].

وعليه، يمثل كل مجتمع وحدة معينة، بنية تاريخية خاصة مع أسلوب الإنتاج والبناء الفوقي الملازمين لها، يمثل تشكيلة اقتصادية اجتماعية. وقد عرف تاريخ المجتمع البشري خمس تشكيلات اقتصادية اجتماعية هي: التشكيلة المشاعية البدائية، تشكيلة الرق، التشكيلة الاقطاعية، التشكيلة الرأسمالية، التشكيلة الشيوعية التي تعد الاشتراكية طورها الأول. ولكل من هذه التشكيلات اقتصادها ومفاهيمها وأفكارها ومؤسساتها المناسبة لها. وإن تطور التشكيلة الاقتصادية يسير من أدنى إلى أعلى أي إلى تشكيلة أكثر تقدماً من سابقتها[2].

(1) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج1: ص 88 – 89.

(2) نيكيتين: أسس الاقتصاد السياسي: ص 9.

وعليه فإن أسلوب الإنتاج العبودي، تشكيلة الرق، الذي حل محل النظام المشاعي البدائي المتفسخ والصائر إلى الزوال، كان أكثر تقدمية منه. لأن التقدم اللاحق لم يكن ممكناً إلا شريطة تحرر جزء من المجتمع من العمل الجسدي[1]. وبفضل العمل العبودي وصل العالم القديم إلى درجة ملحوظة من التقدم الاقتصادي والثقافي.

إن الأساس، البناء التحتي، لمجتمع الرق، شأنه شأن أساس المجتمع الاقطاعي والرأسمالي، هو تناحري، لأنه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، على استثمار الطبقة السائدة منتجي الخيرات المادية المباشرين. ولهذا كانت التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية العبودية ككل تشكيلة تناحرية، استثمارية[2].

وبالتالي، فكل التاريخ منذ انحلال ملكية الأرض المشاعية البدائية، هو تاريخ صراع بين طبقات، طبقات مستثمِرة وطبقات مستثمَرة، بين طبقات سائدة وطبقات مسودة، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي[3]. فإذا أراد العلم التاريخي أن يكون علماً حقيقياً كان عليه أن لا يقتصر تاريخ التطور الاجتماعي على أعمال الملوك وقادة الجيوش، أعمال "الفاتحين" و"مستعبدي" الدول، بل أن يهتم قبل كل شيء بتاريخ منتجي الحوائج المادية، تاريخ الجماهير الكادحة، تاريخ الشعوب[4].

وهكذا فإن المنهج المادي التاريخي الماركسي ينظر إلى هذا التاريخ وذاك نظرة شمولية لا ترى فيه جانباً دون آخر، بل جوانبه كلها. وهو لا يقتصر في تفسير التاريخ على العوامل الاقتصادية والاجتماعية وحدها، كما يتوهم البعض، بل هو ينظر نظرة شمولية في مختلف العوامل المؤثرة في مسار الحركة التاريخية. بيد أنه يميز العوامل الاقتصادية والاجتماعية من غيرها باعتبارها العوامل ذات التأثير الحاسم دون سائر العوامل التي تتفاوت درجات تأثيرها بتفاوت الخصائص التاريخية لهذا المجتمع وذاك في هذه المرحلة الزمنية وتلك. وانسياقاً

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج1: ص 67.

(2) المصدر ذاته ص 89.

(3) ستالين: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: ص 95 – 96.

(4) المصدر ذاته ص 74.

مع هذه النظرة الشمولية الى التاريخ، يرفض المنهج التاريخي الماركسي أي تفسير أحادي للتاريخ، وبالتالي فهو يرفض كل التفسيرات البورجوازية التي تحصر تطور التاريخ بتطور الفكر نفسه بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتقنية التي خلقته.

الفصل الثاني

عصور ما قبل التاريخ

تقص علينا عصور ما قبل التاريخ ظهور الإنسان على الأرض وصراعه مع الطبيعة، والاختراعات والاكتشافات والإنجازات التي توصل إليها في سياق نشاطه العملي ومسيرته النضالية الشاقة في طريق التقدم. وقد ظهر الإنسان على سطح الأرض في مرحلة متأخرة من مراحل تطور الطبيعة. ومنذ ظهور الإنسان يبدأ تاريخ البشرية. ويقدر عمر البشرية بحوالى مليون سنة، في حين أن الحياة ظهرت على الأرض منذ تسعمائة مليون سنة تقريباً.

وهناك نظريات عديدة حول أصل الإنسان. منها نظرية تقول: إن اللّه خلق الإنسان على شكله الحالي. وبعضها يقول: "إن الإنسان ظهر كنتاج لسلسلة من التطورات الطويلة، وبالنشاط العملي الاجتماعي وبمعونة أدوات العمل التي صنعها اكتسب الإنسان صفاته الحالية"[1].

وهناك أيضاً آراء مختلفة حول الموطن الأول للانسان. فالعالم الانكليزي دارون يقول: كان الموطن الأول للإنسان في جنوب أفريقيا ويؤيده في رأيه جماعة من العلماء. وفي رأي علماء آخرين: كان الموطن الأول للإنسان في جنوب آسيا. أما العلماء السوفيات المعاصرون فيقولون: كان الموطن الأول للإنسان في جنوب آسيا وفي الشمال الشرقي من

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج1 ص 8.

أفريقيا وفي الجنوب الشرقي من أوروبا. ويعتمد جميع هؤلاء العلماء في آرائهم على ما عثر من بقايا عظام الإنسان الأول في المناطق المذكورة[1].

وبمرور آلاف السنين على ظهور الإنسان أخذت تنشأ الأجناس البشرية أي طُرُز الناس الذين يتميزون بعضهم من بعض بعلامات خارجية: بلون البشرة وشكل الأنف والشفاه، وطابع الكساء الشعري. وهذه الفروق العرقية، التي ظهرت بتأثير اختلاف الظروف الطبيعية للحياة وفي ظروف تشتت الجماعات البشرية، تكونت في الوقت الذي كان الإنسان المعاصر قد تكون من حيث الأساس.

وقد سببت الحدود الجغرافية - كالرمال والمستنقعات والجبال والبحار - قلة الاختلاط بين الناس وكان ذلك سبباً في تراكم مجموعات الأجناس المختلفة في الأماكن المختلفة من سطح كوكبنا. ولم يكن لهذه الفروق بالشكل الخارجي أي تأثير في التركيب البيولوجي الداخلي للإنسان، وبالأحرى في مقدرته، وتطوره الاجتماعي والثقافي.

وقد استغل أنصار النظريات العنصرية البورجوازية، القائلة بأن الأجناس قد ظهرت نتيجة منشأ الناس من مختلف الأسلاف، وبأنها بالتالي غير متعادلة في النوعية وغير متساوية في الحقوق، هذا الاختلاف في الشكل الخارجي بين العروق ليقسموا الأجناس البشرية إلى عرق أعلى راق وآخر أدنى متخلف من حيث القدرة العقلية. إن هذه النظريات المنافية للعلم ما اختلقت ونشرت إلا من أجل تسويغ الظلم والاستعباد الاستعماري، ومن أجل عرقلة النضال الوطني التحرري المعادي للاستعمار والامبريالية الذي تخوضه شعوب بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

وقد أطلق العلماء على الفترة الزمنية التي عاشها الإنسان قبل اختراع الكتابة، والتي تمتد في القدم إلى بداية ظهوره وانفصاله عن عالم الحيوان، عصور ما قبل التاريخ، لأننا نتعرف إليها من خلال مخلفات الإنسان (هياكل عظمية، أدوات وأوان ونقوش) التي عثر عليها المنقبون في الحفريات الأثرية في عدد من المواقع في أوروبا وآسيا وأفريقيا. وقسم

(1) د. فرح، نعيم: تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ ص 10.

العلماء حقبة ما قبل التاريخ إلى ثلاثة عصور هي: العصر الحجري، وعصر البرونز، وعصر الحديد[1]. واعتمد العلماء في هذا التقسيم على نوع المادة الرئيسة التي استعملها الإنسان في صنع أدواته، والتي كانت في أول الأمر من الحجر ثم صارت من البرونز (خليط من النحاس والقصدير) فالحديد. وقسم العصر الحجري إلى ثلاثة عصور هي:

1 - العصر الحجري القديم (الباليوليت): وقسم بدوره إلى عهدين:

أ- العصر الحجري القديم الأدنى: ويمتد منذ ظهور الإنسان إلى حوالى الألف الأربعين قبل الميلاد. وفي أثناء هذه الحقبة، أخذ ممثلو الجنس البشري يتميزون شيئاً فشيئاً عن القرود الشبيهة بالإنسان. فقد كانت مشيتهم منتصبة، وكان حجم الدماغ يزداد دوماً مقترباً من حجم دماغ الإنسان المعاصر. كما أنهم تميزوا عن عالم الحيوان بالنشاط العملي الاجتماعي بمعونة أدوات العمل التي صنعوها، لأنه ما من حيوان بقادر على القيام بالنشاط الهادف، وما من حيوان يستطيع إعداد حتى أكثر أدوات العمل بساطة.

كان الناس الأولون عاجزين تقريباً أمام قوى الطبيعة، وكانت حياتهم قلما تختلف عن حياة الحيوان. ولكن بمقدار إتقان أدوات العمل وتطور القوى المنتجة، بدأ الإنسان يحرز انتصاراته الأولى على قوى الطبيعة، ولو أنها كانت انتصارات طفيفة.

إن تطور البشرية الصاعد قد حدد التطور المطرد للقوى المنتجة وبالدرجة الأولى تطور أدوات الإنتاج. فمنذ قرابة سبعمائة ألف سنة قبل الميلاد، بدأ الإنسان بتكييف الحجارة صانعاً منها أدوات العمل. وفيما بعد أخذ الإنسان القديم يحطم الحجارة ويكسرها حاصلاً بذلك على أدوات حجرية ذات أطراف قاطعة. وعلاوة على هذه الأدوات البدائية، كان الإنسان يصنع أدوات خشبية: عصياً حادة الأطراف ورماحاً خشبية إلخ... وفيما بعد صار الإنسان، أكثر فأكثر، يكيف الأدوات لأغراضه. فشرع يشحذ طرفي الحجر محولاً إياه إلى

---

(1) وكان مورغان أول من حاول أن يدخل، عن خبرة، نظاماً معيناً إلى ما قبل تاريخ البشرية. وقسم ما قبل التاريخ إلى ثلاثة أدوار رئيسية: الوحشية، والبربرية، والحضارة. وقسم كلاً من دوري الوحشية والبربرية إلى ثلاث مراحل: دنيا ومتوسطة وعليا، تبعاً للتقدم الحاصل في إنتاج وسائل المعيشة/ إنجلس، فريدريك: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة. ترجمة أديب يوسف ص 32.

قطاعة حادة، إلى أداة كبيرة شاملة، يقوم بواسطتها بعمليات القطع والقص وإنزال الضربات وحتى حفر الأرض. والأدوات من هذا الطراز كان يصنعها ويستخدمها أناس قريبون من حيث تطورهم من إنسان جاوا - الإنسان الشبيه بالقرد - إن اختراع القطاعة كان من أعظم منجزات الإنسان البدائي[1].

لقد أخذ الإنسان القديم يخصص الأدوات طبقاً لمقتضيات هذا المجال أو ذاك في نشاطه العملي. وكان صنع مختلف المحكات والأدوات ذات الأطراف الحادة يتطلب من الإنسان أن يقوم بإنزال ضربات محكمة لتكييف الحجارة. وهذا يثبت أن جسم الإنسان كان في سياق الإنتاج ينمي ويتقن مقدرته على الحركات المنسقة.

وأدى ظهور أدوات إنتاج جديدة إلى تغير حياة الإنسان برمتها. فبواسطة الأدوات الجديدة أصبح في وسعه أن يصطاد بمزيد من النجاح الحيوانات الكبيرة - الفيلة، وحيدة القرن، الأيائل، الخيول - وأصبح بوسعه الفوز من قطعة الأرض نفسها بقدر أكبر من الأطعمة، ومكنه من المكوث مدة أطول في مكان واحد. وفي الأماكن المريحة للصيد، بدأ الإنسان بتنظيم مقار موقتة، مستخدماً الكهوف للسكن .

وكان الإنسان يحصل على قوته عن طريق جمع المأكولات الجاهزة في الطبيعة من ثمار وخضروات وعسل النحل الوحشي، والصيد.

وفي سياق النضال ضد الظروف الطبيعية الأكثر قساوة، ومن أجل اطراد تطور البشرية، اتسم بأهمية خاصة اكتشاف الإنسان للنار. فقد لاحظ الإنسان، في أثناء إعداده أدوات العمل، أنه عندما يضرب حجراً بآخر تنقدح شرارات، ولدى حك قطعة خشب بأخرى تتولد حرارة. وإذ استخدم الإنسان هذه الظواهر الفيزيائية من أجل الحصول على النار بصورة اصطناعية، أحرز أول انتصار على قوى الطبيعة وأجبرها على مساعدته في نضاله من أجل البقاء.

وباستعمال النار حمى الإنسان نفسه من البرد والحيوانات المفترسة، كما أن طهو الطعام على النار جعله أكثر تغذية وأسهل هضماً، وكذلك وسع موارد الطعام عند الإنسان البدائي.

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 21.

وقد ساعد هذا، معاً مع عملية العمل نفسها، على تطور الإنسان البيولوجي اللاحق. فتنوع الأغذية وتوافرها طوّرا جسم الإنسان وقوّياه، وزادا في قوته الإنتاجية. وقد اكتسبت أغذية اللحم أهمية خاصة لاحتوائها، بشكل جاهز تقريباً، على كثير من العناصر الهامة التي يحتاج اليها جسم الإنسان ودماغه خصوصاًمن أجل الغذاء والنمو.

وفي نهاية العصر الحجري القديم الأدنى، منذ مئة ألف سنة تقريباً، تغير مناخ النصف الشمالي من الكرة الأرضية تغيراً حاداً. فغطى الجليد جزءاً كبيراً من سطح كوكبنا، فهلكت النباتات والحيوانات المحبة للدفء. ولكن الناس بفضل النار ونشاطهم العملي لم ينقرضوا وواصلوا التطور متلائمين وشروط الحياة الجديدة.

إن بقايا إنسان هذه الحقبة - الإنسان النياندرتالي -[1] وجدت في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا الجنوبية وفي أراضي الاتحاد السوفياتي. وبرغم أن الأدوات الأساسية ظلت حجرية كالسابق، إلا أن إنتاجها أخذ يزداد إتقاناً. وقد أدى إتقان أدوات العمل إلى تطوير عادات الناس في العمل وإلى نمو خبراتهم الإنتاجية.

إن ظهور أدوات للعمل أكثر إتقاناً قد ساعد على تطوير الصيد الذي غدا الشكل الرئيسي الأهم عند الإنسان. وبدأ الناس يصطادون جماعات وينظمون مطاردة الوحوش ودفعها إلى المستنقعات. وراح الإنسان بصورة متزايدة ولمدة أطول يمكث في الأماكن المريحة للصيد، كالمخابئ والسقايف، لتقيه رداءة الطقس.

وبما أن الإنسان كان ضعيفاً أمام قوى الطبيعة اضطر إلى أن يعيش مع غيره في شكل مجموعات تتعاون على العمل والصيد الجماعي والدفاع المشترك. وهكذا تشكلت أولى المجموعات البشرية المتحدة التي يطلق عليها عادة اسم "القطيع البشري البدائي". وكان ما يحتم محافظة الناس الأقدمين، قبل عصر إنسان النياندرتال، على نمط الحياة البدائي هو مستوى القوى المنتجة المنخفض إلى أقصى حد.

كانت حياة الناس القدامى قاسية ومليئة بالمخاطر. وكان أكثر من نصفهم يموتون قبل

(1) اكتشفت بقايا هيكله عام 1856 في وادي نياندرتال قرب دوسلدورف بألمانيا وسمي باسمه.

أن يبلغوا الثامنة عشرة: بعضهم كانت تمزقه مخالب الضواري، والآخرون كانوا يموتون ضحايا الأمراض أو المجاعة[1]. ولذا كان الإنسان بأدوات عمل بدائية يضمن بقاءه باتحاده مع جماعات كبيرة من الناس. ومثل هذا الاتحاد كان ضرورياً حتى عند جمع الأعشاب والثمار وذلك للدفاع المشترك ضد الوحوش البرية.

وعندما انتقل الإنسان إلى الصيد النشيط، كان التوحيد الجماعي لجهود الناس، للرجال والنساء، يجلب لهم النجاح ويوفر لهم وسائل العيش. وكان العمل يؤثر تأثيراً متزايداً في تطور نمط الحياة الجماعي. وكان النشاط الإنتاجي برمته يتطلب توحيد الناس في جماعات. في الجماعة فقط كان من الممكن المحافظة على التجربة والبراعة الإنتاجية المكدسة، أساس تطور الإنتاج، ونقلها إلى أجيال جديدة.

وكان كل قطيع بشري يضم من عشرين إلى أربعين شخصاً لا تفرقة بينهم ولا ملكية خاصة لأحد منهم[2].

وقد اكتشف علماء الآثار عدة مراكز تجمع بشري تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى. وصنف العلماء هذه المراكز في أربع مجموعات حضارية اشتقت أسماؤها من أسماء المواقع التي وجدت فيها بفرنسا، حيث عثر على أدوات نموذجية لكل حضارة تختلف حسب شكلها وطريقة صنعها وتنوعها، وهذه الحضارات هي:

1 - الحضارة السابقة للحضارة الشيلية.

2 - الحضارة الشيلية.

3 - الحضارة الأشولية.

4 - الحضارة الوستيرية[3].

ب- العصر الحجري القديم الأعلى: ويمتد من الألف الأربعين إلى الألف الثاني

---

(1) كوروفكين. ف. ب: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 11.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 12.

(3) المصدر ذاته، ص 13.

عشر قبل الميلاد. وفيه تكون إنسان كرومانيون[1]. وهو أرقة مرتبة في الذكاء وفي التكوين الجسمي من إنسان نياندرتال. ولم يكن إنسان كرومانيون يختلف تقريباً من حيث تركيب جسده ومظهره الخارجي عن الإنسان المعاصر.

لقد تكون إنسان كرومانيون نتيجة لتطور البشرية التدريجي المطرد، المرتبط بتطور النشاط العملي الجماعي لأجيال عديدة. وشيئاً فشيئاً تكونت عضوية أكثر تكيفاً للإنتاج الجماعي، والتفكير والكلام المفصل الواضح. وأخذ تطور الإنسان يجري حسب قوانين اجتماعية لا تلازم إلا المجتمع البشري.

كان الكرومانيون يقطنون تقريباً كل أراضي أوروبا وآسيا وأفريقيا. ونفذت جماعات منهم إلى أميركا عبر مضيق بهرنغ، وإلى أوستراليا من جنوب شرقي آسيا عبر جزر الصوند[2].

وبالمقارنة بإنسان نياندرتال، كان إنسان كرومانيون يستخدم أدوات أكثر كمالاً وتنوعاً. وكانت تلك الأدوات تصنع من الحجر والخشب والعظم والعاج، وهي الصاقلات والهاونات والفؤوس والكاشطات والمثاقب والمدى والأزاميل[3]. وفي هذه الآونة ظهرت الرماح ذات الرؤوس العظمية والصنارات الكبيرة التي كانت تستعمل لصيد الأسماك الكبيرة والوحوش، وأولى معدات القذف، قاذفة الرمح التي وسعت مدى الرمية وزادت من قوتها ومن أبعاد طيران الرمح أو النُشّابة[4].

وفي هذا العصر تشكلت العروق أو الأجناس البشرية وهي:

1 - العرق الأوروبي ومنه إنسان كرومانيون الطويل القامة المستطيل الرأس. ونشأ هذا العرق في أوروبا.

2 - العرق المنغولي ومنه إنسان شانسيلاد القصير القامة. ونشأ هذا العرق في آسيا الوسطى.

---

(1) اكتشفت بقايا هيكله العظمي في كهف كرومانيون جنوب فرنسا.

(2) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 27.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 15.

(4) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 25.

3 - العرق النيجري ومنه إنسان غريمالدي[1] ذو السمات الزنجية. ونشأ هذا العرق في أفريقيا[2].

وقد استتبع تطور القوى المنتجة تغيراً في تنظيم المجتمع البشري. فحلت محل القطيع البشري البدائي جماعة إنتاجية أكثر متانة هي المشاعة العشيرية أو العشيرة[3]. في أول الأمر تشكلت عشيرة الأم، إذ كان الزواج جماعياً والابن لا يعرف في ظله إلا أمه. وبالنظر الى الدور الاقتصادي والاجتماعي الهام الذي كانت تقوم به المرأة (الأم) في عشيرة الأم، أطلق العلماء على هذا النظام الاجتماعي "نظام الأمومة" الذي ساد عدة آلاف من السنين. وكان يربط أعضاء المشاعة العشيرية فيما بينهم العمل المشترك والتقسيم الطبيعي للعمل بين الرجال والنساء، والواجبات المشتركة داخل الجماعة[4].

وكان للتغيرات في علاقة الزواج والقرابة أهمية كبرى بالنسبة الى تنظيم المشاعات العشيرية. فقد كانت المشاعة البدائية أقل عدداً من القطيع لأنه مع تطور القوى المنتجة زالت ضرورة الاتحاد الدائم بين عدد كبير من الناس في الإنتاج. ولكن بعض أشكال العمل، كمطاردة الوحوش، اقتضى مؤقتاً اتحاد المشاعات العشائرية في جماعات كبيرة، في قبائل[5].

إن الوحدة القبلية التي نشأت على هذا النحو قد حددت وحدة اللغة وجزئياً وحدة المعيشة. واستعاضت عن العلاقات الجنسية المختلطة، الموروثة عن قطيع الحيوانات والتي تميز القطيع البشري البدائي، بالزواج الخارجي، أي بتحريم علاقات الزواج داخل العشيرة[6].

---

(1) اكتشفت هياكله العظمية في كهف غريمالدي بإيطاليا.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 14. وجماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 26.

(3) العشيرة: جماعة تضم في حظيرتها أعضاء تربطهم روابط الدم فقط.

(4) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 29.

(5) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، ص 30.

وهكذا كان المجتمع في سياق النشاط العملي وبمقدار تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج يبتعد أكثر فأكثر عن تنظيمه البدائي الأولي ويتخذ شكل منظمة إنتاجية هي المشاعة العشيرية[1].

واتسمت علاقات الإنتاج، سواء في القطيع البدائي أو في المشاعة العشيرية، بسمة علاقات أناس يعملون معاً بعضهم من أجل بعض. إن قوة الناس البدائيين كانت تكمن في جماعيتهم، في نشاطهم العملي.

وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج في النظام المشاعي البدائي. وكانت كل الخيرات التي يخلقها العمل الجماعي لأفراد المجتمع توزع بالتساوي بين جميع أفراده. وللعشيرة عقيدة واحدة، وتسود بين أفرادها العلاقات الديموقراطية في حياتهم الاجتماعية.

وقد اكتشفت عدة مراكز حضارية تعود إلى هذا العصر. وصنف العلماء هذه المراكز ثلاث مجموعات حضارية اشتقت أسماؤها من أسماء المواقع التي وجدت فيها. وهذه الحضارات هي:

1 - الحضارة الأورينياسية.

2 - الحضارة السولتيرية.

3 - الحضارة المجدلية.

2 - العصر الحجري المتوسط (الميزوليت): ويمتد من الألف الثاني عشر إلى الألف الخامس قبل الميلاد: استمر تطور القوى المنتجة في هذا العصر. وأعظم اختراع قام به الناس في ذلك الوقت هو القوس والنشاب. إذ أصبح بمستطاع الإنسان أن يصرع عدوه أو مَصيده على مسافة بعيدة، وأن يطلق سهماً آخر إذا ما أخطأ الهدف.

وقد سهل استخدام القوس والنشاب بصورة ملحوظة نضال الإنسان ضد قوى الطبيعة. كما أدى هذا الاستخدام إلى تطوير الصيد البري، وإلى تحسين حياة الناس، وخفف كثيراً من أعباء عملهم اليومي.

---

(1) المصدر نفسه.

ومـن أهـم المواقـع الحضاريـة التي تعود الـى العصر الميزوليتي موقع أزيل الذي اكتشـف في فرنسـا، كمـا اكتشـف علمـاء الآثـار كثيـراً مـن المواقـع الحضاريـة لهـذا العصـر في كل مـن أوروبـا وأفريقيا وآسـيا الوسـطى والهند وأوسـتراليا والاتحاد السـوفياتي وفلسـطين[1].

3 - العصـر الحجـري الحديـث (النيوليـت): ويمتـد مـن الألـف الخامـس إلـى مطلـع الألـف الأول قبـل الميـلاد. وكان المنـاخ والحيـوان والنبـات فـي العصـر النيوليتـي يشـبه تقريبـاً المنـاخ والحيـوان والنبـات الحالي.

وفـي العصـر الحجـري الحديـث، حدثـت تطـورات اقتصاديـة واجتماعيـة هامة. فقد اكتشـف الإنسـان الزراعـة ودجـن الحيـوان وصنع الفخار والنسـيج وصقل الأدوات الحجرية بشـكل جيـد، بالإضافة إلى تعزيز وتطـور النظـام القبلي والعلاقـات القبلية.

لقـد أدى تطـور الصيـد البـري إلـى نتيجـة علـى جانـب عظيـم مـن الأهميـة. فاسـتمرار الاحتـكاك بين الصيادين وقطعـان الحيوانـات المتوحشـة، ومراقبـة حياتهـا، أوحـى الـى النـاس بفكـرة إمكانيـة تأهيـل الحيوانـات. فكثيـراً مـا كان الصيـادون، أثنـاء الصيـد، يمسـكون بالحيوانات، أو يسـوقونها إلى مكان مسـوّر، أو يعثـرون علـى صغارهـا فيحتفظـون بهـا ويربونهـا دون أن يقتلوهـا. فـي بـادئ الأمـر كانـت الحيوانـات تحفـظ لمـدة وجيـزة، أمـا فيمـا بعـد فكانـوا يبقونهـا طويـلاً لدرجـة أنها أخـذت تتكاثـر في الأسـر، وتصبح أليفـة أنيسـة لا تخـاف الإنسـان ولا تهـرب منـه. وهكـذا انتقـل النـاس إلـى تربيـة الحيوانات التي اشـتقت من الصيـد[2].

وكان الكلـب والخنازيـر والماعـز والأغنـام أولـى الحيوانـات التـي دجنهـا الإنسـان، ثـم الأبقـار والحمير والخيـول لاحقاً.

واتسـمت تربيـة المواشـي بأهميـة كبرى بالنسـبة الى تطور الإنسـان، لأنهـا تمده بالطعـام اللحمي في أوقـات الصيـد الصعبـة، بالإضافـة إلـى مـا تقدمه من جلـود وصوف للباسـه وخامات لصنع سـلاحه وأدوات عمله.

---

(1) د.فرح،نعيم:المصدر السابق ص 17.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات:تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص 34.

وكان اكتشاف الزراعة أيضاً من أهم الظاهرات الاقتصادية في العصر النيوليتي. فقد نشأت الزراعة وتطورت من جمع المأكولات. فالإنسان الذي كان في السابق يجمع طعامه من الحبوب والخضروات والفواكه الجاهزة في الطبيعة أخذ يلاحظ أن البذرة التي تسقط في أرض هشة لا تلبث أن تنمو وأن النبتة الجديدة تعطي حبوباً جديدة، ذاك هو أصل الزراعة[1]. وكانت نساء المجتمع البدائي هن اللواتي اكتشفن الزراعة[2].

إن الانتقال من جمع النباتات إلى الزراعة لم يكن ممكناً إلا باختراع أدوات مختصة بفلاحة الأرض مثل العصا الحفارة[3] والمعزقة[4] وكذلك بفضل التجربة والمهارات المتراكمة في غضون السنين الطويلة من عمليات جمع النباتات. وإذ لاحظ الناس أن النباتات تنمو في الأرض المعزوقة نمواً أفضل: أخذوا يجدّون في فلاحة التربة. في البداية بالعصا ومن ثم بأداة خاصة هي المعزقة. واستخدموا لجمع المحصول المنجل الخشبي ذا الأسنان الصوانية (شفرات صوانية) الحادة. وفيما بعد، ولا سيما في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل وفلسطين، أصبحت الزراعة الوسيلة الرئيسة للحياة عبر أكثرية القبائل.

وكان في عداد أولى النباتات التي زرعها الإنسان: الجوادار والشعير والقمح. وشيئاً فشيئاً استوعب إنسان المجتمع البدائي الكثير من المحاصيل الزراعية المعروفة في عصرنا.

إن الانتقال إلى الزراعة جعل الإنسان يعتمد على الطبيعة بدرجة أقل من ذي قبل، أي حرر الإنسان خطوة جديدة من التبعية للطبيعة. وبظهور الزراعة اتسع مجال النشاط العملي عند الإنسان اتساعاً ملحوظاً. فقد اكتسب عادات في العمل وتجارب جديدة، وأخذ يعرف بمزيد من العمق سنن تطور الطبيعة، ويصنع أدوات جديدة للإنتاج[5].

وعندما تطورت الأدوات الزراعية وحل المحراث الثقيل الذي تجره الحيوانات محل

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 17 – 18.

(2) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) عصا مقشرة بالسكين الحجرية وطرفها مشحوذ ومحروق.

(4) المعزقة عبارة عن مقبض طويل مثبتة فيه شظية حادة من الحجر.

(5) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي، ج1، ص 37.

المعزقة أصبح الرجل هو الذي يمارس عملية الزراعة، لأن استعمال المحراث يتطلب قوة عضلية أكبر من قوة النساء. أما النساء فقد تفرغن بعد ذلك للأعمال المنزلية بصورة رئيسية. وقد ترتب على ذلك التحول الاقتصادي تحول اجتماعي، إذ أصبح الرجل، بعد أن تعاظم دوره في إنتاج الخيرات المادية، سيد الأسرة، وأطلق العلماء على هذه الأسرة اسم الأسرة الأبوية (البطريركية).

إن التغييرات التي طرأت على الإنتاج استتبعت تغيرات لاحقة في تنظيم جماعات الناس. فأخذت الصلات بين العشائر تتوطد أكثر فأكثر، مما أدى إلى قيام القبائل أي الجماعات التي توحد عدة عشائر.

إن توحيد العشائر والقبائل اتسم بأهمية كبرى، إذ ساعد على نشر بعض الاختراعات والمهارات الإنتاجية، وأدى فيما بعد إلى تقارب لغات العشائر وتكون لغة للقبيلة بأسرها، وكذلك إلى إنشاء ثقافة عامة في القبيلة.

عصر المعادن= تطور القوى المنتجة- تفكك النظام المشاعي البدائي

طرأت تغيرات جذرية على تطور قوى المجتمع المنتجة في الألف الرابع قبل الميلاد، عندما أخذ الإنسان يستخدم المعادن لصنع أدوات العمل. إن استخدام الأدوات المعدنية أدى إلى نمو جميع القوى المنتجة، ورفع إنتاجية العمل، وأثار تغيرات في علاقات الإنتاج، وتحققت في عصر المعادن إنجازات حضارية هامة في حقل الثقافة.

ففي سياق البحث عن المواد لصنع الأدوات، عثر الإنسان على النحاس البكر، وهو عنصر فلزيّ رخو نسبياً قابل للطرق والسحب، يتغير شكله تحت ضربات القطاعة الحجرية. فاستفاد الناس من هذه الخواص، وأخذوا يصنعون منه الفؤوس والسكاكين والنصال للنشابات والرماح. ومع ذلك فإن النحاس لم يتمكن من إزاحة استخدام الحجارة كمادة لصنع الأدوات الحجرية. "ومع الزمن تطور تصنيع النحاس وتعلم الإنسان أن يصهر خاماته في درجة حرارة عالية ويسكبها في قوالب خاصة ليصنع الأدوات الخفيفة"[1].

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 21.

وفي الألف الثالث قبل الميلاد، تعلم الإنسان إعداد سبائك البرونز من خلائط النحاس والقصدير أو غيرها، وصنع من المعدن الجديد أدوات أشد صلابة وأكثر قطعاً من الأدوات النحاسية إلا أن انتشارها كان بطيئاً.

وتعلم الإنسان صناعة الحديد. ورغم أن تصنيعه قد حدث في وقت متأخر بالنسبة إلى البرونز، فإنه ما فتئ أن انتشر انتشاراً سريعاً وحقق انتصاراً ساحقاً على الحجارة والمعادن الأخرى وذلك لكونه أكثر صلابة وأشد قطعاً، ولانتشاره وسهولة استخراجه.

صنع الناس من الحديد أدوات عمل كالفؤوس والمعاول والرفوش، كما صنعوا منه السلاح. وقد سهل استخدام الأدوات الحديدية عمل الحجارة وتحسين تكنيك البناء. كما ساعد استعمال الفأس والرفش الحديديين على اقتلاع مساحات واسعة من الغابة وتطهير أراضيها وتحويلها إلى مزارع ومراعٍ.

وباستعمال أدوات العمل النحاسية فالبرونزية ومن ثم الحديدية، أخذ الإنسان يكيّف الحجر والخشب والعظام والقرون بمهارة كبرى، ويصنع المناجل والمعازق المعدنية وغيرها من الأدوات وآنية الاستعمال المنزلي والسلاح. وفي ذلك الوقت أيضاً بدأ الناس يبنون البيوت الخشبية الكبيرة[1].

وكان لاستخدام الأدوات المعدنية على نطاق واسع أهمية بالغة بالنسبة الى تطور الزراعة وتربية الماشية اللتين غدتا الفرعين الرئيسيين للنشاط الاقتصادي. فقد انتشرت الزراعة انتشاراً واسعاً في آسيا وأفريقيا، وتطور الري. وأخذت الزراعة تصبح أقل اعتماداً على الظروف الطبيعية وتعطي الناس مزيداً من المنتوجات الغذائية. وفي قطاع تربية المواشي، أسهمت الأدوات المعدنية إسهاماً كبيراً في اجتثاث مساحات واسعة من الغابات وتنظيف أراضيها وتحويل قسم منها إلى مراعٍ لتربية الماشية. وأخذت القبائل التي كانت تمارس الصيد ولا سيما في المناطق السهبية، تنتقل بالتدريج إلى تربية الحيوان.

إن بلوغ الإنتاج مستوى أضحى من الممكن فيه تأمين الحاجات الحيوانية للإنسان بل إعطاء منتوج زائد، قد فتح الطريق لاطراد تطور المجتمع.

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 48.

وفي هذه المرحلة بلغ تطور القوى المنتجة ونمو إنتاجية العمل ليس عند المجموع فقط، وإنما أيضاً عند كل عضو في المشاعية على انفراد، مستوى أصبح الناس معه غير ملزمين، من أجل الحصول على الخيرات المادية الضرورية للحياة، بأن يتعاونوا في اتحادات إنتاجية كبيرة.

وما ساعد على تفكك النظام المشاعي البدائي هو سلوك التطور اللاحق للقوى المنتجة طريق تخصص أدوات ووسائل الإنتاج وامتلاكها الفردي. بيد أن القوى المنتجة الجديدة في المجتمع لم يعد في وسعها أن تبقى في إطار علاقات الإنتاج القائمة. فإن إطار الملكية المشاعية الضيق، وتوزيع منتجات العمل بالتساوي أخذا يعوقان تطور القوى المنتجة. ولم يبق أي مبرر لضرورة العمل المشترك، وظهرت ضرورة العمل الفردي. وإذا كان العمل المشترك قد تطلب الملكية الجماعية (المشتركة) لوسائل الإنتاج، فإن العمل الفردي قد تطلب الملكية الخاصة (الفردية).

وهكذا انبثقت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ونشأ معها التفاوت في الثروة بين الناس سواء بين العشائر أو في داخل العشيرة نفسها وظهر الأغنياء والفقراء... وترك العمل المشاعي الميدان للعمل الفردي والملكية المشاعية للملكية الخاصة، والمجتمع المتعاضد الخالي من الاستثمار والطبقات إلى مجتمع الطبقات واستثمار الإنسان للإنسان.

في بادئ الأمر، ظهرت الملكية الخاصة للماشية والآنية المنزلية وبعض وسائل العمل الفردي ومنتوجاته، وفيما بعد شملت القطيع والأرقاء وأدوات العمل.

ومع نمو القوى المنتجة وتطور الملكية الخاصة، أصبح من الممكن أن يستخدم فرد في استثمارته الخاصة شغيلة آخرين يعطي عملهم كذلك فائضاً من المنتوجات. وأصبح من الممكن تكديس المنتوج الفائض ومبادلته بسلع غير متوافرة في الاستثمارة الخاصة. وهؤلاء الشغيلة كانت توفرهم الحرب: فأخذوا يحولون الأسرى إلى أرقاء. في البدء، ارتدى الرق طابعاً بيتياً ثم غدا أساس النظام الجديد (العبودي). ومع تفاقم التفاوت في الثروة، لم يعد الأغنياء يقتصرون على تحويل أسرى الحرب إلى عبيد، بل أخذوا يفرضون الرق على الذين يصبحون فقراء ومدينين من أعضاء قبيلتهم نفسها. وهكذا نشأ أول تقسيم طبقي للمجتمع، إلى أرقاء ومالكي أرقاء (سادة).

إن انتقال المجتمع من المشاعية البدائية إلى نظام الرق يعود إلى استمرار نمو القوى المنتجة وإلى تطور التقسيم الاجتماعي للعمل وتطور التبادل.

وكان نشوء الرق ظاهرة حتمية تماماً بالنسبة الى ذلك الزمن، عندما أصبح العمل قادراً على إيجاد المنتوج الزائد، علماً بأن إنشاء المنتوج الفائض كان يجري لدرجة ملحوظة على حساب الحد الأقصى من استنزاف القوى الجسدية والمعنوية عند منتجي الخيرات المادية[1].

ومن جهة أخرى، وفي هذا المستوى من تطور أدوات الإنتاج، كان مجرد الحيازة على وسائل الإنتاج لا يكفي لامتلاك منتوج عمل الآخرين. فكان من الضروري لهذا تحويل الإنسان نفسه إلى وسيلة عمل، إلى سلعة من أجل إرغامه على العمل للآخرين. وهذا ما استدعى استخدام العاملين وإرغامهم على الإنتاج، فجاء الرق كشكل للاستغلال مربح من الناحية الاقتصادية، وكان هذا أول أشكال الاستثمار في التاريخ وأكثرها وحشية وبدائية وقسوة[2].

إن ظهور عمل العبيد سجل بدء مرحلة جديدة في تطور المجتمع هي مرحلة استثمار الإنسان للانسان. فإلى جانب المنتجين الأحرار بدأ يكدح عبيد محرومون من الحقوق، كان القسم الأكبر من عملهم يبذل لا لسد حاجاتهم الخاصة، وإنما لإيجاد المنتوج الفائض لأجل الآخرين. وهكذا أصبح عمل العبيد مصدرًا لثروات هائلة لمالكيهم.

وكانت علاقات الإنتاج السائدة في مجتمع العبودية علاقات استغلال الأرقاء من قبل مالكيهم، علاقات السيد والمسود التي نشأت عن الملكية التامة لأدوات ووسائل الإنتاج وللعمال أنفسهم.

وعلاوة على هذا فقد وجدت في مجتمع الرق ملكية الفلاحين والحرفيين الصغيرة[3].

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ص 61 - 62.

(2) ف. كيللي، م. كوفالزون: الملاية التاريخية. ترجمة أحمد داود. إصدار دار الجماهير دمشق 1967، ص 162.

(3) المصدر ذاته، ص 162 – 163.

وقد اكتسب استثمار العبيد[1] أشكالًا في أقصى الضراوة والقساوة. وكانت معاملة العبيد أسوأ من معاملة الماشية. وكانوا يدفعونهم إلى العمل بضرب السياط، ويعاقبونهم بقسوة وحشية لأقل هفوة، بل كانوا يقتلونهم. وكان السيد لا يحاسب إذا قتل عبده. وكان مالك العبد يستولي على كامل ثمرات عمل عبده ولا يعطيه إلا قدراً زهيداً من مقومات العيش لكي لا يموت جوعاً ولكي يتمكن من متابعة العمل لأجله[2].

وبالرغم من ذلك، فإن نظام العبودية كان أكثر تقدماً بالمقارنة مع نظام المشاعة البدائية. فقد ظهرت مع نظام العبودية فروع جديدة في الزراعة والحرف وظهرت المدن الكبيرة وتطورت الثقافة. وأدى، بالضرورة، إلى نسف رابطة الدم ضمن العشيرة والقبيلة وإلى اختلاف العشائر والقبائل بعضها عن بعض، وظهور شكل جديد لاجتماعية الناس - الشعب[3].

إن نظام الرق، إذ كان الأساس لتقسيم العمل الضروري من الوجهة التاريخية، فإنه بهذا خلق الشروط لازدهار ثقافة العالم القديم، ولتقدم قوى الإنتاج، وزيادة وتائر التطور التاريخي. وإن تطور تقسيم العمل الاجتماعي كان أحد الجوانب التقدمية لأسلوب إنتاج النظام العبودي بالمقارنة بنظام المجتمع البدائي[4].

وكانت المصادر الرئيسة لزيادة عدد العبيد: الحرب وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعة المعدمين لقاء ما عليهم من ديون.

لقد أصبحت العبودية عنصراً أساسياً في نظام تنمو فيه الزراعة والحرفة والتبادل وإنتاجية العمل نمواً دائماً ومتزايداً.

وزاد التوسع في الإنتاج وفي المبادلات من عدم التساوي في الثروة. وهكذا تركزت الملكية العقارية والنقود وكتل العبيد بين أيدي الأغنياء. وبينما أخذت الاستثمارات الريفية

---

(1) كانوا يسمون العبد أداة ناطقة، وكان لا يمتاز عن الفأس أو الثور إلا بكونه يملك موهبة النطق.

(2) نيكيتين: أسس الاقتصاد السياسي. دار التقدم - موسكو ص 22.

(3) ف. كيللي وم. كوفالزون: المصدر السابق، ص 164.

(4) المصدر ذاته. ص 163.

الصغيرة تنهار، كان الاقتصاد القائم على العبودية يقوى ويتسع ويمتد إلى كل فروع الإنتاج، وأصبح من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وهكذا تكونت طريقة الإنتاج القائمة على العبودية[1].

ولم يكن بوسع مالكي الأرقاء إخضاع العبيد والمشاعيين الأحرار البسطاء وإكراههم على العمل من أجلهم، وزيادة ثرواتهم، وإشباع جشعهم المتنامي، وإدارة المجتمع، إلا بوجود جهاز دائم للعنف والقسر. وقد تكون هذا الجهاز تدريجاً بشكل الدولة وهيئاتها: الجيش والشرطة وجهاز الموظفين ونظام القوانين إلخ[2].

لقد ظهرت الدولة في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع، كمنظمة سياسية مكونة جزءاً من البناء الفوقي القائم على الأساس الاقتصادي للمجتمع الطبقي. وإذا كان الأساس الاقتصادي للمجتمع هو مجموع قواه المنتجة وعلاقاته الإنتاجية، فإن البناء الفوقي هو آراء المجتمع ومؤسساته التي أوجدها أساسه لكي تخدمه. وبمساعدة الدولة تحقق الطبقة المسيطرة اقتصادياً سيطرتها السياسية. إن الدولة هي آلة لصيانة سيادة طبقة على طبقة أخرى... آلة الغرض منها أن تخضع لطبقة سائر الطبقات المطوعة الأخرى. والدولة في المجتمعات الاستثمارية هي جهاز الظلم والاستثمار الطبقي.

إن الطرز التاريخية المختلفة للدول الاستثمارية تتميز بعضها من بعض. غير أن جوهرها واحد: الأقلية المستثمِرة تسيطر على الأكثرية المستثمَرة.

ويعرف التاريخ القديم بعض الأشكال الرئيسية التي تكونت فيها الدولة على أنقاض النظام البدائي. وقد وجدت أبسط أشكال الدولة في الرق القديم: مصر وبلاد ما بين النهرين والهند والصين وغيرها من البلدان. وقد أخذت الدولة هناك، حين كانت سيطرة الدين واستبداد السلطة المركزية، شكل سلطة الملك المطلقة "المعصومة" على كل السكان والتي كانت تمثل في الأساس شكل سيطرة ملاك العبيد وأرستقراطية الكهّان على جماهير العبيد

(1) غنيم، أحمد محمد: تطور الملكية الفردية، ص 28.

(2) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ص 83.

والفلاحين الفقراء والحرفيين الكادحين. وقد عمل تكون الأديان الواسعة الانتشار على تقوية تأثير الكهنوت في حياة الدولة، كما عمل على تقوية نفوذ الملك، وعلى إظهاره في عيون الناس كمخلوق فوق الطبيعة منحدر من أصل إلهي "ابن السماء".

إن ظهور الدولة نفسه يعني الاعتراف بأن المجتمع يتخبط في تناقضاته الداخلية التي ليس لها حل، وأنه قد انقسم إلى طبقات متعادية لا تتفق. وهكذا أيضاً، مع ظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة، ينشأ النضال الطبقي الذي يؤلف القوة الأساسية المحركة للتقدم البشري والتاريخي.

إن تاريخ مجتمع الرق بأكمله حافل بالصراع بين الطبقات. وقبل كل شيء بين العبيد ومالكيهم. والنضال الطبقي هو نتيجة للتضاد في الوضع الاقتصادي والتناقض بين مصالح مختلف الطبقات. أما المصالح الطبقية فيحددها وضع الطبقة المعنية في نظام الإنتاج الاجتماعي. فقد كان العبيد محرومين من أية ملكية، وكانوا أنفسهم ملكية لأسيادهم ويتعرضون لأشنع استثمار في التاريخ، ولهذا كانوا معنيين موضوعياً في تصفية أسلوب الإنتاج الذي زج بهم في هذا الوضع. وعليه كان العبيد طبقة ثورية، برغم أن ثوريتهم كانت تحمل طابعاً محدوداً.

وكانت الثورات المسلحة التي قام بها العبيد في الدول القديمة في أفريقيا وآسيا الشكل الأكثر سطوعاً لتجلي النضال الطبقي مثلاً: في عهد الإمبراطورية المصرية القديمة، اندلعت ثورة جبارة في القاعدة اشتركت فيها إلى جانب العبيد جماهير الفلاحين في الأرياف والحرفيون في المدن، أي جميع الفئات المستعبدة والمظلومة التي لا تملك شيئاً ضد الطبقة الحاكمة والأرستقراطية السائدة المالكة لوسائل الإنتاج[1].

لقد كان تحطيم الانتفاضات ممكناً لأن المشتركين فيها كانوا يفتقرون الى التنظيم والضبط الضروريين، ولأن قواهم كانت مبعثرة ولم يكن بوسعهم الصمود في وجه الفرق

(1) انظر لاحقاً الفصل الحادي عشر، الحركات الشعبية.

المسلحة تسليحاً جيداً للطبقة السائدة. وفي ذلك الوقت لم تكن توجد ولا كان بوسعها أن توجد ظروف واقعية من أجل تصفية استثمار الإنسان للإنسان[1].

ولكن رغم الهزيمة، اتسمت انتفاضات المشاعيين البسطاء والحرفيين والعبيد بأهمية تقدمية كبرى، إذ إنها خففت من وطأة الاستثمار.

وكانت هذه الانتفاضات أول تجربة لنضال الجماهير العاملة في سبيل انعتاقها وتحسين ظروف حياتها. وحتى النجاحات الموقتة للانتفاضات كانت تؤدي إلى بعض التحسن في وضع المنتجين المباشرين مما ساعد على تطور القوى المنتجة.

وكان نضال الجماهير العاملة ضد وحشية مستثمريهم قد هزّ مجتمع العبودية وكانت تلك الانتفاضات بأغلبيتها الساحقة تمنى بالفشل وتسحق دون رحمة، لكنها تمكنت من أن تنسف تدريجاً دعائم المجتمع العبودي وتقوضه.

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 83.

الفصل الثالث

ثقافة عصور ما قبل التاريخ

1 - نشوء وتطور التفكير والكلام واللغة: نشأ التفكير نتيجة النشاط العملي للناس الأوائل. ففي مجرى العمل والتأثير النشيط في الطبيعة كانت تتطور كل عضوية الإنسان ويغتني عقله.

لقد أخذ دماغ الإنسان يعمم الظواهر ويربطها بسلسلة منطقية من التفكير نتيجة لتراكم الانطباعات عن الطبيعة المحيطة بالإنسان وتجمع العادات خلال عصور مديدة. وبدأ الإنسان يتنبأ بنتائج أعماله، ويدرك الطبيعة المحيطة به ويعرفها، فتعرف الى خصائص المواد كالحجارة والأخشاب التي كان يصنع منها أدواته. وكذلك تعرف الى طبائع الحيوانات فاستطاع اصطيادها، كما تمكن أيضاً أن يميز بين الثمار والخضروات والجذور النباتية الصالحة وغير الصالحة للأكل. ولكن بالنظر الى المستوى البدائي إلى أقصى حد لتطور القوى المنتجة والناس أنفسهم وعجزهم أمام قوى الطبيعة، كان تفكيرهم محدوداً أيضاً.

وساعد العمل أيضاً على تطور النشاط النفساني عند الإنسان، هذا النشاط الذي يقوم على عمليات فيزيولوجية معينة تجري في الدماغ البشري. فبدون الدماغ المادي والعمليات الفيزيولوجية الجارية فيه، تستحيل حتى أبسط أشكال النشاط النفساني لدى الإنسان.

وفي سياق النشاط العملي، نشأ أيضاً الكلام وتطور. ولما كان العمل دائماً عملاً اجتماعياً، لهذا برزت لدى الناس في مجرى العمل الجماعي الحاجة إلى التعارف والاتفاق

والتفاهم وتبادل الأخبار والخبرات فيما بينهم، إلى قول شيء ما بعضهم لبعض. ومن ناحية ثانية، تميز الإنسان من الحيوان بأجهزة صوتية مرنة. وقد تطورت تلك الأجهزة مع تطور جسم الإنسان خلال العمل والنشاط المستمر، وتحولت الحنجرة تدريجاً إلى عضو قادر على اللفظ بأصوات مفصلة. وهكذا نشأ بصورة تدريجية الكلام المفصل - اللغة - واسطة تبادل الأفكار، ووسيلة التعارف والمعاشرة بين الناس.

وقد اتسم نشوء الكلام وتطوره بأهمية كبيرة بالنسبة الى تطور المجتمع لاحقاً. إذ إنه ساعد على توحيد جهود الناس أثناء العمل، وكذلك على تنظيم العمل الجماعي. فبمساعدة الكلام كان الناس يحفظون الخبرة الإنتاجية المكدسة وينشرونها وينقلونها إلى الأجيال الجديدة.

وبما أن الناس كانوا يعيشون قديماً جماعات صغيرة، مغلقة، فإن لغة كل من هذه الجماعات كانت تتطور من حيث الأساس بصورة مستقلة وتتميز من لغات الجماعات الأخرى[1].

وقد مرت اللغات بعدة مراحل من التطور، وفي نهاية العصر الحجري الحديث ومطلع عصر المعادن تشكلت الأسرات اللغوية الرئيسية المعروفة وهي:

1 - أسرة اللغة الهندو-أوروبية.

2 - أسرة اللغة التركية – المنغولية .

3 - أسرة اللغة الصينية – التيبتية.

4 - أسرة اللغة السامية – الحامية.

5 - أسرة اللغة الفنلندية - الأغورية[2].

2 - المعارف العملية: في سياق النشاط العملي وإتقان أدوات العمل وتطور القوى المنتجة أحرز الإنسان انتصاراته الأولى على قوى الطبيعة، وكدس خلال مسيرته النضالية

(1) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ص 9 - 11.

(2) د.فرح، نعيم: المصدر السابق. ص 25.

الطويلة والشاقة أكواماً من التجارب والخبرات والمهارات. وبمساعدة نشوء الكلام كان الناس يحفظون الخبرة الإنتاجية المكدسة وينشرونها وينقلونها إلى الأجيال الجديدة.

لقد أدى نمو القوى المنتجة إلى تطور الحياة الروحية لدى المجتمع البشري. وإن إتقان صنع أدوات الصيد والسماكة وممارسة الزراعة وتربية الماشية وتحسين صنع الأدوات الحجرية، عن طريق صقلها بصورة جيدة واختراع الأدوات المعدنية وبناء المساكن وصنع الفخار والنسيج، كل ذلك وسع تدريجاً الخبرة التقنية عند الإنسان وأغنى حياته الروحية.

ففي مجرى العمل، بدأ الناس الأوائل يتعلمون أنه بمقدار إتقان أدوات العمل كانت حياتهم تتغير، ولو أن ذلك التغير كان طفيفاً بالنظر الى المستوى البدائي إلى أقصى حد لتطور القوى المنتجة والناس أنفسهم، وبإنتاجية عملهم المنخفضة للغاية.

وكم هي أساسية وهامة المعارف العملية التي جمعها الناس الأولون خلال عشرات الألوف من السنين اعتباراً من استعمال العصا الحجرية الغليظة ومروراً بالمعزقة والفأس ثم إلى المحراث الذي تجره الحيوانات بالإضافة إلى استخدام مناجل الحصاد ذات الحد الحجري أولاً والمعدني فيما بعد إلى استعمال الأدوات النحاسية فالبرونزية.

وكان اكتشاف النار واستخدامها بصورة اصطناعية حدثاً هاماً في تاريخ البشرية. إذ استعملها الإنسان كوسيلة لطهو الأطعمة اللحمية والنباتية، وكمصدر للتدفئة والإنارة، وكأداة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة، وكذلك من أجل إعداد بعض الأدوات، وتكييف الحجارة. كذلك ساعدت النار على اكتشاف الخزف المشوي الذي صنع منه الإنسان مختلف الأوعية وزينها بالرسوم[1].

وقد سجل الإنسان باختراعه القوس والنشاب نصراً جديداً في سياق نضاله مع الطبيعة. فقد كان القوس والنشاب أقوى سلاح في أيدي الناس الأقدمين وأبعده مدى. وإن ظهوره سهل بصورة ملحوظة نضال الإنسان ضد قوى الطبيعة. وازدادت أهمية الصيد في حياة المجتمع البشري زيادة كبرى. فكان الصيد يقدم للإنسان كل ما هو ضروري من أجل حياته: الطعام اللحمي، اللباس من الجلود، القرون والعظام لصنع السلاح وأدوات العمل.

---

(1) المصدر السابق، ص 23.

إن الانتقال من جمع النباتات إلى الزراعة البدائية لم يكن ممكناً إلا باختراع أدوات مختصة بفلاحة الأرض مثل العصا الحفارة والمعزقة وكذلك بفضل التجربة والمهارات المكدسة في غضون سنين طويلة من عمليات جمع النباتات. وبظهور الزراعة اتسع مجال النشاط العملي عند الإنسان اتساعاً ملحوظاً. فقد اكتسب عادات في العمل وتجارب جديدة، وأخذ يعرف بمزيد من العمق سنن تطور الطبيعة ويصنع أدوات جديدة للإنتاج. واتسمت تربية الماشية بأهمية كبرى بالنسبة الى تطور الإنسان، إذ استخدمها كمصدر مضمون لغذائه من اللحم والحليب، ولصنع لباسه من الجلد والصوف، وعمل سلاحه وأدواته من القرون والعظام، كما استعملها في أعماله الزراعية وفي النقل. وشيئاً فشيئاً ومع إتقان أدوات العمل طور الإنسان مسكنه. فبينما كان يلجأ إلى الكهوف والأشجار الكثيفة أصبح في العصر الحجري الحديث يبني المساكن من الأخشاب والطين والحجارة ويحصنها بالسياجات الخشبية والأسوار الترابية والخنادق لتحميه من الحيوانات والأعداء[1]. ومنذ نشوء المنتوج الزائد وقيام المبادلات التجارية، بدأ الناس الأولون يجمعون تجاربهم عن عمليات التبادل التي ازدادت غنى ونمواً مع الزمن.

وهكذا فإن ذلك التطور الكبير الذي مر به الإنسان في عصور ما قبل التاريخ لم يكن ليتم دون تراكم التجارب والخبرات والمهارات في مختلف أنشطة الإنسان.

3 - نشأة الفن وتطوره: لم يكن الفن منذ البداية سوى نسخ بشكل خاص وبالصور الفنية للواقع الحقيقي المحيط بالإنسان. وحتى أولى أعمال الإنسان البدائي الفنية لم تكن ممكنة إلا بتطور التفكير وتطور مقدرة الدماغ البشري على تكوين التصورات عن هذه أو تلك من أشياء وظاهرات الوسط المحيط بالإنسان. وكذلك لم يصبح بإمكان الإنسان تصوير الأشياء المحيطة به في إبداعاته إلا عندما بلغت أعضاؤه وخصوصاً يده درجة عالية من الإتقان، وعندما تطورت أدوات العمل تطوراً كافياً[2]. وهكذا فإن الفن نشأ ونما في المجتمع البدائي من خلال المتطلبات الاجتماعية وعكس علاقة الإنسان بالإنتاج.

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق، ج1، ص 42.

كانت الحجارة والصخور بقسماتها الغريبة تذكر الإنسان بهذه الحيوانات أو تلك، وكان الإنسان يحاول جاهداً لكي يضفي عليها شبهاً أكثر. وكان الفنانون الأوائل، طبقاً لفكرتهم عن الحيوانات، يغيرون شكل الحجارة ويصبغونها. وفيما بعد استطاعوا تصوير الناس، ورسم لوحات من حياة الإنسان على جدران الكهوف ومنحدرات الصخور بواسطة أبسط الرسمات التخطيطية المغطاة أحياناً بصبغة معدنية[1]. وكانت الصبغة المعدنية تؤلف من المغرة الحمراء والصفراء وأكسيد المنغنيز الأسود وغيرها.

بدأ فن التصوير في العصر الحجري القديم، ولكن التصوير الحقيقي نشأ في العصر النيوليتي. وقد وجدت معظم الصور في الكهوف، لذا يطلق على ذلك الفن اسم فن الكهوف[2]. وكانت الصور تمثل الماموت والحصان والأيِّل وغيرها من الحيوانات التي تعبر عن نشاط الإنسان الاقتصادي المتمثل في الصيد. وكانت الحيوانات ترسم بحجمها الطبيعي[3]. كما كانت تلك الصور تمثل النساء، مما يدل على استمرار نظام الأمومة. وعندما اكتشف الإنسان صناعة الخزف أخذ يزين الأواني الخزفية بصور ورسوم جميلة كما تطلعنا على ذلك المكتشفات الأثرية.

ونحت الفنانون الأوائل تماثيل من عظام الماموت أو الحجارة الطرية أو العاج لأغراض من بينها الأمور الدينية.

من الأعمال الفنية التي عثر عليها علماء الآثار والتي تعود إلى الفترة المجدلانية من عصور ما قبل التاريخ تماثيل صغيرة منحوتة من الحجر أو العاج[4] ورسوم كهف التاميرا على الساحل الشمالي لأسبانيا وهي تمثل بعض الثيران الوحشية والخيول والخنازير البرية[5].

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د.فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 25.

(3) المصدر السابق، ص 26.

(4) هاوك، وليام: ما وراء التاريخ. ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد. ص 148.

(5) المصدر نفسه، ص 149.

وكانت هذه الرسوم ملونة (في الأصل) باللون الأسود أو الأحمر أو باللونين معاً[1]. وهناك مجموعة أخرى من الرسوم عثر عليها في كهف فون دي جوم الكائن على مقربة من ليزيزي في إقليم دوردوني بجنوب فرنسا تمثل ثيراناً وحشية وذئباً ووعول رنة. وصورة الثور لا تدع مجالاً للشك أن المنطقتين كان لهما ثقافة واحدة على الرغم مما بينهما من اختلافات محلية. وفي رسم الذئب شيء من النزعة الإيحائية. أما رسما وعلي الرنة اللذين يخر أحدهما على الأرض ليرعى، فهما متناهيان في الروعة[2]. وعثر الدكتور موفيوس على حصاة كبيرة مغطاة بصور الحيوانات التي نحتت إحداها فوق الأخرى، وهو يذهب إلى أنها كانت بمثابة كراسة الرسوم التمهيدية عند الفنان الحديث[3].

وعرف الإنسان البدائي الوشم واستخدمه لتزيين جسده[4]. وتحلى بالأساور والقلائد[5].

ومن فنون الإنسان البدائي الغناء والرقص والموسيقى، وكان الناس الأولون يحبون الغناء ليعينهم على الاستمرار في العمل الذي يزاولونه. وكانوا يغنون ويرقصون قبل أن يتوجهوا إلى الصيد أو الحرب، كما كانت المحافل والطقوس الدينية مزيجاً من غناء ورقص وتمثيل[6]. ومع الغناء والرقص نشأ العزف الموسيقي على آلات الدق (كالطبول والصنوج) وآلات النفخ (كالأبواق والمزامير والنايات) والآلات الوترية (كالعود والقانون) [7]. وكانت الآلات الموسيقية تصنع من قرون الحيوانات وجلودها ومن الخيزران والخشب ثم من النحاس والعظام والأوتار وغيرها[8].

---

(1) هامرتن، ع. 1: تاريخ العالم، ج1، ص 273 – 275.

(2) المصدر نفسه، ص 276.

(3) هاوك، وليام: المصدر السابق، ص 256.

(4) هاوك، المصدر السابق، ج1، ص 310.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق،ص 48.

(6) د.فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 26.

(7) هامرتن: المصدر السابق، ج1، ص 309.

(8) د.فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 26.

4 - نشأة الديانة وتطورها: الديانة هي الاعتقاد بوجود آلهة وارواح. وهناك نظريتان حول نشأة الديانة هما:

النظرية المثالية: وتتلخص في أن العقائد الدينية نشأت نتيجة لتأملات الإنسان البدائي.

النظرية العلمية: وتقول إن الديانة نشأت ليس نتيجة لتأملات الإنسان القديم وإنما نتيجة لنشاطه العملي.

ترجع أصول الديانة البدائية إلى 50 أو 40 ألف سنة قبل الميلاد. ورغم أن الناس الأقدمين قد أحرزوا انتصارات عديدة على قوى الطبيعة، إلا أنهم مع ذلك كانوا لا يزالون ضعفاء، عاجزين أمامها. وكانت قوى الإنسان وتجربته ومعرفته للطبيعة بعيدة عن أن تكون كافية لتكوين تصور صحيح عن الواقع المحيط. ولم يكن بوسع الإنسان البدائي أن يوضح توضيحاً صحيحاً صلة وتتالي ظاهرات الطبيعة وتأثيرها في حياة الناس.

وكان الإنسان ضعيف التسلح إلى أقصى حد، وكان على الدوام يشعر بعجزه عن النضال ضد الطبيعة وفي أوقات الكوارث الطبيعية - الفيضانات، ثورانات البراكين، حرائق الغابات، الجفاف، الجوع - أرغم عجز الإنسان هذا، ومعرفته الضعيفة لقوانين الطبيعة على افتراض وجود قوى خيالية لا يفهمها تقوم بإدارة الظاهرات الطبيعية.

إن التصورات الدينية التي ظهرت كانت انعكاساً خيالياً مشوهاً في رؤوس الناس البدائيين لقوى حقيقية تماماً كانت تسيطر على حياة الإنسان اليومية.

وبما أن الإنسان البدائي غالباً ما كان عاجزاً عن الصمود في وجه الضواري الهائجة، وكانت حياته متوقفة على صدف الصيد: فإنه بدأ ينسب خصائص خيالية إلى الوحوش البرية. وقد فكر الإنسان البدائي بأن للوحوش والناس أسلافاً مشتركين وأن الوحش يعيل الإنسان مقدماً له لحمه.

وهذا التصور الخيالي عن الحيوان كسلف وحام لجنس معين من الناس المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بهذا الحيوان والتابعين له أطلق عليه اسم "الطوطمية" التي كانت من أبرز أشكال العقائد الدينية في المجتمع البدائي.

وقد نشأت الطوطمية في مرحلة الجمع والصيد. وكان لكل قبيلة طوطم خاص يعتقد

أفرادها أنهم انحدروا منه جميعاً، كما كانت القبيلة تحمل اسم ذلك الطوطم[1]. وفيما بعد لم يعد الحيوان وحده يعتبره الناس طوطماً وسلفاً وحامياً، وإنما أصبحت كذلك الأشجار والأعشاب. وبغية ضمان الحماية من الوحوش الضارية ومعيشة أفضل والتوفيق في الصيد، اعتبر الإنسان أنه من الضروري نيل المساعدة من الطوطم الذي اختلقه خياله.

وكان الإنسان يغمر الطوطم بلطفه وعطاياه ويتوجه إليه بكلمات الاستعطاف. وشيئاً فشيئاً اتخذت هذه التوجهات إلى الطوطم شكل عادات معينة تسمى سحر وشعوذة الصيد.

ومن أشكال الدين الأكثر انتشاراً كان الاعتقاد بوجود "أرواح" (مختلف الأرواح الخيرة والشريرة، العفاريت، الآلهة، إلخ...) غير مرئية وغير مادية منسوبة إليها خصائص خارقة. إن هذا الاعتقاد ينبع من عدم فهم الإنسان لطابع ظواهر الطبيعة التي كان وكأنه يشبهها بنفسه ويجعل لها روحاً ويصورها بشكل كائن غير مادي تلازمه خصائص بشرية ويمتلك قوة خيالية. ومن هذا القبيل الاعتقاد بالمبدأ الروحي للحياة والموت.

وقد اعتقد الناس البدائيون بوجود روح داخل الإنسان تنفصل عنه عند الموت. كما اعتقدوا أن كل شيء في الطبيعة له روح أيضاً كالجبال والأنهار والأشجار والنجوم والشمس والقمر وغير ذلك. وعبد الإنسان القديم تلك الأرواح لاعتقاده بوجود قوة غير طبيعية فيها. كذلك كان يجسد تلك الأرواح بأشياء مادية ترمز إليها ويصنعها من الحجارة أو الخشب أو غير ذلك (فيتيش)، وكان الإنسان يحمل معه ذلك الفيتيش لاعتقاده بأنه يحميه من الأضرار والأخطار ويجلب السعد إلى صاحبه[2]. وأخذ يعمل على إرضاء الأرواح بتقديم القرابين والضحايا لها[3].

وكان في اعتقاده أن الأرواح الخيرة تضمن له التوفيق في الصيد وجمع الغذاء، في حين أن الأرواح الشريرة تجلب له الكوارث والمصائب والأوبئة. وكانت الأرواح الرئيسة، الآلهة، تدير قوى الطبيعة: شروق الشمس، المطر، الرياح، الصاعقة، تبدل الفصول إلخ...

---

(1) الطوطم: حيوان أو نبات تنتحل القبيلة صورته شعاراً لها.

(2) د.فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 28.

(3) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وعن الاعتقاد بالقوة السحرية الخارقة التي تستطيع التأثير في حياة الناس، نشأت مختلف الرقى والحجب. وكان السحر يعني الاعتقاد بمقدرة الإنسان على إثارة قوى خيالية. وقد انتشر السحر على نطاق واسع في المجتمعات البدائية، وكان له تأثير كبير في مختلف نواحي حياة الانسان[1]. في أول الأمر، كان كل إنسان يستطيع ممارسة السحر. ولكن فيما بعد أصبح السحر مقتصراً على جماعة معينة من الكهنة والسحرة والعرافين الذين احتكروا العمليات السحرية وعقدوها وأحاطوها بهالة من الغموض والتضليل[2].

إن الاعتقاد بقدرة التأثير في الطبيعة بواسطة السحر لضمان التوفيق في الصيد والجمع والسماكة أفضى في نهاية المطاف إلى تشديد تبعية الناس الأولين للطبيعة، وصرفهم عن الالتفات إلى حاجاتهم الحقيقية واستنزف طاقاتهم الخلاقة.

وعندما تطورت الزراعة وتربية المواشي وانتقل الإنسان من مرحلة جمع الغذاء إلى مرحلة إنتاجه، أخذ يعبد بالدرجة الأولى قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والمطر والأنهار والينابيع والأرض وغيرها لما لها من تأثير في حياته ومعاشه.

ومع الزمن أخذت تتلاشى الآلهة الحيوانية لتحل محلها الآلهة البشرية أو حسب تعبير ول ديورانت "أصبح البشر آلهة"[3]. وحين نشأت الدولة العبودية المركزية الموحدة أصبح لشعبها إله (صنم) رئيسي يعبده، له السيادة على غيره من المعبودات الثانوية الأخرى تماماً كما أصبحت للملك السيادة على غيره من الرعايا والأتباع. وعبادة الأصنام من أشكال الدين أيضاً. وهي تعني نسبة قوى خارقة إلى الأشياء المادية قادرة على التأثير في الإنسان. وتعني عبادة هذه الأشياء.

وبما أن الناس الأقدمين كانوا عاجزين عن تفسير موت الإنسان، فقد أخذوا يخافون من الأموات خوفاً خرافياً ولا سيما من أولئك الذين كانوا يرعبونهم عندما كانوا أحياء، من المحاربين البارزين والزعماء. وأخذوا ينسبون إلى أجساد الموتى وحتى إلى صورهم

---

(1) المصدر نفسه، ص 29.

(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(3) قصة الحضارة، ج2، ص 159.

صفات خارقة. وفيما بعد تكوّن تصور خيالي عن عالم آخر تسكنه أرواح الموتى. وقد تجلى السعي إلى إرضاء قوة ما خارقة بشكل تقديم القرابين المادية الصرف.

وعلى هذا النحو كان ظهور العقائد الدينية القديمة نتيجة لعجز الإنسان أمام الطبيعة. وقد كرست الديانة البدائية عجز الإنسان أمام الطبيعة، العجز الذي كانت الديانة نفسها انعكاسه. وقد ساعدت هذه العقائد على الإبقاء على هذا العجز لأنها حالت دون معرفة العالم، وشغلت الإنسان عن دراسة ظواهر الطبيعة والبحث عن التفسير الحقيقي لها وعرقلت بذلك تطوره الصاعد. واستغل الكهنة الدين لمصالحهم ومصالح الطبقة السائدة والمسيطرة على المجتمع.

5 - المعارف العلمية: تكدست لدى الناس الأولين معارف علمية هامة من خلال النشاط العملي المستمر وملاحظتهم الطبيعة المحيطة بهم. فقد نشأ علم الفلك من ملاحظة الفلاحين حركة الكواكب والنجوم. ونشأت الهندسة عن قياس الأرض المزروعة عندما بدأ الإنسان يمارس الزراعة. وترقى بدايات علمي النبات والحيوان إلى مرحلة الصيد والجمع حين ميز الإنسان البدائي الحيوانات والنباتات الصالحة وغير الصالحة للأكل وتعرف تدريجاً الى خصائص كل منها. ونشأ الطب من الخبرات المتراكمة. ولكن الإنسان البدائي ظل يجهل أسباب المرض فظن أن روحاً شريرة تدخل الجسم فتمرضه، لذلك استعمل السحر في معالجة المرض[1]. ومن العدّ نشأ علم الحساب. بيد أن الإنسان البدائي لم يعرف إلا الأعداد البسيطة.

وفي عصور ما قبل التاريخ، لم يسجل الإنسان شيئاً عن المعارف العلمية، بل اقتصر على ممارستها عملياً، إذ لم يكن يعرف الكتابة بعد.

6 - نشوء الكتابة وتطورها: إن استعمال الأدوات والتحسين المستمر للأدوات الحجرية والتطور الذي حدث في مختلف فروع الاقتصاد وفي حياة الناس المادية والفكرية هيأ بدوره أفضل الظروف لاختراع الكتابة.

(1) د.فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 30.

وقد عنى اختراع الكتابة، حوالى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، نهاية لعصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية.

والكتابة تدوين للغة ووسيلة لتسجيل أفكار الناس ونقلها إلى الأجيال اللاحقة.

وتطورت الكتابة منذ نشوئها بعدة مراحل، ففي المرحلة الأولى كانت تصويرية، أي رسم الصور الحقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها أو تدوينها. وفي المرحلة الثانية أصبحت رمزية أو فكرية، أي جاءت الصور تنقل أفكاراً معينة. وفي المرحلة الثالثة، أصبحت صوتية، أي جاءت بعض الصور تعبر عن أصوات معينة. وفي المرحلة الرابعة صارت مقطعية. ثم جاءت الكتابة الأبجدية في المرحلة الخامسة. وهنا أصبحت الأصوات تمثل بحروف لا بمقاطع أو صور، وصار الحرف الواحد يستعمل في كثير من الكلمات. وأول من اخترع الحروف الأبجدية هم الفينيقيون، ثم أخذها عنهم اليونان والرومان والآراميون والفرس والهنود والعرب وغيرهم[1].

(1) المصدر نفسه، ص 31.

الفصل الرابع

حضارة مصر في العصور القديمة وما قبل التاريخ

الأحوال الطبيعية

تقع مصر أو كيمي - أي الأرض السوداء - بين أفريقيا وآسيا. فهي مفتاح أفريقيا من الشمال، وتلامس شبه الجزيرة العربية وسوريا الجنوبية ببرزخ سيناء. وتشرف من الشمال على البحر الأبيض المتوسط الذي فتح أمامها رحاب الاتصال التجاري والثقافي مع دول العالم القديم الواقعة في حوضه. أما في الجنوب فتتصل بالبلدان الأفريقية المجاورة الغنية بإنتاج السلع النفيسة كالعاج والأبنوس والذهب والجلود وغيرها. تتكون أرض مصر من وادٍ ضيق محصور معظمه بين صحراوين جرداوين. ولم يكن لوادي النيل الأخضر الخصيب وجود في الأزمنة الجيولوجية البعيدة. وقبل أن يكون هناك مصريون، كانت الطبيعة تهيئ لهم المكان الذي سيعيشون فيه. وأعدت ذلك العمل ببطء في مدى آلاف وآلاف السنين[1].

كان شمال شرقي أفريقيا في الماضي هضبة عظيمة من الحجر الجيري تسقط عليها أمطار غزيرة ثم تتجمع هذه المياه وتشق طريقها في اتجاهات مختلفة. فلما انتهت تلك العصور ارتفعت الهضبة شيئاً فشيئاً، كما أخذت المياه تشق طريقها إلى البحر. وكان من أثر ذلك أن تم حفر مجرى عظيم، إذ شق الماء طريقه نحو الشمال في الهضبة الجيرية مكوناً نهراً عظيماً، واستمر ذلك حتى تم حفر مجرى وادي النيل.

---

(1) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة الدكتور أحمد فخري، ص 51.

وبعد العصر المطير، أخذ الجفاف يحل في منطقة كبيرة من كوكبنا منها أفريقيا. ومع استمرار الجفاف في أفريقيا اختفت الغابات وحلت محلها أراضٍ معشبة تحولت إلى قفار، ثم إلى صحارى - الصحراء العربية (الشرقية) شرق الوادي والصحراء الليبية (الغربية) غربه.

ويمكن تقسيم مصر من حيث التضاريس ومظاهر السطح إلى أربعة أقسام هي:

1 - وادي النيل ودلتاه.

2 - الصحراء الشرقية.

3 - الصحراء الغربية.

4 - شبه جزيرة سيناء.

1 - وادي النيل ودلتاه: بدأ نهر النيل يشق طريقه في مصر في أواخر عصر الميوسين بعد أن تعرضت أرضها لحركة ارتفاع كبيرة أدت إلى انحسار مياه البحر الميوسيني عنها. ثم أخذ النهر الوليد يحفر لنفسه مجرى عميقاً في تكوينات الفترات الجيولوجية السابقة كما استطاع أن يوسع هذا المجرى ويزيد من عمقه. وتمكنت روافده العديدة التي كانت تنحدر إليه من جبال البحر الأحمر من أن تحفر لها هي الأخرى مجاري عميقة، ومعنى هذا أن نشأة مجرى النيل إنما ترجع إلى التعرية النهرية وحدها[1].

ووادي النيل عبارة عن شق ضيق يخترق مصر من الفانتين في الجنوب إلى منفيس في الشمال، أما الدلتا فهي سهل عظيم الاستواء يمتد من نهاية الوادي عند منف حتى سواحل البحر المتوسط. وكانت المنطقة التي يشغلها كل من وادي النيل والدلتا في عصر البليوسين خليجاً بحرياً يمتد على شكل ذراع ضيقة تغمرها مياه البحر. ثم امتلأ الوادي برواسب ذلك العصر وأصبح جافاً تقريباً إلا من بحيرات منعزلة قليلة الأهمية.

وقد حدث في أواخر البليوسين وأوائل البليوستوسين أن امتلأت هذه البحيرات برواسب الحصى والزلط والرمل كانت تجلبها الأنهار التي تأتي من الصحراء الشرقية والغربية وتغطي بها قاع الوادي وتملأ بها البحيرات التي كانت فيه. وكانت الأحوال المناخية في ذلك الوقت

(1) د. صفي الدين، محمد وزملاؤه، دراسات في جغرافية مصر، ص 22.

تسمح بسقوط الأمطار الغزيرة وتكوين أنهار جانبية كثيرة تغذي نهر النيل بالماء وتحمل معها الرواسب إلى منطقة الوادي.

وإلى هذا الوقت لم تكن مياه النيل تأتي من الجهات الاستوائية وهضبة الحبشة بل كانت تأتي من الأراضي الواقعة على كلا جانبيه في مصر. ولكن حدث بعد ذلك أن استطاعت مياه الجهات الاستوائية ومياه هضبة الحبشة أن تشق لها طريقاً نحو الشمال إلى مجرى النيل في مصر وتصل عن طريقه إلى البحر المتوسط. واستطاعت تلك المياه أن تحمل لمصر رواسب تلك الجهات وبنوع خاص طبقة الطمي الرقيقة التي تغطي قاع وادي النيل وأرض دلتاه[1].

يمتد وادي النيل من الجندل الأول عند آبو (الفانتين) إلى رأس الدلتا بالقرب من منف، ويبلغ طوله حوالي تسعمائة كيلومتر، ويراوح عرضه بين (10 - 30) كيلومتراً، ولكنه قد يصل في بعض الجهات الى عرض المجرى المائي فقط. هذه هي الأرض الجنوبية أو "تاشمع" كما سماها قدماء المصريين.

أما الدلتا، فكانت في أول الأمر خليجاً بحرياً ملأه النيل بطميه حتى أصبح أرضاً منبسطة كان النيل يتفرع فيها إلى عدة أفرع على شكل مروحة أو مثلث أطلق عليها اليونان اسم "دلتا" نسبة إلى أحد أحرف هجائهم المثلث الشكل. ولم يبق الآن من أفرع النيل السبعة إلا اثنان يحددان الدلتا هما فرع رشيد (الغربي) وفرع دمياط (الشرقي).

والدلتا في مجموعها تنحدر انحداراً تدريجياً نحو البحر المتوسط حتى إذا لاقته كانت في مستواه تقريباً، وقد يبلغ مستوى بعض الأراضي الشمالية للدلتا منسوباً أقل من مستوى مياه البحر[2]. وكانت الدلتا طافحة بالمستنقعات والبحيرات، وغير مزروعة[3]. هذه هي الأرض الشمالية أو "تامح" كما سماها قدماء المصريين.

واعتباراً من الألف الخامس قبل الميلاد، أخذ سكان الهضبة ينزلون إلى وادي النيل

(1) د. متولي أحمد، وجه الأرض، ص 414 - 415.

(2) المصدر السابق، ص 418.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 137.

بالقرب من موارد الماء. وبفضل عمل الناس، تغيرت معالم الوادي ودلتا النيل وأصبحت مصر أحد أقدم مواطن الحضارة البشرية.

وقد اكتشف علماء الآثار عدداً من المراكز الأثرية (محطات حضارية) في الدلتا والوادي والفيوم تعود مخلفات الإنسان فيها إلى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات. وتمثل المحطتان الحضاريتان في الوجه البحري! حلوان الأولى (العمري) ومرمدة بني سلامة العصر الحجري الحديث. في حين تمثل المحطتان الحضاريتان الأخريان في الدلتا! حلوان الثانية والمعادي عصر ما قبل الأسرات. أما الوادي فتمثل فيه المحطتان الحضاريتان دير تاسا والبداري العصر الحجري الحديث. في حين تمثل حضارة العمرة وجرزة والسمانية عصر ما قبل الأسرات. وترقى المواد الأثرية المكتشفة في الفيوم إلى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات[1].

2 - الصحراء الشرقية: تشغل الصحراء الشرقية المنطقة الممتدة بين وادي النيل وبين البحر الأحمر وخليج السويس وانحدارها العام من الشرق، وتطل على الوادي في الغرب بحافات مرتفعة تتميز بأنها كثيرة التقطع والثغرات التي ما هي في الواقع إلا مصبات الأودية التي تنحدر إلى الوادي من جبال البحر الأحمر[2]. وللصحراء الشرقية سلسلة فقرية تتمثل في جبال البحر الأحمر التي تمتد موازية لها.

وقد تأثرت الصحراء العربية (الشرقية) كثيراً بالتعرية المائية خلال العصور المطيرة، فقطعتها مجاري الأنهار القديمة تقطيعاً شديداً.. وهذه المجاري تتمثل اليوم في الأودية الكثيرة الجافة التي تمزق سطح الهضبة ولا تزال تجري في بعضها بين حين وآخر مياه السيول التي تجري في الصحراء الشرقية.

وقد اهتم فراعنة مصر بهذه المنطقة بالنظر إلى وجود الذهب والأحجار فيها. وتقع معظم

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، ج1، ص 523. انظر سليم حسن: مصر القديمة، ج1، ص 59 – 63.

(2) د. صفي الدين، محمد وزملاؤه: المصدر السابق، ص 52.

مناجم الذهب في جهات نائية. وتذكر النصوص والوثائق أن قدماء المصريين استغلوا ذهب الصحراء الشرقية وحصلوا منها على مقادير كبيرة[1].

3 - الصحراء الغربية (الليبية): وتمتد في مصر من وادي النيل شرقاً حتى الحدود المصرية- الليبية. وتبلغ مساحتها ثلثي مساحة مصر. وهي عبارة عن هضبة صحراوية متسعة متوسطة الارتفاع تحتوي على عدد كبير من المنخفضات والكثبان الرملية. ويعتبر منخفض الفيوم أهم منخفضات الصحراء الغربية. وهوي يشبه في كثير من الوجوه بقية المنخفضات الشمالية في الصحراء الغربية في وقوع كثير من أجزائها تحت سطح البحر، وفي انحدارها العام نحو الشمال، وإحاطتها بحيطان وهضاب مرتفعة في معظم جهاتها، وفي أنها تعتبر مناطق ذات تصريف داخلي.

ولكن منخفض الفيوم رغم هذا، يختلف عن هذه المنخفضات في أنه يتصل بالنيل من طريق أحد أفرعه القديمة التي تدخل المنخفض من فتحة طبيعية تعرف بفتحة "اللاهون"، وفي أن تربة إقليم الفيوم مكونة هي الأخرى من طمي النيل مثلها في هذا كمثل تربة الوادي والدلتا.

ومنخفض الفيوم هو أجمل واحة في الصحراء الغربية وذو قيمة اقتصادية كبرى. وتشير المكتشفات الأثرية في إقليم الفيوم الى أن سكان هذه المنطقة بدأوا بمزاولة الزراعة منذ العصر النيوليتي مستفيدين من السيول التي كانت تنحدر من الجبال لري حقولهم.

وقبل حكم الأسر، كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محولاً إياه إلى بحيرة عظيمة. وقد أنشأ فراعنة الأسرة الثامنة عشرة سدوداً لتخزين مياه الفيضان، وجففوا المستنقعات واستصلحوا أراضي لحقية على جانب عظيم من الخصب. ومن أجل ذلك صار إقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانياً وسياسياً[2].

4 - شبه جزيرة سيناء: وهي هضبة مثلثة الشكل تقع شمال شرقي مصر، رأسها في

(1) المصدر نفسه، ص 354.

(2) انظر ص: 106 - 107.

لجنوب ويجاورها خليجا العقبة والسويس من الشرق والغرب، وقاعدتها في الشمال تطل على البحر المتوسط.

والقسم الجنوبي من سيناء عبارة عن منطقة جبلية صلبة وعرة، استطاعت أن تقاوم عوامل التعرية. ولذا تبدو على هيئة قمم شاهقة. والأودية كثيرة في هذا الجزء. ويقع القسم الأوسط شمالي المنطقة السابقة ويعرف بهضبة التيه التي تحتل حوالى ثلثي شبه الجزيرة، وتنحدر تدريجاً نحو البحر المتوسط في الشمال. وينحصر القسم الشمالي بين هضبة التيه والبحر المتوسط. وهو عبارة عن منطقة سهلية تمتد بموازاة ساحل البحر، تنتشر على سطحه كثبان رملية يراوح ارتفاعها بين (80 – 100) متر. ولهذه الكثبان طاقة كبيرة على امتصاص المياه التي تسقط شتاءً بفعل الأعاصير واختزانها، فيتكون من ذلك مورد هام للمياه في هذه المنطقة المجدبة. ولعل ذلك كان السبب في أن السهل الساحلي كان طريق الاتصال بين مصر والشرق الأدنى. وقد سلكته الغزوات المختلفة التي هاجمت مصر من الشرق، كما تبعته الحملات الكثيرة التي وجهها الفراعنة للتوسع في الشرق الأدنى منذ فجر التاريخ[1].

وقد ألحق ملوك الأسرتين الأولى والثانية شبه جزيرة سيناء بالإمبراطورية المصرية الناشئة، وشرعوا في استثمار النحاس والدهنج والفيروز[2].

وكان للصحارى، المحيطة بالوادي ودلتاه، من الشرق والشمال الشرقي والغرب، بالإضافة إلى ثرواتها من معادن وأحجار، أهمية كبرى في حماية المصريين من الغزاة ورد هجمات المغيرين، وكانت بذلك حصناً طبيعياً ساعد سكان الوادي ودلتاه على التطور السريع وإنشاء حضارة متقدمة من الناحية الاقتصادية والثقافية.

وهناك من يقسم سطح مصر إلى قسمين مختلفين هما: مصر العليا (الوادي أو الوجه القبلي أو الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا أو الوجه البحري).

---

(1) د. متولي أحمد: المصدر السابق، ص 425.

(2) انظر ص 74.

لقد أوجدت الطبيعة بلاداً مصرية وبلاداً مصرية أفريقية، والفروق بينهما كثيرة وكانت من العوامل التي أثرت في تاريخها البشري والميتولوجي[1].

بيد أنه رغم التباين بين المنطقتين لا يمكن الفصل بينهما. فالدلتا تنقصها موارد الوادي، والوادي بحاجة إلى الدلتا لأنه ليس له ساحل ولا يكون بدونها إلا ممراً لا منفذ له إلى آسيا وأوروبا. ومما لا ريب فيه أن العنصر الأساسي في وحدتهما هو نهر النيل، فهما والحالة هذه كالزهرة وساقها لا معنى للثانية بدون الأولى ولا حياة للأولى إذا قطعت عنها المادة التي فيها حياتها وغذاؤها[2].

مناخ مصر جميل معتدل الحرارة والرطوبة بوجه عام. حقيقة إن الصيف حار وخصوصاً كلما اتجهنا جنوباً، ولكن الرياح التي تهب من الشمال تخفض من وطأة أشعة الشمس. أما المدة من تشرين الأول/ أكتوبر إلى نيسان/ أبريل فالمناخ لطيف منعش، وفوق ذلك فإن السماء صافية والشمس ساطعة طوال أيام السنة تقريباً، وهي تضيء وتدفئ مصر وتمنحها إقليماً ضاحكاً. فالمصريون مدينون للشمس بإقليمهم الصالح الذي يناسب الإنسان والنبات والحيوان، والضياء في بلادهم صحي نقي يقتل الطفيليات والجراثيم ويديم الحياة ويبعث الفاعلية عندما يكون غير شديد تطيقه النفوس[3]. لذا عبد المصريون الشمس كما عبدوا النيل.

والأمطار في مصر قليلة تسقط بسبب تعرض البلاد للأعاصير الشتوية بوجه عام. وتتناقص كميتها باتجاه الجنوب والشرق. وبسبب قلة الأمطار في مصر، اعتمد قدماء المصريين في زراعتهم على فيضان النيل. وكان مطر الشتاء يتمم دور الفيضان، فما يسقط من مطر الشتاء القليل يمد النباتات الشتوية بما قد تحتاج إليه من رطوبة.

وكان ينبت في وادي النيل نبات البردي والقصب وأشجار النخيل والأثل والجميز (التين البري) والسنط، والقمح والشعير البريّان. وفي فروع النيل الراكدة المياه ومستنقعاته

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: نوطة عن مصر والشرق الأدنى القديم، دمشق، 1947.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

النائية المترامية الأطراف بالوجهين البحري والقبلي كانت تعيش أفراس البحر والتماسيح والأسماك والطيور المائية. وكان المصري يصل إلى تلك البقاع في زورق من البردي ليصطاد بخطافه ويرشق بنباله حيوان هذه المناقع، كما كان يصعد إلى قمم التلال الصحراوية التي تكتنف حافتي الوادي فيقتنص فيها السباع أو الضباع أو الفهود أو الثيران أو الخنازير أو الوعول أو الغزلان وغيرها من أنواع الحيوان الوحشي.

لقد منح الوضع الجغرافي لوادي النيل مصر مزايا كبيرة. فالجبال التي تحيط به غنية بأحجار البناء (كالغرانيت والبازلت والحجر الجيري)، والجبال الشرقية وخصوصاً النوبية تحتوي على احتياطات وافرة من الذهب[1]. واستخدمت جذوع النخيل والأثل والجميز في بناء المراكب النيلية ومختلف الصناعات الخشبية. وينتهي النيل في البحر الأبيض المتوسط، الشريان الرئيس للتجارة العالمية في العصور القديمة. كما أن الفيضان وما يوفره من ماء وطمي مخصب هيآ للزراعة شروطاً فضلى. وأخيراً فقد منح الوضع الجغرافي لوادي النيل مصر حدوداً طبيعية وقتها، نسبياً، من خطر الغارات والاجتياحات المخربة، ومكنتها من مقاومة المهاجمين مدة تكفي لأن يحشد المصريون في أثنائها جيشاً لتلافي خطر الهجوم الأجنبي[2].

النيل وفيضانه: النيل من أعظم أنهار الدنيا وأطولها. ينبع من البحيرات الكبرى في جنوب خط الاستواء، ويجري متجهاً نحو الشمال. ويلتقي به في السودان النيل الأزرق وعطبرة ويمدّانه بالطمي (الغرين). وهذا الطمي، المؤلف من عناصر معدنية وعضوية، هو سبب خصب أرض مصر. ويخترق النيل فيما بين الخرطوم وعطبرة هضبة بلاد النوبة، وتعترض مجرى النيل في ستة مواضع من الخرطوم حتى الفانتين صخور تجعل الملاحة النهرية صعبة في هذا المجرى عند انخفاض الماء.

وقد سميت خطأ بالشلالات، والواقع أنها جنادل أحياناً وخوانق أحياناً أخرى. أشهرها

---

(1) المصدر نفسه.

(2) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال. ص 3.

جميعاً الجندل الأول عند الفانتين، الذي خلقت فكرة مياهه الدافقة في مخيلة المصريين عقيدة انبثاق النهر من مصادر سفلية خفية[1]. عند هذه المنطقة شق النيل مجراه في صخور متبلورة استخدمها المصريون القدماء في تشييد الهياكل والمسلات. وبعد هذه المنطقة يزداد المجرى عرضاً ويدخل النهر في منطقة من الحجر الجيري يراوح عرض الوادي فيها بين (10 - 30) كيلومتراً. وفي شمال منف يتفرع النيل إلى عدة فروع كونت، بمرور الزمن، أراضي رسوبية أطلق عليها اليونان اسم "دلتا" وينتهي النيل عند ساحل البحر الأبيض المتوسط.

يفيض النيل كل سنة اعتباراً من شهر حزيران / يونيو بسبب سقوط الأمطار الغزيرة على الهضبة الاستوائية والأمطار الموسمية على الهضبة الحبشية. ويسبق فيضان النهر هبوب الرياح الجهنمية المعروفة في مصر بريح الخماسين. فيرتفع الغبار ويحجب كل شيء حتى تكاد تزول آثار الحياة من كل البلاد.

ويستمر الفيضان مدة أربعة أشهر فترتفع مياه النيل وتغمر الوادي بأكمله تقريباً ما عدا التلال التي تبدو وكأنها جزر عائمة في مساحة شاسعة من الماء. وفي أثناء الفيضان يتغير لون مياه النيل فتصبح حمراء قانية بعد اخضرارها ببضعة أيام.

وعندما ينحسر النيل عن الأراضي التي غمرها مدة فيضانه ويعود إلى حالته الاعتيادية، يترك أراضي الوادي والدلتا مشبعة بالمياه ومغطاة بطبقة كثيفة مخصبة من الطمي (اللميون الأسود) المبتل الطري ومتهيئة لقبول محاريث الزرّاع وحبوبهم[2].

وحيث إن الأمطار قليلة في مصر، لذا كانت كل حياة البلاد متوقفة على النيل وفيضانه. وهذا ما أوحى إلى "هيكاته" الجغرافي اليوناني كلمته المشهورة "مصر هبة النيل"، فنقلها عنه هيرودت المؤرخ اليوناني ورددتها الألسن إلى يومنا هذا. فلولا النيل وفيضانه لكانت مصر كلها عبارة عن صحراء جرداء قاحلة. لذا كان طبيعياً أن يعبد المصريون القدماء نيلهم ويقدسوه ويحتفلوا بفيضانه وفاء له لما أنعم عليهم من خصب وثمار.

---

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج1، ص 3.

(2) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

إن جميع آثار الحضارة المصرية القديمة ظهرت على شواطئ النيل، وجانباً كبيراً من ثروة المصريين وعمران بلادهم ناتج من نعم هذا النهر. فهو الذي دفع سكان هذه البلاد إلى العمل الجماعي والتعاون وإلى تعلم الزراعة والري والمساحة وهو الذي ساعد على وحدتهم.

غير أن مياه الفيضان إذا تجاوزت الحد الأعلى كانت كافية لأن تجعل من النيل أداة دمار وتخريب. كما أن بضع بوصات دون المستوى العادي لمياه النهر كانت كافية لتعريض البلاد لشبح المجاعة. لذا كان على الناس الأقدمين أن يعملوا مجتمعين متعاونين وبجهود مضنية بأدواتهم البدائية لدفع هذه المخاطر وغيرها. فبنوا قراهم في الأماكن العالية وحفظوا أراضيهم بسدود مرتفعة ونظموا وسائل الاستفادة من الفيضان كما تقدم.

النبات والحيوان: كان ينمو في مستنقعات الدلتا نمواً طبيعياً القصب والبردي الذي استخدمه قدماء المصريين في صناعة ورق الكتابة. وعلى ضفاف وادي النيل كان ينمو نخيل البلح والأثل والجميز الذي استعملت جذوعه في إنشاء القوارب وفي مختلف الصناعات الخشبية.

وإذ كانت المنطقة الواقعة جنوب القاهرة غير ممطرة في الوقت الحالي فإنها في العصر المطير لم تكن كذلك، بل إن وديانها الصحراوية الجافة حالياً كانت عامرة بالمياه وكانت شواطئها مزدهرة بالحشائش والحبوب البرية أيضاً[1].

وكان يعيش على هذا العشب البري قطعان من الحيوانات البرية كالحمير والثيران، والأغنام والغزلان والزوارق وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود. وقد ظلت صور هذه المناظر الطبيعية مطبوعة في أذهان المصريين يتوارثونها جيلاً بعد جيل حتى وجدناهم يصورونها في العصر التاريخي على جدران مقابرهم. هذا في الصحراء المحيطة بالوادي. وأما في الوادي نفسه فكانت المستنقعات الكثيرة تنتشر حول النهر، وكانت توجد في هذه المناطق المستنقعية الفيلة والخنازير البرية والخرتيت والتماسيح.

(1) د. رزقانه، ابراهيم أحمد: الحضارات المصرية في فجر التاريخ. المطبعة النموذجية، القاهرة، 1948، ص 126.

وكان الصيادون منذ العصر الحجري القديم الأسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادي حيث يصطادون من تلك الحيوانات كما دلت على ذلك آلاتهم الموجودة بالمدرجات على جانبي النهر. وبعد انتهاء رحلة الصيد يعودون أدراجهم إلى مناطق سكناهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات[1].

(1) رزقانه: المصدر السابق، ص 126 – 127.

الفصل الخامس

مصادر حضارة مصر في العصور القديمة وما قبل التاريخ

1 - مصادر ما قبل التاريخ وتشمل:

أ- مخلفات الإنسان الأول في مصر القديمة التي عثر عليها علماء الآثار في الهضبة الصحراوية وحافتي الوادي (حلوان ومرمدة، ودير تاسا والبداري والعمرة وجرزة والسماينة والفيوم)(*) وتشمل هذه المخلفات أدوات حجرية ومعدنية وأواني من الفخار وقرى ومساكن ومقابر وصوامع حبوب وزوارق وأوابد ومواد للزينة.

ب- متون الأهرام: مجموعة قصص دونت على جدران الأهرام في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة وتحوي نصوصاً توارثها المصريون ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات.

2 - مصادر العصر التاريخي وتشمل:

أ- الوثائق المكتوبة بالخط الهيروغليفي على الحجارة وأوراق البردي ويأتي في مقدمتها: حجر بالرمو وبردية تورين وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة.

ب - مخلفات إنسان العصر التاريخي في مصر القديمة وتضم هياكل بشرية وبقايا عظام،

(*) جنوب هليوبوليس وإلى الجنوب الشرقي من ممفيس. مرمدة: غرب الدلتا شمال غربي ممفيس. دير تاسا: جنوب أختاتون. البداري: قرب دير تاسا جنوباً. العمرة: شمال شرقي أبيروس. جزرة: جنوب ممفيس. السماينة: قرب نقادة. الفيوم: جنوب غرب ممفيس.

وأوابد، ومقابر، وأدوات وأواني، ومناظر مرسومة على جدران المقابر، وأثاثاً ومواد للزينة.

ج- رسائل تل العمارنة(**) : مجموعة من رسائل الود والسياسة تبادلها القصر الفرعوني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مع ملوك المشرق العربي وأمرائه، منقوشة بالخط المسماري باللغة البابلية الآشورية على قطع من الطين المحروق. توضح لنا هذه الرسائل العلاقات بين مصر وسوريا - فلسطين وبابل وآشور وميتاني وخيتا في أيام أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون).

د- ما عثر عليه من آثار في الممالك المجاورة لمصر سواء أكانت هذه الآثار مصرية الأصل نقلت إلى هذه البلدان، أم كانت آثاراً خاصة بالبلاد التي وجدت فيها، وذكر فيها معلومات عن مصر والمصريين كآثار كريت وسوريا وبلاد ما بين النهرين.

هـ- مصادر المؤرخين القدماء الذين زاروا مصر وكتبوا عنها وأشهرهم: هيكاته الملاطي: رحالة ومؤرخ إغريقي، من ميليتوس (ملاطيا) م 550 ق.م وهيرودوت المؤرخ الهاليكارناساسي م 425 ق.م وديودور الصقلي م 44 ق.م وسترابون مؤرخ وجغرافي إغريقي م 25 ق.م ويليني الأكبر.

وبلوتارك مؤرخ وناقد يوناني (46 – 120م) ويوسيفوس أسقف قيصرية م 327م. ومانيتون السمنودي م 270 ق.م كاهن وكاتب مصري، وهو أهم المؤرخين الذين كتبوا عن مصر. وضع كتابه "إجبتياكا ايبو فيماتا" باللغة الإغريقية، معتمداً على النقوش المصرية ومنها بردية تورين التي تقسم الملوك إلى بيوتات وأسر وهو الأساس الذي قدم عليه مانيتون تاريخه أو نقله فيما بعد.

أقسام تاريخ مصر القديمة

1 - عصور ما قبل التاريخ: وتمتد منذ أن سكن الإنسان البدائي الهضبة الصحراوية في مصر حتى اختراع الكتابة الهيروغليفية حوالى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. ويسمي

(**) تل العمارنة: أخيتاتون.

علماء الدراسات المصرية الحقبة التاريخية التي سبقت مباشرة عصر الأسرات بـ"عهد ما قبل الأسرات".

2 - عصر قيام الدولة المصرية: ويمتد من أواخر الألف الرابع قبل الميلاد حتى الفتح الفارسي لمصر عام 525 ق.م. ويقسم المؤرخون هذا العصر إلى عدة عهود تتخللها فترات انتقالية. وهذه العهود هي:

أ - العهد الطيني (الثيني).

ب - عهد الإمبراطورية القديمة.

ج - عهد الإمبراطورية المتوسطة.

د - عهد الإمبراطورية الحديثة.

هـ - عهد الانحطاط (الانحلال).

الفصل السادس

مصر في عصور ما قبل التاريخ

لسنا نعلم شيئاً عن إنسان العصر الحجري القديم (الباليوتي) أو الناس الأقدمين في مصر، وذلك لأنه لم يصل إلى أيدي العلماء أو الأثريين أي هياكل أو بقايا عظمية لإنسان ذلك العصر في مصر. وكل معلوماتنا مستقاة من الأدوات الحجرية التي وجدت على سطح الهضبة الصحراوية، أو على عمق كبير من السطح والتي استعملها إنسان تلك الحقبة في أموره المعاشية.

وكان مناخ تلك الجهات آنذاك أكثر رطوبة منه الآن، فتوافرت المياه التي ساعدت على نمو الحشائش والأعشاب وبعض الأشجار المتفرقة، ولا تزال الوديان الصحراوية الجافة التي كانت تجري فيها المياه في ذلك العصر موجودة في بعض نواحي الهضبة حتى وقتنا الحاضر. ويبدو أن أناس العصر الباليوتي لم يتجمعوا في هذه الفترة على ضفاف النيل بسبب طول مدة الفيضان وغزارة ما كان يحمل النهر من طمي[1].

ومما لا شك فيه أن الإنسان، الذي كان يقطن تلك الهضبة، عاش في أول الأمر حياة بدائية، يجمع الغذاء من الطبيعة (ثمار الأشجار وجذور النباتات) ويلتمس الرزق من الصيد ويسكن الكهوف ويستعمل أدوات يصنعها من الحجارة صنعاً بسيطاً. ومما ساعده على القنص أن الهضبة في الفترة الباليوتية كانت مأوى لكثير من الضواري كالأسود والفهود

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، ج1، ص 88.

والثيران، أو الحيوانات الصغيرة كالوعول والغزلان. وهكذا كانت حياته حياة كفاح وشدة ضد الطبيعة والضواري في سبيل تأمين معاشه وحماية وجوده[1].

وعندما بدأ مناخ الهضبة يجف وتقل الأمطار، أخذ سكانها يهجرونها وينزلون، خطوة خطوة، إلى وادي النيل بالقرب من موارد الماء. وكان ذلك في الألف الخامس قبل الميلاد[2].

عاشت القبائل النيوليتية التي استوطنت مصر في الألف الخامس قبل الميلاد، من السماكة والصيد وجمع الحبوب والثمار الطبيعية. واشتغلت، فيما بعد، بالزراعة وتربية الحيوان: زرعت القمح والشعير والكتان، وربت الخنازير والثيران والأغنام.

في أول الأمر، استقر الناس عند تخوم الوادي، حيث كانت توجد آنذاك واحات الفيوم، وتجري السيول المنحدرة من الجبال موفرة الماء الضروري لري الحقول[3].

ولم تكن حياة قدماء المصريين هينة مرضية في العصر الحجري، وإنما كانت حياة قاسية ومليئة بالمخاطر. وكان الإنسان فريسة سهلة للحيوانات المفترسة سواء على الأرض أو فوق الماء. وكانت الحمى تفتك به، والفيضانات تدمر قراه. وكانت الأرض التي ينتزعها من المستنقعات واجتثاث الأدغال تتطلّب منه عملاً جماعياً وجهداً مضنياً[4].

وقد استتبع تطور القوى المنتجة تغيراً في تنظيم المجتمع. فحلت محل المجتمع البدائي جماعة إنتاجية أكثر متانة هي المشاعة العشيرية أو العشيرة التي كان يربط بين أعضائها العمل المشترك والتقسيم الطبيعي للعمل بين الرجال والنساء والواجبات المشتركة داخل الجماعة.

ولم تكن أساليب الحصول على وسائل العيش عند قدماء المصريين، في ظروف طبيعية قاسية ومستوى تقني متدنٍ لأدوات العمل، تسمح بأية ملكية أخرى سوى الملكية الجماعية. وكانت قوة المصريين تكمن في جماعيتهم وفي نشاطهم الاجتماعي. وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج في المشاعة العشيرية. وكانت حصيلة

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 138.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) كوروفكين، ف. ب: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 30.

السماكة والصيد والإنتاج الزراعي تخص جميع العشيرة[1] وتوزع بالتساوي بين جميع أعضائها.

وقد أفضى تطور القوى المنتجة إلى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. فأخذ الرجال يقومون بالصيد وحده تقريباً، في حين كانت النساء، إضافة الى تربية الأولاد، يصنعن الملابس ومختلف اللوازم، ويقمن بجمع وغرس النباتات الصالحة للأكل، وبطهو الأطعمة. وكان نشاطهن الاقتصادي مصدراً مضموناً ومنتظماً لمقومات الحياة، أما الصيد، الذي كان يقوم به الرجال، فغالباً ما كان رهناً بالصدف ولم يكن بوسعه أن يزود الناس على الدوام بالطعام الضروري. وهذا ما أبرز دور المرأة النشيط في الحياة الاقتصادية، ورفع دورها الاجتماعي في مجتمع العشيرة. ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق: "أنه كانت للنساء في مجتمعات مصر والشرق الأدنى القديم، مكانة ممتازة". ويعبر عن هذه الحالة بـ"نظام الأمومة"[2].

وكانت القبائل تتنازع بسبب مناطق الصيد وأراضي الزراعة. أحياناً، كانت هذه المنازعات تقود إلى الحرب[3]. وفي أثناء الحرب، كانت كل قبيلة تنتخب رئيساً أو قائداً حربياً[4]. وكانت سلطة هذا القائد تقوم كذلك على مكانته وخبرته وكان ينتخب من قبل أعضاء العشيرة أو القبيلة لتنظيم جهود المجتمع في مكافحة العدو. وبانتهاء الحرب كانت تنتهي سلطة القائد الحربي.

ففي صورة محفورة على لوحة تعود الى عصر ما قبل التاريخ تمثل حملة في الصحراء، لم يتميز فيها زعيما العشيرتين المتحاربتين من أتباعهما، فهما ما زالا في صفوف أتباعهما وما تميزا عنهم إلا بكونهما يحملان الطوطمين[5].

في الألف الرابع قبل الميلاد، اكتشف قدماء المصريين النحاس وغيره من المعادن في

---

(1) المصدر نفسه، ص 29.

(2) نوطة عن مصر والشرق القديم عام 1947.

(3) كوروفكين، ف. ب: المصدر السابق، ص 29.

(4) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(5) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية. وقد سهل اكتشاف النحاس وصنع الأدوات النحاسية على المصريين حفر التربة وتفتيتها واجتثاث الأشجار وقطع الحجارة ونحتها، واستطاع المصريون باستخدام الأدوات النحاسية النضال بنجاح أكبر ضد الرمال والمستنقعات: جففوا المستنقعات وأنشأوا أقنية الري وأقاموا السدود وطهروا الأرض من الأجمات[1].

وكان إنشاء الترع والسدود وإصلاحها يتطلبان عملاً جماعياً انتظم في صفوفه ألوف الناس من ساكني ضفاف النيل. وبفضل عمل الناس، تغيرت معالم الوادي، وأصبحت أراضي الوادي ودلتا النيل صالحة للزراعة[2].

ومن أجل تسريع العمل، زاد المصريون سعة المحفار (المعزقة)، فثبتوا به عصا طويلة كان يجرها نفر من النساء فتحفر المعزقة الثلم. ثم أضيف إليه مقبضان لتطويله، فكان على الرجل الذي يتبعه أن يضغط بكل طاقة جسمه على المقبضين وذلك في سبيل تعميق الثلم. ثم استخدمت الثيران لجرّ المحراث.

لقد أدى اختراع المحراث إلى تسريع زراعة الأرض وتحسينها بشكل ملحوظ واستخدمت المناجل الخشبية ذات الأسنان الصوانية في حصاد الحبوب. وشيئاً فشيئاً، أخذت الزراعة تبلغ مستوى عالياً من التطور، وأصبحت هي وتربية الماشية الشكل الرئيس لنشاط الناس الاقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد[3].

وعندما أصبحت الزراعة تلعب الدور الرئيس في الاقتصاد، بدأت المشاعية ترسل إلى العمل أقوى أفرادها - الرجال. وبالتدريج تحول هؤلاء إلى قوة العمل الأساسية في الزراعة، وغدا عملهم يلعب الدور الحاسم في اليسر المادي للمشاعية. كذلك رفع استخدام قوة الجر الحيوانية دور الرجال في الزراعة بصورة ملحوظة. ومع تطور استخدام المحراث الذي يتطلب قوة جسدية كبيرة، انتقل العمل الزراعي نهائياً إلى أيدي الرجال.

ومع تعاظم دور الرجل في إنتاج الخيرات المادية، تعزز دوره الاقتصادي والاجتماعي

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 31.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

في الأسرة والعشيرة. وقد أدت هذه العملية إلى الاستعاضة عن نظام الأمومة بنظام الأبوة. وتحول عمل النساء الذي ظل مرتبطاً لدرجة كبيرة بممارسة الاقتصاد المنزلي، من مصدر رئيس لإنتاج الخيرات المادية في المشاعية إلى مصدر ثانوي.

إن الأدوات الزراعية الجديدة التي مكنت من فلاحة الأرض بصورة فضلى، وكذلك استخدام الماشية على نطاق واسع كقوة للجر قد رفعت إنتاجية العمل لدرجة كبيرة.

وقد أتاح إنتاج الأدوات المعدنية، النحاسية ومن ثم البرونزية، للإنسان الفرصة لتحسين تكييف الخشب والحجارة والعظام وغيرها من المواد التي كان يصنع منها أدوات كثيرة. وإن استعمال أدوات العمل المعدنية الجديدة قد زاد من إتقان الأدوات القديمة، وهذا ما ضمن بدوره الاستمرار في إتقان عادات العمل وتكديس التجارب.

وأدى اطراد تطور القوى المنتجة إلى انفصال الحرفة عن الزراعة وتربية الماشية. وظهر حرفيون محترفون: حجارون، نحاسون، صاغة، فخارون وغيرهم، بعد أن كان الزراع يصنعون بأنفسهم تقريباً جميع الأشياء التي يحتاجون إليها.

إن استعمال الأدوات المعدنية والتحسين المستمر للأدوات الحجرية والتطور الذي حدث في مختلف فروع الاقتصاد وفي حياة الناس المادية والفكرية، هيأت بدورها أفضل الظروف لاختراع الكتابة الهيروغليفية حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

لقد كان الألف الرابع قبل الميلاد انعطافاً هاماً في حياة سكان الوادي، وتقدمهم. فاكتشاف النحاس وغيره من المعادن، مهد للانتقال من العصر الحجري إلى عصر المعادن. وأحدث اختراع المحراث وتحسين أدوات العمل ثورة في فلاحة الأرض والإنتاج، كما أن التغيرات في الإنتاج أدت بدورها إلى تغيرات في البناء الاجتماعي للمجتمع. أما اختراع الكتابة، الخط الهيروغليفي، فإنه أنهى عصر ما قبل التاريخ وأدخل مصر والبشرية في العصر التاريخي.

إن تطور تربية الماشية والزراعة، بواسطة المحراث، والحرفة، قلل من الدور الاقتصادي للمرأة في الإنتاج وأدى إلى الاستعاضة عن نظام الأمومة بنظام الأبوة. وقد أفضت جميع هذه العوامل إلى تفكك نظام العشيرة وقيام المشاعة الإقليمية المتجاورة، التي تتألف من

أسر صغيرة وكبيرة. يقول الدكتور سليم عادل عبد الحق: لقد تطور نظام القبيلة الطوطمية تحت تأثير الشروط التي حولت الرحل إلى متحضرين (أي تحت تأثير تطور الاقتصاد من الصيد وجمع الغذاء إلى الزراعة وتربية الماشية - الإضافة مني). وبدأت هيمنة الرئيس تحل محل النظام الإجماعي (أي الديموقراطية العشيرية - الاضافة مني)، وأخذت سلطة الرجال تسود سلطة النساء واختفى تدريجاً نظام الأمومة وحل محله نظام الأبوة الذي يفرض فيه الرجل أوامره على زوجته وعلى أولاده ويوفر لهم الحماية. وغدا الرؤساء المنتخبون يتمتعون بسلطة واسعة وأصبحوا وارثين لسلطة الطوطم[1]. لماذا وكيف حدث ذلك؟

لقد أصبح الآن، بعد التغيرات في الإنتاج، بإمكان كل عائلة حتى القليلة العدد أن تفلح حقلاً بمساعدة المحراث وتزرع أرضاً مخصبة بالطمي والغرين. ولم يعد العمل الجماعي للعشيرة كلها ضرورياً البتة[2]. فقد وزع زعماء العشائر الأراضي بين الأسر التي تتألف منها العشيرة، وأصبح لكل أسرة اقتصادها الذاتي وأدواتها ومواشيها وكوخها[3]. وشرعت العائلة تعمل في أرضها وتزرع بستانها. وكان المحصول يخصها وحدها[4].

وهكذا تجزأ الاقتصاد الكبير للمشاعة العشيرية إلى استثمارات صغيرة، كانت العائلة وحدها هي المالكة لها[5].

صحيح أن كل أسرة كانت تزرع حصتها من الأرض، ولكن كان يتوجب عليها إنشاء الأقنية والسدود وإصلاحها بشكل جماعي مع جيرانها[6]، وهذا يعني أن الملكية الجماعية للماء، بشكل خاص، كانت توحد المشاعة الإقليمية المتجاورة[7].

---

(1) المصدر السابق.

(2) كوروفكين، المصدر السابق، ص 33.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، الصفحة 34.

(7) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 140.

وما تجدر ملاحظته، أن الزعماء عندما وزعوا الأراضي بين الأسر، احتفظوا لأنفسهم بمساحات كبيرة من أجود الأراضي التي كانت تخص المشاعة العشيرية[1].

لقد كفّت العشيرة عن كونها وحدة كاملة. وانتهكت روابط القرابة وحلت محلها روابط جديدة بين عائلات منفردة. ولم تكن علاقات القرابة تربط الأسر بقدر ما تربطها العلاقات الاقتصادية. وأخذت تشغل مكان مشاعية العشيرة القائمة على روابط الدم المشاعية الإقليمية المتجاورة التي تربطها مصالح اقتصادية مشتركة.

وكانت المنتوجات تبقى داخل كل أسرة، متحولة إلى ملكيتها الخاصة. وبالارتباط مع ظهور الملكية الخاصة، أخذت الممتلكات تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. وشرع ينشأ مزيد من عدم المساواة في التملك بين أعضاء العشيرة المتساوين فيما مضى. وإذن، إلى جانب الملكية المشاعية، ولدت الملكية الخاصة.

وقد كشفت مخلفات المقابر التي تعود إلى حقبة ما قبل الأسرات "أن أواني نعش القبر كانت تحمل الدمغة نفسها"[2] وهذه الدمغة المحفورة على الأواني هي إحدى علامات الملكية الخاصة[3].

في هذه الظروف لم يعد بإمكان التوزيع المتساوي لمنتوجات العمل الاستجابة لمقتضيات تطور القوى المنتجة لاحقاً. وكان للتغيرات في مجال توزيع منتوجات العمل أهمية تقدمية كبيرة، لأنها شجعت أهم فروع العمل (الزراعة وتربية الماشية والحرفة) وكذلك الفروع الجديدة، وأجبرت على إتقان أدوات العمل وطرائق الإنتاج، وبذلك سرعت تطور المجتمع المصري لاحقاً.

لقد أسفر ظهور الملكية الخاصة عن طراز جديد للتبادل بين مختلف العائلات داخل المشاعة الإقليمية المتجاورة. وكان ذلك بمثابة مرحلة انتقال من المجتمع القائم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج إلى المجتمع القائم على الملكية الخاصة للوسائل ذاتها.

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 34.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 139.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لقد أتاح استخدام الأدوات المعدنية والمحراث لقدماء المصريين أن يجنوا محصولاً من القمح أكثر مما كانوا يجنونه في السابق[1]. وكان الإنتاج وفيراً جداً، بحيث مكن ليس من تغذية الناس الذين كانوا يزرعون الأرض فحسب، وإنما أيضاً بقي منه فائض[2]. وقد أرغم جزء من المجتمع الأسير على العمل لخدمته وحرمه من حقه في الحصول على حصته من المنتوج الاجتماعي الفائض، فتمكن بالتالي من تملك الخيرات التي ينتجها الأسير - أي استثماره. ولهذا الغرض لم يعودوا يقتلون الأسرى، بل أخذوا يحولونهم إلى عبيد[3]، إلى كادحين محرومين من الحقوق، كانت المشاعية تبقيهم فقط ما داموا ينتجون المنتوج الزائد ويعودون عليها بالفائدة.

وكان العبيد يزرعون الأراضي التي يملكها الزعماء والرؤساء، ويعملون من أجلهم في إنشاء السدود والأقنية، ورعي مواشيهم. لقد كانوا ملكية لأسيادهم ملاك الرقيق الاستعباديين، الذين يمكنهم قتلهم أو بيعهم كحيوانات[4].

وترينا بعض الرسوم الأثرية العبيد وأياديهم موثقة وراء ظهورهم أو فوق رؤوسهم[5]. قديماً، كانوا يطلقون على العبيد اسم "الرجال الأموات"، في حين أن العبيد كانوا يدعون "الأموات الأحياء"[6]. كما تُري الرسوم القديمة ومخلفات قبور الأسياد، ملاك العبيد مميزين عن غيرهم من المصريين، بملابسهم المحوكة من النسيج الناعم، وعلى حزامهم خنجر قبضته مرصعة بالذهب، وأذرعتهم محلاة بأساور ذهبية، وحول أعناقهم قلائد[7].

لقد نشأت في مصر إبان الألف الرابع قبل الميلاد، ثلاث مجموعات أساسية من الناس تبعاً لعلاقاتهم بأدوات ووسائل الإنتاج، هي:

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 34.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة 35.

(5) المصدر نفسه، الصفحة 34.

(6) المصدر نفسه، الصفحة 34 - 35.

(7) المصدر نفسه، الصفحة 35.

المجموعة الأولى: مالكو العبيد الحائزون ملكية أدوات ووسائل الإنتاج، وعلى العبيد كذلك الذين يستثمرون عمل الرقيق.

المجموعة الثانية: العبيد، المحرومون من أية ملكية، الواقعون أنفسهم في الملكية التامة لأسيادهم مالكي العبيد.

المجموعة الثالثة: المشاعيون الأحرار الذين يملكون اقتصادهم الصغير الخاص القائم على العمل الشخصي والملكية الصغيرة لأدوات ووسائل الإنتاج. وتدريجاً أفلس قسم كبير من المالكين الصغار وتحول إلى عبيد، واغتنى قسم ضئيل منهم وتحول إلى مستثمرين. وعلى الرغم من هذا فإن المالكين الصغار قد استمروا في البقاء.

وكانت بعض المشاعيات تشكل جزءاً من اتحادات أرضية أوسع، تضم قبائل قديمة في أغلب الظن[1]. وكان يطلق على هذه الاتحادات اسم "سبات" باللغة المصرية. ولكن المؤرخين اعتادوا تسميتها بالإسم الإغريقي "نوم - مقاطعة"[2]. ومما يلفت النظر أن الكتابة الهيروغليفية المصرية تمثل الـ "سبات" على صورة حقل تقطعه الأقنية، لأن شبكة الري كانت من بين مهام "النوم" الأساسية[3].

في الأصل، كانت النومات (مقاطعات - اتحاد قبائل) منعزلة الواحدة عن الأخرى وخصوصاً في الدلتا، حيث كانت فروع النيل والمستنقعات تشكل حدوداً طبيعية بين النومات[4]. يقدر أنه كان لكل "نوم" لهجته الخاصة وطواطمه وطقوسه وأساطيره وأراضيه وأقنيته[5]. ويصف الدكتور سليم عادل عبد الحق النوم - المقاطعة بأنه غالباً ما يكون على شكل مربع يحوي أرضاً للاستثمار الزراعي وأقنية للري. ويؤلف تقسيماً إدارياً مركزه مدينة (ثوت) مبنية على ملتقى طرق. وفي هذه المدينة تتكاثر الأكواخ المبنية من الطوب... وفيها

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 140.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أيضاً يعبد الإله الذي يحمي المقاطعة. ويتابع كلامه قائلاً: لقد عثر على وثائق إدارية تذكر أسماء هذه النومات (المقاطعات) وأسماء مدنها، وآلهتها وألقاب كهنتها، والقنوات التي تسقيها، وتعداد أراضيها الزراعية وما فيها من حقول مزروعة، المرتفعة منها والمنخفضة، وذكر حدودها[1].

وكان أكبر هذه النومات: الفانتين وهيراكونبوليس وآبيدوس في مصر العليا، ومنف، وبوتو في مصر السفلى[2].

وكانت النومات تتحارب فيما بينها بسبب الخلاف على الغنائم أو الرقيق، أو بسبب النزاعات الناشئة عن الحاجة إلى الماء[3]. وتمثل الرسوم المحفورة على ألواح العاج أو الحجارة مناظر المعارك بين النومات، وتكشف ميادين الحرب أنها كانت تجري على الأرض كما كانت تحدث على سطح الماء[4].

وكان يرأس النومات زعماء، عرف واحد منهم هو الملك "العقرب" الذي نجح في أن يوحد تحت سلطته أرضاً واسعة تمتد من هيراكونبوليس جنوباً حتى منف شمالاً[5]. وبالنظر الى أهمية لوحة الملك "العقرب" فلا بأس من التوقف عندها قليلاً لدراستها وتحليلها.

لوحة الملك "العقرب" عبارة عن رأس ذبوس يعود تاريخه إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، عثر عليه العالم الأثري كويبل في منطقة هيراكونبوليس التي كانت مقر حكم الملك "العقرب". يرى في اللوحة الملك مميزاً من أتباعه بقامة أطول وحاشية ترافقه ومظلتين تمنعان عنه الشمس ومروحتين من ريش النعام، ممسكاً محفاراً وكأنه يشق قناة أو يزرع أرضاً، وأمامه رجل يحمل سلة يتلقى فيها بعض التراب أو يلقي منها البذار في الثلم وآخر يحمل سنابل رمزاً للخصب الناجم عن جهود الملك. وحول الجزء العلوي من

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه، الصفحة 140.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

رأس الدبوس صف من الألوية يمثل مقاطعات الجنوب وتتدلى من الألوية صور لطائر يرمز الى الأقوام التي استطاع الجنوب أن يقهرها ويخضعها لسلطاته. وفوق رأس الملك نقش بالهيروغليفية بما معناه "العقرب". وتمثل خلفية الصورة أرضاً مزهرة، وفي الطرف العلوي منظر احتفال وبه جماعة من الناس في هوادج، وفي أسفل المنظر راقصات طويلات الشعر، وتحت اسم الملك حاملو ألوية الجيش. يتبين من النقش الهيروغليفي واستنطاق اللوحة وتحليل أحداثها ورموزها ما يلي:

1 - وجود تمايز اجتماعي بين رئيس القبيلة وأتباعه لم يكن موجوداً في ظل المشاعية والديموقراطية العشيرية، وإنما برز نتيجة لظهور الملكية الخاصة والتباين في الثروة.

2 - تشير أحداث الحروب إلى محاولة الزعيم "العقرب" توحيد مصر قبل قيام الدولة. وأنه نجح في توحيد مقاطعات الوادي (يضع فوق رأسه التاج الأبيض رمز الجنوب المتحد) ولم يستول على "بوتو" عاصمة مصر السفلى.

3 - يشير مسك "العقرب" المحفار (المعزقة) إلى أن قضية تنظيم الري أو العناية بالزراعة كان من بين مهام النوم الأساسية.

4 - تشير شارات وطواطم "رأس الدبوس" إلى القبائل التي أخضعها العقرب لسلطانه والقبائل التي هزمها ومنها قبائل مصريي الشمال والأرك (أي الساميين المسلحين بالأقواس).

5 - الكتابة الهيروغليفية في رأس الدبوس هي أقدم كتابة عثر عليها من هذا النوع.

6 - الملك "العقرب" هو أقدم ملك مصري ذكر اسمه أثر تاريخي[1].

إن لوحة الملك "العقرب" هي وثيقة تاريخية اجتماعية - اقتصادية وسياسية وثقافية هامة للباحث في الدراسات المصرية لعهد ما قبل الأسرات.

هذا، وإن ما لدينا من معطيات هي جد قليلة وغير كافية لمعرفة سلطة الملك "العقرب". ويرجح أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد[2]، وأن "العقرب" لم يكن سوى رئيس قبيلة وليس

---

(1) راجع حول ما يتعلق بلوحة الملك العقرب كتاب: مصر والشرق الأدنى القديم، ج1، ص 93 وما بعدها للدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم، ونوطة الدكتور سليم عادل عبد الحق عن مصر والشرق القديم.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 141.

ملكاً بكل ما في مفهوم هذه الكلمة من معنى[1]. ونستطيع أن نستنتج أن محاولات توحيد وادي النيل كانت قد سبقت تشكيل الدولة[2]. ويشير القصص المصري القديم إلى معارك قامت بين الصعيد والدلتا هُزم فيها الجنوبيون وجعل الشماليون من "أيون" عاصمة لهم بعد ذلك، واحتفظوا بعاصمة محلية أخرى هي "بوصير"[3]. ثم شب الصراع مرة أخرى بين الشمال والجنوب فهدم الوحدة واضطرت الدلتا إلى تقوية نفسها تحت قيادة زعيم من خلفاء أصحاب الريشة[4]. هزم هو وأعوانه الجنوبيين وأعادوا توحيد البلاد. ولعل هؤلاء الزعماء الجدد هم الذين يشير إليهم حجر بالرمو في قطعه المتناثرة[5]. ويشير القصص أيضاً إلى مرحلة ثالثة من الصراع في عهد ما قبل الأسرات بين الصعيد والدلتا تفوّق فيها الجنوبيون وظهر فيها للمرة الأولى اسم الملك "عقرب" وقد تحرك لغزو الشمال على ما يظهر، ولكنه قضى قبل أن يحقق النصر الذي كان من نصيب خلفه "نعرمر" على الأغلب[6].

في هذه الحقبة التاريخية، دون شك، تشكل اتحادان كبيران للقبائل (مملكتان في رأي بعض المؤرخين). الأول: في الدلتا والمنطقة المتاخمة لمنف باسم "مصر السفلى" عاصمته بوتو (Bouto). والثاني: امتد نحو الجنوب حتى الفانتين باسم "مصر العليا" عاصمته هيراكونبوليس(Hieraconpolis) (أهناسيا).

والسؤال الآن: ما هو أصل هذا الشعب الذي اكتشف الزراعة واستأنس الحيوان وتعلم الري والمساحة واكتشف النحاس واخترع الكتابة ووضع أجنة المعارف البشرية وأنشأ حكومة منظمة، وكان أعرق الناس الأقدمين في الحضارة وأسبقهم إلى الأخذ بأسبابها؟

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم. دار المعارف 1965، ج4، ص 151.

(4) أصحاب الريشة: أقوام قدموا من الشرق عبر البحر الأحمر واستقروا في الدلتا تميزهم ريشة توضع على الرأس هي شعار أقاليم البحر الأحمر.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص 151.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص 152.

إن المعطيات الأنتروبولوجية التي أكدتها المواد الأثرية (جثث موتى واختلاف نماذج الدفن بين سكان حضارة ديوتاسا جنوبي الوادي وسكان حضارة حلوان ومرمدة شماله) وتحليل اللغة المصرية القديمة، كل ذلك يتيح لنا الافتراض، أن الشعب المصري تكون في وادي النيل نتيجة تصالب مجموعات جنسية مختلفة قدمت من الشرق والغرب والجنوب، أي من عناصر حامية اختلطت بالسامية وإلى حد ما بعناصر زنجية[1]. ولكن كل هذه الأقوام انصهرت بسرعة، في سكان مصر الأصليين الحاميين، واستوعبت لغتهم، وتطبعت بعاداتهم، ولم تترك تأثيراً يذكر في الطابع الأنتروبولوجي للمصريين[2].

(1) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 19 ج2، ص 65. د. نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، ج1، ص 6 – 7. جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 138.

(2) د. فرح، نعيم: تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، ص 33.

الفصل السابع

الدولة المصرية في العصر التاريخي

تأسست الدولة المصرية بعد حكم "العقرب" بقليل، أي في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الفتح الفارسي لمصر عام 525 قبل الميلاد أو فتح الاسكندر المكدوني إياها عام332 قبل الميلاد.

يقسم المؤرخون تاريخ الدولة المصرية إلى عهود وفترات انتقالية، تتابع على الحكم خلالها ثلاثون أسرة، وهذه العهود هي:

1 - العهد الطيني.

2 - عهد الإمبراطورية القديمة.

3 - عهد الإمبراطورية المتوسطة.

4 - عهد الإمبراطورية الحديثة.

5 - عهد الانحطاط (الضعف وفقدان الاستقلال والسيادة).

تأسيس الدولة المصرية: نشأت الدولة المصرية حوالى عام 3000 قبل الميلاد، نتيجة توحيد القبائل في مصر السفلى والعليا. وكان نشوء الدولة بأجهزتها يومذاك، تحققاً لضرورة تاريخية بعد ظهور التمايز الطبقي، وفي سبيل حماية مصالح الأرستقراطية وقمع ثورات الفلاحين والعبيد وتنظيم مشاريع الري. ومع ذلك، فإن تأسيس الدولة يعتبر في ذاته خطوة متقدمة تاريخياً بالنسبة إلى الوضع القبلي.

ولسنا نعلم اسم الملك الذي وحد البلاد سوى ما يذكره هيرودوت من أن "مينيس" هو الذي وحد مصر وأسس ممفيس لتكون عاصمة له تتفق ومطالب الإدارة[1]. ولم يكن هذا الاتحاد، بين الوادي والدلتا متيناً مستقراً. فقد قامت بعض التمردات في مصر السفلى (الدلتا) كان الهدف منها الانفصال عن الجنوب. ولكن تلك المحاولات الانفصالية باءت بالفشل[2]. يؤيد ذلك ما تكشف عنه "صلاية نعرمر الأردوازية" عن قمع هذا الملك لتمرد حدث في الشمال (الدلتا) وأسره ستة آلاف شخص[3]. وفي عهد الأسرة الثانية تجددت الاضطرابات والمنازعات السياسية بين مصر العليا والسفلى، وأدت إلى انفصال الشمال عن الجنوب. ولكن "خع - سخموي" آخر ملوك الأسرة الثانية، قتل حوالى 50 ألف شخص من الأعداء الشماليين وقمع التمرد وأعاد وحدة مصر بقوة السلاح[4].

بدأ ملوك مصر العبودية حروب الفتح والتوسع لنهب ثروات الشعوب، مثلما كانوا يسلبون شعبهم عن طريق فرض الإتاوات والضرائب. وتشكلت الإمبراطورية المصرية منذ العهد الطيني، واستمرت حروب التوسع في عهد الدولتين المتوسطة والحديثة، حيث بلغت الإمبراطورية المصرية أوج اتساعها.

ففي العهد الطيني، احتل ملوك الأسرتين الأولى والثانية شبه جزيرة سيناء، حريوشع أي الذين فوق الرمال، وشرعوا في استثمار النحاس والدهنج والفيروز، كما احتلوا بلاد النوبة، تاستي، لاستثمار ذهبها وللحصول على العبيد ولأنها كانت المنفذ الوحيد إلى بلاد السودان حيث العاج والأبنوس وجلود الحيوانات[5].

وفي عهد الإمبراطورية القديمة، واصل فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة (بناة الأهرام) سياسة الفتح بعد توطد السلطة الملكية داخل البلاد. فقد قاد زوسر (من ملوك الأسرة الثالثة)

(1) د. نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، ج1، ص 97.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 36.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 142.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل، المصدر السابق، ج1، ص 123. د. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 36.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 142.

حملة إلى سيناء وخلد ذكرى انتصاراته على بدو المنطقة فوق صخور وادي مغارة[1]، وتوسع في بلاد النوبة. وأصدر مرسوماً يمنح فيه معبد خنوم[2] الأراضي الواقعة على جانبي النيل من سهيل إلى جزيرة تاكومبو قرب دكة في النوبة. وبعبارة أخرى مرحلة طولها بين 80 - 90 ميلاً على جانبي النهر[3].

أما سنفرو (من ملوك الأسرة الرابعة). فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة عاد منها بغنائم طائلة وأسر سبعة آلاف شخص وأخذ مائتي ألف رأس من الماشية، وقام بحملة ليبية جلب بنتيجتها أحد عشر ألف أسير و(13100) رأس من الماشية[4]. وقد حفظت لنا نقوش وادي مغارة سجلًا عن حملاته في سيناء وانتصاراته على بدو الصحراء[5]. ومن أجل الحصول على أخشاب الصنوبر والسنديان والأرز لبناء أسطول بحري، بعث سنفرو عدة حملات إلى فينيقيا[6]. وواصل خوفو سياسة والده التوسعية، فأرسل حملة إلى سيناء كما تثبت ذلك لوحات وادي مغارة[7].

وتابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب التوسع، إذ تتحدث نقوشهم عن معارك مع القبائل في شبه جزيرة سيناء وليبيا وعودة المصريين بالأسرى والغنائم[8]. وتشير النقوش أيضاً إلى حملات أخرى أرسلت إلى فينيقيا وبلاد النوبة وإلى بونت (الصومال حالياً) [9].

واستخدم فراعنة الأسرة السادسة النوبيين جنوداً وعبيداً لاستخراج الذهب، بالإضافة

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 150.

(2) الإله خنوم واحد من الآلهة المصريين الخالقة يرسل مياه النيل من معبده في الفانتين.

(3) المصدر نفسه، ص 150.

(4) المصدر نفسه، ص 164.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 37.

(7) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج1، ص 166.

(8) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 148.

(9) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج1، ص 189.

إلى الحصول على الجزية[1]. وفي أثناء حكم بيبي الأول (من ملوك الأسرة السادسة) نظمت حملات كبيرة على شمالي الحبشة وجنوبي فلسطين. وتتحدث نقوش وزيره "أوني" عن الخراب الذي ارتكبته الجيوش المصرية في فلسطين. فقد دمر الغزاة المستوطنات وقطعوا أشجار التين والكرمة، وعادوا مع أسراهم الذين أطلق عليهم المصريون اسماً معبراً "الأموات الأحياء"[2]. وبانتهاء الأسرة السادسة ينتهي عهد الدولة القديمة في مصر[3].

ويطلق على الفترة التي تلت حكم الأسرة السادسة اسم عصر التفتت والانحلال، حيث ظلت مصر مجزأة سياسياً إلى دويلات صغيرة حوالى قرنين من الزمن. فقد أخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يسعى للحصول على السلطة الملكية، مما أدى إلى نشوء حروب أهلية مستمرة ألحقت الخراب والدمار بالبلاد، إذ تعطلت مشاريع الري وتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة وحدثت مجاعات وأخذت قبائل البدو الآسيوية تهاجم الحدود المصرية. وهكذا كان عهد الأسرتين السابعة والثامنة من أسوأ عهود التاريخ المصري القديم[4].

وفي غمرة الفوضى، برزت إلى مكان الصدارة في مصر مدينتان هما: هيراكليوبوليس في شمال مصر العليا، وطيبة في جنوب البلاد. وقد استطاع خيتي الأول، حاكم هيراكليوبوليس، أن يغتصب العرش من آخر ملوك الأسرة الثامنة من ممفيس وأن ينقل العاصمة إلى مدينته ويؤسس الأسرة التاسعة فيها. (توجد في متحف الأرميتاج بمدينة لينينغراد بردية عليها نص للملك خيتي ينصح فيه ابنه وخليفته أن يكون متسامحاً مع الأمراء)[5].

وفي الوقت الذي أخذت الأسرة العاشرة تحكم هيراكليوبوليس، ظهرت سلالة أخرى قوية تحكم في طيبة وهي الأسرة الحادية عشرة. ودار الصراع بين ملوك طيبة وملوك هيراكليوبوليس انتهى بانتصار ملوك طيبة، وأصبحت مدينتهم عاصمة لمصر المتحدة من

---

(1) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي، ص 50.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 149.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 38.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

جديد في دولة واحدة. ومنذ ذلك الحين، يدخل تاريخ مصر في دور جديد يسمى بعهد الدولة الوسطى[1].

امتدت فترة حكم الإمبراطورية الوسطى من (2050 - 1700 ق.م) وحكمت خلالها في مصر الأسر الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة. وفي هذه الفترة تغيرت بنية الطبقة الحاكمة فأصبحت تتألف من ملاك العبيد ومنهم الفئات الغنية من المشاعيات بعد أن كانت تتألف من كبار الموظفين في عهد الإمبراطورية القديمة[2].

لقد أتاح توحيد البلاد لهذه الأرستقراطية الجديدة، وخصوصاً "النيزس" – أغنياء المشاعيات – ليس تحسين شبكة الري وإنهاء الحروب الأهلية فحسب، وإنما أيضاً تعزيز جهاز الدولة. فقد كانوا بحاجة إلى حكومة قوية لتدعيم مراكزهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم في مجرى حروب التوسع[3].

أسس الأسرة الحادية عشرة في طيبة "منتوحوتب" الذي أنهى حكم الأسرة العاشرة في هيراكليوبوليس ووحد مصر تحت سلطته. وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، التي أسسها امنمحات الأول، حققت مصر أيضاً استقراراً سياسياً وازدهاراً اقتصادياً كبيراً. فأول عمل قام به ذلك الفرعون هو استمالة حكام الأقاليم الذين ما زالوا يتمتعون بالنفوذ، وذلك دون الإخلال بهيبة الحكم وسلطة الملك المركزية. فقد سمح لهم بشيء من الاستقلال على أن يقدموا ولاءهم ويقوموا بما عليهم من واجبات والتزامات تجاه الدولة كدفع الضرائب وتجهيز الجيوش عند الحاجة إليها[4].

التفت أمنمحات الأول، بعد توطيد سلطته، إلى الأمور الخارجية. فنظم الحملات على ليبيا والنوبة وسيناء، واتخذت في حكمه إجراءات ذات دلالات وطنية، كتقوية التحصينات شرقي الدلتا وفي الجنوب، التي عززها سنوسرت الثالث فيما بعد، للدفاع عن حدود الوطن

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 151.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 39.

ضد غارات القبائل السامية والأحباش[1]. وقد تطلبت سياسة الدفاع عن حدود البلاد جيشاً دائماً، كان الفراعنة بحاجة إليه للمحافظة على سلطتهم في الداخل[2]. وقام سنوسرت الثالث بعدة حملات على ليبيا وساق منها الكثير من العبيد والقطيع. كذلك قام بهجوم على بلاد النوبة وضم قسماً منها إلى مصر[3]. وهكذا بلغت الإمبراطورية الوسطى أوجها في عهد الأسرة الثانية عشرة[4].

وكان عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العهود المظلمة في تاريخ مصر القديمة. فقد نشبت المنازعات الداخلية بين حكام الأقاليم أنفسهم، وبينهم وبين السلطة المركزية من جهة أخرى. وكثرت المؤامرات والحروب الأهلية، فاضطرب النظام واختل الأمن، وتوقفت مشاريع الري، فتدهورت الزراعة وتعطلت التجارة فعم الفقر البلاد. وقد ساعدت حالة الفوضى تلك وضعف الدولة المصرية على نجاح الهيكسوس واحتلالهم مصر حوالى عام 1700 قبل الميلاد[5].

لقد جاء الهيكسوس (ملوك الرعاة أو البدو أو الأجانب) من سوريا وفلسطين، وتشكلوا من قبائل سامية وحثية وكاشية[6]. واستقروا في القسم الشرقي من الدلتا واتخذوا مدينة أفاريس (Avaris)عاصمة لهم. وبسطوا نفوذهم على مصر وسوريا وبلاد الرافدين[7].

استمر احتلال الهيكسوس لمصر حوالى 150 عاماً، وحكمت منهم أسرتان: الخامسة عشرة والسادسة عشرة. أحكم الغزاة سيطرتهم على معظم البلاد، وفرضوا على السكان

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 154.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 40.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 152.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 40.

(6) المصدر نفسه، ص 41.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

جزية باهظة، واستعبدوا الفلاحين، ونهبوا المعابد وخربوا بعضها. في حين أظهروا التسامح مع الأرستقراطية المحلية[1].

وفي مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد، قامت في مصر حرب تحريرية بزعامة ملوك طيبة. في أول الأمر، لم يجد هؤلاء الملوك أي مساندة لهم من حكام الجنوب الآخرين، ولكن بمساعدة المليشيا الشعبية أنجز ملوك طيبة (سقنزع مؤسس الأسرة السابعة عشرة، وكاموس وأحمس مؤسسا الأسرة الثامنة عشرة) مهمتهم بنجاح، مناضلين معاً ضد خصومهم المحليين وضد المحتلين الأجانب - الهيكسوس[2].

دحر أحمس الأول الهيكسوس نحو الشمال واحتل عاصمتهم أفاريس، ثم لاحقهم بقواته إلى فلسطين وحاصرهم في قلعة شاروهين حتى انتصر عليهم، وعاد إلى طيبة محملاً بالغنائم مكللاً بالنصر[3].

لقد أعان على توحيد البلاد وتوطد السلطة الملكية واقع أنّ أحمس الأول استخدم الحركة الشعبية في النضال ضد الهيكسوس والأمراء الانفصاليين. فهو لم يترك على رأس المقاطعات إلا حكاماً موالين سلب منهم حق الوراثة وجعلهم مجرد موظفين بسطاء. وفي مقاطعات أخرى استعاض عن أمرائها بحكام جدد اختارهم من بين حاشيته[4].

وهكذا أنشئت في ظل الأسرة الثامنة عشرة حكومة مركزية قوية، وصلت مصر في عهدها إلى أوج قوتها وحضارتها[5].

الإمبراطورية الحديثة 1584 – 1071 ق.م: يطلق على الدولة التي نشأت في مصر بعد طرد الهيكسوس اسم الدولة الحديثة (1584 – 1071 ق.م) حكمت البلاد خلالها أسرات ثلاث هي: الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون.

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 157.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 41.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 158.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أخذ ملوك الأسرة الثامنة عشرة يعملون على تأسيس إمبراطورية تضم بلاد النوبة (السودان) ومصر وسوريا (بما فيها فلسطين وفينيقيا). وكان أحمس الأول، مؤسس الأسرة، قد وضع حجر الأساس لتلك الإمبراطورية بطرده الهيكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين[1]. وأعاد بحملة أخرى إلى النوبة سلطة مصر على ممتلكات الفراعنة القديمة في هذه المنطقة[2]. أما ابنه، أمنحوتب الأول فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة وحملة أخرى إلى سوريا. كذلك فعل صهره وخليفته تحوتمس الأول الذي وصل بحملته في سوريا إلى نهر الفرات، وخلّد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها هناك[3].

وفي عهد خلفاء تحوتمس الأول، أرسلت حملات إلى فلسطين وسوريا من أجل إخضاع الدويلات الفينيقيا وغيرها، وفي سبيل الحصول على الذهب والفضة والأخشاب والخمور والمواشي والرقيق، ليس أبداً بواسطة التبادل التجاري، وإنما تحت اسم جزية ثابتة وبكميات كبيرة[4]. وقد أفادت هذه الحملات، بشكل خاص، قمة المجتمع العبودي: الفرعون، وأسرته، وكبار موظفيه، والكهنة، وقادة الجيش، وحتى الجنود استفادوا من هذه الحروب، فكان لكل منهم حصته من الغنيمة[5].

ولم يتم فتح فلسطين وسوريا إلا بعد حملات مضنية، من احتلال فتمرّد فإعادة احتلال، إلى أن سقطتا على يد تحوتمس الثالث[6].

قاد تحوتمس الثالث عدة حملات عسكرية إلى سوريا، فانتصر في إحداها على تحالف الأمراء السوريين قرب مدينة مجدّو بفلسطين، وفي أخرى قرب مدينة قادش عند بحيرة قطينة إلى الغرب من حمص. وفي معركة عند كركميش (قرب جرابلس الحالية) هزم أيضاً جيوش

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 42.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 159.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 42 - 43.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 159.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الميتانيين، وخلّد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها على شاطئ الفرات إلى جانب اللوحة التي تركها جده تحوتمس الأول هناك[1]. ولم تقتصر حملاته على سوريا فقط، وإنما وجه عدة حملات إلى بلاد النوبة أيضاً، فأخضع معظمها لسلطته[2].

إن فتح سوريا وفلسطين جعل من مصر واحدة من أقوى دول الشرق الأدنى. فقد أرسل ملك بابل الكاشي وملك الحثيين هدايا ثمينة إلى فرعون مصر[3]. وانصبّت الثروات المنهوبة من سوريا وفلسطين في مصر الفرعونية[4].

ويكفي لإعطاء صورة عن الثروات التي نهبها تحوتمس الثالث من ذكر بعض المعطيات: استولى المصريون على غنائم كثيرة أثناء القتال في مجدّو. ولكن هذه الغنائم كانت قليلة جداً بالنسبة الى ما وقع في يد الفرعون إثر سقوط مجدّو واستسلامها لجيشه. فقد استولى المصريون وقتئذٍ على 924 عجلة حربية من ضمنها عجلتا ملكي قادش ومجدّو، وعلى 2238 حصاناً و2000 ثور و22500 رأس من الغنم و130000 مكيالٍ من القمح وكمية من الذهب والفضة تقدر بـ 200 كيلوغرام ومئات الأسرى إلخ... بالإضافة إلى جزية سنوية كان على البلدان المقهورة تأديتها للخزينة الملكية[5].

وعندما عاد تحوتمس الثالث إلى طيبة وجد حملته الحربية التي بعثها إلى بلاد البونت تنتظر أوبته ومعها أشياء كثيرة ثمينة وكميات كبيرة من العاج والأبنوس وجلد النمر والذهب وما ينيف على 223 مكيالاً من المرّ وعدد عظيم من العبيد وقطعان الغنم[6]. وهكذا تأسست الدولة العسكرية المصرية في حكم تحوتمس الثالث[7].

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 44.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال، ص 201.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 160.

(5) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال، ص 199.

(6) المصدر نفسه، الصفحة 201.

(7) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 160.

ورث خلفاء تحوتمس الثالث إمبراطورية واسعة الأرجاء راسخة البنيان، فنعمت مصر بفترة ازدهار كثر فيها العمران وازداد الترف. وفي أثناء حكم أمنحوتب الرابع (أخناتون) زال النفوذ المصري عن سوريا تقريباً ليحل مكانه نفوذ الحثيين[1].

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة، قاد سيتي الأول حملة عسكرية اجتازت فلسطين ووصلت إلى قادش، حيث اشتبكت في معركة مع الحثيين وانتهى القتال بعقد معاهدة صداقة بين الطرفين[2]. كذلك حارب سيتي الأول الليبيين وأوقف غاراتهم على الدلتا[3]. وتابع ابنه رمسيس الثاني أعمال والده الحربية، ووضع نصب عينيه إعادة الإمبراطورية المصرية السابقة أيام تحوتمس الثالث. فجمع جيشاً قسمه إلى أربع فرق وأطلق على كل فرقة اسم أحد الآلهة المصرية (آمون، رع، بتاح، ست). عبر الجيش المصري سوريا الجنوبية متجهاً نحو الشمال يتقدمه الملك على رأس فرقة الإله آمون، والتقى جيش الحثيين عند مدينة قادش. وجرى القتال بين الفريقين القويين المتكافئين دون أن يسفر عن نصر حاسم لأي من الجانبين، وإنما إلى توقيع معاهدة صداقة عام 1296 قبل الميلاد، وقعها رمسيس الثاني فرعون مصر وحاتوشيل الثالث ملك الحثيين. نصت المعاهدة على تعهد الطرفين بعدم اعتداء أحدهما على الآخر، والدفاع المشترك ضد الاعتداء الخارجي أو التمرد الداخلي، وتسليم اللاجئين السياسيين. وقد ظلت فلسطين مع جنوب سوريا والساحل الفينيقي تحت النفوذ المصري، بينما ظل شمال سوريا تحت سلطة الحثيين. وتوجت المعاهدة بزواج رمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل تدعيماً لأواصر الصداقة بين الجانبين المتعاقدين[4].

وبعد وفاة رمسيس الثاني، خلفه ابنه مرنبتاح، فتعرضت مصر في عهده لغزو الليبيين

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 44.

(2) المصدر نفسه، الصفحة 45. أحمد فخري: مصر الفرعونية. دار ممفيس للطباعة - القاهرة 1971، ص 345.

(3) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 46. ود. سليم عادل عبد الحق: المصدر السابق. وأحمد فخري: المصدر السابق، ص 354.

ولكنه تمكن من صدهم[1]. وبعد موت مرنبتاح، اضطربت الأوضاع الداخلية في مصر وأعلن حكام الأقاليم الانفصال عن العاصمة طيبة، فاستغل ذلك الوضع أمير من أصل سوري اسمه يارسو واستولى على العرش الملكي[2]. ولكن قام ضده أمير من أسرة الرعامسة يدعى ست نخت فعزله وتسلم الحكم[3].

أسس ست نخت الأسرة العشرين وخلفه بعد وفاته ابنه رمسيس الثالث الذي قام بإصلاح الجهاز الإداري وتنظيم الجيش، فاستطاع إنقاذ مصر من خطرين دهماها: الأول خطر الليبيين. والثاني خطر شعوب البحر (البلاج). دحر الليبيين غرب الدلتا وتصدى لشعوب البحر[4]. فخاض ضدهم عدة معارك بحرية، ثم قاد حملة إلى فلسطين وسوريا واستطاع أن يشتت شعوب البحر التي وصلت إلى هناك. وفي أواخر حكم رمسيس الثالث عمت الفوضى البلاد ودب الضعف والانحلال في الدولة، وازداد نفوذ الكهنة، وأخذ كبار الموظفين يستغلون موارد الدولة لمصلحتهم ويسيئون استعمال وظائفهم، ونضبت الخزينة الملكية من ثرواتها الأسطورية، وحدثت ضائقة اقتصادية، وارتفعت الأسعار وخصوصاً أسعار الحبوب، فقامت الاضطرابات في كل مكان[5]. وأخيراً دبرت مؤامرة على حياة الملك انتهت بقتله.

حكم بعد رمسيس الثالث عدد من الملوك الضعفاء، فازدادت الفوضى في عهدهم، ولم يبق للملك من سلطة إلا ظلها، في حين أخذ يزداد نفوذ كهنة الإله آمون، ودخلت مصر في عهد الانحطاط.

عصر الانحطاط (1080 - 715 ق.م): إن ضعف السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لأرستقراطية النومات أديا إلى تفكك جديد لمصر التي أنهكتها الحروب المستمرة[6]. ففي

(1) المصدر نفسه، ص 47. وأحمد فخري: المصدر السابق، ص 358 – 359.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها؛ أحمد فخري: المصدر السابق، ص 360، 369

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) أقوام هندو - أوروبية انحدرت من منطقة القوقاز إلى فارس والهند وإلى آسيا الصغرى والبلقان وجزر بحر إيجه، ووصل قسم منهم إلى سوريا وفلسطين ومصر.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. أحمد فخري، المصدر السابق، ص 375 – 376.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 168.

القرن الحادي عشر، أصبح كبير كهنة آمون فرعوناً للأسرة الحادية والعشرين، غير أنه لم يبسط سلطته على جميع البلاد. كما أضحى لنومات الشمال ملوكها الخاصون[1].

وإذا تجاوزنا بعض الفترات التاريخية المحدودة من القوة والازدهار والبعث، فإن الخط العام لعهد الانحطاط قد تميز بضعف سلطة الفراعنة واندلاع الثورات وتعرض مصر لغزو النوبيين والأشوريين والفرس والمكيدونيين.

رأينا أنه في الوقت الذي كانت تضعف فيه السلطة الملكية بعد مقتل رمسيس الثالث كان يتزايد نفوذ الكهنة، حتى إن حيريحور، رئيس كهنة معابد آمون في طيبة، استطاع أن يقبض على زمام السلطة الملكية بالإضافة إلى سلطته الكهنوتية، وتلقب بألقاب الفراعنة وأسس الأسرة الحادية والعشرين[2].

ومثلما كانت الأملاك الواسعة والثروات الهائلة تشكل الأساس المادي لسلطة الفراعنة، كذلك شكلت أموال المعابد الأساس المماثل لسلطة الكهنة. ففي أثناء حكم رمسيس الثاني بلغ عدد ما يملكه الكهنة من الأرقاء نحو 107000 عبد منهم 86500 عبد لكهنة آمون يعملون في أراضيه. وكان بيد الكهان أحسن الأراضي ونسبتها 15 % من أراضي مصر منها 10 % لآمون - رع والباقي لجميع الآلهة الآخرين. وكانوا يملكون 169 مدينة في مصر والنوبة وسوريا، ومن الحيوانات الأهلية نحو نصف مليون رأس و88 مركباً و53 حوضاً لإنشاء المراكب البحرية والنهرية. وكان آمون طيبة يملك ثلثي هذه الثروة وهو أغنى بـ 50 مرة من (رع) هليوبوليس وبـ 9 مرات من (فتاح)ممفيس. وعلى هذا فكهنة معابد الآلهة الثلاثة كانوا يقبضون على الاقتصادات الوطنية كما كانوا يتزعمون بقية السلطات. وفي كل سنة كان آمون يتلقى من كوش جزية من الذهب قدرها 26000 قطعة ذهبية. وكذلك كان يتلقى كمية من الفضة تعادل 17 مرة وكمية من النحاس تعادل 21 مرة وعدداً من القطعان يعادل 7 مرات

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) فخري، أحمد: مصر الفرعونية، ص 385 - 386. وجماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 168.

وكمية من الخمر تعادل 9 مرات وعدداً من المراكب يعادل 10 مرات ما كان يتلقاه غيره من بقية الآلهة[1].

وكان آمون شريكاً للملك فيما تغله مناجم الذهب في النوبة والسودان. ففي العام الرابع والثلاثين تلقى آمون ما يزيد على سبعمائة رطل من الذهب من تلك المناجم. وفي العام الثامن والثلاثين تلقى الكمية نفسها، وفي العام الواحد والأربعين تلقى ما يزيد على ثمانمائة رطل، وهي كميات ذات قيمة كبرى في تلك الأيام[2].

وفي أواخر الدولة الحديثة كان مجموع ممتلكات المعابد في طيبة وهليوبوليس وممفيس 97364 فلاحاً، و476963 رأساً من الماشية و2862 كيلومتراً مربعاً من الأراضي الزراعية و88 سفينة و104 كيلوغرامات من الذهب إلخ... وفي العصر الصاوي، منح الملوك أراضي للأرستقراطية وحكام الأقاليم شرط أن يوقفوها على المعابد بغية تقوية السيطرة الدينية الفرعونية على عقول الفلاحين المتذمرين[3].

لم تستطع الأسرة الحادية والعشرون إنقاذ البلاد من الأوضاع السيئة، بل ازدادت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في التدهور، وشكل المرتزقة الليبيون المتطوعون في الجيش المصري، طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة الكهنة. وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، تمكن أحد قادتهم ويدعى شيشانق، المنحدر من أرستقراطية الجنرالات الليبيين، من الاستيلاء على السلطة في مصر، وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين، وقد نجح شيشانق في إعادة توحيد البلاد، وعمل على إرجاع النفوذ المصري إلى فلسطين مستغلاً النزاع القائم بين المملكتين اليهوديتين[4]، فقام بحملة على فلسطين هاجم فيها أورشليم وعاد بالغنائم[5]. وقد مكنت الثروة الطائلة التي حصل عليها شيشانق من غزوته تلك من

(1) عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) ولسون، جون: الحضارة المصرية، ترجمة د. أحمد فخري، ص 302.

(3) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي، ص 61.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 49.

(5) التوراة: الملوك الأول 14: 25 – 27.

إنشاء حصون ومبان كثيرة أهمها جميعاً قاعته العظيمة في الكرنك والبيلون الذي بناه أمام هذه القاعة وهو أعظم بيلون في مصر على الإطلاق[1].

وفي عهد خلفاء شيشانق من الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، ضعفت السلطة المركزية وقويت سلطة أمراء الأقاليم، وتفتتت وحدة البلاد السياسية، واستقل كل حاكم بإقليمه، ودار الصراع بين حكام الأقاليم على السلطة والسيطرة، وعمت الفوضى والاضطرابات، وازداد الظلم والاستغلال من قبل الكهنة وطبقة العسكريين والموظفين، وضعف نفوذ مصر خارج البلاد[2]. وقد أدى توقف الفتوحات الخارجية إلى نقص في عدد العبيد من أسرى الحرب، فظهر اتجاه لاستعباد السكان الأصليين، وأصبح الكثيرون من المدنيين الفقراء العاجزين عن تسديد ديونهم يحولون إلى عبيد[3].

وعندما اشتد الصراع بين حكام الأقاليم المصرية، قام ملك النوبة سنة 740 قبل الميلاد بحملة على مصر وأخضع لسلطته الحكام المتنافسين. وفي سنة 720 قبل الميلاد، أسس شاباكو سلالة نوبية حاكمة في مصر هي الأسرة الخامسة والعشرون[4].

تعرضت مصر في عهد الأسرة النوبية للغزو الآشوري في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد. وعلى الرغم من المقاومة التي واجهها الغزاة، فإنهم تمكنوا بقيادة "أسرحدون" من احتلال البلاد عام 671 قبل الميلاد[5]. وخضع حكام الأقاليم المصرية لسلطة الآشوريين وأجبروا على دفع الجزية إليهم[6].

واجه المحتلون الآشوريون مقاومة وطنية شديدة، مما اضطرهم للعودة إلى احتلال

---

(1) فخري، أحمد: مصر الفرعونية ص 399.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 49.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 50.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 168.

(6) فخري، أحمد: المصدر السابق، ص 415.

البلاد المرة تلو الأخرى. استغل بامتيك، حاكم مدينة سايس في الدلتا، ضعف الآشوريين فطرد حامياتهم وحرر مصر ووحدها[1].

أسس بامتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين. وفي عهده شمل الاستقرار جميع أنحاء مصر، وبدأت تجارتها بالازدهار بفضل تشجيعه المستمر للتجار اليونانيين الذين كثر توافدهم على مصر لاستيطانها[2]. وقد استعان بامتيك بالمرتزقة الإغريق لتحرير مصر من النير الآشوري وإعادة توحيدها[3]. وأسس التجار اليونان مستوطنات لهم في مصر، أهمها مدينة نقراتيس في الدلتا[4].

وكانت الهجمات الفارسية على مصر واليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد تقطع التجارة الإغريقية، مما كان يوحد بين مصالح المدن اليونانية والملوك الصاويين في المقاومة المشتركة ضد الفرس، ويسهل إقامة التحالف بينهما[5].

عرفت هذه الفترة القصيرة من الازدهار في تاريخ مصر القديمة باسم "العصر الصاوي" وتميزت بتطور الإنتاج السلعي ونمو الحرف وتوسع المبادلات التجارية والثقافية مع دويلات اليونان وآسيا الصغرى[6].

وقد حاول الفراعنة الصاويون تقوية النفوذ العالمي لمصر وذلك عن طريق عقد تحالفات مع الدول الكبرى. غير أن ضعف مصر النسبي في هذه الحقبة التاريخية، لم يتح لملوك هذه الأسرة تحقيق سياستهم الخارجية. فقد سعى نيخاو الثاني، خليفة بامتيك، إلى إنشاء نقاط ارتكاز في فلسطين وسوريا وفي المجرى الأوسط لنهر الفرات عن طريق المحالفات العسكرية، إلا أن الكلدانيين تغلبوا على قوى التحالف المصري - الآشوري عند مدينة

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 168.

(2) فخري، أحمد: المصدر السابق، ص 422 - 423.

(3) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي، ص 76.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 169.

كركميش سنة 605 ق.م وانتقلت، نتيجة لهذا الانتصار، السيادة في الشرق الأدنى إلى الإمبراطورية البابلية الجديدة - الإمبراطورية الكلدانية[1].

وعندما حاول واح - إب - رع (أبريس)، أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، استعادة نفوذ مصر في فلسطين وسوريا، توجه نبوخذ نصر إلى سوريا، واسترجع مدن الساحل ودمر أورشليم وأخذ الآلاف من اليهود القادرين أسرى إلى بابل[2].

إن القوة المتعاظمة للأرستقراطية والكهنة أجبرت الفراعنة الصاويين على طلب مساندة التجار والجنود والمرتزقة اليونانيين، مما حدد التيار الهلنيستي لسياستهم الداخلية.

وقد أثارت الامتيازات الواسعة التي منحت إلى التجار الأجانب وبصورة خاصة إلى التجار الإغريق، والنفقات الضخمة للإبقاء على فرق المرتزقة اليونان في الجيش المصري، استياء الأهالي وحملتهم على الثورة. وأعلن الجنود المصريون عصيانهم على السلطة أيضاً[3]. وقاد أحمس، أحد قادة الفرعون، حركة التمرد وتغلب على المرتزقة، وصعد على العرش تحت اسم أحمس الثاني (أمازيس) [4].

لم يسرح أحمس الثاني المرتزقة اليونان من الجيش أو يطردهم خارج البلاد، وإنما اكتفى باستدعاء حامياتهم التي على الحدود إلى ممفيس، وأرسل المصريين ليحلوا محلهم[5]. وواصل سياسة الأسرة الصاوية التقليدية في توثيق الصلات مع اليونان، وتشجيع المعمرين الإغريق على الإقامة في مصر[6].

في هذه الحقبة التاريخية، حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، نشأت الدولة الفارسية نتيجة لتوحيد القبائل والفتوحات. وقد بذل كورش بمساندة الأرستقراطية الفارسية، المتعطشين جميعاً إلى الفتح والغنيمة، جميع الجهود لإقامة إمبراطورية واسعة.

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) التوراة: الملوك الثاني 25: 8 - 10.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 169.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) فخري، أحمد: المصدر السابق، ص 429.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 169.

ففي عام 550 ق.م. أخضع كورش ميديا، ووضع يده على ما فيها من فضة وذهب، ونهب جميع أنواع كنوزها[1]. ثم احتل أرمينيا وكابادوسيا. وفي عام 546 ق.م. اجتاح ليديا وأسر ملكها كروسوس واستولى على ثرواته الأسطورية. وأخضع بعد ذلك بقليل آسيا الصغرى بما فيها "المدن اليونانية" الواقعة على ساحل بحر إيجة وفرض الجزية على الجميع[2]. وفي الفترة الواقعة بين 545 – 539 ق. م. اجتاح كورش أراضي آسيا الوسطى[3]. وأصبحت البلاد الواقعة غربي نهر الفرات في عداد دافعي الجزية إلى كورش. وغدت فارس سيدة غربي آسيا دون منازع[4].

وبعد أن أحاط كورش ببلاد الرافدين من الشرق والشمال والغرب، وحاصر جميع الطرق التجارية المؤدية إليها، قرر إخضاع خصمه الرئيس، بابل الكلدانيين. وأنجز المهمة عام 538 ق.م دون عناء كبير. وفي بابل، فتح الكهنة والتجار والمرابون الأبواب للجيش الفارسي، آملين أن تتوسع عملياتهم التجارية والمالية في ظل إمبراطورية جديدة أكثر اتساعاً[5].

شرع كورش في تهيئة الظروف ووضع الخطط لفتح مصر، فأطلق سراح اليهود المأسورين في بابل منذ عهد نبوخذ نصر، وأمر بعودتهم إلى فلسطين، ومنحهم استقلالاً ذاتياً، وسمح لهم بإعادة بناء القدس، بعد أن تفاهم معهم على خطة تحويل فلسطين إلى قاعدة استراتيجية فارسية – يهودية للعدوان على مصر والاستيلاء عليها[6].

وقد آثر كورش، قبل أن يلقي بحملة كبيرة لفتح مصر، أن يؤمن ظهره، ويؤكد السيادة السياسية لفارس على البلدان الواقعة شمال شرقيها. وزحف بالفعل بجيشه إلى هناك. ولكن قبائل الشاش والمساجيت وقفت في وجهه وقاومته مقاومة بطولية[7]. وفي إحدى المعارك

---

(1) المصدر نفسه، ص 233.

(2) المصدر نفسه.

(3) الموسوعة التاريخية السوفياتية باللغة الروسية: المجلد 7، ص 251 – 252.

(4) فخري، أحمد: المصدر السابق، ص 431.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 234.

(6) تاريخ العالم باللغة الروسية: المجلد الثاني، ص 22.

(7) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 235.

قتل كورش عام 529 أو 530 ق.م[1]، تاركاً تنفيذ خطة فتح مصر التي وضعها وهيأ ظروفها إلى ابنه قمبيز. وفي عام 525، قاد قمبيز الجيش الفارسي فاستولى على مصر، بمساعدة اليهود والقاعدة اليهودية، وأنهى حكم الأسرة السادسة والعشرين.

حافظ الغزاة الفرس على التنظيم الاجتماعي، ولكنهم استولوا على ممتلكات المعابد مما حمل الكهنة على التذمر ورفع لواء الثورة ضدهم في أوقات متكررة[2].

قاوم الشعب المصري الاحتلال الفارسي وثار عليه مرات عديدة. وتزعم حركة المقاومة الوطنية شريحة من الأرستقراطية كانت تستفيد منها لتوحيد البلاد وتثبيت دعائم النظام الفرعوني، فيتخلى الشعب عنها المرة تلو الأخرى. فقد تمكن أحد الأمراء المصريين ويدعى آمون - حر من طرد الفرس وتأسيس الأسرة الثامنة والعشرين التي كان مقرها في مدينة سايس - صا الحجر[3]. ثم انتقل الملك إلى بيت آخر، وملوكه هم الذين أسماهم مانيتون فراعنة الأسرة التاسعة والعشرين[4]. واستولى "نختنبو" على السلطة وأسس الأسرة الثلاثين. وفي عهدها، أرسل الفرس حملة جديدة إلى مصر وأعادوا احتلالهم لها عام 341 قبل الميلاد[5].

ولم تتوقف الثورات. وقاد حركة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفارسي "جناشا" أحد أمراء الدلتا الذي أعلن نفسه ملكاً على مصر أيضاً، واعترف به كهنة ممفيس[6]. ونعرف من تمثال السترات. أن المصريين كانوا دائمي الثورة طوال الأعوام الثمانية التي قضاها الفرس في احتلالهم الثاني لمصر[7].

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادي، ص 51.

(3) فخري، أحمد: المصدر السابق، ص 439.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، ص 443.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثامن

نظام الحكم والإدارة - الجيش والأسطول

نظام الحكم والإدارة: من أهم المراحل في تاريخ البشرية القديم، تكون نظام الرق ونشوء الدولة الاستبدادية في مصر القديمة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد ظل نظام الحكم، طوال تاريخ مصر القديمة، ملكياً استبدادياً مطلقاً يدافع عن مصالح الأرستقراطية الاستعبادية، كما بقيت الأراضي الملكية الواسعة وثرواتها الأسطورية الأساس المادي لسلطة الفراعنة.

وفي عهد الإمبراطورية القديمة، كانت الدولة أقوى وأكثر مركزة مما كانت عليه دولة صارغون في بلاد ما بين النهرين. وفي إبان حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، تدعمت السلطة الملكية. وكان ذلك ضرورياً لتوحيد مصر وضمان السير العادي لنظام الري، ولقمع مقاومة العبيد والمشاعيين، ومن أجل الحصول على عدد وافر من الرقيق من أثيوبيا وليبيا وفلسطين، وأخيراً لإزالة بقايا النظام القبلي[1]. وقد نجح سنفرو وخوفو وخلفاؤهما في تحقيق هذه المهام على وجه العموم[2].

وكان الملك يؤلّه في عهد الدولة القديمة ويلقب "بالإله العظيم". فهو حوروس إله السماء وابن أوزوريس ثم رع حوروس أو ابن رع[3]. وكان الهدف من انتحاله صفة الألوهية تخويف

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 149.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: تاريخ الحضارة، ص 94.

الشعب وإرغامه على الخضوع وإطاعة أوامر السلطة الملكية المقدسة وعدم التمرد. وهذه الصفة الإلهية تستدعي أن يكون الملك معبوداً من قبل رعيته. ومن مظاهر هذه العبادة تقبيل الأرض بين يديه أو تقبيل قدميه من قبل المقربين منه[1].

وبغية تمجيد الفراعنة، شيدت الأهرام الهائلة في مصر بعمل العبيد والمشاعيين المزارعين. وفي زمن الأسرتين السابعة والثامنة عندما ضعفت السلطة المركزية للملك، وأعلن حكام الأقاليم استقلالهم عن تلك السلطة واتخذ بعضهم ألقاب الفراعنة، زالت من نفوس الناس هيبة الملوك وعظمتهم وقدسيتهم، واعتدى بعضهم على قصورهم وأهراماتهم وسرقوا محتوياتها[2].

وفي عهد الدولة المتوسطة، لم يعد الملك "إلهاً" فحسب، بل أصبح "الراعي الصالح" المسؤول عن رعيته الساهر على مصلحة شعبه المدافع عنه والمؤمن له العدل والحق[3].

وفي عهد الدولة الحديثة ظلت السلطة الملكية ذات طابع إلهي ولكن الملك الإله أصبح يقود الجيش في الحروب باسم الإله آمون - رع الذي يمنحه سيفه وعلمه الإلهي كي يحقق النصر على الأعداء[4]. وعندما مات أخناتون، تصالح خلفه توت عنخ آمون مع كهنة آمون وخضع لسيطرتهم. ولم تعد للملك الإله تلك الرهبة والهيمنة على شعبه، بل أصبح لا بد من الاستعانة بالآلهة والقوانين[5].

وقد جرت العادة من قبل أن يصور الملك في المناظر بحجم أكبر من صور الكهنة والموظفين والقادة العسكريين، على حين يطلعنا مشهد بمعبد الكرنك على صورة الملك رمسيس التاسع مساوية بالحجم لصورة رئيس الكهنة أمنحوتب.

---

(1) المصدر نفسه، ص 95.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 55.

(3) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق. جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 152.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 55.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعندما سيطر الأجانب على مصر في عهد الانحلال الأخير، لم يعد الملوك يدّعون أنهم آلهة أو أبناء آلهة، ولم يعد أحد ينظر إليهم نظرة تقديس وتأليه.

كان الملك، ويدعى باسم برعا - نُقل إلى اللغات الأخرى باسم فرعون ويعني البيت الكبير أو القصر الملكي ويقصد به ساكن ذلك البيت - هو الدولة وحكمه مطلق وكلمته قانون. وهو مصدر السلطات، أوامره وأحكامه هي نطق إلهي[1]. ولما كان الفرعون يتمتع بالسلطة المطلقة فهو الذي يعين الكهنة وكبار الموظفين وحكام المقاطعات ويفرض الضرائب ويرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، ويستطيع مصادرة أموال رعيته والحكم عليهم بالموت دون محاكمة[2].

مهام الملك إذن، متعددة: فمهمته الدينية هي تعيين الكهنة وإقامة المعابد والمقابر الملكية والإشراف على العقائد الدينية باعتباره إلهاً أو ابناً للإله أو الكاهن الأعظم ومهمته العسكرية هي الدفاع عن البلاد وحماية الحدود وقمع الاضطراب والثورة وإرسال الجيوش خارج البلاد بغية الاستيلاء على العبيد والماشية وغيرها من الثروات. وكان الفرعون يعتبر حامل أعلى سلطة قضائية هي السلطة "الإلهية". وكان قضاة الملك في الأقاليم، في عهد الدولة القديمة، يقومون عادة بوظائف الحكام المحليين. وقد خدم القضاء مصالح مالكي العبيد. ولا قيمة عملية أبداً لما يرد في النصوص من تعابير فارغة أو ديماغوجية كتلك التي تذكر مثلاً أن من مهام الفرعون القضائية "إقامة العدل بين الناس ومنع كل ظلم واعتداء"، أو التي تصف الفرعون "بالراعي الصالح" الذي يهتم بمصالح شعبه ويدافع عن "الأرملة واليتيم".

أما بالنسبة الى حياة الملك فقد كان يقيم في مقر عظيم يحتوي على قسمين أحدهما للحياة العامة والرسمية، والآخر لحياته الخاصة، يعيش فيه مع زوجه وأولاده وعدد كبير من المحظيات. وكان الفرعون في أوقات فراغه يمارس الصيد أو يستمع إلى الغناء والموسيقى

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 97.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 146.

ومشاهدة الرقص، أو يخرج في قاربه الملكي مع طائفة من الفتيات وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة[1].

أما تتويج الملك فيتم في احتفال كبير يتقلد فيه شارات السلطة المقدسة (الصولجان والسوط) ويوضع على رأسه التاج الأبيض ثم التاج الأحمر. ويجلس على عرش تحيط به أوراق البردي وأزهار اللوتس، ثم يطوف حول الحائط الأبيض ويطل على الدلتا والصعيد رمزاً لتسلمه السلطة على مصر العليا والسفلى.

وكان يخلف الملك بعد وفاته ابنه الأكبر، ولكن أحياناً كان يستولي على العرش مغتصبون غرباء ويشكلون أسرات حاكمة جديدة. الملكة أو الزوجة الشرعية للملك من أصل ملكي عادة، مما دفع بعض ملوك الدولة الحديثة إلى الزواج بأخواتهم حفاظاً على الدم الملكي. وكانت الملكة تقوم بالوصاية على ابنها إذا تولى العرش وهو طفل، فتمارس السلطة الملكية حتى يكبر أو تستأثر بالسلطة لنفسها أحياناً.

وكانت سلطة الملك في مصر ترى مهمتها الأساسية في تعزيز حكم مالكي العبيد. فقد أنشئ نظام ممركز صارم للإدارة.

وكان القصر الملكي أو البيت الكبير مقر الحكم المركزي يوجه منه الفرعون شؤون الدولة. وكان الفرعون يعتمد في حكم البلاد على جهاز واسع من الموظفين على رأسهم الوزير الأول. وأول من أوجد منصب الوزير هو الملك زوسر (الأسرة الثالثة). وفي بعض فترات التاريخ المصري كان الفراعنة يعيّنون وزيرين أحدهما في ممفيس يشرف على مصر السفلى، والثاني في طيبة يشرف على مصر العليا. وكان الملك يختار وزيره عادة من بين أفراد الأسرة المالكة أما مهام الوزير فكانت الإشراف على جميع أمور الدولة والأجهزة الإدارية كالجيش وبيت المال ومخازن الغلال وجباية الضرائب وأعمال الري والقضاء وإدارة السجلات والوثائق والمحفوظات والأمن وشؤون العاصمة وغير ذلك من الأمور. وكانت ألقابه "محافظ العاصمة، والقاضي الأعلى، ورئيس أسرار الملك، وقائده، ومستشار

(1) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 1950، ج2، ص 95.

الشمال والجنوب ومدير بيوت الذهب والفضة، ومدير أعمال الملك كلها"[1]. وكان الوزير يرئس ما يسمى "بالغرف الست الكبرى" لاستئناف القضايا الحقوقية و"غرفاً" أخرى على رأس مختلف فروع الاقتصاد[2]. كما كان يتبعه أيضاً بعض الدوائر التي تجمع له المعلومات كمكتب إحصاء السكان ومكتب تسجيل الأراضي والممتلكات. وفي زمن الدولة الحديثة، أصبح الوزير يرأس مجلساً تدعوه الوثائق باسم "المجلس الكبير" يتألف من كبار الشخصيات يساعد الوزير على التنفيذ بالإضافة إلى صفته الاستشارية[3].

وكان القصر الملكي يضم إلى جانب الوزراء والأشراف عدداً كبيراً من الموظفين الذين يشرفون على المخازن والورشات الملحقة بالقصر. وكان يقوم بأعمال الكتابة موظفون يدعون باسم "الكتاب". وفي متحف اللوفر بباريس تمثال رائع لكاتب مصري جالس مطوي الساقين، وجسمه يكاد يكون عارياً ويمسك بيده قلماً - وخلف أذنه قلم آخر احتياطي - يدون ما يقوم به ويسجل ما يؤدي من عمل، وما يسلم من البضائع وأثمانها وتكاليفها، ومكسبها وخسارتها، ويحصي السكان وكل ما يملكه الفلاحون من أراضٍ ومواشٍ وأشجار مثمرة وكروم وما يستحق عليها من ضرائب عينية، ويكتب العقود والوصايا، وينظم الجداول بكل هذه الأمور. وهو رجل حريص معني بعمله مجدّ فيه، منفذ لأوامر رئيسه، أوتي قسطاً من الذكاء، ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذي يمنعه أن يكون خطراً[4]. وقد استطاع بعض الكتاب بفضل مهارتهم وذكائهم أن ينالوا مراتب رفيعة ويصبحوا من ذوي النفوذ والحظوة عند الفرعون[5]. وكان هناك أيضاً المحاسبون والمراقبون والحراس وغيرهم من الموظفين.

وكانت المدرسة الفرعونية تربي الموظفين ورؤساء الجيش على مبدأ "انشر الخوف من حولك ليهابك الناس ويخشوك فرقاً". وكان حكام الأقاليم والموظفون الآخرون يحاكمون

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 146.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 58.

(4) ديورانت، ول: قصة الحضارة، ج2، ص 90 - 91. كوروفكين، ص 38.

(5) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، ص 100.

أولئك الذين يخرقون إرادة الفرعون، ويعاقبون المذنبين بالجلد أو الزج بهم في غياهب السجون، فتقطع آذانهم وتجدع أنوفهم[1]. وتذكر النصوص أن أحد الموظفين كان يتباهى وهو يتحدث عن قسوته قائلاً: "كنت أنشر الإرهاب بين الناس، وأقمع السجين، وأرغم المتمرد على الاعتراف بأخطائه"[2].

وإذا كان للدولة بعض الجوانب الإيجابية في تاريخ مصر القديمة، فإنها لعبت في الوقت نفسه دور إعاقة نمو القوى المنتجة بسبب قسوة الاستغلال وشدة الإرهاق. فازدادت عزلتها عن الجماهير العاملة، وأظهر الشغيلة عداءهم لسلطة الفراعنة والكهنة، وأصبح تجنيد المحاربين من بين المصريين أمراً صعباً، مما يفسر انتقال النظام الفرعوني إلى تشكيل الجيش من المرتزقة. ولم يتورع حكام الأقاليم والبيروقراطية العليا حتى عن الخيانة الوطنية والانضمام إلى الغزاة الأجانب كما حدث، مثلاً، مع الهيكسوس.

وكان يطلق على إدارات الدولة المتعددة اسم "بيوت الملك". وكان الموظفون يتقاضون أجورهم عيناً من المحصولات الخاصة بالأملاك الملكية أو من الضرائب التي تجبى عيناً[3].

أما في الأقاليم، فكان ملوك الدولة القديمة يعينون عليها حكاماً من بين أفراد الأسرة المالكة أو من كبار الموظفين والقادة العسكريين، وكان هؤلاء الحكام يمثلون الملك في مقاطعاتهم ويعتبرون أعلى سلطة إدارية وعسكرية وقضائية ودينية في مناطق حكمهم. وقد ظل نفوذ الأقاليم محدوداً طالما كانت سلطة الفراعنة قوية. ولكن عندما تولى الملك فراعنة ضعفاء في أواخر عهد الدولة القديمة، ازداد نفوذ حكام المقاطعات وتمتعوا بسلطة واسعة واستقلال داخلي محلي، وأصبحوا يورثون وظائفهم لأبنائهم من بعدهم، ويعلنون أحياناً انفصالهم عن السلطة المركزية في العاصمة[4]. أما في عهد الدولة الوسطى، وخصوصاً في زمن الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، فقد استطاع الفراعنة فرض سيطرتهم التامة

(1) كوروفكين، تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 40.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. فرح، نعيم: تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، ص 59.

(4) المصدر نفسه، الصفحة 60.

على حكام الأقاليم، إذ عينوا في تلك المناصب الموالين لهم وعزلوا عنها المعارضين لحكمهم[1]. كذلك كان الأمر في عهد الدولة الحديثة. ولكن في أواخر حكم الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين توالى على العرش ملوك ضعفاء، مما أتاح الفرصة لبعض حكام الأقاليم لإعلان استقلالهم وانفصالهم عن السلطة المركزية، كما أعلن البعض منهم أنفسهم، في عهود الضعف والاحتلال، ملوكاً وأسسوا أسراً ملكية حاكمة[2].

وكان في المدن والقرى موظفون يدعون "أوصياء المدن والقرى"، يتبعون حاكم المقاطعة وينفذون أوامره ويشرفون على تصريف شؤون مجتمعات وحداتهم الإدارية ويساعدهم في أعمالهم أعيان المدن والقرى "سارو" وهم ينحدرون من رؤساء القبائل القديمة ويؤلفون مجالس تدعى "زازات" تشمل صلاحياتها البحث في القضايا الزراعية والإدارية والعدلية وتطبيق الأنظمة[3].

وفي متحف القاهرة تمثال "لشيخ البلد" - مختار القرية - وهو رجل الإدارة في القرية. ملاّك يشرف على الفعلة، بيده عصا السلطة، وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك من سعة في الرزق وقلة في الكدح[4].

وكانت الإدارات الرئيسية للحكومة المصرية ثلاثاً هي:

1 - الخزينة: (مخازن، ومستودعات وأنبار) يسجل فيها ما يرد من ضرائب عينية تنهبها الدولة من السكان.

2 - الأشغال العامة: تهتم خصوصاً بأعمال الري. وقد مكن الحكم الممركز من اتقان منظومة الري التي كانت أساس الزراعة.

3 - الجيش (غرفة السلاح): الذي كان يسلب الشعوب الأجنبية[5].

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(4) ديورانت، ول: قصة الحضارة، ج2، ص 132.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 146.

فإلى جانب الغنائم الحربية، كانت المصادر الأساسية لدخل الحكومة هي الضرائب من السكان التي كان يقوم بجبايتها جهاز متشعب من الموظفين[1].

وكانت الضرائب عينية تفرض على المواشي والمنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية والمعدنية. وكان مكتب الاحصاء التابع للوزير يسجل جميع الأراضي والأشخاص والمواشي ويعاد الإحصاء مرة كل سنة أو سنتين لحصر أملاك الدولة والأملاك الخاصة وفرض الضرائب عليها[2]. وإذا علمنا أن أملاك الكهنة كانت معفاة من الضرائب، وأن جزءاً كبيراً من موارد الخزينة كان يذهب لبناء المقابر الملكية والمعابد وتزيين القصور واستيراد السلع الكمالية وغير ذلك من النفقات غير الإنتاجية، يتبين لنا بوضوح أن عبء الضرائب كان ملقى بشكل رئيس على جماهير الشغيلة وخصوصاً الفلاحين.

الجيش والأسطول: كان الهدف الأساسي من تشكيل الجيش المحافظة على مصالح طبقة ملاك الرقيق وقمع الاضطرابات والثورات الداخلية وحماية حدود البلاد من الغارات الأجنبية والقيام بالفتوحات والتوسع من أجل الحصول على العبيد والماشية والمعادن المفيدة والثمينة وسلب ثروات الشعوب ومنها فرض الجزية على البلدان المقهورة.

لم يكن في مصر جيش دائم منظم في عهد الدولة القديمة، وإنما كان الجيش مليشيا تتألف من جنود الأقاليم، يقدمهم الحكام بناء على طلب الملك، ومن المرتزقة النوبيين والليبيين، لترسل للقتال أو لمرافقة البعثات التجارية أو الاستثمارية أو الإنشائية[3]. وعلى الرغم مما أعلنه أحد ضباطها بزهو في نقش له "أن رجاله لم يسلبوا المصريين، ولم يقتحموا الأبواب لسرقة الفطائر وغيرها". فالمعتقد أن هذه الكتائب كان ينقصها النظام والانضباط وغير ذلك من صفات الجيوش الوطنية الدائمة[4].

واعتباراً من عهد الدولة الوسطى، أخذ الفراعنة يؤسسون الجيوش الدائمة ويهتمون

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي، ج1، ص 90.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 59.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 146.

(4) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

بتنظيمها وتجهيزها، بعد أن تكدست لديهم الخبرة بالأمور العسكرية من خلال حروبهم الطويلة مع الهيكسوس.

وقد أتاح نمو السكان وتطور الحرفة لفراعنة الدولة الحديثة زيادة عدد الجيش وتجهيزه تجهيزاً جيداً[1] وأصبح الجيش دعامة السلطة الملكية[2]. فتنوعت فرقه وتحسنت أسلحته، وأقيمت المصانع لصنع السلاح واللوازم. وكان للضباط وحتى الجنود نصيب من الغنائم. كما كان الفراعنة يكافئون العسكريين الذين يبدون شجاعة وتضحية في المعارك. وازداد عدد الجنود المأجورين في الجيش المصري حتى استطاع بعضهم (الليبيون) اغتصاب السلطة وتأسيس أسرة ملكية حاكمة منهم[3].

إن الانتقال إلى نظام تشكيل الجيش من المرتزقة، يؤكد أن تجنيد المحاربين من بين المصريين أصبح أمراً صعباً، وأن الشغيلة أظهروا عداءهم لسلطة الفراعنة والكهنة[4] وكان المرتزقة، حتى في مصر ذاتها، قساة مع الفلاحين والعبيد. وفي حالة الحرب مع دولة أخرى لم يكن الفرعون بقادر على أن يعتمد عليهم، ذلك لأنهم يستطيعون دائماً الانتقال إلى الجانب الذي يدفع لهم أفضل[5]. وقد أدى كل ذلك إلى استياء العناصر المصرية وإلى ضعف الروح القومية في الجيش ونقمة الشعب، مما سهل استيلاء الآشوريين ثم الفرس فالمكيدونيين على مصر.

وكان الجيش في عهد الدولة القديمة يتألف من المشاة والرماة، وسلاحه الرماح والأقواس والمدى. وكانت فرق المشاة، المؤلفة من الفلاحين المجندين بالقوة، تشكل القوة الرئيسية في الجيش المصري[6].

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) كوروفكين: المصدر السابق، ص 57.

(3) انظر صفحة: 85.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 166.

(5) كوروفكين، المصدر السابق، ص 57.

(6) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وفي عهد الدولة الحديثة، تنوعت فرق الجيش كالمركبات الحربية ذات العجلتين التي تجرها الخيول، وفرق المشاة (الثقال والخفاف). وفرق اختصاصية بمهاجمة المدن مسلحة بالتروس العريضة والآلات الضخمة، وأخرى تختص بحفر الخنادق والأبراج[1]. كما حسّنت جميع الأسلحة فأصبحت تضاهي ما كان عند أعدائهم. فيشاهد في اللوحات الحجرية المشاة الثقال حاملين الرماح ذات الأسنة البرونزية والتروس المصفحة والفؤوس والخناجر، ويرى فيها المشاة الخفاف حاملين الأقواس والسهام ذات الأسنة البرونزية[2]. وظهر استخدام السيف.

واهتم الفراعنة في مختلف عهود مصر القديمة وخصوصاً في الدولة الحديثة، بإقامة التحصينات على الحدود الجنوبية والغربية والشرقية، كما نظموا حراسة تلك الحصون تنظيماً دقيقاً. ولا تزال بقايا تلك الحصون قائمة إلى وقتنا الحاضر.

وكان الفرعون القائد الأعلى للقوات المسلحة، يقود الجيش بنفسه في المعارك أحياناً، أو ينيب عنه ولي العهد أو ضابطاً عسكرياً مشهوراً كان يحمل لقب "قائد الجند العظيم". وقد اشتهر تحوتمس الثالث بأنه كان قائداً شجاعاً ورجلاً ذا قوة هرقلية[3]. وتذكر النصوص أنه قاد 17 حملة حربية خاض بها معارك مظفرة منها معركة "مجدو". وكان أول من أدار معركة حربية منظمة وقسم الجيش إلى قلب وجناحين، وأول من عرف الحرب الخاطفة.

إن وجود النيل في مصر أدى إلى اختراع الأطواف ثم المراكب فالسفن منذ أن شرع المصريون في الاستقرار على ضفاف النهر العظيم كما تدل على ذلك الرسوم التي خلفوها على اللوحات والأواني الفخارية. وقد ساعد على تطوير السفن وتكوين الأساطيل البحرية الموقع الجغرافي لمصر على البحرين المتوسط والأحمر.

وكان من أسباب إرسال الحملات الحربية إلى فينيقيا هو الحصول على أخشاب الأرز والصنوبر والسنديان الجيدة لإنشاء الأسطول المصري. وقد استخدم فراعنة الدولة الحديثة

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) كوروفكين: المصدر السابق، ص 57.

الأسطول في معاركهم البحرية والنهرية، وكذلك لنقل الإمدادات لدعم الجيوش البرية، وقاتل جنود الأساطيل المصرية المهاجمين من شعوب البحر "البلاج" على السواحل المصرية وانتصروا عليهم.

وفي العهد الصاوي، تطور الأسطول (الحربي والتجاري) تطوراً كبيراً ونشطت حركة الملاحة. واستخدم الأسطول المصري أيضاً في الحروب مع الفرس وظل يلعب دوراً فعالاً في الحياة السياسية والاقتصادية حتى الفتح المكيدوني لمصر عام 332 قبل الميلاد[1].

استخدم ملوك مصر الأسطول أيضاً في تنشيط التجارة البحرية. ومن أجل ذلك أقاموا علاقات تجارية مع فينيقيا وكريت، وشقوا قناة مائية تصل النيل بالبحر الأحمر، وشجعوا التجار الأجانب وخصوصاً اليونانيين على الإقامة في مصر وإنشاء مراكز تجارية (نوكراتسي فلاً)، وأرسلوا بعثات استكشافية دارت حول أفريقيا وعادت من مضيق جبل طارق (ملقارت) بعد ثلاث سنوات محملة بالبضائع الغريبة[2].

وبواسطة الجيش، أنشأ الفراعنة إمبراطورية واسعة تمتد من النيل إلى الفرات، وبواسطته أيضاً، سلب الفراعنة البلدان المغلوبة وفرضوا الجزية على من بقي حياً من رعاياها[3]. وكانت قوافل البغال والسفن تنقل إلى مصر حمولات ثقيلة من الذهب والبرونز والعاج والأبنوس. وكان المحاربون يقتادون ألوف الأسرى، وقطعان الماشية والخيول[4].

وكانت الثروات المنهوبة تعود إلى ملاك العبيد المصريين والكهنة منهم على وجه الخصوص. وزادت الفتوحات عدد العبيد في مصر بصورة ملحوظة. وتذكر النصوص أن الكهنة كانوا يملكون 107 آلاف عبد منهم 86500 عبد لكهنة آمون يعملون في أراضيه[5]، فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والأرستقراطية المدنية والعسكرية؟

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 62 - 63.

(2) المصدر نفسه، ص 63.

(3) كوروفكين، المصدر السابق، ص 58.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) انظر ص 105.

وعلى حين كان الفراعنة يضطهدون بقسوة الفلاحين والعبيد، فإنهم كانوا يكافئون رؤساء الجيش وكبار الموظفين (البيروقراطية العليا) مقدمين إليهم الأراضي والعبيد والماشية. ويقص علينا أحد رؤساء الجيش أن الفرعون كان يمنحه عقب كل حملة من حملاته أراضي وذهباً وعبيداً[1] فأصبح ملاكاً غنياً للرقيق[2].

وإذا كانت حروب الفتح قد أغنت مُلاك العبيد والبيروقراطية العليا ورؤساء الجيش، إلا أنها على العكس من ذلك كانت خراباً على الفلاحين. فالفلاحون المجندون بالقوة في الجيش كانوا يسقطون قتلى أثناء المعارك مع العدو، أو يموتون من الحمى في نوبيا المرزغية أو يهلكون من شدة الحرارة في الصحراء[3]. ولم يكن هناك من بديل لزراعة أراضي الفلاحين المرسلين إلى الحرب، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الفلاحي، وإذا قدر لمحارب أن يعود سالماً إلى قريته مسقط رأسه، فإنه كان يصعق عندما يعلم أن أمواله قد نهبت، وأن زوجه وأولاده قد بيعوا عبيداً[4].

لقد تنامى حقد الفلاحين والحرفيين والعبيد على الفرعون وملاك الرقيق، وازداد تذمرهم مما حملهم على الثورة كما سيأتي.

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 40.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 58.

(4) المصدر نفسه، ص 59 - 60.

الفصل التاسع

البنية الاقتصادية

تعترض الباحث في دراسة البنية الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة بعض الصعوبات الناجمة عن ضآلة أو نقص المعلومات والوثائق العملية التي تبحث في قضايا أساسية معينة كالملكية والعلاقات الاجتماعية بحثاً إحصائياً مفصلاً. على أن هذا التحفظ لا يعني أن معلوماتنا عن البنية الاقتصادية والاجتماعية لمصر القديمة لا تفي لرسم صورة واضحة المعالم، بل يعني أنها ليست كاملة.

كان الاقتصاد المصري يعتمد بشكل أساسي على الزراعة والري. واتسم بأهمية اقتصادية كبيرة صيد السمك والصيد البري. وكانت تربية المواشي تتطور وخصوصاً في دلتا النيل لوجود المزيد من المراعي الغنية. وقد ساعد تحسن أدوات العمل وخصوصاً التوسع باستعمال البرونز، وزيادة الإنتاج الزراعي ونمو السكان والفتوحات على تطور الحرفة والتجارة. وكان الأساس للمجتمع العبودي المصري يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، واستثمار الطبقة السائدة لمنتجي الخيرات المادية المباشرين، الفلاحين الفقراء والحرفيين والعبيد. ولهذا كان النظام الاقتصادي الاجتماعي العبودي المصري نظاماً طبقياً تناحرياً استثمارياً عاصفاً بالصراعات الطبقية وبثورات وانتفاضات المحرومين والمستعبدين على مضطهديهم ملاك الرقيق.

الزراعة: كانت الزراعة عماد الاقتصاد في مصر القديمة. وقد أطلق المصريون على

بلادهم اسم كيمي "الأرض السوداء" دلالة على خصب تربتها. وكان يعمل في الزراعة أغلبية السكان وهم من الفلاحين الأحرار والعبيد. وكانت منتجاتها تشكل المصدر الأساسي لتغذية السكان وإطعام الجيوش وتموين الخزينة الملكية وتوفير الخامات لعدد من الصناعات الحرفية. ولا غرو بعد هذا كله إذا كانت الزراعة هي المورد الخصب الذي أكسب مصر حضارتها اليافعة.

اكتشفت النساء الزراعة في وادي النيل منذ عصر ما قبل الأسر. يؤيد ذلك ما تقصه أسطورة إيزيس أنها عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً في أرض مصر وكشفت عنهما لأوزير[1]. وأسهمت المرأة المصرية إلى جانب الرجل في مختلف الأعمال الزراعية.

ومنذ تفسخ نظام العشيرة في عصر ما قبل الأسر، أخذت الملكية الخاصة للأرض بالاتساع على حساب أراضي المشاعيات. وكانت جميع الأراضي الزراعية في مصر العبودية ملكاً للفرعون من الناحية النظرية، يمنح منها ما يشاء إلى أقربائه ومقربيه وإلى المعابد ورجال الدولة وغيرهم[2]. ويمكن عملياً تمييز عدة أنواع من الملكية، فمنها: ملكية كاملة، ومنها ملكية موقتة للاستغلال مدة من الزمن أو مدى الحياة، ومنها ملكية مؤجرة للاستغلال بالحصة[3]. وأصبحت ملكية الأرض منذ عهد الدولة القديمة القاعدة المادية لسلطة الفراعنة والقوة الأساسية لنفوذ الأرستقراطية والكهنة.

كانت المشاعة الريفية الخلية الاقتصادية والاجتماعية الأساسية في مصر الإمبراطورية القديمة، وكانت تتعرض للاستثمار الوحشي من جانب مالكي العبيد[4]. وفيما بعد تطورت بصورة واسعة استثمارات المعابد، وأصبح الكهنة من كبار الملاكين العقاريين في مصر. فقد قدر ما امتلكته المعابد من أرض مصر بـ 750000 فدان، أي سبع أرض مصر الصالحة

(1) ديورانت، ول: قصة الحضارة، المرجع السابق، ج2، ص 160.

(2) د. فرح، نعيم، المصدر السابق، ص 69.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ود. سليم عادل عبد الحق، المصدر السابق.

(4) جماعة من العلماء السوفيات، عرض اقتصادي تاريخي، ج1، ص 90.

للزراعة[1]. وفي عهد الدولة الحديثة، نمت الملكية الخاصة عن طريق شراء الأراضي من الفلاحين المخربين أو بطريق الحيازة، مما أدى إلى انحلال سريع للمشاعيات الريفية[2].

لقد كان العبيد يشكلون القوة العاملة الرئيسة في استثمارات الملك والمعابد وفي ممتلكات كبار مالكي الأراضي والموظفين في عهد الدولتين الوسطى والحديثة، اللتين كان نظامهما الاقتصادي يرتكز على العبودية[3]. فقد ورد في النصوص أن المعابد كانت تملك 107000 عبد منهم 86500 عبدٍ لمعبد آمون وحده[4]. فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والأرستقراطية المدنية والعسكرية؟

إن الأساس الذي قامت عليه علاقات الإنتاج في المجتمع العبودي هو ملكية السيد لوسائل الإنتاج وللمنتجين أنفسهم أي العبيد، فقد كان العبد أداة مملوكة لسيده الذي لا يقتصر ملكه على استغلاله وإجباره على العمل فقط، وإنما كان يمتد إلى بيعه وشرائه بل الاعتداء عليه وقتله[5].

وبفضل العمل العبودي، تحققت في مصر أعمال هائلة كبناء الأهرامات والمعابد والسدود والأقنية، ناهيك عن استخدامهم في الحقول الزراعية والمناجم ونقل الأحمال وخدماً في المعابد وغير ذلك[6].

أما الجمهور الأساسي من السكان المصريين فكان يتألف من الفلاحين الأحرار (ميرتو، في بعض النصوص المصرية القديمة). من اغتنى منهم كالنيزس غدا في عداد الأغنياء والأسياد الأرستقراطيين. ومن أصبح فقيراً معدماً بائساً كانت حياته لا تختلف في شيء عن

---

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 182.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 168.

(3) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي، ج1، ص 90.

(4) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 182. وجماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 167.

(5) غنيم، أحمد محمد: تطور الملكية الفردية، ص 40.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 163.

حياة العبيد، بل إن بعضاً منهم تحول الى رقيق نتيجة خرابه وعدم تمكنه من تسديد ديونه إلى الأغنياء.

كان الفلاحون يحرثون الأرض، ويقدمون المحاصيل إلى فرعون وولاته وكهنته، ثم لا يلبث أن يسوقهم الجنود إلى إنشاء الطرق وبناء الأهرامات والمعابد وتطهير قنوات الري وحراثة الأراضي الملكية والعمل في محاجر الدولة ومناجمها، حيث يشتغلون بالسخرة ويموت منهم المئات في كل يوم من الجوع والتعب والتعذيب والإرهاق. وقد وصف أحد الكتبة المصريين بؤس معاصريه الفلاحين وما يعانونه من متاعب وما يتعرضون له من استغلال وظلم وتعذيب قائلاً: "هلا استعدت في خيالك صورة الزارع حين يجبى منه عشر حبّه؟ لقد أتلفت الديدان نصف القمح، وأكلت أفراس البحر ما بقي له منه: وهاجمته في الحقول جماعات كبيرة من الجرذان، ونزلت به الصراصير، والماشية النهمة، والطيور الصغيرة تختلس منه الشيء الكثير، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له في الأرض، عدا عليه اللصوص. يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث. وفي هذه اللحظة يخرج الجابي من القارب عند المرسى ليطلب العشور. ثم يأتي حراس أبواب مخازن الملك بعصيهم، والزنوج بجريد النخل، يصيحون: تعالوا الآن، تعالوا! فإذا لم يأتهم أحد طرحوا الزارع أرضاً، وربطوه، وجروه إلى القناة وألقوه فيها مبتدئين برأسه، وزوجته مربوطة معه، ثم يُسلك أطفاله بالسلاسل إلخ..." [1]

وكان قدماء المصريين قد وضعوا أسس الزراعة منذ عصر ما قبل الأسر، إذ اقتلعوا أشجار الغابات التي انتشرت على ضفاف النيل، وجففوا المستنقعات، وأنشأوا أقنية الري وأقاموا السدود، ومهدوا الأرض لزراعة الحبوب والأشجار المثمرة.

اعتمدت الزراعة على الري، وكان كلما استطاع المصريون استغلال فيضان النيل وتطوير أعمال الري، في بلد لا يلعب فيه المطر أي دور في حياة سكانها، ازدهر المحصول وكثر. وكان النيل يحمل الخير في كل عام ويفيض على الأرض العطشى فيرويها ويغذيها بطبقة

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 83 - 84. وأدولف إرمان وهرمان رانكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ص 513 – 514.

كثيفة من الطمي تزيد الأرض غنى والمواسم وفرة وجودة. وقد مكن الحكم الممركز من إتقان وتوسيع منظومة الري التي كانت أساس الزراعة، فحفرت الأقنية وشقت الترع لجرّ المياه إلى الأراضي التي لا تصلها مياه الفيضان وأقيمت السدود وجففت المستنقعات. وكان من أعظم مشاريع الري التي أنجزها الفراعنة هو سد الفيوم.

يقع منخفض الفيوم على بعد خمسين كيلومتراً جنوب غربي ممفيس، وينخفض حوالى أربعين متراً عن مستوى سطح البحر. وهو أجمل واحة بالصحراء الليبية (الغربية) وذات قيمة اقتصادية كبرى. وقبل حكم الأسر، كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محولاً إياه إلى بحيرة عظيمة بحيرة موريس، تكتنفها المستنقعات.

بدأت إقامة السد في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة من أجل تخزين المياه والإفادة منها في وقت التحاريق، وتجفيف المستنقعات واستصلاح أراضٍ لحقية على جانب عظيم من الخصب. ولكن الفضل الأعظم في إنجازه يرجع إلى الفرعون أمنمحت الثالث (1849 - 1801ق.م) الذي أطال السد العظيم فأبلغه إلى نحو سبعة وعشرين ميلاً، فاكتسب بذلك أراضي زراعية تبلغ مساحتها 2500 كيلومتر مربع أو سبعة وعشرين ألف فدان. وقد وصف هيرودوت واسترابون هذا المشروع الضخم، كما شاهد استرابون محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة بإقليم البحيرة المذكورة[1].

وغني عن البيان أن الأراضي التي نتجت من إقامة الجسور في الفيوم كانت ملكاً لفرعون مصر[2]. وغني عن البيان أيضاً أن العبيد والفلاحين الفقراء كانوا قد استخدموا في مختلف أعمال هذا المشروع العملاق. ومن أجل ذلك صار إقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانياً وسياسياً[3].

وخلال فترة الانتقال، من الدولة الوسطى إلى الدولة الحديثة، شرع الزراع المصريون باستثمار الحقول المرتفعة التي لا يصلها فيضان النيل. لذا أجبروا على سقايتها بواسطة

(1) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة د. حسن كمال، ص 123 - 124.

(2) المصدر نفسه، ص 124.

(3) المصدر نفسه، ص 125.

آلات رافعة خاصة كان أبسطها "الشادوف"[1]. ومن الجائز أن زراعة الحقول المرتفعة أدت إلى ظهور محراث متقدم ذي مقبضين خشبيين وذلك تسهيلاً لعمل الفلاح[2].

استخدم قدماء المصريين أدوات زراعية صنعوها من الحجارة والخشب، وفيما بعد من النحاس فالبرونز وغير ذلك. وكانت المعزقة الأداة الأساسية في حراثة الأرض، كما كان المنجل الخشبي ذو الأسنان أو الشظايا الصوانية أداة الحصاد؛ وقد أدى تطور القوى المنتجة وبالدرجة الأولى أدوات العمل، إلى زيادة الإنتاج. فقد أحدث استخدام المحراث ذي السكة المعدنية الذي تجره الثيران ثورة في الزراعة. فالمحراث في أصله معزقة مطورة، أضيف إليها مقبضان خشبيان ثم زيد من طول المقبضين وأضيف إليه عريش واستخدمت الثيران لجره بدل القوى البشرية، ثم استعملت البغال أحياناً في هذا العمل منذ عصر الدولة الحديثة[3].

وكانت عملية الحرث تتطلب وجود عاملين زراعيين، يضغط أحدهما على مقبضي المحراث ويقود الآخر الثورين. وحين يتم إعداد الحقل كانت تباشر عملية البذر. وكان العامل الذي يقوم بالبذر يحمل سلة تحوي الحبوب على كتفه أو بين يديه. ثم تنثر البذور فوق الأرض، ثم يطلقون خرافاً على الأرض المبذورة فتدفن البذور بقوائمها في باطن التربة[4]. ثم استبدلت الخراف بالخنازير في الدولة الحديثة[5].

وكان الحصاد يتم بواسطة مناجل خشبية ذات أسنان صوانية، ويربط المحصول في حزم توضع على ظهور الحمير لتنقلها إلى الجرن حيث تدرس. ويتم الدرس بواسطة الحيوانات

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدرالسابق، ص 151.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) إرمان، أدولف ورانكه، هرمان: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة. ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، ص 497.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، ج4، ص 329 – 330؛ وارمان ورانكه: المصدر نفسه، ص 497.

(5) المصدر نفسه، ص 330. وإرمان ورانكه: المصدر نفسه، ص 497.

كالثيران والحمير ثم يجمع القش في كومة عالية ويذرى بواسطة المذراة للفصل بين القش والحبوب ثم ينقى ويغربل بالغربال ثم يحمل بأكياس لخزنه في صوامع الحبوب[1].

زرع المصريون القمح والشعير والشوفان والكتان، كما اهتموا بزراعة البساتين بالأشجار المثمرة والخضار وأبدعوا في تربية الكروم وأنتجوا أحسن أنواع العنب[2].

تربية المواشي: اهتم قدماء المصريين بتربية الماشية منذ أن دجنوها في عصور ما قبل التاريخ للاستفادة من لحمها ولبنها وخاماتها وكذلك لاستخدامها في الأعمال الزراعية. وقد وصلت إلينا رسوم أثرية تمثل ثيراناً وأبقاراً وأغناماً وحميراً وخنازير وخيولاً ووعولاً وغزلاناً وطيوراً مما يفسر الأهمية الكبيرة لهذا القطاع في حياة السكان واقتصاد البلد.

وكانوا يبعثون بمواشيهم لترعى في مستنقعات الدلتا بعض الوقت حيث الحشائش البرية الغزيرة الصالحة لغذاء الحيوان، إذ بينما كانت أراضي وادي النيل تستغل كلها للزراعة كانت الدلتا تحوي مساحات واسعة من المراعي تنمو فيها الحشائش البرية[3].

وكانت الثيران والأبقار أهم الحيوانات الأهلية عند القدماء المصريين. وذلك بالنظر إلى الدور الذي تلعبه في حياتهم وفي أعمالهم الزراعية. فالثور الذي يجر المحراث بقوته الجسدية، (رمز القوة) كان هو التعبير الذي يوصف به الملك منذ أول العصور، كما أن الملك كان يصور عادة منذ العصر الباكر على شكل ثور يهدم بقرنيه جدران المدينة أو يطأ عدوه بحوافره. والبقرة (رمز الإلهة حتحور التي تمثل الأمومة المقدسة) [4].

وإلى جانب الثيران والأبقار، اهتم قدماء المصريين بتربية الأغنام والماعز والحمير والخنازير[5]. وأما الجياد والبغال فلم تعرفهما مصر قبل غزو الهيكسوس[6]. وكانوا يحتفظون

---

(1) إرمان ورانكه، المصدر نفسه، ص 498 – 503.

(2) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 103.

(3) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 506.

(4) المصدر السابق، ص 504.

(5) المصدر نفسه، ص 509.

(6) المصدر نفسه، ص 512.

بأنواع من الحيوانات البرية المجترة المقتنصة ثم يربونها مع ماشيتهم. فقد تناهت إلينا صور أثرية لظباء وتياتل ووعول وغزلان[1]. وكانوا يقتنون أعداداً كبيرة من الطيور (كالإوز والبط) التي يصطادونها بشباكهم الكبيرة من المستنقعات[2]. وكانت مستنقعات مصر تؤوي غير طيور الماء المحلية، أعداداً لا حصر لها من الطيور الوافدة من أوروبا[3]. وكانوا يسمنون الطيور التي يصطادونها بإطعامها الحبوب وخيوط العجين بعد وضعه بالماء[4]. أما الدجاج فلم يكن معروفاً آنذاك على ما يبدو.

الحرفة: يطلق اسم حرفة على صناعة الأشياء بالجهد اليدوي، واسم حرفيين على الذين يقومون بصناعتها. وبمهارة الصناع المصريين، تم إبداع الآيات العجاب من الذهب والعاج والقاشاني والخشب، كما تشهد على ذلك مخلفاتهم الأثرية والنقوش والرسوم على جدران المقابر والمعابد والأواني.

وقد أدى تطور الزراعة وتربية المواشي إلى انفصال الحرفة. وظهر حرفيون ممتهنون: نحاسون، وحاكة، ونجارون، وصانعو أثاث، وصاغة، وفخارون، وحجارون إلخ... وشهدت الصنائع والحرف تطوراً كبيراً في مصر الفرعونية، وبلغت أوج تقدمها في عهد الدولة الحديثة، بسبب نمو القوى المنتجة، وخصوصاً التوسع في استخدام الأدوات البرونزية، وزيادة الإنتاج الزراعي ونمو السكان وزيادة عدد الجيش. كما تطور التكنيك في مجال الصنائع المدنية والحربية. ففي بناء الأهرامات، استخدمت وسائل خاصة لرفع الكتل الحجرية، كما شهدت منظومات الري التي أقيمت على بحيرة موريس أو على نهر النيل، على تطور المعارف التكنيكية، واستعملت أثناء العمليات الحربية مركبات المعارك وآلات هدم الأسوار كما تشير إلى ذلك اللوحات والرسوم الجدارية الأثرية.

وبصورة عامة، كان الأبناء منذ طفولتهم يساعدون آباءهم ويتعلمون منهم المهنة.

---

(1) المصدر نفسه ص 509 – 510.

(2) المصدر نفسه، ص 510.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وهكذا كانت المهنة تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. وكان هناك حرفيون أحراراً يعملون لحسابهم الخاص وآخرون يعملون في ورشات الفرعون والكهنة وكبار الموظفين[1].

وفي عهد الدولة القديمة، كان معظم الحرفيين من الذكور ما عدا حياكة النسيج التي كانت من نصيب الأناث عادة[2]. وكان يعمل في الحرفة الأحرار والعبيد. وكقاعدة، كان المواطنون الأحرار هم الذين يزاولون الحرفة، ولكن في الأعمال الأكثر مشقة والأقل كفاءة وعلى الخصوص في البناء كان يستخدم العبيد.

هذا ويمكن تصنيف الصناعات الرئيسة لدى قدماء المصريين بالأنواع التالية:

1 - الصناعات المعدنية: كان أول معدن اكتشفه المصريون هو النحاس، عثروا عليه في الألف الرابع قبل الميلاد في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، وقد حفظ لنا منه العدد الوافر من الأواني والأسلحة والآلات منذ فجر التاريخ حتى الدولة المتوسطة[3].

في أول الأمر، صنع المصريون الأدوات من النحاس (كالأوعية والأسلحة وأدوات الزراعة والحرفة) بواسطة تطريقه، ثم تعلموا فيما بعد صهره وصبه في قوالب خشبية أو فخارية. وفي عهد الدولة الوسطى، اكتشف المصريون صناعة البرونز بخلط النحاس مع القصدير. أما الحديد فلم يستعمل في مصر إلا في عهد الدولة الحديثة[4].

وعثر على الذهب في الصحراء الشرقية ونوبيا، واستعمل في صناعة الحلي وفي تطعيم وتزيين الأثاث والأدوات منذ عهد الدولة القديمة، كما صنعت منه حلقات تستعمل كمقياس للتبادل التجاري[5]. وتدل المجموعة المدهشة لمصنوعات الذهب من سائر عصور التاريخ المصري القديم المحفوظة في متحف القاهرة وكذلك في متحف برلين على دقة وإحكام صناعتها وأناقة أشكالها[6].

---

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 50 – 51.

(2) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 518.

(3) المصدر نفسه، ص 531.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ود. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 70.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 70.

(6) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 532.

2 - الصناعات الخشبية: استخدم المصريون أشجارهم المحلية كالجميز والنخيل والصفصاف في مختلف صناعاتهم الخشبية. أما السنط الذي يصلح لصناعة المراكب والأبواب والأثاث، فيبدو أنه أصبح في مصر نفسها نادراً منذ زمن مبكر[1].

ولم يكن الخشب المحلي جيداً وجميلاً، ولذلك كثيراً ما كان يغشى بطبقة من نوع أجود أو بطلائه بلون أصفر فاتح، وتعاريج حمراء حتى يبدو على شكل الخشب الأجنبي الثمين[2]. لهذا لا عجب إن عمد المصريون منذ أقدم أزمنتهم إلى البحث عن الخشب الجيد خارج بلادهم، فاستوردوا أخشاب الأرز والصنوبر والسنديان من فينيقيا، والمر والأبنوس من بلاد النوبة والبونت[3]. ففي متحف برلين ثلاثة توابيت كبيرة من الخشب من عهد ما بين الدولتين القديمة والمتوسطة، ألواحها من خشب الصنوبر، وفي هذا ما يدل على أنها جلبت إلى مصر من الخارج[4].

وكانت أدوات النجارين وصانعي الأثاث (كالمنشار والقدوم والفأس والإزميل والمثقب) من النحاس في أول الأمر ومن البرونز فالحديد فيما بعد[5]. وبواسطة هذه الأدوات، صنع النجارون القوارب والسفن النهرية والبحرية، والأعمدة التي تحمل سقوف المنازل، والأبواب والمقاعد والصناديق والمناضد والتوابيت والتماثيل وغير ذلك[6].

وقد أبدع النجارون وصانعو الأثاث أعمالاً فائقة أتاحتها لهم صناعة المراكب والمركبات وأجزاء المنازل والأثاث وصناعة الأسلحة والتوابيت وغيرها من أثاث المقابر تشهد لصناعها بالمهارة والإتقان، على الرغم من بساطة الأدوات التي استخدمت في صنعها[7].

---

(1) المصدر نفسه، ص 522.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 71.

(4) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 522.

(5) المصدر نفسه، ص 523، 531. ود. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 71.

(6) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 71.

(7) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 523 - 524.

3 - صناعة المنسوجات: عرف المصريون صناعة المنسوجات الكتانية منذ العصر النيوليتي واعتمدت هذه الصناعة منذ نشأتها على الكتان المحلي الذي عرف المصريون زراعته في العصر نفسه[1]. وكانت الثياب الكتانية هي الشائعة في مصر القديمة. ولم يستعمل المصريون المنسوجات الصوفية إلا قليلاً. وكانت صناعة الملابس تعتبر بصفة عامة من عمل النساء، فقد سبق للإلهتين إيزيس ونفتيس أن "غزلتا ونسجتا وبيضتا" ملابس أخيهما وزوجهما أوزوريس[2].

وكانت جواري البيت هن اللائي يقمن بهذا العمل في ضياع أرستقراطيي الأزمنة القديمة، غير أنه فيما بعد أصبحت تقوم به نساء الفلاحين الأرقاء في الدوائر الكبيرة[3]. وفي حالات أخرى نرى الرجال يعملون على الأنوال على نحو ما ذكره هيرودوت متعجباً[4]. وعلى شواهد مقابر الأسرة العشرين في أبيدوس نجد في بعض الأحيان رجالاً اتخذوا النساجة حرفة لهم[5].

وتناهت إلينا صور من عهد الدولتين الوسطى والحديثة ترينا طريقة غزل الكتان ونسجه والأدوات المستخدمة في صناعته. وكانت ملابس الكتان الغليظة والخشنة في كل عهد تصنع غالباً بعناية فائقة. أما ملابس الكتان الرقيقة فقد بلغت درجة عالية من الدقة والإتقان. وما حفظ لنا من هذا الكتان الرقيق يمكن مقارنته في طراوته ونعومته بنسيج الحرير في الوقت الحاضر[6].

4 - الصناعات الحجرية والفخارية: عرف المصريون الصناعتين الحجرية والفخارية منذ عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك مخلفاتهم التي عثر عليها علماء الآثار في حلوان

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 138.

(2) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 518.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ومرمدة وديـر تاسـا والبـداري والعمـرة وجـرزة وغيرهـا مـن المحطـات الحضارية الأثريـة. واسـتمر قدماء المصريين في صنع بعض أدواتهم وأوانيهم من الحجارة والفخار طوال عهود العصر التاريخي المصري القديم.

ولم تكن الحجارة المجلوبة من المحاجر تستخدم في مباني المقابر والمعابد فحسب، وإنما كانت تستخدم أيضاً في صنع التماثيل والأدوات والأواني وغيرها. فقد حفظت لنا مقابر فجر التاريخ صحافاً وأقداحاً من الحجر الجيري ومن المرمر ذات جمال مدهش، وعلى نحو ذلك الأواني العديدة من العصر نفسه المصنوعة من أصلد الأحجار كالغرانيت والبازلت في أشكال بالغة حد الكمال[1]. وكان المرمر والشيست والسربنتين والديوريت والحجر الجيري والرملي والغرانيت أهم الأحجار التي استعملها قدماء المصريين.

وقد حظيت صناعة الفخار بوفرة خاصة من المواد الخام - الصلصال الجيد. وكانت الأوعية والأواني الفخارية تشكل باليد، ثم اخترع الدولاب حوالى عام 3000 ق.م[2]. ويشهد اختراع عجلة الفخاري على أن صناعة الفخار قد أصبحت حرفة منفصلة[3]. وأفضى اختراع الدولاب إلى زيادة إنتاج الأواني الفخارية. ولم تكن عجلة الفخاري تحرك بالأقدام وإنما كانت تدار باليد اليسرى، في حين كانت اليد اليمنى تشكل الإناء[4]. ومن ثم كانت الأواني والقدور تحرق في أفران مبنية من اللبن تمثلها الصور على أشكال مختلفة[5].

وكان الفخاري يصنع من الصلصال الجرار والقدور والأقداح والصحاف والصحون من مختلف الأشكال التي يميز بعضها العصور الرئيسة من التاريخ المصري. وقد حفظ لنا الكثير من هذه الأواني كما حفظ لنا الكثير من صورها[6].

---

(1) المصدر السابق، ص 549 - 550.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 139.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 526 – 527.

(5) المصدر نفسه، ص 527.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ومـن ناحيـة الزخـارف تتميـز أيضـاً أواني أقدم العصور برسـومها المحفـورة وصورها الملونـة عن أواني الدولتيـن القديمـة والمتوسـطة. ومـن الأسـرة الثامنـة عشـرة فقـط نجـد مـن جديـد سـروراً قويـاً بزخرفـة الأوانـي مـن الصلصـال. وقـد كان يؤثـر تحليتهـا بأكاليـل الزهر في ألـوان زاهيـة، وفي بعض الأحيـان كانت تحلـى أيضـاً بصـور بعـض الحيـوان كالبـط والعجول والخيـل وما ماثـل ذلك[1].

5 - صناعـة الخـزف (القاشـاني) والزجـاج: عـرف المصريون صناعـة الخزف منذ أقدم العصـور. وقد عثر علـى آلاف النمـاذج الخزفيـة مـن مختلف العصـور. وكانت طريقة صنعـه تتلخص في طحن حجـر الكوارتز وعجنـه ثـم صبه في قوالـب فخارية.

وفـي مقابـر فجـر التاريـخ، عثـر على خرز عقـود وعلى تماثيـل صغيرة لقـرود وطيـور وحيوانات أخرى وعلـى أوانٍ أيضـاً مـن القاشـاني[2]. وتوسـع الخزافون فـي صناعاتهم الخزفيـة في عهد الدولـة الحديثة، فلم يكـن هنالـك شـيء تقريبـاً لـم يصنع أيضـاً في بعـض الأحيان من القاشـاني وذلك مـن أدق وأصغـر العقود والتماثيـل إلى رقـاع اللعب الكبيـرة والتماثيل[3].

أمـا الزجـاج فقـد عـرف فـي مصـر منذ أقـدم العصـور. وذلـك لأن التحليـل الكيميـاوي لخـرزة موجودة فـي متحـف برليـن عثـر عليهـا فـي مقبـرة من فجـر التاريخ أثبـت أنها مـن الزجـاج[4]. وقد تطـورت صناعة الزجـاج فـي العصـر التاريخـي وبلغت شـأواً عالياً في عهد الدولة المتوسـطة. ومنذ الدولـة الحديثة تطالعنا أدوات كاملـة مـن الزجـاج تقدمـت صناعتهـا حتـى أصبـح المصريـون يعرفـون كيـف يضفون علـى الزجاج أي لـون يريدونه[5].

6 - صناعـات متفرقـة: فمـن قصـب البـردي كانـت تصنـع القـوارب والصناديـق، وينسـج

(1) المصدر نفسه، ص 528.

(2) المصدر نفسه، ص 528.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه، ص 529.

الحصير وتفتل الحبال وتهيأ النعال[1]. وفوق هذا كله كانت تصنع منه المادة الأساسية لصحف الكتابة عند المصريين[2]. وظل المصريون يصدرون ورق البردي إلى البلدان الأخرى حتى العصور الوسطى. واستخدمت جلود الحيوانات في صنع الأحذية والألبسة والتروس والجعاب والأحزمة وأغطية الكراسي في المنازل[3]. ويدل ما حفظ لنا في المقابر من أدوات مصنوعة من الجلد على مدى تقدم هذه الصناعة. وهناك أيضاً الصناعات الغذائية ويأتي في مقدمتها الخبز والجعة.

التجارتان الداخلية والخارجية: كانت التجارة الداخلية في مصر ضعيفة نسبياً، لأن الملوك وكبار رجال الدولة والمعابد كانت لهم أراضيهم وورشاتهم الحرفية. أما الموظفون والعساكر فكانت الدولة تدفع لهم رواتب عينية من غذاء ولباس. وهكذا اقتصرت التجارة الداخلية على الحرفيين وصغار الفلاحين الأحرار[4].

وعلى الرغم من تطور الحرف في مصر الدولة القديمة، فإن الاقتصاد ظل في جوهره اقتصاداً طبيعياً[5]. وتشير بعض نقوش الدولة القديمة إلى قيام "السوق" التي تدور فيها المعاملة على المبادلة والمقايضة[6].

وتوضح الرسوم النادرة في إحدى مقابر سقارة عملية البيع والشراء في إحدى أسواق الدولة القديمة، إذ إننا نرى بائع السمك جالساً أمام سلة من الحلفاء وهو ينظف سمكة كبيرة يساوم زبونته على ثمنها، وهي تحمل في صندوق صغير ما تقايض به عليها[7]. وإلى

---

(1) ارمان ورانكه: المصدر السابق، ص 516.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. وكان إعداد البردي للكتابة عليه يجري على النحو التالي: كانت تقطع سيقانه طولًا إلى شرائح رقيقة توضع عليها طبقة ثانية من الشرائح، ثم تطرق الأوراق المؤلفة من ذلك بشدة وتجفف وتلصق جنباً إلى جنب، ثم يلف (يقرطس) الكتاب الذي ينشأ من عدد من هذه اللصائق. وكانت بدايته ونهايته تقويان بشرائح تلصق من الأسفل لحمايتهما.

(3) المصدر نفسه، ص 520.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 72.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 143.

(6) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم. ج4، ص 297.

(7) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 567.

جانب هذه المجموعة بائع آخر يعرض دهاناً أو ما يشبه ذلك، وتعرض له فيه امرأة إناءين صغيرين. وبائع آخر يبيع "كعكاً حلواً" غير أن القلادة التي تقدم له من أجل كعكة تبدو غير كافية، ولذلك يحصل علاوة عليها على زوجين من النعال، إذ يقول له الشاري: "هاك (أيضاً) زوجين من النعال متينين! " وتتم عملية المقايضة[1]. وعند بائع الخضر يبدو أن الأمر لم ينته إلى الاتفاق، إذ يريد المشتري أن يبتاع خضراً بزوج من القلائد فيقول له البائع: "دعني أر، إعط الثمن (المناسب)! " وفي الوقت نفسه يأتي شار آخر يريد شراء ما يحتاج إليه من البصل بمروحة ومكنسة[2].

على أن الأمر لا يقتصر هنا على تداول المأكولات فقط، وإنما ترينا الرسوم المذكورة أحد الباعة يجلس القرفصاء أمام سفطه وفيه حلي من اللونين الأحمر والأزرق، ويساوم امرأة تريد أن تشتري إحدى هذه القطع البراقة وإلى جانبها صانع الشصوص يحاول أن يبيع بضاعة إلى أحد الرجال[3].

ومنذ قيام الدولة الحديثة اتسع نطاق الأسواق فشملت بعض البضائع المستوردة وخصوصاً في الموانئ، واستحدث الميزان للتأكد من وزن السلعة لتقويمها تقويماً صحيحاً[4]. وعلى ذلك لم تعد السلع تبادل جزافاً أو حسب عادة لا تتميز، وإنما أصبح يدفع فيها الثمن المستحق[5].

وتناهت إلينا من الدولة الحديثة كثير من رسوم أمثال هذه المعاملات التي كانت تحدث كثيراً بالقرب من السفن الكبيرة التي كانت تجلب السلع من الخارج إلى مصر. ففي مقبرة خاع إم حت، ترينا بعض المشاهد رسو سفن كبيرة جلبت مؤونة الحبوب للدولة وقد رست في ميناء طيبة. وبينما يعمل معظم الملاحين على تفريغ شحنتها، يتسلل البعض إلى البائعين

(1) المصدر نفسه، ص 567 – 568.

(2) المصدر نفسه، ص 568.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 398.

(5) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 570.

الذين يجلسون القرفصاء على الشاطئ أمام قدورهم وسلالهم يبيعون الأطعمة المختلفة، أما ما يدفعه الملاحون فيها فيظهر أنه القمح الذي أخذوه أجراً لهم مما تحمله السفن[1].

ولما كانت العملة غير معروفة بعد، فقد اتخذت وحدة قيمية هي الـ"دبن" من النحاس (وزنته حوالى 91 غراماً) يقوّم المبيع بما يعادل مضاعفاتها أو أجزاءها ويسدد الثمن سلعة تقوّم بالسعر نفسه. فإذا كانت هناك سلعة يقدر لها 10 "دبن" من النحاس مثلاً فلم يكن معنى ذلك أن يدفع ما زنته 10 "دبن" من النحاس ولكن سلعة أخرى تبلغ قيمتها 10 "دبن" كذلك[2].

وإذا كان النظام الفرعوني قد أعاق نمو التجارة الداخلية ولم يوفر لها ظروف التطور، فإن التجارة الخارجية حققت ازدهاراً كبيراً. وقد ساعدت الفتوحات ونمو الحرفة والزراعة على تنشيط حركة التجارة الخارجية التي كانت حكراً بيد الفرعون وكهنة آمون[3].

واهتم الفراعنة بإرسال البعثات التجارية أو الحربية إلى البلدان المجاورة لتوفير حاجات وكماليات القصور الملكية والمعابد[4].

ومنذ عهد الدولة القديمة، انشأ الفراعنة علاقات تجارية مع البلدان المجاورة وخصوصاً مع سوريا، وتوثقت هذه العلاقات وتوسعت في عهد الإمبراطورية الوسطى وبصورة خاصة في عهد الإمبراطورية الحديثة، حيث أخذت الأساطيل التجارية تجوب البحرين وتعود محملة بالسلع. فقد أرسل فراعنة الدولة المتوسطة بعثات تجارية بصورة رئيسية إلى فينيقيا: إلى بيبلوس (جبيل) وأوغاريت (رأس شمرا) وأقاموا صلات تجارية مع بلدان بحر إيجه، وغدت التجارة أكثر نشاطاً عما كانت عليه في زمن الدولة القديمة.

وقد عزز نمو المهن والتجارة الإنتاج السلعي، وخصوصاً في نهاية الإمبراطورية الوسطى عندما أصبح الذهب مقياس القيمة[5].

---

(1) المصدر نفسه، ص 568 - 569.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ص 297. وإرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 570.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 163.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 72.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 154.

وكانت التجارة الخارجية تتم بإرسال بعثات خاصة إلى الجنوب والبونت، وإلى جزر بحر إيجه. ذلك لأن الفرعون والكهنة منذ فتح فلسطين وسوريا، أصبحوا يحصلون على ما يريدون على شكل جزية سنوية[1]. كانت مدينة صور الفينيقيا فقط قد احتفظت بحق إقامة علاقات تجارية مع مصر[2].

وفي عهد الدولة الحديثة، أرسلت بعثتان تجاريتان كبيرتان إلى الجنوب، الأولى في حكم الملكة حتشبسوت، والثانية في حكم تحوتمس الثالث. وجاء في النص المنقوش على معبد الدير البحري الذي أمرت حتشبسوت ببنائه، سجل بأسماء المواد المنقولة من بلاد البونت عن طريق البحر الأحمر. وهذه المواد هي: صمغ المر وأشجار المر الخضراء، وخشب الأبنوس والعاج النقي، والذهب والفضة، والطيوب وأنواع البخور، ومواد لتكحيل العيون، وقردة، وكلاب صيد، وعبيد[3]. وقد حصل "الرسول الملكي" على هذه المواد من" ذخائر بلاد البونت" في مقابل الخناجر وفؤوس القتال والقلائد البهيجة الألوان التي يرغب فيها أهالي البونت، أي أنّ عملية التبادل تمت بالمقايضة التجارية[4].

وكان الفراعنة والكهنة يبادلون ثمار السلب في مقابل مواد يوردها التجار الملكيون لبابل وقبرص وكريت وجزر إيجية أخرى[5]. وكان على هؤلاء التجار أن يقدموا أولى تقدماتهم إلى الفرعون وإلى الإله آمون، ويبيعوا الآخرين الباقي، مما أثار استياء كهنة المعابد الآخرين والتجار أنفسهم الذين ازداد عددهم زيادة واضحة في عهد الدولة الحديثة[6].

وفي العصر الصاوي، توسعت الحركة التجارية. فقد عقد بامتيك الأول علاقات تجارية

---

(1) المصدر نفسه، ص 163.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 588. ود. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 72. جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص 163.

(4) المصدر نفسه، ص 587.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 164.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نشيطة مع بلدان الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبصورة رئيسية مع اليونان حيث كانت مصر تستورد منها القمح[1]. ولعب التجار اليونان دوراً هاماً في تجارة مصر الخارجية ومنحتهم الدولة عدداً من الامتيازات، وأسسوا مستوطنات لهم منها مدينة نوكراتيس في غربي الدلتا[2]. وتم في عهد نيخاو الثاني حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر[3].

ولعبت التجارة الخارجية دوراً هاماً في إدخال بذور أنماط جديدة للإنتاج، فمع انتشارها، وتغلغل عناصرها في البلاد، وخصوصاً في الدلتا، زادت عمليات التبادل النقدي بالعملة المعدنية، بعد أن كانت المقايضة العينية هي الوحيدة، ولا يقوم المعدن - الذهب فيها إلا بدور المقياس المشترك للقيمة التبادلية.

(1) المصدر نفسه، ص 169.

(2) انظر ص:87-88

(3) دريوتون، اتيين وفانديه، جاك: مصر. تعريب عباس بيومي. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1974، ص 639.

الفصل العاشر

البنية الاجتماعية

هرمية المجتمع العبودي في مصر القديمة: طبقاته وفئاته

المتغيرات التي طرأت على بنية الطبقة الأرستقراطية: يعود تاريخ العبودية في مصر إلى أواخر الألف الرابع ق.م، وكانت تدعم المجتمع الرّقي خلال قيام الدولة المصرية، وأصبح من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وانقسم المجتمع إلى طبقتين كبيرتين متعارضتين: طبقة العبيد، وطبقة ملاك العبيد، وهكذا تكونت طريقة الإنتاج القائمة على العبودية.

وفي ظل العبودية، كان السكان ينقسمون إلى أفراد أحرار وعبيد. وكان الأفراد الأحرار- عدا النسوة اللائي وقعن تحت سيطرة الرجال وأصبحن في مصاف العبيد منذ تفسخ نظام الأمومة واستبداله بنظام الأبوة - يتمتعون بكل الحقوق المدنية والسياسية وبالملكية، بينما كان العبيد (رؤوس في النصوص المصرية) مجردين من كل الحقوق، لا يملكون شيئاً، بل هم أنفسهم مملوكون لأسيادهم.

وكان الأفراد الأحرار ينقسمون إلى طبقتين: طبقة ملاك الأراضي والعبيد، وطبقة صغار المنتجين وهم الفلاحون المشاعيون (ميرتو) والحرفيون. فمن اغتنى من هؤلاء تحول إلى

مالك عبد مستثمر (كالنيزس في عهد الدولة الوسطى)، ومن أفلس تحول إلى عبد. وعلى الرغم من ذلك فإن المالكين الصغار قد استمروا في البقاء.

وكان رجال الدين - بفضل ثروة المعابد - ينتمون إلى طبقة مُلاك الأراضي والعبيد.

ولا شك أنه كان يوجد إلى جانب التناقض الطبقي بين السادة والعبيد، تناقض آخر هو التناقض بين كبار الملاك العقاريين والفلاحين المشاعيين. ولكن نظراً إلى أن العمل العبودي الذي كان أقل كلفة قد امتد مع نمو النظام الرقي إلى أغلب فروع النشاط الاقتصادي، وانتهى بأن أصبح القاعدة الأساسية للإنتاج، فقد أصبح التناقض بين السادة والعبيد هو التناقض الجوهري في المجتمع الرقيّ، وتاريخ مصر القديمة حافل بالصراعات الطبقية. ومع استمرار العبودية تعاظم حقد المستثمَرين على مستثمريهم وجلاديهم الذين انعزلوا عن شعبهم مما سهل للأجانب احتلال مصر.

هذا وإن رسم صورة واقعية دقيقة واضحة ومتكاملة للمجتمع المصري ليس مهمة سهلة، بسبب قلة الوثائق ونقصانها، ومع ذلك فإن ما تناهى إلينا من معلومات هامة يكفي لرسم خطوط عامة عن التركيب الطبقي وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين طبقات المجتمع العبودي المصري.

طبقات المجتمع: تكون البناء الهرمي للمجتمع المصري وتدعم خلال قيام الدولة المصرية، فكانت طبقة الأرستقراطية تشغل قمة الهرم الاجتماعي، في حين كان الفلاحون الفقراء والحرفيون وصغار الباعة والعبيد، وهم يشكلون أغلبية السكان في مصر، يشغلون قاعدته العريضة.

1 - طبقة الأرستقراطية: كانت الطبقة الاجتماعية السائدة في مصر الإمبراطورية القديمة تتألف من نبلاء البلاط وأرستقراطية المقاطعات والكهنة وعلى رأسهم جميعاً الملك. وكان هؤلاء الأسياد يملكون أراضي واسعة تضم قرى متفرقة في أنحاء البلاد، وقد ورث الأرستقراطيون جزءاً كبيراً من ممتلكاتهم، كما أنهم كانوا يتلقون أيضاً الأراضي من

الفرعون مكافأة لهم على خدماتهم. وكان رجال الدين الأعلون ينتمون إلى الطبقة السائدة، طبقة الأرستقراطية[1].

وفضلاً عن الأرستقراطية العليا، كان يوجد موظفون صغار وكهنة يملك الواحد منهم عبدين أو ثلاثة من الجنس النسائي على وجه العموم. ومع ذلك لم يكن في استطاعتهم بناء قبور فخمة، وإنما كانوا يعدون أقبية مزينة بالنقوش والتماثيل[2]. وفي عهد الدولة الوسطى، تغيرت بنية الطبقة الحاكمة، بعد أن تلاشت الأراضي الواسعة لأرستقراطية العاصمة ممفيس إبان فترة الاضطراب التي سبقت قيام هذه الدولة. قديماً كانت الأرستقراطية تتألف في المقام الأول من كبار الموظفين الذين يعيشون في ممفيس عادة، ويستغلون مصريين أحراراً في أراضيهم الواسعة، أما الآن فقد أصبح قوام الأرستقراطية من ملاك العبيد والنيزس[3]. وهي العناصر التي اغتنت من الفلاحين المشاعيين.

وكان هؤلاء النيزس يملكون أراضي واسعة وماشية وعبيداً[4]، حتى أصبحوا أحياناً نبلاء. وفي هذه الحالة، كانوا يصرحون في نقوشهم بأنهم حصلوا على "النبالة" بوسائلهم الخاصة وليس عن طريق الولادة[5].

وقد استفادت هذه الأرستقراطية الجديدة، وخصوصاً النيزس، من توحيد البلاد، إذ أملت ليس في تحسين شبكة الري وإنهاء الحروب الأهلية فحسب، وإنما أيضاً تعزيز جهاز الدولة وقيام حكومة قوية لتوطيد موقعها في البلاد وزيادة عدد عبيدها في سياق الفتوحات والتوسع[6].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، تشكلت الدولة العسكرية، وأصبحت الطبقة الحاكمة

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 145.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 151.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه.

تتألف من قوتين جديدتين تتقاسمان الصدارة: القوة الأولى تضم نبلاء البلاط والكهنة، وتضم الثانية الفئة العسكرية، وكان الكهنة قد أثروا إثراء أسطورياً على حساب البلدان والشعوب المغلوبة، وعززوا سلطتهم أكثر عن طريق توسيع أملاكهم. فقد سلّم الفراعنة إلى المعابد أراضي واسعة مع جميع سكانها[1]. وهكذا أصبح الكهنة ملاكين عقاريين كباراً[2]. وكان معبد آمون في طيبة، وهو أغنى المعابد، يتلقى باستمرار أراضي جديدة[3]. فقد منحه تحوتمس الثالث أحسن الحقول والبساتين في مصر العليا والسفلى، وأراضي مرتفعة، وأسرى آسيويين وزنوجاً كان يتوجب عليهم ملء صوامع الإله[4]. وكان معبد آمون يملك من الأراضي والرقيق والفلاحين الذين يعملون فيها أكثر مما كانت المعابد الأخرى تمتلكه مجتمعة[5]. وهذا التميز لمعبد آمون جعله يلعب دوراً ملحوظاً في تاريخ مصر اللاحق[6]. فقد أصبح الكاهن بتاح مس، في أواخر حكم أمنوفيس الثالث، قابضاً على كل السلطات الدينية والسياسية ومحافظاً لطيبة ووزيراً للمنشآت[7]. فانحاز أمنوفيس الرابع الذي كان يطمح من جهته إلى السلطة المطلقة سياسياً ودينياً، إلى جانب حزب المعارضة، وسعى بمساعدتها الى استخلاص السلطة الملكية من سيطرة كهنة آمون والنبلاء القدامى[8]. ولكنه لم ينجح سوى في تأجيل الأحداث المتوقعة، وهي استيلاء حريحور كبير كهنة آمون على العرش، وتلقبه بألقاب الفراعنة وتأسيسه الأسرة الحادية والعشرين[9].

لقد أغدق الفراعنة المنح والهبات السخية على المعابد بغية استخدامها للدفاع عن

---

(1) المصدر نفسه، ص 161.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) أنظر ص 83 - 84.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق.

(7) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(8) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 165.

(9) انظر ص:84.

السلطة الملكية بما لها من تأثير ايديولوجي في الجماهير الشعبية. وقد نتج من سياسة مواصلة الفراعنة منح الكهنة وغيرهم الأراضي وغيرها من الثروات نقصان واضح في الأراضي الملكية وإضعاف سلطة الفراعنة نفسها، وأدت في بالمقابل إلى ثراء الكهنة وتعاظم نفوذهم وتدخلهم في شؤون الدولة إلى درجة تمكن فيها كهنة آمون من السيطرة على مقاليد الحكم في بعض الأحيان[1]. لقد كانت أملاك المعابد معفاة من الضرائب. وعاش الكهنة في يسر ورفاه على حساب الجماهير الشعبية الكادحة. وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكي يتخم الآلهة[2].

أما القوة الثانية من الطبقة الحاكمة فكانت الفئة العسكرية التي تشكلت حديثاً من الضباط ذوي الرتب المتوسطة والعليا. وكان الفرعون يختار عناصر من ذوي الرتب العليا للمناصب الهامة في الإدارة المركزية والقصر الملكي، مما هيأ لهم، بحكم مراكزهم، إمكانية التأثير في سياسة الدولة الداخلية. وكان الضباط ذوو الرتب المتوسطة والدنيا يتلقون أراضي مقابل خدماتهم، وشكلوا بعددهم الكبير سنداً متيناً للسلطة الملكية. وكان طبيعياً بالتالي أن يصغي الفرعون الى رغباتهم[3]. وقد وصلت العصبة العسكرية درجة من النفوذ مكنها من اغتصاب السلطة وتأسيس أسر ملكية حاكمة[4].

لقد تغيرت بنية الطبقة الأرستقراطية خلال مجرى العصر التاريخي لمصر القديمة، وظهرت تناقضات مصلحية بين مختلف فصائلها، غير أن هذه التناقضات لم تؤد إلا إلى استمرار النظام الفرعوني على الأسس الاقتصادية والاجتماعية نفسها رغم التغيرات البطيئة أو الضعيفة التي طرأت على القمة السياسية[5].

وعلى الرغم من أن الأرستقراطية الحاكمة لم تتورع من اتخاذ مختلف أساليب العنف

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) ديورانت، ول: قصة الحضارة، ج2، ص 182.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 162.

(4) انظر ص:73-74.

(5) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص 56.

الرجعي أو الديماغوجية للمحافظة على مواقعها السياسية ومصالحها الاقتصادية ولتضليل الجماهير في إخفاء طبيعتها الاستغلالية، فإن ذلك لم يحل دون ازدياد تفسخها وانعزالها عن الشعب، نتيجة التناقضات المختلفة، إلى درجة اعتمادها على المرتزقة والأرقاء الأجانب كقوة ضاربة للجيش الذائم بدل الفلاحين المجندين الذين أظهروا عداءهم لسلطة الأرستقراطية والكهنة.

2 - الفلاحون: كان الفلاحون يؤلفون غالبية الشعب المصري وهم أعضاء المشاعيات الريفية الذين يملكون اقتصادهم الصغير القائم على العمل الشخصي والملكية الصغيرة لأدوات ووسائل الإنتاج. وتدريجاً أفلس قسم كبير من المالكين الصغار وتحولوا إلى فلاحين معدمين أو عبيد. وقد اغتنى قسم ضئيل منهم وتحول إلى مالكي عبيد - نيزس- وتعني صغير، وعلى الرغم من هذا فإن المشاعيين الأحرار، أي المالكين الصغار، قد استمروا في البقاء.

كان الفلاحون الأحرار يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يقومون بفلحها وزرعها بأدواتهم لحسابهم الخاص ويدفعون عنها ضريبة عينية معينة للدولة[1]. وكان موظفو الملك يقومون بإحصاء كل ما يملكه الفلاحون من أراض ومواشٍ وكروم وأشجار مثمرة ليحددوا عليها مقدار الضريبة[2]. ومن أجل ذلك أنشأ الفراعنة المخازن والمستودعات والصوامع في جميع أنحاء البلاد لجمع ما يُجبى من الفلاحين من حبوب ومنتجات أخرى.

أما الفلاحون المفلسون الذين فقدوا أملاكهم وحريتهم فكانوا يعملون في أراضي الفرعون أو المعابد أو أراضي الأمراء في مقابل حصة من الإنتاج. وكانوا يعملون ضمن زمر تتألف كل منها من خمسة أشخاص تجتمع في عشرات ومئات. ويمكن أن تكون الزمرة تتألف من أفراد عائلة واحدة أو مجموعات عائلات[3]. وكان لكل زمرة رئيس. وتصور

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 66.

(2) كوروفكين: المصدر السابق، ص 38.

(3) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

الرسوم والنقوش على جدران المقابر هؤلاء الرؤساء وهم مسلحون بالسوط والدبوس[1].

وكانت المشاعة الخلية الاقتصادية والاجتماعية الأساسية في مصر الدولة القديمة. وكانت تتعرض للاستثمار الوحشي من جانب كبار ملاك الأراضي العقاريين (الملك ونبلاء البلاط وأرستقراطية المقاطعات). وبعد مرور بعض الوقت تطورت استثمارات المعابد التي بلغت أوج اتساعها في عهد الدولة الحديثة[2].

وإذا كانت معلوماتنا ضئيلة عن مسألة التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، إلا أنه أصبح من الثابت أن الأرض والمواشي في عهد الدولة القديمة كان يمكن بيعها أو توريثها[3]. وكان للمشاعية، حسب دراسات ف - آفدييف، مجلس خاص يدعى "زازات" يبحث في قضايا المشاعية (كتوزيع المياه والخلافات وغير ذلك) [4].

وكانت المشاعة الريفية تتألف من أسر أبوية، بطريركية، كبيرة وصغيرة وكان الابن الأكبر هو الوارث الرئيس الذي يرث إرث والده بكامله أو القسم الأعظم منه[5].

هذا ولم يستفد الزراع أعضاء المشاعية الريفية في عهد الإمبراطورية الوسطى من رفاه الدولة العام ولا من تخفيض الضرائب والوجائب الملكية، وذلك لأن الاستقلال الذاتي لحكام الأقاليم أخضعهم لعبودية مزدوجة: عبودية للفرعون، وعبودية لحكام الأقاليم نتج منها إفقار محسوس للفلاحين[6]. وقد وصفت الأعمال الأدبية لذلك العصر آلام الفلاح وما يعانيه من بؤس واستغلال وتعذيب واعتداء "فالمجاعة تحيط بكوخه والعمل المضني لا يكفي تأمين مقومات حياته. الجميع يسلبونه، ينتزعون منه ما أزمع على بيعه في السوق، حميره وشعيره، يضربونه دون شفقة مدافعاً عن نفسه بالصراخ والعويل. وإذا ذهب يشكو

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 144

(2) انظر ص:77 وما بعدها

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 144.

(4) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه، الصفحة 155.

مظالمه وإهاناته لم يجد أحداً ينصفه إلخ..." [1] وتصور القصة المعروفة باسم "شكوى الفلاح الفصيح" حالة الزارع والعلاقة اللاإنسانية التي كانت قائمة بين الفلاحين والمالكين. وتدور أحداثها حول فلاح اسمه "خونا نوب" جمع محاصيله وحملها على ظهور حميره وسار بتجاه أهناسيا. وفي الطريق اعترضه "تحوت نخت" وهو تابع لأمين من أمناء الملك وأحد كبار ملاك الأراضي، فاستولى على قافلة محاصيله بعد أن ضربه بعصاه بلا شفقة على كل أنحاء جسمه وتركه فاقد الحركة على الأرض. والقصة رائعة من روائع الأدب الاجتماعي تعالج جانباً من حياة المجتمع العبودي وشكاوى الفلاحين من الظلم الاجتماعي الذي كانوا يلاقونه من موظفي الدولة بمن فيهم القضاة[2].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة لم تتغير أيضاً شروط حياة الفلاحين في مجملها. فقد ظل الزراع أعضاء المشاعيات مثقلين بالضرائب وأعمال السخرة لحساب الملك والمعابد. كما أثقلت الفتوحات أيضاً من عبوديتهم هذه[3]. وكان الفلاحون يجندون بالقوة في الجيش. ولم يكن هناك من بديل لزراعة أراضي الفلاحين المرسلين إلى ساحات القتال، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الفلاحي. وإذا قدر لفلاح مجند أن يعود سالماً إلى قريته، فإنه كان يصعق عندما يعلم أن أمواله قد نهبت، وأن زوجه وأولاده قد بيعوا كعبيد[4].

وسلم الفراعنة أراضي واسعة مع جميع سكانها إلى المعابد[5]. وفي أثناء حكم الأسرة العشرين أفلس الكثير من الفلاحين ونمت الأراضي الخاصة، ونتج عن ذلك تفكك سريع للمشاعيات الريفية وتثبيت حق الملكية الخاصة العقارية[6].

وعلى جدران بعض القبور مشاهد تمثل اقتياد الفلاحين الذين لم يدفعوا ضرائبهم إلى

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) حداد، عبد الحق؛ وعدنان خميس: الحركات الفلاحية عبر التاريخ، ص 42 - 47.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 162.

(4) انظر ص:102.

(5) انظر ص 84 - 85.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 168.

أمام الكتاب من قبل حراس مسلحين بالعصي، كما ترى الكتّاب يدونون في السجلات ديون الفلاحين[1].

وكان جباة الضرائب يعسفون الفلاحين ويسيئون معاملتهم. وتقص علينا وثيقة مصرية بعنوان "نصائح وإرشادات مدرسية" حياة الفلاحين البائسة وما يتعرضون له من ظلم وتعذيب وإهانة. تقول الوثيقة: "لقد أتلفت الديدان نصف الحبوب، وأكلت أفراس البحر ما بقي منه. وهناك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول كما هبطت أرتال الجراد. أما الماشية فهي تأكل، والعصافير تسرق، ولكن واحسرتاه على الفلاح فما بقي له من حبوب على أرض الجرن فقد سرقها اللصوص. يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت، وأن الثورين قد ماتا من جر المحراث. وفي هذه اللحظة يصل الكاتب بقاربه إلى المرسى ثم يخرج ليطلب الضريبة المفروضة على المحصول يرافقه حراس أبواب مخازن الملك بعصيّهم وشرطة من النوبيين بمقارعهم وهم يقولون للفلاح: أعطنا الحبوب، والحبوب غير موجودة، فيضربونه ويطرحونه أرضاً ويقيدونه ثم يقذفون به في القناة فيغرق. أما امرأته فهي مربوطة أيضاً أمامه، وأولاده يشردون في الطرقات، حتى أن جيرانهم يتخلون عنهم ويهربون فتتلف حبوبهم"[2].

لم يستسلم الفلاحون لما فرضه عليهم النظام الفرعوني من ظلم واستغلال وتجنيد قسري وعبودية، فتذمروا وغضبوا، وما لبثت أن تحولت مراجل غضبهم إلى انتفاضات، وتعددت ثوراتهم واشترك فيها الحرفيون الكادحون والعبيد، وكانت من العوامل الرئيسة في إضعاف دولة الفراعنة.

3 - الحرفيون: كان العمال الحرفيون في مصر القديمة على نوعين: الأول كالنحاسين والحدادين والنجارين والفخارين والحذائين الذين يعملون لحسابهم الخاص ويبيعون أو يبادلون مصنوعاتهم في السوق. والنوع الثاني كانوا يعملون في الورشات التابعة للملك

(1) كوروفكين: المصدر السابق، ص 38.

(2) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 513 – 514؛ ديورانت: قصة الحضارة، ج2، ص 83 – 84؛ د. نعيم فرح المصدر السابق، ص 66..

والكهنة وكبار الموظفين. وكان هؤلاء الصناع، الأحرار منهم والعبيد، يتقاضون أجورهم على شكل مواد غذائية وثياب وغير ذلك مما كان يوجد عادة في المخازن الكثيرة الملحقة بالقصور الملكية والمعابد[1].

كانت حياة الحرفيين في مصر بائسة أيضاً على وجه العموم. فقد كتب عليهم أن يعيشوا حياة دون بهجة في عمل مضن، حليفتهم الحاجة المذلة والمجاعة المميتة، يسهرون في الليل مع عملهم حتى يغلبهم النعاس وتشل أياديهم المتعبة فهل يستريحون؟ كان عليهم منذ شروق الشمس أن يكونوا على رأس عملهم في الورشة.

ولم تكن حال الشغيل الحرفي لتقل بؤساً عن حال الفلاح. "فالحداد يمضي كل وقته أمام لهيب الكور ويتعرض لآلاف الآفات والأمراض، والنجار يشقى كالفلاح، وكما يدمي المعول يد الفلاح يدمي المنشار يد النجار. أما الحجارون والحاكة والحذاؤون والصباغون وغيرهم من أصحاب المهن فكلهم سينهكه العمل اليدوي ويحيله إلى حطام"[2]. وقد وصف لنا أحد الكتاب الشعراء المصريين حالة من يعمل منهم في صناعة المعادن قائلاً:

لم أر قط الحداد يوفد كسفير

لا ولا صائغ الذهب يؤدي رسالة

ولكني رأيت الحداد في عمله

بجانب كوره

لقد كانت أصابعه مثل جلد التمساح

وكان أنتن من بيض السمك[3]

ووصف الحياة البائسة لمن يعمل في حفر الخشب على النحو التالي:

كل صانع فنان يعمل بالإزميل

يضني نفسه أكثر ممن يفلح الأرض

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 67.

(2) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: تاريخ الحضارة، ص 112 – 113.

(3) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 515.

فحقله الخشب وأداته من المعدن

وهو يعمل أكثر مما تستطيع ذراعاه[1].

ووصف ديودور الصقلي "شقاء المعدّنين وهم يتتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب في الأرض، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام. والمهارس الحجرية وهي تطحنه، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه... ويتابع قائلاً: إن ملوك مصر يجمعون السجناء وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا في السجون... هؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ليستخدموا في الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم... فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودي الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم. ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء. هؤلاء كلهم يُلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم فيموتون في ذل الأسر"[2].

وقد كشفت الحفريات التي أجراها "فلندرز بتري" في هضبة الصحراء قرب بحيرة موريس (منطقة الفيوم) عن أطلال مدينة أصبحت معروفة باسم "كاهون". وكان حي العمال في هذه المدينة حياً فقيراً يسكنه حانوتيون صغار وحرفيون وشغيلة آخرون[3]، بيوتهم أكواخ حقيرة من اللبن، يتوضع الواحد منها إلى جانب الآخر في مساحة صغيرة. إذ بني على مسطح يقرب من 240 × 105 أمتار نحو 200 – 250 منزلاً صغيراً[4]. في حين كانت "فيلات" النبلاء مساكن فخمة رحبة وواسعة، تتألف من قطع من الأرض تبلغ مساحتها نحو 45 × 65 متراً، أي أكبر بنحو خمسين ضعفاً من بيوت العمال الصغيرة[5]. وتضم كل فيلا ما يقرب من

(1) المصدر نفسه، ص 516

(2) نقلًا عن ديورانت: قصة الحضارة، ج2، ص 85.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 155.

(4) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 180.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

سبعين غرفة ودهليزاً[1] موزعة بين غرف للطعام وأخرى للاستقبال والنوم وغرف للحريم والخدم وغرف المخازن. وهناك أيضاً المطابخ والحظائر. ففي المطبخ وما يتعلق به، كان يعمل الطهاة والخبازون والجزارون وصانعو الجعة والخادمات اللواتي يطحن الحبوب[2]. وكانت تحيط بـ"فيلة النبيل" بساتين غنّاء واسعة، غرست بالكرمة والأشجار المثمرة[3]. وقد شغلت فيلات النبلاء وعددها عشر، مساحة لا تقل كثيراً عن تلك التي استعملت لبناء حي العمال كله[4].

وكان حي الأغنياء ينفصل عن حي الحرفيين والشغيلة الفقراء بسور سميك تخفره فرقة عسكرية قوية. وتشهد هذه السمة المميزة على الجو المتوتر الذي كان يسود مصر الإمبراطورية الوسطى نتيجة لتفاقم التناقضات الاجتماعية، حيث كان "الأقوياء" السادة ملاك الرقيق يخشون انتفاضة الفلاحين المحرومين والحرفيين والعبيد[5]. فقد باتوا يشعرون بأن الأرض تهتز من تحتهم.

هذا وإن ظهور عدد كبير من الحرفيين في المدن يفسر أسباب هجرة الفلاحين المفلسين من الريف إلى المدن بحثاً عن العمل [6].

وهكذا لم يكن سعيداً من أصحاب المهن سوى فئات الموظفين والكتبة الذين يحررون جداول الضرائب والأيدي العاملة ويرافقون الجباة ورؤساء ورش الملك وحكام الأقاليم[7]. وقد أصبح الموظف المثل الأعلى لما يحلم الشخص بالوصول إليه. ومن المواعظ التي كانت توجه إلى طلبة المدارس القصيدة التالية:

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 181.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 155.

(4) إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 180.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 155 - 156.

(6) المصدر نفسه، ص 155.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ضع في صميم قلبك العزيمة

لكي تكون كاتباً

إن ذلك سوف يجنبك

العمل الشاق من أي نوع كان،

وسوف يقودك إلى الطريق

لكي تكون حاكماً ذائع الصيت[1].

إن الحالة السيئة والوضع الزري وقسوة ظروف العمل والجرايات الضئيلة حملت فئات العمال والحرفيين الكادحين على مقاومة السلطة مقاومة سلبية وإيجابية واشتركوا في انتفاضات الفلاحين والعبيد في سبيل تحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

4 - طبقة العبيد: يعود تاريخ العبودية في مصر القديمة إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد انتشرت العبودية في المجتمع المصري تدريجاً. وكانت العبودية في الإمبراطورية القديمة ذات طابع بطريركي، وغدت في عهد الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة أساس الإنتاج ومرتكز النظام الاقتصادي.

والمصادر الأساسية لزيادة عدد الرقيق في مصر القديمة كانت الحروب وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعية المعدمين لقاء ما عليهم من ديون. وكان يطلق على الرقيق عادة كلمة "رؤوس" تشبيهاً بالحيوانات[2].

إن أحوال العبيد في عهد الإمبراطورية القديمة لا تزال موضع افتراضات، وعلى أي حال، فقد كانت العبودية تأخذ طابعاً بطريركياً. فعدد العبيد كان لا يزال قليلاً نسبياً، والعمل الرّقي لم يكن بعد مكوناً لأساس الإنتاج، وإنما كان يلعب دوراً إضافياً في الاقتصاد الذي ظل في جوهره طبيعياً. فالناس الأحرار وحتى الأرستقراطية، أسياداً وكهنة، كانوا يشاركون في الأعمال الزراعية وغيرها[3].

---

(1) إسماعيل، عبد العزيز: نظام العاملين في الدولة عند قدماء المصريين، نقلًا عن أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي-الاقتصادي، ص 43.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 65.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 144.

وفي عهد الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة تفاقمت التناقضات الاجتماعية. فقد تطور الرّق، وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقة زيادة كبيرة بسبب التوسع في الفتوحات. وكانت جيوش الفرعون تعود بعد كل حملة بعدد غفير من الأسرى.

وإذا كنا لا نملك احصائيات دقيقة بعددهم، إلا أنه على أي حال كان يبلغ عشرات الألوف. وتذكر النصوص أن المعابد في عهد الإمبراطورية الحديثة كانت تملك 107 آلاف عبد منهم 86500 عبد لمعبد آمون وحده[1]. فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والأرستقراطية المدنية والعسكرية؟

وهكذا تشكلت طريقة الإنتاج العبودية. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الأساسية في استثمارات الملك والمعابد، وفي ممتلكات نبلاء البلاط والأرستقراطية المدنية والعسكرية، وغدا من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وخدمة لمصالح طبقة مالكي العبيد، خاض فراعنة مصر الحروب العديدة بغية الاستيلاء على الرقيق والماشية وغيرها من الثروات.

وكان العبيد يعملون في الزراعة ومنظومات الري والورشات الحرفية والمناجم ونقل الأحمال، كما كانوا يعملون في بناء القصور الملكية والمعابد وخدماً فيها وجنوداً في الجيش. وبفضل العمل العبودي تحققت في مصر القديمة أعمال هائلة كسد الفيوم وتجفيف المستنقعات وإنشاء أقنية الري والجسور وبناء الأهرامات والقصور والمعابد كما تشهد على ذلك النقوش والرسوم القديمة.

وقد نشطت تجارة الرقيق خصوصاً في عهد الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة. وكان العبيد من بين السلع المستوردة كما يشير إلى ذلك نقش حتشبسوت على جدران معبد الدير البحري[2]. وأخذ الأغنياء من المصريين يشترون العبيد ويلحقونهم بخدمتهم.

وإلى جانب حروب الفتح المستمرة، التي كانت المصدر الرئيس لتشكيل طبقة العبيد،

(1) انظر: ص 105.

(2) انظر: ص 119.

كان المجتمع العبودي المصري نفسه مصدراً آخر لزيادة عدد الرقيق. فقد ترتب على تراكم الماشية وأدوات الإنتاج والبذور في أيدي الأغنياء، أن أخذ يزداد في اطراد مستمر التجاء المشاعيين الفقراء وحتى الحرفيين إلى هؤلاء كي يحصلوا منهم على قروض عينية كانت تنتهي إلى خضوعهم وتحويلهم إلى عبيد عند عدم سدادهم الديون في الأجل المحدد. وإن تحويل الناس الأحرار إلى عبيد مدون في النقوش التي يعود تاريخها إلى أواخر عهد الإمبراطورية المصرية[1].

لقد كان العبد في مصر العبودية يعتبر "رأساً" مملوكاً لسيده الذي له عليه سلطان مطلق لا يقتصر على استغلاله وإجباره على العمل، وإنما كان يمتد إلى بيعه وشرائه، بل الاعتداء عليه وقتله.

لقد نقم العبيد "الأموات الأحياء" على مستعبديهم وجلاديهم واشتركوا في جميع الانتفاضات التي قام بها الفلاحون المحرومون والحرفيون الكادحون في سبيل انعتاقهم من العبودية وتحسين ظروف حياتهم.

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 144.

الفصل الحادي عشر

الحركات الشعبية

تفاقمت التناقضات الاجتماعية في مجتمع العبودية المصري. فقد تطور وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقية زيادة كبيرة، واشتد استغلال العبيد وحشية، وتدهورت أوضاع الفلاحين المشاعيين الأحرار الذين كانوا يعيشون في الفقر والعوز وتحت الخطر الدائم من استعبادهم جراء ما عليهم من ديون، وازدادت سوءاً أيضاً أحوال الحرفيين الكادحين بسبب قسوة ظروف العمل وضآلة الجرايات التي تدفع لهم لقاء يوم العمل الطويل والصعب. وتفجرت الصراعات بين الأجنحة المختلفة للطبقة الحاكمة. غير أن التناقض الرئيس كان بين العبيد ومن هم في مستواهم من الفلاحين الفقراء والحرفيين الكادحين من جهة، والطبقة الأرستقراطية والكهنة من جهة أخرى. وتوترت العلاقات بين المالكين والمحرومين، بين المستعبِدين والمستعبَدين، بين المستغلِين والمستغَلين، وبلغ هذا التوتر درجة التفجر والاصطدام الذي أدى، فيما أدى، إلى سقوط الدولة القديمة وإلى إضعاف الدولة العبودية المصرية على وجه العموم.

وقد عبّرت الطبقات والفئات المستعبَدة والمحرومة والمستغَلة عن حقدها على مستعبديها ومضطهديها بأشكال متعددة من بينها: الشكوى (شكوى الفلاح الفصيح) والامتناع عن العمل (إضراب العمال في قرية جبانة طيبة في حكم رعمسيس الثالث) والهرب من الأرض أو التجنيد العسكري، والثورة على الحكم، وذلك على الرغم من جبروت النظام

الفرعوني العبودي وتأثير الكهنة الايديولوجي السلبي في جماهير الشغيلة بوجوب الخضوع والطاعة للسلطة الملكية المقدسة.

لقد تصدى الفلاحون والحرفيون والعبيد لهذا الظلم الاقتصادي والاستبداد الاجتماعي وطغيان السلطة، وفجرت المظالم التي تكاثرت عليهم من ملاك العبيد وموظفي الحكومة ثورة جماهيرية شاملة، استطاعت أن تنتشر وتقوى مستفيدة من تفكك الطبقة الحاكمة وخلافاتها الداخلية.

وتحدثنا عن هذه الثورة الشعبية بردية في سقارة قرب ممفيس، وهي محفوظة الآن في متحف ليدن بهولندا تحت رقم 344.

وقد تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ هذه الوثيقة الأدبية. فالأكاديمي ف. ف. ستروفيه يذكر أن هذه الثورة الشعبية قامت في نهاية الدولة الوسطى (في عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، أي حوالى 1750 قبل الميلاد) بينما يذكر المؤرخون الأوروبيون الغربيون أنها نشبت في مرحلة الفوضى والانقسام الأول في أواخر الدولة القديمة (في عهد الأسرتين السادسة والسابعة، أي حوالى 2200 قبل الميلاد). ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق "أن الوثيقة المحفوظة في متحف ليدن منسوخة في زمن الأسرة الثامنة عشرة عن بردية قديمة يرجع تاريخها إلى زمن الأسرة التاسعة التي حكمت في هيراكليوبوليس"[1]. ويذكر آخرون أن هذه البردية تعود إلى نهاية الدولة الحديثة، أي حوالى سنة 1300 قبل الميلاد، ولكن لغة النص تدل على أن الصياغة الأولى لهذه العبارات كانت قد وضعت في عهد الدولة الوسطى (ما بين 2000 – 1700 ق.م تقريباً) وهذا يعني أن كاتب البردية الذي عاش سنة 1300 ق.م قد نقل النص عن بردية قديمة تعود إلى حوالى سنة 1750 ق.م.

وقد درس هذه الوثيقة التاريخية غاردنر سنة 1909 تحت عنوان "نبوءات حكيم مصري" كذلك درسها برستد في كتابه "فجر الضمير". وترجمها وحللها الأكاديمي السوفياتي ستروفيه عام 1917. وقام بترجمتها الأستاذ المصري سليم حسن في الجزء الأول من كتابه "تاريخ الأدب المصري القديم" حيث يطلق عليها اسم "نبوءات الحكيم إيبور".

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: نوطة عن مصر والشرق القديم. دمشق 1947.

تتكون الوثيقة من 14 صفحة، وهي عبارة عن مقدمة وست قصائد وخاتمة. وقد ضاع أولها الذي كان يحتوي على بيان الأحوال التي دعت الحكيم إلى الإدلاء بتحذيراته أو نبوءاته، وهشم آخرها وبها فجوات كثيرة في وسطها. وأفكار إيبور في ترتيبها الأصلي غير منسقة إلى حد كبير، فهو يكثر من التكرار والتنقل بين المعاني المختلفة.

وأقوال الحكيم إيبور تصف الثورة الشعبية وهي في أوج اشتعالها. ونعرف منها أنها كانت ثورة طبقية عامة، شملت أرياف مصر القديمة ومدنها. وقد أطاحت بنظام الحكم وقوضت أسس المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما موقف الحكيم إيبور من الثورة الشعبية فنستطيع أن نلحظه بسهولة من وصفه لأحداث الثورة وتحليله لها من وجهة نظر متعالية جداً ليس فيها أي عطف على الدوافع التي حركت الجماهير الشعبية.

تبدأ الوثيقة بالحديث عن الحروب الأهلية والبطالة والمجاعات والأزمات والأوبئة واضطراب الأمن وضعف السلطة وتجزئة البلاد، أي تصف الظاهرات والعلل الناجمة عن التناقضات الطبقية الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية، والصراعات بين أجنحة الطبقة الحاكمة.

ثم تنتقل الوثيقة إلى وصف أحداث الثورة التي قام بها الفلاحون في الأرياف والحرفيون في المدن وانضم إليهم العبيد، أي جميع الطبقات والفئات التي تعمل ولا تملك شيئاً ضد الحكام والأثرياء.

لقد عمت الانتفاضة البلاد، ونجح الثوار في أخذ العاصمة، واعتقلوا الملك، وقتلوا الموظفين وملاّك العبيد واستولوا على أموالهم. يقول إيبور:

"ثار الناس على سلطة الفرعون التي شرعها الإله (رع)، واعتقل الثوار الملك، وقتلوا الموظفين، ولاذ الحكام بالفرار، وألقى المنتفضون بموميات الفراعنة خارج القبور، واحتلوا المعابد وألغوا الوظائف الدينية، واستولوا على مخازن الملك والأسياد والكهنة، وأعلنوا

أن جميع ما فيها من قمح وغلال قد أصبح ملكية وطنية"[1]. "ونهبت سجلات قاعة العدل، ومزقت برديات القوانين في الشوارع. وهوجمت مراكز الإدارة الملكية، وأتلفت جميع سجلات المالية والمساحة ووثائق الملاكين، وديست الأنظمة الفرعونية"[2]. "ودخل الفقراء إلى قصور الأغنياء الكبيرة واستقروا فيها وجردوا أصحابها من جميع أموالهم وأجبروهم على العمل من أجلهم"[3]. "انظر! لقد أصبح الفقراء أغنياء والعبيد أسياداً... وفقد الملاكون جميع ما يملكون، وصاروا يعملون في الورشات وخدماً في المخازن"[4]. "وشلت الحركة الاقتصادية، فأصحاب الحرف لا يقومون بأي عمل... والقوم لا يقلعون بسفنهم شمالاً إلى بيبلوس (جبيل)... وخزينة الملك خاوية والمعابد دون تقدمات، والبلاد أصبحت تدور على عقبيها كما تدور عجلة الفخار"[5].

وتنتهي الوثيقة بالنصح والتحذير من الإهمال والأخذ بالإصلاح وبإعلان مؤلفها تعاسته وحزنه على مصائب هذا الزمن. تلك هي الخطوط العريضة للثورة الشعبية. وإلى القارئ الكريم مقاطع واسعة من نص بردية سقارة.

كانت الثورة عامة اشتركت فيها مختلف الفئات الشعبية، حتى "أصحاب أهدأ الحرف كبائعي الحلوى وصانعي الجعة"[6] بحسب تعبير إيبور.

وما أن نقرأ بعض السطور حتى نعرف أن الحكومة قد انهارت بكل أجهزتها ودواوينها ومحاكمها، ونهب ما فيها من سجلات ووثائق، وديست مجموعات القوانين بالأقدام. يقول إيبور:

---

(1) حسن، سليم: تاريخ الأدب المصري القديم. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1945. 1/ 309، 308، 310، 313.

(2) المصدر نفسه، 308/1.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 157.

(4) حسن، سليم: المصدر نفسه 308/1، 311. انظر أيضاً: جون ولسون: الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري. مكتبة النهضة المصرية – القاهرة 1955، ص 189. سليم عادل عبد الحق: المصدر السابق.

(5) حسن، سليم: المصدر السابق، 305/1، 304.

(6) المصدر نفسه، 302/1.

"لقد سلبت وثائق قاعة العدل الفاخرة، وأصبح المكان السري مكشوفاً... وطرحت سجلات المحاكم أرضاً، وصار الناس يطأونها في الطرقات ويمزقها الفقراء في الأزقة"[1].

ولم تنج الإدارات العامة من هذا المصير، وأفشيت الأسرار المقدسة، وشملت حملة الانتقام أشخاص الموظفين أنفسهم. يقول الحكيم إيبور:

"وفي الحق لقد هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها. وصار العبيد أصحاب عبيد... وأذيعت أسرار التعاويذ السحرية، وصارت لا أثر لها، لأن القوم حفظوها في أذهانهم".

"وفي الحق لقد ذبح الموظفون، وسلبت دفاترهم.." [2].

بل إن القصر الملكي نفسه لم ينج من هذا المصير، فانهارت الملكية، ونهبت قبور الملوك وحطمت تماثيلهم. يقول إيبور:

"انظر! إن النار قد اشتعلت عالياً، ويندلع شررها ضد أعداء البلاد".

"انظر! لقد حدثت أمور لم تحدث منذ زمن بعيد مضى، إذ اختطف الفقراء الملك".

"انظر! لقد تجأسر بعض الثائرين فحرموا البلاد من الملكية".

"انظر! لقد أصبح الناس يظهرون العداء للملك الذي جعل الأرض في سلام، فصار يرقد الآن على نعش، وما خبأته الأهرام أصبح خلواً".

"انظر! إن سر الأرض الذي لا يعرف أحد حدوده(*) قد أفشي، وأصبح مقر الملك رأساً على عقب في لحظة"[3].

وترتب على انهيار الحكومة أن اختل الأمن وعمت الفوضى في البلاد، وذلك بسبب عدم وجود قيادة منظمة واعية للثورة تعمل وفق برنامج سياسي - اجتماعي واضح المبادئ والأهداف، وتتمكن من الضبط الثوري للجماهير. يقول إيبور:

"حقاً لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل إلى الحرث ومعه درعه".

---

(1) المصدر نفسه، 308/1.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(*) الأمور السرية التي لا يعرفها أحد غير الملك.

(3) المصدر السابق، 309/1.

"حقاً لقد أصبح حامل القوس مستعداً، والمجرمون في كل مكان..." [1]

"حقاً لقد أصبح الناس يختبئون في الأعشاب حتى يأتي المسافر في ظلام الليل ليسلبوا منه حمله، وما عليه يسرق، ويضرب بالعصا حتى ينقطع نفسه ثم يذبح ظلماً"[2].

"وإن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه"[3].

كما ترتب على انهيار الحكومة أن توقفت جباية الضرائب، وأفلست الخزانة العامة، ونهبت المخازن الملكية، وأقفرت من الخيرات. يقول إيبور:

"وفي الحق لقد أتلفت دفاتر كتاب الحقيبة (جباة الضرائب). وأصبحت غلال مصر ملكاً مشاعاً"[4].

"إن مخازن الملك أصبحت ملكاً مشاعاً لكل فرد، ولا ضرائب تجبى للقصر كله، ومع ذلك فإن له قانوناً شعيراً وقمحاً ودجاجاً وسمكاً، يملك المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس والزيت، ويملك الحصير والبسط... ومحفة وكل المحاصيل الجميلة..." [5].

" حقاً إن مقاطعتي (الفانتين وطينة وهي من ممتلكات الوجه القبلي) أصبحتا لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية. وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة، وكل ما ينتجه الصناع... فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل؟"[6].

وتدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد، فتوقف الإنتاج، وبارت الزراعة، وهجر الناس الحرف والصناعة وعم الفقر والخراب. وتمتلئ بردية إيبور بوصف مظاهر هذا الخراب الاقتصادي. يقول إيبور:

"حقاً إن النيل في وقت الفيضان، ومع ذلك لا يحرث أحد من أجله. وكل إنسان يقول:

---

(1) المصدر نفسه، 303/1.

(2) المصدر نفسه، 307/1.

(3) المصدر نفسه، 312/1.

(4) المصدر نفسه، 308/1.

(5) المصدر نفسه، 313/1.

(6) المصدر نفسه، 305/1.

لا أعرف ما حدث في البلاد"[1]. مما يشير إلى حالة الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار، حيث لم يعد للناس ثقة كافية بفلح الأرض في هذا الزمن العصيب، فهجروا الأرض وتركوا المواشي تهيم على وجوهها، ولم يعد للناس شيء.

"وفي الحق لقد نفدت الغلال في كل مكان، وجرّد القوم من الملابس والعطر والزيت وصار كل إنسان يقول: لم يبق عندي شيء. وصار المخزن خلواً وحارسه ملقى على الأرض والماشية تركت تهيم على وجهها، وليس هناك من يجمعها ويلم شعثها. فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ما يريد ويسِمها باسمه (أي يعلّمها)" [2].

وتوقفت الصناعة: "فلم يعد هناك صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها"[3].

وتعطلت التجارة الخارجية التي نشطت في عهد الدولة القديمة مع فينيقيا وغيرها من البلدان البحرية "وأصبح الناس اليوم لا يبحرون شمالاً إلى بيبلوس (جبيل)". وهذا ما يثير ضيق الحكيم إيبور والوجهاء أشد الضيق "وإذن ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم للموميات؟" "... والذهب قلّ والـ... الذي كان يستعمل في كل الحرف قد انتهى"[4].

وأدى هذا الانهيار الاقتصادي إلى انتشار القحط والبؤس والمجاعة. يقول إيبور:

"وفي الحق لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء. وحتى الطيور لا تجد ما تأكله من فاكهة وأعشاب. وأصبحت القاذورات تختطف من افواه الخنازير دون أن يقال هذا أحسن لك مما هو لي لأن القوم صاروا جياعاً"[*][5].

وانتشرت الأمراض والأوبئة بسبب انهيار الاقتصاد وتدهور الصحة العامة، وأدت القاذورات والمجاعة إلى هلاك خلق كثيرين، وكانت الجثث تلقى في النهر والشوارع لتعذّر دفنها بسبب كثرتها. يقول الحكيم إيبور:

---

(1) المصدر نفسه 303/1.

(2) المصدر نفسه، 308/1، 312.

(3) المصدر نفسه، 313/1.

(4) المصدر نفسه 305/1.

(*) أي أن القوم أصبحوا يأكلون ما كانوا يطعمون به الدجاج والخنازير.

(5) المصدر نفسه، 303/1.

"حقاً إن القلب لثائر.. والوباء قد انبث في كل الأرض، والدم صار في كل مكان... ولفائف المومياء تتكلم، وإن لم يقترب الإنسان منها"

"حقاً لقد اصبح منظر الناس كمنظر طير "جم"[*]. والقاذورات منتشرة في كل البلاد، ولا يوجد امرؤ بملابس بيضاء في هذا الوقت" [1].

"حقاً لقد دفن رجال عديدون في النهر، فأصبح النهر قبراً"[2].

"حقاً لقد أصبحت التماسيح في تخمة بما قد سلبت، إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر. وحالة البلاد أصبحت سيئة.."[3].

وقد دفعت هذه الأوضاع جماهير الشعب المستعبدة والجائعة إلى مهاجمة قصور الحكام والأثرياء، وأنزلت بهم أسوأ الانتقام. يقول إيبور:

"حقاً لقد أصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً وأضحت كل بلدة تقول: فلنقص أصحاب الجاه من بيننا" [4].

"حقاً لقد أصبح الحكام جياعاً، وفي بؤس شديد.."[5]

"وإن قضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض.. طردوا من بيوت الملك" [6].

"وإن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أي عمل بسبب الحاجة" [7].

"حقاً لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم الناس عرض الحائط، والأطفال يلقون على

(*) جم: طير مائي له سيقان طويلة ورقبة طويلة كذلك، ويعيش في القاذورات والمستنقعات، والأغلب أنه نوع من البجع.

(1) المصدر نفسه، 303/1.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، 304/1.

(4) المصدر نفسه، 1/ 303.

(5) المصدر نفسه، 307/1.

(6) المصدر نفسه، 310/1.

(7) المصدر نفسه، 1 /312.

قارعة الطريق". وانتزعت موميات علية القوم من قبورها "والذين كانوا في المكان الطاهر قد ألقوا على قارعة الطريق، وأصبح سر التحنيط جهراً"[1].

"انظر! إن الأرض أصبحت ملأى بالعصابات، والرجل الوجيه يغتصب التعساء متاعه"[2].

"وصارت المخازن خاوية، وحراسها يلقون على الأرض"[3].

ونهب الناس ثروات الأغنياء، فأصبح الذين يملكون لا يملكون، والذين كانوا محرومين من كل شيء يتمتعون بجميل الأشياء. وقد أفاض الحكيم إيبور في وصف مظاهر الانقلاب الاجتماعي في مقارنات بديعة ساخرة بين ما كان وما هو كائن، ولكن في لهجة تشوبها المرارة والحزن، لا يشعر بها سوى من كان ينتمي إلى تلك الطبقة التي جردت من المال والسلطة والجاه والنفوذ. يقول إيبور:

"حقاً لقد أصبح المعوزون يملكون أشياء جميلة، ومن كان يخصف نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة".

"انظر! إن من كان لا يملك شيئاً أصبح ذا ثروة، وصار الرجل العظيم(*) يمدحه"

"انظر! إن فقراء الأرض أصبحوا أغنياء، ومن كان يملك متاعاً أصبح لا شيء عنده".

"انظر! إن الذين كانوا يخدمون أصبح لهم طائفة من الخدم، ومن كان رسولاً أضحى يرسل غيره".

"انظر! إن من كان لا يملك الخبز أصبح يملك جريناً، وما يملأ به مخزنه هو متاع غيره"[4].

"انظر! إن من لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتاً أصبح يملك قبراً. ومن لم يكن في قدرته أن يقيم حجرة أضحى الآن يملك فناء مسوّراً".

---

(1) المصدر نفسه، 306/1.

(2) المصدر نفسه، 310/1.

(3) المصدر نفسه، 308/1.

(*) الرجل العظيم: الموظف الكبير.

(4) المصدر نفسه، 311/1.

"انظر! إن الرجل الغني أصبح يمضي الليل وهو ظمآن، ومن كان يستجدي منه الحثالة صار الآن يملك الجعة القوية"[*].

"انظر! إن أولئك الذين يملكون الملابس أصبحوا في خرق بالية، ومن كان لا ينسج لنفسه أضحى الآن يملك الكتان الجميل".

"انظر! إن الذي لم يكن يملك قارباً أصبح الآن يملك سفناً، وأضحى صاحبها ينظر إليها كمداً بعد أن لم تعد ملكاً له" [1].

"انظر! إن الذي لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس أصبح يملك ظلاً، ومن كان لهم ما يؤويهم صاروا الآن عرضة لزعازع العاصفة"[2].

"انظر! إن من لم يكن يملك ثوراً للحرث أصبح يملك قطعاناً. ومن لم يكن يملك حفنة قمح أصبح يملك أجراناً. ومن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح صار الآن يخرج من مخازنه الصدقات".

"أنظر! إن من كان لا يملك أتباعاً أصبح رب عبيد. ومن كان من علية القوم أضحى الآن ينفذ أوامر غيره"[3].

"انظر! إن الأصلع الذي كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أواني العطور الزكية. ومن كانت لا تملك صندوقاً أصبحت تملك صواناً. وتلك التي كانت تشاهد وجهها في الماء صارت تملك مرآة".

"انظر! إن من كان يجهل العزف على العود أصبح يملك قيثاراً. ومن كان لا يغني له أحد أصبح الآن يثني على آلهة الغناء"[4].

(*) الجعة القوية: أي الجعة التي تسكر.

(1) المصدر نفسه، 310/1.

(2) المصدر نفسه، 311/1.

(3) المصدر نفسه، 312/1.

(4) المصدر نفسه، 311/1.

"انظر! إن الذين كانوا ينامون على الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض. وذلك الذي كان ينام في الأوساخ صار يملك سريراً"[1].

وينتقل الحكيم إلى لهجة أشد تأثيراً في آذان سامعيه، فيمضي في تصوير ما آل إليه حال السيدات النبيلات من ضعة وهوان بعد انقلاب الأوضاع الاجتماعية، فهن قد اضطررن إلى العمل بأيديهن أو التسول أو بيع أجسادهن ليحصلن على القوت، في الوقت الذي أصبحت الفقيرات رافلات في الترف. يقول إيبور:

"حقاً إن الذهب واللازورد والفضة والكرنيليان والبرونز والمرمر و... أصبحت تحلي جيد الجواري، في حين أن السيدات النبيلات يجبن أرجاء البلاد متسولات يقلن: ليت عندنا بعض الشيء لنأكل"[2].

"حقاً! لقد أصبحت ربات الخدور في حالة يرثى لها، يرتدين الخرق البالية، وقلوبهن تنفطر حين يُحيّين"[3].

"حقاً إن اللواتي لم يشاهدن نور النهار[*] قد خرجن"[4]. "والعقيلات النبيلات يرقدن على الفراش الخشن"[5].

"انظر! إن السيدات النبيلات اللاتي كن يملكن متاعاً حسناً، أصبحن الآن يقدمن أجسادهن في الفراش، والذي كان أعزب بسبب الحاجة صار الآن يجد السيدات..."[6]

ودارت الدائرة أيضاً على أبناء الوجهاء، إذ تخلى عنهم آباؤهم وأمهاتهم. يقول إيبور:

---

(1) المصدر نفسه، 312/1.

(2) المصدر نفسه، 304/1.

(3) المصدر نفسه، 305/1. المعنى أنهن يخجلن حينما يشاهدن في حالة بؤسهن.

(*) لعله يقصد أن سيدات الطبقة الأرستقراطية الثرية الحاكمة اللواتي كن يسكن البيوت أصبحن مرغمات على العمل في خارجها.

(4) المصدر نفسه، 306/1.

(5) المصدر نفسه، 310/1.

(6) المصدر نفسه، 311/1.

"انظر! إن السيدات النبيلات يهربن، ويلقين بأطفالهن خوفاً من الموت... وإن أولاد رجال البلاط أصبحوا في خرق بالية"[1]. "وأولاد الحكام يلقون في الشوارع"[2].

ويلخص الحكيم إيبور الموقف بقوله:

"حقاً لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة الفخار"[3]. أي أن أوضاع المجتمع قد تبدلت، وأصبح من كان في الأعلى في أسفل، ومن كان في الأسفل في أعلى كما تدور عجلة صانع الفخار فيأتي عاليها بسافلها.

"حقاً لقد التهمت النيران البوابات والعمد والجدران... ودمرت البلاد. وأصبحت الأرض الحمراء منتشرة في كل البلاد، وخربت المنازل، وتكسرت صناديق الأبنوس، وتحطمت الأخشاب الثمينة"[4]. "وصارت النساء عاقرات، وامتنع الحمل"[5].

وانعكست هذه الأوضاع على نفسيات علية القوم، فحلت الآلام والأحزان محل البهجة. يقول إيبور:

"حقاً لقد قضي على الفرح، ولم يعد يقام، بل الحزن هو الذي يتمشى في طول البلاد ممزوجاً بالأسى"[6].

"حقاً لقد أصبح الحزن يملأ (قلوب) أصحاب الأصل الرفيع (أي علية القوم) والعظماء لا يقيمون أفراحاً"[7].

"... وإن مغنيات الخدور أصبحت أغانيهن لإلهة الغناء أنشودة حزن. والذين كانوا يجلبون البهجة بأقاصيصهم أصبحوا يجلسون على أحجار الطواحين".[*][8]

---

(1) المصدر السابق، 312/1.

(2) المصدر نفسه، 308/1.

(3) المصدر نفسه، 304/1.

(4) المصدر نفسه، 304/1 – 305.

(5) المصدر نفسه، 303/1.

(6) المصدر نفسه، 305/1.

(7) المصدر نفسه، 303/1.

(*) لعله يقصد أن القاصّين الذين يسلون الناس أصبحوا بلا عمل.

(8) المصدر نفسه، 306/1.

وحتى الماشية...!

"أصبحت قلوب الماشية تبكي، والقطعان تندب حالة البلاد"[1].

وشاعت في الناس موجة من الشك وعدم الخوف من الآلهة. يقول إيبور:

"حقاً فإن الرجل الأحمق يقول: إذا عرفت أين يوجد الإله فإني أقدم إليه القرابين"

"انظر! إن القصابين يذبحون الإوز الذي يقدم إلى الإله بدلاً من الثيران"[*][2].

وأدت هذه الأحداث إلى إضعاف البلاد، فغزاها الأجانب وطمع في خيراتها الطامعون وساموا أهلها الذل والهوان. يقول إيبور:

"لقد نزل قوم أغراب من الخارج إلى مصر" [3]. "لأن الدلتا أصبحت بلا حماية" [4].

وأوقف الأجانب عجلة الإنتاج في البلاد أو سيطروا عليها وانتزعوها من أيدي المصريين. يقول إيبور:

"انظر! لا صانع يعمل لأن العدو حرم البلاد حرفها"[5]. "وأصبح الأجانب مهرة في صناعات الدلتا" [6].

وأصبحت مصر من الذل كالجارية التي تصب الماء على أيدي أسيادها. يقول إيبور:

"انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء، ومن كان يصب الماء على الأرض... قد قبض على الرجل القوي، وهو في بؤس"[**][7].

---

(1) المصدر نفسه، 312/1.

(*) لعله يقصد أن الأغنياء المحدثين يفضلون أن يقدموا الإوز قرباناً للآلهة بدلاً من الثيران التي يأكلونها هم.

(2) المصدر نفسه، 312/1.

(3) المصدر نفسه، 304/1.

(4) المصدر نفسه، 306/1.

(5) المصدر نفسه، 313/1.

(6) المصدر نفسه، 306/1.

(**) صب الماء كان يقوم به الفقراء من الناس.

(7) المصدر نفسه، 307/1.

ويضيق إيبور ذرعاً بهذه الأوضاع والمآسي فيستمطر اللعنات على كل شيء، ويتمنى أن ينقرض الناس وتعقم النساء. يقول الحكيم:

"ليت آخر الناس يكون قد حلّ، فلا حمل ولا ولادة! ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنقض المشاحنات! " [1].

ثم يمضي إيبور فيعنف نفسه ويلقي اللوم عليها لأنه لم يحذر من هذه الأوضاع من قبل يقول الحكيم:

"ليتني كنت قد رفعت صوتي قبل الآن، لربما أنقذت نفسي مما أعانيه الآن. ما أشد حزني لشقاء هذا العصر"[2].

وينتقل إيبور من تعنيف نفسه إلى شن الهجوم على الملك، فينحي باللائمة عليه لأنه يعتكف منعزلاً في قصره بينما تغذيه حاشيته بالأكاذيب. يقول الحكيم:

"إن القيادة والفطنة معك، غير أن ما تبثه في طول البلاد هو الفوضى. انظر! إن الفرد يرمي الآخر... وإذا سافر ثلاثة رجال على طريق واحد فلا يوجد منهم اثنان، إذ إن العدد الأكبر يذبح الأصغر...

"ولكنك ستأمر أن تجاب... فالأكاذيب تتلى عليك، والبلاد قش ملتهب..."وكل هذه الأعوام ارتباك..."

"ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك"[3].

ولكن إيبور لا يلبث أن يعود إلى اللين فيأخذ في تذكير الملك[*] بما كانت عليه الأحوال قبل الثورة. يقول الحكيم:

"تذكر كيف كانت ترعى الأنظمة، ويعزل الكهنة الأشرار".

"تذكر كيف تجلب الإوز سمينة، ويقرب الإوز والبط والقرابين إلى الآلهة".

---

(1) المصدر نفسه، 307/1.

(2) المصدر نفسه، 308/1.

(3) المصدر نفسه، 315/1.

(*) الملك الذي يحلم به إيبور لاستعادة وحدة البلاد واستقرارها.

"تذكر كيف تنصب الأعلام وتنقش ألواح القربان، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد، ويبيض بيت اللّه كاللبن، وكيف كان يعطر الأفق [*] ويخلد القربان من الخبز"[1].

ويغيّر إيبور لهجته للمرة الثالثة فيمضي يحلم بعصر جديد تستقر فيه الأوضاع مرة أخرى، وتنتعش النفوس بالآمال، ويزول الغم عن البلاد. يقول الحكيم:

"إنه من الخير أن تسير المراكب جنوباً..

إنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور...

إنه من الخير أن تشيّد أيدي الناس الأهرام، وتحفر البرك، وتنشئ للآلهة مزارع فيها أشجار.

إنه من الخير أن يكون الناس فرحي القلب،

إنه من الخير أن يكون السرور في أفواه القوم، وحكام الأقاليم يقفون، وينظرون إلى الأفراح المقامة في بيوتهم وهم يرتدون جميل الملابس...

إنه من الخير أن تكون الأسرّة وثيرة، ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ، ورغبة كل إنسان تحقق بسرير مظلل خلف باب مغلق ولا يضطر إلى النوم في الأعشاب"[2].

نبوءة نفر روهو

عثر الأستاذ غولتيشف[**] على بردية موجودة الآن في متحف لينينغراد. وهي تحتوي على نبوءة كاهن مرتل اسمه "نفر روهو".

يخمن الأكاديمي السوفياتي ستروفيه بأن تاريخ الوثيقة يعود إلى حكم الأسرة الثامنة عشرة، أي إلى نهاية الإمبراطورية الوسطى حوالى عام 1700 ق.م [3].

(*) يعطر الأفق: المعبد.

(1) المصدر نفسه، 314/1.

(2) المصدر نفسه، 316/1.

(**) غولتيشف: أحد علماء اللغة المصرية.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية، ص 156.

غير أن عدداً آخر من الباحثين السوفيات والأجانب يشكون في ذلك، ويفترضون بأن تاريخها أقدم من ذلك بكثير[1].

ويبدو أن هذه الوثيقة الأدبية وضعت أساساً لتمهيد الأذهان لظهور أمنمحات الأول (1992 - 1962 ق.م) في صورة "البطل المخلّص"، إلا أنها تصور الحالة الاجتماعية التي كانت تحياها مصر القديمة في المرحلة التي تلت الثورة الشعبية التي هدمت نظام الحكم وأسسه السياسية - الاجتماعية ولم تنجح في إيجاد نظام الحكم البديل.

لقد أصبحت البلاد خراباً، فلا من يهتم بها، ولا من يذرف الدمع عليها. وكان من نتائج الغزو الأجنبي والاضطرابات الداخلية تعطيل نظام الري وتدهور الزراعة والحرفة، مما انعكس آثار ذلك سلبياً على المنتجين الأساسيين للخيرات المادية وعلى الاقتصاد الوطني.

إن البلاد ممزقة ضعيفة متهالكة، وحتى الشمس قد احتجبت - كناية عن الظلام المعنوي الذي يعيش فيه الناس - وكل ما هو طيّب ولي، وأتى الغزاة الأجانب من الشرق والغرب ليسوموا مصر الخسف والهوان، ويظهروا على أبنائها، ويتمتعوا دونهم بخيراتها. أما أهل البلاد فقد هووا إلى الدرك الأسفل بسبب الفقر والحاجة، فأصبح الابن يقتل أباه، والأخ يخاصم أخاه، ولا يهرع إلى نجدته إذا تعرض لخطر... إن شبح المجاعة وظلم الحكام يطاردان الجميع، فأصبحت الأفواه ملأى بعبارات الاستجداء، وأصبح الناس لا يجدون كفايتهم من الخبز ولكن جامعي الضرائب لا يشفقون على حالهم، وإنما يصرون على استخدام مكيال كبير ويستوفون الكيل رابياً. يقول نفر روهو:

"انتبه يا قلبي، واذرف الدمع على هذه البلاد في كل نبضاتك..."

"أصبحت البلاد خراباً فلا من يهتم بها، ولا من يذرف الدمع عليها..."

"كيف أصبحت هذه البلاد وكيف أمست؟"

"إن الشمس قد احتجبت، ولم تعد تشرق ليرى الناس"

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

"ونهر مصر (النيل) قد جف، حتى ليستطيع المرء أن يعبره ماشياً..."

"إن كل ما هو طيب قد ولّى، والبلاد تحتضر..."

"إن الأعداء قد ظهروا في مصر، والآسيويين قد نزلوا على برها..."

"سوف أريك هذه البلاد ذليلة بائسة، وما لم يكن يحدث قط قد حدث..."

"سوف أريك الابن وقد أصبح عدواً، والأخ قد أصبح خصماً، والابن يقتل أباه، والأفواه ملأى بعبارات الاستجداء، وكل الأشياء الطيبة قد انقضت، والأرض يعمها الخراب، وأملاك المرء تنتزع منه وتعطى للغريب."

"سوف أريك أن المالك صار في حاجة والأجنبي قد استولى على ماله وخيراته."

"... وأن الأرض قد نقصت وتضاعف حكامها، والقمح أصبح نادراً، ولكن المكيال كبير، وجامع الضرائب يصر على أن يجعله رابياً".

"سأريك البلاد، وقد صارت مغزوة تتألم (أي ترسف في أغلال العبودية)، ومنطقة هليوبوليس (عين شمس) لم تعد مستقراً للآلهة"[1].

وبعدُ يتحول نفر روهو من غير تردد أو تشكك عن تلك الصورة التي يصف فيها آثار الخراب ويعلن قدوم الملك الذي سيخلص مصر مما حاق بها، إذ يقول:

"سيأتي ملك من الجنوب اسمه أميني (أمنمحات)، وسيستلم التاج الأبيض (رمز الجنوب)، ويلبس التاج الأحمر (رمز الشمال)، فيوحد مصر بذلك التاج المزدوج وينشر السلام في ربوعها على الوجه الذي يحبه أهلها.." [2]

"وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقياً أبد الآبدين، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواههم خشية منه، والآسيويون سيقتلون بسيفه،

(1) حسن، سليم: الأدب المصري القديم. ص 321.

(2) برستد، جيمس هنري: فجر الضمير: ترجمة الدكتور سليم حسن. دار مصر للطباعة، القاهرة، 1956، ص 216.

واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة لبطشه. وسيخضع المتمردون للصل(*) الذي على جبينه"[1].

"وسيقيمون (سور الحاكم) - أي إعادة بناء الحصون شرقي الدلتا - حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لكي تردها أنعامهم والعدالة (ماعت) ستعود إلى مكانها، والظلم ينفى من الأرض. فهنيئاً لمن سيرى ذلك ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك(*)[2].

يمكن الاستنتاج، من سياق أحداث الثورة ونتائجها، أن الانتفاضة الجماهيرية الكبرى التي سجلت وقائعها وآثارها الوثيقتان الأدبيتان "نبوءة الحكيم إيبور" و"نبوءة الكاهن نفر روهو" كانت انتفاضة تلقائية طبقية، اشتركت فيها جميع الفئات المستعبدة والمظلومة التي لا تملك شيئاً، ضد الطبقة الأرستقراطية السائدة المالكة لوسائل الإنتاج بما فيها العبيد.

وكانت انتفاضة الجماهير العاملة تعبيراً عفوياً عن استيائها ينقصه التنظيم والانضباط شأن جميع الثورات الرقيقية التي حدثت في المجتمعات العبودية إبان العصور القديمة. فلم يكن للثوار برنامج اجتماعي محدد المبادئ والأهداف، كما لم يكن لهم حزب أو منظمة سياسية تقود المنتفضين لتحقيق المبادئ والأهداف المحددة في البرنامج. فالثوار بعد أن دمروا أجهزة الدولة العبودية وقتلوا الموظفين والأغنياء واستولوا على أموالهم، لم ينشئوا

(*) صِل الملك وإله الشمس (رع): هذا الثعبان الذي يوضع في مقدمة التاج الملكي لينفث السم في وجه كل من يريد أن يقترب من الملك بسوء وذلك لتخويف الناس من شخص الفرعون ونظامه المقدس الاستبدادي.

(1) برستد: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(*) ذلك الملك: يقصد الملك المنشود. يتساءل الباحث الأستاذ جيمس هنري برستد: هل تأكيد نفر روهو أن بطله «أمنمحات" سيوحد البلاد ويعيد الأمن والنظام إليها هو مجرد نبوءة بحادثة بعد وقوعها؟ أو كان ذلك إعلاناً ناجحاً عن بطل منتصر قد نجح في إصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائي، وإصلاحه كلّ مصر كان حدوثهما متوقعاً؟ أو هل كان نفر روهو مرسلاً من قبل «أمنمحات» إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان من أنصار «أمنمحات» يعظم إصلاحاته بتصويرها بجانب صورة ما آلت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟ المصدر نفسه، ص 217.

(2) المصدر نفسه، ص 217.

سلطة ما، ولم يلغوا النظام العبودي، ذلك لأنهم لم يكونوا يعرفون غيره، مما أتاح الفرصة لفصائل الأرستقراطية لتوحيد قواها، وإعادة سلطة الفراعنة إلى مصر.

واشترك الفلاحون والكادحون الحرفيون في الحروب الأهلية التي مزقت النظام العبودي الفرعوني بعد انهيار الدولة الحديثة.

وقام شعب طيبة بطرد الملك أوزوركون في القرن التاسع ق.م، واندلعت ثورات جماهيرية عديدة إبان الاحتلال الفارسي لمصر، ولكن الغزاة أخمدوها بشدة[1].

إضافة إلى المقاومة الإيجابية، لجأ الفلاحون المعدمون والحرفيون الكادحون والعبيد إلى وسائل المقاومة السلبية، وذلك بالامتناع عن العمل والفرار من الأرض أو الجندية.

إضراب العمال في عهد رمسيس الثالث

يمكن الباحث أن يستخلص بعض التفصيلات عن إضراب العمال أيام رمسيس الثالث من ورقة إضرابهم. وقد أرخت هذه الورقة التي يطلق عليها "ورقة الإضراب" بالسنة التاسعة والعشرين من حكم هذا الفرعون.

كان عمال قرية جبانة طيبة(*) يعملون في توريد الماء والخضر والسمك لحساب الدولة ويتلقون لقاء ذلك جرايات قليلة وغير منتظمة. وكانوا يعيشون حياة بائسة ويسكنون أكواخاً حقيرة.

وكانت طائفة عمال القرية تتألف على ما يظهر من عشرين ومئة عامل في العادة، يقسمون إلى قسمين: قسم اليمين، وقسم الشمال. وكان لكل قسم رئيس عمال وكاتب. وكان للعمال مفتشون لهم عمل معين، إذ نجد في ورقة الإضراب عاملاً يقول لأحد الكتبة ولأحد رؤساء

---

(1) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي- الاقتصادي، ص 60.

(*) ذلك الملك: يقصد الملك المنشود. يتساءل الباحث الأستاذ جيمس هنري برستد: هل تأكيد نفر روهو أن بطله «أمنمحات" سيوحد البلاد ويعيد الأمن والنظام إليها هو مجرد نبوءة بحادثة بعد وقوعها؟ أو كان ذلك إعلاناً ناجحاً عن بطل منتصر قد نجح في إصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائي، وإصلاحه كلّ مصر كان حدوثهما متوقعاً؟ أو هل كان نفر روهو مرسلاً من قبل «أمنمحات» إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان من أنصار «أمنمحات» يعظم إصلاحاته بتصويرها بجانب صورة ما آلت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟ المصدر نفسه، ص 217.

العمال: "إنكم رؤساؤنا، وأنتم مفتشو الجبانة". وكان بعض العمال يوصفون بالألقاب التي تدل على واجباتهم الخاصة، فمثلاً نجد من بينهم من يميزون أنهم نحاتون، أو حفارون، أو صناع، أو قاطعو أحجار، أو صُنّاع جبس وهم الذين يعتبرون أحياناً بنائين أو صانعي فخار.

وكان يقوم بعمل الشرطة في الجبانة جنود المازوى على رأسهم ضابطان، وكانوا في قديم الزمان من النوبيين، غير أنهم في نهاية الأمر أصبحوا من المصريين.

وكانت وظيفة كل من رئيس العمال والكاتب من الأهمية بمكان في الجبانة، ولهما مزايا خاصة. فمثلاً نجد في توزيع الجرايات أنه كان للواحد منهما ضعف ما للعامل العادي أحياناً. ولدينا ورقة من الأوراق قد سجل فيها تقسيم الزيت، حيث تسلم رئيسان "5 هنا"، لكل منهما، في حين أن سبعة عشر رجلاً كان نصيب الواحد منهم "2 1/2 هنا" من الزيت، وثمانية آخرون كل واحد منهم تسلم "1 1/2 هنا".

وكان العمال وقتئذ قد أظهروا سخطهم لقلة الجرايات التي تصرف لهم، وأنهم بسبب ذلك اخترقوا، في مناسبات عديدة، جدران الجبانة الخمسة واتجهوا نحو المعابد الجنائزية الكبيرة احتجاجاً على سوء أوضاعهم، فذهبوا إلى معبد "تحتمس الثالث"، وإلى معبد "مرنبتاج" وإلى معبد "رمسيس الثاني"، وفي مناسبة واحدة ذهبوا إلى معبد "رمسيس الثالث"[1].

وفي السنة التاسعة والعشرين من حكم "رمسيس الثالث" أضرب عمال قرية جبانة "طيبة" عن العمل احتجاجاً على قلة الجرايات التي يعيشون عليها وعدم انتظام دفعها. فقد ترك العمال أعمالهم وتجمهروا على مقربة من المعابد الجنائزية. وهاجموا مخازن معبد "الرمسيوم" وهم يصيحون: "نحن جائعون". وتوقفوا عن العمل إلى أن صرفت لهم أنصبتهم المتأخرة من الغذاء[2].

ولجأ الفلاحون إلى الفرار من الزراعة وترك الأرض إلى خارج الحدود. وتكررت هذه

---

(1) حسن، سليم: مصر القديمة. 577/7 - 586.

(2) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادي، ص 60؛ أيضاً: أحمد فخري: مصر الفرعونية، دار ممفيس للطباعة، القاهرة، 1971، ص 376.

الظاهرة، حتى نصت المعاهدة بين رمسيس الثاني، فرعون مصر، وحاتوشيل، ملك الحثيين، على إعادة الفارين إلى ملك مصر[1]. وكذلك اتسعت حركة فرار الفلاحين إلى المدن في العصر الصاوي، حيث كان حكام الأقاليم يقبضون عليهم ويعيدونهم إلى الريف قسراً[2]. وكان الفلاحون يفرون من التجنيد العسكري تعبيراً عن عدائهم للسلطة مما حمل فراعنة مصر على الاعتماد على المرتزقة منذ وقت مبكر[3].

ثقافة مصر

السمات العامة: أبدع الشعب المصري خلال تاريخه القديم إنجازات ثقافية رائعة في ميادين الأدب والبناء والنحت والرسم نالت إعجاب وتقدير العالمين القديم والمعاصر. وكان لآداب مصر وفنونها تقاليد متينة راسخة. وقد احتفظ الشعب المصري دائماً بأصالته وسماته المميزة. وكانت الرحلات العديدة التي نظمها في النيل والبحر تخصب الخيال وتوسع الأفق وتحث الخطى في طريق تطور الأدب الدنيوي (العلماني). كما أن توافر أحجار البناء والمواد الثمينة كالذهب والأبنوس والعاج قد يسر في الوقت نفسه هندسة البناء والنحت والفنون التطبيقية.

ومن الخطأ النظر إلى الثقافة المصرية على أنها نتاج الأرستقراطية العبودية. فقد كانت الحكايات والأخبار وقصص المغامرات وقصائد الحب وغيرها من المآثر الأدبية ينبوعاً للفولكلور المصري الفني. وقامت الفنون التشكيلية، التي تصعد في قدمها إلى عصر المجتمع البدائي، على تقاليد الفن الشعبي، وكانت نماذج عديدة من هذه الفنون نتاج أساتذة انبثقوا من صميم الشعب.

إن المنجزات الثقافية لشعوب بلدان آسيا وأفريقيا، في العصور القديمة وفي طليعتها الشعب المصري، أثرت تأثيراً كبيراً في تطور الثقافة البشرية. لقد كانت شعوب بلدان القارتين

(1) سعد، أحمد صادق: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المذكورتيـن، وفـي مقدمتهـا الشـعب المصـري، بمثابة طلائـع تطور الثقافـة المادية والروحيـة في ظروف النظـام العبـودي، ولـو أن هـذا التطـور سـار بوتائـر بطيئـة. وفي الوقت نفسـه، سـاعدت تجارب الشـعوب الآسـيوية والأفريقيـة علـى سـرعة تطور القـوى المنتجة فـي مجتمعي اليونـان والرومـان العبوديين.

الفصل الثاني عشر

الكتابة

الكتابة: في الألف الرابع قبل الميلاد، كدس المصريون معارف كثيرة تعجز ذاكرة الإنسان عن احتوائها. وكان من المستحيل نقل تلك المعارف شفهياً إلى أجيال أخرى. فبدأوا بعمل النقوش. وقد عنى اختراع الكتابة، حوالى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية.

في أول الأمر كان الكاتب إذا أراد كتابة كلمة ما يرسم صورة تعبر عنها، ولنتذكر جيداً كيف أنه بمساعدة الرسوم، كالتي نقشت مثلاً على لوحتي العقرب ونارمو، أمكن للأجيال اللاحقة سرد الأحداث الهامة التي جرت في مصر في عهد ما قبل الأسر. فقد عبّروا عن الماء برسم أمواج (ثلاثة خطوط متعرجة) وعن الجبل برسم هضبتين بينهما منخفض. ومن ثم أصبحت الصور لا ترمز فقط إلى الكلمات بأكملها وإنما أيضاً إلى المقاطع والأصوات. ومع الزمن تحولت الرموز التصويرية، المعبرة عن حكمة أو مقطع، إلى رموز أو حروف أبجدية. فالرمز التصويري الذي يشير إلى كلمة ماء التي تلفظ "شاتحول" تحول إلى حرف ش، والرمز الذي يشير إلى كلمة هضبة التي تلفظ "كاتحول" تحول إلى حرف ك. وهكذا نشأت في عهد الدولة القديمة أبجدية هيروغليفية من 24 حرفاً، شكلت أساس الكتابة التي استخدمت في مصر حتى نهاية تاريخها القديم.

وقد تطور الخط الهيروغليفي وبسّط مع الزمن إلى الهيراطيقي (خط سريع) في عهد

الإمبراطورية القديمة ثم إلى الديموطيقي (كتابة شعبية دارجة) في القرن الثامن قبل الميلاد.

ويعود تعقيد الكتابة الهيروغليفية وبطء تطورها إلى كونها امتيازاً للكهنة الذين احتكروا المعرفة وأحاطوا الكتابة بهالة دينية سرية، وزعموا أن "تحوت" إله الحكمة قد وهبها لهم.

كتبت الهيروغليفية بخطوط أفقية تقرأ من اليمين إلى الشمال، وأحياناً كتبت على شكل مقاطع عمودية تقرأ من الأعلى إلى الأسفل. وكتب المصريون بالهيروغليفية على الحجر والخشب والرق والبردي.

واستخدموا في كتابتهم قلماً صنعوه من القصب ونوعاً من الحبر استخلصوه من نسغ بعض النباتات. وهكذا يعود إلى المصريين الفضل في إيجاد وسائل الكتابة، الورق والقلم والحبر. كما أن الكلمة الأجنبية للورق papier – paper مأخوذة من كلمة papyrus المصرية التي تعني نبات البردي.

وقد أطلق اليونان على هذه الرموز - الصور اسم هيروغليف ومعناه النقش المقدس. لأن اليونان كانوا يرون في الكتابة المصرية تعبيراً عن الدين والسحر، بينما كانت تستعمل أيضاً لأغراض السياسة والإدارة والاقتصاد والثقافة.

وكان للكتابة المصرية قيمة تاريخية كبيرة. ففي النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، استخدمها الفينيقيون نموذجاً في كتابتهم الأبجدية. كما كان لها ولاختراع الورق أهمية بالغة في رفع المستوى الثقافي للبشرية.

الفصل الثالث عشر

الأدب

يمكن تقسيم الأدب المصري القديم إلى قسمين أساسيين: أدب ديني وأدب دنيوي.

الأدب الديني: كان الأدب، شأن جميع الكتابات في عهد الإمبراطورية القديمة جوهره أدباً دينياً عكس أفكار الطبقة السائدة في المجتمع العبودي المصري ومفاهيمها. وقد أسهم رجال الدين بقسط وافر في نشر هذا النوع من الأدب من أجل تعزيز سلطة الفراعنة وإعاقة تطور الجماهير، وذلك بإلجام طاقاتها الخلاقة وزجّها في متاهات الجهل وضلالات الأوهام والسحر. وكان الأدب الديني يحتوي على وجه الخصوص، نصوصاً سحرية نقشت على جدران الأهرام والمقابر والتوابيت. وخير ما يمثل الأدب الديني هو: الأساطير الدينية، والأناشيد والتراتيل الدينية.

الأساطير: تطورت الأساطير حسب تطور المجتمع. والأساطير بنوعيها الشعبي والرسمي تراث ثقافي تتشابك فيها العناصر الحقيقية، التي تعكس واقعاً تاريخياً محسوساً تشابكاً وثيقاً مع العناصر التي هي من اختراع خيال الإنسان. ومن الأساطير الدينية التي حفظت وتناهت إلينا أسطورة "إيزيس أوزيريس" فقد دوّنها المؤرخ اليوناني "بلوتارخ" شبه تامة في كتابه، كما حُفظ بعض فصولها مكتوباً على جدران الأهرامات.

ارتبطت أسطورة "أوزيريس" ارتباطاً وثيقاً وواسعاً بالطابع الزراعي لعبادته. خلاصة الأسطورة: "سيت" إله الرياح الضارة والصحراء المجدبة يقتل أخاه أوزيريس إله النيل

المخصب والقوة الإنباتية والقمح والشعير. وتنجح إيزيس في إعادة الحياة الى زوجها المغدور. ثم يجعل الكهنة من أوزيريس ملكاً على مملكة الأموات وقاضيها. وإذا علمنا أن الملك كان يؤله أيضاً بعد وفاته ويأخذ اسم أوزيريس وأنه سوف يبعث كما بعث أوزيريس، تبين لنا إلى أي حد خدمت عبادة أوزيريس تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة العبودية.

الأناشيد والتراتيل الدينية: وضعت لتمجيد الآلهة والفراعنة. وبين أجمل الأناشيد: نشيد آتون ونشيد آمون. وضع أخناتون النشيد الأول ومن مقاطعه:

"بزوغك جميل في أفق السماء يا آتون يا حي يا مبدئ الحياة!

إذا صعدت في أفق السماء الشرقي أفضت على الأرض جمالك.

أنت جميل عظيم، متلألئ في السموات العلى.

تسطع بأشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك.

أنت رع، أسَرتهم وقيدتهم بحبك.

أنت في قلبي، لا يعرفك سوى ابنك أخناتون الذي جعلته عاقلاً بآرائك وقوتك.

لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش في الحق سيد التيجان أخناتون طال أجله"[1].

هذا وجدير بنا أن نلفت الانتباه إلى أن كهنة المعابد الرئيسة ألغوا في عهد الإمبراطورية الحديثة أبحاثاً لاهوتية تعرض المذاهب المتعلقة بنسب الآلهة ونشأة الكون لمختلف المدارس المتنازعة[2].

الأدب الدنيوي: أسهمت علاقات مصر السياسية والتجارية والنشيطة مع البلدان المجاورة في عهد الدولتين الوسطى والحديثة، في تطور الأدب باتجاه دنيوي، عاكساً بذلك التغيرات الاجتماعية العميقة التي حدثت في المجتمع المصري والشروط الزرية لحياة الفقراء والظلم الذي كانت تمارسه بحقهم طبقة ملاك العبيد.

(1) برستد: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال، ص 245 – 249.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق. ص 173.

ظهرت بذور الأدب الدنيوي منذ عهد الإمبراطورية القديمة، على شكل "سِيَر" تروي حياة بعض المتوفين من كبار موظفي الدولة: وظائفهم وأعمالهم، وفضائلهم، وأملاكهم. وخير مثال على ذلك سيرة السيد "أوني Ouni":

"... وكنت رئيساً لبيت الزراعة وملأت مخازن فرعون وكنت كبيراً للأمناء في زمن بيبي (ثاني ملوك الأسرة السادسة). وقاد حملة ضد البدو الآسيويين وعاقب جلالته أولئك البدو على رمال عامو، وكون جيشاً من عشرات الآلاف من كل مصر العليا، وأرسلني على رأسه.

... وفتحت لهذه الجيوش الطريق... وعاد هذا الجيش في سلام بعد أن حطم أرض البدو ووطئ أراضي سكان الرمل ودمر قلاعهم وقطع تينهم وكرومهم وأشعل النار في كل جيوشهم وضرب عشرات الآلاف وأحضر الأسرى الكثيرين، ومنحني الملك كثيراً من أجل ذلك". ثم عينه الملك: مرى أن رع (ثالث فراعنة الأسرة السادسة) أميراً وحاكماً على الجنوب "وقد عملت كحاكم للجنوب، وأديت كل الأعمال، وقمت بتعداد كل ما يحصى مرتين... ونفذت كل شيء طبقاً لأوامر روحه التي كانت تأمرني"[1].

وتحتوي سيرة رخميره (Rekhmiré)، أحد كبار موظفي تحوتمس الثالث، عرضاً مميزاً لحقوق وواجبات وطرائق حكم الوزير في عهد الإمبراطورية الحديثة[2].

ويدخل في ميدان الأدب الدنيوي مجموعة من القصص والأناشيد والحكم والنصائح.

القصص: كتبت في عهدي الدولتين الوسطى والحديثة قصص رائعة تعكس إلى حد كبير تطور علاقات مصر السياسية والتجارية، كما تعكس التغيرات الاجتماعية العميقة التي حدثت في المجتمع المصري والأوضاع الصعبة لجماهير الكادحين. أشهر هذه القصص:

قصة الفلاح الفصيح: تعود قصة الفلاح الفصيح إلى عهد الدولة الوسطى. وتصور حالة الفلاح البائسة وعسف الموظفين واعتداءاتهم عليه. تتحدث القصة عن فلاح من واحة النطرون اسمه "خونا نوب" جمع محاصيله وحملها على ظهور حميره وسار بها إلى الحاضرة

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج1، ص 189.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 174.

ليبيعها ويشتري بقيمتها طعاماً وحاجات لعائلته. في الطريق يعترضه "تحوتي نخت" موظف تابع لأمين من أمناء الملك، فيستولي على قافلة محاصيله ويروح ينهال بعصاه بلا شفقة على كل أنحاء جسمه، ويتركه فاقد الحركة على الأرض. وبعد أن داوى "خونا نوب" جراحاته، قصد كبير الأمناء وتقدم بتسع شكايات ثم رفعها إلى الملك. وتعبّر هذه الشكاوى عن الظلم الاجتماعي الذي كانت تلاقيه طبقة الفلاحين من موظفي الإدارة والمالية بمن فيهم القضاة. إنها صيحة المظلومين في سبيل العدالة والكرامة[1].

قصة سنوحي: تعود قصة سنوحي إلى عهد الدولة الوسطى. وتبرز مرحلة من حياة المغامرات والخروج إلى ما وراء الحدود السياسية التقليدية ومدى علاقة مصر بسوريا في هذه الحقبة التاريخية، كما تشير إلى حياة البلاط المصري وتتناول جانباً هاماً من العادات والتقاليد لإحدى القبائل السوريا.

والقصة رواية مرحلة من حياة الأمير سنوحي "... وكان يصحب ولي العهد سنوسرت الأول عند عودته من غزوة موفقة على الحدود الغربية حين ترامت إلى مسمعه في الليل أنباء وفاة الملك "أمنمحي الأول" فطار قلبه شعاعاً ولاذ بالفرار إلى سوريا حتى لا يتهم بمؤامرة حبكت ضد سنوسرت الأول". وتصف القصة ما تعرض له سنوحي من العطش والعذاب: "كنت صادياً وحنجرتي تحترق وقلت لنفسي... هذا هو طعم الموت". ولكنه سمع ثغاء ماشية ورأى سكان بعض الصحراء وأعطوه ماء ولبناً. ثم يصل إلى سوريا ويتعرف إلى أحد أمراء قبائلها ويتزوج ابنته. ورزق منها أولاداً كبروا وأصبح كل منهم يحكم قبيلة...

وقام بأعمال غزو، فسلب المواشي واستولى على الأراضي فزادت ثروته وكثرت قطعانه. وعاد إلى مصر بعد أن عفا عنه الفرعون "فالتمست من الفرعون أن أعود إلى مصر، أرض الوطن، حتى يدفن جسدي فيها". وعندما دخل إلى الملك وشاهده على عرشه، انبطح على بطنه يقبل التراب أمامه فأمره بالوقوف وطمأنه. ثم "عينني الملك أميناً في القصر، ولبست أفخر الكتان. ودلكت بالزيت، وزيد في جرايتي من الطعام، وأمر جلالته بتشييد مقبرة فاخرة

(1) برستد: فجر الضمير. ترجمة د. سليم حسن، ص 197 – 207.

لـي.." [1]. يمثـل أسـلوب قصـة سـنوحي لونـاً مـن ألـوان الأدب الرفيـع، فيـه دقـة فـي التعبير وخيـال بارع، وفيهـا أمـل بعـدم الاستسـلام لليأس.

قصـة الملـك سـكن جـن رعٍ (Seken jen Rà) : تعـود قصـة الملـك سـكن جـن رع إلـى عهـد الدولـة الوسـطى أيضـاً. موضـوع القصـة يعالج مرحلة مـن الكفاح الوطني الـذي تزعمه الملك سـكن جن رع لطرد الهيكسـوس من مصـر[2].

قصـة الأخويـن: تعـود قصـة الأخويـن إلـى عهـد الإمبراطوريـة الحديثـة. طابعهـا أسـطوري. وهي قصة شـعبية مليئـة بألـوان السـحر، وتعكس عقيـدة المصريين بالبعث. تعالـج القصة أمر الزوجـة الخائنة مرتين وتنتهـي فـي الحالتيـن بـأن يوقـع الزوج علـى زوجته العقوبة المناسـبة للجرم. أسـلوب القصـة ضعيف وإن وافقت الخيال الشـعبي[3].

قصـة الأميـر: تعـود قصـة الأميـر إلـى عهـد الإمبراطوريـة الحديثـة. موضوعهـا مسـتوحى مـن التقاليـد الشـعبية. طابعهـا أسـطوري. خلاصـة القصـة: "التمس ملك لم يرزق بنسـل من الآلهة أن تهبـه ولداً ففعلت وعنـد ولادتـه قـرر مصيـره... كتـب عليه أن يموت بواسـطة تمسـاح أو ثعبـان أو كلب. وحـزن الملك، وأمر ببنـاء بيـت فـي الصحـراء لا يغـادره الصبـي. وذات يوم شـهد الصبـي كلباً وراء صيـاد، فالتمـس أن يكون له كلـب، فجـيء لـه بجرو صغير... ثم التمس حين كبر أن يمارس ألوان الحياة المعتادة. سـافر الشـاب يصحبه كلبـه إلـى سـوريا. وكان لملكهـا ابنـة وحيـدة تسـكن بيتـاً عاليـاً. وكان أبوهـا قـد أعلـن أنـه سـيزوجها لمن يسـتطيع أن يتسـلق إلـى شـرفتها. عـرف الأمير قصـة البنت، وطـار إليها وأحبـا بعضهما البعض ثـم تزوجا... وبعـد الـزواج كشـف الأميـر لزوجته عن سـر مصيـره. فطلبت إليه أن يقتـل كلبه فأبى... وحاول تمسـاح أن يقتلـه فحاربـه مـلاك المـاء... وخرجـت حيـة لتقتله فاسـتطاعت الزوجـة أن تقتلها بفأسـها.. وجـرى الكلب

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج 4، ص 492 – 495. وسليم حسن: الأدب المصري القديم، ج1، ص 31 – 46.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 174.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج 2، ص 504.

فقبض عليه التمساح وذهب به إلى حيث ملاك الماء.. وهنا تضيع بقية القصة. ولكن يبدو أن الكلب هو الذي كان سبباً في نهاية الأمر بقتل الشاب[1].

حوليات تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني: تروي حوليات تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني أخبار الحملات والانتصارات الحربية، والأعمال الكبرى للفراعنة.

الأناشيد والأغاني العاطفية: وتشمل الأناشيد السياسية والأناشيد ذات المغزى الاقتصادي والأهازيج العاطفية. من الأناشيد السياسية: أنشودتان لتحوتمس الثالث ورمسيس الثاني، تتضمنان مدحاً لانتصاراتهما في المعارك الحربية على أعدائهما. ومن الأناشيد ذات المغزى الاقتصادي: نشيد النيل، وكان ينشد أثناء الاحتفالات بالفيضان ومن مقاطعه:

"المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر.

وعندما تفيض يعم الفرح البلاد.

أنت تطفح فتسقي الحقول وتنعش القطعان وتمد الناس بالقوة.

إذا تأخرت بنعمك توقف دولاب الحياة.

وإذا غضبت حل الذعر في البلاد.

يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير والذرة.

أنت الذي يخلق كل جميل.

الشباب والأولاد فرحون جذلون.

يحبونك، أيها الملك"[2].

وقد انتشرت الأغاني العاطفية انتشاراً كبيراً، ومنها ما كان يردده الزراع في الحقول، والرعاة عند سوق مواشيهم إلى مراعيها، والصيادون أثناء الصيد، وأغاني الشراب التي تردد مع الموسيقى في الحفلات. ومنها أيضاً أغاني الحب وأهازيج الغرام نذكر منها المقاطع التالية:

---

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 504 – 505.

(2) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، ج1، ص 87.

"يا حبيبي! إن قلبي مشوق لحبك.

أتيت لأصيد بفخي الذي أحمله بيدي.

وكل الطيور من بويني مضمخة بالمر.

ستحط فراخها على فخي لتلتقط الدودة.

ما أجمل أن نكون معاً حين نضع الفخاخ.

لا أعرف ماذا سأقول لأمي حين أعود إليها في المساء بغير صيد.

ستسألني ألم أنصب شباكي؟ إن حبك قد أنساني ذلك.

إن قلبي يوافق قلبك ولن أبعد عن مفاتنك.

أنفاسك وحدها هي التي تجعلني أعيش.

إن أمنيتي أن أحبك! أن أكون زوجتك في بيتك"[1].

نصوص فلسفية اجتماعية أو نبوءات وتحذيرات ونصائح وحكم: وجاءت في قالب نبوءات وتحذيرات أو نصائح وحكم تعرض ما عانته البلاد من كوارث الحروب الأهلية والغارات الأجنبية والبطالة والضائقات والأوبئة والانتفاضات الثورية، يتخللها تحذير من الاهمال، والأخذ بالإصلاح. ومما تناهى إلينا من نصوص أدبية حول هذه الموضوعات:

1 - تحذير الحكيم إيبور: تعود تحذيرات الحكيم إيبور إلى فترة التفتت التي تلت حكم الأسرة السادسة على ما يظن. وهي وصف حي لانتفاضة جماهيرية شاملة اشترك فيها الفلاحون والحرفيون والعبيد، أي أناس العمل الكادحون البؤساء الذين لا يملكون شيئاً.

"لقد اعتقل الثوار الملك، وقتلوا الموظفين، وفتحوا قبور الفراعنة وبعثروا أشلاءهم، واستولوا على المعابد ومخازن الملوك والأسياد والكهنة، وأعلنوا أن جميع ما فيها من قمح وغلال قد أصبح مشاعاً - ملكية وطنية. وطرد الثوار الأغنياء من قصورهم وجردوهم من جميع أموالهم وأجبروهم على العمل من أجلهم"[2].

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج 4، ص 534 - 535.

(2) انظر: ص 139 وما بعدها.

"وهوجمت مراكز الإدارة الملكية، وأتلفت جميع سجلات المالية والمساحة ووثائق الملاكين، ووضعت قوانين قصر العدل في البهو، وصار القوم يطأونها في الطرقات ويمزقها الفقراء في الأزقة. ولاذ الحكام بالفرار، وأصبحت خزينة الملك دون دخل والمعابد دون تقدمات وقرابين"[1].

"لقد أصبح الفقراء أغنياء والعبيد أسياداً. فمن لم يكن له جدار يأوي إلى ظله أصبح له سرير. ومن لم يكن له زوج من الثيران أصبح يملك قطيعاً، وأولئك الذين كانوا يلبسون الثياب الثمينة غدوا في أسمال بالية، وأصبح الذين كانوا ينسجون لأنفسهم يملكون الملابس الثمينة. وفي الحق إن البلاد كانت تدور على عقبها كما تدور عجلة الفخار"[2] حسب تعبير إيبور.

وتنتهي وثيقة إيبور الأدبية بالنصح والتحذير من الإهمال والأخذ بالإصلاح[3].

2 - نبوءة نفر روهو: وهي وثيقة أدبية هامة محفوظة اليوم بمتحف لينينغراد.ويخمن الأكاديمي ستروفيه أن تاريخها يعود إلى حكم الأسرة الثامنة عشرة، أي إلى نهاية الإمبراطورية الوسطى[4]. غير أن عدداً من الباحثين السوفيات والأجانب يشكون في ذلك، ويفترضون أن تاريخها أقدم من ذلك بكثير[5].

تصف الوثيقة النوائب التي أحاقت بمصر بسبب الغزو الأجنبي والاضطرابات الداخلية والآثار السلبية التي خلفتها من تعطيل نظام الري وتدهور الزراعة والحرفة والتجارة ونقصان موارد الخزينة وإرهاق العاملين بالضرائب وانهيار الحكومة المركزية وتجزئة البلاد.

"لقد اختلط الحابل بالنابل في هذه الأرض، ولا يعرف أحد ماذا ستكون النتيجة... إني أريك الأرض وقد انقلبت ظهراً على عقب"[6].

---

(1) انظر: ص 140 وما بعدها.

(2) انظر: ص 140 وما بعدها.

(3) انظر: ص 140 وما بعدها.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 156.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1955. ص 190.

"لقد أصبحت البلاد خراباً فلا من يهتم بها... وتعطلت أعمال الري، وصارت مصر طريحة الشقاء بسبب طعام البدو الذين يغزون البلاد، وظهر الأعداء فيها، وانحدر الآسيويون إليها... واختفى كل شيء صالح. والبلاد تحتضر... وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى للغريب... إني أريك كيف يصبح المالك في حاجة والأجنبي في غنى... وإن الأرض قد نقصت، ولكن الموظفين الذين يديرونها كثيرون، وأصبحت الأرض عارية من الزرع، ولكن شرائبها كثيرة وغلتها قليلة، وكيل الضرائب كبير يملؤونه حتى يطفح"[1].

وينتقل نفر روهو بعد ذلك إلى وصف القحط الذي وقعت فيه البلاد داعياً الى ظهور "ملك منقذ" يخلص مصر من محنتها، إذ يقول: "سيأتي ملك من الجنوب وسيتسلم التاج الأبيض وسيلبس التاج الأحمر فيوحد مصر السفلى ومصر العليا... وسيفرح أهل زمانه. أما الذين كانوا قد تآمروا بـ"الشر" ودبروا "الفتنة" فقد أخرسوا أفواههم خوفاً منه. والآسيويون سيقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون للصلّ[2] الذي على جبينه.. وسيقيمون (سور الحاكم) - أي إعادة بناء الحصون في شرقي الدلتا - حتى لا يتمكن الآسيويون من أن يغزوا مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لأجل أن تردها أنعامهم"[3].

3 - أمثال وحكم من تجارب الحياة: ويحتوي الأدب الدنيوي على مجموعات من النصائح والحكم تعبر عن خلاصة تجارب الحياة. ومما وصلنا في هذا الحقل "نصائح" الوزير "بتاح حوتب" زمن الأسرة الخامسة لابنه. وسواء أصحّت نسبة هذه الوثيقة إلى الوزير المذكور أم إلى غيره، فإنه من المؤكد أنها قديمة جداً.

ومهما يكن من أمر هذه النصائح والحكم فإن الغرض منها الإرشاد والتعلم والإفادة من دروس الحياة ومن هذه النصائح والحكم:

---

(1) حسن، سليم: المصدر السابق، ج1، ص 321. ولسون، جون: المصدر السابق، ص 190 - 191.

(2) صل الملك وإله الشمس رع هو الثعبان الذي يوضع في مقدمة التاج الملكي لينفث السم في وجه كل من يريد أن يقترب من الملك بسوء، وذلك إمعاناً في نشر الخوف والرعب في أوساط الجماهير من شخص الفرعون ونظامه المقدس.

(3) حسن، سليم: المصدر السابق، ص 322.

"لا يداخلنك الغرور بسبب علمك، ولا تتثاقل لأنك رجل عالم. استشر الجاهل كما تستشير العالم، لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود العلم"[1]. "إن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر، ومع ذلك قد تجده لدى الإماء اللاتي يعملن في إدارة الرحى"[2].

"الصدق جميل وقيمته خالدة. إن كنت موضع ثقة وكلفت أداء رسالة فأدّها على وجهها الصحيح. وإن كنت في منصب بحيث تقدم لك الشكايات فاستمع في رفق إلى شكاية المتظلم، ولا تسئ معاملته، فالشاكي يحب من يستمع إلى شكايته. الجشع والنهم مرضان عسيرا الشفاء"[3]

"أقم العدل وعامل الجميع بالعدالة. إن الرجل الذي اتخذ العدالة معياراً له، وسار وفقاً لجادتها يكون ثابت المكانة"[4].

وتناهت إلينا من الأدب الدنيوي قصائد شعرية من عهد الإمبراطورية الحديثة، منها "أغنية الضارب على العود" التي تدعو إلى الاستمتاع بمسرات الحياة ومباهجها، فالمرء لا يحيا حياتين.

"إن الذين بنوا لأنفسهم قصوراً لم يبق شيء من بيوتهم، فما الذي حدث لهم؟ ولم يأت أحد من هناك فيقص علينا ما أصبحوا عليه ويخبرنا عن مصيرهم... فتمتع واجعل قلبك ينسى اليوم الذي يضعونك فيه في القبر لترتاح. ارم بكل الأحزان... وفكر في السرور... اسكب العطور فوق رأسك، والبس أفضل أنواع ملابس الكتان ولا تشغل نفسك بشيء. استمع إليّ لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه، ولن يعود ثانية من يموت"[5].

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 78. سليم حسن: المصدر السابق، ص 178. د. نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق، ج1، ص 510 – 511.

(2) المصادر نفسها.

(3) المصادر نفسها.

(4) حسن، سليم: المصدر نفسه، ص 185 – 186.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 78. سليم حسن: المصدر السابق، ج2، ص 224 - 225. د. نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق، ج4، ص 530.

ويبدو أن إخفاق الانتفاضات الجماهيرية وتنكيل السلطة بالمنتفضين تنكيلاً وحشياً، قد خلق لدى فئات عريضة من السكان أثراً سلبياً، وخلق في أوساطهم اتجاهاً فلسفياً يعكس التشاؤم والخنوع وخيبة الأمل في حياة أفضل على الأرض. ويمكن للمرء أن يتلمس مثل هذا الاتجاه في قصة "حوار رجل متعب من الحياة مع روحه". وهي وثيقة هامة محفوظة اليوم في متحف برلين.

تصف المقطوعة الأولى من المحاورة مقت العالم بغير حق اسم ذلك التعس:

"انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة اللحم النتن في أيام الصيف.

انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة السمك وأكثر من شواطئ المستنقعات عندما يصاد عليها.

انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة التماسيح"[1]

وفي المقطوعة الثانية، يذكر أسباب تعاسته، فيعزوها إلى الظلم والنهب والرشوة، أي إلى النظام العبودي ذاته. فاسمعه يقول:

"لمن أتكلم اليوم؟ الناس شرهون. وكل إنسان يغتال متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم؟ الناس يسرقون وكل إنسان يغتصب متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم؟ الأخوّة شر، والإنسان صار يعامل كالعدو، رغم صدق ميوله.

لمن أتكلم اليوم؟ والقلوب شرهة والرجل الذي يعتمد عليه القوم لا قلب له.

لمن أتكلم اليوم؟ فإني مثقل بالشقاء وينقصني خلّ وفيّ.

لمن أتكلم اليوم؟ فالخطيئة التي تصيب الأرض لا حد لها"[2].

والنظم الثالث أنشودة قصيرة في مدح الموت: "قدني إلى الموت واجعل الغرب حبيباً إلى نفسي. إن الموت ليس مصيبة والحياة ما هي إلا تطور"[3]. الموت خلاص سارّ:

---

(1) حسن، سليم: المصدر السابق، ج1، ص 284 - 285.

(2) المصدر نفسه، ص 285 - 286.

(3) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

"إن الموت أمامي اليوم كرائحة بخور المر وكإنسان يقعد تحت الشراع في يوم شديد الريح.

إن الموت أمامي اليوم كرائحة زهرة السوسن.

إن الموت أمامي اليوم مثل مجرى النهر الصغير ومثل عودة الرجل من سفينة حربية إلى داره.

إن الموت أمامي اليوم كمثل رجل يتوق الى رؤية منـزله بعد أن أمضى سنين عدة في الأسر"[1].

وموضوع النظم الرابع هو النظرة العاجلة إلى المستقبل النهائي:

"إن الـذي هنالـك سـيقبض علـى المجـرم كأنـه إلـه ويوقـع عقـاب الإجـرام علـى مـن اقترفـه. إن الذي هنالـك سـيكون رجـلاً عاقـلاً غيـر منبـوذ مصليـاً لـرع حينما يتكلـم"[2]

"وليطمئن البؤساء أن توت سيحاكمني وخونصو سيدافع عني ورع سيسمع كلماتي"[3].

---

(1) حسن، سليم: المصدر السابق، ج1، ص 287.

(2) المصدر نفسه، ص 288.

(3) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

الفصل الرابع عشر

الفن في مصر القديمة

إن الصروح العملاقة التي لاتزال قائمة في مصر تتحدى عاديات الزمن، وكذا تحف الفنون الصغرى التي تزين متاحف العديد من بلدان العالم تشهد على الجهد العظيم الذي بذله الحرفيون النشطاء والفنانون اللامعون والمهندسون العظماء، وعلى المستوى الرفيع المتقدم الذي بلغه هؤلاء جميعاً من حذق وخبرة وذوق وأصالة. وإذا كان الفن المصري قد تأثر بالعوامل الدينية، ذلك لأن الكهنة كانوا في واقع الأمر يوحون بأفكارهم إلى الفنانين ليأتي الفن خادماً لمصالح طبقة ملاك العبيد.

نشأ الفن المصري في عهد ما قبل الأسر وتطور في عهد الأسر، وأصبحت له قواعده وأساليبه ومدارسه المتعددة: التقليدية والواقعية والمختلطة (التي تجمع بين قواعد المدرستين السابقتين) والهيللنستية.

واعتباراً من تأسيس المملكة العبودية في أواخر الألف الرابع ق.م، استخدم ملاك العبيد الفن لخدمة مصالحهم الأنانية. فقد شيدت الأهرام لتمجيد الفراعنة. وكان كل أثر فني في المعبد يوحي إلى الإنسان بعقيدة قوة الآلهة والفراعنة والخوف منهم. وحتى في الرسوم التي يظهر فيها الفرعون، تشاهده مميزاً بحجم كبير إلى جانب قزمية أتباعه أو أعدائه. أما مقابر النبلاء والأرستقراطيين الفخمة بالمقارنة بمدافن أفراد الشعب البسيطة فهي تعكس، بشكل جلي، عدم المساواة في الثروة والشروط الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء.

ويمكن تقسيم الفن المصري إلى عدة أنواع هي:

1 - فن البناء

كانت المباني في عصر ما قبل الأسر تستهدف بالدرجة الأولى الفائدة العملية للسكن واتقاء الحر والبرد. لذلك استخدمت المواد البسيطة السهلة المنال، كجذوع الأشجار وجريد النخل وسيقان البردي والطين واللبن في بناء مساكن بدائية بسيطة (نباتية طينية) بيضوية الشكل. وفي عهد الأسر، تقدم فن البناء تقدماً مدهشاً، وذلك لتطور صنع الأدوات المعدنية والفؤوس والمقصات والمناشير والمخارز النحاسية والبرونزية. وأصبح البناء بالحجر المنحوت مميزاً للمدينة المصرية. وأهم أنواع المباني هي: المقابر والمعابد والقصور.

المقابر: تطورت من الحفرة البسيطة إلى المصطبة فالهرم. وقد اعتنى الفراعنة والأثرياء المصريون عناية كبرى بمقابرهم، وصرفوا أموالاً طائلة نهبوها من شعبهم وشعوب البلدان المقهورة، لبناء مشاريع أنانية لا يرجى منها إلا أن تحفظ أجسادهم من الفناء اعتقاداً منهم بالبعث وبوجود حياة في الآخرة شبيهة بالحياة الدنيا.

وأول ما استعمل الحجر في بناء مقبرة الملك زوسر في سقارة دعيت بالهرم المدرج. وهو آبدة متوسطة بين المصطبة والهرم، تحوي سبع مصاطب مدرجة بعضها فوق بعض ذات عرض متناقص كأنها جبل مخروطي بارتفاع 61 متراً.

وكانت المصطبة تضم بئراً عمودية تقود إلى قبو يوضع فيه الميت وسرداب تحفظ فيه تماثيل الميت، وغرفة العبادة لوضع الهدايا. وقد عثر المنقبون عام 1936 بسقارة على مصطبة حماكي (أرستقراطي وموظف كبير في زمن الملك ديمو من الأسرة الأولى) وهي عبارة عن مجموعة بنائية تتألف من خمسين حجرة، اكتشف فيها حوالى 2000 حاجة من أثاث الميت ومتاعه (علماً بأن المقبرة المذكورة كانت قد تعرضت لأعمال النهب في العصور القديمة)[1].

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 141.

ويحدثنا مانيتون أن المهندس ايمحتب (Imhatep) هو الذي اخترع فن البناء بالحجر المنحوت بدل الآجر في زمن الفرعون زوسر[1]. ويوجد بين هرم سقارة المدرج والهرم الحقيقي مرحلة انتقالية تظهر لنا في هرم دهشور (المنسوب إلى الملك هوني) وذلك بملء فراغ الدرج[2]. أما الأهرام الحقيقية فهي التي بناها خوفو (حنوبس) وخفرع (خفرن) ومنقرع (مكرينوس) في الجيزة حيث تنتهي صخور الهضبة وتشرف على سهل الدلتا.

ويحوي داخل الهرم حجرة توضع فيها مومياء الفرعون، وغرف أخرى ذات أبواب ليحفظ فيها الأثاث والأدوات الجنائزية. وأعلى أهرام الجيزة هرم خيوبي الكبير "آخت" أي أفق خوفو المضيء الذي يبلغ طول ضلع قاعدته 233 متراً وارتفاعه اليوم 137 متراً (وكان ارتفاعه الأصلي 145 متراً). [3] وإن هذا التدرج في ضخامة بناء المقابر الملكية يعكس، إذا صح القول، القوة المتعاظمة لملوك مصر[4].

ويتكون هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية، متوسط وزن الواحدة طنان ونصف الطن، ويبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً وحجارته مندمج بعضها في بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبضع كتل ليكون طريقاً سرياً تنقل فيه جثة الملك. ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً في مكانه: ولكنه محطم وفارغ، لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنجّ الجثة من أيدي الثوار كما لم تنجها حماية الآلهة وجميع لعناتها.

يقول هيرودوت: إن فرعون كان عندما يهم ببناء له يأمر بإيقاف كل ما عدا ذلك من الأعمال، كي يتسنى له توجيه كل قوى الشعب نحو مشروعه العظيم[5]. وظل مائة ألف عامل

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) هامرتن: تاريخ العالم. أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة في وزارة التربية، مكتبة النهضة المصرية، لا ت. 531/1.

(3) برستد: انتصار الحضارة، ترجمة الدكتور أحمد فخري، ص 85.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 148.

(5) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

من الفلاحين والعبيد يعملون في بناء الأهرام عشرين عاماً[1]. وكانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر. وإن عمل المنحدر الذي مهد للبناء استغرق عشرة أعوام[2].

وبإمكاننا أن نتصور العمال وهم يقطعون الحجارة الضخمة في المقالع، والفعَلة وهم ينقلونها إلى ورشات النحت والتسوية، والفلاحين والعبيد وهم يجرون الكتل الحجرية المنحوتة بواسطة زحافات خشبية تحت أشعة الشمس المحرقة والعطش والجوع، وسياط الجلادين تنهال عليهم فتتساقط جثثهم وتسيل دماؤهم ليشاد عليها قبر الفرعون.

وكان الهرم يجعل أولاً على شكل درجات ترفع عليها الأحجار بواسطة آلات خشبية وحبال ثم يسوّى بين الدرجات وتغطى هذه بأحجار منحوتة من الأعلى إلى الأسفل فتأخذ وجوهه الجانبية مظهرها الأملس النهائي.

ولا ريب أن رجال الدين قد ساهموا في إنشاء مفهوم الهرم الفني وأعطوه معنى رمزياً. فالمثلثات الكبرى التي تؤلفها وجوهه تهبط إلى الأرض كأنها أشعة قرص الشمس التي تصل إليها. ووجود الفرعون المتوفى تحت الهرم يعني أنه في حماية الشمس، وأن هذا الهرم يرفعه إلى السماء، لأن طرفه المائل يمثل الدرج الذي ارتفع عليه آتون لما انبثق من العدم، وكما صعد الآلهة إلى السماء فسيصعد إليها فرعون الذي هو إله أيضاً[3].

استمر بناء الأهرام في عهد الإمبراطورية المتوسطة، وانتهى عهد بنائها في مطلع عهد الإمبراطورية الحديثة، حين قرر تحوتمس الأول ترك تقليد المقبرة الهرمية، وأمر أن يدفن في مكان مجهول عن الناس في باطن الأرض. فأصبح وادي الملوك، غربي طيبة، مدفناً لفراعنة الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين الذين نحتت مقابرهم في صخر الجبل، وهي عبارة عن ممرات وغرف ودهاليز.

هكذا بنيت الأهرامات. وهكذا أيضاً استخدم ملاك العبيد الفن لتقديس السلطة الملكية وتخويف الشعب.

---

(1) برستد: انتصار الحضارة، ص 85.

(2) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج1، ص 169.

(3) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

المعابد: المعابد بيوت الآلهة في مصر. كانت في بادئ الأمر أكواخاً بسيطة من الخشب، ثم ازداد الاعتناء في بنائها وتجميلها وتزيينها في عهد الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة.

يتألف المعبد المصري في الغالب من الأجزاء التالية: بوابة أو مدخل له على جانبيه برجان منحرفان لهما شكل كتلة حجرية كبيرة تقف في مقدمة المعبد، وتحجب ساحته تماماً عن الداخل، ثم تلي البوابة ساحة مكشوفة (أغلب ساحات المعابد المصرية مكشوفة بسبب ندرة الأمطار وخصوصاً في الصعيد) تحيط بها الأعمدة، يقع خلفها دهليز يؤدي إلى قاعة (بهو) الأعمدة، وتكون هذه القاعة مسقوفة في العادة، وأما قسمها الأوسط أو الرئيسي فيكون محاطاً بأعمدة لها في أعاليها فتحات لتسمح بمرور النور. وبعد القاعة المسقوفة تقوم مقاصير الآلهة (قدس الأقداس) التي تحوي تماثيلها، وبجوارها بيوت لسكن رجال الدين وغرف المخازن والمهمات الخاصة بالمعبد والعبادة[1].

وأعمدة المعابد المصرية على أنواع تختلف باختلاف أشكال تيجانها وقواعدها، منها ما هو من الغرانيت المدور وله شكل أشجار النخيل، وقواعده تشبه حزم أوراق النخيل. ومنها ما هو غرانيتي أيضاً ولكنها على شكل نبات البردي أو زهرة اللوتس (زهرة الزنبق) وقواعدها على شكل براعم.

ثم هناك العمود الحتحوري والأعمدة المضلعة التي تطورت فأصبحت مخططة. ولعل الأعمدة اليونانية الدورية قد تأثرت بهذا النوع من الأعمدة المصرية.

والمعابد المصرية على نوعين هما:

1 - المعابد الجنائزية: وفيها كانت تقام طقوس الجنازة والصلوات على الفرعون الراحل. ومن أشهر تلك المعابد: المعبد الذي بناه خفرع قرب هرمه الشهير "أور" أي المرتفع، ومعبد الوادي الذي يتصل بهرم منتوحب الثاني بطريق أقيمت على جانبيه جدران وتماثيل للملك، ومعبد الدير البحري، غربي طيبة، الذي أمرت حتشبسوت ببنائه والذي يشتهر بنقوشه التاريخية ومنها نقش يمثل القبة التجارية التي أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى

(1) المصدر نفسه، ج4، ص 406.

بلاد البونت (الصومال حالياً)، ومعبد سيتي الأول في أبيدوس، ومعبد الرمسيوم الذي بناه رمسيس الثاني قرب معبد الدير البحري والشهير بنقوشه التاريخية ومنها حروب رمسيس مع الحثيين وأخبار موقعة قادش فوقها صورة لمدينة قادش المسورة كما يحتوي أيضاً على نقوش فلكية بديعة.

2 - معابد الآلهة: وهي المعابد الكبرى وأشهرها: معبد الكرنك للإله آمون في طيبة، وهو أكبر دار للعبادة على وجه الأرض. وأعظم ما فيه بهو الأعمدة الذي يمجد "قوة الإله آمون". مساحته أكثر من خمسة آلاف متر مربع، وسقفه محمول على 134 عموداً، قطر كل منها 3.37 أمتار وارتفاعه 24 متراً، مرتبة في ستة عشر صفاً بحيث يخيل الى الناظر أنه أيكة من البردي. وكان السقف والأعمدة والجدران ملونة ومنقوشة بالرسوم والكتابات عن مناظر القرابين والاحتفالات الدينية. أما جدرانه الخارجية فعليها مناظر الوقائع الحربية التي خاضها سيتي الأول ورمسيس الثاني ضد الحثيين. ويقال إن فكرة هذا البهو بأعمدته التي صنعت على شكل نبات البردي واللوتس هي تمثيل مادة الخلق البدائية وهي الماء، تنبعث من لجة نباتات البردي واللوتس. ومعبد الأقصر في طيبة بني ليكون بمثابة استراحة إلهية لآمون. ويمتاز هذا المعبد بأعمدته المرتفعة الأربعة عشر وهي أطول أعمدة في معابد مصر، وتمثل تيجانها براعم البردي المتفتحة. وجدران الأقصر مغطاة بالنقوش التي تمثل مناظر الشعوب التي قهرها رمسيس الثاني، ومنها مناظر موقعة قادش. كما نقشت على الجدران قصيدة جعل ناظمها من هزيمة رمسيس في قادش نصراً مؤزراً.

وإذا تجاوزنا القيمة الفنية والتاريخية للمعابد، فقد كانت الوظيفة الأساسية لهذه المؤسسات الدينية تعزيز السلطة الملكية المقدسة، وترويع الشعب وإخضاعه لسيطرة ملاك العبيد.

لقد كان كل شيء في المعبد: مخططه وتقسيماته، والتماثيل الضخمة للآلهة والفراعنة ورسوم الملوك بأحجام كبيرة، وما كان يقوم به رجال الدين من صلوات وشعائر وتمثيل وأعمال سحرية وغيرها، تنصبّ حول هدف واحد هو الإيحاء بعقيدة قوة الآلهة والفراعنة والخوف منهم. وكان على الإنسان، أمام هذه التاثيل والرسوم الكثيرة للآلهة، ذات الرؤوس الحيوانية، وللفراعنة، أن يدرك صغاره وشقاءه.

المسكن: كانت معظم مساكن أفراد الشعب، في مصر القديمة، مبنية من الطين واللبن ومطلية بالكلس الأبيض، ولا تزيد في ارتفاعها على طبقة أو طبقتين. أما مساكن النبلاء والأرستقراطيين وغيرهم من أفراد الطبقة العليا، فكانت أشبه بالفيلات تحيط بها الحدائق المزروعة بالأشجار المثمرة، تزينها بحرات صناعية، وتبدو على مظهرها علامات الترف والرفاهية، ويقف على أبوابها الحراس والخدم.

وقد كشفت الحفريات التي أجراها "فلندرز بتري" قرب بحيرة موريس (منطقة الفيوم) عن أطلال مدينة أصبحت معروفة باسم "كاهون". وكان حي العمال في هذه المدينة حياً فقيراً، يتألف من مساكن صغيرة من اللبن، يتوضع الواحد منها إلى جانب الآخر في مساحة صغيرة. إذ بني على مسطح يقرب من 240 × 105 أمتار نحو 200 – 250 منزلاً صغيراً. في حين كانت "فيلات" النبلاء مساكن فخمة وواسعة، تتألف من قطع من الأرض تبلغ مساحتها نحو 45 × 65 متراً أي أكبر بنحو خمسين ضعفاً من بيوت العمال الصغيرة[1]. وتضم كل فيلا ما يقرب من سبعين غرفة ودهليزاً[2]. وكان حي الأغنياء ينفصل عن حي الحرفيين والشغيلة الفقراء بسور سميك تخفره فرقة عسكرية قوية[3].

وعلى الرغم مما أغدقه الأغنياء على مساكنهم من مظاهر الترف والرفاه فإنها لم تقاوم الزمن والحوادث، لأنها بنيت بالطوب النيء. أما قبورهم ومعابدهم فكانت في نظرهم منازل الخلود، ولذا بنوها من الحجر فبقيت عبر الأجيال تشهد للفنانين والحرفيين والمهندسين المصريين بالمهارة والذوق والأصالة، وتحظى بتقدير الناس وإعجابهم عبر الزمن.

القصور: أما القصور فكان أهمها القصور الملكية، بالإضافة إلى قصور حكام الأقاليم والأمراء.

وكان الملك يقيم في قصر أسلافه من الملوك أو يبني لنفسه قصراً جديداً في عاصمة ملكه. وكان القصر الملكي يقام عادة على رابية عالية ويبنى بالحجارة الكبيرة المنحوتة،

(1) انظر ص 131.

(2) انظر ص 131.

(3) انظر ص 132.

ويزين بالأعمدة الضخمة العديدة. ويحتوي القصر الملكي على قسمين: أحدهما للحياة العامة الرسمية ويضم رجال البلاط، والآخر لحياة الملك الخاصة ويضم زوجاته وأولاده. وكان كل قسم من القصر يحتوي على عدد من الأجنحة. وكان يطلق على القصر الملكي اسم "برعا" أي البيت الكبير[1].

بنيت قصور الإمبراطورية القديمة بالأخشاب واللبن المجفف في الشمس. لهذا السبب امحت آثارها ولم يبق منها إلا أسفل جدرها[2]. وفي عهد الإمبراطورية الوسطى، بنى أمنمحت الثالث بالقرب من "سد الفيوم" قصراً عظيماً جعله مسكناً له ومقراً لحكومته ومعبداً. وكان في هذا القصر اثنتا عشرة ردهة، وثلاثة آلاف وخمسمائة حجرة لاجتماع حكام البلاد. وظل هذا القصر قائماً زمناً طويلاً، ورآه هيرودوت وديودور الصقلي وسترابون وأعجبوا به أكثر من إعجابهم بالأهرام وسموه قصر "لابيرانت". وقد وصف سترابون متانة بنائه وطول بقائه فقال: "والغريب أن سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها، ولم يستعمل في بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العمارة[3]. وقد زال القصر ولم يبق من آثاره شيء.

أما قصور طيبة التي يرجع عهدها إلى الدولة الحديثة ففي معظم الحالات لا يوجد إلا ما يشير إلى المكان الذي كانت تقوم فيه. على أنه قد عثر على أطلال كثيرة من مقرّي أمنوفيس الثالث والرابع[4].

وبينما كان الأول منهما يجري الكشف عنه كان العقد الكبير في تل العمارنة الذي عثر في غرف سجلاته على رسائل تل العمارنة المشهورة، لا يزال ينتظر كشفاً واسع المدى. وقد أمدتنا هذه الحفائر بصورة جيدة عن قصر أمنوفيس الرابع - أخناتون. فقد بني باللبن المجفف في الهواء. ويتألف من بوابة وفناء أمامي وقاعات رئيسية للاستقبال والنوم والطعام

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 84 - 85.

(2) برستد: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال ص 56.

(3) المصدر نفسه، ص 125.

(4) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 61.

والحريم وغرف مخازن الطعام. ويظهر مما عثر عليه "بتري" في حفائره أن بعض أرض قاعات القصر كانت تغطى بالجص، ورسم عليها بالألوان صور تمثل مشاهد طبيعية[1].

2 - الفنون التشكيلية

النحت: منذ بداية العصر الحجري، نحت الفنان المصري من العاج والعظام والصلصال والخشب، تماثيل حيوانية (كالثيران والغنم والماعز والأسود والغزلان وأفراس النهر) أو بشرية (نساء ورجال) وأخرى تمثل (بعض الصناعات والأعمال). وفي عهد الأسر صنعت التماثيل من الحجارة المختلفة ومن العاج والخشب والطين الفخاري والنحاس والبرونز وغير ذلك.

وعلى الرغم من أن الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التي يلتزمها الفنان، وأن معظم التماثيل صنعت للهياكل أو المقابر، فإن فن النحت حقق تقدماً ملحوظاً في عهد الدولة القديمة. فقد بذل النحاتون جهوداً كبيرة في أعمالهم لإظهار الطبيعة والحياة، وسعوا بإخلاص وثقة بالنفس للسيطرة على المادة الصلبة وإن ظلت نسبها وأبعادها ثقيلة.

وتتصف تماثيل هذا العهد بكونها تمثل في أغلب الأحيان رجلاً جالساً على مقعد، على رأسه شعر مستعار ويداه منبسطتان على ركبتيه أو موضوعتان الواحدة فوق الأخرى كأنه في موقف خشوع في حضرة الإله أو الفرعون، وأنها صنعت وأجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام، على حين أن الأيدي والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين، وأن الجسم لم يلق من الفنان عنايته بالوجه. أما تماثيل الملوك والوزراء فقد جاءت متناسبة جداً، لكل وجهه الحقيقي الذي يشبه تماماً النموذج، لكن أجسامها اتصفت بالجمود والتكلف. فتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء، ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فن النحت وما فرضه عليه الكهنة من قيود، فإن هذا النقص قد عوضه عمق في التفكير وقوة ودقة في التنفيذ وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل. إن تمثال شيخ البلد "كعبيرو"

(1) المصدر نفسه، ص 61 – 65.

ليخرج على كل سلطان، وإن المرأة التي تطحن الحب لتقبل عليه بكل ما في نفسها من أحاسيس وما في جسمها من عضلات، وإن الكاتب المقرفص ليهم بالكتابة[1].

ومن أحسن تماثيل هذا العهد: تمثال الفرعون خفرع المصنوع من حجر الديوريت في متحف القاهرة، يمثل صاحبه جالساً على عرش يحيط به من الجانبين أسدان. وقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة ولكنه ينقل إلينا قوة الملك البدنية وسلطانه وعناده وصلابة رأيه. ولكن أشهرها تمثال الكاتب المصري المتربع المحفوظ في متحف اللوفر بباريس.

وفي عهد الإمبراطورية المتوسطة، تابع فن النحت تطوره مكتسياً بمسحة واقعية. فلم نعد نشاهد التماثيل ذات التعبير الإلهي القوي، وإنما انتشرت التماثيل التي تظهر العواطف النفسية على ملامحها والتي يسعى نحاتوها أن يقدموا صورة طبيعية عن أصحابها وأن يمثلوا بإخلاص الرجال الذين كانوا في ثياب الفراعنة لا أن يمثلوا كسابقيهم رجالاً دون أن يكون لهم نموذج طبيعي حقيقي[2].

وقد أظهر النحاتون ما يعانيه فراعنة هذا العهد من قلق ومشاكل وهموم على شكل غضون أو تجاعيد قاسية حول الفم. وخير مثال على ذلك رأس سنوسرت الثالث الموجود في متحف القاهرة، وتمثال أمنمحت الثالث الذي يمثله النحات بجسم أسد رابض ووجه إنسان عليه تعبير حزين وقاس.

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، واصل فن النحت تطوره وحافظ على الصفات الواقعية من أزمنة الإمبراطورية المتوسطة، التي كانت تدفع النحاتين لأن يجعلوا من تماثيل الفراعنة صورة حقيقية ونسخة كالأصل عن هيئاتهم. بيد أنه يلاحظ فيها الآن شيء من العذوبة والرقة يخالف ما عهد في زمن الإمبراطورية القديمة من كبرياء وهدوء، وما عرف من رصانة حزينة في الإمبراطورية المتوسطة[3].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، أصبح النحاتون يهتمون بتغيير نسب التماثيل. فبعد أن

---

(1) ديورانت، ول: قصة الحضارة، 133/2.

(2) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(3) المصدر نفسه.

كانت التماثيل القديمة قصيرة، صارت تماثيل الإمبراطورية الحديثة طويلة، وصار الفنان ينحت الأيدي والأرجل، ويمثل وجنات الوجه ممتلئة ومدورة[1].

وأجمل تماثيل هذه الحقبة تمثال تحوتمس الثالث المحفوظ في متحف القاهرة.

وفي عصر تل العمارنة، اتجه الفن نحو الواقعية، وخلق لنا مجموعة من التماثيل، فكاها ناتئان وجمجمتها على شكل بيضوي. وقد انتشرت هذه الصفات خصوصاً في فن النحت. ومن أهم الآثار التي وصلتنا تمثال نصفي لأخناتون محفوظ في متحف اللوفر، وتمثال نصفي لنفرتيتي (الحسناء آتية) زوجة أخناتون موجود في متحف برلين. وتأثير مدرسة تل العمارنة ظاهر. فعنقه طويل ونحيف وبارز إلى الأمام، وذقنه ناتئ، وعلى رأسه قبعة مصنوعة برشاقة بحيث تمنح نفرتيتي شخصية قوية لا تتجاوز حد النزعة الطبيعية التي يقصدها المثالون. والتمثال ملون فيه حياة وروعة.

وعندما عاد توت عنخ آمون إلى طيبة وأرجع عبادة آمون صار النحاتون يستمدون من المفاهيم الفنية القديمة.

وكما نحت الفنانون تماثيل بشرية، نحتوا أيضاً تماثيل حيوانية من أحسنها تمثال كلب محفوظ في متحف اللوفر، ويعود إلى عهد الإمبراطورية الحديثة. وهو يمثل كلباً يتهيأ للوثوب، وباسطاً قائمتيه الأماميتين، ومائلاً بجسمه قليلاً إلى اليمين مما يدل على مهارة كبيرة وواقعية. وكان مدهوناً لكن زالت الآن ألوانه[2].

وقد وجدت في مقابر الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة تماثيل صغيرة من الخشب والحجارة تمثل عبيداً، وزراعاً، ورعاة، وحرفيين ومحاربين. كما عثر أيضاً على تماثيل أخرى وضعت مع الميت في القبر، حسب تصورات المصريين الدينية، لتقوم بخدمته والعمل من أجله في الحياة الأخرى مثلما كانت تخدمه وتعمل من أجله في الحياة الدنيا.

انهار فن النحت في أعقاب الإمبراطورية الحديثة. وعندما احتل الفرس مصر عام 525 ق.م، أجهزوا على حياتها الفنية.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

الخلاصة: نحت الفنانون تماثيلهم من مواد متنوعة وبأحجام وأوضاع مختلفة. وفشل الكهنة في إخضاع فن النحت لسلطانهم الكامل. وكانت التماثيل منها البشرية (مذكرة أو مؤنثة) ومنها البشرية والحيوانية معاً كتمثال أبي الهول، حامي المعابد والإله المحلي لمنطقة الأهرام والصحارى، ومنها الحيوانية.

الرسم والتصوير: نشأ فن الرسم والتصوير في عهد ما قبل الأسر وتطور في عهدها الأسر. وانتشر انتشاراً كبيراً خصوصاً في المقابر. وتشمل الصور التي رسمت على جدران القبور مناظر عن حياة الميت والأعمال التي أنجزها في أملاكه. وقد نسب إلى هذه الصور قوة سحرية تضمن للمتوفى أن يعيش في الحياة الآخرة كما كان يعيش في الحياة الدنيا.

وفي عهد الإمبراطورية القديمة كان فن التصوير مكملاً للنحت والعمارة وغير مستقل عنهما. وكانت الألوان (تخلط الألوان بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض لرسم الصور) تضاف إلى التماثيل واللوحات لتزيد في جمالها وتأثيرها. والمشاهد المصورة التي يرجع تاريخها إلى هذا العهد قليلة ولم تستخدم إلا لزخرفة الجدران المصنوعة من الطوب كجدران بعض القصور والمدافن. وأجمل النماذج التي تناهت إلينا صورة لست إوزات أخرجت من قبر في ميدوم وهي محفوظة في متحف القاهرة[1]، وتعطي من يتأملها لمحة صادقة عن دقة الملاحظة لدى مصوري ذلك العهد وعن وجدانهم الفني التأملي. فقد أتقن الرسام انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جداً من الطبيعة. ولا شك في أن مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل[2].

وفي عهد الإمبراطورية الوسطى، تطور فن التصوير وأصبح فناً قائماً بذاته. وصار الرسام حراً في أن يستوحي، وأن يفصل الأشخاص بعضهم عن بعض جاعلاً لكل منهم شخصية تخالف شخصية الآخرين، وأن ينظم أشكالهم في مشاهده ويجمعها وينوعها دون أن يمثلهم

(1) ديورانت، ول: قصة الحضارة 142/2.

(2) برستد: تاريخ مصر، ص 69.

بعضهم وراء بعض على شكل رتيب مملّ واعتباطي[1]. ففي مدافن بني حسن والبرشة صور تمثل أفراد الشعب المصري وهم يقومون بالأعمال اليومية الزراعية والصناعية، يرى من يتأملها مشاغل الناس وهم في الحقول والورشات والحوانيت والمكاتب، أو يقومون بتمارينهم الرياضية وألعابهم وأعيادهم. وقد نشأ عن ذلك أن صارت تمثل وتتقن التفاصيل الفنية والمضحكة وتنوع المواضيع. فتصور كل الأوضاع ويرسم الفرح والمرح والخبث على الوجه[2]. وفي صورة "الظباء والزراع" وصورة "القطة ترقب فريستها" تنبه الفنان فيهما أيضاً إلى العنصر الرئيس في الرسم، وهو أن يجعل من رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش[3].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، ازدهر فن الرسم، وفيه توصل الرسام إلى صنع كل لون من ألوان الطيف، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه في استخدامها، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة في الحقول المشمسة على جدران المنازل والمعابد والقصور والمقابر وعلى سقوفها كلها. صور عليها طيوراً تطير في الهواء، وسمكاً يسبح في الماء، وحيواناً يعيش في الآجام، ورسمها كلها في بيئاتها التي تعيش فيها، وحاول أن يجعل السقوف تضارع في بهائها ورونقها كواكب السماء. ومن أجمل الرسوم التي وصلت إلينا عن هذه الحقبة إضافة إلى ما ذكر: صورة "الفتاة الراقصة" المحفوظة في متحف تورينو في إيطاليا، وفيها أكبر قسط من قوة الابتداع وروح الفن[4]. وتتميز بحرية أكثر في الحركات، وتظهر في ملابس شفافة شبه عارية[5]. والصورة المرسومة بالمغرة التي تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين في قبر نخت بطيبة[6].

والملاحظ في هذه الرسوم أن الخطوط جميلة، ولكن التركيب ضعيف، وأن المشتركين

---

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 142/2.

(4) المصدر السابق، ص 143 - 144.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 80.

(6) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 144.

في عمل واحد يمثلون متفرقين، ووضع أجزاء الصورة بعضها فوق بعض بدل مراعاة قواعد المنظور، وجدّة في التفكير، ويسر في رسم الخطوط وفي التنفيذ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها، وغزارة في اللون والزينة تبعث في النفوس البهجة، وتجعل الصور متعة للعين والروح[1].

النقش: نشأ فن النقش منذ عهد ما قبل الأسر، تؤكد ذلك آبدة "مدية جبل الأرك" ولوحة "الملك العقرب". ثم تطور وانتشر انتشاراً واسعاً في عهد الأسر وخصوصاً في عهد الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة.

نقش الفنانون على الخشب والعاج، وعلى الحجارة بوجه خاص. والنقش نوعان بارز وغائر. فالأول يكون بتفريغ ما حول الصورة وإبراز بعض تفصيلاتها. والثاني هو حفر الصورة في الأرضية.

وفي عهد الإمبراطورية القديمة الأول، توسع النقش على جدران المقابر فشاعت وتعددت مظاهر الحياة اليومية بمشاهدها المختلفة وتفصيلاتها الكثيرة، وظهرت المآدب التي تحفل بالشراب والطعام والغناء والموسيقى. ومن أجمل النقوش التي تعود إلى هذه الحقبة التاريخية، المناظر المحفورة على جدران مقصورة الأمير رع حوتيه التي تمثل مشاهد الحياة اليومية من صيد الطيور والسمك، والحيوانات وحرث الأرض وصناعة السفن. وكذلك المناظر المحفورة على جدران مقابر منكارا وتي وبتا حوتب في سقارة. والمتأمل في نقش هذه المشاهد يمكنه أن يستخلص جملة من العادات الابتدائية الفنية كفقدان المنظور (Perspective)وثبات قانون الجبهة (Ladelix frontalitè)وتمثيل بعض أعضاء الجسم من وجهها الجانبي وبعضها الآخر من وجهها الأمامي في صورة واحدة[2].

وفي أخريات عهد الإمبراطورية القديمة، أخذت النقوش الخطية تروي مغامرات أصحاب المقابر وتعدد ألقابهم والمهام التي أوفدوا فيها وما نالوه من رعاية الملك والحاشية.

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

وفي عهد الإمبراطورية الوسطى، انتشر فن النقش الغائر، تمثل ذلك المشاهد المحفورة في جدران مقابر بني حسن التي كانت من عمل فناني الأقاليم وتظهر فيها الدقة في التعبير، والتزام التقاليد الفنية الموروثة. وتعرض الرسوم الجدارية المنقوشة بمهارة فائقة في قبر من قبور الأسرة الحادية عشرة في بني حسن شتى نواحي الحياة المصرية في إحدى المزارع عرضاً شاملاً؛ فالغسالون يضربون ملابس التيل ويعصرونها ويجففونها، والفتيات يغزلن وينسجن، والرعاة يسوقون ماشيتهم إلى حظائرها، واللاعبون على الحبال يتدربون على تمارينهم، وكاتب جالس يتلقى الضرائب ويساق إليه اثنان قصّرا في الدفع، ومشاهد الصيد والمرح، وفتيات يرقصن ويلعبن بالأكر ويقمن بألعاب بهلوانية وألعاب خفة، ويدل منظرهن على السرور والمرح[1].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، توسعت الفتوحات والتجارة الخارجية وتدفقت الثروة والعبيد، فتلونت الحياة العامة، واستعاد فن النقش مجده وانتشر، وتميز، كغيره من بقية الفنون، بطابع الأسلوب الواقعي، وجاء مرآة عصره، يعكس التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في مصر آنذاك فالنقوش الطويلة على جدران الكرنك والرمسيوم تقص علينا أخبار الحملات العسكرية والمعارك الحربية والغنائم في زمن تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني. والنقوش المحفورة في جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، تروي أخبار البعثة التي أرسلتها هذه الملكة إلى بلاد البونت. وفي هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى الجنوب مجاذيفها المصفوفة وتمخر مياه البحر الأحمر المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها. ونرى الأسطول التجاري يصل إلى شواطئ بونت ويرحب به أهل البلاد ومليكها، ثم تصحب السفن الموقرة بأحمالها وهي عائدة نحو الشمال، ملقية مراسيها في أحواض طيبة، وتفرغ عند قدمي الملكة ما تحمل من حاصلات بونت ومنتجاتها: صمغ المر وأشجار المر الخضراء، وخشب الأبنوس والعاج النقي، والذهب والفضة، والطيوب وأنواع البخور، ومواد تكحيل العيون، وقردة، وكلاب

(1) هامرتن، تاريخ العالم، المجلد الأول، ص 583.

صيد، وعبيد[1]. إن هذا بلا ريب لمن أعظم النقوش في تاريخ الفن[2]. وفي عصر العمارنة، بلغت واقعية فن النقش درجة دخل فيها الفنانون إلى قصر الملك وصوروه في مجالسه العائلية مع زوجه وأولاده. فظهرت الأميرات والملكة بل الملك في أوضاع تتفق والواقع، حتى لنشاهد ثوب الملك يتطاير مع الهواء، وحتى لنرى الملكة تلاعب أطفالها، والبنات يمثلن في أوضاع طبيعية، وبعبارة أخرى نقش الفنان لوحات واقعية تظهر فيها الحركة والبساطة والمرونة والحرية من قيود القواعد الفنية التقليدية.

ومما تجدر ملاحظته أن النقوش كانت في الغالب مصورة. فقد عرف الحرفيون صناعة ألوان ثابتة جداً حافظت على لمعانها حتى أيامنا هذه.

وبعد حقبة العمارنة، اختلطت الأساليب التقليدية بالواقعية كما يظهر ذلك في نقوش معبد الرمسيوم، ثم تدهور فن النقش كغيره من بقية الفنون. وعندما احتل الفرس البلاد قضوا على حياتها الفنية.

3 - الفنون الصغرى

كالصياغة وصناعة الحلي والمجوهرات والميناء والأثاث المنزلي وغير ذلك. فلم تزدهر إلا في فترة متأخرة نسبياً وذلك في زمن الأسرة الثانية عشرة. أما في الفترة السابقة فقد كان هناك صناعة فخارية متميزة[3].

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة، توسعت الفتوحات والتجارة الخارجية فتدفقت الثروات في خزائن الفرعون والنبلاء والأرستقراطيين وكبار الموظفين وقادة الجيش. فاندفعوا لاقتناء الحلي والمجوهرات، وتأثيث قصورهم ومنازلهم بأجمل الأثاث، مما ساعد بدوره على تطور الفنون الصغرى.

---

(1) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 588. ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 139 – 142. د. نعيم فرح: المصدر السابق ص 72. جماعة من المؤرخين السوفيات. المصدر السابق: ص 163.

(2) ديورانت، ول: المصدر نفسه، ج2، ص 142.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ج1، ص 136.

فقد صنع الصاغة الحلى والمجوهرات وطعموها بالأحجار الكريمة. وتزين متحف القاهرة تحف من مصوغات الألف الثاني ق.م، كالأساور، والخواتم، والقلائد، والتيجان، وحُلى الصدر، والسلاسل والرصائع، والمرايا. وصنع النساجون الطنافس والقماش المزركش الذي يزين الجدران، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة في نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل.

وقد كشفت مخلفات توت عنخ آمون عما كان عليه أثاث الملوك والأثرياء من ترف عجيب، وعما بلغته صناعة الفنون الصغرى من تقدم وازدهار منذ الألف الثاني قبل الميلاد. من الأثاث الجنائزي المكتشف في مقبرة توت عنخ آمون: كراسٍ مكسوة بالذهب والفضة، وسرر ذات رسوم فخمة وصناعة دقيقة، وصناديق الجواهر، وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش والمزهريات، لكنها جميعاً لا تذكر إلى جانب العرش الضخم الذي يمثل ظهره المكسو بصفائح الذهب والمصنوع من العقيق والزجاج الأحمر والقيشاني، توت عنخ آمون ومعه زوجه وهي تمسح جسمه بالدهان. ومن أفخر ما كشف من جهاز توت عنخ آمون الجنائزي، صندوق خشبي ذو غطاء مقبّب رسمت عليه فوق سطح مطلي رسوم دقيقة متشابكة تمثل مناظر صيد وحروب الملك مع الآسيويين. وقد بدا على نصف الغطاء هذا، فرعون راكباً مركبته وهو يصيد الأسود في الصحراء[1].

وكانت موائد الأثرياء تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرونز، وكؤوساً من البلور. وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون الجنائزية من أوان رائعة من المرمر الأبيض، وما عثر عليه المنقبون في خرائب بيت أمنحوتب الثالث في طيبة من أقداح على هيئة اللوتس ومن طاسات الشراب، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى رفيع.

وكان لعهدي الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة من الحلي الثمينة الكثيرة ما لا يكاد يفوقه شيء في جمال الشكل ودقة الصنع. وتشمل المجاميع الباقية من تلك الأيام: قلائد،

(1) هامرتن، ج. أ: المصدر السابق، المجلد الأول، ص 732 – 733.

وتيجاناً، وخواتم، وأساور، ومرايا، وحلي الصدر، وسلاسل، ورصائع، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسبار واللازورد، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة[1].

وكان سراة المصريين يسرهم جمال ما يحيط بهم من التحف الصغيرة، فكان كل مربع صغير من العاج في علب حليهم ينقش ويزين أجمل زينة وأدقها[2]. وقد تدهورت الفنون الصغرى مع انحطاط الإمبراطورية الحديثة والاحتلال الفارسي لمصر.

4 - الموسيقى والغناء والرقص

استخدم المصريون آلات موسيقية متنوعة منها:

أ- آلات وترية: أهمها: الجنك، والقيثارة، والكنارة، والطنبور، والمزهر (العود).

ب- آلات النفخ وأهمها: المزمار بشكليه المنفرد والمزدوج والأبواق.

ج- آلات الإيقاع وأهمها: الصناجات، والصلاصل، والمصفقات المعدنية والخشبية، والدفوف والطبول وغيرها.

وكانت مواد الأدوات الموسيقية تؤخذ من البيئة المصرية، من الخشب والغاب والجلود والطمي. وكان الجنك في جميع العصور أحب آلات الموسيقى، يستخدمونه بمختلف الأحجام[3]. وكان المزمار أكثر الآلات انتشاراً إلى جانب الجنك منذ أقدم العصور[4]. وفي الدولة الحديثة، غلب استعمال المزمار المزدوج[5]. وقد بقي الجنك والمزمار في الدولة الوسطى أداتي الموسيقى الوحيدتين عند المصريين. ومنذ عهد الدولة الحديثة، نجد عدداً من الآلات الجديدة أدخل معظمه إلى مصر من البلاد الآسيوية مثل: الطنبور والجنك الصغير

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 146.

(2) المصدر نفسه، ص 146.

(3) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 267.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه.

والكنارة[1]. وكانت الفرقة الموسيقية تتكون عادة من عازفين على الجنك ونافخ مزمار طويل ونافخ مزمار قصير ومجموعة من المغنين والمصفقين[2]. وكان للهياكل والقصور الملكية فرق من العازفين والمغنين[3]. واستخدمت الموسيقى أثناء إقامة الطقوس والشعائر الدينية، وفي الجنازات والأعياد والحفلات العامة والحروب[4].

وليس لدينا ما يدل على وجود علامات موسيقية أو معلومات عن طريقة العزف[5]، بينما ترك لنا المصريون كثيراً من الأغاني المدونة، منها الشعبية وتتعلق بعمل العامل والفلاح، ومنها العاطفية وتتعلق بالحب والغزل، ومنها الدينية أو الجنائزية، ومنها الحماسية كالأناشيد الوطنية والحربية[6].

وكان الغناء والموسيقى لازمين في كل حفلة[7]. ونجد في الدولة القديمة رئيسة الغناء "حم رع" ورؤساء الأغاني الملكية منهم سنغرو ومري نباح ري نابغتا الغناء في أيامهما[8]. كما نجد في الإمبراطورية الحديثة مديراً لكل جماعات منشدي المعابد في مصر. وكان غناء النساء محبوباً عند المصريين حيث امتزجت أصواتهن بأصوات الرجال في مصاحبة جميع الآلات. وكانت أكثر الآلات شيوعاً في مصاحبة الغناء هي الجنك الكبير وطنبوران أو (طنبور وكناره) ومزمار مزدوج[9].

أما الرقص فكان تعبيراً طبيعياً عن الفرح، كما كان أيضاً تعبيراً عن العبادة والشكر للإله. فعندما كان يتم جمع المحصول ويقدم الفلاح بواكيره إلى "مين" إله كبتوس فإنه كان

---

(1) المصدر نفسه، ص 267 – 268.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 75.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 146/2.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 85.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 266.

(8) ديورانت، ول: المصدر السابق، 146/2.

(9) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 269.

يرقص اعترافاً بشكره المنطوي على البهجة والسرور للإله[1]. وعندما كان يحتفل بأعياد إلهتي السرور "حتحور" و"باستت" فإن الرقص كان يعادل في أهميته التهليل وحمل أكاليل الزهور[2].

وعلى العموم كان الرقص لوناً من ألوان الرياضة. وترينا إحدى مقابر بني حسن مناظر راقصة تمثل ما يشبه اللوحات الفنية[3].

وقد تنوع الرقص حسب المناسبات، فمنه الرقص الايقاعي مع التصفيق أو الصنوج، ومنه الرقص الرياضي وحركاته صعبة ومعقدة، وهناك رقص فيه محاكاة مظاهر الحياة العملية، والرقص الديني، والرقص الحربي[4].

وكانت الراقصات في الدولتين القديمة والوسطى يضفرن شعرهن، ويرتدين السراويل الرجالية القصيرة ويتزين بشكل مستطرف وجميل عندما يقمن بالرقص. أما في عهد الإمبراطورية الحديثة فقد انصرفن عن تصفيف الشعر واستعضن عن السراويل بأردية كتانية شفافة طويلة[5].

وتبعاً لما أصاب طريقة الحياة من تطور، أصبحت الرقصات في هذا العهد أكثر رقياً ورشاقة[6]. وبينما كان موسيقيون خاصون في الدولة القديمة والوسطى يرافقون دائماً الراقصات، أصبحت الفتيات في عهد الإمبراطورية الحديثة يقرعن الدفوف والصنوج أو يصفقن باليدين لضبط الإيقاع[7].

ولم يعرف المصريون التمثيل إلا كطقس ديني، كتمثيلية حورس وست، وتمثيلية أوزيريس[8].

---

(1) المصدر نفسه، ص 263.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 85.

(5) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 265.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه، ص 266.

(8) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 85.

الفصل الخامس عشر

المعارف العلمية

التكنيك وأجنة العلم: نشأت المعارف العلمية لدى قدماء المصريين في سياق النشاط العملي وتكديس الخبرات ونقلها من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة. فالأهرامات والمعابد كانت قد بنيت بمساعدة تكنيك بدائي. وإن جميع الأعمال التي قام بها الفلاحون والعبيد كانت يدوية، ولكنها نفذت دوماً حسب مخططات وحساب المهندسين ورؤساء الورشات الآخرين. هؤلاء أسسوا معارفهم، بطبيعة الحال، بالاعتماد على الخبرة المتوارثة من جيل إلى آخر. لا على المبادئ النظرية للميكانيك[1]. وتكونت معارف الفلك العلمية من ملاحظة الفلاحين فيضانات النيل ومراقبتهم حركات الكواكب والنجوم. من أهم المعارف العلمية لدى قدماء المصريين:

الرياضيات: ساعد تطور الزراعة والبناء على تراكم المعارف العملية ونشوء الرياضيات التي كانت من أهم العلوم التطبيقية. فقد تطلب علو البناء حسابات مسبقة بأرقام مدورة، كما استدعى مسح الأراضي لتقرير مقدار الضريبة معرفة حساب المساحات أيضاً. والحساب كان ضرورياً في تقسيم المأكولات التي تعطى كمرتبات وأجور وفي أبسط العمليات التجارية.

لقد كانت جميع الأعمال الحسابية ترتكز على قاعدة العدد الذي توصل المصريون منذ

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 178.

أقدم العصور إلى علامات كتابية له تقابل أرقامنا الحالية. وانطلاقاً من نظام العد الطبيعي باليدين (الأصابع الخمس أو العشر) أنشأ المصريون النظام العشري واستخدموه في الحساب. وكانت الأرقام سمجة متعبة[1]. فالأرقام من واحد إلى تسعة كان يعبر عنها بشرط عمودية 1، وعشرة بصورة الأداة التي تربط بها الماشية التي ترعى ، والمائة بشريط القياس الذي يبلغ طوله مائة ذراع والألف بورقة اللوتس والعشرة آلاف بصورة الإصبع والمائة ألف بصورة ضفدع صغير. وحتى رقم المليون عملوا له علامة كانت ترسم على شكل هيئة إنسان يرفع ذراعيه إلى السماء لدهشته من وجود مثل هذا العدد الكبير[2]. ويجري ترتيب الأرقام منذ العصور الأولى من الأصغر إلى الأكبر. فقد ذكر في إحدى اللوحات الأثرية 123440 رأساً من الماشية و223400 حمار و232413 رأساً من الماعز و243688 رأساً من الأغنام[3].

عرف المصريون العمليات الحسابية الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة)، إلا أنهم استعملوها حسب طرائق تختلف بعض الاختلاف عن أساليبنا الحالية[4]. فالضرب عبارة عن جمع المضاريب المؤدية إلى النتيجة. والقسمة عبارة عن مضاعفة المقسوم عليه ثم جمع الأرقام التي تعطى رقم المقسوم، ويكون حاصل القسمة نتيجة جمع الأرقام المقابلة للأرقام التي أعطى جمعها رقم المقسوم. وإليك مثلاً لحل مسألتين في الضرب والقسمة على الطريقة المصرية القديمة:

1 - حل عملية حسابية في الضرب:

16	×	12
16		1
32		2
64		+4

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 119.

(2) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 403.

(3) المصدر السابق، ص 403، 600.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 90.

128		+8
192		12

حاصل الضرب وهو المطلوب

2 - حل عملية حسابية في القسمة:

7	÷	77
7		1 +
14		2 +
28		4
56		+8

ففي هذه الحالة 7، 14، 56 هي الأرقام التي إذا جمعت أنتجت الرقم 77، ومعنى هذا أن الإنسان يجب أن يضرب 7 في 1 + 2 + 8 أي في 11 لكي يجد 77 أي أن 7 تدخل إحدى عشرة مرة في 77 [1].

وفي مسألة أخرى يتساءلون كم ثمانية تحوي 19؟ أو بعبارة أخرى ما هو الذي إذا ضرب في 8 أنتج 19؟ والمسألة تحل هكذا:

8		1
16		+2
4		2/1
2		+4/1
1		+8/1

فيكون إذن 2، 1/4، 1/8 هي الأرقام المطلوبة لأنها تساوي 16، 2، 1 وهي الأرقام التي إذا جمعت أنتجت 19. ولذا فإننا نقول:

19 على 8 = 2 3/8 [2] وهو المطلوب

(1) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 404.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعرف المصريون أيضاً جداول الضرب والقسمة[1]. كما عرفوا الكسور البسيطة، ولكن صورة هذه الكسور كان رقم 1 على الدوام مثل: 1/2، 1/3، 1/4، 1/5، 1/6 وكانوا إذا أرادوا كتابة 3/4 كتبوها 1/2 + 1/4.[2]

بحث المصريون في الجبر وعرفوا مبادئه. فقد ورد في بردية أحمس (التي يرجع تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد) حسابات سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى[3].

أما الهندسة (وتعني قياس الأرض) فكانت هي الأخرى متقدمة. وكانت فيضانات النيل وما تسببه من تغيير حدود كثير من الأراضي الزراعية تجبرهم سنوياً على مجابهة هذا العمل. ولم تقتصر الهندسة على قياس مساحة المثلثات والمربعات والدوائر والمكعبات، بل تجاوزتها إلى قياس أحجام الأسطوانات والكرات. وقد توصل علماء الرياضيات المصريون إلى تقدير النسبة التقريبية لـ Л بـ 3.16، بينما هي اليوم وبعد مرور أربعة آلاف سنة 3.14.

واستخدم المصريون في قياس الأطوال الإصبع والشبر والقدم والخطوة والذراع التي أخذوها من الجسم البشري[4]. وكانت وحدة قياس الأطوال هي الذراع الملكية وطولها سبع قبضات، كل قبضة أربع أصابع أو 52.3 سنتمتراً[5]. أما المقاييس الطويلة فكان لها وحدة خاصة وهي مئة ذراع[6].

الفلك: كان من الضروري للزراع المصريين أن يعرفوا في وقت مبكر موعد فيضان النيل كي يتهيأوا له في حينه. وتبين لهم من ملاحظتهم الفيضانات خلال سنين عديدة، أن

---

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 120.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 400.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 90.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

النجوم كانت تحتل على الدوام مكاناً معيناً قبل الطوفان. فشرعوا في دراسة حركة الكواكب والنجوم باهتمام بالغ. وقد مهدت مراقبة الفلاحين نجوم السماء لنشوء علم الفلك.

وقد ساعد تطور المعارف الفلكية المصريين على وضع تقويم شمسي خاص منذ عهد الإمبراطورية القديمة. واختاروا لبدء السنة الزراعية اليوم الذي تصل فيه مياه النيل الحمراء إلى خط عرض مدينة منف، وهو اليوم الموافق لظهور نجم الشعرى اليمانية (سيريوس - سوتيس) في أفق منف قبل الفجر[1]، أي يشرق مع الشمس في وقت واحد تقريباً. وتبين لهم، بعد سنوات عديدة من المراقبة، أن الأمر يتكرر كل 365 يوماً، فأعطوا هذه المدة السنة وقسموها إلى ثلاثة فصول (الفيضان، والبذر، والحصاد)، وكل فصل إلى أربعة أشهر، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً. ثم أضافوا خمسة أيام عطلة أعياد إلى نهاية السنة لتصبح 365 يوماً. ولما كان التقويم المصري يجعل السنة 365 يوماً بدل 365 1/4 يوماً، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس، وهو الذي كان في أول الأمر صغيراً لا يكاد يدرك، قد ازداد حتى بلغ يوماً كاملاً في كل أربع سنين. وبذلك كان التقويم المصري يختلف عن التقويم الشمسي بست ساعات في كل عام. ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ، حتى جاء فلكيو الاسكندرية اليونانيون فأصلحوه بأمر من يوليوس قيصر عام 46 قبل الميلاد، وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين. وهذا هو ما يسمونه "التقويم اليوليوسي"[2]. ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق في عهد البابا غريغوري الثالث عشر عام 1582 للميلاد، وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من شباط) من السنين المتممة للمئات التي لا تقبل القسمة على 400، وهذا هو التقويم الغريغوري، الذي يستخدم اليوم[3]. ولما كان شروق الشعرى منسوباً إلى الشمس يتأخر يوماً كاملًا في كل أربع سنوات عما يتطلبه التقويم المصري ليكون الشروقان متفقين على الدوام، فإن هذا الخطأ يبلغ 365 يوماً كل 1460 عاماً. وحين تكمل هذه الدورة السيريوسية (كما كان قدماء المصريين يسمونها) يعود التقويم

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 455.

(2) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 122.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المصري والتقويم الشمسي إلى الاتفاق[1]. وقد ورد ذكر التقويم المصري لأول مرة في النصوص الدينية المنقوشة في أهرام الأسرة الرابعة[2].

تتبع المصريون الكواكب وحركاتها، وميزوا الكواكب السيارة من النجوم الثوابت، ورسموا خرائط فلكية (خرائط الأبراج وجداول مواقع بعض النجوم)، كان الغرض العملي منها هو تحديد الوقت أو بعبارة أدق، قياس الزمن[3]. فقد وجد في قبر الأمير سخوت (من زمن الأسرة الثامنة عشرة) مصور فلكي تظهر في وسطه مجموعة الدب الأكبر والدب الأصغر ونجم البليار، وفي القسم الجنوبي من السماء يظهر نجم الأوريون ونجم الشعرى المسمى سيريوس[4]. واستطاعوا معرفة كسوف الشمس وخسوف القمر. وقسموا كلاً من الليل والنهار اثنتي عشرة ساعة. واخترعوا آلات مختلفة (ساعات) لمعرفة الزمن ليلاً ونهاراً. فلتحديد ساعات النهار كانت تستخدم ساعات شمسية يقاس بها امتداد الظل سواء أكان على سطوح استقبال أفقية أم مائلة أم عمودية أم مدرجة بالاستعانة بمقياس مقسم إلى درجات[5].

أما لتحديد ساعات الليل فكانت تستخدم في بعض الأحيان ساعات مائية وفي أحيان أخرى ساعات النجوم (آلة فلكية خاصة). وساعات الماء هي أحواض حجرية كان ينقش على جدرانها الداخلية مقياس مدرج للساعات ويزدان خارجها بكتابات ورسوم "لآلهة" الساعات. وهناك نوعان من هذه الساعات، فبعضها كان يظهر التوقيت بتسرب المياه إلى الخارج، والبعض الآخر بتسربه إلى الداخل. ويظهر أن النوع الأول كان يحوي فتحات صغيرة لتسرب المياه إلى الخارج كانت تختلف في اتساعها حسب طول ساعات الليل وذلك تبعاً لفصول السنة المختلفة. والساعات المحفوظة لدينا الآن هي من النوع الأول

(1) المصدر نفسه. وجماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 179.

(2) المصدر نفسه.

(3) كوروفكين: المصدر السابق، ص 54. إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 375.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 91.

(5) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 377 - 378.

الـذي يظهـر التوقيـت بتسـرب الميـاه إلـى الخـارج. ففـي متحف القاهـرة سـاعة مائية صنعت مـن الحجر يعـود تاريخهـا إلـى عهـد الأسـرة الثامنـة عشـرة[1] غيـر أن جميع السـاعات التي اسـتخدمت لـم توصل إلى قيـاس الزمـن إلا بصفـة تقريبية.

ومع كل الإنجازات الهامة، كان المصريون في علم الفلك أقل رقياً من معاصريهم البابليين[2].

الطـب: حقـق الطـب تقدمـاً كبيـراً، وكان بحـق مفخـرة علميـة للمصرييـن. وقـد أتـاح فتـح الجثـة لتحنيطهـا، حسـب العـادات الدينيـة، فرصـاً لدراسـة جسـد الإنسـان، وهـذا بـدوره أدى إلـى ظهـور أجنـة الفيسـيولوجيا (علـم وظائـف الأعضـاء) وعلـم الطـب[3].

لقـد بحـث الأطبـاء المصريـون سـبب الأمـراض فـي تعفن الأعضـاء، غيـر أنهم لـم يتمكنوا علـى الدوام مـن التخلـص من السـحر[4]. وتشـير برديـات يعود تاريخها إلـى عهـدي الإمبراطوريتين القديمة والوسـطى، إلـى اسـتخدام الوسـائل العلميـة إلـى جانـب السـحر فـي معالجـة المـرض، وتعكـس بعـض الأسـاطير أيضاً الاتجاه والممارسـة نفسـيهما.

ومرجعنـا عـن الطـب المصـري مجموعـة مـن البرديـات تناهـت إلينـا مـن مختلـف عهـود التاريـخ المصـري القديـم، أعظمهـا قيمـة برديتـا جـورج ايبـرس[5] وأدويـن سـميث[6]. فالأولـى تقسـم إلـى تسـعة أقسـام، تبـدأ بالسـحر والرقـى، ثـم معلومـات عـن التشـريح ووظائـف الأعضـاء، وأخيـراً

(1) المصدر نفسه، ص 377 - 378، 384 – صورة رقم 2.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 179؛ ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 120.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 180.

(5) تضم بردية جورج ايبرس كتاباً تعليمياً للطب المصري يمكننا أن نتصور أنه كان محفوظاً بمكتبة مدرسة طيبة. وملف ايبرس الطبي موجود الآن في مكتبة جامعة لايبزيغ بألمانيا.

(6) كتبت بردية إدوين سميث في عصر الهيكسوس، ولكنها تنبئنا بأن النص المشروح الذي لا شك في أنه أقدم عهداً يرجع على الترجيح إلى الدولة القديمة. وبردية أدوين سميث الطبية محفوظة اليوم في متحف نيويورك.

الأمراض الجراحية وطرائق معالجتها[1]. أما بردية أدوين سميث فهي أقدم وثيقة علمية في التاريخ، يرجع تاريخها إلى حوالى 1600 ق.م وتعتمد على مراجع أقدم منها. وتتناول جراحة الإصابات كالجروح والكسور والخلوع. وهي تبدأ بالجمجمة ثم تسير نحو الأنف والفك والأذنين والشفة والحنجرة والرقبة والترقوة والأكتاف والصدر وقفص الصدر حتى العمود الفقري. ولا شك في أن البطن والأطراف كانت تلي ذلك، غير أنه من المؤسف أن النص المحفوظ ينقطع عند إصابات السلسلة الفقرية عند منتصف الجملة[2]. وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً ومرتبة ترتيباً منطقياً من تشخيص العلة والاستدلال بأعراضها على عواقبها إلى طرائق علاجها[3].

يتبين من دراسة البرديتين السابقتين وتحليل محتوياتهما، أن الطبيب كان يفحص المريض فحصاً شاملاً ويقوم باستجوابه وملاحظة المظاهر الطبيعية عليه بغية تشخيص المرض أولاً، ليقوم بعد ذلك بوصف العلاج اللازم حسب الحالة المرضية. وهو إما أن يكون علاجاً داخلياً يستهدف الشفاء من الأمراض الباطنية بواسطة العقاقير إلى جانب السحر، وإما خارجياً بالجراحة وتعتمد على المهارة التي هي ثمرة التجربة والخبرة ودراسة وظائف الأعضاء والتشريح[4].

وكان من الأطباء المصريين، كما تشير برديتا ايبرس وأدوين سميث، أخصائيون في الجراحة والتوليد وأمراض النساء والعيون واضطرابات المعدة. وهناك أيضاً أطباء القصور الملكية وأطباء الجيش وأطباء الشعب. أما الأطباء غير الأخصائيين فكانوا يقومون بمعالجة الفقراء. وكان من عملهم فوق هذا تحضير أدهان الوجه وصبغات الشعر، وتجميل الجلد وأعضاء الجسم، وتحضير مبيدات البراغيث[5].

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 464.

(2) إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 398.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 124.

(4) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 463.

(5) ديورانت، ول: المصدر السابق، ج2، ص 124.

ويذكر هيرودوت حول هذا الموضوع: "إن المدارس الطبية[1] في مصر القديمة كانت في منتهى الشهرة والسمعة الطيبة، كما أن رجال الطب الذين تخصصوا في مختلف فروعه كان لهم صيت ذائع، وأن الملوك والأمراء والعظماء في البلاد الأخرى يستدعونهم لعلاجهم"[2].

لقد ساعد تحنيط الموتى الأطباء على الاطلاع على أعضاء الجسم الداخلية كالقلب والمعدة والأمعاء والرئة والكبد وغيرها[3].وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة في الكائنات الحية، وأنه مركز الدورة الدموية. وقد جاء في بردية ايبرس: "إن أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جبهة الإنسان، أو على مؤخر الرأس، أو على اليدين... أو على القدمين فإنه يلتقي بالقلب في كل مكان"[4]. كما توصل الأطباء المصريون، حسبما ورد في بردية إدوين سميث، نتيجة الخبرة والدراسة العملية إلى القول: "إن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ"[5].

وكانت أكثر الأمراض انتشاراً في مصر هي: أمراض العيون (تستهلك عشر مجموع الأدوية كلها) وتليها الأمراض الباطنية فأمراض النساء. وقد نالت هذه الأنواع الكثير من عناية البرديات. ومن الأمراض التي مات بها المصريون من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية، كما تحدثنا عن ذلك بردياتهم وأجسامهم المحنطة: تدرن النخاع الشوكي، وتصلب الشرايين، والحصوات الصفراوية، والجدري، وشلل الأطفال، وفقر الدم، والتهاب المفاصل، والصرع، والنقرس، والتهاب الزائدة الدودية، والتهاب النتوء الحلمي وغيرها[6].

أما العقاقير فكانت تصنع من أصل نباتي وتشكل 5/6 من مجموع الأدوية والباقي من

---

(1) كالمدارس الطبية الشهيرة في هليوبوليس وسايس. وقد اتخذ ما خلفته هذه المدارس في المعارف الطبية أساساً لطب العصور التالية. إرمان ورانكه: المصدر السابق، ص 389 - 390.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ج4، ص 458.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 92.

(4) ديورانت، ول: المصدر السابق، 124/2؛ إرمان، ورانكه: المصدر السابق، ص 390.

(5) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 125.

أصل حيواني أو معدني. وقد عرف المصريون طرائق تحضير الدواء واستعمالاته، فنشأت بذلك مبادئ الصيدلة أو صنع الأدوية.

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من الأقراباذينات (دساتير الأدوية). ففي بردية ايبرس ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأمراض المعروفة[1]. وقد عثر في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على مزهريات، وملاعق، وعقاقير جافة، وجذور[2].

وقد نقل اليونانيون كثيراً من المعلومات الطبية عن المصريين، وانتقلت منهم إلى اللغة اللاتينية والعربية والسريانية والفارسية. ويذكر المؤرخون أن الطب الشعبي في أوروبا والشرق يرجع إلى أصل مصري[3].

وكان من طرائق معالجة الأمراض: وصف الدواء والغذاء حسب الحالة المرضية، والراحة، واستعمال الضمادات، والتعاويذ السحرية. وقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة، وذلك باستخدام الملينات والحقن الشرجية وبالصوم وبختن الذكور وبالمقيّئات وتطهير أجسامهم.

وقد كشفت الحفريات عن طرائق كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنابيب من النحاس[4]. وعلينا بعد هذا كله، أن نصدق ما رواه هيرودوت عن المصريين: "أنهم كانوا بعد اللوبيين أصح شعوب العالم أجساماً"[5].

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 92.

(4) ديورانت، ول: المصدر السابق، 126/2.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل السادس عشر

الديانة

نشأت الديانة في مصر في عصر ما قبل الأسر من تصورات الإنسان الساذجة والغامضة عن العالم المحيط به ونتيجة لضعفه وعجزه عن تفسير ظاهرات الطبيعة في ظروف تخلفه الاقتصادي والاجتماعي في مرحلة النظام العشائري - القبلي. ولم يكن للمصريين دين واحد، كما لم تكن هناك وحدة زمانية أو مكانية للمعتقدات، لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من قبيلة لقبيلة ومن مقاطعة لأخرى[1]. وقد أخذت تصورات المصريين تتطور في سياق النشاط العملي والنضال ضد الطبيعة.

لقد عكست ديانة المصريين القدماء الطبيعة المحيطة بهم وجميع أوجه نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وأياً كان الأمر، فإن للديانة المصرية أهمية كبرى في فهم حضارتها. لذلك لا بد لنا من أن نعيرها الأهمية التي تستحقها[2].

ففي مرحلة الجمع والصيد، عبدوا الحيوانات كالأسد، واللبوة، والحية، والثور، والبقرة، والخروف، والكلب، والتمساح، وجاموس البحر، والثعبان السام، والأفعى، وابن آوى إلخ..

وكان لكل عشيرة أو قبيلة حيوان معين تعبده، ويعتقد أفرادها أنهم انحدروا منه جميعاً، كما كانت القبيلة تحمل اسمه. عبدوا بعضها رهبة وخوفاً كالأسد والتمساح وجاموس البحر

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 156/2.

(2) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 120/1.

والثعبان السام والأفعى وابن آوى، وعبدوا بعضها الآخر منفعة لأنها كانت تعيلهم وتقدم لهم خدمات عظيمة كالثور والبقرة والتيس والكلب. وهذا التصور الخيالي عن الحيوان كسلف وحام للقبيلة أطلق عليه العلم اسم "مذهب الطواطم"[1]. وفيما بعد لم يعد الحيوان وحده طوطماً وسلفاً وحامياً، وإنما أصبحت كذلك الأشجار والنباتات. وكان الطوطم حيواناً في 18 مقاطعة من مقاطعات مصر، ونباتاً في 4 مقاطعات[2].

ومما يؤكد تأكيداً قاطعاً أن المصريين القدماء عبدوا الحيوانات، وأنها لم تكن مجرد رموز أو إشارات للقبائل أو المقاطعات، ما عثر عليه في جبانة عصر البداري من الحيوانات التي عني بدفنها بعد تكفينها كما كان يحدث في العصر التاريخي. فمثلاً وجدت بنات آوى، وثيران، وكباش، وغزلان، ملفوفة في حصير أو نسيج من التيل، مما لا يترك مجالاً للشك في أنها كانت تقدس وتعبد[3].

ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق: "أنه لا توجد رابطة ظاهرة بين الإله المعبود في المقاطعة وشارتها، أي أن الشارة ليست هي الشكل المرئي للإله، مما يدل على أنه يوجد إلهان عقب أحدهما الآخر. إله جديد حل محل القديم وإله قديم كان الطوطم المحلي الذي أضاع مكانته وبقيت صورته كشارة للمقاطعة وذلك احتراماً لذكراه". ويتابع الدكتور سليم عادل عبد الحق قوله: "وكلما تقربنا من العصر التاريخي نجد أن هذه الطواطم تنزل من أعلامها لتأخذ أشكالاً فيها حياة، فنشاهدها متقلدة السلاح لتقاتل أعداء القبيلة وممسكة حبالاً لتصطاد الحيوانات أو لتقبض على الأسرى أو حاملة معاول لتهدم بها قرى الأعداء[4].

واستمرت عبادة الحيوانات عندما اتحدت القبائل وتشكلت المقاطعات. فكان لكل مقاطعة إلهها الخاص، أو إلاهاها وحتى ثالوثها الإلهي. وكان الإله المحلي للمقاطعة يمثل على صورة حيوان معين، وأن كثيراً من المقاطعات كانت تحمل أسماء معبوداتها الحيوانية

---

(1) الطوطم: حيوان أو كائن آخر تنتحل العشيرة أو القبيلة صورته شعاراً لها.

(2) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(3) حسن، سليم: المصدر السابق، 93/1.

(4) المصدر نفسه.

نفسها كمقاطعة التمساح نسبة إلى المعبود التمساح، ومقاطعة الغزالة، ومقاطعة الكبش، ومقاطعة الصقر، ومقاطعة الأرنب[1] الخ...

وكانت عبادة الحيوانات تبقى، في الأغلب، على صورتها الخالصة: ففي ممفيس مثلاً، كان يعبد العجل آبيس تجسيداً للإله بتاح، وفي تينيس الصقر تجسيداً لحوروس[2]. وقد اعتاد المصريون أن يمثلوا الآلهة والإلهات على شكل حيوانات أو كائنات ذات جسم إنسان ورأس حيوان. فـ"بتاح" كان يمثل بشكل ثور، و"حوروس" بشكل إنسان له رأس صقر، و"آمون - رع" بشكل كبش[3]. وتحت هذه العلاقة، اتصلت الديانة الرسمية بالديانة الشعبية، إذ إن هيرودوت يذكر أن عبادة الحيوانات كانت عادة منتشرة في جميع أنحاء مصر[4].

ودامت هذه الأشكال البشرية الحيوانية لصورة مرئية تتقمص فيها الآلهة حتى آخر التاريخ المصري القديم[5]. غير أن معبودات المقاطعات المصرية لم تكن تتمتع جميعها بالمكانة نفسها. آلهة المقاطعات الأوسع فقط كان لها تأثير سياسي، يمكن أن تكون مؤهلة للزعامة الوطنية مثلما كان بتاح ممفيس، ورع عيونو (هليوبوليس)، وآمون طيبة[6]... إلخ. وإن بعضاً من هذه المعبودات مثل رع إله الشمس، وأوزير إله النبات والخصب، كانت له وظائف تعود إلى عصور موغلة في القدم، وحافظت أيضاً على مكانتها في الديانة الشعبية، وآخرون من الآلهة، أخذت خصائصها من اللاهوت ورجال الدين، فقد أعلن أن بتاح هو خالق العالم والآلهة والناس[7].

وقد نشأ السحر متصلاً بالمعبودات المحلية. فمن أجل ضمان الحماية من الوحوش

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 171.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 121.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 171.

(5) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 171.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الضارية ومعيشة أفضل، والتوفيق في الصيد، اعتبر أفراد القبيلة أنه من الضروري نيل المساعدة من الطوطم الذي اختلقه خيالهم. وكانوا يغمرونه باللطف والعطايا. وشيئاً فشيئاً اتخذت هذه التوجهات إلى الطواطم شكل عادات معينة تسمى سحر الصيد وشعوذته. ومن الإيمان بالقوة السحرية الخارقة التي تستطيع التأثير في حياة الناس نشأت مختلف الرقى والحجب. فقد عثر المنقبون في مقابر البداري على تعويذات مصنوعة من العظم تمثل رؤوس غزلان وجاموس بحر[1]. كما عثر على بعض دمى لنساء وخدم وحراس نصبت خلف جدار القبر، هذا إلى مراكب صغيرة معها شباكها ومعداتها وحيوانات متوحشة وأليفة. كل هذه الأشياء قد أهديت الى المتوفى ووضعت معه في القبر ليستعملها في حياته الأخرى بواسطة رقى سحرية. ولا نزاع في أن مصري ما قبل التاريخ كان يستعين بالسحر لاستخدام هذه التماثيل الصغيرة فيقلبها إلى حقيقتها[2].

وانتشر أيضاً، في مرحلة الجمع والصيد، الإيمان بـ"كائنات روحية" غير مرئية وغير مادية منسوبة إليها خصائص ما فوق الطبيعة. إن هذا الإيمان ينبع من عدم فهم المصري طابع ظاهرات الطبيعة. "فاعتقد أن كل مكان في القطر المصري تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل إرضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة"[3]. ولم يقتصر المصري على اعتقاده بوجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضاً في السماء وفي الأرض[4].

ومع تطور القوى المنتجة وانتقال المصريين من مرحلة الجمع والصيد إلى مرحلة الزراعة وتربية المواشي، تطورت ديانتهم أيضاً، وأخذوا يعبدون الشمس والمياه والأرض وغيرها من القوى والظاهرات الطبيعية. وحول هذه النقطة، يذكر برستد: "إن الزرع الأخضر

---

(1) حسن، سليم: المصدر السابق، 93/1.

(2) المصدر السابق، ص 94.

(3) برستد: تاريخ مصر، ص 35.

(4) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الذي نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة، وكان لهذا التغيير في حياتهم من صيادين إلى زارعين في الأرض أثر في عقيدتهم الدينية"[1].

وفي هذه المرحلة تفسخت العشيرة ونظام الأمومة، ونشأت المشاعة المتجاورة والأسرة الأبوية، وظهرت الفروق الاجتماعية في الثروة بين أعضاء القبيلة الواحدة. وأصبح زعماء القبائل، رؤساء وملوكاً، يتمتعون بمزايا خاصة ويرثون الطوطم[2]. فاتحدت القبائل وتشكلت المقاطعات، ومن ثم نشأت مملكتا الدلتا (مصر السفلى) والوادي (مصر العليا) وقامت الدولة المركزية الموحدة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد[3].

وقد عكست الأساطير المتعلقة بالآلهة هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصورة لا تخفى على أحد. وفي هذه المرحلة نشأ في مصر، على ما يبدو، دينان: الدين الرسمي والدين الشعبي. وغدا الطوطم طوطماً شخصياً للملك الذي هو ابنه ووارثه ويحمل اسمه، حسبما ترويه الأساطير التي وضعها الكهنة لتعزيز سلطة الملك. وبعبارة أخرى أصبح الملك يحكم بدلاً من الإله، وفيه يتقمص.

وكان فرعون مصر يلقب بالصقر لأنه وارث الإله (حوروس) الصقر الذي جمع في شخصه كل السلطات المنسوبة إلى الطواطم المحلية عندما قبلت السيادة كما تذكر الأساطير[4]. وكان لا بد لتثبيت السيد الواحد على الأرض من أن يستتبع ظهور فكرة ملك الآلهة (ملك الملوك ورب الأرباب) في التصورات الدينية.

عبادة الشمس: الشمس هي مصدر الحرارة والنور الضروريين لنمو النبات وجميع الكائنات الحية الأخرى. وقد عرف المصريون، منذ أن اكتشفوا الزراعة وغدت الشكل الأساسي لنشاطهم، أهمية الشمس بالنسبة إلى الزارعة فعبدوها وسموا إلهاً باسم "رع" وبنوا له معبداً في "عيونو" التي أطلق عليها اليونانيون اسم "هليوبوليس" أي مدينة الشمس.

---

(1) برستد: انتصار الحضارة، ترجمة الدكتور أحمد فخري، ص 89.

(2) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(3) انظر 63 - 64 وما بعدها.

(4) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

وكان لعبادة الشمس مراكز عديدة وأشكال متعددة. وعندما اتحدت مصر في دولة مركزية وغدت منف عاصمتها، أصبح لـ"رع" إلهها المحلي أرجحية على غيره من بقية الآلهة، واتخذت عبادته ديناً رسمياً للدولة[1].

وكانت الشمس تصور أحياناً على شكل عجل (حيوان)، أو على شكل صقر (طائر)، أو هي رجل له رأس صقر[2]. واعتقدوا، بسبب عجزهم عن تفسير أسباب شروق الشمس وغروبها، أن رع يقوم برحلة يومية، ويمخر عباب السماء في قارب ذهبي ثم ينحدر إلى الغرب (إلى الصحراء) في كل مساء[3]. بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتخترقها لتشرق على الأرض ثانية، جالبة معها النور والفرح والسرور إلى سكان الدنيا. واصبح اسم "رع" يدخل في تركيب أسماء فراعنة الدولة القديمة مثل نيب-رع أي (رع السيد) ونفر كارع أي (جميلة روح رع) وهما الملكان الثاني والرابع من الأسرة الثانية، وخفرع ومنكاورع إلخ... وبنى فراعنة الأسرة الخامسة معبداً للشمس لتجري فيه طقوس عبادتها.

وعندما تفوقت طيبة وأصبحت عاصمة مصر في عهدي الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة، أصبح إلهها المحلي "آمون" إلهاً رسمياً للدولة واتحد بـ"رع" ليشكلا إلهاً واحداً باسم "آمون - رع" وأصبحت الأناشيد التي تمجد الإله الجديد آمون - رع تصوره بأنه أول الآلهة وأعلاها مرتبة (الإله الأعظم، سيد الآلهة) وهو الذي خلق الكون بأكمله[4].

ولما وصل أمنحوتب (أمنوفيس الرابع) إلى الحكم، ألغى عبادة الإله آمون والآلهة التقليدية المتعددة، واستبدلها بعبادة قرص الشمس (آتون) الذي أصبح الإله الرسمي والوحيد للإمبراطورية. وتفصيل ذلك، أن الدولة العسكرية المصرية تعرضت في عهد خلفاء تحوتمس الثالث إلى أزمة سياسية خارجية وداخلية. من الخارج، تعرضت لخطر الحثيين والخابيرو. ومن الداخل، تمرد عدد من الأمراء السوريين على الحكم المصري

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 88.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 80/1.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 156/2.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 88.

واشتبكوا في حروب أهلية مع الأمراء الموالين للفرعون. ولم يستطع حكام مصر في سوريا صد الجيوش الحثية المتقدمة في سوريا من جهة الشمال. ولا مصالحة الأمراء السوريين وتهدئتهم وذلك بسبب قلة الجيوش المصرية في سوريا. كما أن الفراعنة لم يجرؤوا على إرسال الجيوش الموجودة في مصر إلى سوريا خشية من ثورة الجماهير المستاءة. فمنذ أواخر حكم أمنوفيس الثالث، أظهرت فئات عديدة من المجتمع المصري تذمرها من كهنة آمون الذين وصل نفوذهم إلى القمة التي يمكن أن يبلغها[1]. واصبح الكاهن فتاح مس قابضاً على كل السلطات الدينية والسياسية ومحافظاً لطيبة ووزيراً للمنشآت[2]. فانحاز أمنوفيس الرابع إلى جانب حزب المعارضة. وسعى بمساعدتها الى استخلاص السلطة الملكية من سيطرة كهنة آمون والنبلاء القدامى[3].

وكان أمنوفيس الرابع يطمح من جهته إلى السلطة المطلقة، ليس السياسية فقط بل الدينية أيضاً[4]. وإن الوصول إلى هذا الهدف لم يكن من الممكن تحقيقه دون إصلاح ديني[5]. وبعد محاولات غير ناجحة بمعارضة آمون بإله الشمس رع، ألغى أمنوفيس الرابع عبادة الإله آمون والآلهة التقليدية المتعددة، وأوجد إلهاً وحيداً للإمبراطورية بل إلهاً عالمياً هو قرص الشمس (آتون). وعلل الفرعون إنشاء العبادة الجديدة بأن الشمس تضيء وتدفئ العالم كله[6]. ثم اختط مدينة جديدة، بين طيبة وممفيس لتكون مقراً لبلاطه ومركزاً للدين الجديد، اختار لها اسم "أخيتاتون" أي (أفق آتون)، وشاد فيها معبداً لآتون وقصوراً فخمة له وللملكة الحسناء نفرتيتي والحاشية[7]. وتخلى أمنوفيس الرابع عن اسمه أمنحوتب أو أمنوفيس ومعناه (آمون

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه. انظر أيضاً ص 123 - 124.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 165.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

(7) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

راضي) واتخذ اسم أخناتون أي (آتون راضي) وأطلق على نفسه لقب "النبي" و"ناقل كلام آتون" و"الكاهن العظيم"[1]. وأصدر أمراً بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم آتون، وحرم كل دين غير دينه، كما أمر أن تغلق جميع المعابد القديمة[2]. وسخر الفن والأدب لخدمة مذهبه، ثم ترك طيبة وانتقل إلى عاصمته الجديدة أخيتاتون (تل العمارنة)... ولم تعد الصلوات الجنائزية أو الأدعية ترفع إلى أوزيريس، بل أصبحت ترفع إلى أخناتون رأساً، أو عن طريقه إلى آتون[3].

وتظهر لنا تعاليم ديانة أخناتون في أحد أجمل الأناشيد التي نظمت في الإله "آتون" وابنه الملك "أخناتون". وهذه بعض مقاطعها:

"بزوغك جميل في أفق السماء يا آتون يا حي يا مبدئ الحياة.

تسطع بأشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك.

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه.

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك.

وأنشأت السماء البعيدة، وأشرقت فيها.

كل العيون تراك أمامها.

لأنك أنت آتون النهار فوق الأرض.

إنك في قلبي.

وما من أحد يعرفك.

إلا ابنك أخناتون.

لقد جعلته حكيماً.

بتدبيرك وقوتك.

أنت أوجدت العالم.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) ديورانت، ول: المصدر السابق، 176/2.

(3) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة د. أحمد فخري، ص 258.

وأقمت كل ما فيه لابنك

أخناتون، ذي العمر المديد

ولأجل كبرى الزوجات الملكية محبوبته.

سيدة الأرضين "نفر" - "نفرو" - "آتون" - "نفرتيتي"

عاشت وازدهرت أبد الآبدين"[1].

يتبين من النشيد أن إله أخناتون كان إلهاً إمبراطورياً بل إلهاً عالمياً، عنه صدر كل شيء وإليه يرجع كل شيء، وعبادته تجب على جميع المخلوقات. ورمز إلى الإله آتون بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر فوق الأرض كما كان كل شعاع من أشعته ينتهي طرفه بهيئة يد بشرية.

وقد كان ذلك الرمز يدل على السيطرة القوية لأخناتون الملك الإله والخارجة من مصدرها السماوي.

لقد زال إصلاح أخناتون الديني بعد موته. واستطاع كهنة طيبة إعادة عبادة الإله آمون، كما عادت عبادة الحيوانات وعبادة الآلهة الأخرى المتعددة.

والسؤال الآن: لماذا فشل إصلاح أخناتون؟

فشل إصلاح أخناتون لأنه كان إصلاحاً شكلياً لم تستفد منه أية فئة من فئات المجتمع المصري باستثناء الأوساط الغنية لكهنة آتون والأرستقراطية الجديدة التي حصلت على جزء من الأراضي المصادرة[2]. أما طبقة الفلاحين التي كانت قد أملت تحسين ظروف حياتها، في ظل الإصلاح الجديد، فلم تستفد شيئاً، بل على العكس من ذلك ازدادت حياتها سوءاً على سوء واشتد استغلالها، فتخلت عن المصلح. وعندما ثار الشعب، قمع أخناتون، بمساعدة جنوده المرتزقة، الثورة بوحشية. ففقد الإصلاح دعامته وقاعدته العريضة - أعني جماهير الشعب - في الوقت الذي تعاظم خطر الحثيين والخابيرو ومؤامرات كهنة آمون

(1) برستد: تاريخ مصر، ص 245 - 249. وسليم حسن: مصر القديمة، ج 5، ص 301 - 309.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 166.

والنبلاء القدامى، ونضبت موارد الخزينة وغرقت البلاد في غمرة الفوضى والاضطرابات. وعندما توفي توت عنخ آمون، تسلم الحكم الجنرال المصري حور محب بمساعدة كهنة آمون، فصفى نهائياً إصلاح أخناتون، واستعادت معابد آمون أملاكها، وعادت عبادة الآلهة القديمة المتعددة[1]. ولكن عبادة الشمس ظلت لها مكانتها الهامة في الديانة المصرية حتى العهود المتأخرة[2].

الخلاصة: تطورت الديانة بتطور المجتمع المصري وقواه المنتجة. وقد عكست الديانة الطبيعة المحيطة بالمصريين وكذلك المتغيرات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، ومنها ظهور التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة وتشكيل الدولة العبودية المركزية الموحدة.

فكما كان لملك مصر السلطان المطلق على رعاياه، أصبح رع ممفيس وآمون طيبة فيما بعد الإلهين الشاملين اللذين يحكمان الآلهة الآخرين. وكانوا يسمون رع "ملك الآلهة" وآمون "الإله الأعظم أو سيد الآلهة". وكما كان الفرعون أكبر ملاكي الأراضي والعبيد، كذلك أصبح رع وآمون طيبة فيما بعد أغنى الآلهة. فقد كان آمون يملك 86500 عبد يعملون في أراضيه من أصل 107000 عبد يملكهم الآلهة الآخرون، ويملك 10 % من أصل 15 % من الأراضي التي تملكها الآلهة وثلثي الثروة التي يملكها الآلهة الآخرون. وهو أغنى بخمسين مرة من رع هليوبوليس وبتسع مرات من بتاح ممفيس[3].

إن التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة بين الآلهة هما انعكاس حقيقي للوضع الاجتماعي الطبقي على النظام العبودي المصري.

عبادة النيل: عبد المصريون الشمس والنيل بدرجة متساوية. وكما كانت الشمس ضرورية لنمو النبات. كذلك كان النيل موئل الخصب والخير. فهو المصدر الوحيد تقريباً للرطوبة. يحمل الماء في صيف كل عام ويفيض وسط الاحتفالات الضخمة على الأرض العطشى

(1) المصدر السابق، ص 166 – 167.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 88.

(3) انظر ص 84 - 85.

ويغذيها بما يحمل. ويعود فينحسر تاركاً وراءه طبقة من الطمي تزيد الأرض غنى والمواسم وفرة وجودة. لذا كان طبيعياً أن يقدس المصريون نيلهم ويعتبروه إلهاً سموه "حبي" أي الإله المقدس. وقد انعكس فيضان النيل على ديانتهم أيضاً. فلم يصلوا قط إلى منابع "النهر العظيم" ولهذا السبب فقد جهلوا الأسباب الحقيقية لفيضان النيل. وكانوا يعتقدون أن إله النيل يسكن مغارة ويصب الماء من جرة وهو متربع، وأن حياتهم تتعلق بكمية الماء التي يصبها هذا الإله. فإذا جاء الفيضان أقل من المستوى الاعتيادي تحولت الحقول غير المروية إلى صحارى مسببة القحط والمجاعة.

وكان المصريون يصلّون ويبتهلون إلى النيل كي يصل إلى حقولهم. وكانت فترة الفيضان أيام أعياد واحتفالات وفاء له لما أنعم به عليهم من خصب ونماء، وشكراً وتمجيداً له، لأنه استجاب لصلواتهم ورضي بإنقاذ حياتهم. ويظهر تقديس المصريين نيلهم واحترامهم إياه في ترنيمة تعرف باسم "أنشودة النيل" ألفت بمناسبة أحد الاحتفالات، وتعود إلى فترة سحيقة من تاريخهم القديم. تقول الترنيمة:

"المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر

وعندما تفيض يعم الفرح البلاد.

أنت تطفح فتسقي الحقول وتنعش القطعان وتمد الناس بالقوة.

إذا تأخرت بنعمك توقف دولاب الحياة.

وإذا غضبت حل الذعر في البلاد.

يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير والذرة.

أنت الذي يخلق كل جميل.

الشباب والأولاد فرحون جذلون.

يحيونك، أيها الملك"[1].

ولنتساءل الآن: مم استلهم المصريون أسطورة أوزير- إله الميت والمبعث؟

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، 87/1؛ كوروفكين، المصدر السابق، ص 44.

من المعلوم أن وادي النيل تكتنفه من الشرق والغرب صحارى شاسعة. ففي صيف كل عام، وقبل فيضان النيل، تهب على مصر ولمدة خمسين يوماً، رياح جافة وحارة، قادمة من الصحراء عرفها العرب باسم "السموم" أو "رياح الخماسين" تنفث اللهب وتحمل معها الرمال المحرقة، فتخنق الناس والحيوانات بحرارتها، وتعمي عيونهم برمالها. ويذبل النبات وتبدو الطبيعة ميتة. وأخيراً تنسحب الرياح الجهنمية وتحل محلها رياح خفيفة منعشة قادمة من البحر مترافقة مع فيضان النيل، فتولد الطبيعة من جديد - تبعث.

من الطبيعة إذن، من تجدد الحياة السنوي في النبات، من فيضان النيل وانحساره، استلهم المصريون أسطورة إله الميت والمبعث. وحسب هذه الأسطورة، قدم ست - إله الجفاف الخبيث الذي أيبس الزرع بأنفاسه المحرقة - مع خمسين من أتباعه وقتل أوزير (النيل) - إله الخصب لأنه يزيد بفيضه من خصب الأرض، ثم قطعه إرباً إرباً ورمى كل قطعة في مكان. وظل الأمر كذلك حتى قام حوروس الباسل - ابن إيزيس الإلهة المحبوبة التي عثرت على القمح والشعير فيما كانا ينموان برياً في أرض مصر وكشفت عنهما لأوزير - فغلب ست وطرده من مملكته ووضع يده على إرثه. وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما في حب إيزيس، الطبيبة الساحرة، من حرارة. لقد بعث أوزير تماماً كما عادت الحياة إلى الطبيعة ثانية.

إن موت أوزير يقابل الزمن الذي ينقص فيه النيل وتبدأ فيه ريح الصحراء بالهبوب، فيذبل النبات وتتعرى الأشجار من أوراقها. وبعث أوزير يقابل فترة فيضان النيل الذي يجلب الخصب والخير والفرح إلى البلاد كما تقول حقاً "أنشودة النيل"[1]. هذا هو الجانب الشعبي من أسطورة أوزير الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطابع الزراعي لعبادته. ومن أجل ذلك كانت عبادة أوزير أكثر العبادات شعبية، واستمرت التقاليد الشعبية تمثله كإله للزراعة[2].

أما الجانب الرسمي من الأسطورة فقد وضعه الكهنة. ففي مطلع عهد الإمبراطورية

(1) د. عبد الحق، سليم عادل: المصدر السابق.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 171.

الوسطى، عندما جعل رجال الدين من أوزير أيضاً ملكاً وقاضياً لمملكة الأموات، أصبحت عبادته أداة قوية في أيدي الكهنة والفئة العليا من الأرستقراطية للاضطهاد الروحي لجماهير الشغيلة[1].

لقد أشاع الكهنة ولقنوا الشعب المصري ومارسوا جملة من الطقوس السحرية حول ما يسمى بـ"يوم الحساب ومحكمة أوزيريس" خلاصتها كما تقول النقوش: "إن روح المتوفى تقف يوم الحساب أمام محكمة قوامها اثنان وأربعون قاضياً يرأسهم أوزير، يسأل كل منهم الميت عن الآثام التي ارتكبها في دنياه - كذا، فيتبرأ منها جميعاً - وللتأكد من صدق الميت، يوضع قلبه في كفة ميزان ويوضع في الكفة المقابلة ريشة تمثل الصدق، فإن رجحت كفة الريشة، كان ذلك دليلاً على أن الرجل من البررة والأطهار، وإن ثقلت كفة القلب كان ذلك برهاناً على أن الرجل من الأشرار فيعاقبه أوزير دون شفقة - كذا. عندها يأمر "تحوت" وحشاً متربصاً أمام الميزان بأن يقطعه إرباً إرباً - كذا.

وكان الكهنة يقولون: إن ثمة طرائق ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرائق نظير ثمن يؤدونه لهم[2]. ومن هذه الطرائق أن يهيأ القبر بما يحتاج إليه الميت لغذائه من الطعام والشراب وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم "أوشابتي". ومنها أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التي تحبها الآلهة. فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة، أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر (حسب زعمهم - الإضافة مني).

وكان خيراً من هذه وتلك أن يشترى "كتاب الموتى" واسمه المصري "الخروج من الموت بالنهار" (وهو قراطيس من البردي ملفوفة تحتوي على أكثر من مئة فصل وعلى كثير من الصور بعضها ملون، توضع مع الميت في قبره) أودعها الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها (حسب زعمهم - الإضافة مني) أن تقي الميت أخطار ما وراء

(1) المصدر نفسه، ص 172.

(2) ديورانت، ول: المصدر السابق، 163/2.

القبر (الحياة الآخرة) وتضمن له السعادة بعد الموت. ومن لم يقتن هذا الكتاب السحري الغالي الثمن، وجب عليه أن يعيش حياة صالحة، بمعنى أن يخضع للأقوياء[1].

يستبين مما تقدم، أن العبادة الجنائزية استخدمت أيضاً كأداة للاضطهاد الروحي لجماهير الشغيلة. لقد صرف الكهنة كل همهم إلى بيع الرقى وغمغمة العزائم، وأداء المراسم والطقوس السحرية. بل إن كتاب الموتى نفسه ليعلم الناس أن الرقى التي باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب في طريقها إلى دار السلام - كذا، ووضعت صيغ التمائم والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب[2]. (حسب زعم الكهنة - الإضافة مني).

وكان لدى الكهنة رقى ورقى. رقى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه، ورقى يستطيع بها أن يذكر اسمه، وأن يتنفس ويأكل ويشرب... ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يستحيل لهباً، ومنها ما يجعل الظلام نوراً، ومنها ما يرد عنه الأفاعي وغيرها من الهولات المعادية[3]. (حسب زعم الكهنة - الإضافة مني). هذه بعض الأساليب التي لجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من أهون سبيل[4].

تأليه الفرعون: إن السمة الرئيسة المميزة لأيديولوجيا الدول الاستبدادية القديمة هي صبغتها الدينية، وكان الكهنة يحاولون بمختلف الأساليب إقناع الجماهير الشعبية بأن سلطة الملاك هي سلطة منزلة من عند اللّه. وقد وجد هذا تعبيره الساطع على الخصوص في تأليه الفرعون وتقديس دولته.

لقد أشاع الكهنة تعاليم ووضعوا أساطير خلاصتها، أن أول أسرة فرعونية سبقها في الحكم 27 إلهاً، أبرزهم:

رع (إله الشمس)، وأوزير (إله النيل)، وحوروس (إله السماء)، الذي ورث مملكة أبيه

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق، 165/2.

(3) المصدر نفسه، 166/2.

(4) المصدر نفسه، 167/2.

أوزير على الأرض ثم انتقل إرث حوروس ومملكته إلى ابنه "فرعون". فالفرعون، حسب زعم تعاليم الكهنة، إله تسلم السلطة من الآلهة، لذلك يجب عبادته كإله أرضي.

لقد انتحل الفراعنة جميعهم الصفة الإلهية. فالفرعون مرة هو حوروس إله السماء، ومرة هو رع إله الشمس أو ابنه، وتارة هو آمون رع، وتارة أخرى هو ابن آتون قرص الشمس إلخ... كما صورت الفنون والآداب الفراعنة كمخلوقات خارقة تلدها الآلهة. وكان لعبادة الفرعون وتقديس دولته مغزى سياسي كبير، يهدف إلى إخضاع جماهير الشغيلة لأصحاب السلطة. وإن أي احتجاج اجتماعي أو أي تمرد شعبي ضد سلطة الملك كان يعتبر تمرداً على إرادة الآلهة وجريمة ضد الدين، وبالتالي لا بد من إحباطه وقمعه. كما تشير تعاليم الكهنة إلى أن أوزيريس سوف يعاقب الناس الذين لا يحترمون ولا يمتثلون إلى الإرادة المقدسة. وقد جاء في نصوص متون الأهرام أن الفراعنة بعد الموت تستقبلهم الآلهة ليعيشوا بينها: "إنك أيها الملك تدخل أبواب السماء التي حرمت على المواطنين"[1].

وعلى جدران المعابد كانت تصور مشاهد الحوادث الهامة من حياة الفراعنة المؤلهين، كولادتهم من زواج سري تم بين والدتهم والإله الأعلى، أو تغذيتهم من البقرة، الإلهة حتحور، أو تتويجهم من قبل الآلهة[2]. وجاء في النصوص الدينية القديمة المنقوشة على جدران الأهرام: "إن الفرعون المتوفى يأخذ اسم أوزير، وإنه كما قدر لأوزير أن يعيش ويموت ويبعث، فإن أحفاده الفراعنة يمرون بنفس المصير، فهم سيعيشون ويموتون ويبعثون ثانية ويحكمون أرضهم من جديد"[3]. وهكذا استخدمت عبادة أوزيريس الفكرة السياسية الرئيسة للديانة المصرية: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة العبودية[4].

وعلى الرغم من أن الديانة لعبت دوراً كبيراً في حياة الشعب المصري، إلا أنها لم تستطع أن تلغي قوانين التطور الاجتماعي أو تمحو التناقضات الاجتماعية بين السادة والعبيد. لقد

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 88.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، ص 122.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 172.

ثـار الشـعب علـى مضطهديـه غيـر مـرة، وتمـردت جماهيـر الشـغيلة علـى سـلطة الفراعنـة والمـلاك مـرات عديـدة. وإن اعتقـال الجماهيـر الثائـرة للملـك "المؤلـه" وإلقـاء مومياء الفراعنـة خـارج القبـور، واحتلالهـم للمعابـد وقتـل الكتبـة والملاكيـن والاسـتيلاء علـى أموالهـم، وامتنـاع الشـغيلة عـن العمـل والفـرار مـن الزراعـة أو الجنديـة، لـه أيضـاً فـي نظـر التاريـخ مغـزى وآثـار وآفـاق وأبعـاد كبيـرة وكبيـرة.

إن عجـز الشـغيلة عـن الصمـود، فـي ظـروف النظـام العبـودي، سـواء أمـام الطبيعـة أو فـي وجـه المسـتثمِرين قـد مهـد التربـة لترسـيخ أيديولوجيـا الطبقة السـائدة في وعي الجماهير الشـعبية الواسـعة. ومـع ذلـك ورغـم مختلـف المعوقات فـي ذلك الوقت، فـإن تلك الأيديولوجيـا لم تكن كليـة الجبروت، وإن فـي مـا خلفـه الأدب المصـري القديم إشـارات عديدة إلى الشـك في خلود تلـك النظم والعدالـة المزعومة التـي تحـدث عنهـا أيديولوجيـو النظـام العبـودي. ففـي "حـوار رجـل متعـب مـن الحيـاة مع روحـه"، عدم الاعتقـاد بوجـود الآلهـة. إذ جـاء فـي النـص العبـارة الصريحـة التاليـة: "لـو عرفت أيـن يوجد الإلـه لقدمت إليـه القرابيـن"[1]. كمـا ورد فـي بعـض القصائد الشـعرية إشـارات تفصح عن عـدم الاعتقاد بالحيـاة الآخرة: "اقـض يومـك سـعيداً... اسـتمع إلـيّ: لا يسـتطيع أحد أن يأخـذ أمواله معه، ولـن يعود ثانية مـن يموت"[2].

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 89.

(2) المصدر نفسه، ص 78؛ سليم حسن: الأدب المصري القديم، 224/2 – 225؛ د. نجيب ميخائيل إبراهيم، المصدر السابق، 530/4.

الفصل السابع عشر

بلاد ما بين النهرين - ميزوبوتاميا

الأحوال الطبيعية

أطلق العرب على القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين اسم "أرض السواد" أو العراق. أما القسم الشمالي فيعرف باسم "الجزيرة" وهي كلمة تطابق في معناها الاصطلاح الذي أطلقه اليونان عليها "ميزوبوتاميا" أي ما بين النهرين (دجلة والفرات). وهي تسمية أطلقت فيما بعد على العراق كله حتى صار اسم السواد والعراق مترادفين. أما كلمة ميزوبوتاميا فإنها تعني أصلاً بلاد بابل وآشور. ومهما يكن من أمر فإن "ميزوبوتاميا" أصبحت لا تعني ما بين النهرين، بل تضمنت البلاد كلها فغدت صنواً للعراق والسواد معاً[1].

يقع وادي الرافدين بين جبال زاغروس والهضبة الإيرانية شرقاً والصحراء العربية السوريا غرباً، وبين جبال كردستان شمالاً ومياه الخليج العربي جنوباً. وتنحدر الأرض شمالاً انحداراً تدريجياً من جبال أرمينية (أورارتو - أرارات) التي ينبع منها دجلة والفرات إلى السهل الذي يمتد من نقطة اتحادهما إلى حيث يصبان في الخليج العربي.

وتقسم بلاد ما بين النهرين إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين هما: ميزوبوتاميا السفلى، وميزوبوتاميا العليا.

---

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، 11/5 - 12.

تشكلت ميزوبوتاميا السفلى (السهل الأدنى أو القسم الجنوبي من بلاد النهرين) نتيجة امتلاء الطرف الشمالي من الخليج العربي برواسب دجلة والفرات حيث انحسرت مياه الخليج تاركة وراءها سهلاً طمياً مستنقعياً منخفضاً تتخلله مجارٍ بطيئة الجريان لم يتم غمرها بالأرساب بعد. فكلما انسحب البحر بتراكم الأتربة فيه، ترك وراءه بحيرات ومستنقعات وجزراً يكتنفها البردي والقصب، تجف البحيرات والمستنقعات بعد ذلك بحرارة الشمس فتتصل الجزائر بعضها ببعض، وتصبح الأرض التي خلفها البحر أرضاً مستوية[1].

وظلت تلك المنطقة طوال العصر الحجري القديم عبارة عن مستنقع هائل تنتشر فوقه سحائب من البعوض والذباب. ولم تكن فيه الحياة مستطاعة للإنسان[2].

وفي زمن السومريين، كان البحر يغمر البقعة الواقعة في غرب الخط الذي يصل بندر ديلام بالأهواز وتمتد ضفته موازية للجبال بالاتجاه الشمال الغربي ويغمر مستنقعات الحويزة جميعها إلى أن يصل إلى جوار قلعة صالح فينعطف الساحل نحو الجنوب الغربي فيقطع شط الفرات في جنوب الشطرة، ثم يغير اتجاهه نحو الجنوب تاركاً مدينة أور بعيدة عنه بضعة أميال وماراً بمدينة أريدو ويستمر على اتجاهه المذكور إلى منتهى خليج الكويت، وهكذا يظهر أن بلاد خوزستان وأراضي منطقتي البصرة والمنتفك كانت تحت مياه البحر[3].

وقد تراجع ساحل الخليج بين الألف الرابع والأول ق.م مسافة حوالى 250 كيلومتراً إلى الجنوب من موقعه الأصلي القديم. ثم أخذت الجزر تتكون في البحر قريباً من الضفاف وبينها الخلجان الصغيرة والبحيرات، فانسحب البحر إلى الجنوب. وبعد أن كان داخلاً في البلاد على شكل مثلث رأسه الأعلى قريب من العمارة تراجع الساحل في القرن الرابع ق.م وامتد من شمال البصرة إلى جنوب الأهواز على خط أفقي في شماله جزر وبحيرات ومستنقعات. ثم جفت البحيرات واتصلت الجزر بعضها ببعض فانسحب البحر حتى أخذت ضفافه شكلها الحالي[4].

---

(1) الهاشمي، طه: جغرافية العراق، مكتبة دار السلام، بغداد، 1930، ص 450.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 97.

(3) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 451.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وأرض الطمي في ميزوبوتاميا السفلى سهلة ومستوية، يتفاوت ارتفاعها عن سطح البحر من 50 – 100 متر، والميزة الواضحة للسهل الأدنى هي تنوع المستوى بين مجريي دجلة والفرات. وقد استغل هذا الوضع لمصلحة الري مدى قرون طوال[1]. ويشبه السهل الأدنى دلتا النيل، فهو هبة دجلة والفرات. وأرضه اللحقية شديدة الخصب، وهي صالحة للزراعة جداً إذا سقيت.

مناخ ميزوبوتاميا السفلى قاري، تتباين فيه الحرارة بين الشتاء البارد، والصيف الحار وكذلك بين النهار والليل. تهطل الأمطار في هذه المنطقة شتاء لكنها قليلة، والصيف جاف. وكان جفاف الصيف الطويل وفيضانات الرافدين من المصاعب الرئيسة التي واجهت السكان الأوائل في هذه المنطقة.

وينمو في مناقع السهل الأدنى القصب والخوص الذي استعمل لبناء الملاجئ (الأكواخ) والسياجات والحصر أو لصنع القفف، وينبت في الأرض الأخرى الشعير والقمح والدخن والسمسم بحالتها البرية. كما تنمو أشجار النخيل الباسقة وهي الشجر الوحيد في هذا السهل الذي استخدم السكان ثمره غذاء وفي صناعة الخبز والخمر والعسل، وأليافه في صناعة أنواع خاصة من المنسوجات، ونواه للوقود، كما كان يدق وينقع ويقدم علفاً للماشية، واستعملت جذوعه في البناء وجريده في صناعة القفف والحصر.

وتخلو المنطقة من وجود خامات المعادن أو الحجارة، لكنها غنية بالغضار (الصلصال) الذي استخدم في بناء المساكن وإنشاء آكام تعلو مستوى الماء لدرء الفيضان، وفي صنع الخزف وألواح الكتابة (الرُّقُم).

أما ميزوبوتاميا العليا أو (إقليم الجزيرة) فتقع في الشمال بين دجلة والفرات. تحدها من الشمال أطراف سلسلة جبال آسيا الصغرى (الأقواس الأناضولية أو جبال كردستان) ومن الجنوب ميزوبوتاميا السفلى، ومن الشرق جبال زاغروس ومن الغرب أراضي الجزيرة الفراتية السوريا.

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 21/5.

ومنطقة ميزوبوتاميا العليا أكثر تعقيداً، تشمل حوضي النهرين ووديان روافدهما يفصل بينهما شريط هضبي، وفي الشمال والشرق تنهض جبال شاهقة تتخللها وديان ضيقة. فالأراضي الواقعة بين النهرين هي عبارة عن هضبة سهبية يتخللها عدد من الأحواض المقفلة كوادي الثرثار الذي غدا في العصر التاريخي الأول معبراً بين الشمال والجنوب. وإلى شمال غربي وادي الثرثار ينهض جبل سنجار (سنغارة) وهو امتداد للسلسلة السوريا، وأمطار منحدراته العليا غزيرة، ومن ثم يمكن قيام زراعة مستقرة فوقه.

ويعرف الإقليم على ضفة دجلة الشرقية باسم "آشور" وترتفع الأرض هنا على مراحل من دجلة إلى الشمال الشرقي وتميز كل مرحلة مرتفعات تتزايد كلما اتجهنا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأولها جبل حمرين الذي يواجه دجلة في مرحلة من مجراه ويسيطر على سهول العراق من الشرق: وهناك روافد عديدة لدجلة تشق هذه المرتفعات وتجري بينها وتبدو أحياناً على هيئة خوانق حتى ليكاد إقليم آشور يبدو مقطعاً أو مشققاً. وينتهي الأمر في الجنوب الغربي بسهل مفتوح عريض نوعاً ما تتخلله بعض المرتفعات من آن لآخر، وهو ينتهي من ناحية الشمال الشرقي ببلاد جبلية تنتشر فيها أحواض واطئة تدور من حولها التلال... وأخيراً تنهض في الشرق سلاسل زاغروس الرئيسية. وفي الشمال تقوم جبال كردستان[1].

وتمتاز منطقة حوض دجلة الأوسط في إقليم الجزيرة بكثرة وديانها الخصبة ووفرة أنهارها وطيب هوائها وقرب الجبال الشامخة منها ووجود المعادن والرخام والأحجار الكلسية فيها.

مناخ ميزوبوتاميا العليا قاري، أمطارها شتوية قليلة لكنها أكثر نسبياً منها في الجنوب وتكفي لقيام زراعة بدائية. تنمو في هذه المنطقة الحبوب نمواً برياً، كما تنمو الغابات على سفوح الجبال وفي وديان الأنهار. وعلى عكس الجنوب، تتوافر في هذه المنطقة الأحجار التي استعملت في صنع الأدوات وبناء المساكن والقصور والمعابد، وخامات المعادن التي استغلت لصنع الأدوات والأسلحة ومادة للفن وغير ذلك من الاستعمالات.

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 24/5.

وبلاد النهرين هي هبة دجلة والفرات وروافدهما. فهما يلعبان دوراً بالغ الأهمية في ري العراق وخصبه ومواصلاته وتجارته. ولا يقتصر الأمر على ذلك فإن الرافدين يكسبان للعراق أراضي جديدة. فالقسم الجنوبي منه (السهل الأدنى) دلتا غرينية كونتها ترسبات الغرين الذي حمله الرافدان منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ.

وقد عرف العراقيون القدامى فضل النهرين فألهوهما وجعلوهما من بين معبوداتهم التي تمثل قوى الطبيعة ولا سيما نهر الفرات. وجاء ذكر النهرين في المصادر المسمارية وقد نعتا بالنهرين الأخوين[1].

ينبع النهران الأخوان من جبال أرمينية، حيث يكونان متقاربين، ثم يبتعدان على مهل وينحدران ولا يتقاربان من جديد إلا عند بغداد الحالية حيث كان مصباهما المنفصلان والمختلفان في الخليج العربي بين الألف العاشر والخامس قبل الميلاد[2].

ينبع الفرات من جبال أرمينية ويجري من الشرق إلى الغرب ويمر بعدة مضايق بين جبال شاهقة، فتجري المياه بسرعة تحول دون الملاحة. ويتكون هذا القسم من "قره صو" و"مراد صو"[3].

وبعد أن يتصل فرعا الفرات قرب كيدوسيا يتجه النهر نحو الجنوب الغربي حتى يصبح قريباً من ساحل البحر المتوسط قرب كركميش (جرابلس الحالية)، ولكنه يغير اتجاهه فجأة نحو الجنوب ومن ثم نحو الجنوب الشرقي. وخلال اختراقه منطقة المراعي في بلاد العموريين يرفده عند ضفته اليسرى رافدان هامان وهما: البالخ أو البليخ (واسمه القديم بليخو) الذي كان يروي اقليم أوديسا (الرها) وحران ويلتقي بالفرات أسفل الرقة بقليل، والخابور (واسمه القديم خبورو وسماه اليونان خابوراس) ويتصل بالفرات عند بلدة قرقيسيا (البُصَيرة حالياً). وكلا الرافدين ينبعان من تلال آسيا الصغرى... وليست هناك روافد تتصل

---

(1) باقر، طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. تاريخ العراق القديم. شركة التجارة والطباعة المتحدة. بغداد 1955، ص 1/ 427.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 17/5.

(3) أرصاينا في المصادر المسمارية.

بـه مـن ناحيـة الصحـراء السـوريا والعربيـة... ولكن عـدداً من الوديـان الكبيرة الجافة تشـير إلـى أنه كانت هنـاك فـي العصـور القديمـة مداخـل هامـة من ناحيـة ضفته اليمنـى. والخابور هـو آخر رافد مـن أي نوع يتصـل بالفـرات ولـذا فإن بقيـة مجراه عبر السـهول الحـارة تتعرض لبخر شـديد.

ويلاحـظ أنـه كلمـا انبسـطت الأرض تحولـت الوديـان إلـى مـراعٍ خصبـة علـى الضفتيـن بينمـا يتحـول السـهل الأوسـط إلـى منطقـة قاحلـة جـرداء تعـج بحيوانـات الصيـد وتزخـر بالرعـاة[1]. وهـذه هـي البقعة التـي عرفـت باسـم بـلاد مـا بيـن النهريـن أو "ميزوبوتاميـا" التـي تنتهي بسـهل متسـع مـن التربة السـوداء قبـل المصـب بحوالـى مائـة ميـل حيـث يبلـغ اقتـراب النهريـن أشـده بحيـث لا يزيـد قـرب بغـداد علـى عشـرين ميـلاً[2]. ونصـل هنـا إلى الاقليـم الذي كان يدعى فيما مضى ببلاد "أكاد" المشـهورة بخصب سـهلها وأهميتـه التاريخيـة. وقـد شـق القـوم فـي هـذه المنطقـة أنهـاراً عظمى مـن الفـرات إلى دجلة مسـتغلين ظاهـرة ارتفـاع وادي الفـرات بالنسـبة الـى دجلـة، كانـت تـروي أراضي واسـعة[3].

وكان الفـرات فـي عهـد السـومريين والأكادييـن والبابلييـن يجـري فـي شـرق مجـراه الحالـي فـي قعـر شـط النيـل وشـط الـكار[4]. فأطـلال أبـو حبـة (سـيبار) وتـل إبراهيـم (كوثـا) والأحيمـر (كيـش) ونفـر (نيبـور) كلهـا تقـع علـى ضفـة شـط النيـل. أمـا أطـلال أبـو حطـب (كيسـورة) وفـارة (شـوروباك) وأوروك (الـوركاء) فتقـع علـى ضفـة شـط الـكار الـذي هـو امتـداد لشـط النيـل فـي جنـوب عفـك[5]. وفـي الجنـوب أيضـاً نـرى أنقـاض بسـمايا (أدب) وتـل جوخـه (أومـا) وسـنكرة (لارسـا) واقعـة فـي شـرق المجـرى الحالـي. حتـى إننـا نـرى اليـوم خرائـب مدينـة بابـل بعيـدة عـن مجـرى الفـرات الحديـث. والمدينـة الوحيـدة التـي كانـت مشـيدة علـى ضفـاف المجـرى الحالـي هـي أور ونراهـا

(1) المصدر السابق، ص 15.

(2) المصدر نفسه.

(3) باقر، طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. تاريخ العراق القديم. شركة التجارة والطباعة المتحدة. بغداد، 1955، 427/1.

(4) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 452.

(5) المصدر السابق، ص 453.

اليوم بعيدة عنه بضعة أميال[1]. وليس من شك في أن أمكنة هذه المدائن وحدها الدليل القاطع على أن الفرات غيّر مجراه وكان واديه فيما مضى غير واديه اليوم[2]. ويعود السبب في تغيير الفرات مجراه في ميزوبوتاميا السفلى إلى أن مياه الفيضان تنقل معها كميات كبيرة من الأتربة والرسوبات فتتركها في قعر المجرى، حيث يمتلئ بها الوادي فتحول دون مجرى الماء فيه، فتفتش المياه حينئذٍ عن أراضٍ منخفضة تجري فيها وتفتح مجرى جديداً. وهكذا يتبدل مجرى الماء من وقت لآخر في الجزء الأدنى من الفرات[3].

هذا وتجدر الملاحظة أن قدماء العراقيين آثروا السكن في وادي الفرات لأسباب واضحة منها أن الفرات أقل عنفاً وطوفاناً في فيضانه لقلة انحداره كما أن منابعه أبعد كثيراً من منابع دجلة مما كان يسهل الإرواء بالسيح وكذلك وفرة المياه صيفاً في الفرات لأن فيضانه يتأخر عن فيضان دجلة بنحو شهر واحد[4]. بالإضافة إلى وجود المنخفضات الطبيعية في جوانب الفرات الغربية الصالحة لجعلها خزاناً لتصريف مياه الفيضان[5].

ويكوّن الفرات، كدجلة، بحيرات ومستنقعات كثيرة على ضفتيه في قسمه الجنوبي. وسبب ذلك انخفاض سوية الأراضي في ضفافه وزيادة كمية المياه أثناء الفيضان وملء الأتربة والرواسب قعر بطن الوادي في بعض الأماكن، حيث تحول دون المجرى، فتنتشر المياه وتملأ المنخفضات الطبيعية[6].

وتتضاءل المستنقعات (الأهوار) كلما اتجهنا شمالاً، وتجف بعض المستنقعات في السنين التي تقل فيها الأمطار ولا يكثر الطوفان في الأنهر. أما البحيرات فهي من بقايا مياه البحر المتجمعة في الأماكن المنخفضة على ما يرجح.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه؛ وطه باقر: المصدر السابق، ص 433.

(3) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 146.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 433.

(5) المصدر نفسه.

(6) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 147.

والفرات كلمة سومرية عرفها البابليون في لغتهم السامية تحت اسم "بورتم" أو "بوراتي" أي الفرات. ولعل الاسم البابلي ومنه العربي "الفرات" مشتق من كلمة "فرع"[1]. أو هي تعنيها.

أما دجلة، "أدقلات" أي السريع، فأمره يختلف عن الفرات لأنه يتلقى إمدادات كثيرة من مياه الأنهار وتتصل به الروافد على طول مجراه من آسيا الصغرى إلى الخليج العربي، ومن ثم كانت فيضاناته المفاجئة مظهراً مميزاً له.

ينبع دجلة من مجموعة ينابيع تنحدر من حافات جبال أرمينية العالية. ويجتاز النهر بين منبعه وجزيرة ابن عمر أراضي جبلية في واد ضيق بين ضفاف مرتفعة، وبين فيش خابور والمضيق الكائن بين جبال حمرين وجبل مكحول يجتاز أرضاً متموجة مرتفعة في واد عريض تسيطر عليه الضفاف ولا خطر هناك من الطوفان على الأراضي المجاورة للضفاف لأن سوية الماء لا تتجاوز ارتفاع الضفاف كما يحدث في القسم الجنوبي، ولا يمكن تسليط مياه دجلة عليها بشق الجداول والترع[2].

ويجتاز النهر بين تكريت وبغداد أرضاً سهلة مفتوحة، تعلو سوية الماء في البعض من القسم الواقع بين سامراء وبغداد سوية الضفاف في موسم الفيضان وتتسلط على الأراضي المجاورة فتغمرها المياه[3].

وتتصل بدجلة روافد عديدة تنحدر إليه من جبال كردستان وزاغروس أهمها: الزاب الأعلى "زابلو ايلو" في المصادر المسمارية الذي يصب في نهر دجلة جنوب قرية نمرود، والزاب الأسفل، "زابو شوبالو" (لدى الآشوريين) الذي ينحدر إليه من الجبال العالية الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية ويصب في نهر دجلة جنوب شرقاط. وإلى الشمال من مدينة بغداد بحوالى ستين ميلاً وعند بلد يتصل به نهر العظيم "ردانو" لدى البابليين. وأما ديالة فأهم روافد دجلة القادمة من المرتفعات الشرقية وقد عرفه البابليون تحت اسم "ترناة"

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 433 - 434.

(2) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 129.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

ويتصل بدجلة جنوب بغداد قرب "تل عمر"[1]. ويكوّن ديالة مع دجلة مثلثاً من الأراضي الخصبة الواسعة اشتملت في العصور القديمة على مملكة أشنونا (تل أسمر) [2].

وقد سبقت الإشارة إلى أن كلاً من دجلة والفرات كان قد اتخذ له مجرى منفصلاً فيما بين الألف العاشر والخامس قبل الميلاد ودخلا إلى الخليج بمصبين مختلفين. وكان خط شاطئ الخليج في هذه الحقبة الزمنية يقع أبعد مما هو إلى الشمال الغربي على بعد بضعة أميال من بغداد. وقد كوّن كل من النهرين دلتا خاصة به امتدت كل منهما تدريجاً إلى الجنوب الشرقي في مياه الخليج... وهناك أنهار أخرى كان لكل منها دلتا خاصة إلى جانب دلتا دجلة ودلتا الفرات تكونت نتيجة الإرساب الطمي الذي يأتي به نهرا "الكارون" و"الكرخه" في الشاطئ الشمالي للخليج العربي. وكان نمو كل منهما أسرع من نمو دلتا دجلة ودلتا الفرات في الشمال الغربي ومن ثم نشأ رصيف من مواد فيضية رسوبية في الجنوب عبر رأس الخليج مكوناً حاجزاً توقفت عنده أمواه دجلة والفرات في صورة سلسلة من المستنقعات[3].

ومنذ ألفي عام اتصلت دلتا الكارون بدلتا الكرخه ووصلتا إلى شط العرب عند الجانب الجنوبي للخليج. وهكذا قطعتا جزئياً وصول مياه دجلة والفرات إلى البحر وكان يعني هذا اضطرار الأخيرين إلى إنزال حمولتهما من الطمي (الذي كان يفترض أن تحمله تيارات البحر) على الأرض الداخلية. وهكذا كانت المستنقعات الطمية التي تتخللها المصارف من المظاهر الجغرافية المميزة للإقليم الذي يمكن اعتباره كرصيف منخفض من الفيض نشأ بسبب تعدد الدلتات واختلاف سرعة جريان الماء وكميته[4].

والخلاصة: تكونت دلتا الفرات ودجلة بانسحاب البحر وتراكم الأتربة والرسوبات. وأما شط العرب الذي تكوّن نتيجة لالتقاء دجلة والفرات فعبارة عن مجرى ملاحي عريض يبدأ من جوار كرمة علي وينتهي في الخليج العربي عند ميناء الفاو. وحول المجرى حزام من

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 434.

(2) المصدر نفسه.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 17/5 - 18.

(4) المصدر نفسه، ص 18.

النخيل على مدى ميل أو ميلين ومن خلفه أحراش من القصب. ويرفده نهر الكارون الذي ينحدر من الجبال البختيارية ويصب في شط العرب قرب المحمّرة[1].

ونهر الفرات أطول من دجلة وأكثر تعرجاً. وهو يمتاز عنه باتساع واديه وعمقه وتعرضه في الأراضي العراقية لبخر شديد يقلل من كمية مائه. ولكن دجلة يمتاز بدوره بكثرة روافده وخصوصاً في الأراضي العراقية وبفيضاناته المفاجئة.

يفيض الفرات ودجلة في فصل الربيع بسبب سقوط الأمطار وذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال التي ينبع منها النهران وروافدهما. وحينما ترتفع سوية الماء في النهر وتصل حدها الأقصى يكون زمن الفيضان، ويقع ذلك عادة بعد منتصف شهر آذار/ مارس أو في بداية شهر نيسان/ أبريل. وتطفو الأنهار في هذا الزمن لأن الأمطار في الربيع تسقط بكثرة في جبال كردستان وأرمينية وتذوب الثلوج المتراكمة عليها.

وتكثر كمية المياه في نهر دجلة لقرب منطقة الجبال من ضفافها ولانصباب الروافد فيها. أما نهر الفرات فتكون كمية المياه فيه قليلة حينما يدخل أرض العراق ويقطعها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، لأن منطقة الجبال التي يجتازها هذا النهر بعيدة عن أرض بلاد النهرين، فضلاً عن أن الروافد التي تصب فيه قبل أن يدخل الأراضي العراقية لا تمر بمناطق جبلية غزيرة الأمطار.

يفيض دجلة قبل الفرات بنحو أسبوعين أو شهر[2]، وذلك لبعد منطقة الجبال التي يمر بها الفرات والتي تنزل عليها الأمطار. ولما كان الفرات يعتمد على ماء الأمطار الذي يأتي في مساحة واحدة مفردة محددة فإنه لا يفيض وفيراً بسرعة في مجراه الأوسط والأدنى[3].

---

(1) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 153 - 156.

(2) يفيض دجلة في شهر آذار / مارس ويبلغ حده الأقصى في شهر نيسان/ أبريل حيث تأخذ المياه في الهبوط. ولا يأتي منتصف حزيران/ يونيو إلا وترجع إلى حدها الأول.

(3) غير أنه يحتفظ بماء الفيضان إلى أمد أطول من أمد فيضان دجلة. فنرى فيه عند منتصف شهر تموز/ يوليو كمية كافية من الماء وقد يبقى محتفظاً بها إلى شهر أيلول / سبتمبر وحينئذ ترجع المياه إلى حدها الأول.

بينما يستمد دجلة ماءه من منطقة أوسع تمتد من جنوب شرقي الأناضول حتى الشاطئ الشمالي من الخليج العربي فيؤثر المطر المحلي في ارتفاع ماء النهر ومن ثم كانت الفيضانات المفاجئة مظهراً مميزاً لدجلة[1].

ويحمل الرافدان إلى الأراضي والحقول الماء والطمي المخصب. وقد عرف العراقيون القدامى فضل النهرين فألهوهما وجعلوهما من بين معبوداتهم التي تمثل قوى الطبيعة كما تقدم.

ويظهر الفيضان أكثر ما يكون في ميزوبوتاميا السفلى، حينما يمر النهران بالمنطقة الترابية، فتطفح مياه الفيضان على الضفاف وتنتشر على الأراضي المجاورة للمجرى، لأن الوادي لا يسع كمية المياه التي تجري فيه، لا سيما وأن الضفاف لا تعلو عن سوية القعر، فتنساب المياه إلى اتجاهات مختلفة، وكثيراً ما تغير مجراها، فتتسلط على الأراضي المنخفضة وتغمرها بالمياه فتكون البحيرات والمستنقعات كما ترى آثار ذلك في العراق الأسفل[2].

وقد يؤدي الفيضان إلى كوارث وأضرار جسيمة بإغراق الناس والبساتين والمزارع وهدم المنازل وجرف المتاع. وقد أظهرت التنقيبات في أربع مدن قديمة في ميزوبوتاميا السفلى وهي: المقير (أور)، والوركاء (أوروك)، والأحيمر (كيش)، وفاره (شوروباك) دليلاً على وجود طوفان يتكون من طبقات ثخينة من الطين الخالص، وبرهاناً على سُكنى بشرية فوق مستوى الطوفان وتحته، إلا أن ترتيب الطبقات أثبت أن هذا الطوفان يعود إلى أدوار متباعدة من الزمن. على أنه من الممكن أن نفترض أن واحداً من هذه الطوفانات امتاز بأنه سبب خسائر فادحة في الأنفس وتدميراً جسيماً في الأموال والممتلكات، وصار الموضوع الأساسي لقصة الطوفان السومرية.

وكان خطر الطوفان من المسائل التي شغلت اهتمام العراقيين القدامى. فأقاموا السدود الترابية والحواجز على طول الضفاف الواطئة لدرء الفيضان، وأنشأوا المصارف لأخذ مياهه

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 16/5.

(2) الهاشمي، طه: المصدر السابق، ص 163 - 164.

إلى الخزانات والمنخفضات الطبيعية للوقاية من أخطار الطوفان والاستفادة من المياه المخزونة عند الحاجة إليها.

يتبين مما تقدم أن الظروف الطبيعية كانت في ميزوبوتاميا العليا ملائمة لحياة الإنسان، في حين كانت على العكس من ذلك في ميزوبوتاميا السفلى (القسم الجنوبي من العراق) الذي ظل مغطى بالمياه إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد، وبالتالي كانت حياة الإنسان فيه غير ممكنة. وأياً كانت الأحوال فإن العراقيين الأوائل ناضلوا بدأب ضد الطبيعة، واستطاعوا بتعاونهم وبعملهم الجماعي أن يذللوا كثيراً من العوائق ويتغلبوا على جملة من المصاعب ويخطوا خطوات متقدمة في طريق الانعتاق من التبعية للطبيعة.

فطوال مرحلة الصيد وجمع الغذاء، كان العراقيون القدامى خاضعين لسيطرة الطبيعة متطفلين عليها مستنزفين بعض مواردها. ومع اختراع القوس والنشاب واكتشاف النار والزراعة وتدجين الحيوان وتحسين أدوات العمل أخذت ظروف حياتهم ووجودهم وأمنهم تتغير إيجابياً نحو الأفضل، فصاروا منتجين للغذاء بعد أن كانوا جامعين له.

إن الانتقال إلى تربية الماشية والزراعة جعل الإنسان يعتمد على الطبيعة بدرجة أقل من ذي قبل، وبالتالي أحرز خطوة جديدة في طريق تحرره من التبعية للطبيعة. ليس ذلك وحسب بل صار عاملاً مساهماً في إغناء الطبيعة لخيره وسعادته.

وعرف العراقيين القدامى أهمية الري، في بلاد أمطارها قليلة وغير منتظمة، فصار تنظيم الري والسيطرة على الأنهار من أبرز مقومات الحضارة في بلاد ما بين النهرين. وكان من بين العوامل الرئيسة لتوحيد البلاد وإنشاء سلطة ممركزة العمل على تنظيم الري وتنفيذ مشروعات كبيرة على صعيد المملكة لتطوير الزراعة، ولتنشيط التجارة الخارجية من أجل توفير المواد اللازمة كالخشب والحجارة والمعادن لبناء حضارة راقية.

وهكذا لم يقف العراقيون القدامى مكتوفي الأيدي أمام سيطرة الطبيعة وإنما ناضلوا بنشاط ودأب وأحرزوا انتصارات مدهشة ونجاحات هامة في مسيرة النضال الطويلة والشاقة في سبيل التقدم.

الفصل الثامن عشر

مصادر تاريخ حضارات العراق
في العصور القديمة وما قبل التاريخ

أولاً: مصادر عصور ما قبل التاريخ وتشمل:

أ- الهياكل البشرية الثلاثة لإنسان نياندرتال التي عثرت عليها بعثة شانيدار الثالثة في كهف شانيدار (في لواء أربيل). وأصغر هذه البقايا هو شانيدار -1- الذي يرجع إلى 46000 عام، وأما الهيكلان الآخران فأقدم منه. واكتشاف هذه الهياكل البشرية يقدم الدليل على قدم الحضارة العراقية وعراقتها.

ب- مخلفات الرافدي الأول التي عثر عليها علماء الآثار في بردة بلكة وفي موقع كريم شاهر وفي موقع جرمو (في لواء كركوك) وفي تل حسونة (في لواء الموصل) وفي موقع سامراء الحالية (لواء الموصل أيضاً) وفي تل حلف (شمال سوريا) وفي تل العبيد جنوب العراق (بلواء الناصرية على بعد ستة كيلومترات غرب أور) وفي أوروك وغيرها من المواقع الأثرية. وتشمل هذه المخلفات أدوات حجرية ومعدنية وآنية فخارية ساذجة سمجة ومتقدمة رشيقة مصبوغة بعدة ألوان على بعضها رسوم تمثل أشكالاً هندسية ونباتية وحيوانية، تزودنا معلومات هامة عن أدوات العمل وأثرها في تطور حياة الإنسان، كما تعطينا فكرة عن ظهور أجنة الفن في بلاد النهرين. كما اكتشفت مديرية الآثار العراقية العامة في

تل حسونة قرية كبيرة من العصر الحجري الحديث يرقى تاريخها إلى حوالى 4800 ق.م، وجدت فيها آثار متنوعة بينها أدوات من الحجر والأبسيدي ومناجل من الصوان ودمى من الطين وآنية فخارية، تزودنا معلومات هامة عن تطور الزراعة والحرفة والسكن والفن وعن تصورات قدماء العراقيين الدينية.

ثانياً: مصادر العصر التاريخي وتشمل:

أ- مكتشفات تل جمدة نصر (شمال شرقي كيش) وهي تطلعنا على تقدم الكتابة وتطورها، وتحسن الصناعة وتقدمها، وتطور فن العمارة وتوسع المباني والمعابد، واستعمال الفسيفساء في تزيين واجهاتها.

ب- التقارير: التي عثر عليها في المدن السومرية مثل لاغاش وأوما ولارسا وغيرها. وهذه التقارير عبارة عن عقود لبيع الأراضي أو تأجيرها، وعقود لاستخدام العبيد والعمال، بالإضافة إلى عقود تجارية وغير ذلك من الشؤون الاقتصادية. كما تعطينا قرارات أوروكاجينا ملك لاغاش صورة عن الصراع الاجتماعي ومحاولة الملك إجراء بعض الاصلاحات الاقتصادية - الاجتماعية في مدينة لاغاش. وتحتوي مراسلات حمورابي مع حكام مدينة لارسا على معلومات هامة عن نظام الري الاصطناعي والتنظيمات الإدارية في عهد حمورابي.

ج- القوانين السومرية (قانون أورنمو وقانون بيلالاما وقانون ليبيت عشتار) والبابلية (خصوصاً شريعة حمورابي) والآشورية، تزودنا معلومات عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر السلطة المدنية والعسكرية والدينية والنظام القضائي والعقوبات وغير ذلك من أمور الحياة في كل من سومر وأكاد وبابل وأشور.

د- مجموعة النقوش التي تعطينا صورة عن التاريخ السياسي والحروب والعلاقات الديبلوماسية ومنها "لوحة العقبان" التي تصف انتصارات ايانا توم ملك لاغاش، وتزودنا معلومات هامة عن أدوات الحرب وأسلحتها وطرائق الدفن في ذلك العصر. وكذلك الأمر في "لوحة النصر" لزام سين التي تتحدث عن حروبه وانتصاراته على القبائل اللولبية وفي ماندا، وعيلام وفي هضبة إيران.

وهناك الحوليات وهي النقوش والكتابات التاريخية التي دونت على الحجر والأنصاب والتماثيل وألواح الطين لتخليد انتصارات الملوك وحروبهم وأعمالهم ونشاطهم العمراني. وأشهر الحوليات هي حوليات سلمنصر الثالث وتيغلات فلأسر الثالث وغيرهما من الملوك الأشوريين.

هـ- الرسائل الديبلوماسية المكتشفة في مدينة ماري (تل الحريري) وتعطينا صورة عن العلاقات السياسية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، وبصورة خاصة عن سياسة حمورابي التوسعية.

و- رسائل تل العمارنة: عثر في مدينة أخيتاتون (تل العمارنة) على ربائد من الوثائق بالخط المسماري وباللغة البابلية الآشورية، تضم مجموعة من رسائل الود والسياسة المتبادلة بين فراعنة مصر وحكام سوريا وفلسطين وفينيقيا وبلاد الرافدين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتعتبر من الوثائق التاريخية التي أمكن على ضوئها رسم صورة لحياة الشرق العربي وسياسته في ذلك العصر.

ز- النصوص الأدبية والدينية: كقصة الخليقة وملحمة جلغامش، وأسطورة صراع مردوخ مع تيامان، وأسطورة الطوفان، وحوار السيد مع العبد، وأسطورة هبوط عشتار إلى العالم السفلي وغيرها، تزودنا معلومات عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعقائد قدماء العراقيين الدينية ونضالهم ضد الطبيعة.

ح- مؤلفات المؤرخين القدماء: أمثال برعوشا (بيرسوس) المؤرخ الوطني الرئيس للعصر المتأخر من التاريخ البابلي، وهو كاهن كلداني عاش في عهد الاسكندر المكدوني واستطاع أن يطالع الوثائق القديمة لبلاده. ولم يصلنا الأصل المفقود لسوء الحظ، ولكن حفظت مقتبسات منه في المصادر اليونانية. أما مؤلفات ستسياس، وديودور الصقلي، وهيرودوت الهاليكارناساسي، واسترابون، وأبيدينيوس ففيها معلومات هامة ومفيدة.

وفي حقل الكتب الدينية كانت التوراة تحتل أهمية خاصة كمصدر يزودنا ببعض المعلومات عن تاريخ حضارات بلاد الرافدين وسوريا وفينيقيا وفلسطين إلى ما قبل المكتشفات الأثرية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين.

الفصل التاسع عشر

حضارة العراق في عصور ما قبل التاريخ أو ما قبل السلالات

ظل القسم الجنوبي من العراق القديم مغطى بالمياه، مما جعل حياة الناس فيه، بالتالي، غير ممكنة، إلى ما قبل الألف الخامس ق.م. أما شمال العراق فالوضع فيه مختلف: الجزء الغربي منه هضبة واسعة من السهوب المتموجة، والجزء الشرقي فيما وراء دجلة فيه كثير من التلال المليئة بالغابات والوديان التي تجري فيها أنهار مهمة كالكورنيب والزابين والنهر العظيم والأدهم.

لقد هيأت الطبيعة في ميزوبوتاميا العليا الشروط الملائمة لحياة الإنسان لذا كان طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الإقليم المهد الأول الذي نشأت فيه طلائع الحضارة العراقية القديمة.

ففي هذه المنطقة عاش العراقيون الأوائل على شكل جماعات كانت تسكن الكهوف وتعتمد في حياتها على الصيد وجمع الغذاء. ومع تطور القوى المنتجة، وبالدرجة الأولى أدوات العمل، انتقل العراقيون القدامى إلى ممارسة الزراعة المعزقية وتأهيل الحيوان وتربية المواشي إلى جانب الصيد. وبنيت القرى، وارتقت الثقافة ولكن رقياً بطيئاً، وظهرت بوادر التصورات الدينية.

ومن هذا الإقليم، نزح العراقيون القدامى إلى الجنوب، عندما تراجعت مياه الخليج

وتشكل السهل الغريني الخصيب، حاملين معهم إلى ميزوبوتاميا السفلى تقاليدهم الحضارية. وشرعوا في تجفيف المستنقعات وتنظيم الري وحرث الأرض وتربية المواشي وبناء القرى على تلال اصطناعية. وعندما وصل السومريون إلى هذه المنطقة انصهروا مع سكانها الأوائل وأخذوا حضارتهم وطوروها بفضل العمل الدؤوب والتعاون المشترك بين القادمين والمستوطنين القدامى. يستدل على ما تقدم بالمكتشفات الأثرية التالية:

1 - وجدت مخلفات إنسان العصر الحجري القديم في عدد من نواحي شمال العراق. فقد عثر في بردة بلكه (لواء كركوك) على أدوات وآلات حجرية من النوع الآشولي، يرقى تاريخها إلى ما قبل مائة ألف سنة، استعملها العراقي القديم حين كان يسكن المناطق الجبلية داخل الكهوف وعلى الهضاب وحين كان يعتمد في معيشته على ما يصطاده من حيوان أو يستجمعه من قوت. وقد وجدت في مناطق سكناه أدواته الحجرية التي كان يستعين بها للدفاع عن النفس ولصيد الحيوان وقطع الأشجار. وهي متخذة من الصوان وغيره من صنوف الحجر بهيئة فؤوس يدوية وسكاكين ومقاشط ومثاقب وغير ذلك من الآلات الجارحة[1]. ويليها قدماً آثار هزار مرد (لواء السليمانية) وكهف شانيدار في الزيبار (لواء أربيل) وهي في الغالب من النوع الموستيري بهيئة فؤوس وسكاكين كان يستعملها ذلك الإنسان لصيد الحيوانات وقطع الأخشاب أو للدفاع عن النفس[2]. كما عثر في كهف شانيدار على ثلاثة من الهياكل البشرية لإنسان نياندرتال في الجزء العلوي من المخلفات الموستيرية بواسطة بعثة شانيدار الثالثة. وأصغر هذه البقايا هو شانيدار – 1 – الذي يرجع إلى 46000 عام، وأما الهيكلان الآخران فأقدم منه[3].

وعثر في "بالي كورا" (لواء الموصل) على آلات من العصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) من النوع السلوتري[4].

---

(1) د. بصمه جي، فرج: دليل المتحف العراقي. مطبعة الحكومة – بغداد، 1960، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 54.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 58/5.

(4) د. بصمه. جي، فرج: المصدر السابق، ص 53 – 54.

2 - أما آثار العصر الحجري الحديث (النيوليتي) فوفيرة واضحة منتشرة في أماكن كثيرة من شمال العراق. ففي هذا العصر الذي يبدأ في العراق بالألف السادس قبل الميلاد، انتقل العراقيون القدامى من الصيد وجمع الغذاء إلى تعلم الزراعة فكانت من أهم أسباب تقدمهم، ثم سكنوا البيوت وكانت في بادئ أمرها من الطين والحصران ومنها تشكلت القرى، ثم دجنوا الحيوان وربوا الماشية، وصاروا بذلك منتجين لقوتهم بأيديهم، ورقيت حياتهم الاجتماعية[1].

وكشفت الحفريات التي قامت بها مديرية الآثار العراقية عام 1943 – 1944 في "تل حسونة" على بعد 35 كلم جنوب الموصل عن أقدم قرية سكنها العراقيون الأوائل في هذه المنطقة التي تعود بتاريخها إلى حوالى 4800 سنة ق.م. ففي هذا المكان، حيث كانت كمية الأمطار تكفي لزراعة بدائية، استقر الزرّاع والرعاة الأوائل[2]. وإن الآلات التي خلفوها تكون عدة كاملة لممارسة الزراعة على اختلاف وجوهها: كفؤوس يدوية من الحجر ومعازق من الصوان على بعضها بقايا من القير كانت تستخدم في حرث الأرض وقلبها ومناجل ذات أسنان صوانية ومقابض من الخشب[3]، وآلات لطحن الحبوب أو فركها ومجارش[4]. وخزنوا غلتهم في صوامع أو خواب من الفخار، وبنوا بيوتهم من الطين، وحسنوا صناعة أواني الفخار وصبغوها بالألوان، وعرفوا استعمال السهام والحراب والمقاليع[5]. كما عثر على أدوات بيتية صغيرة بينها سكاكين من الأبسيدين وأدوات من العظم وأقراص مغازل، ودمى طينية بهيئات مختلفة منها ما يمثّل الإلهة الأم ومنها صور آدمية أو حيوانية كانت تستعمل في العبادة والتبرك[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص 7.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 92.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 55.

(4) المصدر نفسه.

(5) لويد، سيبون: الرافدان. ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، بغداد، 1934، ص 34.

(6) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 55.

إن جميع الآثار التي سبق ذكرها هي من شمال العراق ولا نظير لها في جنوبه، وذلك أن الشطر الجنوبي من وادي الرافدين لم يكن صالحاً للسكن. ويرتقي زمن أول معالم الاستيطان فيه إلى حوالى الألف الخامس قبل الميلاد حين نزحت إليه جماعات جاءت من شماله واستقرت في أماكن مختلفة تحول بعضها فيما بعد إلى المدن السومرية الرئيسية كأريدو وأور وأوروك وغيرها.

3 - وفي أواخر العصر الحجري الحديث، حدث تطور ضخم في حياة العراقي القديم، يتمثل باستخدامه المعادن إلى جانب الأحجار. وتسمى هذه المرحلة بالحضارة "الشالكوليتية" أي عصر النحاس - الحجر.

وفي هذا العصر وما بعده، تقدمت الصناعات المختلفة، وأخذ الرافدي يؤسس بداية الحضارة الناضجة، ولا سيما عندما انتقلت موجة الحضارة من الشمال ومن الهضاب المرتفعة الشرقية إلى الجنوب بعد انحسار مياه البحر عنها وجفاف الأهوار، لأن جنوب العراق كان إلى ذلك الوقت مغموراً بالمياه، وإن الغرين والرمال التي يسوقها دجلة والفرات وكارون والكرخا من إيران ترسبت في المصبات فتكونت على مر السنين أرض خصبة واسعة سهلت الزراعة وظهرت عليها مستوطنات عديدة كانت من أهم مراكز حضارة العراق القديم وصارت مدناً عامرة في العهد السومري[1].

وتتميز الحضارة الشالكوليتية بنمو قوى الإنتاج وتنظيم الري وتطور الزراعة وتربية الماشية إلى جانب الصيد. وظهر المنتوج الزائد (الإضافي)، ونشأت علاقات تجارية بين بلاد ما بين النهرين والدول المجاورة. وعلى الصعيد الاجتماعي، تفسخت المشاعية البدائية وظهرت الفروق الاجتماعية وعدم المساواة في الثروة بين أعضاء العشيرة. وحلت الأسرة الأبوية تدريجاً محل الأسرة الأمومية. وتشكلت الطبقات وقامت الحروب بين القبائل أو بين المدن. وحوّل الأسرى إلى عبيد للعمل في اقتصاد النبلاء وفي مشاريع الري. وظهرت لأول مرة في تاريخ العالم المركبات ذات العجلات التي تجرها الحمير، واخترع دولاب الفخار.

(1) المصدر نفسه، ص 9.

وبنيت القرى وظهرت عمارات مدرجة من الآجر أطلق عليها اسم "الزقورات" واخترعت الأختام الأسطوانية وظهرت الكتابة التصويرية وتطورت.

وإلى عصر الشالكوليتيك هذا تعود حضارة العبيد ثم حضارة الوركاء فحضارة جمدة نصر.

حضارة العُبيد: حضارة عراقية متطورة عن غيرها من الحضارات المحلية التي سبقتها في ميزوبوتاميا العليا والسفلى.

سميت حضارة العُبيد بهذا الاسم نسبة إلى موقع تل العُبيد الذي جرت فيه الحفريات ويقع على بعد ستة كيلومترات من غرب أور (لواء الناصرية). وقد اكتشف خرائب العُبيد عام 1919 العالم الأثري البريطاني المستر هول(Hall). وفي سنة 1923 – 1924 قامت بعثة أثرية مشتركة نظمها المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا برئاسة ليونارد وولي بحفريات في هذا التل كشفت عن المساكن الابتدائية التي سكنها أول الوافدين إلى دلتا الفرات. وتعد حضارة العُبيد في الجنوب امتداداً وتطوراً لحضارة تل حسونة في الشمال.

امتازت حضارة العُبيد باستعمال الأدوات الحجرية بصورة رئيسية (فؤوساً وسكاكين وأسنان مناجل وهراوات). وقد عثر في تل العُبيد على فؤوس وصنانير وسكاكين من النحاس المطروق ولكن بكميات قليلة جداً[1]. وكان النحاس يطرق بارداً في أول الأمر إلا أنه سخن بعدئذٍ واستعملت طريقة الصب أيضاً فصنعت منه صنارات لصيد الأسماك ودبابيس وسكاكين وأسلحة[2].

ووجد في هذا التل فخار امتاز بشدة حرقه وصلابته يرقى تاريخه إلى حوالى 4000 سنة قبل الميلاد، صنعت أكثر آنيته بمساعدة دولاب الفخار، وصبغ أكثرها بخطوط عريضة سود تمثل أشكالاً هندسية ونباتية وحيوانية[3].

وكان أناس حضارة العُبيد يعيشون على الصيد والزراعة بواسطة المعزقة وعلى تربية

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 102.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 10.

(3) المصدر نفسه ص9.

المواشي[1] أي أنهم كانوا في مرحلة انتقال من حياة الصيد إلى الزراعة البدائية وتربية الحيوان. وكانوا يسكنون أكواخاً بنيت من القصب المربوط بعضه ببعض والمغطى بطبقة من الطين. وفيما بعد، استعمل الطوب المجفف بالشمس في بناء المنازل[2].

وكان أناس تلك الفترة لا يعرفون التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة. يؤكد ذلك تشابه الأثاث الجنائزي في مقابرهم[3]. وتدعو دمى النساء المصنوعة من الطين التي عثر عليها في الموقع المذكور إلى الافتراض بأن نظام الأمومة في سومر قد استمر حتى النصف الأول من الألف الرابع ق.م[4].

وربما استمرت حضارة العُبيد أربعة قرون. ويعتبر أصحابها الأسلاف المباشرين لأوائل السومريين[5] وبالرغم من التقدم الذي أنجزه أهل العُبيد في المضمار الحضاري، فإنهم لم يعرفوا الكتابة أو التدوين[6].

حضارة الوركاء: تقع مدينة الوركاء (أوروك قديماً) على بعد 30 كلم جنوب شرقي السماوة. نقبت فيها بعثة ألمانية وكشفت عن آثار تعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. وتتميز هذه المرحلة بتقدم واضح في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[7]. فقد تحسنت وسائل الري والصرف، وتطورت الزراعة وتربية الماشية، وارتقى فن البناء واخترعت الأختام الأسطوانية والكتابة التصويرية في أولى مراحلها. وقد أدى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفسخ المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة، يستدل على ذلك من العثور على الأختام الأسطوانية التي إنما اخترعت بغية تحديد الملكية

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 92.

(2) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، 149/1.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 92.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 65/5.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 10.

الشخصية في المنقولات. فقد اكتشف هنا أقدم وأول زقورة بنيت في بلاد الرافدين. والزقورة عمارة مدرجة من الآجر، في أعلاها أقيم معبد طليت جدرانه بطلاء أبيض مما دعا الأثريين الألمان الذين اكتشفوه إلى تسميته بالمعبد الأبيض[1]. وقد وجد في هذا المعبد لوحان صغيران مربعان من الجبس وعليهما طبعات أختام أسطوانية. وكانت هذه الأختام تصنع من أسطوانات من الحجر، تدحرج فوق اللوحة فتترك صورتها مطبوعة عليها. وكان سطح الأسطوانة يحضر بشكل مجوف فعندما يدحرج فوق اللوحة الجصية تظهر الصورة عليها بشكل بارز[2]. ومن المعلوم أن اختراع الأختام الأسطوانية قد سبق الكتابة، وأن الهدف الأساسي منه هو إيجاد طريقة لتثبيت الملكية الشخصية للحاجات المختلفة[3].

وفي مرحلة الوركاء ظهرت المركبات ذات العجلات التي تجرها الحمير. وتقدم البناء تقدماً ملحوظاً ولا سيما المباني العامة كالمعابد - الزقورات. وأصبحت الأواني الفخارية تصنع بكثرة بقصد التجارة. وتطور فن النحت الدقيق. ويعتبر العلماء أن النقوش على الختم الأسطواني هي أهم ما ساهمت فيه بلاد الرافدين في ميدان الفن وأن أثرها الفني انتقل إلى جميع ميادين الفن التزييني عندهم[4]. وقد رسمت على الختم الأسطواني مشاهد تمثل الحياة اليومية وتشير إلى بعض الأساطير والعقائد الدينية[5].

ويعود إلى عصر الوركاء أيضاً نشوء الكتابة التصويرية البدائية التي تبعت اختراع الأختام الأسطوانية. وتعتبر هذه الكتابة المرحلة الأولى من مراحل الكتابة البابلية التي سوف تتطور فيما بعد لتصبح الكتابة المسمارية (الإسفينية). وقد استعملت الكتابة التصويرية في أول الأمر لتسجيل واردات المعابد[6].

---

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 150 - 151.

(2) المصدر نفسه، ص 151.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 61/5.

(4) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 152.

(5) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 66/5.

(6) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 10.

حضارة جمدة نصر: وهي المرحلة الحضارية الأخيرة لعصر ما قبل الأسر. يقع تل جمدة نصر على بعد 24 كيلومتراً شمال شرقي كيش غير بعيد عن الموقع الذي ستقوم عليه فيما بعد مدينة بابل. تحرّى فيه ستيفن لنكدن عن بعثة أميركية وكشف عن حضارة يعود تاريخها إلى 3200 – 3000 ق.م[1].

وتتميز هذه المرحلة الحضارية بتنظيم الري وتطور أكثر في الإنتاج وتقدم الصناعة. وتدل مخلفات تلك الفترة (أسلحة وأدوات بيتية) على انتشار استعمال الأدوات النحاسية بشكل واسع، وعلى بناء المدن (شوروباك وأشنونا وكيش) ووجود علاقات تجارية مع البلدان المجاورة كعيلام وشبه الجزيرة العربية وسوريا. هذا بالإضافة إلى ازدياد استعمال الختوم (المسطحة والأسطوانية) وإتقان الكتابة التصويرية. كما تطور أيضاً فن العمارة وتوسعت المباني والمعابد توسعاً ملحوظاً وزينت واجهاتها بالفسيفساء[2].

وتقدم أيضاً فن النحت وصناعة التماثيل. فقد وجدت كتلة من حجارة البازلت تعود إلى هذا العصر، نحت فيها بشكل بارز منظر من مناظر الصيد يمثل رجلين ملتحيين يصارعان ثلاثة أسود، كما وجد تمثال لخنزير بري وهو يجلس القرفصاء، من الحجر الرخو يدل على مهارة فنية فائقة. وقد حاول الفنان أن يُعير مسألة التوازن اهتمامه البالغ، كما حاول أن يظهر الحيوان بشكله الحقيقي[3].

وفي هذا العصر، استمرت المشاعية البدائية في عملية تفسخها، وتشكلت الطبقات الاجتماعية. وتمثل الأعمال الفنية للنصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، معارك، ومحاربين على عرباتهم وأسرى[4]. وحوّل الأسرى إلى عبيد، واستخدموا للعمل في اقتصاد النبلاء أو في إنشاء مشاريع الري[5].

---

(1) المصدر نفسه، ص 11.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 102؛ د. فرج بصمه جي: المصدر السابق، ص 11.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 153.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 93.

(5) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

إن المؤرخين البورجوازيين أمثال شبايزر(speiser) وباروت(parrot) يربطون التقدم الاقتصادي والثقافي الذي حدث في ميزوبوتاميا بغزو مجموعات جنسية جديدة. وينسبون إلى تلك الفترة غارة السومريين الذين قدموا من الخارج يحملون، حسب زعمهم، الكتابة وفن النحت والأختام الأسطوانية وفن عمارة الصروح[1].

إن هذه النظرية التي تنكر، في مجملها، فكرة التطور التقدمي وتستبدل بها نظرية هجرة الشعب، أقول هذه النظرية نبذها عدد من الأخصائيين الغربيين، وعلى وجه الخصوص الباحثان: فرنكفورت وشيلده اللذان أثبتا وجود استمرارية بين سكان ميزوبوتاميا السفلى الزراعيين الابتدائيين وسومريي النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. ولهذا السبب فإن شيلده يدعو سكان هذه المنطقة القدامى بالأسلاف المباشرين لأوائل السومريين[2].

العصر التاريخي في بلاد ما بين النهرين

قامت في بداية الألف الثالث ق.م دويلات متفرقة في مدن مختلفة من جنوب العراق يحكم في كل منها سلالة مستقلة عن جاراتها. وتطورت الكتابة في ذلك الحين واصبحت ملائمة للتدوين. فأخذ ملوك تلك السلالات وأمراؤها يصفون حروبهم وأعمالهم ويسطرون ذلك على ألواح من الطين أو الحجر وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سماه المؤرخون بالعصر التاريخي. ودعيت بداية هذه الفترة من الحكم في العراق بعصر "دويلات المدن" أو "فجر السلالات"[3].

ويمتد هذا العصر من 3000 - 2350 ق.م وهو من أغنى أدوار العراق من الوجهة الثقافية والحضارية. وقد وجدت معالم هذه الحضارة في أشهر المدن السومرية - الأكادية. وكانت هذه المدن عامرة بمبانيها ومعابدها وأسوارها. وكان لكل منها مزارع عظيمة ترويها مياه

(1) المصدر نفسه، ص 93 - 94.

(2) المصدر نفسه، ص 94.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 12.

الجداول والترع. وكانت المنازعات مستمرة بين هذه الدويلات للسيطرة على المزيد من الأرض[1].

وكان سكان هذه المدن من السومريين ومن شعوب أخرى سكنت جنوبي العراق بظهور أراض جديدة فيه منذ الألف الخامس ق.م. وكوّن هؤلاء حضارة عصور ما قبل التاريخ، تلك الحضارة التي تطورت ونضجت في عصر فجر السلالات[2].

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

الفصل العشرون

سومر وأكاد

بالعمل الدؤوب وبالصراع المثمر لأجيال عديدة مع الطبيعة، حوّل قدماء العراقيين السهل المستنقعي الموبوء في ميزوبوتاميا السفلى إلى أرض صالحة لحياة الإنسان ومنطقة خصبة تعطي المحاصيل الوفيرة.

يمتد العراق الأسفل من الخليج العربي جنوباً إلى الشمال حتى الخط المار بمدينة الحديثة على دجلة حيث تنتهي الأراضي الغرينية المستوية وتبدأ حزون المراعي في شمال العراق. وكان يدعى "سومر وأكاد". وأطلق اسم "أكاد" على الجزء الشمالي منه، واسم "كلم" أو "سومر" أي الأرض أو البلاد على الجزء الجنوبي منه. ولم يكن الحد الفاصل بين أرض أكاد وسومر ثابتاً واضحاً في زمن تفوّق السومريين. ولعل أول ظهور لإسمي سومر وأكاد معاً للدلالة على البلاد كان في عهد ملوك أور الذين وحدوا القسمين وأطلقوا على أنفسهم لقب "ملوك سومر وأكاد"[1].

والمعتقد أن سكان القسم الجنوبي من العراق، كانوا حينذاك خليطاً من شعوب مختلفة أكثرهم من السومريين الذين طغت لغتهم وعقائدهم على بقية سكان المدن والأرياف وأسسوا بعد قليل دولاً حاكمة في المدن الكبرى في جنوب العراق[2].

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 91/5.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 11.

عـاش العراقيـون الأوائـل علـى الصيـد ثم انتقلوا إلى ممارسـة الزراعـة المعزقية وتربية المواشـي، وبنوا بيوتهـم مـن القصـب والطين علـى تلال اصطناعيـة لتحميهم من أخطـار الفيضانات. وكانت وسـائل الإنتاج ملكاً مشـتركاً للعشـيرة، والإنتاج يوزع بالتسـاوي على أعضاء العشـيرة المتسـاوين في الحقوق.

وعندمـا زاد الإنتـاج نتيجـة لتحسـن وسـائل الـري والصـرف ونمـو القوى المنتجة، تفسـخت المشـاعية العشـيرية إلـى أسـر فلاحيـة كبيـرة وصغيـرة، وظهـرت الملكيـة الخاصـة وتشـكلت الطبقـات الاجتماعيـة، وحلـت الأسـرة الأبويـة محـل الأسـرة الأموية، وتأسسـت الدولـة لتثبيت سـلطة الملاّك. وقد انعكسـت هذه التطـورات الاقتصاديـة - الاجتماعيـة على الأسـاطير المتعلقة بالآلهـة، كما أثبتتها أيضاً المكتشـفات الأثرية والأعمـال الفنيـة التـي تعود إلـى الألـف الرابع قبـل الميلاد[1].

إن توحيـد بـلاد الرافديـن وإقامـة دولـة ممركـزة لـم يتـم فـوراً أو دفعـة واحـدة. ففـي مطلـع الألـف الثالـث ق.م، نشـأت فـي العراق الأسـفل بضع عشـرات من دويلات المـدن أمثال: أريدو (أبو شـهرين)، أور (المقيـر)، شـوروباك (فـارا)، لارسـا (سـنكرة)، أومّا (تل جوخه)، لاغاش (شـيربورلا)، كيـش (الأحيمر)، ونيبور (نفـر) السـومرية، وأغـاده (أكاد) وسـيبار وأوبـس وكوتا وبورسـيبا الأكادية.

وكانـت مـدن تلـك الفتـرة عبـارة عن قـرى أو قبائل اتحدت تحـت زعامة رئيـس القبيلة الأقـوى والأكثر عـدداً. وكانـت المدينة تشـمل الأراضـي المزروعة وأقنية الـري والأراضي المخصصة للمراعـي بالإضافة إلى بيـوت السـكن والمعابـد. وكان للمدينـة أسـوار أقيمت مـن حولها. وقد ظلت التشـكيلات الأوليـة لدويلات المـدن تحافـظ علـى التقاليـد العشـائرية - القبليـة. وتدريجاً، أخـذت تقوى سـلطة الدولة والملـوك الذين اعتمـدوا علـى الأشـراف والنبـلاء، ولـم يعـودوا يحسـبون حسـاباً للنـاس البسـطاء، بـل يدعونهـم باسـتمرار للقيـام بجميع الفـروض والواجبـات الممكنة[2].

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 92 - 94؛ د. نعيم، فرح: المصدر السابق، ص 99، 133 - 136.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 101.

وعلى الرغم من أن سكان دويلات المدن السومرية والأكادية لم يكونوا متجانسين في مطلع الألف الثالث ق.م، إلا أنهم مع ذلك كانوا على مستوى متماثل من التطور الاقتصادي، فالسومريون والأكاديون شكلوا دولاً عبودية من المرحلة الأولى[1].

ومن أشهر المدن التي أنشأها السومريون في الجزء الجنوبي من العراق الأسفل: أريدو، وأور، وأوروك، وشوروباك، وأشنونا، ولارسا، وأوما، ولاغاش، ونيبور وكيش. وقد تناوبت دويلات المدن هذه على الحكم متعاصرة أحياناً ومتعاقبة أحياناً أخرى. واقتصرت على حدودها الضيقة في بعض الأحوال... وتوسعت حتى شملت إمبراطورية ضخمة، لكنها غير ثابتة، في أحوال أخرى.

وتشير النصوص إلى قيام حروب عديدة وتنافس شديد بين دويلات المدن السومرية، وخصوصاً بين أور وأوروك وأوما ولاغاش وكيش نتيجة النزاع على توزيع مياه الإرواء والسقي وفي سبيل السيطرة على مزيد من الأرض.

في أول الأمر بلغت مدينة كيش درجة كبيرة من القوة، ولكن في القرن السابع والعشرين ق.م، قام ضدها حاكم مدينة أوروك "جلغامش"، الذي أصبح فيما بعد بطلاً أسطورياً، فأحرز نصراً عظيماً على جيش مدينة كيش، ثم حقق لمدينته مكانة بارزة في البلاد[2].

وفيما بعد، برزت مكانة مدينة أور لفترة وجيزة. ثم في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد برزت مدينة لاغاش. إذ سيطر حاكمها "أيانا توم" بن أكورجال وحفيد اورنانشه على مدن المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين كأور وأوروك، ثم دخل في صراع مع مدينة أوما فدعمتها مدينة كيش. ولكن أياناتوم اعتمد على الفرق الثقيلة المؤلفة من حملة الرماح التي يحميها حملة التروس، فاستطاع أن يحرز النصر على أعدائه وقتل منهم 3600 رجل. وبعد الانتصار في السهل تقدم نحو أسوار أومّا فدكها، وسقطت المدينة تحت بأسه وأعمل السيف بسكانها في إبادة كاملة كالعاصفة المجتاحة[3]. وقد أمر أياناتوم بتخليد انتصاره على

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 94.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 103.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 114/5.

لوحة تعرف باسم "نصب العقبان" الموجودة الآن في المتحف البريطاني إذ رسمت عليها أرض المعركة تتخللها جثث الأعداء تمزقها طيور العقبان الكأسرة. ومن هنا جاءت تسمية اللوحة بـ"نصب العقبان"[1].

وتشير لوحة العقبان إشارة غامضة إلى حرب شنها أياناتوم على كيش وصور حاكمها أسيراً[2]. وعندما حاول ملك أوبس أن يتقدم جنوباً لينتصر لـ"كيش" لقي المصير نفسه أو طرد على الأقل وطورد حتى قضي عليه[3]. وتشير لوحة أخرى إلى انتصار أياناتوم على "أور" و"أوروك" مكملًا بذلك سيطرته على مدن الجنوب.

وكانت نتيجة الصراع مع أومّا والانتصار عليها ووقف أطماع عيلام تأسيس إمبراطورية من العراق الجنوبي تحت زعامة لاغاش... ولكن هذه الإمبراطورية لم تكن ثابتة. فقد كانت تمزقها التناقضات: تناقضات بين المدن وخصوصاً بين أوما ولاغاش، وتناقضات بين النبلاء القدماء (نبلاء الولادة)، الأقوياء بأراضيهم الواسعة وامتيازاتهم في المعابد، والأرستقراطية الجديدة التي أثرت مما أصابته من غنائم الحرب ومغانم الإدارة. وهناك أخيراً التناقضات الطبقية الأساسية بين العبيد والسادة، وبين الناس الفقراء ونبلاء الولادة الذين مارسوا العنف للسيطرة على الأرقاء والزراع الأحرار، مما أثار عليهم استياء المنتجين المباشرين ومقاومتهم[4]. لقد تفاقمت التناقضات واحتدمت الصراعات بين الكتل الاجتماعية في مدينة لاغاش في زمن خلفاء أياناتوم، حيث يحدثنا نقش الملك أوروكا جينا أن سلفه لوغال آندا حاكم لاغاش، تعدى على حقوق المشاعيات لمصلحة "الأقوياء" وحرق "المراسيم القديمة"، وفرض ضرائب غير شرعية لحسابه وحساب الكهنة، وعين المفتشين والموظفين لمباشرة مضاعفتها أحياناً، وشرع الكهنة الذين لم يكتفوا بالضرائب المفروضة يسلبون السكان، فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم ودواجنهم، والأشياء النحاسية، والملابس، وأجود

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 103.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 115/5.

(3) المصدر نفسه، ص 116.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 102.

أشجار البساتين وثمارها، وطلبوا رسوماً باهظة لدفن الموتى[1]. واحتكر لوغال آندا وكبار موظفيه أصواف أجود أنواع الأغنام، وفرضت ضريبة محددة (5 سيكلات من الفضة) على كل رأس من الأنواع الأخرى، كما استحدثت رسوم وضرائب أخرى[2]. وهكذا ازداد الأغنياء (الأقوياء) غنى وتضاعف بؤس الفقراء حين كان القوي ينهب ثمار جهد الضعيف ويغتال حقوقه.

لقد أدت أعمال حكومة لوغال آندا، في مجال السياسة الداخلية، إلى استياء الجماهير الشعبية وقيامها بثورة وصل بنتيجتها إلى السلطة موظف يدعى أوروكاجينا الذي نصب نفسه حاكماً ثم ملكاً[3]. واعتمد أوروكاجينا في صراعه مع أنصار السلالة المعزولة على الفرق الخفيفة من الجنود الفقراء، فتناقص جنود الفرق الثقيلة الذين يجمعون عادة من أبناء الطبقات الغنية إلى الثلث[4]. وألغى بعض الواجبات والضرائب الثقيلة، ومنع المظالم، وزاد حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد[5]. كما ألغى أيضاً وظائف المفتشين في المشاعيات الريفية[6]. ونص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة من الفاكهة[7]. وخفّض رسوم الدفن إلى أقل من النصف[8]. وسن قوانين لحماية الضعيف من طغيان القوي والفقير من أطماع الغني، وقرر أنه لا إكراه في الشراء ولا تهديد[9]. وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقدمه الناس قرباناً للآلهة من أموال

(1) المصدر نفسه، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 103.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 104.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 103.

(7) ديورانت، ول: المصدر السابق، 17/2.

(8) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 124/5.

(9) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أو ماشية[1]. كما عالج أمر السخرة، وأوقف بعض قواعدها الوحشية[2]. وكان مما يباهي به الملك أنه "وهب شعبه الحرية"[3]. وتعد قوانين أوروكاجينا نواة لشريعة حمورابي فيما بعد[4].

وعلى الرغم من أهمية هذه الإصلاحات، فإنها لم تغير أسس النظام العبودي، وظل الأشراف يحتفظون حتى بعد إصلاحات أوروكاجينا بسلطة اقتصادية كبرى لم يجرؤ المصلح المذكور على إلغائها. أما أوضاع العبيد فلم تتغير وظلوا كالسابق مجردين من الحقوق[5]. وواصلت المشاعية المتجاورة تفسخها. وبعد فترة قليلة من الزمن فقدت لاغاش استقلالها، إذ استغل لوغال زاغيزي حاكم أومّا الاضطرابات التي حدثت في دولة لاغاش، فجدد الكفاح ضد أوروكاجينا وغلب جيشه وضم لاغاش إلى دولته وسيطر على جميع بلاد سومر واتخذ أوروك عاصمة لإمبراطوريته التي لم تلبث بعد قليل أن سقطت بأيدي العرب الأكاديين.

الدولة الأكادية تحقق توحيد بلاد ما بين النهرين

نشأتها وتوسعها: ينتمي الأكاديون إلى قبائل السهول العمورية التي استوطنت شمال سوريا ووادي الفرات الأوسط بعد هجرتها من شبه الجزيرة العربية موطنها الأصلي حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، بسبب الجفاف وقلة موارد الرزق.

وكانت جماعات العموريين تنساح من الغرب وخصوصاً من ماري، على الفرات الأوسط، إلى ميزوبوتاميا وتستقر في الجزء الشمالي من السهل الجنوبي (أرض سومر وأكاد)، حيث أنشأوا لهم مستوطنات عديدة، نمت واتسعت على مر الزمن مع ازدياد

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 17/2.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 124/5.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 17/2.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 125/5.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 104.

أعدادهم وتعاظم قوتهم فأصبحت مدناً مزدهرة أعظمها شأناً "أكاد": وإليها نسب الأكاديون.

يختلف الأكاديون عن جيرانهم السومريين من حيث الهيئة واللغة، وقد أنشأوا عدة مدن من بينها بابل وسيبار وكيش (كانت مدينة سومرية ثم خضعت لسلطان الأكاديين) وأوبس وأكشاك وكوتا.. ثم أغاده (أكاد).

تقع مدينة أكاد (أكادو وهي النطق السامي لـ"أغاده" وهو الاسم القديم للمدينة) بين الفرات ودجلة، في المكان الذي يقترب فيه الرافدان أكثر ما يكون. وبالقرب منها، على نهر الفرات، وجدت مدينة سيبار التي أسسها السومريون واشتهرت بمعبد إله الشمس (شماش)، ثم احتلها الساميون ووسعوها. وتقع كيش، إحدى أقدم المدن في بلاد ما بين النهرين، على نهر الفرات إلى الجنوب من سيبار. ومن المدن الأكادية أيضاً كوتا على الفرات شمالي كيش، وأوبس على نهر دجلة وهي مركز مهم.

بين دجلة والفرات في منطقة أكاد، كان يمر طريق القوافل الذي يربط بالغرب طرق شبه الجزيرة العربية وبالشرق الطرق الذاهبة إلى جبال زاغروس موطن القبائل الغوطية واللولبية. ويمكن أن تقدم أكاد بموقعها المتوسط إلى ملكها مزايا كبيرة، إذا استطاع الاستيلاء على الأراضي المحصورة بين سيبار وأوبس. وهذا ما تحقق على يد سارغون حوالى عام 2350 ق.م.

ولسنا نعلم بالتحقيق كيف وصل سارغون إلى الحكم. إذ من الصعب جداً استخلاص الحقيقة التاريخية من الأساطير التي أوحى بها، شأنه في ذلك شأن العديد من الفاتحين الآخرين في العصور القديمة. فأسطورة تمثله كأنما جاء إلى العالم سراً... من أم فقيرة من مدينة "أزوبيرانو" على الفرات، حملت به من أب مجهول، وكان له خال من سكان الجبال. وعند مولده أودع سلة من القصب دهنت بالقار وألقي بها في الفرات فانتشلها فلاح يدعى أكي (Akki) رباه كإبن له... ولما بلغ أشده أحبته الإلهة عشتار فجعلت منه ملكاً[1]. وجاء في أسطورة أخرى أنه نشأ بستانياً ثم أصبح ساقياً للملك "أور - زبابا" (ثاني ملوك أسرة كيش

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 133/5؛ د. فرج بصمه جي: المصدر السابق، ص 17.

الرابعة) وأنه ثار ضد مولاه واستطاع أن يخلعه ويعتلي العرش من بعده[1]. وأياً كان الأمر فهو لا ينحدر من سلالة الحكام الأكاديين.

أسس سارغون - شاروكين[2] أسرة حاكمة جديدة حققت لأول مرة توحيد بلاد ما بين النهرين وإنشاء الإمبراطورية الأكادية 2350 – 2150 ق.م.

وعندما أصبح سارغون ملكاً، اعتمد في حكمه على الجيش. فأنشأ جيشاً دائماً من 5400 محارب محترفٍ. وعلى حين كانت كتائب المعابد السومرية تتألف من جنود مسلحين بأسلحة ثقيلة (كما تشاهد في نصب العقبان) من فؤوس ورماح طويلة، يختبئون خلف دروع طويلة ويقاتلون بصفوف متراصة ويضربون العدو برماحهم الطويلة، فقد سلح سارغون جنوده بالقوس والنشاب. وأصبح رماة السهام يحتلون مركزاً مهماً في الجيش الأكادي الجديد[3]. واستعاض سارغون عن الرماح الثقيلة برماح صغيرة يسهل قذفها في وجه العدو والابتعاد بسرعة[4]. وقد أتاح إدخال السلاح الخفيف عدداً من المزايا التكتيكية والقتالية للجيش الأكادي فأصبح أسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري. وكان معظم جنود الجيش السارغوني من الناس الذين انتزعت أراضيهم ووجدوا أنفسهم في وضع يضطرهم الى العمل في خدمة الملك في مقابل أجرهم[5].

في هذه الحقبة التاريخية، كانت ظروف توحيد البلاد ومركزة السلطة قد نضجت. فبدون الوحدة، فإن الاقتصاد القائم على الري لا يمكنه أن يتطور، وبالتالي فإن تنفيذ مشاريع ري كبرى وتنظيم فيضانات الفرات ودجلة وتخزين مياه الفيضان لري الأراضي الزراعية في وقت الجفاف وتحقيق منتوج فائض أكبر يكون متعذراً، وكانت حدود دويلات المدن تشكل عائقاً أمام التجارة. وكان لكل دويلة وحدة قياس تختلف عما تستعمله الأخرى. وأخيراً فإن

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) يعني اسم شاروكين الملك الصادق أو الشرعي أو الثابت.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 104.

(4) د. الصفدي، هشام: محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دمشق، 1966 - 1967، ص 80.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 104.

ازدياد عدد العبيد المسوقين من البلاد المفتوحة كان يفرض قيام تنظيم سياسي قوي للسيطرة على جماهير العبيد وإخضاعهم[1].

بدأ سارغون بتوحيد البلاد، وقاد النضال ضد المحتلين السومريين. فأصبح ملكاً على كيش وأسس عاصمة جديدة وهي مدينة "أكاد" لتكون مركزاً لإقامته ومقراً لحكمه. وراح يجهز الجيوش للقضاء على السومريين. وقام بعدة حملات عسكرية مظفرة في الجنوب وانتصر في نهاية المطاف على لوغال زاغيزي. واحتل الوركاء (أوروك) وأور ولاغاش ووصل إلى شاطئ البحر أي إلى الخليج العربي، وأصبحت سومر تحت سلطة الأكاديين. ثم فتح عيلام ومنطقة الخليج[2]. وهكذا استطاع سارغون لأول مرة إنشاء مملكة موحدة تشمل جميع بلاد ما بين النهرين.

مارس سارغون سياسة خارجية نشيطة، إذ قام بحملات إلى البلاد الجبلية المجاورة الغنية بالمواد الخام كالمعادن والحجارة وخشب البناء[3]. وتشير لوحة الفأل إلى توسع سارغون غرباً في بلاد العموريين (سوريا)، فأخضع مدينة ماري العمورية على الفرات الأوسط. ومن هناك عبر إلى سوريا ثم إلى الجبال الفضية (جبال طوروس). وكان امتداد نفوذ سارغون إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط يحمل معنى التوسع وليس مجرد غارات خاطفة. وفتح عيلام ومنطقة الخليج وشكل من أرض الرافدين والبلدان الأخرى التي فتحها إمبراطورية مترامية الأطراف عاصمتها مدينة أكاد[4].

وعلى صعيد السياسة الداخلية، وضع سارغون نظاماً موحداً للمقاييس والأوزان مما أدى إلى تنشيط العلاقات التجارية داخل البلاد. وتشير مجموعة من اللوحات عثر عليها في "تللو" إلى تبادل البضائع والمنتجات بين مختلف مدن الإمبراطورية الأكادية وخصوصاً بين أكاد ولاغاش. فقطعان الثيران والماشية ومنتجات الحليب كانت ترسل من مدينة

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 17.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 106.

(4) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 17.

لاغاش إلى مدينة أكاد مقابل الحبوب والبلح والمنسوجات[1]. وشرع سارغون في تنفيذ شبكة واسعة من أعمال الري. فحفر قناة واسعة لوصل دجلة بالفرات، وأعاد بناء مدينة كيش وأصلح قصور أكاد، وشيد العديد من المعابد[2]. واصطنع تقويماً موحداً بدلًا من التقاويم المختلفة للمدن[3]. وأخذت الكتابة الأكادية السامية تسود منذ عصره في تسجيل الوثائق التجارية والمكاتبات الرسمية[4].

بلغت الإمبراطورية الأكادية أوج اتساعها وقمة ازدهارها في زمن نارام سين 2507 – 2452 ق.م، حفيد سارغون، الذي عرف بأنه أبرز أفراد الأسرة الأكادية بعد سارغون من ناحية توسعه الخارجي. وكان على نارام سين أن يحافظ على أجزاء إمبراطوريته المترامية الأطراف بالقوة ضد كل الثورات والفتن. وبذلك ترتب عليه أن يحارب في كل مقاطعة على حدة لإخضاع أهلها.

قام نارام سين بحملات ناجحة على بلاد عيلام، وصد القبائل اللولبية في جبال زاغروس. وخلد انتصاراته على "لوحة النصر" التي أمر بنقشها وأطلق عليها اسم "نصب نارام سين". وقد عثر على اللوحة العالم الأثري الفرنسيّ "دو مورغان" عام 1897 م. في سوزا عاصمة عيلام. وهي اليوم من كنوز متحف اللوفر في باريس. ولهذه اللوحة أهميتها الفنية والتاريخية. فقد مثل بها الملك وهو يهزم أصحاب البلاد الجبلية (القبائل اللولبية) وظهر في حجم أكبر بكثير من حجمه الطبيعي، وعلى رأسه خوذة لها قرون من النوع الذي كان يرتديه الآلهة، ويحمل بيده بلطة القتال وقوساً وسهماً. وعلى سفح الجبل وعلى ممرات بين الأشجار التي تغطيه يتسلق أنصار الملك وجنوده من خلفه يحملون الألوية والأسلحة في أيديهم... وتظهر جثث بعض القتلى من أعداء نارام سين تحت قدميه وقد اخترقت حناجرها سهامه، كما يظهر جندي من اللولبيين وهو يمد يده إليه ضارعاً وطالباً الرحمة والإبقاء على حياته. وتطل على

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 136/5.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 104 – 105.

(3) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 138/5.

(4) المصدر نفسه، ص 146/5.

هـذا المنظـر مـن خلفـه جبـال زاغـروس[1]. كما توسـع شـمالًا ووصل إلـى هضـاب أرمينيا. أما فـي الجنوب فقـد وصـل بحملاتـه إلـي ماغـان[2]. (موطـن حجـارة الديوريـت) وميلوخـا[3] فـي الجزيـرة العربيـة. وغـزا آسـيا الصغـرى واسـتطاع أن يؤكـد سـلطانه علـى سـوريا الشـمالية. واتخذ نارام سـين بعد هـذه الانتصارات والفتوحـات لقـب "ملـك الأنحـاء الأربعـة" (شـار كبـرات أربعيـم: سـومر، أكاد، سـوبارتو، عمـورو) و"ملـك العالم" (شـار كبشـاتيم) [4].

انهيـار الدولـة الأكاديـة: إن زيـادة الأعبـاء، وحيازة أراضي المشـاعيين، وحـروب الفتح المنهكـة، أثارت اسـتياء الشـعب. وتتحـدث المصـادر عـن قيـام انتفاضتيـن فـي نهايـة حكـم سـارغون[5]. كمـا حـدث تمـرد آخـر فـي عهـد نـارام سـين تزعمـه النبـلاء[6]. وإذا كان نـارام سـين قـد تمكـن مـن إخمـاد الاضطرابـات في حكمـه، فـإن خلفـاءه لـم ينجحـوا فـي الحفـاظ علـى وحـدة "مملكـة الأنحـاء الأربعـة"[7] التـي وجـدت نفسـها تسـير فـي طريـق التفـكك والانهيـار بسـبب الاضطرابـات السياسـية الداخليـة والتهديـد الخارجـي. ففـي حوالـى عـام 2150 ق.م سـقطت الدولـة الأكاديـة علـى يـد محاربيـن جبلييـن أتـوا مـن الشـرق، مـن جبـال زاغـروس، هـم الغوتيون (تنانيـن الجبال كما سـماهم الميزوبوتاميـون). لقد سـحق الغوتيون مملكة أكاد، واجتاحـوا مدنهـا (وخصوصـاً مـدن الشـمال)، وفرضـوا علـى السـكان جزية ثقيلـة[8]. وتسـمى ملوكهم باسـم "ملـوك الغوتييـن وأطـراف المعمـورة الأربعـة"[9]. أمـا مـدن الجنـوب السـومرية فقـد كان تأثيـر

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، 155/1.

(2) عُمان الحالية.

(3) جنوب الجزيرة العربية.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 146/5.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 105.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(8) المصدر نفسه.

(9) د. الصفدي، هشام: المصدر السابق، ص 86.

الغـزو الغوتـي فيهـا أقـل وطـأة منه فـي الشـمال. إذ اكتفـى الغوتيـون بالجزيـة يتسـلمونها تاركين تسـيير دفـة الأمـور للحـكام المحليين[1].

اتخـذ الغوتيـون أرانجـا، مـكان كركـوك الحاليـة، في الشـمال مركـزاً لحكمهـم[2]. وأثناء وجـود الغوتيين فـي العـراق، اقتبسـوا أصـول الحضارة السـومرية - الأكاديـة، وتكلموا اللغـة الأكادية وكتبوا بهـا أخبارهم[3]. وقـد ذكـر ثبـت الملـوك واحداً وعشـرين ملكاً غوتيـاً حكموا جميعاً 91 سـنة، اشـتهر منهم "لازيـراب" وكان آخرهـم "تريقـان" الـذي فـي زمنـه اسـتقل أمير أوروك السـومري المدعـو "أتوخيفـال" وضم إليـه كثيراً من المـدن السـومرية، ثـم حـارب تريقان وتغلـب عليه وطـرد الغوتيين من العـراق[4].

الازدهـار الثانـي لمدينـة لاغـاش فـي ظـل الأسـرة الثانيـة: رزحـت بـلاد مـا بيـن النهريـن تحـت حكـم الغوتييـن قرابـة قـرن مـن الزمـان 2150 - 2061 ق.م. وقـد عاصـرت الأسـرة الثانيـة فـي لاغـاش أخريـات الاحتـلال الغوتـي لبـلاد الرافديـن، واسـتطاعت أن تصـون الحضـارة مـن الانهيـار. وكان أبـرز حكامهـا غوديا الـذي حكـم مدينـة لاغـاش فـي النصـف الثانـي من القـرن الثانـي والعشـرين ق.م. تحـت سـيادة الغوتيين وتميـز عصرهـا بازدهـار حضـاري لمدينة لاغـاش تمثل بامتداد نشـاطها التجاري إلى سـوريا وعيلام وجنوب شـرقي شـبه الجزيـرة العربية التـي وردت لمدينة لاغاش الأخشـاب: الأحجـار الصلبة والـلازورد والنحاس[5]. واسـتقدم الفنيـون الصناعيـون مـن عيلام وسـوزا لاسـتخدامهم في إعادة بنـاء المعبد الكبيـر (إي-نيننو) [6]. وقـد انتقلـت إلينـا من عصـره أكمل نماذج الأدب السـومري وأطولها والاسـطوانات المعروفة بـ"اسـطوانات غوديـا المكتوبة"[7].

---

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 149/5.

(2) المصدر نفسه؛ ود. فرج بصمه جي: المصدر السابق، ص 19.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 19.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 153/5 - 154.

(6) المصدر نفسه، ص 154.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعلى أية حال فإن حكم غوديا يمثل مرحلة من إنعاش الحيوية السومرية كأثر لانهيار النفوذ والقوة الأكادية السامية في الشمال. وفي الوقت نفسه الذي ظل فيه حاكم مدينة لاغاش مخلصاً للغوتيين ونال منهم دعماً وامتيازات، فإن بعض المدن الأخرى الخاضعة للغوتيين أبدت مقاومة للمحتلين. وقد تزعم النضال ضد الغوتيين في نهاية القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد مدينتا أور وأوروك[1].

الانبعاث السومري وسيادة أور في ظل سلالتها الثالثة 2118 – 2007 ق.م: أعاد ملوك أور توحيد بلاد ما بين النهرين تحت سلطتهم، وأطلقوا على أنفسهم لقب "ملوك سومر وأكاد"، وفيما بعد "ملوك الأنحاء الأربعة" وذلك بعد أن تم لهم إخضاع الوركاء ولاغاش ولارسا ونيبور وجانب من أكاد[2]. واشتهر من ملوك هذه السلالة: أورنامو وشولجي(shoulgi). فقد أخضع أورنامو بلاد سومر وقسماً من أكاد، وقام بحفر القنوات بقصد التقدم الزراعي وتيسير سبل المواصلات النهرية، وأعاد بناء معبد نانار، إله القمر، وزقورته، وعمل على جمع القوانين السابقة وتطويرها ومن ثم إصدارها باللغة السومرية. ولهذا الملك تماثيل من النحاس تمثله واقفاً وعلى رأسه سلة فيها التراب ليضع الحجر الأساسي للمباني التي شيدها[3].

خلف غوديا شولجي ابنه الذي حكم حوالى خمسين سنة، نجح خلالها في إخضاع بلاد آشور (على الوادي الأوسط لدجلة)، وأحرز عدة انتصارات على عيلام وأرغمها على وضع مواردها من المحاجر والمناجم والغابات تحت رحمة أطماعه[4]. كما قام بحملات عديدة من الغرب على سوريا[5]. وله كذلك تماثيل عديدة من النحاس. ووجد له في أور مرقد ضخم مبني بالآجر يتكون من عدة أقبية[6].

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 107.

(2) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 163/5.

(3) د. بصمه جي، فرج، المصدر السابق، ص 21.

(4) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 168/5.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 108.

(6) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 21.

وفي عهد سلالة أور الثالثة، واصلت الزراعة المروية والحرفة تطورهما، فتعززت الملكية الخاصة، وأخذت الأدوات البرونزية تحل محل الأدوات الحجرية والنحاسية السابقة. وتطور الربا نتيجة نمو الإنتاج البضاعي. وأدى توطد الاقتصاد الملكي والملكية العقارية للملك إلى المركزة السياسية للبلاد. فأُلّه شولجي وابنه من بعده. وتفاقمت التناقضات الاجتماعية والسياسية، وازدادت الفروق في الثروة بين الناس. ونمت عبودية الدين. وأخذ الفقراء يفقدون حريتهم جماعات ووحداناً، والآباء يبيعون أولادهم أو يقدمونهم رهينة في مقابل الديون[1].

ولكن التوسع غير المحدود للاقتصاد الملكي، وخراب جمهور غفير من المشاعيين، وتحول الشغيلة الأحرار إلى "غوروشي" محرومين من جميع الحقوق، وتطور الربا وعبودية الدين، قد أفضت في نهاية المطاف إلى حالة اجتماعية تفاقمت فيها التناقضات وتوترت العلاقات بين طبقات المجتمع مما أضعف الدولة ومهد لسقوطها لاحقاً.

وعلى الصعيد الخارجي، تعرضت مملكة أور لهجوم القبائل العمورية السامية الغربية القادمة من طريق ماري (تل الحريري) على الفرات الأوسط. واستقلت بلاد آشور وكانت الضربة القاضية من العيلاميين. إذ زحفوا بجيوشهم الجرارة إلى أور في أواخر الألف الثالث ق.م. وفتحوها وخربوها تخريباً كاملاً وأسروا ملكها[2].

وبسقوط سلالة أور الثالثة تنتهي إلى الأبد سلطة السومريين السياسية وقد أطلق بعض المؤرخين على فترة حكم تلك السلالة اسم "عصر الانبعاث السومري" وذلك لما شهدته بلاد الرافدين من ازدهار اقتصادي ونهضة فنية وأدبية[3].

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 106 - 107؛ و د. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 108.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 21 - 22.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 108.

الفصل الواحد والعشرون

الدولة البابلية القديمة

نشأتها وتوسعها

بعد سقوط سلالة أور الثالثة: استقر العموريون (الساميون الغربيون) في ميزوبوتاميا وأنشأوا دويلات عديدة برزت من بينها مملكتان قويتان هما: ايسن ولارسا.

أسس أسرة ايسن "اشبي ايرا" وحكمت حوالى 225 عاماً. واشتهر "لبيت عشتار" آخر أفرادها بوضع شريعة عرفت باسمه وسبقت قوانين حمورابي بقرن ونصف قرن. أما مؤسس أسرة لارسا فهو "نابلانو" وحكمت 260 عاماً. واصطنع حكام هاتين الدولتين لقب "ملك سومر وأكاد" واتخذوا الصفات الإلهية. وقد نشب صراع بين هذه الدول من أجل السيادة على ميزوبوتاميا السفلى والوسطى. ولكن أياً منها لم ينجح في تحقيق أهدافه. وأخيراً تنهض بابل التي سيقيض لها في المستقبل أن توحد بلاد الرافدين وأن تكون موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي خالقة علم الفلك، وكان لها فضل كبير على تقدم الطب، وأنشأت علم اللغة، وأعدت أول كتب القانون الكبرى، وعلمت اليونان مبادئ الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم[1].

نشأت بابل (باب ايلو أي بوابة الإله) كمدينة في أخريات عصر فجر السلالات. وحتى

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 187/2.

القرن التاسع عشر ق.م لم تلعب بابل دوراً سياسياً مستقلاً ولم يكن لها وزن كبير. ولكن فيما بعد نمت قوتها الاقتصادية والسياسية على حساب انحطاط وتدهور المدن المجاورة بسبب منازعاتها مع بعضها أو لانشغالها في صد أطماع الآشوريين التوسعية من الشمال والعيلاميين من الشرق. وتزايد عدد سكانها نتيجة تدفق العموريين القادمين من الغرب من (سوريا).

تقع بابل على ضفة الفرات اليسرى في منطقة اقتراب الرافدين وعلى رأس السهل الفيضي الذي تتخلله شبكة من القنوات وهي بهذا بمنأى عن هجمات قبائل الصحراء المفاجئة. ويزيد في أهمية هذا الموقع الجغرافي قيامها عند تقاطع الطرق التجارية في الشرق الأوسط فهي على الطريق إلى شمال سوريا وإلى البحر الأبيض المتوسط وإلى مصر، وهي على الطريق كذلك إلى كبادوسيا عن طريق بوابات كيليكيا في جبال طوروس، وهي أيضاً على الطريق التجاري الذي يتجه إلى الشرق عن طريق بوابات زاغروس. وهكذا كان موقع بابل في مركز التجارة العالمية إذ ذاك، وعلى الطريق المباشر لأي غزو يستهدف السهول الجنوبية في الوقت نفسه[1].

لقد أفاد ملوك بابل من مزايا موقع مدينتهم الممتاز واستوعبوا جميع المنجزات الحضارية التي تحققت في بلاد ما بين النهرين في سابق عصرهم. فتحولت بابل من مدينة صغيرة ليست ذات شأن، إلى مركز كبير تجاري وسياسي وثقافي، وتمكنت من أن تحافظ على دورها القيادي حتى العصر الهيللنيستي على الرغم من جميع الكوارث والمحن التي أصابتها.

أسس سومو - آبو العموري الدولة البابلية في مطلع القرن التاسع عشر ق.م، وبدأ بحركة توحيد بلاد ما بين النهرين، وواصل خلفاؤه طريق الكفاح من بعده ولم تتحقق وحدة البلاد إلا في عهد الملك حمورابي العظيم (أمور أبي وتعني أبا العموريين).

تولى حمورابي (1793 - 1750 ق.م) عرش بابل في ظروف قاسية. فالعيلاميون يهددونها من الشرق، والأسر الأخرى لم يقض على نفوذها. وكان حمورابي سياسياً محنكاً. عمل على

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 190/5.

تقوية جيشه وتدريبه، وعقد تحالفاً مع دولة ماري لتأمين حدوده الشمالية. ثم هاجم مدينتي أوروك وإبس وانتزعهما من سلطة ملك لارسا العيلامي. وبعد قتال عنيف مع العيلاميين، استولى حمورابي على مدينة لارسا ولاحق فلول العيلاميين حتى حدود بلادهم، ووحد الجنوب بأكمله.

وخلال كفاح حمورابي ضد العيلاميين، لم ينجده حليفه زيمريليم ملك ماري وذلك خشية أن تصبح بابل دولة قوية جداً. فبعد طرد العيلاميين من جنوب البلاد، قطع علاقاته مع ماري ثم هاجمها واحتلها ودمر القصر الملكي فيها[1]. ثم واصل تقدمه في الشمال وأخضع مملكة آشور الصغيرة. وهكذا استطاع حمورابي خلال عشر سنوات أن يوحد بلاد ما بين النهرين مع قسم من سوريا (أراضي ماري) في دولة مركزية واحدة عاصمتها مدينة بابل[2].

وكانت تلك الوحدة حدثاً هاماً تغنى به شعراء العصر وكتابه ومجّدوا حمورابي البطل وبابل الباسلة[3]. وبعد ذلك تفرغ حمورابي لتنظيم الإدارة والاقتصاد والمجتمع. وكانت دولة حمورابي استبدادية ممركزة على غرار الدولة المصرية التي تشكلت في نهاية الألف الرابع ق.م. وأنشئت أيديولوجيا جديدة لتبرير الدولة الاستبدادية، فأصبح مردوخ الإله الأعظم بعد أن كان في السابق إله مدينة بابل.

سقوط الإمبراطورية البابلية: اضطربت أوضاع الإمبراطورية، وضعفت السلطة المركزية في عهد خلفاء حمورابي، وتعرض النظام الاجتماعي لأزمات نتيجة التناقضات بين الأحرار والعبيد، والخلافات القائمة بين مختلف فئات الأحرار.

وفي هذه الفترة التاريخية، هاجم الدولة البابلية ساميو مناطق سومر البحرية، وحثيو الأناضول، وكاشيو زاغروس، فقد استولت القبائل البحرية السامية، المقيمة حول الخليج العربي، بمساعدة بقايا السومريين على جنوب الإمبراطورية وشكلت دولة القطر البحري المستقلة في شمال الخليج. وأسس زعيمهم "ايلوما" أسرة حاكمة عرفت بسلالة بابل

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 110؛ د. نعيم فرح: المصدر السابق، ص 110.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 110.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الثانية[1]. وانحدر الحثيون من الأناضول وغزوا بابل من ناحية الشمال الغربي واجتاحوها واحتلوها فترة من الزمن ثم عادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم والكنوز[2]. وأخيراً هاجمها مربّو الخيل الكاشيون الذين كانوا يعيشون في جبال زاغروس الوسطى إلى الشمال من عيلام بقيادة زعيمهم "غنداش" فاحتلوا وسط الإمبراطورية وشمالها، واتخذوا بابل عاصمة لهم[3].

أنشأ غنداش أسرة حاكمة[4] في بابل، وأخضع خلفاؤه الجزء الجنوبي من العراق[5]. وهكذا سيطر الكاشيون على معظم بلاد الرافدين، معتمدين على كتابتهم الخاصة، وعلى حلفاء لهم من بين كهنة بابل، وخصوصاً كهنة المدينة المقدسة نيبور[6]، ودامت سيطرتهم إلى حوالى عام 1165 ق.م.[7].

أطلق الملوك الكاشيون على أنفسهم ألقاب الملك حمورابي (ملك بابل، ملك سومر وأكاد، ملك الأنحاء الأربعة)[8]. ومن أشهرهم "غنداش"، وآغوم الثاني الذي أعاد تمثالي الإله مردوخ وزوجته الإلهة سربانيت من بلاد الحثيين، كما مد نفوذه إلى بلاد آشور وبلاد الغوتيين[9].

---

(1) حكمت بابل عشر أسر أو سلالات منها: سلالة بابل الأولى وعدد ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا نحو 300 سنة (1830 - 1530 ق.م) منهم حمورابي الملك السادس. وتسمى سلالة القطر البحري الأولى أيضاً بسلالة بابل الثانية وعدد ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا 368 سنة في بداية القرن الثامن عشر ق.م. / د. بصمة جي، فرج: المصدر السابق، ص 178.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 207/5 – 208.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق.

(4) يقال للسلالة الكاشية أيضاً سلالة بابل الثالثة، وعدد ملوكها 36 ملكاً حكموا زهاء 576 سنة إلا أن حكمهم في جنوبي العراق دام 370 سنة (1530 - 1165 ق.م). د. بصمة جي، فرج: المصدر السابق، ص 179 – 180.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 122.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه.

(8) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 111.

(9) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ويمكن تقسيم العهد الكاشي في بلاد ما بين النهرين إلى فترتين. ففي إبان الفترة الأولى التي تمتد إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واجهت البلاد تخريباً هائلاً وأضراراً اقتصادية بالغة. فشرعت الحكومة في تنفيذ أعمال كبرى لإصلاح شبكة الري، وإعادة بناء السدود وتنظيم تخزين المياه[1]. وفي نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تبدأ الفترة الثانية وفي خلالها تطورت الحياة الاقتصادية تطوراً كبيراً[2].

لقد عاش الكاشيون في أول الأمر على شكل عشائر، ثم انتقلوا بصورة سريعة إلى مزاولة الزراعة المستقرة بعد استيلائهم على أراضٍ واسعة أخليت من سكانها بسبب الغارات والحروب والحرائق والتخريب. واقتبسوا من البابليين طرائق الزراعة، بل تبنوا معظم التقاليد الحضارية السائدة سابقاً في بلاد ما بين النهرين، إذ عبدوا آلهتها إلى جانب آلهتهم، وتعلموا وكتبوا بلغتها، وبنوا المعابد والزقورات على الطراز السائد، وعاشوا بصورة عامة في بابل كما لو كانوا بابليين منذ البداية[3].

وفي المقابل فقد أدخل الكاشيون إلى بلاد ما بين النهرين تربية الخيول، واستخدموها في جر العربات الحربية ومركبات النقل، واستعملوا الحجارة المنقوشة (الكودورو - لوحات الحدود) لتعيين حدود الأراضي الزراعية الخاصة بكل شخص[4].

واعتباراً من أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تطور الاقتصاد، وأقيمت علاقات تجارية منتظمة مع مصر وغيرها من البلدان، وأصلحت طرق القوافل، واتخذت التدابير لتأمين سلامتها من اللصوص وقطاع الطرق[5] وفي الوقت نفسه، أعيد العمل في بناء المعابد[6].

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 122.

(2) المصدر نفسه.

(3) د فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 112.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 122.

(6) المصدر نفسه.

وعلى الصعيد الاجتماعي، تفسخت المشاعيات الكاشية، وتعززت الملكية الخاصة كما يشهد على ذلك الكودورو - لوحات الحدود، وأمعن المرابون في نهب السكان دون رحمة[1]. وتصاعد استياء الفقراء والمحرومين. ففي عام 1345 ق.م، ثار الناس البسطاء من الكاشيين على الملك كرانيراش وقتلوه وعينوا مكانه رجلاً من أصل غامض[2]. وعندما لم يتمكن كبار الموظفين والكهنة من القضاء على المتمردين بوسائلهم الخاصة، طلبوا مساعدة ملك الآشوريين الذي أغرق الثورة في بحر من الدماء، وأعاد تثبيت الأسرة الكاشية[3]. لقد أضعفت هذه التناقضات الداخلية السلطة الملكية.

ففي منتصف القرن الثالث عشر ق.م، غزا الآشوريون بقيادة "توكولتي نينورتا" الإمبراطورية الكاشية، وسحقوا جيوشها، واجتاحوا بلاد بابل وسلبوا العاصمة. وعين توكولتي حاكماً من قبله على بابل[4]. ولكن البابليين استعادوا استقلالهم بعد قليل مستفيدين من الفتنة التي نشبت في آشور وقتل فيها الملك وبدأ عهد اضطرابات وانحطاط وركود[5].

وحوالى أواسط القرن الثاني عشر ق.م، تعرضت بلاد بابل لغزو العيلاميين. ففي عام 1165 هجم الملك العيلامي "شوترك ناخونتي" على بابل، وسقطت الإمبراطورية المخرّبة المنهكة تحت ضربات العيلاميين، وذبح الغزاة ملكها "زباباشوم ادن" وفتحوا المدن وخربوها ونهبوها وعادوا إلى عيلام محملين بالأسلاب والغنائم. وتذكر النصوص أن "شوترك ناخونتي" عاد إلى بلاده، وهو يزهو بأنه استولى على أكثر من 800 قرية وبأنه حمل من أشنونا تمثال "ايشاج" المدينة وتمثال "مانشتوسو" كما حمل من سيبار "لوحة نصر نارام سين" و"نصب شريعة حمورابي" وبالقرب من كيش مسلة "مانشتوسو" وتمثالين للملك ثم

(1) المصدر نفسه، ص 123.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 33.

لوحة "مليشباك"، ثم منح بابل ابنه "كوثير ناخونتي" الذي صحبه في حملته[1]. ويبدو أن الحكم العيلامي في بلاد بابل لم يعمر طويلاً. فقد تمكن "باشي" أحد أمراء مدينة ايسن من الاستئثار بالسلطة في بابل وتأسيس الأسرة البابلية الرابعة[2] التي طردت العيلاميين ووحدت أكثر المدن تحت إمرتها[3]. ومنذ ذلك الوقت إلى سقوط الإمبراطورية الآشورية مرت بابل بفترة طويلة من الانحطاط السياسي[4].

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 223/5.

(2) تسمى سلالة باشي أيضاً سلالة بابل الرابعة وعدد ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا زهاء 132 سنة (د. بصمة جي، فرج: المصدر السابق، ص 180). وقد تعاقب الملوك والأمراء الذين كانوا ينتمون إلى سلالات مختلفة على حكم بابل تارة تحت نفوذ ملوك آشور وتارة أخرى شبه مستقلين.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 30.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 123.

الفصل الثاني والعشرون

الآشوريون

الآشوريون من الأقوام العربية السامية، قدموا من سوريا إلى شمال العراق واستقروا في منطقة حوض دجلة الأوسط حوالى سنة 3000 ق.م. وتتصف هذه المنطقة بطابعها الجبلي وكثرة وديانها النهرية ونمو الغابات وأشجار الفاكهة والمراعي الطبيعية. وهي غنية بأحجارها ومعادنها، خصبة في غلالها وثمرها.

وتشكل جبال كردستان من الشمال وزاغروس من الشرق حدودها الطبيعية. أما من الجنوب والغرب فالحدود مفتوحة نحو بلاد الهلال الخصيب. وقد أثر الطابع الجبلي لهذه المنطقة في اقتصاد آشور وتاريخها الاجتماعي والسياسي.

وقد عثر علماء الآثار في هذه المنطقة على مخلفات إنسان العصر الحجري القديم كأدوات الصيد وقطع الأشجار وغيرها من الآلات الجارحة يرقى تاريخها إلى ما قبل مائة ألف سنة. كما عثروا على ثلاثة من الهياكل البشرية لإنسان "نياندرتال" يرجع تاريخ أصغرها إلى 46000 عام. وفي العصر الحجري الحديث، نشأت في المنطقة ذاتها الحضارات الأولى في بلاد الرافدين كحضارة تل حسونة، وحضارة تل جرمو، وحضارة تل حلف التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، ويرجح أنه نزحت من هذه المنطقة جماعات من سكانها إلى جنوبي العراق عندما تراجعت مياه البحر وأصبح السهل الغريني الخصيب صالحاً لحياة

الإنسان. وقد أطلق بعض المؤرخين على هذه الجماعات التي رحلت من الشمال إلى الجنوب اسم "أسلاف السومريين".

إذن لم يحل الآشوريون في أرض خالية ليس فيها بذور حضارية، بل سبقهم إلى سكن هذه البقاع أقوام أخرى عرفنا منهم السوبارتو (السوباريون)، وليس السومريون إلا فريقاً ينتمي إلى الأصل نفسه الذي ينتمي إليه السوباريون، وكانوا يعيشون في الشمال مع السوباريين قبل ارتحالهم إلى الجنوب واستقرارهم فيه.

عاش الآشوريون في منطة حوض "دجلة الأوسط" خلال الألف الثالث ق.م. على شكل مشاعيات جبلية، تعتمد في حياتها على الصيد وتربية المواشي والزراعة[1]. وأنشأوا عدداً من المدن كان أكبرها "آشور".

تقع مدينة آشور على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى ما دون ملتقاه بالزاب الأعلى: ففي شمالها سهل منخفض غريني كونته مياه دجلة، وتنحدر المدينة إلى الجنوب. أما من الغرب فهضاب صخرية، وأما إلى الشرق فسهل يعرف بسهل "مخمور". وسميت المدينة باسم آشور نسبة إلى القبيلة وإلهها آشور، كما سميت بلادهم ببلاد آشور. وتبعد آشور مسافة 350 كيلومتراً إلى الشمال من بابل. وأصبحت عاصمة للبلاد في عهد الدولة الآشورية القديمة. وقد نقبت في موقعها بعثة متحف برلين الألمانية خلال خمس عشرة سنة من بداية القرن العشرين وكشفت فيها عن معابدها وقصورها وقبور ملوكها وسائر معالمها ووجدت آثاراً كثيرة ترجع إلى العهود السومرية والآكادية فالأشورية[2].

مر الآشوريون بمرحلة مضطربة تقارب ألف عام قبل أن يؤسسوا دولتهم الموحدة الخاصة بهم. وفي البداية نشأت دويلات - مدن يحكمها أمراء محليون. وقد خضعت دويلات - المدن الآشورية للسيطرة السومرية ثم الأكادية وأصبح أمراؤها أتباعاً للملوك السومريين والأكاديين[3]. ثم استقل بعض أمرائهم في العهد الغوتي وخضعوا ثانية لملوك

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 208.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 32.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 149.

سلالة أور الثالثة[1]. وفيما بعد ظهر فيهم ملوك أقوياء أصبحت مملكة آشور القديمة في زمنهم دولة مستقلة ذات كيان إلى أن ظهر حمورابي ملك بابل وقضى عليها[2].

ويسجل الباحثون لتاريخ آشور القديمة ثلاثة عصور متميزة هي: الدولة الآشورية القديمة أو (العهد الآشوري القديم) والدولة الآشورية الوسطى أو (العهد الآشوري الوسيط) والدولة الآشورية الحديثة أو (العهد الآشوري الحديث). وقسموا الدولة الحديثة إلى إمبراطوريتين هما: الإمبراطورية الآشورية الأولى والإمبراطورية الآشورية الثانية.

الدولة الآشورية القديمة: وتبدأ من فجر التاريخ الآشوري إلى نهاية حكم سلالة بابل الأولى. ففي أثناء الألف الثالث ق.م، لم يكن للآشوريين كيان سياسي. وفي العهد الغوتي، استقل بعض أمرائهم. وقد وردت أسماء عدد منهم في الأخبار الآشورية القديمة من ذلك ما ذكر عن الأمير "كيكيا" أنه شيد أسوار مدينة آشور، وأن الأمير "أوشبيا" بنى في آشور معبداً للإله آشور. وكلا الإسمين من الأسماء السوبرية[3]. والسوبريون هم سكنة شمال شرقي بلاد الرافدين اختلط بهم الآشوريون وبغيرهم من القبائل الآسية والآرية فتشكل الشعب الآشوري الذي تكلم اللغة الآشورية السامية التي استوعبت مفردات من لغات مختلفة وخصوصاً من السوبارية والسومرية والأكادية[4]. وبعد سقوط سلالة أور في أواخر الألف الثالث ق.م. أخذ الآشوريون بالتقدم نحو الاستقلال في مملكة خاصة بهم.

أسس الدولة الآشورية القديمة الملك بوزور آشور الأول حوالى سنة 1900 ق.م. كما أسس الأسرة الآشورية الأولى التي استطاعت أن تحكم مستقلة. وكان بوزور حاكماً على مدينة آشور، ثم وسع حدود دويلته وضم إليها بعض المدن المجاورة.

وفي زمن خليفته "ايلو شوما" الذي كان معاصراً لمؤسس سلالة بابل سوموآبو، مد نفوذ دولته نحو الجنوب وبلغت مملكة آشور القديمة شأواً عظيماً من النفوذ في زمن "شمش

---

(1) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 31.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 32.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 149.

حـدد الأول" الـذي فتـح مدنـاً كثيـرة في أواسـط العراق ومـاري على الفرات الأوسـط، وبنى بعـض المعابد ونظـم الحيـاة الاقتصاديـة، وفـي أواخـر عهـده ظهـر حمورابـي وقضـى علـى اسـتقلال آشـور وانتهـى بذلك حكـم الأسـرة الآشـورية الأولى.

خضـع الآشـوريون للحكـم البابلـي طـوال عهـد الدولـة البابليـة القديمـة. وكان ملوكهم يحكمـون كولاة للبابليين[1]. وعندمـا سـقطت بابـل فـي أيـدي الحثييـن فـي النصـف الأول من القرن السـادس عشـر ق.م، اسـتقل الآشـوريون وأسـس ملكهم "شـمش حدد الثاني" الأسـرة الآشـورية الثانية. وفي زمنه امتدت حدود الدولـة الآشـورية غربـاً إلـى سـواحل البحـر الأبيض المتوسـط، ودخلـت أرمينيا في الشـمال ضمـن نفوذها. وحـارب الآشـوريون الكاشـيين الذيـن حكمـوا بابـل بعد انسـحاب الحثيين. ثـم ضعفت الدولـة وخضعت للميتانيين[2] مـا بيـن (1450 - 1375 ق.م).

الدولـة الآشـورية الوسـطى: امتـد عهدهـا بيـن (1375 – 913 ق.م) وكان يعاصرهـا فـي مصـر: الدولـة الحديثـة، وفـي الأناضـول: دولـة الحثييـن. وفـي جنـوب الرافديـن: دولـة الكاشـيين، وفـي شـمال مـا بيـن النهريـن: مملكـة الحورييـن.

وعندمـا ضعـف الحوريـون وانقسـموا إلـى دولتيـن (الحوريـة والميتانيـة)، قـام "أريبـا حـدد الأول الآشـوري" بثـورة ضـد الميتانييـن وحـرر بـلاده مـن حكمهـم، وأسـس الأسـرة الآشـورية الثالثـة التـي حكمـت حتـى نهايـة الدولـة الوسـطى[3]. وبعـد وفـاة "أريبـا" تسـلم الحكـم ابنـه "آشـور أوباليـط" فعقـد اتفاقـاً مـع الحثييـن وهاجـم الميتانييـن وقضـى علـى دولتهـم حوالـى عـام 1370

(1) المصدر نفسه، ص 150.

(2) الميتانيون من الأقوام الحورية الآسية، ظهروا في الألف الثالث ق.م. في سوبارتو. وحوالى منتصف الألف الثاني ق.م.، انقسم الحوريون على أنفسهم وشكلوا مملكتين منفصلتين هما: مملكة الحوريين التي امتدت بين زاغروس والخابور، ومملكة الميتانيين التي امتدت بين الخابور والفرات. وفي عام 1450 ق.م أخضع الميتانيون الآشوريين.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 151.

ق.م[1]. واصبحت المهمة السياسية والعسكرية لخلفاء آشور أوباليط تتركز دائماً على غزو وضم البلاد التي كانت خاضعة للميتانيين والكاشيين[2].

وفي هذه الحقبة التاريخية، كان الحثيون مشغولين بالبلاد التي تتاخمهم مباشرة. وكانت مصر تعيش أزمة سياسية حادة خارجية وداخلية[3]. فاستغل ملوك آشور تلك الظروف، وحاربوا الكاشيين وانتصروا عليهم في بابل وأخضعوهم لنفوذهم. وفي زمن شلمنصر الأول اتسع نفوذ الدولة الآشورية شرقاً ولا سيما في المنطقة الجبلية فضلاً عن امتدادها إلى الجنوب وإلى الغرب حتى كركميش على الفرات (انتصر على تحالف الحثيين مع الآراميين). واشتهر شلمنصر ببنائه عاصمة جديدة "كلخ"[4] (نمرود الحالية). وحكم بعده ابنه "توكولتي نينورتا" الذي حارب الكاشيين وفتح بابل ونقل تمثال الإله مردوخ إلى آشور، وهزم الحثيين واحتل الأراضي الواقعة إلى الشمال من بلاده حتى بحيرة "وان" في هضبة أرمينيا. كما حارب العيلاميين وهزمهم وأوقف تقدمهم[5]. وسمى نفسه ملك الجميع وملك الأنحاء الأربعة وملك سومر وأكاد[6].

ورغبة من نينورتا في تقليص نفوذ الأشراف السياسي، نقل العاصمة إلى مدينة جديدة أضفى عليها اسمه هي "كار - توكولتي - نينورتا"[7] (تل العفر) إلى الشمال قليلًا من آشور.

ولكن هذا المجد العسكري الأول لآشور لم يدم طويلاً. فقد سقط توكولتي نينورتا ضحية مؤامرة، وشهدت آشور بعد موته مرحلة من التدهور[8].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية، ص 184 - 186.

(4) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 33.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 151.

(6) المصدر نفسه.

(7) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 211 - 212.

(8) المصدر نفسه، ص 212.

وفي نهاية القرن الثاني عشر ق.م، وجدت آشور نفسها وجهاً لوجه أمام تهديد الآراميين من الغرب وخطر قبائل الأورارتو الزاحفة من مواطنها في هضبة أرمينيا باتجاه آشور من الشمال. فتصدى "تغلات فلأسر الأول" لتلك الأخطار بعزيمة وشجاعة. حارب في جبال أرمينيا الوعرة أقوام الأورارتو (الموشكيين، والحوريين) واضطرهم إلى قبول حماية آشور وتسليم أبنائهم كرهائن وتوريد 1200 حصان و2000 رأس من الماشية كجزية[1]. ووصل إلى البحر الأسود شمالًا. ثم اتجه غرباً نحو آسيا الصغرى وأجبر أهل ميليديا (ملاطية في الأناضول) على دفع الجزية[2].

وفي هذه الفترة التاريخية كانت موجات شعوب البحر (البلاج) تقترب من سواحل آسيا الصغرى وسوريا. فوجه تغلات فلأسر الأول هجومه إلى بابل وأخضعها[3]. وغزا سوريا. فهاجم آرامي "أخلامو" في أرام النهرين واخترق الفرات إلى كركميش وتابع تقدمه حتى شاطئ البحر المتوسط قبالة جزيرة أرواد[4]. واضطر أمراء بلاد الشام إلى دفع الجزية له[5]. وخاض معارك كثيرة ضد الآراميين واجتاز الفرات 28 مرة لمطاردتهم[6]. وقد تجنب في هذه المرحلة الدخول في معركة ضد صوبا أو دمشق أو بيت رحوب التي كانت تستقر فيها قوى آرامية شديدة الوطأة[7] رأى من التعقل ألا يحتك بها، كما رأى ألا يحارب صور أو صيدا[8].

وهكذا استطاع تغلات فلأسر الأول إعادة إمبراطورية توكولتي نينورتا إلى الوجود بل

(1) ديلا بورت، ل: بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال، ود. عبد المنعم أبو بكر، ص 300.

(2) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 247/5.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 34.

(4) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 247/5.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 151.

(6) المصدر نفسه.

(7) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 247/5.

(8) المصدر نفسه.

إلى أوسع مما كانت. وتمكن بعد سنوات خمس من ولايته العرش أن يفخر بأنه أخضع 42 شعباً بملوكهم[1]. وحقق فكرة الإمبراطورية الآشورية العالمية التي ظلت تتجدد المرة تلو الأخرى من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع قبل الميلاد[2]. وقد انتهت إلينا من هذا الملك كتابات كثيرة كانت خير مصدر لنا لمعرفة تاريخ العراق القديم سياسياً وحضارياً في تلك الفترة[3].

وبعد وفاة تغلات فلأسر الأول تدهورت أحوال الدولة. وحدث في القرنين الحادي عشر والعاشر أن تحركت القبائل الآرامية باتجاه الشرق، وهاجمت ممتلكات آشور وتوغلت في بلاد ما بين النهرين وخصوصاً في الجنوب. وكانت هذه القبائل في تصادم مستمر مع الدولة الآشورية وعقبة كأداء دون توسع الآشوريين نحو الغرب وسبباً في إضعافهم[4]. وظهر الكلدانيون على المسرح السياسي لبلاد ما بين النهرين، وتقلصت آشور إلى بلادها الأصلية.

الدولة الآشورية الحديثة: امتدت قرابة ثلاثة قرون، واشتملت على إمبراطوريتين كبيرتين استغرقت كل منهما حوالى قرن ونصف قرن.

1 - الإمبراطورية الآشورية الأولى 911 - 745 ق.م: بعد فترة الانحطاط، تسلم الحكم في آشور ملوك أقوياء، فقضوا على الدويلات الآرامية في سوريا وأزالوا خطرها، وأخضعوا بابل وفتحوا المناطق الجبلية في الشمال والشرق.

وفي نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، انتقل الآشوريون إلى الهجوم على الأورارتو والآراميين والأقوام الجبلية في الشرق[5]. وقام آشور دان الثاني مؤسس الأسرة الرابعة بإعادة تنظيم البلاد، وفيما بعد هجم على بلاد الرافدين التي أصبحت آرامية تماماً. وقد نجح في

(1) ديلا بورت، ل: المصدر السابق، ص 300.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 151.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 34.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 212.

كثير من المعارك ولقب نفسه بـ"ملك العالم"[1]. واهتم "حدد نيراري الثاني" بتقوية الجيش الآشوري وأخضع بعض الأقاليم المجاورة وتحالف مع بابل[2]. وابتداء من زمن حكم هذا الملك أرخ الآشوريون أخبارهم بالطريقة المعروفة "اثبات اللمو" فكانت كل سنة تحمل اسم موظف كبير من موظفي الدولة ابتداء من تبوؤ الملك العرش[3].

وفي زمن آشور ناصر بال الثاني توطدت سيطرة الآشوريين من جديد، فأخضع الممالك الآرامية والساحل السوري حتى صور، وأعاد الإمبراطورية الآشورية إلى سابق مجدها. وأدخل نظام الخيالة في جيشه على نطاق واسع كما اتخذ الدبابات للهجوم على القلاع[4]. وسخّر أسرى حروبه في تجديد بناء "كلخ". وبنى له فيها قصراً فخماً وزينه بألواح كبيرة من الرخام نقشت نقشاً بارزاً بمناظر مختلفة من صيده وحروبه مع الأمراء الذين أخضعهم وجاؤوه حاملين الهدايا والجزية[5]. وهكذا وضع آشور ناصر بال الثاني الأسس المستقبلية لقوة آشور العسكرية[6].

ورث شلمنصر الثالث عن أبيه ناصر بال إمبراطورية شاسعة، ثم أضاف إليها ممتلكات جديدة وقضى حكمه الذي دام خمسة وثلاثين عاماً في سلسلة من الحملات الحربية دوّن تفاصيلها على مسلة كبيرة من حجر أسود وعلى لوح كبير من الرخام. وتشير حولياته إلى أنه غزا بلاد عمورو (سوريا) وعبر الفرات إلى كركميش حيث استلم الجزية من ملك الحثيين. وغزا كيليكيا والأناضول. وانتصر في موقعة قرقر الشهيرة على العاصي عام 853 قبل الميلاد على أحلاف الآراميين واليهود، وتلقى الجزية من مدن الساحل السوري الفينيقيا. وهكذا ضم بلاد شمال عمورو إلى إمبراطوريته. ولكنه لم ينجح في ضم جنوب سوريا حيث

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 152.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 35.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 250/5.

(4) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 35.

(5) المصدر نفسه.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 212.

اصطدم بحلف أقامه الملوك السوريون بزعامة ملك دمشق. كما حارب في هضبة إيران الشمالية، وهاجم القبائل العربية في صحراء شبه الجزيرة[1].

سبقت الإشارة إلى أن شلمنصر الثالث دوّن أخبار حروبه على مسلة تعرف باسم "المسلة السوداء" وهي اليوم محفوظة في المتحف البريطاني، وهناك غير هذه المسلة نصوص أخرى نقش بعضها على البوابات البرونزية في "بلادات" أو على لوحات طينية عثر عليها المنقبون في آشور أو على تماثيل ثيران عثر عليها في "كالح" أو على تمثال من البازلت أو قطع من الرخام أو ألواح من الحجر[2]. وبعض هذه النصوص مكرر في أكثر من مصدر وإليكم نصاً متكاملاً يجمع بين هذه المصادر جميعاً:

"أنا شلمنصر، الملك الشرعي، ملك العالم، الملك بغير منافس، التنين الأعظم، القوة الوحيدة في أنحاء المعمورة الأربعة، سيد الأمراء جميعاً، الذي حطم أعداءه، كأنما هم من الأواني الفخارية، الرجل القوي الذي لا يعرف الرحمة في المعارك، ابن "آشور ناصر بال" ملك العالم، ملك آشور، وحفيد "توكولتي نينورتا" ملك العالم كذلك وملك آشور، الغازي من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل فاتح بلاد حاتي ولوهوتي وأدري ولبنان وقي وتبالي وملاطيا (مليدي) الذي زار منابع دجلة والفرات.

لقد تحركت إلى أكد (بابل) لآخذ بثأر "مردوك شوم أدين" وأوقعت الهزيمة بـ"مردوك بالاصو" أخيه الأصغر ودخلت "كوتا" و"بابل" و"بور سيبا" وقدمت القرابين من الأضاحي إلى آلهة المدن المقدسة في "أكد" ثم نزلت إلى "كلديا" وتقبلت الجزى من كل ملوكها. في ذلك الوقت منحني "آشور" الصولج والعصا اللازمين لحكم الشعب وكنت أعمل طبقاً لوحي آشور الصادق، المولى العظيم سيدي الذي يحبني ويجعل مني كاهنه الأكبر... أنا شلمنصر الغازي من بحر بلاد "نيرى" وبحر بلاد "زاموا" القريب من آشور حتى البحر الكبير لـ"عمورو" اجتحت "حاتي" في اتساعها كله حتى أصبحت كتلال الخرائب التي خلفها

(1) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 35.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 5/254 - 255.

الفيضان... وهكذا نشرت إشعاع حكمي الموحي بالفزع فوق "حاتي" وفي سراي إلى البحر أقمت لوحة تمثلني كالحاكم الأعلى وأقمتها بجوار لوحة الإله "خربي" ثم تابعت تقدمي إلى البحر الكبير. وغسلت أسلحتي في البحر الكبير وقدمت قرابين الأضاحي هناك لآلهتي وتقبلت الجزى من كل ملوك شاطئ البحر وأقمت لوحة تمثلني كملك وكمحارب ونقشت بها كل الأعمال التي تمت على يدي في إقليم شاطئ البحر... أقمتها على البحر"[1].

ورغم هذه الانتصارات الواسعة التي حققها شلمنصر الثالث، فقد ثار عليه أكبر أبنائه وسبب فتناً داخلية واضطرابات أدت إلى ضعف الدولة وفقدانها الكثير من ممتلكاتها. وقد حدثت تلك الاضطرابات الداخلية نتيجة استياء الأرستقراطية الآشورية التي أرادت وضع الأراضي المفتوحة قيد الاستثمار المنظم بدل نهبها. وساندهم في موقفهم الجنود البسطاء، أعضاء المشاعيات الذين كانوا يعانون نقصان الأراضي. أما كبار الموظفين وقادة الجيش الذين كانوا يحصلون من الملك على حصة كبرى من الغنائم، فقد فضلوا الغزو المتكرر للبلد نفسه على سياسة توطيد الفتوحات. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تدمير القوى المنتجة تدميراً كاملاً. وقد أفضت هذه التناقضات إلى ثورات القصر وإضعاف السلطة الملكية[2]. ومن جهة أخرى فقد سددت هجمات الأورارتو ضربة قاسية إلى القوة الآشورية[3].

في أواخر القرن التاسع ق.م، تولت سمو رامات (سميراميس في المصادر الإغريقية) الوصاية على ابنها حدد نيراري الثالث. وفي النصف الأول من القرن الثامن تفشى الطاعون في بلاد آشور وفتك بالسكان. وأخذ أمر الدولة الآشورية في التدهور والضعف، ونشبت في مدينة كالح ثورة داخلية تولى بعدها تغلات فلأسر الثالث فأنقذ المملكة من الدمار وأعاد إليها مجدها وكان ذلك بدء عهد الإمبراطورية الثانية[4].

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 5/255 - 256.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 212.

(3) المصدر نفسه.

(4) بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 36.

2 - الإمبراطورية الآشورية الثانية 745 – 612 ق.م: وصل تغلات فلأسر الثالث إلى العرش بالقوة وأسس الأسرة الآشورية الخامسة.

أعاد تغلات فلأسر تنظيم الجيش، واتبع سياسة جديدة في الاحتلال ومعاملة الشعوب المغلوبة والحكام المهزومين تابعه فيها خلفاؤه من بعده. فقد كان يهجّر الجماعات ويشرد المواطنين من بلادهم، ويعزل حكاماً ويحل غيرهم محلهم أو يقر مكانهم بعض مواليه. وبعد أن ثبت دعائم الحكم في بلاد آشور، اتجه جنوباً وحارب القبائل الآرامية والكلدانية والعيلاميين[1]. وضم بلاد بابل واتخذ لقب ملك بابل[2]. ودحر الأورارتو وأرغمهم على العودة إلى أرمينيا. ثم التفت إلى الدويلات الآرامية في سوريا وفتح دمشق عام 732 ق.م، كما فتح المدن الساحلية الفينيقيا وأخضع مملكتي إسرائيل ويهوذا ووصل إلى الحدود المصرية[3]. ثم حارب القبائل العربية في صحراء شبه الجزيرة العربية[4].

وتعدّد حولياته الأقاليم التي أخضعها والشعوب التي رضخت لحكمه والجزى التي فرضها... ويبدو في ثنايا هذه النصوص اهتمامه الشديد بتعيين حكام من قبله على البلدان المقهورة[5].

وبعد موت تغلات فلأسر الثالث خلفه ابنه شلمنصر الخامس الذي وجه الجيوش لقتال المتمردين على سلطة آشور في سوريا وفلسطين. وأخيراً قام ضده قائد عسكري قتله واستلم الحكم باسم سارغون الثاني - شاروكين الثاني (أي الملك الحقيقي أو الصادق) وأسس الأسرة الآشورية السادسة[6]. سار سارغون الثاني (722 – 705 ق.م) على نهج سياسة تغلات فلأسر الثالث واعتمد على الجيش، وتعززت في زمنه الدولة العسكرية. فقد انتصر

(1) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 36.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 214.

(3) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 36.

(4) المصدر نفسه ص 37.

(5) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 5/266 - 268.

(6) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 153.

في معركة قرقر الثانية عام 720 ق.م. على جيوش الأحلاف السوريا - المصرية وأخضع مرة ثانية ممالك سوريا وفلسطين للحكم الآشوري، ولحق بالجيش المصري المتراجع وهزمه عند رفح[1]. وفي الشمال هزم ملك شنوكتو في طوروس ومنح حاكم ميليديا (ملاطيه) إقليم كومانو[2] عام 718 ق.م. وفي العام التالي ضم كركميش[3].

وبعد أن أمن جانب سوريا وفلسطين، وجه جميع قواته ضد أورارتو (أرارات). وفي عام 714 ق.م، سحق جيش الملك روشا وفتح مدينة "موزازير" واستولى على كميات كبيرة من الغنائم[4]. ولكنه لم ينجح في أخذ تورشوبا(Tour shoupa) والقضاء على أورارتو[5]. وقام سارغون بوضع خط تحصينات في كومانو وخيلاكو (كيليكيا) [6].

وفي عام 710 ق.م، توجه سارغون لينهي صراعه مع مروداخ بلادان. وكان مروداخ، من مملكة بيت ياكين في أقصى الجنوب، قد ثار في بداية حكم سارغون، واستولى بالتعاون مع العيلاميين على بابل وعلى أكثر المدن الجنوبية، فحاول سارغون تأديبه إلا أنه أخفق في المرة الأولى وترك بابل تحت حكمه أكثر من عشر سنوات[7].

سار سارغون على رأس جيش قوي لم يتمكن مروداخ بلادان من الصمود أمامه. ولم تأته المساعدة من العيلاميين فهرب إلى الجنوب، ودخل سارغون بابل عام 709، ولحق بمروداخ إلى مملكة بيت ياكين وفتحها. وهكذا استعاد الآشوريون فتح بابل والجنوب وإخضاعهما

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 271/5.

(2) يقع في الأناضول بآسيا الصغرى إلى الشمال من مرعش.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 215.

(5) المصدر نفسه. ومع أن غارات سارغون قد أضعفت جداً أورارتو، فإن هذه المملكة ظلت قائمة إلى القرن السادس قبل الميلاد حين قضى عليها الميديون. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 272/5.

(7) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 37.

لسيطرتهم[1]. وحصّن سارغون الحدود بينه وبين عيلام، واضطر ملك "دلمون" (جزر البحرين) إلى أن يرسل بهداياه إلى سارغون اتقاء قوته وخشية عدوانه على بلاده[2].

استقر سارغون في مطلع حكمه في مدينة "آشور" ثم انتقل منها إلى "كالح" ثم إلى "نينوى" وفي عام 713 ق.م بدأ بتشييد عاصمته الجديدة "دور شاروكين" أي مدينة سارغون وهي خرسباد الحالية على نحو 12 كيلومتراً إلى الشمال من نينوى[3].

وقد زين سارغون مداخل المدينة الجديدة وقصره بالتماثيل[4] وألواح كبيرة من الرخام نقشت نقشاً بارزاً بمناظر مختلفة[5]. ولم يتمتع سارغون بعاصمته الجديدة، فقد توفي في إحدى غزواته في الشمال بعد سنة من انتقاله إلى دور شاروكين وتولى الحكم بعده ابنه سنحاريب[6].

وقد عثر في "خرسباد" على بقايا جدران قصر سارغون وعلى حولياته منقوشة على ألواح حجرية. وهذه النقوش، رغم ما فيها من زهو ومبالغة، تكشف عن الكثير من أعماله الحربية التي شغلت طوال مدة حكمه[7].

خلف سنحاريب (705 – 681 ق.م) والده سارغون. ولم يسكن دور شاروكين بل تركها إلى نينوى جاعلاً منها عاصمة مُلكه، فجدد أبنيتها وجعلها فردوس الأرض بحدائقها الغناء ومجاري المياه التي تمر بها[8].

جهد خلفاء سارغون بالاندفاع فقط نحو الجنوب الغربي من أجل الاستيلاء على مصر[9].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 272/5.

(3) المصدر نفسه، 5/ 269.

(4) كالثيران المجنحة.

(5) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 37 – 38.

(6) المصدر نفسه، الصفحة 38.

(7) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 273/5.

(8) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 38.

(9) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 215 – 216.

كان سنحاريب حاكماً حازماً، استعمل القوة والشدة في حروبه ضد أعدائه، وأدخل كثيراً من الاختراعات في أساليب الحرب وأسلحتها[1].

في مطلع حكمه، ثارت بابل بقيادة "مروداخ بلادان الثاني" يسنده العيلاميون وبعض أمراء العرب في شبه الجزيرة. فجهز سنحاريب عام 702 ق.م. حملة قوية، وتغلب على المتمردين وعين على بابل حاكماً موالياً للآشوريين[2].

وفي عام 700 ق.م، توجه سنحاريب إلى ساحل فينيقيا لمحاربة تحالف الدويلات المؤلف من صور ويافا وعسقلون وعقرون وأورشليم بمساندة مصر. فهزم "لولي" ملك صور، واستولى على يافا وعسقلون وعقرون، ودحر الجيش المصري في موقع جنوب عقرون[3]. وحاصر أورشليم فأكره ملكها حزقيا على دفع فدية حرب ضخمة[4]. ويبدو أن مرض الطاعون قد تفشى في جيش سنحاريب مما اضطره إلى العودة إلى نينوى مصحوباً بالأسرى ومحملاً بالغنائم[5].

شغل سنحاريب في الأعوام التالية بحروبه في كيليكيا، وفتح المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى الساحلية[6]. ثم ثارت بابل مجدداً على الحكم الآشوري، فجهز سنحاريب حملة تأديبية قوية ضد الثوار، وافتتح بابل وعين عليها أحد أولاده. وأخذ يعد العدة للقضاء على دويلات أهل البحر في أقصى الجنوب لأنهم كانوا على الدوام يحرضون على الفتنة في بلاد بابل. فأمر سنحاريب بصنع السفن الحربية وجلب لذلك صناعاً ماهرين من الفينيقيين واليونان. وانحدر بأسطوله نحو الجنوب عابراً الأهوار حتى وصل إلى البحر وفتح جميع دويلات الخليج[7].

---

(1) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 38.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 277/5.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

(7) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 38.

انتهز العيلاميون فرصة انشغال سنحاريب في الجنوب فهاجموا أواسط العراق ومنطقة بابل مما اضطره إلى التراجع فحاصر بابل وفتحها عنوة عام 689 ق.م. وكان غضبه شديداً عليها فدمرها وأحرق قصورها ودك أسوارها وفتح مياه الفرات حتى غمرتها[1].

لقد اشتهر سنحاريب إلى جانب حروبه العديدة بأعماله العمرانية. وفي أواخر حكمه عين ابنه أسرحدون ولياً للعهد دون إخوته الذين يكبرونه. فثار عليه أحد أولاده بمساندة رجالات الدولة وقتلوه سنة 681 [2].

خلف سنحاريب ابنه أسرحدون (680 - 669 ق.م) في ظروف كانت الحروب الأهلية تنهش جسم آشور والثورات تشتعل في كل مكان. وكان أسرحدون عند مقتل والده في جبال أرمينيا، فتقدم نحو نينوى وقضى على حركة التمرد وتسلم الحكم[3].

واتّبع أسرحدون مع بابل سياسة المصالحة لإرضاء أهلها وتهدئة خواطرهم. فجدد بناء ما تخرب منها زمن والده وعين ابنه الأكبر "شمش شم أوكن" حاكماً عليها.

وتوجه إلى الجنوب فأخمد ثورة كلدانية في مملكة بيت ياكين، ثم غزا سوريا واستولى على صيدا فاضطر ملك صور أن يعلن ولاءه وتقدم حتى وصل إلى العريش، وانكفأ إلى الشمال فدحر الاسكيذيين والسميريين وتم له إخضاعهم، وأعاد إخضاع كيليكيا والأناضول. ثم عاد إلى سوريا لقمع الثورات المتجددة بتأييد من مصر فأيقن أنه لا يستطيع الاحتفاظ بسوريا الجنوبية إلا إذا أخضع مصر[4].

وجّه أسرحدون حملة قوية إلى مصر، هزمت ملكها النوبي "طهارقا" واحتلت الدلتا، ودخل الآشوريون العاصمة منف وسيطروا على مصر كلها وفرضوا عليها الجزية[5]. وقسم

---

(1) المصدر نفسه، ص 38 - 39.

(2) المصدر نفسه، ص 39.

(3) المصدر نفسه.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 154.

(5) المصدر نفسه.

أسرحدون مصر إلى 22 مقاطعة، وعين عليها ولاة مصريين ووضع إلى جانب كل منهم حاكماً آشورياً[1].

وعند عودة أسرحدون من حملة مصر، أقام له نصباً على صخور نهر الكلب عند مصبه قرب بيروت نقشت عليه صورته تخليداً لهذا الانتصار الباهر.

وفي أثناء حكم أسرحدون، كانت موجات الأقوام تزحف نحو آسيا الصغرى مرة من الشرق إلى الغرب وأخرى من الغرب إلى الشرق. وقد تشكلت حينذاك مملكة الميديين في شمال إيران[2].

ثار المصريون لخلع النير الآشوري، فأرسل أسرحدون جيشاً لقمع الثورة، ثم لحق بجيشه إلا أنه مات في الطريق عام 669 فترك عبء ذلك لخلفه آشور بانيبال.

ورث آشور بانيبال (668 – 626 ق.م) عرش أبيه. فقمع الثورة في مصر وفرض على أهلها الجزية. وعندما حاول نيخاو طرد الآشوريين سار إليه آشور بانيبال على رأس حملة فعزله ونهب طيبة ودمرها عام 660، وولى على مصر بامتيك[3]. وناضل بامتيك لتحرير بلاده فتحالف مع أمير ليديا، وساعدته ظروف آشور وصراعها مع جيرانها على تخليص مصر وتحريرها من السيطرة الآشورية.

وفي سوريا، خاض آشور بانيبال حروباً عديدة ضد ملوكها وأجبرهم على الخضوع ودفع الجزية.

وفي الشرق، دحر العيلاميين وأجبرهم على التراجع إلى بلادهم، بعد أن حاولوا غزو جنوب بلاد الرافدين بمساعدة القبائل الآرامية المقيمة هناك[4].

وفي بابل اندلعت الثورة بزعامة "شمش شم أوكين" الذي كان ملكاً عليها، وساعدت القبائل الآرامية والعربية وغيرها ثورة بابل. فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة ضد أخيه

---

(1) المصدر نفسه.

(2) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 40.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 154.

(4) المصدر نفسه.

وحاصره في بابل وفتحها عنوة عام 648 ودمرها وأحرق شقيقه وسط لهيب قصره[1]. ثم زحف جنوباً وانتقم من القبائل التي ساعدت ثورة بابل وأخضعها جميعاً. وهاجم العيلاميين في عقر دارهم وفتح عاصمتهم سوزا وخربها كما أخضع القبائل البدوية في شمال شبه الجزيرة العربية. وهكذا دان الشرق الأوسط للحكم الآشوري[2].

اهتم آشور بانيبال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة وأنشأ المكتبة الشهيرة في نينوى. وأمر بترجمة ألواح الطين المكتوبة بالسومرية والأكادية والبابلية التي حوت أكثر علوم وآداب الأقدمين وأساطيرهم وكل ما يتعلق بحياتهم وحفظها في مكتبته التي عثر عليها في نينوى ولعل أشهر حولياته تشير إلى حملاته ضد سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى وبلاد العرب.

سقوط الإمبراطورية الآشورية: كان فتح مصر آخر نجاح عسكري للآشوريين. وعلى الرغم من أن آشور بانيبال قد ترك إمبراطورية مترامية الأطراف، إلا أنه فارق الحياة وأجيج الثورة كان يعتمل في كل ركن من أركانها، وكانت روح التمرد تعمر نفوس أبنائها. لذا ما لبثت أن انحلت نتيجة الأزمات الداخلية وانتفاضات شعوب البلدان المغلوبة.

لقد أعلنت شعوب البلدان المقهورة وأعضاء المشاعيات الأهلية الثورة غير مرة وكان حكام آشور يلجأون لقمع انتفاضة الشعوب بإعادة احتلال بلدانهم المرة تلو الأخرى. وفي أثناء حكم آشور بانيبال قادت امرأة عبدة انتفاضة الشعب في أرمينيا[3]. وليس هناك من شك بأن الزراع الآشوريين الذين أفلسوا ولحق بهم الخراب من جراء التجنيد والعمل المضني والضرائب، قد تمردوا هم أنفسهم أيضاً[4]. وفي الوقت نفسه، ضعف السند العسكري للحاكم[5]. كما أن توقف الحملات العسكرية أدى إلى انقطاع تدفق الغنائم، وعرّضت

(1) د. بصمه جي، فرج: المصدر السابق، ص 41.

(2) المصدر نفسه.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 219.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

الثورات المتواصلة لشعوب البلدان المغلوبة جباية الجزية للخطر[1]. ولم يعد بالإمكان الاعتماد على المرتزقة، أما الجيوش الآشورية فكانت الثقة بها قليلة[2].

لقد نخرت التناقضات - بين الغالبين والمغلوبين، وبين الأسياد والعبيد، وبين الفقراء والأغنياء - أسس الدولة العسكرية الآشورية. وفي مثل هذه الظروف كانت تكفي أول معركة خارجية تتصف ببعض الأهمية للقضاء عليها.

بعد وفاة آشور بانيبال حدثت منازعات على العرش الآشوري وضعفت المملكة وانسلخ منها كثير من المقاطعات وانفصلت مدن عديدة في سوريا وفلسطين وأرمينيا.

وفي هذه الفترة التاريخية ظهر في بابل الأمير الكلداني "نابو بالاصر" فأسس فيها سلالة جديدة مستقلة عام 626 ق.م، وبدأ يهاجم آشور من الجنوب. كما تأسست مملكة ميديا الفارسية في إيران، وأخذ الميديون يهاجمون المملكة الآشورية من الشرق والشمال. وأخيراً تحالف الميديون والكلدانيون واستطاعوا احتلال مدينة آشور سنة 612 ق.م. وحرق "سن شر أشكن" آخر ملوك آشور نفسه مع أقربائه في قصره، كما دمرت مدينتا نينوى وكالح تدميراً كاملاً. وهرب أحد الأمراء الآشوريين إلى حرّان، وجمع شتات الجيش الآشوري وسيطر على بعض المناطق الشمالية التي كان يسكنها الآشوريون، آملاً المحافظة على الدولة الآشورية بمساعدة مصر، إلا أن القوات المتحالفة سرعان ما زحفت إلى حران وقضت على فلول الجيش الآشوري واستولت على المدينة سنة 609 ق.م، فزال بذلك آخر معقل للآشوريين وسقطت دولتهم وزال الآشوريون من المسرح السياسي بعد ذلك الحين. واقتسم الميديون والكلدانيون تركة الآشوريين، فحصل الكلدانيون على جنوب بلاد ما بين النهرين وقسم من شمالها، وأخذ الميديون الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

الفصل الثالث والعشرون

الدولة الكلدانية أو (الدولة البابلية الجديدة)

نشأتها وتوسعها

الكلدانيون من الآراميين الساميين، بدأوا يتسربون إلى بلاد بابل في القرن الثاني عشر ق.م. من منطقة تعرف باسم بلاد البحر حول الخليج العربي. وهم قريبون من البابليين من حيث الأصل واللغة، لذلك انصهروا معهم بسرعة حتى أصبحت فيما بعد كلمتا: بابلي وكلداني مترادفتين[1].

عاش الكلدانيون على شكل مشاعيات عشيرية، تحول بعضها إلى أسر فلاحية كبيرة وصغيرة (مشاعيات متجاورة) وكان هذان النوعان من المشاعيات لا يزالان موجودين عند قيام الإمبراطورية الكلدانية كما تدل على ذلك وثائق العصر لملوك آشور: أسرحدون وآشور بانيبال[2].

أسس الأمير الكلداني "نابو بالاصر" في مدينة بابل سلالة جديدة[3] مستقلة عام 626 ق.م

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 168.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 226.

(3) الأسرة البابلية الحادية عشرة أو العاشرة في بعض الآراء.

عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية التي امتد حكمها حتى الغزو الفارسي لبابل عام 539 ق.م.

بعد القضاء على الدولة الآشورية، سيطرت بابل على جنوب بلاد الرافدين وقسم من شمالها، وفتحت أمامها الطريق عبر سوريا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأقامت علاقات ودية مع دولة ليديا في غرب آسيا الصغرى ودولة كيليكيا في جنوبها. وشرع نابوبالاصر في تعمير بلاده ولا سيما العاصمة؛ وقد حققت بابل، رغم ما لاقته من تدمير شامل على يد سنحاريب وآشور بانيبال في عهد الأسرة الكلدانية، ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً وغدت مركزاً دولياً رئيسياً في منطقة الشرق الأدنى.

وجه نابوبالاصر ابنه نبوخذ نصر، بعد القضاء على فلول الجيش الآشوري في حرّان، لمواجهة الجيش السوري بقيادة الفرعون نيخاو الثاني. وكان المصريون قد زحفوا إلى سوريا لمساعدة الآشوريين أو من أجل الحصول على حصة من تركتهم والمحافظة على توازن القوى في منطقة الشرق الأدنى.

هزمت القوات الكلدانية بقيادة نبوخذ نصر الجيش المصري عند مدينة كركميش عام 605 ق.م وتقدمت في سوريا وفلسطين ملاحقة الجيش المصري المهزوم. ولكن نبوخذ نصر اضطر للعودة إلى بابل بسبب وفاة والده عام 605.

اعتلى نبوخذ نصر (604 - 562 ق.م) عرش بابل عام 604 ق.م. وهو يعتبر أعظم ملوك السلالة الكلدانية. وقد اهتم بتعمير بابل وتجميلها وتجديد شبابها، مستعيناً في ذلك بالفنون التي انحدرت إليه، وبالمواد الأولية التي استطاع أن يستجلبها من مصادرها الرئيسية. وقد ساعده على تحقيق مشاريعه العمرانية ما حصل عليه من الغنائم والجزى والكثير من أسرى الحرب.

ذكرنا أن نبوخذ نصر أخضع في زمن والده جميع الدويلات في سوريا وفلسطين. ولكن عندما كان منشغلاً في تعمير بابل، ثارت عليه الدويلات الصغيرة في غربي آسيا وخصوصاً المملكة اليهودية ودولة صور بتحريض من فرعون مصر.

والواقع أن مصر الفرعونية كانت العدو الأكبر للدولة الكلدانية إذ إنها لن تتنازل بسهولة

عن نفوذها ومصالحها في سوريا وفلسطين. وفي المقابل فإن الكلدانيين، وبيوتاتهم التجارية المالية على وجه الخصوص، الذين دخلوا إلى مسرح التجارة العالمية كانوا بحاجة إلى مراكز لهم على البحر المتوسط ولن يتنازلوا عنها لمصر. فعندما تمردت الدولة اليهودية وامتنعت عن دفع الجزية، رغم تحذيرات النبي أرميا السلطات اليهودية بعدم مقارعة الكلدانيين، جرد نبوخذ نصر حملة على مملكة يهوذا فدخل أورشليم عام 596 ق.م. وسبى قسماً من سكانها (من رؤساء وجبابرة بأس وجميع الصناع والأقيان) إلى بابل وهذا هو السبي الأول. وعزل ملكها يهو ياقين وعين مكانه عمه صدقيا[1]. ولكن صدقيا، بتحريض من فراعنة مصر وتحت ضغط الأمراء اليهود المؤيدين لهم، تمرد أيضاً على سيطرة الكلدانيين رغم تكرار تحذيرات النبي أرميا، فعاود نبوخذ نصر الهجوم على أورشليم وفتحها سنة 586 ق.م. وألقى القبض على صدقيا، وسبى سكان المدينة إلى بابل وكيش ونيبور. وهذا هو السبي الثاني. أما سكان الأرياف اليهود فقد فر معظمهم إلى مصر فخلت فلسطين من اليهود تقريباً. وزالت مملكة يهوذا[2]. واقتصرت فلسطين على سكانها الأصليين من العرب الكنعانيين.

التفت نبوخذ نصر لإخضاع المدن الفينيقيا على الساحل السوري. وتطلب منه ذلك جهداً ووقتاً. وكان الأسطول المصري يقدم المساعدة والدعم للمدن الفينيقيا الثائرة. وقد صمدت صور لحصار طويل استغرق ثلاث عشرة سنة. واخيراً تم الاتفاق عام 573 ق.م. بين نبوخذ نصر وملك صور بموجبه، تعترف صور بالسلطة العليا للكلدانيين على أن تحتفظ باستقلالها الذاتي. واضطر فراعنة مصر إلى التراجع عن محاولاتهم فرض سيطرتهم على سوريا وفلسطين[3].

سقوط الإمبراطورية الكلدانية: سقطت الإمبراطورية البابلية الجديدة وانتهى حكم الكلدانيين بعد فترة وجيزة من وفاة نبوخذ نصر عام 562 ق.م. فقد دبت الفوضى في البلاد

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 317/5.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 169 - 170.

(3) المصدر نفسه، ص 170.

ونشبت اضطرابات في بابل نتيجة الصراع الذي دار بين الكهنة والأمراء العسكريين. ففي عام 555 ق.م. عين الكهنة نابونير وكان آخر ملوك الكلدانيين.

قدم نابونير الآراميين في الحكم والإدارة. وغزا سوريا ثم حارب أمير واحة تيماء واستولى عليها واتخذها مقر إقامته تاركاً ابنه بلشاصر (بلتازار) ممثلاً له في بابل ولم يعد إليها إلا في أواخر حكمه[1].

في هذه الفترة التاريخية، نشأت في إيران إمبراطورية فارسية قوية. واستطاع ملكها كورش أن يخضع خلال فترة قصيرة من الزمن بلاداً أكثر مدنية من فارس، لكنها كانت موهنة نتيجة الحروب الخارجية المتواصلة والصراعات الاجتماعية. كما أن أوساط التجار والمرابين في بابل وفينيقيا وغيرهما من البلدان كان لها مصلحة في أن يبقى الشرق الأدنى إمبراطورية واحدة على رأسها حكومة لديها من القوة ما يكفي لقمع الثورات الشعبية، وتعزيز الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية.

احتل كورش مملكة ميديا وألحقها بفارس ثم أخضع آسيا الصغرى. وعاد إلى إيران ومد حدود إمبراطوريته إلى الشرق والشمال الشرقي. وتفرغ للمملكة الكلدانية بعد أن أحاط بها من الشرق والشمال والغرب، وحاصر جميع الطرق التجارية المؤدية إليها. فوجه إليها قواته ودخلت بابل عام 539 ق.م. دون مقاومة، بل بالعكس كان الدخول مبيتاً مع بعض القادة العسكريين والكهنة من الكلدانيين المتواطئين مع الفرس[2]. وفتح الكهنة والتجار والمرابون الأبواب في بابل للجيش الفارسي، آملين أن تتوسع عملياتهم التجارية والمالية في ظل إمبراطورية جديدة أكثر اتساعاً من إمبراطوريتهم. وألقي القبض على نابونير وقتل بلشاصر وانتهى حكم الكلدانيين. ودخلت بابل والبلاد الخاضعة لها تحت سيطرة الفرس الأخيمينيين.

---

(1) المصدر نفسه، ص 170. يبدو أن نابونير اتخذ «تيماء» مركزاً سياسياً يدير منه دفة الحكم في الشطر الغربي من دولته بينما كان بلشاصر يباشر شؤون الدولة في بابل نيابة عن والده.

(2) المصدر نفسه، ص 172.

الفصل الرابع والعشرون

النظام السياسي ـ الجيش والأسطول

النظام السياسي

عاش قدماء العراقيين على شكل عشائر وقبائل في ظل المشاعية البدائية. وكان جميع أعضاء العشيرة متساوين في الحقوق. وكانوا يجهلون الفروق الاجتماعية وعدم المساواة في الثروة. وكان جميع الأعضاء البالغين في العشيرة من الذكور والإناث يشتركون على السواء في مجلس العشيرة. ولم يكن لشيخ القبيلة أية حقوق خاصة أو امتيازات تميزه من غيره وقد تأكدت هذه المساواة الاجتماعية بين أفراد العشيرة في تشابه الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه علماء الآثار في المقابر السومرية التي يعود تاريخها إلى الألف الرابع ق.م.[1].

وبالنظر الى دور النساء الهام في الإنتاج، فقد تمتعن باحترام كبير وشاركن في اجتماعات العشائر والقبائل. وقد عكست الأساطير المتعلقة بالآلهة والمواد الأثرية المكتشفة ما يثبت مكانة المرأة المرموقة في المشاعية العشيرية. تقول الأساطير: كانت الآلهة والإلهات يناقشون الأمور معاً في المجلس السماوي. وهذه الأساطير عن علاقة الآلهة في السماء كانت تعكس ما كان يجري على الأرض بين الناس[2]. كما أن تماثيل الدمى الطينية الصغيرة

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 92.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 99.

للنساء التي عثر عليها المنقبون تحمل على الافتراض بأن "نظام الأمومة" قد استمر حتى النصف الأول من الألف الرابع ق.م.[1].

وعندما زاد الإنتاج نتيجة لتحسن وسائل الري ونمو القوى المنتجة، تفسخت المشاعية العشيرية إلى أسر فلاحية كبيرة وصغيرة، وظهرت الملكية الخاصة وتشكلت الطبقات الاجتماعية، وحلت الأسرة الأبوية محل الأسرة الأمومية، وتأسست الدولة لتثبيت سلطة ملاك العبيد والأراضي من النبلاء والأشراف، ولقمع انتفاضات الأرقاء والفقراء، وللاهتمام بمشروعات الري الكبرى. وقد انعكست هذه التطورات الاقتصادية - الاجتماعية على الأساطير المتعلقة بالآلهة، كما أيدتها أيضاً المكتشفات الأثرية والأعمال الفنية التي يرقى تاريخها إلى النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. (كالأختام الاسطوانية والتمايز في حجم المقابر والأثاث الجنائزي)[2].

وكانت دويلات المدن أول أشكال الحكومات في بلاد ما بين النهرين. وفيما بعد تشكلت الدولة الموحدة الممركزة الاستبدادية. فقد أنشأ السومريون والأكاديون في أواخر الألف الرابع ق.م.، بضع عشرات من دويلات المدن. وكان على رأس دولة المدينة حاكم يدعى باتيزي (Patési) أو آنسي(Ensi) ينتخب من بين الأسر النبيلة[3]. وكان يعتبر في الوقت نفسه القائد العسكري والكاهن الأعلى، مما يدل على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين[4]. وعندما كانت تزداد قوة مدينة ما وتخضع لسلطتها بعض المدن الأخرى كان حاكم تلك المدينة ينال لقب "لوغال - أي الملك"[5].

وفي منتصف الألف الثالث ق.م. لم يكن الباتيزي بعد المالك المطلق لجميع أراضي الدولة. فهناك حالات معروفة يجد الملك نفسه مضطراً الى شراء أراضٍ من الأسرة الكبيرة

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 92.

(2) المصدر نفسه، ص 92 - 94؛ د. نعيم، فرح: المصدر السابق، ص 133 - 136.

(3) المصدر نفسه، ص 101.

(4) ديورانت، ول: المصدر السابق، 26/2.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 101.

أو من المشاعيات[1]. كما أنه لم يكن في استطاعته أن يملك لحسابه حتى أملاك المعابد[2].

وكان في المدن مجالس شعبية ومجالس شيوخ تتمتع بحقوق انتخاب الحاكم وربما عزله، وإقرار العدل، واتخاذ اجراءات إدارية، ومناقشة قضايا السياسة الرئيسية مع الباتيزي كإعلان الحرب على سبيل المثال. كل ذلك يسمح لنا من التأكد أن بقايا هامة من الديموقراطية العسكرية كانت لا تزال موجودة في ميزوبوتاميا السفلى، على الأقل حتى منتصف الألف الثالث ق.م. [3].

إن الحاجة الى استخدام الري استخداماً عقلانياً، وتعزيز العلاقات الاقتصادية بين المناطق قد حفزا الاتجاه إلى التوحيد السياسي لبلاد سومر. كما أن ضرورة توطيد السلطة على العبيد قد شدد بدوره حركة المركزة.

وتشير الألواح إلى أن الملك - الكاهن كان له، في الفترة ما قبل السارغونية، وظيفتان أساسيتان: الأولى وظيفة حاكم المدينة، والثانية وظيفته كممثل الإله أو ككاهن أعظم. فعليه بحكم وظيفته الأولى حماية مدينته وتوسيع حدودها وإقرار العدل وشق القنوات وإقامة السدود وتنمية الزراعة. كما هو بحكم كونه نائباً عن الإله أو ممثلاً له مسؤول عن الشؤون الدينية في مملكته. فهو الذي يرعى شؤون المعبود الرئيسي والمعبودات الأخرى ويشرف على المعابد ويهتم بإصلاحها وبناء الجديد منها ويعين لها الكهان ورجال الدين. وكثيراً ما كان يعهد بالوظائف الدينية الهامة الى أشخاص من أسرته.

وفي النصف الأخير من الألف الثالث ق.م.، كانت الظروف قد نضجت لتوحيد البلاد وإقامة سلطة ممركزة. فقد استطاع سارغون وخلفاؤه من بعده لأول مرة في تاريخ بلاد الرافدين، توحيد شمال وجنوب بلاد ما بين النهرين في دولة واحدة هي الدولة الأكادية.

كان اتحاد شمال وجنوب بلاد الرافدين تحت سلطة سارغون في مصلحة الأشراف والنبلاء ملاك العبيد. كان كلا القسمين من البلاد، حيث إن السلطة المركزية المستبدة التي

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 101.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 102.

أصبحت تملك قوة عسكرية كبيرة تستطيع بسهولة توطيد سلطتها وفرض سيطرتها على الجماهير الشغيلة[1]. غير أن توحيد البلاد وإنشاء سلطة ممركزة كانا ضرورين أيضاً من أجل تنظيم الري وتنفيذ مشروعات كبيرة في طول البلاد وعرضها لتطوير الزراعة، ولتنشيط التجارة وتوحيد المقاييس والأوزان.

وقد اصطنع الملوك حين اتسعت حدود بلادهم ألقاباً جديدة. فقد اتخذ ملوك أسرة أور الثالثة لقب "ملك سومر وأكاد" واتخذ الملوك الأكاديون لقب "ملك المناطق الأربع" واستحدث الآشوريون لقب "ملك العالم". وانتحل الملوك المستبدون البارزون الصفة الإلهية إمعاناً منهم في تنظيم السلطة الملكية وتقديس شخصية الحاكم بقصد تخويف الشعب وإخضاع جماهير الشغيلة. وأقدم شاهد على تأليه الملك ما هو مدون على مسلة مانيشتوسو حيث تقرأ "شاروكين ايلي" أي "سارغون هو إلهي"، كما سمى الملك نارام سين نفسه باسم "إله أغاده" (أكاد)، وتلقب حمورابي بلقب "إله الملوك"[2]. أما الملك الآشوري فقد اعتبر نفسه نائب الإله آشور والمنفذ لرغباته، يتلقى منه الأوامر، ويقدم إليه الحساب، ومهمته إخضاع شعوب العالم لهذا الإله[3].

ومنذ أن نشأت دويلات المدن في أواخر الألف الرابع ق.م. وأخذت تتعزز فيما بعد السلطة الملكية الاستبدادية التي تعتبر مملكة بابل في عهد حمورابي شكلاً نموذجياً لها، اعتمد الملك في حكم البلاد على جهاز أخذ يتسع ويتشعب ويتعقد لإيجاد أفضل السبل لملء خزائن القصر والمعبد وكبار الملاك، على حساب نهب جماهير الكادحين بمختلف أنواع الضرائب والفروض والسخرة. وحتى الكهنة، فإنهم لم يكتفوا بما كان يغدقه الملوك عليهم من غنائم الفتوحات وما كان يقدمه أفراد الشعب إليهم من المنح والهدايا والقرابين وما فرض لهم من ضرائب. أقول لم يكتفوا بمثل هذا القدر الضخم من الثروات التي كانوا يتنعمون بها على حساب معاناة الشعب وجوعه وبؤسه، وإنما شرعوا يسلبون السكان.

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 105.

(2) ديلا بورت. ل: بلاد ما بين النهرين، ص 77 – 78.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 156.

فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم ودواجنهم، والأشياء النحاسية، والملابس، وأجود أشجار البساتين وثمارها. وطلبوا رسوماً باهظة لدفن الموتى[1].

وكان يساعد الملك في الحكم زوجته الملكة التي كان لها قصرها الخاص وأملاكها الواسعة ونفوذها الكبير في تصريف شؤون الدولة[2].

وكان يلي الملك وزوجته في السلم الوظيفي الـ"نوباندا" وهو بمثابة وزير المالية أو وزير القصر، ويعتبر أهم موظفي الدولة. وتشبه وظيفته وظيفة المشرف العام فهو "منظم مشروعات المنافع العامة والشؤون الزراعية وأمين خزانة الملك وناظر الري ومسجل عقود البيع وحاجب القصر"[3]. وتشير الألواح إلى وجود عدد من الـ"نوباندا" (نُظّاراً أو وزراء) يختص كل منهم بقطاع من قطاعات الدولة. ويتبع النوباندا عدد من الموظفين من بينهم القضاة والكهان وأمناء مخازن الغلال والكتّاب والملاحظون وغيرهم من الموظفين[4]. ويلي الوزراء في الأهمية قواد الجيش. وقد أصبح للأرستقراطية العسكرية نفوذ كبير عند تشكل الدولة العسكرية الآشورية.

وكان الملك يعين من قبله حكام الأقاليم ويختارهم من طبقة النبلاء، وكانوا يتوارثون مناصبهم في أول الأمر ثم أصبحوا موظفين منذ زمن الأسرة الأكادية.

وقد تحولت المشاعية في ظروف الدولة الاستبدادية الممركزة إلى موضوع للاستثمار من جانب الدولة العبودية. وكما في السابق، كان المشاعيون يصونون السدود والحواجز والأقنية التي كانت تتطلب بذل العمل من جانب عدد كبير من الناس. وكان المشاعيون يبذرون ويحصدون، ولكن حصة الأسد من المحصول أصبحت تذهب الآن لتكون في تصرف الملك والكهنة والموظفين، ولإعالة الجيش. وكان مفتشو الملك يبذلون قصارى الجهد لمراقبة حالة منظومات الري باستمرار، أو لإلزام المشاعيين بدفع المكوس والضرائب

(1) انظر ص: 249 - 250.

(2) ديلابورت. ل.: المصدر السابق، ص 78.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه.

بكل دقة، منتزعين بذلك من المنتجين المباشرين قسماً كبيراً من المنتوج الذي قاموا بإنتاجه.

وكان تحت تصرف الموظفين الكبار في دولة حمورابي "سوكلالو" (Souklalou) أي وكلاء لجباية الضرائب وإرسال السكان للعمل في الورشات الملكية. وهكذا تتجلى بكل وضوح الوظيفة الأولى في الدولة الاستبدادية وهي نهب السكان.

وقد قسمت البلاد إدارياً إلى أقاليم أو ولايات ومناطق. وكان يتوجب على جميع الشعوب الخاضعة دفع الجزية والقيام بأعمال السخرة وتلبية دعوى الملك إلى الحرب عند الحاجة.

وكانت المصادر الأساسية لدخل الدولة تتكون من الضرائب التي تجبى عيناً ومن الفضة وتختزن في المخازن الملكية وتؤدى منها رواتب موظفي الدولة وعمالها.

الجيش والأسطول: إن الوظيفة الأساسية الثانية للدولة العبودية هي نهب الشعوب الأجنبية بواسطة الجيش.

بدأ إعداد الجيوش في بلاد ما بين النهرين منذ تأسيس دويلات المدن في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وكان الجيش يتألف من كتائب مدنية تجند فقط أثناء الحرب ويقودها الملك. ويعتبر سارغون الأكادي أول من بدأ بإصلاح الجيش إصلاحاً جذرياً: فعندما أصبح ملكاً، اعتمد في حكمه على الجيش. فأنشأ جيشاً دائماً من 5400 محارب محترفٍ. وعلى حين كانت كتائب المعابد السومرية تتألف من جنود مسلحين بأسلحة ثقيلة، كما يشاهد في "نصب العقبان" من فؤوس ورماح طويلة، ويختبئون خلف دروع طويلة ويقاتلون بصفوف متراصة ويضربون برماحهم الطويلة، فقد سلح سارغون جنوده بالقسي والنشاب، وأصبح رماة السهام يحتلون دوراً هاماً في الجيش الأكادي الجديد. واستعاض سارغون عن الرماح الثقيلة برماح صغيرة يسهل قذفها في وجه العدو والابتعاد بسرعة. وقد أتاح ادخال السلاح الخفيف عدداً من المزايا التكتيكية والقتالية للجيش الأكادي فأصبح أسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري. وكان معظم جنود الجيش السارغوني من الفلاحين الذين انتزعت أراضيهم ووجدوا أنفسهم في خدمة الملك لقاء أجر يدفعه إليهم.

وتظهر الأسلحة الخفيفة التي أدخلها سارغون إلى جيشه في "لوحة النصر" للملك نارام سين. ومن عصر "أور" نجد أن الـ"نوباندا" يقودون الجند. وقد وصلتنا من ذلك العصر نماذج

لأدوات الحرب كالخنجر والخوذة، كما ظهرت صور العجلات التي تجرها الحمير[1].

وقد نظم قانون حمورابي أمر الخدمة العسكرية، وكانت الدولة تمنح الأراضي الزراعية من أملاكها الخاصة للجنود في مقابل الخدمة العسكرية. وتلك الأراضي لا يجوز بيعها أو رهنها أو تأجيرها، وإنما يسمح للابن أو لشخص آخر باستثمارها في مقابل تأدية الخدمة العسكرية في حال غياب المستثمر السابق[2] أو وفاته.

وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش يقوده بنفسه في المعارك أحياناً، أو يسند قيادته إلى أحد كبار الضباط (نوبانـدا) في أحيان أخرى. وتسمي قوانين حمورابي نوعين من الضباط هما: ديكوم (يحتمل أن يكون للفرق الخفيفة) ولوبيتوم (للفرق الثقيلة). كما تشير إلى أحكام خاصة بنوعين من الجنود هما: الريدوم (يحتمل أن يكونوا جنود الفرق الخفيفة) والبيروم (جنود الفرق الثقيلة).[3] وألزم القانون معبد المدينة أو القرية التي ينتسب إليها الريدوم، أو البيروم بدفع الفدية في حالة أسرهما وعدم تمكنهما من افتداء نفسيهما. وقد فرض على الأهلين في العهد البابلي الأخير ضرائب خصصت للإنفاق على المحاربين أو للمساهمة في تكاليف الجنود[4].

وفي العهد الآشوري كان الجيش عماد الدولة، قامت على يديه ودامت بقوته وحكمت الشعوب بواسطته. لذلك أولاه الحكام عناية شديدة وعملوا على تقويته وتسليحه بأحسن الأسلحة. وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش يخرج على رأس الحملة وإن لم يستطع قاده الـ"تورتان" نائب القائد الأعلى[5]. وعند عودة الملك من الحرب كان عليه أن يقدم إلى الإله آشور تقريراً مفصلاً عن حملته الحربية[6].

---

(1) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 35/6.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 117.

(3) المصدر نفسه، ص 115.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 35/6.

(5) ديلا بورت. ل: المصدر السابق، ص 337.

(6) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 37/6.

وكان الجيش يتألف من العناصر الآشورية بصورة رئيسية وأحياناً يستعين الملك بفرق مرتزقة من شعوب البلدان المغلوبة. وقد ازداد هؤلاء المرتزقة مع الزمن وخصوصاً في عهد تدهور الدولة حين أصبح الحكام يتوجسون خيفة من فرق الجنود الآشوريين. وفي النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وضع آشور بانيبال الأسس المستقبلية لقوة آشور العسكرية التي تعززت في زمن تغلات فلأسر الثالث وسارغون الثاني. وقد أصبح الجيش الآشوري بعد إصلاحه في النصف الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد يتألف من الفرق التالية:

1 - فرق الخيالة (الفرسان) وسلاحهم يتألف من الأقواس والرماح. وكانوا يركبون الخيل دون سرج أو لجام ويصحب كل فارس منهم خادم يركب على حصان مثله ليقود له حصانه أثناء المعركة، ثم أسرجت واختفى الخادم في زمن آشور بانيبال نتيجة لتقدم فن الفروسية[1]. وتشكلت فرق الفرسان من أبناء الطبقات الغنية[2].

2 - فرق عربات القتال: تتألف عربة القتال من صندوق كبير مركب فوق عجلتين ضخمتين عاليتين يجرها حصانان. ويركب هذه العربة ثلاثة أشخاص: سائق إلى اليسار لقيادتها، ومحارب مسلح بالحربة أو القوس وخادم يحميهما بترس[3]. وكان راكبو العربات يؤخذون أيضاً من أبناء الطبقات الغنية.

3 - فرق المشاة بنوعيها الثقيلة والخفيفة: فالمشاة الثقيلة تسلحت بالرماح الطويلة والسيوف القصيرة وارتدت دروعاً معدنية وخوذاً مخروطية مزودة قطعاً جانبية لحماية الأذنين. وتسلحت المشاة الخفيفة بالأقواس والسهام القصيرة ولبست دروعاً معدنية وخوذاً مخروطية تتدلى منها قطع جانبية لحماية الأذنين. وتشكلت فرق المشاة من الناس البسطاء[4].

---

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 339.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 156.

(3) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 339.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 156.

4- فرق أخرى مهمتها القيام بالحصار واقتحام الحصون بواسطة أبراج من الحديد المصفح يكمن فيها رماة السهام والمهاجمون وفي مقدمتها أعمدة من الحديد لدك الأسوار[1]. وجماعات لشق الطرق ونصب الجسور[2] (سلاح الهندسة) وفرق الكشافة (سلاح الاستطلاع) التي كانت تسبق الجيش لجمع المعلومات عن قوة العدو وتحركاته وخططه. كما استخدم الآشوريون الجواسيس لأغراض عسكرية[3].

وكان الجيش يقسم عادة إلى مجموعات تتشكل من ألف، ومائة، وخمسين وعشرة[4]. ومما ساعد على نجاح عمليات الجيش الآشوري السرعة والمفاجأة في مهاجمة العدو واستخدام الأسلحة الحديدية وشجاعة الجنود وصلابتهم والتدريب المتواصل والانضباط التام[5].

وكانت المعركة تبدأ بهجوم العربات يتبعها المشاة الذين يضربون صفوف العدو المتفككة ثم يتقدم الفرسان لملاحقة العدو المتقهقر أو المهزوم[6]. وإذا كانت المعركة تستدعي حصار سور المدينة فإن الجنود العمال يعملون معاولهم في السور ويحاولون هدمه، بينما يرقى فريق آخر من الجند برجاً له عجلات ويرشقون الأعداء الواقفين في أعلى السور بالسهام؛ ومتى استطاع الجنود العمال إحداث ثغرة في السور نفذ المحاربون منها إلى داخل المدينة وأعملوا القتل في الجنود المدافعين عنها حتى يبيدوهم ويحققوا النصر على خصومهم[7].

وجرت عادة الملوك أن يدخلوا المعركة وهم راكبون عرباتهم ومتقدمون الصفوف.

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 37/6.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 156.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 157.

(5) المصدر نفسه.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 214.

(7) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، 216/1.

وكثيراً ما كان الملك يترك عربته ويقاتل في صف جنوده[1]. وكانت حصة الإله من الغنائم تقدم إلى المعابد، وحصة الأسد للملك وقادة الجيش، وما تبقى يوزع على الجنود. ثم يفرض الملك الجزية إذا استسلمت المدينة وإلا أحرقها وأضرم النار في بيوتها ومحصولاتها وصادر أموالها وسبى نساءها وأطفالها وقتل مقاتليها واقتاد أسراها[2]. وتمثل بعض النقوش التي يعود تاريخها إلى القرنين التاسع والثامن ق.م، اقتياد الأسرى إلى العبودية وهم عراة وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم وأعناقهم في أطواق من الخشب[3].

الأسطول: أولى الآشوريون اهتمامهم إنشاء أسطول بحري لاستخدامه في التوسع عبر الخليج العربي وفي البحر الأبيض المتوسط، وساعدهم على ذلك خبرة الفينيقيين وأخشاب بلادهم الجيدة. وقد استخدم الآشوريون الأساطيل في حروبهم ضد العيلاميين ودويلات أهل البحر وفي فتح جزيرة قبرص. وسبقت الإشارة إلى أن سنحاريب أمر بصنع السفن الحربية للقضاء على دويلات أهل البحر في أقصى جنوب بلاد الرافدين، وجلب لذلك صناعاً ماهرين من الفينيقيين واليونان وانحدر بأسطوله نحو الجنوب عابراً الأهوار حتى وصل إلى البحر وفتح جميع دويلات الخليج[4]. وقد عثر على صور لتلك السفن منقوشة على جدران قصر سارغون الثاني ونقلت إلى متحف اللوفر في باريس. ويبدو من الصور أن مؤخرة السفن الآشورية كانت مرتفعة ومقدمتها على شكل رأس حيوان كالمراكب الفينيقيا[5].

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 39/6 – 40.

(3) المصدر نفسه؛ جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 215.

(4) انظر ص: 280.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 157.

الفصل الخامس والعشرون

البنية الاقتصادية

مع نمو القوى المنتجة وتقدم المعارف التقنية والتوسع في إنشاء منظومات الري الاصطناعي وخصوصاً عند توحد البلاد وقيام الدولة المركزية، تطور الإنتاج الزراعي وتكون فائض للتصدير، واهتمت القوانين بتنظيم العلاقات الزراعية بين المالك والمستأجر، وتطورت الحرفة بتطور الزراعة وتربية الماشية ولا سيما نشاط التجارة التي وفرت لها الخامات الضرورية وخصوصاً المعادن التي كان العراق فقيراً بها، وظهر الحرفيون في المدن وتعددت المهن ونظمت. وساعد توحيد البلاد والاهتمام بتنظيم المواصلات والحاجة إلى المواد الأولية للصناعة والبناء وتصريف فائض الإنتاج على تنشيط الحركة التجارية واتساعها. وأغنى العراقيون القدماء التراث الحضاري بكثير من المصطلحات التجارية. وتعطي دراسة قطاعات الزراعة والحرفة والتجارة فكرة واضحة عن البنية الاقتصادية والمتغيرات التي طرأت عليها.

الزراعة: كان للزراعة مكانة هامة في الحياة الاقتصادية لبلاد الرافدين. وكان يعمل بها ويعيش منها غالبية السكان. وقد هيأت الطبيعة الأرض الغرينية الخصيبة والمياه الوفيرة، وخصوصاً في المنطقة الوسطى والجنوبية من البلاد. وقد شبه كثير من كتاب الإغريق والرومان بلاد ما بين النهرين بأنها "ألدرادو" أي بلاد الذهب والخير في الزراعة. وبالغ

بعضهم في تقدير المحصول الزراعي الناتج، حتى أن هيرودوت قدره بمائة أو مائتي مرة[1]. وهذا يذكرنا بتسمية العرب أرض العراق بـ"السواد" لكثرة زرعها وخضرتها. ولكن الشيء المهم هو أن هذه الشهرة لم تكن لتحصل إلا بعمل الإنسان وجهده ولا سيما في تنظيم الري الذي هو أساس الزراعة.

ومنذ أقدم العصور جرت عمليات مسح الأراضي وتقسيمها وتثبيت ملكيتها. كما شقت الدولة الأقنية وحفرت الترع للري، وأقامت المكاتب وفيها المهندسون المسؤولون عن العناية بالشبكات المائية عموماً.

اكتشف العراقيون الأوائل الزراعة ومارسوها منذ العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في ميزوبوتاميا العليا، حيث كانت كمية الأمطار تكفي لزراعة بدائية. يؤكد ذلك الآلات الزراعية التي عثر عليها علماء الآثار في "تل حسونة" والتي يعود تاريخها إلى حوالى 4800 ق.م.

وعندما تراجعت مياه الخليج العربي وتشكل السهل الغريني الخصيب في ميزوبوتاميا السفلى، نزحت إليه، في الألف الخامس ق.م.، جماعات من شمال العراق، حاملة معها كل ما تراكم لديها من تقاليد حضارية زراعية، وشرعت تعمل بدأب في تجفيف المستنقعات وشق الأقنية وحفر الترع وإنشاء الخزانات وبناء السدود والحواجز وغيرها من أعمال الري والصرف. فبالعمل الدؤوب والجهد الجماعي تمكن العراقيون القدامى من تحويل السهل المستنقعي الموبوء إلى أرض صالحة للزراعة ولحياة الإنسان.

والأرض الفيضية التي تكون سهول دجلة والفرات خصبة بطبيعتها، ولكن رغم صلاحية التربة فإن ندرة الأمطار جعلت حوالى نصف ما يصلح من أراضيها الزراعية أرضاً قاحلة. وقد عوضت الأنهار وشبكة الري الواسعة من الأقنية والترع الصناعية هذا النقص جزئياً حتى غدا للإنتاج الزراعي فائض يصلح للتصدير والتبادل التجاري. وهكذا أيضاً أصبح الري الدعامة الأساسية لحياة البلاد الاقتصادية.

(1) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول، تاريخ العراق القديم، ص 415.

لقد قامت المشاعيات بالأعمال الأولى لتنظيم الري والصرف. ولكن المشاريع الكبرى تعود بالتأكيد إلى الدولة. وجدير بالملاحظة أن أعمال الري والصرف قد تركزت في المنطقة الوسطى من العراق ولا سيما في حوض الفرات، وذلك لخصب التربة، وشح المطر، ووفرة المياه، وقلة انحدار الفرات. ومما كان يسهل الري بالسيح وفرة مياهه في الصيف، وارتفاع مجرى الفرات عن دجلة مما ساعد على شق القنوات بين النهرين ويسّر عملية الري وبالتالي زراعة الوادي بطريقة منظمة، ولوجود المنخفضات الطبيعية في جوانب الفرات الغربية وهي صالحة لجعلها خزانات لتصريف مياه الفيضان. أما دجلة فيجري بين ضفتين عاليتين مما دعا إلى إنشاء السدود لتحويل جزء من مياهه إلى الأراضي المجاورة. وقد أدرك قدماء العراقيين أهمية الرافدين الخالدين وأثرهما في حياتهم فألهوهما كما ألّه المصريون نيلهم.

وقد استلزم شق القنوات وإقامة الخزانات والسدود ومصارف المياه سلسلة من المعلومات والدراسات والمسح والمخططات القائمة على الفن الهندسي. تشهد على ذلك صور مخططات الجداول والأنهار على ألواح الطين التي تناهت إلينا من عصر فجر السلالات ومنها مثلاً قطعة من لوحة مثلت عليها قناة شقت بأمر من أيانا توم حاكم لاغاش ألحق بها خزان تزيد سعته على الألف هكتوليتر[1].

وفصّلت لوحة أخرى أعمال السخرة، وتبين أن تنفيذ القناة قد تم وفقاً لخطة موضوعة[2]. وقد طغت أخبار شق الأنهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم. وكان حفر نهر جديد حدثاً هاماً يؤرخون به الحوادث. ونصت شريعة حمورابي في المواد (53 – 56) على عقوبة الفلاح الذي يتسبب بحدوث أضرار تلحق بحقول جيرانه نتيجة إهماله صيانة الجداول الموجودة في أرضه.

وكان من بين الأقنية الهامة التي شقت من الفرات إلى دجلة، قناة أنليل (نهر عيسى في

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 128.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

العصر العباسي) وقناة ثانية عرفت في زمن العباسيين بنهر صرصر، ونهر "نارشاي" أي نهر الملك، ونهر كوثي[1].

وكان يتفرع من الفرات فوق بابل بقليل شط النيل العظيم ويمر بمدينة كيش[2]. وكان نهر الدجيل أيضاً يربط دجلة بالفرات[3]. وقد تفرعت من هذه الجداول الكبرى أقنية فرعية كثيرة جعلت السهل الجنوبي شبكة من الأنهار تروي مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية.

وبعد أن حقق حمورابي وحدة الإمبراطورية شرع في تنفيذ مشروعات هامة، فشق "نهر حمورابي" ودعاه "ثروة الشعب التي تجلب ماء وفيراً لسومر وأكاد"[4]. وكان نهر حمورابي نهراً عظيماً يخرج من الفرات بالقرب من بورسيبا ماراً بـ"أومّا" و"لارسا" حيث ينعطف منها نحو الخليج العربي[5]. كما أن في رسائله الشيء الكثير مما كان يصدره من الأوامر إلى ولاته وعماله يأمرهم فيها بكري الأنهار وصيانتها والمحافظة على الآلات المستعملة في الري[6].

ولما كان دجلة يجري معظم أوقات السنة بين شواطئ عالية دعت الحاجة إلى إنشاء السدود لتحويل قسم من مياهه إلى الأراضي المجاورة، كما شقت في كلتا ضفتيه أنهار فرعية كالدجيل والنهروان[7].

وواصل الملوك الكلدانيون، شأن أسلافهم من ملوك الدولة البابلية الأولى، الاهتمام بالري. وتذكر الوثائق أن نبوخذنصر، باني الجنائن المعلقة في بابل، يفاخر بتلقيب نفسه بـ"راوي الحقول وفلاح بابل"[8].

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 428.

(2) المصدر نفسه، ص 429.

(3) المصدر نفسه.

(4) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 129.

(5) المصدر نفسه.

(6) باقر، طه: المصدر السابق، ص 429.

(7) المصدر نفسه، ص 428.

(8) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولم يكن الغرض من شق القنوات أن تستخدم في الري فقط بل استخدمت أيضاً كوسائل للنقل والمواصلات وللتخفيف من وطأة الفيضان ولا سيما فيضان الفرات.

ومما لا شك فيه أنهم استغلوا بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من الضفاف الغربية من الفرات وجعلوها خزانات ومصاريف للمياه، كما استفادوا، في الوقت نفسه، من هذه الخزانات لأغراض الدفاع[1].

وكانت القنوات الأقل أهمية تحمل الماء إلى أطراف الحقول والمراعي ومن هناك تسحب عن طريق أدوات رافعة تديرها ثيران أو بواسطة دلاء رافعة وذلك منذ عصر فجر السلالات[2]. وقد مثلت هذه الأدوات في منظر للحياة الزراعية على ختم اسطواني[3].

استخدم العراقيون القدماء أدوات زراعية صنعوها من الحجارة والفخار والخشب والمعدن. ويعد المحراث في مقدمة الأدوات الزراعية. وكان آلة بسيطة في عصور ما قبل التاريخ تستهدف حرث قطعة صغيرة من الأرض وتقليبها، يتألف من قطعة من الحجر يثبتونها بمقبض خشبي، وطور فيما بعد حيث أدخلت إليه بعض التحسينات وأضيفت إليه أجزاء هامة ومنها أداة لبذر البذور على هيئة قمع تعمل أثناء جر المحراث، فأصبح المحراث البسيط آلة مركبة[4] تحرث وتبذر في الوقت نفسه. واستخدمت الحمير والثيران لجر المحراث. وظهر على إحدى الإسطوانات القديمة منظر للحرث يظهر فيه الحراث ممسكاً بالمحراث من الخلف بكلتا يديه ورجال مزودون بالعصي والسياط يدفعون بها الحيوانات[5].

ويلي المحراث في الأهمية من ناحية تقليب الأرض أنواع من الفؤوس تختلف حجماً باختلاف الغرض من استعمالها في الحقول أو البساتين. ومن آلات الحصاد التي تناهت

(1) المصدر نفسه، ص 430.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 130.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) تناهت إلينا صور لهذه الآلة «الحارثة الباذرة» منقوشة على الألواح بعضها يعود تاريخه إلى العهد الكاشي.

(5) المصدر نفسه، ص 132.

إلينا من المواقع القديمة في العراق نماذج مختلفة من المناجل، منها: منجل من الصوان ثبت بالقير مع مقبض خشبي، ومنجل آخر مصنوع من الفخار (من عهد العبيد)، ومناجل مصنوعة من النحاس والبرونز. وقد كثر استعمال المناجل المعدنية في العصور التاريخية عندما عرف العراقيون المعادن واستخدموها في صناعة أدواتهم.

تبدأ عملية زراعة الحقل بالحراثة والبذر، وحين يحل موسم حصاد الحبوب تقطع السيقان بالمناجل ثم توطأ بقوائم الحيوانات وتجمع الحبوب على شكل أكوام ثم تذرى بالمذراة وتنقل لتخبأ في الأنبار[1] وقد حددت قوانين حمورابي في المواد 268 – 270 أجور حيوانات الحرث والدرس.

وكان العراقيون يفرقون بين الحقل والبستان: أما الحقل فيقصد به الأرض التي تزرع حبوباً وتحرث بالمحراث. وأما البستان فهو الذي تزرع فيه الأشجار: أشجار الفاكهة والنخيل ويعزق بالفأس[2]. وهناك كذلك المرعى، وهو لا يحتاج الى عناية أكثر من سقيه وقطع كلئه. وكانت تطلق فيه الحمير والثيران والأغنام لترعى[3].

وأهم المحاصيل الزراعية الحقلية: الشعير والقمح والذرة والدخن والسمسم، وأدخل الرز إلى العراق في العهد الآشوري المتأخر عن طريق إيران وكثر استعماله في العهد الفارسي الأخميني[4].

وأهم أشجار البساتين: النخيل والتين والعنب والرمان والتفاح والكمثرى واللوز والفستق والزيتون. واهتدى العراقيون إلى زراعة القطن (شجرة الصوف حسب وصف سنحاريب وهيرودوت) ويرجح أنه جلب من الهند[5].

وكانت النخلة أقدم شجرة وأهم شجرة في العراق. وقد بدأت زراعة النخيل في القسم

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 96.

(2) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 185/6.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 420.

(5) المصدر نفسه، ص 421.

الجنوبي من العراق منذ بداية استيطانه حوالى سنة 4000 ق.م. ومن المحتمل أن يكون موطن النخيل الأصلي في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية أو أنه من أفريقيا أو الهند[1]. ولا يزال السهل الجنوبي إلى يومنا هذا المنطقة الرئيسية التي تتركز فيها زراعة النخيل. وتشير الوثائق إلى أنهم قاموا بدراسات واسعة لاستثماره على الوجه الصحيح. فكانوا يفرون تربة البستان ويقلبونها، كما حددوا المسافة بين نخلة وأخرى بحوالى عشرة أمتار، ولجأوا إلى التلقيح الصناعي وإلى زرعه فسائل لأنهم أدركوا أن زرع النوى إن أثمر فإنما يثمر ثمراً رديئاً[2]. وقد أشارت شريعة حمورابي إلى زراعة النخيل وحددت طرائق التعامل بين مستأجر البستان وصاحبه وفرضت عقوبات على من يقطع نخلة بدون إذن صاحبها[3] (المادة 59).

وللنخيل أهمية اقتصادية كبيرة، فثمرته طعام فيه كثير من العناصر الغذائية (كالبروتين والشحوم والأملاح والكاربوهيدرات). والشجرة نفسها مأوى وملبس ووقود ومادة للبناء. ويستخرج من ثمرها منتجات كثيرة كالدبس (دشبوه في اللغة البابلية) وأنواع الشراب والخمور[4]. وقد وصفها الكاتب الروماني "استرابون" قائلاً: "إن شجرة النخيل تزود البابليين بجميع حاجياتهم باستثناء الحبوب"[5].

ملكية الأرض والعلاقات الزراعية: منذ تفسخ المشاعية البدائية أخذت ملكية الأراضي تتحول تدريجاً إلى أيدي الأفراد والقصور (الملك والطبقة الحاكمة) والمعابد. ففي عهد أسرة أور الثالثة تشكلت في بلاد سومر ملكيات كبيرة (لاتيفونديا) ذات مساحة تراوح بين (100 – 300 هكتار). وفي عهد الدولة الأولى، كان الملك يعتبر اسمياً المالك المطلق لجميع

(1) المصدر نفسه، ص 422.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 186/6.

(3) المصدر نفسه.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 424.

(5) المصدر نفسه.

أراضي الإمبراطورية[1]. وكان لزوجة الملك وأولادها ولموظفي الدولة أملاك خاصة بهم. كما كانت المعابد تستأثر بأملاك شاسعة. فقد قدرت مساحة الأراضي العائدة ملكيتها إلى معابد لاغاش، حوالى منتصف الألف الثالث ق.م.، بما يقارب نصف الأراضي المزروعة في المملكة[2]. وجاءت جميع التشريعات، سواء منها شريعة حمورابي أو القوانين السومرية- الأكادية التي سبقتها والشرائع الآشورية والكلدانية التي تلتها، مدافعة عن الملكية العقارية الخاصة ومكرسة إياها.

وكانت المساحة المملوكة ملكية خاصة توضع لها حدود ثابتة تعيّن مساحتها. وأما ملكيتها فتثبت بواسطة الوثائق... وكانت علامات الحدود الـ"كودورو" عبارة عن ألواح حجرية تحفر فيها علامات ونقوش تبين اسم المالك وحدود الأرض ثم تحفظ في المعابد. وقد ورد في النقوش المحفورة في هذه الوثائق ما يضفي الصفة القدسية على الأملاك الخاصة[3]. والملكية العقارية ثلاثة أنواع هي: أملاك دولة، وأملاك معابد، وأملاك خاصة.

1 - أملاك الدولة: وكان الملك يوزع منها بموجب عقد على محاربيه وموظفيه في مقابل قيامهم بخدمات عامة، أو على الزرّاع في مقابل دفع ضريبة عينية. وهذه الأراضي لا تباع ولا ترهن، كما كان يقطع منها أحياناً بعض الأمراء ورجال الدولة إقطاعيات كملكية خاصة يحق توريثها وبيعها وتخضع لالتزامات الضرائب إلا إذا أعفيت بمرسوم ملكي خاص. من ذلك أن الملك "مليشيباك" أقطع ابنه اقطاعية وذكر في مرسومه الالتزامات التي أعفاه منها على الصورة التالية: "لا تؤخذ ضريبة على باكورة ثمار أرضه ولا العشور ولا يستدعى رجال اقطاعيته ضمن الفرق التي تشكل في مدن ناحية نينا أغاده للسخرة أو للعمل أو للتوقي من الفيضان أو لصيانة وتدعيم الجسور للقنوات الملكية أو حماية مدن بيت سيكاميدو وداميك أداد وهم ليسوا ملزمين بأن يسخروا للعمل في سد القناة الملكية وإقامة الجسور وإغلاق قاع القناة أو تطهيره. ولا يستطيع أي حاكم لـ"بيت بير شادو رابو"(Bit-pir shadou rabou)

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 114.

(2) المصدر نفسه، ص 100.

(3) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 124.

أن يخرج مزارعاً أجنبياً كان أو مواطناً، ولا يجوز الاستيلاء - عن طريق أمر ملكي أو أمر من الحاكم أو أمر أيّ إنسان كائناً من يكون - على أخشاب أو حشائش أو هشيم أو شعير أو أي محصول آخر أو عجلان وكدنها أو حمار أو رجل. كما لا يجوز سحب الماء من ترعة الري عند عدم وجود الماء الكافي في القناة الموصلة بين راتي أنزانيم وقناة الإقليم الملكي. كما لا يجوز أخذ مياه من جدول خزانه أو تقسيم الري إلى قسمين ومد أملاك أخرى بالمياه منه بقصد الري أو الزراعة، ولا يجوز قطع الحشائش من أرضه كما لا يجوز أن تساق حيوانات الملك أو الحاكم إليها أو جمع حشائشها للعلف. وليسوا ملزمين بتعبيد أي طريق أو جسر سواء أكان ذلك للملك أم للحاكم أو بتنفيذ أية سخرة جديدة يفرضها ملك أو حاكم في المستقبل أو أية سخرة زالت وأريد العودة إليها"[1].

2 - أملاك المعابد: وكانت تستثمر بطريقتين: في الأولى تؤجر من المزارعين الأحرار الذين يتلقون أيضاً في الغالب حيوانات الزراعة وحبوب البذار، على أن يدفع هؤلاء للمعبد المؤجر حصة من الإنتاج لقاء انتفاعهم من هذه الحصص[2]. وفي الطريقة الثانية يجري استثمارها مباشرة من قبل المعبد، ويقوم بالعمل فيها عبيد ومزارعون أحرار "شوبلوغالي" يتوجب عليهم أن يصبوا المحصول كله في أنبار المعبد، ويتلقون في مقابل جهودهم مقداراً من القمح وأحياناً مواد أخرى[3].

وكان المصدر الرئيس لملكية المعابد من الأراضي هو غنائم الحرب، حيث كان الفاتحون يهبون المعابد الكبرى حصة من الأراضي والأسرى وغير ذلك من المغانم والأسلاب كما استولت المعابد على جزء من أراضي المشاعيات. وتذكر النصوص أن معابد لاغاش كانت تملك، حوالى منتصف الألف الثالث ق.م، ما يقرب من نصف الأراضي المزروعة في المملكة[4].

---

(1) المصدر السابق، ص 127.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 100.

(3) المصدر نفسه.

(4) انظر ص: 305 - 306.

وقد أغدق الملوك المنح والهدايا السخية على المعابد، بغية استخدامها للدفاع عن السلطة الملكية الأرستقراطية بما لها من تأثير ايديولوجي في الجماهير الشعبية.

وكانت الفئة العليا من رجال الدين تتألف من النبلاء. وقد عاش أرستقراطيو الكهنة في يسر ورفاه على حساب استغلال الجماهير العاملة (من الزراع والحرفيين والعبيد) وبؤسها. ولم يكن لجشعهم حدود. واتبعوا مختلف الأساليب في نهب الجماهير الشعبية ومن ضمنها ممارسة الأعمال الربوية وزيادة الرسوم على دفن الموتى، بل إنهم وقفوا دائماً في الصف المناوئ للحركات الشعبية، ولم يتورعوا من التآمر مع الأجانب على حرية واستقلال وطنهم في سبيل الحفاظ على مصالحهم الأنانية الضيقة وتوسيعها.

3 - الأملاك الخاصة: صغيرة ومتوسطة وكبيرة. وتشير الحسابات التقديرية إلى أن حوالى 90 % من الملكية الخاصة في عهد الدولة البابلية الأولى، كان على شكل ملكيات متواضعة لا تتجاوز مساحة الواحدة 8.5 هكتارات، وأكبرها مساحة في ذلك العصر لا تزيد على 31.5 هكتاراً[1]. وكانت أراضي الملاكين الأفراد تستثمر مباشرة أو تؤجر حصصاً.

واهتمت القوانين بتنظيم العلاقات الزراعية بين المالك والمستأجر. فقد نظمت شريعة حمورابي شروط إيجار الحقول والبساتين. فمستأجر الحقل المهمل الذي لا يحرث الأرض أو لا يهتم بالمحصول عليه أن يدفع إلى مالك الأرض الأصلي حصته حتى ولو لم يكن هناك محصول، كما عليه أن يحرث الحقل ويعيده إلى صاحبه (المواد: 42، 43، 44). والفلاح مالكاً أو مستأجراً عليه أن يعوض كل عطل أو ضرر يسببه لأرض جيرانه إذا أهمل إصلاح السدود أو السواقي الموجودة في أرضه فتسربت المياه إلى الأرض المجاورة المزروعة وأضرت بها (المادة 53). وإذا لم يكن قادراً على التعويض يباع هو نفسه كما يباع متاعه ويقسم المال بين المتضررين (المادة 54). وإذا أعطي ملاك أرضه الى بستاني كي يحولها إلى بستان مشجر بالأشجار المثمرة تقاسم الطرفان المحصول مناصفة اعتباراً من العام الخامس، ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل (المادة 60). وإذا لم يشجر قسماً منها اعتبر

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 115.

ذلك القسم في حصة البستاني المستأجر (المادة 61). أما إذا لم يشجرها مطلقاً فعليه أن يعوض صاحبها الأصلي حصة تقاس على أساس إنتاج أرض مجاورة عن كل سنة خلال مدة تسلمها، ومن ثم عليه أن يحرثها ويعيدها الى المالك الأصلي (المادة 62). وإذا أجر رجل بستانه لبستاني لاستغلاله ينال المؤجر ثلثي المحصول والمستأجر ثلثه الآخر (المادة 64). وأما إذا لم يقم البستاني بتلقيح الأشجار ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع إيجار البستان بما يعادل ايجار المثل المجاور (المادة 65). وإذا قطع رجل شجرة من بستان رجل آخر دون موافقة صاحبه عليه أن يدفع نصف منيا من الفضة عن الشجرة الواحدة (المادة 59).

وقد حمت قوانين حمورابي صغار الزراع من جشع المرابين. فإذا استدان فلاح أموالاً بالفائدة لتوفير البذار وحدث قحط أو فيضان أو غير ذلك وتلف المحصول، فإن الفلاح يُعفى من دفع الفائدة إلى المرابي عن تلك السنة (المادة 48).

ونظمت شريعة حمورابي أيضاً شروط استئجار العمال الزراعيين والحيوانات المستخدمة في حراثة الحقل ودراسة المحصول أو نقله. فمن يستأجر عاملاً زراعياً لمدة سنة عليه أن يدفع له 6 شي من الفضة في اليوم الواحد (المادة 273). وكانت أجرة الثور لدرس المحصول عشرين وزنة من الحبوب في اليوم (المادة 268) وأجرة الحمار 10 وزنات من الحبوب (المادة 269) وأجرة الغنمة أو العنزة وزنة واحدة (المادة 270).

يتضح مما تقدم أن القوانين في العراق القديم عبّرت بكل سطوع عن مصالح ملاك الأراضي وكرست نظام الاستغلال العبودي، واستغلال المالكين غير المالكين واستغلال المالكين للمستأجرين وصغار المزارعين، واستغلال السادة للعبيد.

تربية المواشي

اهتم العراقيون القدماء بتربية الأغنام والماعز والأبقار والحمير والخيل ومختلف الدواجن باستثناء الدجاج الذي يرجح أنه أدخل إلى العراق من الهند في العهد الكلداني أو

ما قبل ذلك بقليل[1]. وغدت هذه الحيوانات إلى جانب الزراعة مورد حياتهم الرئيس، فضلًا عن فوائدها الجلى في الأعمال الزراعية وفي النقل.

وقد تركزت مناطق التربية في المروج المستنقعية في بلاد سومر وأكاد وعلى سفوح الجبال، وأحياناً كانت تربى في الحظائر وتعلف بالحبوب. ولم تكن المراعي في حاجة إلى عناية أكثر من سقيها وقطع كلئها. وتقدم المناظر الخاصة بالمراعي والمنقوشة على الأختام الاسطوانية أمثلة عديدة على ذلك[2].

وقد نظمت القوانين العلاقة بين أصحاب القطعان والرعاة. وكان الرعاة يتقاضون عادة أجراً سنوياً مقداره 8 "كورا" من الحبوب (المادة 261 من قانون حمورابي). وعلى الراعي مراقبة القطيع جيداً، فإن ضاع منه شيء عليه أن يعوض صاحبه منه (المادة 263 من القانون نفسه). وإن هو غيّر عامداً من علامات الماشية أو باع واحدة منها لمصلحته فإنه يعرض نفسه إلى أن يدفع تعويضاً قد يبلغ عشرة أمثال قيمة ما سرق (المادة 265). وإذا حل بالقطيع ضرر كمهاجمة الوحوش مثلاً فعليه تعويض الخسارة لصاحب القطيع ما لم يستطع أن يبرئ نفسه بحلف اليمين لإثبات الظروف القاهرة الخارجة عن إرادته التي أدت إلى الخسارة (المادة 266). وفي المتحف العراقي إفريز بناء وجد في معبد تل العبيد زين بمشاهد منها منظر جميل يمثل بعض الشؤون الزراعية كحلب الأبقار وخض الحليب في زق كبير[3] (صناعة اللبن ومشتقاته).

الحرفة

تدل مخلفات الإنسان التي عثر عليها علماء الآثار في تل حسونة وتل العبيد والوركاء وجمدة نصر على مدى التقدم الذي حققه قدماء العراقيين في عصر فجر السلالات وما قبله في حقل الصناعة اليدوية ولا سيما الحفر في الآبنوس وأنواع المعادن المختلفة الذي يقود

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 418 – 419.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 131.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 418.

الى نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق.م. وقد وجدت بين هذه المخلفات تحف فنية مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص. وقد استدل العلماء من دراستها أن الصناع الذين قاموا بعملها كانوا يعرفون عمليات خلط المعان ولحامها وصقلها وطرقها وترصيعها وتطعيمها أو تكفيتها[1]. هذا فضلًا عن الأدوات والأواني التي صنعوها من الحجارة والفخار والخشب والعظم وغير ذلك.

وقد تطورت الحرفة بتطور الزراعة وتربية الماشية ولا سيما نشاط التجارة التي وفرت للحرفة المواد الخام الضرورية وخصوصاً المعادن التي كان العراق فقيراً إليها.

وكان يعمل في الحرفة الأحرار والعبيد. ومن بين الصناعات السومرية - الأكادية التي تشير إليها الألواح: الفخار، والنجارة، والأثاث، وحياكة النسيج، وورشات النحاس والبرونز لصنع الأسلحة (كالمدى والرماح وغيرها) وصناعة الحلي[2].

وفي عهد الدولة البابلية الأولى، تقدمت الصناعة وظهر الحرفيون في المدن وأصبحوا يعيشون مما تدره عليه مهنهم. وتعددت المهن ونظمت، وتألفت من الصنّاع في زمن حمورابي نقابات تسمى (القبائل). ووجدت أيضاً ورشات صناعية خاصة وورشات ملحقة بالمعابد والقصور الملكية تضم صناعاً ماهرين وآخرين متدربين يتعلمون أسرار المهنة[3].

واستخدم البابليون في الصناعة المعادن المختلفة كالنحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب استوردوها من بلاد آشور وفارس وآسيا الصغرى وقبرص ومصر[4]. واشتهرت بلاد الرافدين في عهد البابليين بصناعة الأقمشة وأثاث المنازل والأدوات المنزلية والأسلحة ودبغ الجلود والأحذية والزيت من السمسم والمشروبات المخمرة كنبيذ البلح والجعة وتحسنت أيضاً صناعة الآجر المستخدم في البناء، كما تطورت صناعة السفن والقوارب النهرية المستخدمة في النقل والتجارة.

---

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة، 184/1.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 97.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 128.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وقد نظمت قوانين حمورابي الحرفة والعلاقة بين الصانع الماهر (المعلم) والمتدرب (الأجير). وحددت أجور الصناع ومسؤولياتهم المدنية. وبموجب القوانين المذكورة: "إذا تبنى عضو من فئة الصناع ولداً وعلمه حرفته فله الحق ألا يرده إذا طالب به أهله الأصليون" (المادة 188). "أما إذا لم يكن قد علمه حرفته فيستطيع أن يعود إلى بيت أبيه" (المادة 190). وإذا استأجر رجل صانعاً يجب أن يدفع له 5 "شي" من الفضة في اليوم ولصانع الطوب كذا... وللحائك (النساج) كذا... وللحداد كذا... ولصانع الجلود كذا... وللبناء كذا... وللنجار كذا... ولصانع المعادن كذا... (نص المادة 274 التي تحدد أجور الصناع مشوه على نصب حمورابي).

وتطالب قوانين حمورابي الحرفيين بإتقان صناعاتهم. فصانع المركب الذي أساء صنعه وظهر فيه عطل خلال عام عليه أن يصلحه ويسلمه إلى صاحبه (المادة 235). والمعماري الذي يبني بيتاً لرجل وتتزعزع جدرانه عليه أن يدعم الحائط على نفقته (المادة 233). أما إذا انهار البيت وقتل أحد الأشخاص داخله أو تسبب في إتلاف المتاع فعلى البناء أن يعوض الخسارة على مبدأ (العين بالعين والسن بالسن)، فإذا قتل صاحب البيت يقتل البنّاء (المادة 239). وإذا قتل ابن صاحب البيت يقتل ابن البنّاء (المادة 230).

وفي عهد الدولة الكلدانية (البابلية الجديدة) كان السادة يبعثون بعبيدهم إلى الصنّاع المختصين لتعليمهم حرفهم في مقابل هدية يتقاضاها المعلم. وإلا فإنه يدفع تعويضاً إن أهمل تعليمه، وأما الهدية فتقدم عرفاناً بالجميل أكثر منها أجراً، ذلك لأن المعلم يفيد من عمل الصبي أثناء تدريبه[1]. ويحدث أيضاً أن المرابي كان يعلم عبده صنعة ما، ويساعده بعد ذلك على فتح ورشة، فيعمل فيها الصانع العبد على أن يقدم لسيده "ماناتو" من الفضة سنوياً[2].

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 136 - 137.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 228.

التجارة والمواصلات

لقد ساعد توحيد البلاد وإنشاء إمبراطورية واسعة والموقع الجغرافي الممتاز للعراق وحاجته إلى جلب المواد الخام الضرورية وتصريف فائض الإنتاج، ساعد كل ذلك على تنشيط التجارة في مختلف العهود التاريخية القديمة. وتشير الألواح الى أن السومريين استوردوا، منذ الألف الثالث ق.م.، المعادن والحجارة وأخشاب الأرز والخمور من خارج العراق[1].

وقد وضع سارغون الأكادي نظاماً موحداً للمقاييس والأوزان فساعد ذلك على تنشيط العلاقات التجارية داخل البلاد. وتشير مجموعة الألواح التي عثر عليها في "تلّو" إلى تبادل البضائع والمنتجات بين مختلف مدن الإمبراطورية الأكادية وخصوصاً بين أكاد ولاغاش. وفي عهد سلالة أور الثالثة نما الإنتاج البضاعي (إنتاج منتجات غير معدة للاستهلاك الشخصي بل للبيع، للمبادلة في السوق) وتطورت التجارة والربا.

وفي زمن حمورابي حدث توسع هائل في التجارة مع الشمال والغرب نتيجة للتوسع السياسي لبابل المتحدة. وكانت العاصمة الجديدة المركز الحقيقي لتجارة الشرق بفضل مركزها الجغرافي بين آسيا العليا والدنيا حيث يتقارب الرافدان[2]. وقد خصص قانون حمورابي 120 مادة من مجموع مواده البالغة 282 للمعاملات والشؤون التجارية. ونستدل من شريعة حمورابي أن التجار البابليين كانوا يعرضون بضائعهم في أمكنة خاصة، وكان لهم وكلاء في بعض فروع المحال التجارية، ويشكلون أحياناً شركات مساهمة[3]. وكان التاجر الكبير الممول (تامكاروم) يستثمر التاجر الصغير (شامالوم) الذي يرتحل مع البضاعة إلى المدن والمناطق البعيدة ليبيعها في مقابل حصة من الربح. وكان الأمر يتطلب أن يكون هناك عقد مختوم وموقع من الطرفين يحدد فيه بدقة المال أو البضاعة (كميتها ونوعها) والشروط

(1) المصدر نفسه، ص 97.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 139.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 126.

المتفق عليها من حيث الربح وغير ذلك. وكان على الوكيل أن يمسك حساباً دقيقاً عن عملياته ويسجل كل ما حصل عليه من أرباح[1]. كما كان عليه عند عودته أن يقدم كل رأس المال إلى موكله في مقابل إيصال بذلك ثم يأخذ من الأرباح النصيب الذي كان قد اتفق عليه قبل الارتحال (المادتان 104، 105). وإذا لم يحقق التاجر الجوال (الوكيل) ربحاً عليه أن يعيد رأس المال فقط إلى التاجر الممول مضاعفاً (المادة 101). أما إذا استطاع أن يبرر أسباب الخسارة فعليه أن يعيد رأس المال فقط إلى التاجر الممول (المادة 102). كما أنه يُعفى من دفع أي شيء إذا سرقت البضاعة أو ضاعت لقلة الأمن في الطرق أو لأسباب قاهرة لا ذنب له فيها ويشترط أن يؤيد ذلك بالقسم (المادة 103). وإذا حدث بينهما خلاف رفع إلى المحكمة للفصل فيه. فإذا كان الذنب على الوكيل (التاجر الجوال) عليه أن يدفع ثلاثة أمثال المبلغ إلى التاجر الممول، وإذا كان الذنب على التاجر الممول عليه أن يدفع ستة أمثال المبلغ المختلف عليه (المادة 107).

وقد نظمت قوانين حمورابي التعامل بالربا وأمور الإيداع والرهن والضمان والشراكة والمضاربة والعمولة والسمسرة وغير ذلك من المعاملات (المواد: 112 – 126). وكان يجب أن تتم جميع المعاملات بموجب عقود موقعة ومختومة من قبل أصحاب العلاقة والشهود. وكان سعر الفائدة (سيتو) لقروض الحبوب 33.3 % (ثلث رأس المال) وسعر الفائدة لقروض الفضة 20 % (خمس رأس المال) في السنة. وسمح القانون بتحصيل الديون مع فائدتها عند أجلها حتى ولو اضطر المدين أن يقدم نفسه (غالباً زوجته أو أولاده) للعمل لدى الدائن مدة ثلاث سنوات لتسديد الدين (المادة 117).

وكان يزاول الربا مرابون من "التامكاروم". ولم يحرم رجال الدين الربا أو على الأقل لم يستنكروه أو يزدروه، بل على العكس فإن العديد من الكهان والكاهنات كانوا يزاولونه. ولحماية المدين من المرابي أمر حمورابي أن يكتب عقد القرض ذي الفائدة في حضور موظف كان مكلفاً منذ عهد أور معرفة ما يسلم من أموال وحبوب وحيوانات وسلع من

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 140.

مختلف الأنواع[1]. ومع ذلك كان المرابون يتجاوزون هذين السعرين الرسميين للفائدة، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون[2]. وفي عداد أساليب تحايلهم على القانون، أنهم كانوا يلجأون إلى عدم ذكر الفائدة التي يتسلمها المرابي ويضيفها في الصك الجديد إلى رأس المال وبذا يحصل عليها مضاعفة[3].

وفي عهد الآشوريين، كان قلما يرد في العقود سعر الفائدة التي إن حددت فإنما تحدد لأجل يمتد على أساس الشهر أو السنة. أما إذا كان القرض بدون فائدة فإنه في حالة عدم سداد الدين في التاريخ المحدد تقدر فائدة تراوح بين 40 % - 140 % [4]. وأحياناً يشار إلى الفائدة بعبارة يزيد بمقدار الربع أو الثلث أو النصف أي أن الفائدة 25 % أو 33.3 % أو 50 % [5]. وقد حددت بعض العقود أن ثمن ما أقرض يجب أن يسدد فإن لم يسدد تسرِ عليه فائدة قدرها 100% [6].

وكان كهنة بابل يدعمون اتجاهات الملوك الكلدانيين إلى إنشاء إمبراطورية واسعة وسلطة قوية، لأنهم كانوا، على غرار المرابين المدنيين، قد اغتنوا في زمن الدولة العسكرية الآشورية، وأنهم أملوا منذ سقوطها أن يروا قيام دولة مماثلة في ظل الملوك الكلدانيين[7]. وكان الممثل الرئيس للرأسمال الربوي آنذاك بيت أجيبي في بابل.

وفي عهد آشور واصلت التجارة نشاطها وتوسعها. وقد اكتشف المنقبون عام 1948 – 1949م. موضعاً أثرياً وسط الأناضول اسمه "كول تبه" جنوب شرقي أنقرة، عثروا فيه على عدد كبير من ألواح الطين مكتوبة بالخط المسماري، والختوم الاسطوانية المستعملة في

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 154.

(2) ديورانت، ول: المصدر السابق، 204/2.

(3) د. ابراهيم، نجيب مخايل: المصدر السابق، 201/6.

(4) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 376.

(5) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 202/6.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) جماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق، ص 227.

المعاملات التجارية مما يجده الأثريون في مدن العراق القديم[1]. وظهر من التحريات أن تلك المدينة كان يتبعها مراكز أخرى في الأناضول وأنها كانت مرتبطة بمدينة آشور (الوطن الأم). وقد ثبت من دراسة الوثائق المذكورة معرفتهم بالحوالات التجارية عن طريق التبادل ومعرفتهم بكتب الاعتماد.

وفي زمن الإمبراطورية الآشورية الثانية (القرن 8 – 7 ق.م.) تطورت التجارة تطوراً شديداً. ولم يكن مرد هذا التطور إلى نمو القوى المنتجة في البلاد، وإنما سببته الفتوحات. فقد اغتنى قادة الجيش والكهنة والموظفون والجنود من غنائم الحرب. وكانت الجزية تمر أيضاً بين أيادي العسكريين والموظفين الجشعين قبل أن تصل إلى خزينة الملك. وقد كدّس الجنود ومنتفعون آخرون كثيراً من القيم الفائضة وباعوها في السوق. ونشأت سوق تجارية في مدينة نينوى، وازداد عدد التجار. وتتندر الوثائق حين تذكر أن عددهم هناك في هذه الحقبة التاريخية فاق نجوم السماء[2].

استخدم العراقيون القدماء المقايضة كأول وأقدم شكل لتبادل السلع. ثم استعملوا المعادن (النحاس والفضة والذهب) واسطة للتعامل لقياس قيمة المواد الأخرى عليها. فاستعملوا الفضة مثلاً على صورة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة ذات وزن محدد وتدفع لضمان نوعها وعيارها ووزنها[3]. وكانت هذه هي الخطوة الأولى للتطور نحو استخدام النقود. وتذكر المصادر القديمة أن قطعاً معدنية ذات أوزان معلومة مقدار كل منها نصف شاقل كانت متداولة في زمن الملك الآشوري سنحاريب تسمى "رؤوس عشتار"[4]. وكانت المدفوعات تتم بواسطة وزن الفضة أو المعادن الأخرى التي تتخذ أساساً للتبادل. وكانت هناك إدارة خاصة بشؤون الموازين والمكاييل. وكانت وحدات الموازين تصنع على صورة البط أو الأسود.

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 441.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 217.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 438.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وفي المتحف العراقي نماذج من هذه الأوزان الرسمية وهي منقوشة بالكتابة الرسمية التي تبين مقدار الوزن القياسي[1]. ولئن لما يعثر بين الآثار على ميزان إلا أنه لا بد أنهم عرفوا الميزان ذا الكفتين واستعملوه. فالكلمة مثناة في اللغة مما يشير إلى كفتي الميزان والفعل "وزن يزن" (شقالو ومنه كلمة شيقل) موجودة في اللغة[2]. وقد وجدت فعلًا صور رجل يحمل ميزاناً في يمناه ويلف آخر بيسراه[3]. وكانت الميوازين تتبع نظام العد الستيني، ووحدة الوزن كانت تدعى "مينا" وتزن (505) غرامات وهي تقسم إلى 60 شاقلاً ويزن الشاقل 8.416 غرامات... وكانت كل 60 مينا تعدل "وزنة" و"الوزنة" تزن 30.505 كيلوغراماً[4].

استخدم العراقيون القدامى الطرق النهرية والبحرية والبرية في نقل تجارتهم. ومنذ عصر فجر السلالات كان الفرات ودجلة والقنوات النهرية السبل الطبيعية للمواصلات بين مختلف مناطق سومر وأكاد. وقد عرفوا القوارب منذ الألف الرابع ق.م. وصنعوها من الخشب ومن القصب ومن الجلود (القربة)، وتوسعوا في أشكالها. فقد عثرت مديرية الآثار العراقية حديثاً في تنقيباتها في أريدو (أبو شهرين) على نموذج قارب يعد أقدم ما صنعه الإنسان إذ يرجع تاريخه إلى عهد العبيد حوالى 4000 سنة ق.م. [5]. وتطلعنا النقوش الأثرية على صور مراكب ذات مجاذيف من عهد أور ومراكب ذات ثلاثة طوابق ومراكب ضخمة لنقل الأخشاب (نقوش خرسباد) ثم مراكب للحمولة الثقيلة[6]. وقد نقل الملك "اورنينا" الأخشاب اللازمة لتشييد معابد لاغاش بطريق الماء. كما استجلب "غوديا" ملك

(1) المصدر نفسه، ص 437.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 195/6.

(4) المصدر نفسه، 196/6.

(5) باقر، طه: المصدر السابق، ص 439.

(6) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 193/6 - 194.

لاغـاش الأخشـاب والحجـارة والمعادن الثمينة عـن طريق الأنهر أيضاً[1]. وتحمل بعض الاسـطوانات القديمة صـور قـوارب بلغـت حمولـة بعضهـا في عهـد أور 90 كـوراً من الشـعير[2]. وكانـت المراكب تسـتعمل لنقل الـركاب والبضائـع معـاً. ولـم تكن السـفرة مـن لاغاش إلى سـوزا عاصمة عيلام تسـتغرق بالمراكـب أقل من شـهرين بالطريق النهري[3].

وقـد حـددت قوانيـن حمورابـي ثمـن السـفن التجاريـة وأجورهـا وأجـور الملاحيـن وشـروط الملاحـة والأضـرار الناجمـة عنهـا. فـكان ثمـن المركـب الـذي سـعته 60 "كـوراً" مـن الحبـوب شـاقلان مـن الفضـة (المـادة 234). وإذا حـدث عطـل فـي المركـب خـلال عـام مـن شـرائه فعلى صانعـه أن يصلحه علـى نفقته ويعيـده إلـى المشـتري (المـادة 235). وإذا اسـتأجر مراكبـي (مـلاح) سـفينة وغرقـت نتيجـة اهمالـه يدفع ثمنهـا (المـادة 236). وإذا اسـتأجر رجـل سـفينة وحملهـا بضائـع مـن حبـوب وصـوف وزيـت وغيـر ذلـك وغرقـت نتيجـة اهمـال المراكبـي عليـه أن يعـوض أصحاب البضاعـة وصاحب السـفينة مما فقـدوا (المادة 237). أمـا إذا اسـتأجر مـلاح سـفينة وغرقـت ولكنـه اسـتطاع انتشـالها فإنـه يدفـع نصـف قيمتهـا فضـة إلى صاحبهـا (المـادة 238). وكانـت أجـرة القـارب الطويـل 3 "شـي" من الفضـة في اليـوم الواحد (المـادة 275). وأجـرة قـارب التجديـف (2 1/2) "شـي" مـن الفضـة فـي اليـوم (المـادة 276). وأجرة السـفينة التي تسـع 60 "كـوراً" مـن الحبـوب سـدس شـاقل مـن الفضة فـي اليـوم (المـادة 277).

ولـم تقـل حركـة الملاحـة النهريـة فـي العهـد الكلدانـي: ففـي زمـن نابونيـد دفـع (1 1/4) شـاقل مـن الفضـة لقـاء اسـتئجار مركـب لنقـل ثلاثـة ثيـران وأربعـة وثلاثيـن رأسـاً مـن الماشـية الصغيـرة قدمهـا الأمـر الملكـي إلـى شـماش والآلهـة الآخريـن فـي سـيبار. هـذا وقـد ارتفعـت التعرفـة المعتـادة لاسـتئجار القـوارب منـذ زمـن حمورابـي وبلغـت فـي المتوسـط شـاقلاً واحـداً فـي اليـوم[4]. ومما

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 138.

(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص 138 – 139.

يجدر ذكره أن كلمة "ملاح" المستعملة في جميع الأقطار العربية أصلها سومري. واسم الملاح بالسومري يتألف من علامتين مسماريتين تدل الأولى (ما) على القارب والثانية (لاخ) بمعنى ذهب وجاء ولعل ذلك من حقيقة استعمال (المروي) [1].

واهتمت الحكومات بتعبيد الطرق التجارية البرية وبنت فيها القلاع والحصون لتأمين سير القوافل وسلامتها. وأنشأت نظام البريد لنقل الرسائل والأخبار. وقد عثر المنقبون حديثاً في منطقة الخابور شمالي سوريا على حصنين بناهما الملوك الأكاديون في منتصف الألف الثالث ق.م. للمحافظة على الطريق المهمة التي كانت تربط العراق بسوريا[2]. وكان سارغون الأكادي قد جرد حملة حربية على الأناضول لحماية مستوطنة تجارية أكادية في كباروسيا للتجارة بالصوف والفضة[3].

واستخدم العراقيون العربات وحيوانات الجر والركوب، الحمار والبغل والجمل، في تنقلاتهم البرية. أما الحصان الذي أدخله الكاشيون إلى بلاد الرافدين فكان يستعمل في الحرب أكثر من استعماله كوسيلة مواصلات.

وكانت الحاجة إلى عدد من المواد الخام الضرورية للصناعة والبناء قد حملت حكومات بلاد ما بين النهرين على تنمية التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة وخصوصاً مع عيلام في الشرق، وآسيا الصغرى في الشمال الغربي، وسوريا في الغرب، والجزيرة العربية وبلدان الخليج في الجنوب. فكانت عيلام تورد للعراق المعادن والحجارة، وآسيا الصغرى الفضة والمعادن، وسوريا أخشاب الأرز والخمور، والجزيرة العربية الأخشاب والحجارة الصلبة واللازورد والنحاس، وبلدان الخليج الصدف، والهند العاج والأحجار الكريمة، والقوقاز القصدير. وتشير الألواح القديمة المتبقية من أيام بابل إلى أنهم كانوا يصدرون إلى الخارج الأقمشة والأشياء المصنوعة والحمير. وليس هناك ما يدل على أنهم كانوا يصدرون المواد

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 439.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 439.

(3) المصدر نفسه.

الغذائية رغم وفرتها عندهم. ولعل السبب في ذلك صعوبة المواصلات وتعرض هذه المواد إلى التلف لطول الوقت الذي يستغرقه نقلها[1].

وقد أغنى العراقيون القدماء، وخصوصاً البابليون، تراث البشرية التجاري بكثير من مصطلحات البيع والشراء والمعاملات التجارية وكذا بعض أسماء المكاييل والموازين التي انتقلت إلى الشعوب الأخرى.

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 185/1.

الفصل السادس والعشرون

المجتمع العبودي في العراق القديم

عاش قدماء العراقيين حياتهم الاجتماعية الأولى على شكل عشائر وقبائل. وكان جميع أعضاء العشيرة متساوين في الحقوق الاجتماعية، يعمل الفرد لخير الجميع والجميع لخير الفرد. وكان للمرأة مكانة مرموقة بالنظر الى دورها النشيط في الحياة الاقتصادية مما جعل بعض العلماء يسمون مشاعية العشيرة هذه بـ"مشاعة الأمومة" والنظام الاجتماعي بـ"نظام الأمومة".

ومع تطور وسائل الري ونمو القوى المنتجة، وبالدرجة الأولى الأدوات الزراعية، انقسمت المشاعة العشيرية إلى مجموعة من الأسر الفلاحية الكبيرة والصغيرة، وأخذت تبرز تدريجاً عائلات قوية تستأثر بأحسن الغنائم، وحلت الأسرة الأبوية محل الأسرة الأموية ونشأت الطبقات الاجتماعية المتمايزة: طبقة النبلاء والأشراف التي استولت على السلطة والثروة وطبقة الناس البسطاء الفقراء الذين كان عليهم أن يخضعوا لحكم الأقوياء الأغنياء ويعملوا من أجلهم. وفيما بعد نشأت طبقة العبيد وتشكل المجتمع العبودي.

وقد تناهت إلينا مجموعة هامة من القوانين تساعدنا، بصورة جيدة، على دراسة المجتمع العراقي القديم وتطوره، أهم تلك القوانين:

1 - قوانين المصلح الاجتماعي أورو كاجينا ملك لاغاش.

2 - شريعة أور نامو مؤسس سلالة أور الثالثة.

3 - قانون بلالاما ملك أشنونا.

4 - شريعة لبيت عشتار ملك ايسن.

5 - قوانين حمورابي ملك بابل.

6 - الشرائع الآشورية.

لقد جمع حمورابي القوانين والأعراف السومرية - الأكادية وعدّل بعضها بما يتلاءم مع تطورات عصره، وأصدرها في مجموعة قانونية شاملة تحتوي على 282 مادة بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. وقد نقشت شريعة حمورابي باللغة البابلية والخط المسماري على نصب من البازلت على شكل أعمدة يبلغ عددها 51 عموداً، محيت منه خمسة أعمدة تحتوي على 33 مادة من المادة 66 - 99 ولكن هذه الفجوة تعوضها بعض الأجزاء من نسخ قديمة محفورة في لوحات الطين وهي من الآثار الآشورية للعصر السارغوني أو تسد فراغها بعض المواد المتصلة بالقرض ذي الفائدة وعقود التوكيلات التي عثر عليها في خرائب نيبور. وقد عثر على نسخة من قانون حمورابي عالم الآثار الفرنسيّ دو مورغان عام 1901 - 1902م. بين خرائب سوزا عاصمة دولة عيلام. والنصب البازلتي الذي نقش عليه قانون حمورابي محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس[1].

يبلغ طول النصب 2.25 مترين ومحيطه عند القاعدة 1.9 متر وفي أعلاه نقش بارز يمثل حمورابي واقفاً أمام إله الشمس والحقيقة والعدالة - الإله شاماش الجالس على عرشه وبيده اليمنى القضيب والخاتم شعارا السلطة القضائية العليا.

لقد أخذت تتوضح معالم المجتمع الطبقي منذ أن تأسست دويلات المدن، وتبلورت بوضوح في عهد تشكل الدولة الاستبدادية الممركزة (البابلية والآشورية والكلدانية). ولما كانت شريعة حمورابي تمكّن الباحث من توضيح وضع الطبقات وعلاقاتها الاجتماعية. لذا فإننا نعتمدها أساساً لدراسة المجتمع العبودي الطبقي في العراق القديم.

كان المجتمع العبودي البابلي زمن حمورابي مجتمعاً طبقياً يتألف من طبقات ثلاث غير متساوية في الحقوق والواجبات. وهذه الطبقات هي:

---

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 109.

1 - الطبقة العليا من الأحرار (الأميلو أو أمار أميلو - أي الإنسان أو ابن الإنسان): وهي الطبقة التي ولد أفرادها أحراراً من أبوين من طبقة الأحرار أو من حرة. وكان "الأميلو" يتمتعون بجميع الحقوق ولهم السيادة في المجتمع. فهم أصحاب العبيد وملاك الأراضي، ومنهم تتشكل المجالس المحلية ويؤخذ الموظفون والكهنة. وكانت هذه الطبقة ذات الامتيازات، في عهد الإمبراطورية الآشورية، لا تستغل العبيد فقط، بل أيضاً الزراع المستعبدين والسكان المهجرين من البلدان المغلوبة[1].

2 - الطبقة العامة (الموشكينوم): وتتألف من فقراء الأحرار ومن الأرقاء الذين تحرروا وأبناء الرجال الأحرار الذين تزوجوا بإماء، إذ إنهم يتحررون من العبودية بعد وفاة والدهم الحر. وكان الموشكينوم يمارسون مختلف المهن ولهم الحق في التملك، وهم كالأميلو أصحاب عبيد وملاك أراضٍ، ولكنهم غير مساوين لهم في الحقوق المدنية. فلقاء التشويه الذي يسبب لشخص من "الأميلو" كان المذنب يعاقب بتشويه مماثل (العين بالعين والسن بالسن) حسب المادة 196 من القانون. أما لقاء التشويه المسبب "لموشكينوم" فكانت العقوبة تقتصر على دفع غرامة واحدة (مينا من الفضة) حسب المادة 198 من القانون. وإذا قام شخص ينتسب إلى الموشكينوم بسرقة ما فإنه يدفع غرامة تزيد عدة أضعاف على مقدار الغرامة التي يدفعها الإنسان "الأميلو" في حالة مماثلة. وفي حالة سرقة العبد فقط، الأمر الذي كان يعتبر تطاولاً على أسس المجتمع ذاتها، كان الحكم بالموت يهدد المذنب بدرجة واحدة حسب المادة 19 من القانون.

وكان الموشكينوم الفقير، من أجل الحفاظ على حياته، يضطر إلى استدانة أدوات الإنتاج والبذار والفضة وغيرهما من الأغنياء بفائدة سنوية تراوح بين 20 - 233.3 بالمئة. وكان عدم الدفع يستتبع فقدان الممتلكات بما في ذلك قطعة الأرض، إذا كان المدين يملكها. وكان الموشكينوم المفلس (وعادة أعضاء أسرته) يقع في عبودية الدين لمدة ثلاث سنوات كما جاء في المادة 117 من قانون حمورابي ونصها: "إذا حل أجل التزام على رجل (العامي

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 218.

من الأحرار) ثم باع خدمات زوجته أو ابنته أو ابنه أو سخر للخدمة فإنهم يعملون في بيت مشتريهم أو ملتزميهم مدة ثلاث سنوات وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة"[1].

بِمَ يفسر هذا التمايز في الحقوق المدنية بين الأميلو والموشكينوم؟ لقد وضعت في تفسير ذلك افتراضات عديدة. فالأكاديمي ستروفيه يقدر بأن "الأميلو" مواطني بلاد بابل المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، كانوا الفاتحين العموريين. وأن كلمة "موشكينوم" كانت تعني السكان الأحرار لسومر وأكاد الذين خضعوا لهم[2]. وفي رأي دياكونوف(Diakonov): الأميلو هو عضو المشاعية، في حين أن الموشكينوم مزارع في أرض الملك، استعبد نتيجة الفرائض والأتاوات[3]. هذا ويمكن أن تدرج في طبقتي الأميلو والموشكينوم فئات عديدة من المواطنين الأحرار منها: أعضاء المشاعيات، والزراع الملكيون الذين يدفعون الضريبة العينية، والمحاربون الذين يستلمون من الملك أراضي غير قابلة للبيع في مقابل خدماتهم العسكرية، والحرفيون، والتامكاروم الذين كانوا تجاراً ومرابين وجباة معاً، وأخيراً الكهنة والأرستقراطية العليا[4].

3 - طبقة العبيد (أردو): أخذ عدد العبيد يتزايد منذ تأسيس دويلات المدن في أواخر الألف الرابع ق.م. وحسب تقديرات دياكونوف كان عدد العبيد في لاغاش، حوالى منتصف الألف الثالث ق.م.، نحو ربع سكان المملكة وأن عدد الإماء منهم كان يتجاوز عدد الأرقاء الذكور[5]. وقدر عدد العبيد في قصور سارغون الثاني بما لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف[6]. فما بالك بأعداد العاملين منهم في أراضي الملك والمعابد والأرستقراطية وغير ذلك من قطاعات الإنتاج والخدمات المنزلية والعسكرية.

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 67/6.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 116.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 117.

(5) المصدر نفسه، ص 98.

(6) المصدر نفسه، ص 268.

وكانت الحروب وتجارة الرقيق (النخاسة) واستعباد أعضاء المشاعيات لقاء ما عليهم من ديون هي المصادر الأساسية لازدياد عدد العبيد. وفي عهد الإمبراطوريتين الآشورية والكلدانية تطور الرق وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقية في القطاعات الإنتاجية والبناء والخدمات زيادة كبيرة بسبب التوسع في الفتوحات، بحيث يصح القول إن العبيد كانوا من أهم مصادر ثروة الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية[1].

وقد مثل الأسرى - العبيد في نقوش قصور الملوك الآشوريين على شكل صفوف طويلة يسوقهم الجيش النظامي وهم عراة وأياديهم مقيدة من خلف ظهورهم ووراءهم نساؤهم وأطفالهم[2]. كما نجد أخبار ذلك مدونة في حوليات الملوك[3].

وهكذا تشكلت طريقة الإنتاج العبودية. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الرئيسية في استثمارات الملك والمعابد وفي ممتلكات نبلاء البلاط والأرستقراطيتين المدنية والعسكرية، وغدا من ثم وجود المجتمع الرافدي يرتكز على عمل العبيد.

ولم يكن لدى العبيد أي وسائل للإنتاج وليس هذا وحسب، بل كانوا أنفسهم مملوكين ومحرومين من أبسط الحقوق الإنسانية. وكانوا يبيعون العبيد دون أية تحديدات ودون أي اعتبار لوضع العبد العائلي، ويقدمونهم هدايا، ويتوارثونهم ويقتلونهم إذا ظن أسيادهم أن قتلهم أعود عليهم بالفائدة من حياتهم[4].

وكان العبيد يقومون بأصعب الأعمال لأسيادهم، كما كانت الدولة (البابلية أو الآشورية أو الكلدانية)، تجندهم أحياناً للخدمة العسكرية أو تسخرهم للقيام ببعض الأعمال العامة كحفر أقنية الري وبناء السدود وشق الطرقات[5].

وكان عدد كبير من العبيد ملكية للدولة والمعابد. وكان الأغنياء ومتوسطو الملاك

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 406.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) ديورانت، ول: المصدر السابق، 206/2.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وصغارهم يملكون أعداداً منهم. وكان لكل عبد رسم خاص يدل على مالكه. ولقاء محو هذا الرسم كانت تهدد الإنسان الحر كذلك عقوبات قاسية (المادتان 226 و227 من قانون حمورابي). وبموجب القانون نفسه لم تكن تؤخذ لقاء الضرر الذي يلحق بعبد الغير إلا غرامة قليلة (نصف مينا) كتعويض عن خسارة المالك شأنها شأن الغرامة لقاء الضرر الذي يلحق بالماشية (المادة 199 من القانون). وفي حالة قتل عبد الغير كان المذنب يقدم لمالكه عبداً من عنده (المادة 231). وكان يعاقب العبد بصلم أذنه إذا رفض طاعة سيده وقال له "لست سيدي" (المادة 282).

أما بالنسبة الى الذين يناهضون حقوق الملكية التي أقامها مالكو العبيد، فكانت تطبق أقسى العقوبات. وكان الحكم بالموت يهدد كل من يسرق عبداً أو يحميه. وتوقع عقوبة الموت قتلاً أيضاً بكل من يؤوي عبداً آبقاً، أي يقتل من يساعد عبداً على التحرر (المادة 16 من القانون).

وقد اتسع في بلاد ما بين النهرين استعباد أعضاء المشاعية الأحرار المعدمين مما ألحق الخراب بالاقتصاد الفلاحي الصغير. قبل زمن حمورابي كان المدين الذي يعجز عن تسديد دينه وفوائده العالية يصبح عبداً لدائنه. أما في قوانين حمورابي فأصبح يقدم زوجته وأولاده ليعملوا لدى الدائن مدة ثلاث سنوات من أجل تسديد الدين وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة كما تقدم.

وكان السيد يعتق أحياناً أحد عبيده إذا أدى له خدمة جلى أو دفع له مبلغاً من المال. ويستلزم تحرر العبد كتابة وثيقة رسمية يسمى فيها العبد عادة باسمه فقط بينما يكتب الحر اسمه واسم والده في الوثيقة[1]. ويحق للعبد حسب قوانين حمورابي الزواج بامرأة حرة، وأولادهما في هذه الحالة يعتبرون أحراراً - أي أنه ليس لسيد العبد حق الخدمة على أطفال العبد من امرأة حرة (المادة 175). أما إذا تزوجت الأمة (المرأة من الرقيق) برجلٍ حر فيبقى أولادها عبيداً حتى يتوفى زوجها فيصبحوا أحراراً (المادة 171) ولكنهم لا يرثون والدهم إلا

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 120.

اذا ثبّت بنوتهم في حياته كأن يقول "أطفالي" لمن ولدتهم الجارية (المادة 171). ولا يستطيع الرجل الحر الذي تزوج عبدة أن يبيعها (المادة 146). وهذا يدل على أن الزوجات الإماء كان لهن مكانة خاصة في المشاعة العائلية.

وهكذا، كان جوهر علاقات الإنتاج العبودية هو ملكية مالكي العبيد التامة لجميع وسائل الإنتاج وشغيلة الإنتاج أنفسهم - أي العبيد.

وهكذا أيضاً، كرست القوانين نظام العبودية في العراق القديم، وجاءت تعبيراً عن الدفاع عن حقوق ومصالح قمة المجتمع الرّقي مجتمع الأسياد مالكي العبيد.

الأسرة

عند تفسخ المشاعية البدائية في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. إلى عائلات كبيرة وصغيرة، أخذت الأسرة الأبوية تحل تدريجاً محل الأسرة الأموية في بلاد ما بين النهرين، وكانت السيادة في الأسرة الأبوية العراقية القديمة للأب، ونادراً ما تنتقل الرئاسة إلى الأم عند وفاته. وكانت العائلة الأبوية تتألف من الرجل وزوجته أو زوجاته ومن الأولاد وأحياناً من الأحفاد، وكان البيت يسمى باسم "بيت الأب" أو "البيت الأبوي" ومال الأب يسمى "مال البيت الأبوي". ويتألف "مال البيت الأبوي" من الأراضي وأبنية الاستثمار، والماشية، والعبيد، ونتاج الأرض، والبيت وأثاثه، والنحاس والفضة والذهب[1]. وقد اعتمدت سيادة الأب في أسرته على دوره الأساسي في الاقتصاد وفي إعالته جميع أفراد أسرته. وتتجلى هذه السيادة المطلقة بحق الرجل أن يقدم زوجته وأولاده الذكور والإناث مهما كانت سنهم كرهينة لدائنه مدة ثلاث سنوات (المادة 117 من قانون حمورابي). وله أيضاً الحق الكامل في التصرف في أملاكه بيعاً أو شراء أو هبة، ولا تقبل أية اعتراضات قد يثيرها الأولاد بالنسبة الى أملاك أبيهم الموهوبة أو المبيعة ما دامت عملية الهبة أو البيع قد تمت وفق القانون "وكان يستطيع في الفترة السارغونية أن يبيع أطفاله أو يقتلهم أحياناً"[2].

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 118.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 15/6.

وكان الزواج هو دعامة الحياة العائلية في بلاد ما بين النهرين. وجرت العادة في زمن حمورابي أن يختار والد الشاب خطيبة ابنه. وعندما تتفق العائلتان على الزيجة يشرع في إعداد الخطبة وذلك بتقديم العريس بعض الهدايا للعروس. فإذا فسخ الخطبة تنازل عن الهدية (المادة 159). أما إذا فسخ والد الفتاة الخطبة رد الهدية مضاعفة (المادة 160) وإذا تم دفع المهر ثم عدل الخطيب عن الزواج فلا يكون له الحق في استرجاعه. أما إذا رفض والد الخطيبة زواج ابنته فعليه أن يرد جميع ما حصل عليه من الخطيب[1].

وعند الزواج يقدم أهل العروس لابنتهم بائنة (شريقتو - الهدايا والأموال التي قدمها أهل العروس لابنتهم عند الزواج) تعتبر ملكاً لها في حياتها، وتصبح إرثاً لأولادها بعد وفاتها (المادة 162). أما إذا توفيت الزوجة دون أن يكون لها أولاد فعلى الزوج أن يعيد البائنة إذا أعاد إليه حموه ثمن الزواج (المادة 163) وإذا لم يرد إليه حموه ثمن الزواج فإنه يقتطعه بأكمله من بائنتها ويرد الباقي إلى بيت أبيها (المادة 164).

ويستند الزواج في جوهره إلى عقد تحدد فيه الشروط المتفق عليها كافة ويوقعه الزوج من طرف واحد. وإذا تزوج رجل بامرأة ولم يكتب معها عقداً فلا تعتبر زوجه بحكم القانون (المادة 27 من قانون بلالاما ملك أشنونا والمادة 128 من قانون حمورابي).

وكانت القوانين تسمح للرجل بالزواج من زوجة شرعية واحدة فقط، ولكنها أباحت له أن يتزوج بامرأة أخرى إن أصيبت زوجته الأولى بمرض مزمن يعوقها عن أداء وظيفتها الزوجية (المادة 148)، أو كانت عاقراً (المادة 145) أو أهملت شؤون بيتها وحقوق زوجها (المادة 141) كما يحق له أن يتخذ محظية أو أكثر (المادة 144 و170).

ولم يكن أي من الزوجين مسؤولاً عن التزامات الطرف الآخر المادية قبل الزواج. أما الديون التي كانت تتم بعد الزواج فهما مسؤولان عنها متضامنين حتى ليحق للزوج أن يجعل زوجته رهينة بيد الدائن لمدة ثلاث سنوات تعاد إليها حريتها في السنة الرابعة (المادة 117).

وقد سمحت قوانين حمورابي للزوج وللزوجة بالطلاق، وحددت شروطه. فيستطيع

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 409.

الـزوج مثـلاً أن يطلـق زوجتـه إذا لـم تنجـب لـه أولاداً (المـادة 138) أو أهملـت واجباتهـا البيتيـة (المـادة 141). وفـي جميـع الأحـوال يحـق للـزوج طـلاق زوجتـه ولـو كانـت غيـر مذنبـة. ولكـن الزوجـة فـي هـذه الحالـة تسـتعيد بائنتهـا وتأخـذ نصـف حقـول وبسـتان ومتـاع زوجهـا لتصـرف علـى أولادهـا حتـى بلوغهـم سـن الرشـد، وعندهـا يحـق لهـا أن تتـزوج رجـلاً آخـر بعـد أن تـرث مـن زوجهـا السـابق حصـة تعـادل حصـة أحـد أولادهـا (المـادة 137). فـي حيـن نصـت المـادة (59) مـن قانـون بلالامـا ملـك أشـنونا: "إذا طلـق رجـل زوجتـه بعـد أن رزق منهـا أطفـالاً ثـم اتخـذ زوجـة أخـرى طـرد مـن بيتـه ومـن كل مـا يملـك". وفـي اللوحـة الأولـى مـن الشـرائع الآشـورية: "إذا طلـق الـزوج زوجتـه بمحـض رغبتـه عليـه أن يعوضهـا. وليـس للـزوج الـذي تصـاب زوجتـه بمـرض أو بعاهـة حـق طلاقهـا ولكـن لـه أن يتـزوج بامـرأة حـرة أخـرى، علـى أن تظـل الزوجـة الأولـى فـي البيـت ويسـتمر فـي إعالتهـا طـوال حياتهـا" (المـادة 148). أمـا إذا أرادت تركـه إلـى بيـت أهلهـا فلهـا الطـلاق مـن زوجهـا، إذا أثبتـت فـي المحكمـة سـوء تصـرف زوجهـا أو إهمالـه لهـا، وفـي هـذه الحالـة تسـترد بائنتهـا وتعـود إلـى بيـت والدهـا (المـادة 142).

وعلـى العمـوم، فـي الأسـرة الأبويـة تتمتع المـرأة بامتيازات أقل ممـا يتمتع به الرجـل والطلاق صعب بناء علـى طلبها[1].

وإذا أسـر الـزوج وكان فـي بيتـه مـا يكفـي أسـرته فعلى الزوجـة أن تظل وفيـة لا تتزوج بغيـره (المادة 133). وإذا لـم يكـن فـي بيـت الزوج الأسـير ما يكفـي للإنفاق على أسـرته فيحق لها الزواج بآخر إن شـاءت (المـادة 135). أمـا إذا عـاد زوجهـا السـابق من الأسـر فيجب أن تعود إليـه، ويبقى أولادها مـن الزوج الثاني لوالدهـم (المـادة 135). وإذا تزوجـت عنـد أسـر زوجهـا وكان في بيته ما يكفـي لإعالتها ألقي بهـا في النهر (المادة 134).

وتظهـر التغيـرات فـي وضـع الأسـرة العراقيـة القديمـة فـي تعزيـز الملكيـة الخاصـة واتجـاه النـشء الجديـد إلـى إضعـاف القيـود التقليديـة التـي كانـت تعرقـل الاغتنـاء الشـخصي لأعضـاء

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 119.

الأسرة. لقد عاضدت قوانين حمورابي هذه الاتجاهات وأتت بتغييرات في العادات العائلية. وقسمت ثروة الأب المتوفى حسب القواعد التالية:

1 - تنال الزوجة والأولاد الذكور حصصاً متساوية من التركة. ويحتفظ الولد البكر بما منحه إياه والده في حياته إذا كان قد كتب له وثيقة مختومة (المادة 165).

2 - للبنت غير المتزوجة حق الانتفاع من حصة تعادل حصة الذكر، وبعد زواجها توزع حصتها بين أخوتها الذكور على أن تأخذ منها بائنتها. أما البنت المتزوجة فليس لها نصيب من ميراث والدها باعتبار أنها قد أخذت بائنتها في حياة والدها[1].

3 - يرث ابن الأَمَة كأخوته من الأم الحرة إذا كان والده قد اعترف به ابناً شرعياً قبل وفاته، أما إذا لم يكن قد اعترف به فلا يرث والده، وإنما يطلق وأمه على الحرية[2].

4 - البنت المولودة من أمة إذا توفي أبوها قبل زواجها على إخوتها أن يقتطعوا من مال أبيهم مبلغاً ويحتجزوه في مقابل بائنتها[3].

5 - الأولاد الأحرار من زوجتين حرتين يتقاسمون تركة الأب بالتساوي (المادة 167).

6 - حصة الابن الذي توفي قبل وفاة والده تعود الى أولاده وإذا لم يكن له أولاد فإلى إخوته[4].

7 - تركة الزوج الذي ليس له أولاد لإخوته ومن بعدهم لأقربائه المقربين[5].

ويطبق النظام الخاص بتركة الزوج المتوفى على تركة الزوجة المتوفاة إذا كان لها أولاد. وإذا لم يكن لها أولاد فثروتها الخاصة تعود الى أهلها بعد أن يخصم منها الزوج التير هاتو. وإذا كانت قد تزوجت مرتين فثروتها الخاصة توزع بين أولادها من الزوجين حصصاً متساوية.

---

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 181/1.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 123 – 124.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 181/1.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، 181/1.

أما التركة عند الآشوريين فكانت تقسم أحياناً، بينما كانت تترك على المشاع أحياناً أخرى. وليس لأبناء المحظية شيء من الميراث إلا إذا لم يكن هناك غيرهم[1]. أما الممتلكات التي تأتي بها الزوجة التي تنتقل إلى بيت زوجها وكذا كل ما أعطاه إياها حموها فإنه يؤول إلى أبنائها[2]. وتنتقل أملاك الأرملة وكل ما أعطاه إياها حموها إلى أبنائها إذا ذهبت إلى زوج آخر[3].

وقد نظمت قوانين حمورابي الزنى والعهر المقدس. فعقوبة الزاني والزانية في حالة التلبس هي القتل رمياً في ماء النهر. أما إذا عفا الزوج عن زوجته الزانية فللملك أن يعفو عن الشريك (المادة 129). وأما في غير حالة التلبس فقسم المرأة بالإله يبرئها (المادة 131). والمرأة التي تغتصب كرهاً لا عقوبة عليها أما المغتصب فيقتل (المادة 130). والزانية التي تزور عشيقها في منزله يقتلان معاً[4]. أما الزانية في مكان عام أو في ماخور فلا تعفى من العقوبة وقد يعفى شريكها إن أثبت جهله بأنها زوجة[5]. والزنى في منزل امرأة أخرى يعرض المرأة والزانية وشريكها للعقوبة نفسها إن كان الزنى قد تم برضى الزوجة. أما إذا كان اغتصاباً فيقتل الزاني وصاحبة البيت ولا توقع العقوبة بالزانية إن صارحت زوجها[6]. وإذا ضاجع رجل ابنته يطرد من بلده (المادة 153). وإن ضاجع إنسان أمه بعد وفاة والده يحرق كلاهما (المادة 157) وإذا ضاجع إنسان زوجة أبيه بعد وفاة والده وكان لها أولاد حرم من ميراث أبيه[7].

وفي الشرائع الآشورية - اللوحة الأولى: المرأة التي تغتصب كرهاً لا عقوبة عليها أم

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 357.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 13/6.

(4) المصدر نفسه، ص 10.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

(7) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 123.

المغتصب فيعدم (المادة 12). وإذا ترددت زوجة الى بيت رجل آخر وضاجعها مع علمه بأنها زوجة رجل آخر يقتلان كلاهما (المادة 13). وإذا ضاجع إنسان زوجة رجل دون أن يعلم أنها زوجة رجل آخر فلا عقوبة على الزاني وللرجل أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبة (المادة 14). وإذا ضاجع رجل زوجة آخر برضاها فلا عقوبة عليه. وللزوج أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبة (المادة 16). والزنى في منزل امرأة أخرى يعرض المرأة والزانية وشريكها للعقوبة نفسها. وإذا لم يوقع الزوج عقوبة بزوجته الزانية فلا عقوبة على الزاني أو صاحبة البيت. أما إذا كان اغتصاباً فيقتل الزاني وصاحبة البيت ولا عقوبة على الزانية (المادة 23).

وقد أطلقت قوانين حمورابي أحياناً على صنف من العذارى اللواتي كرسن أنفسهن لخدمة الآلهة في المعابد لقب "العاهرات المقدسات" (المادة 181). وتذكر القوانين ثلاثة أنواع منهن: الكيزريت والسانهات، والحريمات[1]. ولم يكن يسمح للعاهر أن تربي أولادها بل كان يعهد بتربيتهم إلى أبوين يتبنيانهم[2]. وإذا حاول المتبنى أن يعود إلى بيته الأصلي سملت عيناه (المادة 193). وللعاهرة المقدسة بائنتها تنتقل إليها ملكيتها أو تمنح حق الانتفاع بريعها ولكن ليس لها التصرف فيها بالبيع[3].

وقد ظهر العهر المقدس منذ العهد السومري كما تشير إلى ذلك بعض الأساطير[4]. ويبدو أن القوانين كانت تسمح للعاهرات المقدسات بممارسة الدعارة الدينية في المعابد[5] وعقوبة التشهير بواحدة ممن نذرت نفسها لخدمة الآلهة الوسم على الجبهة[6]. وكان لهن مركز مرموق ومن بينهن من كن من طبقة الأشراف وبنات الملوك[7].

---

(1) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 182/1.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 14/6.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 124.

(6) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 13/6.

(7) المصدر نفسه.

ويبدو أن القوانين قد سمحت لأصناف من البنات اللواتي نذرن أنفسهن لخدمة الآلهة بممارسة الأعمال التجارية بما فيها الربا وتنظيم العقود واقتناء الأموال والممتلكات. فقد حدث في زمن حمورابي أن اشترت الكاهنة ريبا توم "سار" من أرض مبنية كانت مملوكة للكاهنة أياأنيل رشيتيم بثمن قدره ثلث مينا من الفضة[1]. ويكون ريع ما يمتلكن لهن خالصاً ويؤول جانب منه عند موت إحداهن إلى أهلها ما لم يمنحها أبوها حق التنازل عنه[2].

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 105.

(2) د. ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 13/6.

الفصل السابع والعشرون

الحركات الشعبية

أثار النظام العبودي في بلاد ما بين النهرين، باستغلاله الوحشي واضطهاده البربري للعبيد وجماهير الشغيلة الفقراء من أحرار السكان المحليين وشعوب البلدان المغلوبة إلى جانب الأزمات والتناقضات السياسية والاجتماعية، موجة عارمة من الثورات والانتفاضات كانت أحد العوامل الرئيسة في إضعاف الدولة والتمهيد لسقوطها وتعريض البلاد لأخطار الاحتلال الأجنبي. وتذكر الألواح أن ثورة جماهيرية شعبية نشبت في مدينة لاغاش ضد الظلم والاستبداد اللذين كانت الطبقة الحاكمة تمارسهما في مملكة المدينة، توصل بنتيجتها المصلح الاجتماعي أورو كاجينا إلى السلطة. فألغى بعض الواجبات والضرائب الثقيلة، ومنع المظالم، وزاد حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد، كما ألغى وظائف المفتشين في المشاعيات الريفية. وخفض رسوم الدفن إلى أقل من النصف. وسن قوانين لحماية الضعيف من طغيان القوي والفقير من أطماع الغني. وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا بينهم ما يقدمه الناس قرباناً إلى الآلهة من أموال وماشية. وعالج أمر السخرة، وأوقف بعض قواعدها الوحشية. غير أن هذه الإصلاحات، على أهميتها، لم تغير أسس النظام العبودي وظل الإشراف يحتفظون حتى بعد إصلاحات أورو كاجينا بسلطة اقتصادية كبرى. كما لم تتغير أوضاع العبيد وظلوا كالسابق مجردين من الحقوق[1].

(1) انظر ص: 249 - 250.

وقد نشبت في أواخر حكم سارغون الأكادي ثورتان شعبيتان بسبب استياء السكان من زيادة الأعباء، وحيازة أراضي المشاعيين وحروب الفتح المنهكة[1]. وحدثت انتفاضة هامة في عهد نارام سين[2]. وإذ استطاع نارام سين أن يقضي على الانتفاضة، إلا أن خلفاءه لم ينجحوا في الحفاظ على وحدة مملكة المناطق الأربع. وأخيراً وقعت سومر وأكاد في أيدي الغوتيين عام 2200 ق.م.

وقد سعى حمورابي لأن يخفف قليلاً من تحكم التجار المرابين (التامكاروم): فحدد عبودية الدين بثلاث سنوات، ومنع المرابي من حق الدخول إلى بيت المدين ليأخذ منه بالقوة مبلغ الدين. كما أخضع "التامكاروم" لعقوبة الغرامة في الحالات التي يثبت فيها خداعه...إلخ[3].

وقد هدفت هذه التدابير إلى توطيد وحدة طبقة الأحرار (الأميلو والموشكينوم) وجمع مختلف فئاتها ضد العبيد[4]. غير أن مساعي حمورابي لم تكلل بالنجاح. فقد حفظت لنا وثائق العصر حالات تجاوز "التامكاروم" لقوانين حمورابي، وخصوصاً وضع اليد على أراضي زراع الملك[5]. وهكذا يتبين بأن التناقضات في المجتمع البابلي لم تنحصر فقط بين الأحرار والعبيد، وإنما كانت موجودة أيضاً بين مختلف شرائح الناس الأحرار[6].

وفي أثناء الحكم الكاشي لبلاد الرافدين، تعاظم تذمر أعضاء المشاعيات واتجه عام 1345 ق.م. إلى الثورة. واندلعت الثورة ضد الملك كاراهنداش (كارا يندش). وقتل الملك وعينوا مكانه رجلاً من أصل غامض[7]. وعندما لم يتمكن كبار الموظفين والكهنة من القضاء

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 105.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 121.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

(7) المصدر نفسه، ص 123.

على الثورة بوسائلهم الخاصة، طلبوا المساعدة من ملك آشور الذي أغرق الثورة في بحر من الدماء وأعاد تثبيت الأسرة الكاشية في حكم البلاد[1].

وفي البلدان المغلوبة، أثارت السياسة العدوانية للفاتحين، وخصوصاً الآشوريين منهم، وجشعهم في نهب ثرواتها وإرغامها على دفع جزى باهظة وتخريب المدن والقرى أو حرقها وقسوتهم في معاملة شعوبها، أثارت هذه الأعمال سلسلة من الثورات والانتفاضات في طول الإمبراطورية وعرضها. فقد ثار الأهالي الآراميون في سوريا الداخلية، والأهالي الفينيقيون في المدن الساحلية السوريا، كما انتفض السكان في فلسطين ومصر، مما اضطر الآشوريين إلى إرسال الحملة تلو الأخرى لقمع المتمردين وإعادة احتلال البلدان المتمردة من جديد ومعاقبة المنتفضين بالتعذيب والتنكيل والقتل الجماعي والتهجير والأسر. وترينا النقوش المحفورة في قصور الملوك الآشوريين، ويرجع تاريخها إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، صوراً لتعذيب المتمردين واقتياد الأسرى كعبيد على شكل صفوف طويلة يسوقهم الجيش النظامي وهم عراة وأياديهم مقيدة من خلف ظهورهم ووراءهم نساؤهم وأطفالهم[2].

لقد أضعفت الأزمات الداخلية والتناقضات وانتفاضات السكان في البلدان المفتوحة الدولة ومهدت لسقوطها.

إن اتساع العبودية لم يستطع أن يخفف من حدة الصراع الطبقي. وإذا كنا لا نملك معلومات مباشرة عن ثورات العبيد، إلا أننا نعرف بأن عادة تقييد العبيد المتمردين كانت قد أصبحت شائعة[3]. وفي زمن حكم آشور بانيبال، تزعمت عبدة ثورة الأرمن في أورارتو. وليس هناك من شك بأن الزراع الآشوريين، الذين أفلسوا وألحق بهم الخراب من جراء التجنيد والعمل الشاق والفرائض، قد تمردوا هم أنفسهم أيضاً[4]. وهكذا اكتملت الصورة لمختلف التناقضات السياسية والاجتماعية في الإمبراطورية الآشورية: تناقضات بين الغالبين

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) انظر ص: 298.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 219.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والمغلوبين، وتناقضات بين السادة والعبيد، وتناقضات بين الأحرار الأغنياء الآشوريين والفقراء والمعدمين منهم على الخصوص، وتناقضات بين أجنحة الطبقة الحاكمة ذاتها. وقد أفضت هذه التناقضات إلى إضعاف الإمبراطورية وساعدت على انهيارها وسقوطها. ولم تتغير هذه التناقضات في خطوطها العريضة في عهد الكلدانيين، اللهم إلا فيما يتعلق بتعاظم استبداد البيوتات التجارية - الربوية وجشعها الذي لا حدود له في نهب السكان مما أثار نقمتهم عليها. وازدادت أفواج عبيد أسرى الحرب، غير أن طريقة استغلالهم اختلفت عما كانت عليه في السابق. ففي عهد الكلدانيين، استخدم العبيد للعمل في ممتلكات الملك، وفي بناء القصور والمعابد. أما في اقتصاد الأفراد، فقد سمح ملاك العبيد لرقيقهم بالعمل لحسابهم الخاص (في الحرفة وأحياناً في الزراعة) شريطة أن يدفعوا لأسيادهم إتاوة سنوية من الفضة تسمى "ماناتو".

وبمقدار ما كان عدد العبيد ينمو، كان نضالهم في سبيل الحرية يشتد. وقد تكاثر عدد الآبقين منهم، وطالب مشترو العبيد من النخاسين ضماناً ضد الثورة وعصيان هؤلاء الذين يشترونهم.

هذا وتجدر الملاحظة أن ثورات العبيد وانتفاضات المشاعيين الأحرار المعدمين والكادحين الحرفيين في العراق القديم كانت تنتهي غالباً إلى الفشل، وذلك بسبب عفويتها ومحليتها وعدم قيام تعاون شامل بين هذه الفئات في المدن والأرياف على صعيد الدولة ضد عدوها الطبقي الواحد، مما يسر لآلة الدولة العسكرية أن تقمع بوحشية انتفاضات الشغيلة الأحرار والعبيد، غير أن هذه الحركات الشعبية، وإن انتهت إلى الإخفاق، إلا أنها أدت إلى إضعاف الدولة الاستبدادية العبودية وساعدت على سقوطها.

الثقافة في العراق القديم

تشكلت حضارة العراق القديم في سياق تطوره التاريخي من الألف الرابع ق.م. إلى نهاية الإمبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية). وقد اشترك في إنتاج هذه الحضارة شعوب عديدة، أغنى كل منها الآخر بما توصل إليه من إنجازات ثقافية.

وتعود العناصر الرئيسة في هذه الحضارة الطليعية العملاقة إلى السومريين، ثم جاء الأكاديون ومن بعدهم البابليون، فاعتمدوا على ما أنجزه السومريون وساهموا بدورهم في إغناء تلك المنجزات الثقافية وتطويرها. وهكذا تكوّن مركب حضاري سومري - أكادي - بابلي. وقد استخدمت هذه الحضارة أساساً لحضارات الآشوريين والكلدانيين الذين خلفوا البابليين في حكم بلاد ما بين النهرين.

وقد مارست الحضارة البابلية منذ الألف الثاني ق.م. تأثيراً عظيماً في البلدان المجاورة: سوريا وفينيقيا وفلسطين، وكذلك في الحوريين والحثيين. وفي العهدين الآشوري والكلداني، امتد تأثيرها نحو الشمال الغربي إلى سواحل آسيا الصغرى الإيجية، وشمالاً إلى أورارتو، وشرقاً إلى إيران. كما اقتبس العبرانيون والإغريق والرومان عناصر هامة من تلك الحضارة.

وكان العراقيون القدامى أول من اخترع الكتابة ووضعوا الشرائع ودونوها في تأريخ الحضارات البشرية. وهم أول من اخترع الأرقام واهتدوا إلى العمليات الحسابية، وأول من أسس علم الفلك. كما أنهم ساهموا في تقدم العلوم والفن.

هذا وسوف نعرض في الفصول المقبلة أهم مظاهر الثقافة في بلاد الرافدين.

الفصل الثامن والعشرون

الكتابة

يعد نجاح العلماء في فك رموز الكتابة المسمارية المعقدة عملاً هاماً في تاريخ الثقافة. وتفصيل ذلك أن الألماني جورج غروتفند، أستاذ اللغة اليونانية في جامعة غوتنغن، أبلغ المجمع العلمي في تلك المدينة عام 1802م. أنه استطاع أن يتعرف الى ثمانية من الإثنين والأربعين حرفاً المستعملة في نقوش مخطوطات مسمارية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها. وبقيت الحال كذلك حتى عام 1835م. حين نجح هنري رولنسن، أحد موظفي السلك السياسي البريطاني في إيران، في قراءة ثلاثة أسماء هي: هيستسبس، ودارا، واكزركس في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر. لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن البابلية نفسها. وقد بقي على رولنسن أن يعثر على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية. وهذا ما تحقق له حين عثر على نقش محفور في صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا، حيث أمر دارا الأول (522 – 486 ق.م.) النقاشين أن يسجلوا عليها حروبه وانتصاراته بثلاث لغات: الفارسية القديمة، والآشورية، والبابلية. وبعد جهد دام اثنتي عشرة سنة نجح رولنسن عام 1847م. في ترجمة النصين البابلي والآشوري. واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكاد. وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل.

اخترع السومريون الكتابة في عصر الوركاء حوالى منتصف الألف الرابع ق.م. وكان اختراع الكتابة قد استلزمته حاجات التطور الحضاري في بلاد الرافدين في أواخر عصر ما قبل السلالات، كالحاجة إلى تدوين الواردات وضبط الحياة الاقتصادية في المؤسسات المدنية والدينية.

وقد عثر بين آثار كيش على لوح صغير من الحجر نقشت عليه أقدم كتابة عرفت في العراق القديم إلى الآن. وكانت العلامات المحفورة فيه رسوماً لأشياء مختلفة وأخرى لقدم ويد وما شاكلهما. وهي تطلعنا على أن الكتابة في بلاد ما بين النهرين كانت في أول أطوارها تصويرية تدل كل صورة على ما تمثله. وكانت هذه الصور العلامات كثيرة، نحو 2000 علامة، ولكنها اختزلت واختصرت بمرور الزمن، حتى أصبح عددها في عهد جمدة نصر زهاء 600 علامة[1]. وقد استطاع الكتبة الأقدمون أن يدونوا بهذه الكتابة التصويرية الأشياء المادية. أما المعاني المجردة فكان يصعب عليهم التعبير عنها بالطريقة التصويرية المحضة. فاهتدوا بمرور الزمن إلى ابتكار الطريقة الرمزية أي طريقة التعبير عن الأفكار والمعاني المجردة بالصور بأن يرسموا الصورة المادية بهيئة مختصرة، ولا يريدون بها صورة الشيء المادي وإنما المعاني والأفكار المشتقة منه أو المتعلقة به. فمثلاً أصبحت صورة القدم، بحسب الطريقة الرمزية، لا تستخدم لتدوين القدم أو الرجل بل للتعبير عن المعاني المتعلقة بعضو القدم مثل: القيام والمشي والوقوف والدخول والخروج، وصارت صورة الشمس لا تعني كوكب الشمس وإنما المعاني المشتقة منها كالحرارة والضوء[2]. وبجمع الطريقة التصويرية المحضة والطريقة الرمزية صار بالإمكان التعبير عن معان وجمل كثيرة. ولكن مع ذلك ظلت الكتابة ناقصة لا يمكن التعبير بها عن المعاني المضبوطة لاحتمال التفسيرات وقراءتها وتأويلها بحسب القراء. فمثلاً رسمة العين لم تعن فقط جهاز البصر، وإنما تعني أيضاً مفاهيم اشتقاقية أخرى مثل وجه وأمام وأمامي وسابق[3]. وقد أدى تعدد المعاني للرمز

(1) باقر، طه: المصدر السابق، القسم الأول: تاريخ العراق القديم، ص 307 – 308.

(2) المصدر نفسه، ص 308.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 131.

الكتابي الواحد إلى صعوبات كبيرة. فقراءة نص ما كانت كحلّ أحجية من الأحاجي، لذلك لم يستطع القراءة والكتابة بشكل صحيح إلا الكاتب الخبير الذي قضى سنين عديدة في المدرسة. فدعت الحاجة إلى تطوير الكتابة وتبسيطها وذلك باستخدام أصوات الأشياء المادية المكتوبة بالصور لكتابة الكلمات المختلفة وهذه هي الطريقة الصوتية[1]. فقد استخدم السومريون الأوائل الصور وأصواتها لا لتدل على الأشياء المادية التي تمثلها تلك الصور، كما في المرحلة التصويرية، ولا على الآراء والأفكار المشتقة منها، كما في المرحلة الرمزية، بل لاستخدامها في كتابة الكلمات والجمل على هيئة أصوات وجمع عدة أصوات يكوّن كل منها مقطعاً وليس حرفاً[2]. فإذا أرادوا مثلًا أن يكتبوا اسم شخص مثل "كوراكا" فإنهم يرسمون صورة مختصرة للجبل ولفظه بالسومرية "كور" ثم يرسمون بجنبها صورة مختصرة من خطين تمثل موجات الماء للتعبير عن صوت "آ" وهو الماء باللغة السومرية، ثم صورة مختصرة للفم ولفظه بالسومرية "كا" فيحصلون بذلك على كلمة "كور - آ - كا"[3].

ولقد وصل قدماء العراقيين إلى الطور الصوتي في الكتابة في عهد جمدة نصر حوالى 3200 ق.م. واستمرت الكتابة في التطور والتحسن حتى استطاعوا أن يدونوا بها جميع شؤون الحياة الاقتصادية[4].

وفي الطور الصوتي بَعُد الشبه بمرور الزمن بين أشكال العلامات وأشكال الأشياء التي كانت تمثلها، ودخلت في الكتابة علامات اصطلح عليها للتعبير عن أصوات خاصة، كما أنهم ركبوا عدة علامات للتعبير عن معان وأصوات مركبة. وقد أحدثت طبيعة المادة التي كتبوا عليها وهي الطين بالدرجة الأولى تغييرات أخرى في شكل الكتابة إذ يصعب رسم الخطوط المنحنية على الطين، وباستخدامهم قلماً مثلثاً أصبحت العلامات تنتهي بما يشبه المسامير أو الأسافين[5].

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 308.

(2) المصدر نفسه، ص 308 - 309.

(3) المصدر نفسه، ص 309.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

ولم تتطور الكتابة المسمارية قط فتصبح أحرفاً هجائية بل ظلت إلى النهاية مؤلفة من مقاطع، واستمرت بعض علاماتها صوراً رمزية أيضاً تدل على الشيء الذي كانت تمثله في الأصل[1].

وبوجه الإجمال كان الخط المسماري خليطاً بين الطريقة الصوتية المقطعية والطريقة الرمزية. وقد استعمل من الـ 600 علامة نحو 100 – 150 علامة استعمالاً صوتياً صرفاً أي بهيئة مقاطع صوتية، والباقي من العلامات اقتصر في استعماله على الطريقة الرمزية.

ولما كان الحجر نادراً وإذا وجد فإن من الصعب النقش عليه، ولما كان الورق غير معروف في بلاد الرافدين، فقد استخدم الكتاب الطين (الصلصال) من أجل إعداد ألواح الكتابة. وكان إعداد الألواح يتطلب طمياً ناعماً ثم عجنه مدة طويلة يوضع بعدها في شكل قوالب تختلف حجماً ولوناً وشكلاً باختلاف المكان والزمان[2]. وأقدم ألواح لاغاش قبل عهد أورنينا مصنوعة من الطمي الذي لم يدخل النار، وهي مستديرة. وهناك ألواح أخرى تعادلها في القدم مستديرة مثلها ولكنها شويت في النار ومصدرها شوروباك ووجهها مستوٍ بينما الوجه الآخر مقبب. وقد حدث تغيير واضح فيما بعد فأصبحت الوثائق المعاصرة لملوك أكاد تختلف اختلافاً بيناً عن سابقتها: فالطين لم يعرف النار وفيما عدا النصوص المتصلة بالمساحة نجد الألواح مستطيلة وهو الشكل الذي سيحتفظ به منذ هذا الوقت[3].

وكان الكاتب يرسم علاماته والطين لا يزال طرياً وذلك بواسطة قلم من القصب على شكل مثلث موشوري يمسك به مائلاً ويضغط على الطين ضغطاً خفيفاً فيترك عليه شكلاً يشبه المسمار أو الإسفين ومن هنا جاءت التسمية الاصطلاحية "المسمارية أو الإسفينية" التي أطلقها المحدثون على الكتابة السومرية والأكادية. ويرجع شكل عناصر العلامات إلى استعمال القلم والطين. ولقد سرى استعماله بعد ذلك في الكتابة على الأحجار كنصب العقبان ولوحة النصر ومسلة مانشيتوسو ومسلة حمورابي.

---

(1) هامرتن: تاريخ العالم، المجلد الأول، ص 545 – 546.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 238.

(3) المصدر نفسه، ص 239.

وكانت كل العلامات المنقوشة مستقيمة رأسية أو أفقية[1]. وكانت العلامات ترتب في خطوط رأسية في العصور القديمة كما هي الحال بالنسبة الى قانون حمورابي ومسلة مانشيتوسو ولوحة العقبان[2]. وكانوا يكتبون النص من اليسار إلى اليمين، وبعد أن يملأوا الوجه الأول يقلبوا اللوح من أسفل إلى أعلى ويستمروا في الكتابة على الوجه الآخر من اليمين إلى اليسار[3].

وحين الفراغ من اللوحة كانت تسلم نسخة منها لكل من يهمه الاحتفاظ بواحدة. وغالباً ما كانت تودع نسخة أخرى في محفوظات المعبد أو القصر. وكان أمين المحفوظات يخزنها في سلال عليها بطاقات وضعت بعناية. وكانت البطاقات من الطين كذلك[4].

وإذا كانت الوثيقة المكتوبة عبارة عن عقد ويحتاج إلى شهود فإن الشهود يمهرون أسفل اللوحة بأختامهم ويكتبون أسماءهم بعد ذلك زيادة في الاحتياط. وكانت الرسائل التي يريد أصحابها أن يرسلوها من بلد إلى آخر توضع في سلال وتغطى السلة بالطين وتمهر بخاتم المرسل ويكتب عليها اسم المرسل إليه. وكانت اللوحة الطينية المرسلة إلى شخص بعيد تلفّ في بعض الأحيان بغلاف من القماش عليه قطعة من الطين تحمل ختم المرسل وعنوان المرسل إليه. وتفصح هذه المراسلات الحكومية منها والخاصة، عن التنظيم الإداري والقضائي والعسكري والمالي للدولة، كما تفصح عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض وأنواع تعاملهم وعاداتهم الاجتماعية[5].

وقد اشتق من الخط المسماري الخطوط الأكادية والبابلية والآشورية في إطار بلاد الرافدين أما خارجها فقد انتشر في أقطار كثيرة من الشرق الأدنى، فاتخذه العيلاميون

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 240.

(3) المصدر نفسه، ص 241.

(4) المصدر نفسه، ص 241 – 242.

(5) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، 202/1.

والحثيون واستخدمه الفينيقيون من أجل وضع أبجديتهم واقتبسته أقوام الأورارتو والميتانيون والحوريون والفرس الأخيمينيون[1].

أخذت اللغة السومرية التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً تتقلص بعد قدوم الموجات العربية السامية إلى بلاد ما بين النهرين. وحلت محل السومرية لغة من أصل سامي هي اللغة الأكادية. ومن اللغة الأكادية تفرعت اللغة الآشورية. ولما جاء الألف الأول ق.م. وظهرت إلى حيز الوجود اللغة الآرامية التي ما لبثت أن انتشرت مع التجارة في بقاع عديدة من الشرق الأوسط الآسيوي ومنها بابل الإمبراطورية الجديدة (الكلدانية). وقد انتشرت أيضاً كتابة الآراميين في هذه العوالم كما انتشرت لغتهم. ومنذ القرن الثامن ق.م. أخذت تظهر على الألواح المسمارية خلاصات باللغة الآرامية توضح مضمون الوثيقة المسمارية. وكان هذا من عمل الكتاب الذين يتقنون اللغتين معاً. ولقد كان ذلك أمراً له قيمته في أكثر من ناحية وأعان على تحديد نطق بعض حروف اللغة البابلية في العصر المذكور[2].

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 126.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 243.

الفصل التاسع والعشرون

المدارس والمكتبات

كانت حاجة ملاكات المعابد ودوائر الدولة إلى عناصر متعلمة تتقن الكتابة وتلم بالمعارف الرياضية أحد العوامل الأساسية في نشر المدارس في بلاد الرافدين. وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة يعود تاريخها إلى حوالى 2000 سنة ق.م. وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة[1].

وكانت المدارس ملحقة بالمعابد والقصور. ويبدو أنها كانت خاصة[2]. وكان التعليم فيها لقاء أجر عدا الهدايا الإضافية إلى المعلمين[3].

وكان مدير المدرسة السومرية يدعى "أومّيا" أي الخبير أو الأستاذ ومن ألقابه أبو المدرسة. ووجد بالمدرسة موظفون منهم: الأخ الكبير الذي يكتب الألواح للتلاميذ كي ينسخوها، والمشرف على الرسم، والمشرف على اللغة السومرية، والمراقب الموكل بالسوط[4].

وكانت المناهج المقررة في هذه المدارس تشمل تعلم الكتابة المسمارية واللغتين البابلية السامية والسومرية. وكان التعليم العالي يشمل المعارف الرياضية والموسيقى والفلك والطب وشؤون القانون. وكانت هذه المواد على الأكثر فروعاً للاختصاص يتفرغ لها جماعة

---

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 238/2.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 302.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 132.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

خاصة من المتعلمين، وكانوا يتلقون مثل هذه الدروس العالية في معاهد خاصة[1]. ويكشف عدد من الألواح التي يعود تاريخها إلى عصر حمورابي، مناهج التعليم المقررة وهي: قراءة وكتابة العلامات البسيطة أولاً مع دراسة قيمتها الصوتية ثم تعلم التلاميذ تدريجاً استعمال مجاميع العلامات والإشارات ثم الصيغ المتداولة. وكان التلميذ يعطى بعد ذلك دروساً في النحو في صورة الصيغ المختلفة من تصريف الأسماء والأفعال وينهي تعليمه في آخر الأمر بدراسة الرياضيات: قواعدها الأربع والموازين والمقاييس والمعايير والمسكوكات[2].

ولما كانت المدارس خاصة والتعليم فيها لقاء أجر، فقد اقتصرت معرفة القراءة والكتابة في بلاد الرافدين على أقلية محدودة من أبناء الكهنة وكبار الشخصيات المدنية والعسكرية من أبناء الطبقة السائدة في مجتمع العراق القديم، وظل أبناء غالبية الشعب من الأحرار الفقراء وكذا أبناء العبيد أميين محرومين من ارتياد المدارس.

وكانت المناهج تحث الطلبة على التعلم. ومن الحكم البابلية في تشجيع التلاميذ على التعلم "من يتفوق في كتابة الرقم سيضيء كالشمس"[3]. وكان التلاميذ الكسالى يتعرضون لعقاب جسدي من قبل المراقب الذي يحمل سوطاً لهذا الغرض[4]. ولكن الطلبة كانوا معفيين من الجهود الفصلية وكانوا يتقلدون الوظائف عند انتهاء دراستهم[5].

وكان الكاتب يفخر بعلمه. وكانت الدراية بالقراءة والكتابة لقباً يعدل لقب مدير المعبد أو القاضي[6]. وكان تمرين الكتاب يتم تحت إشراف المعابد ولهذا نراهم يكونون تدريجاً طائفة معينة متصلة بمديري المعابد حتى إن الوظيفتين اختلطتا معاً في عهد البابلية الجديدة

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 312 - 313.

(2) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 237 - 238.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 132.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 238.

في بعض المدن وخصوصاً سيبار. فهناك كان يذكر اسم الشانجو (مدير المعبد) في غالب الأحيان على الألواح بينما قلما يظهر لقب دوبشار (الكاتب)[1].

وكان في بلاد ما بين النهرين مؤسسات خاصة بالبحث العالي (بيت - مومي في البابلية) يقابلها اليوم الأكاديمية أو معهد الدراسات العليا. ومن المؤسسات العالية الخاصة بالجمع والتأليف خزانات الكتب ويسمونها بيت الألواح أو الرقم (أي - دبا بالسومرية). وكانت للمعابد الشهيرة ولقصور الملوك مكتبات ملحقة بها. مثل خزانة الكتب الملكية الشهيرة التي وجدت في قصر الملك "آشور بانيبال". وقد عثر فيها المنقبون على مئات الألوف من ألواح الطين. ويرجع الفضل إلى هذه المكتبة في معرفتنا بنواح مهمة من حضارة العراق القديم وتاريخه. فقد جمع "آشور بانيبال" مكتبته من مختلف المدن البابلية وجمع النصوص القديمة واستنسخ كثيراً منها وأودعها مكتبته[2].

(1) المصدر نفسه.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 312.

الفصل الثلاثون

الأدب

يمثل النتاج الأدبي في العراق القديم أولى محاولات الإنسان للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها بأسلوب الخيال والفن. وقد تناهت إلينا مجموعة كبيرة من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية يرقى تاريخها إلى الألفين الثالث والثاني ق.م. وهي في مضمونها تتعلق بشكل أو بآخر بالدين. أما النصوص التي كرست إلى غير ذلك من الموضوعات فهي استثنائية. وقد سعى كتاب المعابد والقصور لأن ينحوا بالأدب العراقي القديم منحى طبقياً هادفاً إلى تمجيد الآلهة وتقديس السلطة الملكية وشل إرادة الجماهير وكبح محاولاتها من أجل تحسين ظروف حياتها وإرغامها على الاعتقاد بعجزها ودفعها إلى الخنوع والاستسلام: "أوامر القصر مثل أمر آنو لا يمكن أن ترد. كلمة الملك هي الحق الصحيح. وكلمته مثل كلمة الإله لا يمكن تحديها"[1].

وقد تطور الأدب السومري - الأكادي وأضيف إليه الشيء الكثير زمن البابليين والآشوريين والكلدان.

هذا ويتميز أدب العراق القديم بالمزايا العامة التالية:

1 - هو أقدم أدب عرفه العالم القديم وذلك بالمقارنة بآداب الحضارات القديمة المشهورة كالمصرية والكنعانية والإغريقية والهندية والفارسية وغيرها.

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 240.

2 - تأثره بالدين سواء كان ذلك في إشراك الآلهة في حوادث الملاحم والأساطير والقصص أو في المواضيع والأغراض الدينية كالصلوات والتراتيل والأدعية وغيرها.

3 - وصوله إلينا على هيئته الأصلية غير محوّر، أي كُتب ودُوّن بأيدي السومريين والبابليين قبل 4000 سنة[1].

4 - كثرة التكرار والإعادة.

5 - كثرة نسخ القطع الشهيرة التي وضعها الكتّاب في الأزمان المختلفة، وانتشار هذه النسخ في معظم أرجاء العراق القديم وبين غالبية الأقوام القديمة. فقد وجدت نسخ لبعض القطع الأدبية الشهيرة مثل ملحمة جلغامش في المآثر الحثية في الأناضول وفي بلاد الشام وفي عيلام وحتى في الأدب المصري القديم مثل قصة "أدابا"[2].

والشعر في العراق القديم يُعدّ أقدم نتاج أدبي. وقد نشأ من الغناء والقصائد الشعبية. وأفاد الشعراء البابليون من الأساطير السومرية من أجل خلق أعمال أدبية جيدة.

وحاول شعراء العراق الأقدمون أن يفسروا في شعرهم مظاهر الحياة عن طريق القصة والأسطورة. وقد لعب الخيال الشعري والخيال الأسطوري دوريهما معاً فكانت من ثمارهما تلك الملاحم الخالدة مع الزمن.

وكان الشعر في بلاد الرافدين يخضع لفن خاص من النظم والتأليف. فهو يتألف من أبيات قوام كل بيت من مصراعين، الصدر والعجز، وكان موزوناً، ولكنه غير مقفى، أي أنه على غرار ذلك النوع من الشعر الإنكليزي المعروف "بالشعر المرسل"[3].

والعادة في الشعر البابلي، كما في أسطورة الخليقة وملحمة جلغامش، أن القصيدة فيه تنقسم إلى وحدات تتكون الوحدة منها من بيتين من الشعر (دوبيت) والأعم في البيت الثاني أن يكون معناه مكملاً لمعنى البيت الأول أو مشابهاً له أو مخالفاً. وقد تتفق كل أربعة أبيات

---

(1) باقر، طه: ملحمة جلغامش، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

(3) المصدر نفسه، ص 7.

معاً فتكون القصيدة من رباعيات[1]. وقد تفنن الشعراء في صياغة الشعر في العهود المتأخرة. ومن أشهر ما كتب شعراً، بخلاف الملاحم، التراتيل الدينية والأدعية للآلهة والصلوات.

أما النثر فقد استعملوه في تدوين الحوادث والتاريخ وفي الرسائل الملوكية وفي تدوين أعمال الملوك وتخليدها وفي الحكم والأمثال والمواعظ. وكان هذا النوع من النثر الأدبي يخضع أيضاً إلى أصول خاصة من التأليف والتركيب.

وتناهت إلينا من بلاد الرافدين مدونات أدبية نثرية ذات موضوعات سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية.

ومما يستحق الذكر ويدعو إلى الإعجاب، أن الأدباء والكتاب العراقيين القدماء لم يتركوا ضرباً من ضروب الأدب إلا وطرقوه. فقد ألفوا القصص والأساطير والملاحم، وكتبوا الصلوات والأدعية والترانيم، وجمعوا الأمثال والحكم والنصائح، ونظموا قصائد الغزل والمناجاة وغير ذلك. وبالإضافة إلى أهمية هذه المؤلفات من وجهة النظر الأدبية والدينية والتاريخية فإن بعضها يعتبر بحق من أقدم المحاولات المدونة لبحث ومناقشة مسائل فلسفية أساسية كالحياة والموت، وخلق الكون والإنسان، والخير والشر والثواب والعقاب. وقد وصلتنا نماذج مختلفة من مؤلفاتهم مدونة على رقم الطين التي اكتشفت في المدن القديمة داخل العراق وخارجه. وكانت مكتبة آشور بانيبال في تل قوينجق من أكثر المواقع شهرة في هذا المضمار، إذ عثر فيها على أبرز التآليف مما اكتسب شهرة واسعة بين الأقدمين والمعاصرين على السواء.

هذا ويمكننا تصنيف القطع الأدبية حسب الموضوعات التي عالجتها كما يلي:

1 - مجموعات كثيرة من الأساطير السومرية والبابلية تدور حول الخليقة وأصل الوجود والكون والآلهة والعمران البشري مثل أسطورة الخليقة البابلية.

2 - مجموعات تدور حول أعمال الأبطال كملحمة جلغامش وقصة ايتانا الراعي وقصة أدابا وقصة النزاع بين الوركاء وكيش المتمثلة بقصة "أكا" (Agga) وجلغامش.

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 - مجموعات تدور حول أساطير العالم الأسفل وعالم الأموات مثل أسطورة نزول عشتار إلى ذلك العالم.

4 - قطع نثرية تضمنت الرسائل وأعمال الملوك والأخبار التاريخية والحكم والأمثال والمواعظ.

5 - مجموعة كبرى تتضمن التراتيل والأغاني الدينية والصلوات والأدعية المخصصة للآلهة في الأعياد الدينية.

قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش)

شغل أصل الوجود والأشياء اهتمام المفكرين العراقيين القدماء، فنشأ عنهم آراء مختلفة حول موضوع الخليقة خلفوها لنا في عدد من الملاحم والأساطير ودونوها على ألواح الطين بالشعر القصصي. وكانت هذه الأساطير متعددة تختلف من حيث المادة والعهد. وقد تناهت إلينا من السومريين نماذج من هذه القصص إلا أنها لم تأتنا سالمة محفوظة ولكن البابليين الذين أخذوا تراثاً كبيراً عن السومريين، خلقوا لنا نموذجاً آخر من أساطير الخليقة. ويعد هذا النموذج أكمل وأطول قصة عن موضوع الخليقة.

وتعرف هذه الأسطورة عند علماء الآشوريات باسم "رقم الخليقة السبعة" أو كما سماها البابليون أنفسهم "إنوما - إليش" (حينما في العلى) لأن أول بيت من الشعر فيها يبدأ بهذه العبارة. وقد ألّفت بالشعر البابلي ودونت على سبعة ألواح من الطين. أما زمن الألواح التي جاءتنا من خزانة الملك الآشوري "آشور بانيبال" فيرجع إلى القرن السابع ق.م. (وهي نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وآشور من بلاد سومر). غير أننا لو دققنا في غرض قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش) وهو تمجيد الإله مردوخ(*)، إله بابل، وبالتالي تعظيم مدينة بابل

(*) كان بطل القصة الإله آنليل، ولكن الكهنة البابليين أحلّوا الإله مردوخ محله بعد أن عظم شأن بابل وتحولت في عهد حمورابي من مجرد مدينة إلى عاصمة للإمبراطورية التي أنشأها ذلك الملك. وتبعاً لهذا التحول السياسي تغير مركز الإله مردوخ من مجرد إله محلي غير ذي شأن إلى سيد الآلهة وملكها على صعيد الإمبراطورية. وقد أفاد الشعراء البابليون من الأساطير السومرية من أجل خلق أعمال أدبية ممتازة. وتعد قصة «حينما في العلى» أشدها اعتباراً.

وإعلاء شأنها على البلاد الأخرى، وإذا تذكرنا أن مثل هذا الغرض قد ذكره حمورابي في مقدمة شريعته استنتجنا أن زمن وضع القصة يرجع إلى عصر حمورابي الذي وحد البلاد وعظّم شأن بابل وغدت عاصمة بلاد الرافدين الموحدة وميتروبول إمبراطورية واسعة في الشرق الأدنى.

وقد ألفت هذه القصة بالشعر البابلي ودونت على سبعة ألواح من الطين مجموع ما فيها ألف سطر تقريباً. وكانت تتلى في اليوم الرابع من عيد العام الجديد في مدينة بابل.

وتشير أسطورة الخليقة إلى تكون المادة الأولى من هيولى مائية تولدت منها الآلهة وجميع الأشياء. وكانت هذه الهيولى المائية عنصرين مختلطين أحدهما مذكر وهو "الأبسو" عنصر الماء العذب والآخر مؤنث وهو "تيامة" عنصر الماء المالح. وبعد الصراع بينهما يحل النظام في الكون. وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما إلهاً "أبسو" وإلهة "تيامة" وعدّوهما أصل الآلهة الأخرى وأصل جميع الأشياء.

وقد سبق قدماء العراقيين فلاسفة الإغريق بقولهم بمبدأ العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء. فقد تصوروا أنه:

1 - كان في البدء عنصر الماء الذي كان أزلياً لم يخلق.

2 - تولد من عنصر الماء عنصر آخر هو الأرض والسماء متحدتين.

3 - وتولد من السماء والأرض المتحدتين عنصر غازي هو الهواء المتمدد الذي فصل بتمدده السماء عن الأرض.

4 - تولد من الهواء القمر ومن القمر تولدت الشمس.

5 - وبعد انفصال الأرض عن السماء نشأت أنواع الحياة من نبات وحيوان وإنسان على الأرض.

6 - تكونت الحياة والأشياء من اتحاد الهواء والتراب (الأرض) والماء بمساعدة الشمس. وهذه هي نظرية العناصر الأربعة.

ولكن إذا رددنا هذه الآراء إلى غلافها الأسطوري السومري وعبّرنا عنها بلغة الأساطير كما وردت إلينا منهم فيكون التعبير عنها على الوجه التالي:

1 - كان في البدء الإلهة "نمو" (أو الإله "أبسو") بحسب القصة البابلية "أنوما - إليش" وتمثل كل منهما مياه البحر الأولى.

2 - ولدت الإلهة "نمو" الإله "آن" إله السماء و"كي" إلهة الأرض.

3 - تولد من اجتماع "آن" إله السماء و"كي" إلهة الأرض "آنليل" إله الهواء الذي فصل أباه "آن" إله السماء عن أمه "كي" إلهة الأرض.

4 - ووجد آنليل بعد ذلك نفسه يعيش في كون مظلم حالك فأوى إلى القمر "ننار"(*) لينير له بيته في المساء. وخلق إله القمر بدوره ولدين: أحدهما أصبح إله الشمس(**) والثاني أصبح إلهة كوكب الزهرة.

5 - ثم اتحد إله الهواء آنليل بأمه الأرض فتولدت من هذا الاتحاد، وبمساعدة الإله "انكي" إله الماء وإله الشمس، حياة النبات والحيوان على الأرض. أما الإنسان فقد اشتركت في خلقه الإلهة "نمو" أم الآلهة والإلهة ننماخ (من أسماء إلهة الأرض). وبعد اتحاد إله الهواء بإلهة الأرض ابتدأت عمليات الخلق الأخرى ومنها: تنظيم الكون، وخلق الإنسان، وتكوين الحضارة والعمران البشري.

وبوسع القارئ أيضاً أن يستشف من وراء الغلاف الأسطوري لقصة الخليقة أموراً أخرى تتعلق بالأحوال الجغرافية وتطور الديانة في العراق القديم. فالمياه الأولى والصراع بين الإله مردوخ وتيامة وأبسو (وهما الإلهان اللذان يمثلان المياه الأولى) وتغلب مردوخ عليهما ثم إحلال النظام بدل الفوضى وخلق الكون وتكوين العمران البشري كل هذا وغيره يعكس لنا صراع الإنسان العراقي الأول مع بيئته الطبيعية وانتصاره على هذه البيئة وذلك بإبداعه أولى الحضارات البشرية[1]. وتعكس لنا الأسطورة أيضاً صدى جوانب من الحياة الاجتماعية والسياسية في أولى مراحل التكوين الحضاري في العراق القديم، حين كانت إدارة العشيرة والقبيلة تبنى حسب مبدأ الديموقراطية العشيرية، أي مبدأ اشتراك جميع أعضاء مجتمع

(*) ننار لدى السومريين وسين لدى الأكاديين.

(**) سمى السومريون إله الشمس «أوتو» وسماه الأكاديون شماش.

(1) سومر المجلد الخامس، 1949، ص 10 – 11.

العشيرة البالغين من الذكور والإناث، على قدم المساواة في تصريف شؤون الجماعة. وكان رئيس العشيرة ينتخب في الاجتماع العام لجميع البالغين من الرجال والنساء. "اجتمع الآلهة، الذكور منهم والإناث في مجلس الشورى المقدس (ندوة الأقدار)، وانتخبوا الإله مردوخ وجعلوه ملكاً عليهم"[1].

وإليكم مقاطع من قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش):

"حينما في العلى لم يكن للسماء اسم

وفي الدنى لم تكن الأرض شيئاً مذكوراً

ولما لم يكن في البدء غير أبسو أبيهم

والأم تيامة التي ولدتهم جميعاً

وكان ماءاهما ممتزجين معاً

ولم تكن اليابسة، بل ولا ضحضاح يرى(*).

ولم يكن أي من الآلهة قد ولد بعد

ثم خلقت الآلهة في وسطهما(**)

لقد ولدا "لخمو" و"لخامو" وسميا باسمهما

ثم مرت الدهور وتتابعت السنون

فخلق بعدهما "أنشار" و"كيشار" فبذاهما

وتوالت الأيام الطويلة وتتابعت السنون

فولد ابنهما "آنو" غريم آبائه

فصار "آنو" بكر "أنشار"، نداً له

وولد "آنو" "نوديمود"(***) (Nudimmud) على صورته ومثاله

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 458.

(*) أي لم تكن قد تكونت الأهوار التي هي المرحلة الأولى في تكوين القسم الجنوبي من العراق حين كانت تغمره مياه البحر.

(**) أي وسط الماءين أبسو وتيامة.

(***) اسم من أسماء الإله أيا.

وصار نوديمود سيد آبائه

متحلياً بالحكمة والمعرفة والقوة

أقوى بكثير من جده أنشار

لم يكن له ند بين الآلهة إخوته

وصار الآلهة الأحداث حزباً واحداً

وأساءوا إلى تيامة واعتدوا على حاميهم أبسو

ورضخت تيامة لفعالهم

ولكن سلوكهم آذى أبسو".

وينادي أبسو وزيره "مَمّو" (Mummu) للتشاور ويقول له على مسمع من تيامة "لأبيدنّهم جميعاً". ولكن تيامة تنهر زوجها على حين يشجعه ممّو على تنفيذ ما انتوى فعله. ونقل ما دبرا من خطط في ندوتهما إلى الآلهة أبنائهما فاضطربوا. وأنعم "أيا"، أحكم الآلهة وأبدعهم، النظر في إحباط نيتهما، فحزم أمره ودبر سحره. أنامَ أبسو ثم كبّله وذبحه، وأسر ممّو. وبعد أن انتصر أيا على أعدائه عاد إلى قصره ونعم بالراحة، وسمى مسكنه أبسو وخصصه للمعابد. وأبسو المقدس ولد أيا وزوجته دمكينا (Damkina) "مردوخ". وقد فضّل أيا مردوخاً على غيره، وأنعم عليه صفة مضاعفة من الألوهية فَعَلا قدره وبذّ الآلهة في كل شيء. وأولد آنو الرياح الأربع لتكبح التنين، فاضطربت تيامة واستشاط الآلهة معها غضباً واتحدوا وتحفزوا جميعاً للحرب، وأعدوا جيشاً أمّرت تيامة عليه "كينغو" (Kingu) ومنحته السلطة على جميع الآلهة. ولما سمع أيا بما انتوته تيامة ذهب إلى أنشار جده وقال له:

"أبي إن تيامة، أمنا، تبغضنا

لقد أعدت جيشاً وهي تتلظى بنار الحقد

وانضم إليها جميع الآلهة

سلحتهم أيضاً بأسلحة لا تقهر، تولد ثعابين مخيفة"

وعندما سمع أنشار أن تيامة قد اهتاجت ضرب على فخذه وعض شفتيه واضطرب عقله وقال لأيا:

انهض يا بني واذهب للحرب. ويظهر من سياق القصة أن أيا يفشل في مهمته مع أنه غلب أبسو وممو. ثم يلتفت أنشار إلى ابنه آنو قائلاً:

"يا بكري، إياك أعني، يا بطلي القديم

اذهب وامثل أمام تيامة

قل لها كلمتنا، عساها أن تهدأ

فلما اقترب آنو منها ورأى ما وطدت عليه تيامة عزمها

لم يستطع الوقوف أمامها وكر راجعاً

وذهب خائفاً إلى أبيه، أنشار

ولم يحر أنشار نطقاً وأطرق

ثم عبس وهز رأسه نحو "أيا"

وتجمع كل "الأنوناكي"(*) في ذلك المكان

وجلسوا صامتين، لا ينبسون ببنت شفة

نهض الرب أنشار، أبو الآلهة يحفه الجلال

وبعد أن تدبر الأمر في نفسه قال للأنوناكي:

إن من كانت قوته فعالة سيكون المنتقم لنا...

ذلك البارع في القتال... مردوخ البطل

فدعا أيا مردوخ إلى مقامه الخاص

وأشار عليه موضحاً ما نواه في قلبه

أي مردوخ. تدبر نصحي، وأصغ إلى أبيك

لأنك أنت ابني الذي يريح قلبي

هلم واقترب من حضرة أنشار، وأنت مستعد للقتال

تكلم وانهض، فإنه إذ رآك وجد الراحة

(*) الأنوناكي في هذه الملحمة مجمع الآلهة (آلهة السماء وآلهة الأرض).

وفرح الإله مردوخ من كلام أبيه

اقترب ووقف أمام أنشار

ولما رآه أنشار امتلأ قلبه فرحاً

فقبل شفتيه وزال عنه الخوف

أنشار! لا تبكم!! بل افتح شفتيك

إنني سأذهب وألبي رغبة قلبك!

من يكن ذلك الذي يشن الحرب عليك

.. أتيامة، وهي امرأة، هي القادمة عليك بالسلاح!

يا أبي، أبي الخالق، افرح وتهلل

إنك ستطأ عن قريب عنق تيامة

أي بني: يا من تعرف الحكمة كلها!

هدئ تيامة بسحرك المقدس

تقدم على عربة العاصفة بكل سرعة!

فلن يعيقك أعوانها من الدنو، فترجع سالماً

وفرح مردوخ وتهلل بكلمات أبيه

ابتهج قلبه وقال لأبيه

يا خالق الآلهة، ومقدر أقدار الآلهة الكبار

إذا قدر لي أن أصير بطلك

فأنتصر على تيامة، وأبقيك حياً

فلتجمع المجمع وتعلن قدري سامياً

وعندما تجلسون معاً فرحين في ندوة الأقدار

ليكن بوسعي أن أقدر الأقدار بدلاً منكم بكلمة تخرج من فمي

فما أخلقه لا يأتيه التغيير والتحوير".

طلب أنشار من وزيره "كاكا" أن يدعو الآلهة جميعاً للتشاور. وعندما اجتمع الآلهة في

مجلس الشورى (ندوة الأقدار) وجلسوا للوليمة فأكلوا واحتسوا خمراً، قرروا انتخاب بطلهم الإله مردوخ لينتقم لهم وجعلوه ملكاً عليهم وفوضوا إليه السلطة المطلقة على جميع الكون وزودوه الأسرار الإلهية الكامنة في أسمائهم والخاصة بهم وزودوه الصولجان والتاج وأعطوه سلاحاً لا نظير له في حربه مع تيامة. وصنع هو قوساً وسهماً عجيبين وصنع شبكة وأمر الرياح الأربع أن تسكن في مواضعها وركب عربته المرعبة تجرها مخلوقات مدمرة. ولما تقابل الإله مع تيامة بدأت هذه تتلو سحرها ولكن لم تؤثر في مردوخ. وبعد تبادل كلمات السباب نشر الإله شبكته واصطادها بها، وأطلق الرياح الشريرة فدخلت في جوفها فانتفخ بطنها فبقره وذبحها. وحاولت جموعها أن تهرب ولكن مردوخ لم يدع أحداً يفلت من يده فجمعهم في شبكته ومعهم قائدهم كنكو فأخذ منه ألواح القدر وختمها واحتفظ بها في صدره. ثم رجع إلى تيامة فقسم جسمها قسمين جعل النصف الأعلى منه سماء ومن نصفه الأسفل أرضاً.

"صنع مقراً للآلهة العظام

ووضع كواكبها، وهي أبراج لوماشي (الأبراج السبعة) على مثالهم

وعيّن لكل من الأشهر الاثني عشر ثلاثة كواكب

وبعد أن عين أيام السنة بالكواكب

فتح مردوخ فاه وقال لأيا:

أجل لأخلق لولو الإنسان

ولأفرض عليه عبادة الآلهة حتى يستريحوا

ويستدرك مردوخ مخاطباً الآلهة قائلاً:

والآن ينبغي لكم أن تقولوا الحق

من ذا الذي خلق النزاع

وحرض تيامة على الثورة وهيأها للحرب

فليسلّم من سبّب النزاع

ولأحملنّه جريرة ما ارتكب، فتعيشوا بسلام.

فأجابه الآلهة:

إنه كنكو الذي خلق النـزاع

وحرض تيامة على الثورة، وهيأها للحرب

فكبلوه، وأودعوه السجن أمام أيا

وعاقبوه بقطع عروق دمه

ومن دمه خلقوا البشر

وفرض أيا عليهم عبادة الآلهة

وصفح عن الآلهة الأخرى

فتح الأنوناكي أفواههم

وقالوا لمردوخ، سيدهم

ماذا نصنع لندل على شكرنا لك؟

لنبنينّ معبداً يكون قصراً لك

فتأوي إليه يوم نحج إليك(*)

لما سمع مردوخ هذا

طفح وجهه بشراً، وتألق مثل النهار

وقال:

هكذا لتكن بابل التي أردتم بناءها

لتبن مدينة، وليقم معبد منيع التحصين

فتناول الأنوناكي الفأس

وصنعوا لبناً يكفي سنة

فلما بدأت السنة الثانية

رفعوا رأس إيساكلا(**) عالياً على أبسو

(*) إشارة بذلك إلى عيد رأس السنة البابلي الواقع في أول نيسان/ أبريل يوم تحج الآلهة إلى معبد مردوخ في بابل باحتفال مهيب.

(**) اسم معبد مردوخ في بابل.

وبعد أن أتموا بناء معبد الإله مردوخ اجتمعوا فيه في حفلة مقدسة ورتلوا مجد مردوخ ومنحوه أهم ألقابهم وأسمائهم المقدسة، فصار يجمع في شخصه أكثر صفاتهم. وتنتهي قصة الخليقة في الرقيم السابع الذي خصص ليكون ترتيلاً وصلاة لمردوخ[1].

أسطورة جلغامش

ملحمة شعرية سومرية الأصل بابلية النتاج. وهي تصنف من حيث أفكارها وصفاتها الشعرية بين شوامخ الأدب العالمي.

ومع أن هذه الملحمة قد دونت في مطلع الألف الثاني ق.م. وترجع حقبة حوادثها إلى زمن أقدم، فإنها لاتزال خالدة وذات جاذبية إنسانية عامة. وعلى الرغم من أن الملحمة قد جاءتنا من ناحية الفن القصصي على هيئة متكاملة في آخر نسخة لها من القرن السابع قبل الميلاد، وهي النسخة الآشورية[*] من خزانة الملك آشور بانيبال، إلا أنها كانت أقرب ما تكون إلى الجمع الأدبي، أي إنها مؤلفة من عدة قطع وأجزاء تتعلق بحوادث وأعمال مختلفة. فمن هذه الأجزاء المهمة، القصص الدائرة حول أعمال جلغامش البطولية ومغامراته مع صديقه ورفيق سلاحه أنكيدو. وجزء آخر يدور حول رواية الطوفان الذي يؤلف بنفسه موضوعاً مستقلاً من الناحية الفنية. وهناك جزء ثالث يصف العالم الأسفل أو عالم الأرواح كما شاهده أنكيدو، وهذا الجزء يكون بنفسه قصة لا علاقة لها بسياق حوادث الملحمة ولا بموضوعها العام.

عالجت ملحمة جلغامش فكرة أساسية وهي مسألة الحياة والموت، كما تطرقت إلى قضايا انسانية أخرى مثل الصداقة والحب والبغض والأماني والحنين إلى الذكريات والحرب والمغامرات والرثاء. والملحمة فوق ذلك كله تصور جوانب مهمة من حضارة بلاد الرافدين قبل أربعة آلاف عام. إذ يقف فيها القارئ على عقائد قدماء العراقيين الدينية وآرائهم وأفكارهم في الحياة والكون وأحوالهم الاجتماعية والجوانب المثيرة من حياتهم

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 457.

(*) موجودة الآن في المتحف البريطاني.

العاطفية والعقلية وعلاقاتهم الاجتماعية وتركيب أقدم مجتمع متحضر في تاريخ العمران البشري، كما يجد فيها صورة رائعة عن الحياة البدائية وكيفية تدرجها إلى طور الحضارة.

لقد شغلت مسألة الحياة والموت المجتمع السومري - البابلي منذ مدة طويلة. فهناك أساطير سعت لتفسير: لماذا كان الآلهة خالدين يعيشون حياة أبدية والبشر يفارقونها؟ وقد أغرت واحدة منها كسبب لموت البشر جنون الإنسان الأول، أدابا، الابن المحبوب جداً من الإله أيا الذي كان قد منحه الحكمة الكبرى، ولكن لم يمنحه الحياة الأبدية. وفي أحد الأيام عرضت على أدابا فرصة الحصول على الخلود، غير أنه رفضه. واستدعي للمثول أمام الإله أنوم، إله السماء السومري وكان مقر عبادته في أوروك - الوركاء، لمحاكمته بسبب كسوه جناحي الريح الجنوبية. وقد أعلمه أيا، إله الماء، بأنه إذا قدم إليه الإله آنو شيئاً ليأكل أو يشرب فعليه أن يرفض لأن ما سيقدم إليه إنما هو "طعام الموت وشرابه". ولما مثل أدابا أمام آنو وجده يعرف أكثر مما ينبغي لبشر مثله أن يعرف. ولأسباب مجهولة قرر الإله آنو أن يكمل هذا الإنسان فيطعمه طعام الحياة ويسقيه شرابها أي إنه عزم على أن يجعله خالداً. فأصر أحد خدمه على أن يحضر أمام أدابا طعام الحياة وماءها ليأخذ منهما. ولما أحضرا أمامه رفض أن يأكل ويشرب متذكراً تحذير إلهه أيا قبل أن يصعد إلى السماء فتعجب آنو وغضب لأن أدابا رفض أن يأكل من طعام الحياة ويشرب من مائها، فيئس آنو وأمر أدابا أن يرجع إلى الأرض فيموت مثل البشر[1].

إن هذه الأسطورة التي يحتمل أنها من اختراع الكهنة، تسعى لجعل الناس يذهبون إلى مصيرهم وتحملهم على التسليم بعجزهم أمام الآلهة. غير أن تفسيراً مماثلاً لفناء البشر لم يستطع أن يقنع الرجال المفكرين في المجتمع البابلي. فقد طرحت ملحمة جلغامش القضية من جديد، دون أن تعطي مع ذلك جواباً شافياً.

كان جلغامش حاكماً لمدينة أوروك السومرية أواخر عهد جمدة نصر أو في مطلع عصر

(1) سومر، المجلد السادس، 1950، 186/2 - 188.

فجر السلالات[1]. فقد ورد اسمه في إثبات الملوك السومريين من سلالة الوركاء الأولى وهي السلالة الثانية التي حكمت بعد الطوفان. وكانت سلالة كيش أول سلالة حكمت بعد حادثة الطوفان مباشرة. ويأتي ترتيب حكمه في سلالة الوركاء الأولى خامس ملك[2]. أُلّه بعد وفاته. وأقيمت على شرفه عبادة له في مدينة أوروك[3]. ولعل أقدم كتابة ذكرت اسم جلغامش ولوغال بصفتهما اسمين مؤلهين الألواح الصورية التي وجدت في فارة (شروباك القديمة) ويرجع زمنها على الأرجح إلى أواخر عهد جمدة نصر 3200 ق.م[4].

تمثل الأسطورة جلغامش على شكل عملاق قوي، طويل القامة، ضخم الجسم، مفتول العضلات، جميل وحكيم، ثلثان منه إله وثلثه الباقي بشر. قام مع أنكيدو، صديقه ورفيق السلاح، بأسفار ومغامرات خارقة أثارت إعجاب عشتار، فعرضت عليه أن يكون عريسها أو زوجها أو حبيبها، ولكنه رفض عروضها، وشعرت عشتار بالذلة والمهانة فذهبت غاضبة إلى أبيها آنو لتستعديه على جلغامش. فخلق لها آنو ثور السماء (لعله يرمز إلى الجفاف أو انحباس الماء) لتقضي به عشتار على جلغامش. فانبرى له البطلان يصارعانه فقتلاه. وحينئذ وبناء على طلب عشتار أصاب الآلهة أنكيدو بمرض مميت. فحزن عليه جلغامش ورثاه أروع رثاء وظل الحزن يلازمه، واستبد به القلق من الموت... وفكر كيف السبيل إلى اجتنابه؟ وإليكم بعض مقاطع الأسطورة:

" هو الذي رأى كل شيء إلى أقاصي الأرض

وهو الذي خبر جميع الأشياء وأفاد من عبرها

وهو الحكيم العارف بكل شيء

لقد أوغل في الأسفار البعيدة حتى حل به الضنى والتعب

فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وما خبره

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 18.

(2) المصدر نفسه، ص 17.

(3) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 130.

(4) باقر، طه: ملحمة جلغامش، ص 18.

بنى أسوار "أوروك" وحرم "أي - أنا"(*) المقدس، والمستودع الطاهر

بعد أن خلق جلغامش، وأحسن الإله العظيم خلقه

حباه شماش(*) السماوي بالحسن، وخصه أدد(**) بالبطولة

وكان طوله إحدى عشرة ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار

ثلثان منه إله، وثلثه الباقي بشر.

وهيئة جسمه لا نظير لها".

ويشكوه أهالي أوروك إلى الآلهة قائلين: "إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا في بناء الأسوار بالنهار والليل. وإنه لم يترك عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل". ولما استمع آنو الجليل إلى شكواهم، دعا "أرورو" عرابة جلغامش ورجاها أن تخلق الآن غريماً له قادراً على أن يشغله في نزاع بينهما "لتنال أوروك السلام والراحة".

"وغسلت أرورو(***) يديها وأخذت قبضة طين ورمتها في البرية

خلقت في البرية "أنكيدو" الصنديد نسل "نينورتا"(****) القوي

يكسو جسمه الشعر، وشعر رأسه كشعر المرأة

لا يعرف الناس ولا البلاد، ولباس جسمه مثل "سوموقان"(*****)

ومع الظباء يأكل العشب، ويسقى مع الحيوان من موارد الماء".

ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز، فيذهب إلى جلغامش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع أنكيدو في شرك حبها. فيقول له جلغامش: "اذهب أيها الصياد وخذ لك كاهنة، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي فلتكشف عن جمالها، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش". وينطلق الصياد والكاهنة ويلتقيان أنكيدو.

(*) أشهر معابد الوركاء المقدسة. وقد خصص لعبادة الإله «آنو» والإلهة «عشتار».

(*) إله الشمس وكان عندهم إله العدل والشرائع.

(**) إله الرعد والعواصف والأمطار.

(***) أرورو: إحدى الآلهات الخالقات.

(****) نينورتا: إله الحرب.

(*****) إله الماشية.

"هذا هو يا بغي فاكشفي عن نهديك

اكشفي عن عورتك لكي يتمتع بمفاتن جسمك

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام

فإنه متى رآك وقع في حبائلك

انضي عنك ثيابك، لينجذب إليك

وأثيري شهوته، كما تفعل النساء

ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية

إذا انعطف إليك وتعلق بك

فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها

فتمتع بمفاتن جسمها

نضت ثيابها فوقع عليها

وأثارت شهوته كما تفعل النساء

والتصق صدره بصدرها

فنسي أنكيدو أين ولد.

ولبث أنكيدو مع البغي ستة أيام وسبع ليال، يعب فيها السعادة عباً. وبعد أن قضى وطره منها رأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقوه، فلم يلحق بهم ولكن شل جسمه. عندها كلمته البغي قائلة: "إنك حكيم يا أنكيدو، وأنت مثل إله. تعال آخذك إلى أوروك، حيث يعيش جلغامش الذي لا يدانيه أحد في جبروته". ووقع أنكيدو في شرك الكاهنة العاهرة، فسار وراءها إلى أوروك وهو يقول: "أريني المكان الذي فيه جلغامش، أقاتله وأظهر له قوتي" وفي شارع أوروك، في موضع السوق تلاقيا. "وظل جلغامش وأنكيدو يتصارعان كالثورين الوحشيين" حتى اهتزت الأسوار وغلب جلغامش أنكيدو وأقر أنكيدو بتفوق جلغامش وانتهت المصارعة بين البطلين بأن انعقدت أواصر الصداقة بينهما وصارا خلّين حميمين يلازم أحدهما الآخر. وشرعا في القيام بسفر طويل في مغامرة إلى "غابة الأرز المسحورة"

سعياً وراء الشهرة والمجد. ووصلا بعد سفر شاق إلى مدخل الغابة التي يحرسها الغول "خُمْبابا"(*) (خوواوا في النصين السومري والبابلي وخمبابا في النص الآشوري) فذعر جلغامش واستغاث شماش الذي أرسل ريحاً سلطها على خمبابا فمسكته وشلت حركته. فاستسلم لهما وأخذ يتضرع أن يبقيا على حياته فرق قلب جلغامش. ولكن صديقه أنكيدو حرضه على قتله فقتلاه وقطعا رأسه. وتنتهي المغامرة بنجاح البطلين وعودتهما سالمين إلى أوروك وهناك تهيّآ للاحتفال بالنصر.

"غسل جلغامش شعره الأشعث الطويل وصقل سلاحه

وأرسل جدائل شعره على كتفيه

وخلع لباسه الوسخ واكتسى حللاً نظيفة

ولما أن لبس جلغامش تاجه

رفعت عشتار الجليلة عينيها ورمقت جمال جلغامش فنادته:

تعالَ يا جلغامش وكن عريسي

وهبني ثمرتك أتمتع بها

كن زوجي وأكون زوجك

سأعِدّ لك مركبة من حجر اللازورد والذهب

وعندما تدخل بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه

سينحني لك الملوك والحكام والأمراء

وسيقدمون لك الإتاوة من نتاج الجبل والسهل".

رفض جلغامش عروض عشتار فحز ذلك في نفسها وخصوصاً بعد أن عرّض بعلاقاتها السابقة مع عشاقها الذين جلب حبها لهم الوبال... "وتموز حبيب صباك مات بسبب حبك

(*) خمبابا: العفريت الذي يحرس غابة الأرز وقد ورد اسمه في نصوص الألواح البابلية القديمة بهيئة «خوواوا».

لـه! طيـر الشـقراق(**) المرقـش ضربتـه بعصـاك وكسـرت جناحيـه ولا يـزال يندبهمـا! أحببت الأسـد ولكنك حفـرت لـه للإيقـاع بـه! أحببـت بسـتاني أبيك ولكـن مسـخته ضفدعاً!

شـعرت عشـتار بالذلـة والمهانـة فذهبـت غاضبـة إلـى أبيهـا آنـو لتسـتعديه علـى جلغامـش. فخلـق لـه ثـور السـماء وأنزلـه إلـى أوروك فنشـر الرعـب والفـزع فيهـا وقتـل بعـض أهاليهـا فانبـرى لـه البطـلان يصارعانـه حتـى غلبـاه. وحزنـت عشـتار على مـوت الثور وأقامـت المناحة عليه وشـاركتها نسـوة المعبد... ومـر موكـب جلغامـش فـي زهـو يسـأل العـذارى: مَـن الممجـد بيـن الأبطـال؟ فيجبنـه: جلغامش.

وكان لا بـد بعـد ذلـك أن يحـل العقاب بالبطليـن... فأنكيدو قتـل "خمبابا" و"ثور السـماء". ووقع حكم الآلهـة عليـه بالمـوت، وذلـك بـأن أصابـوه بمـرض عضـال وهـو فـي عنفوان مجـده وريعـان شـبابه. ومات أنكيـدو وحـزن عليـه جلغامش وندبـه ورثاه:

"على فراش المجد أضجعتك

وأجلستك على كرسي الراحة إلى يساري

كما يقبّل أمراء الأرض قدميك

سأجعل أهل أوروك يبكون عليك ويندبونك

وسيحزن عليك أهل الفرح والموسرون وسأجعلهم يقربون إليك

وأنا نفسي بعد أن توسد في الثرى سأطلق شعري

وسألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في البراري".

مـن أجـل أنكيـدو بكـى جلغامـش بـكاء مـراً، وهـام علـى وجهـه فـي البـراري وتملكـه الحـزن والأسـى وأخـذ يخـاف هـو نفسـه المـوت... وفكـر: كيـف السـبيل إلـى اجتنابـه؟ هنـا تذكـر قصـة جـده "أوتنـا بيشـتيم" الـذي يعيـش فـي بقعـة نائيـة فـي البحـار البعيـدة والـذي اسـتطاع أن يحصـل علـى الخلـود. فعـزم علـى التوجـه إليـه ليسـأله عـن لغـز الحيـاة والمـوت وكيـف أصبـح خالـداً.

(**) الشقراق: ترجم بعضهم هذا الطائر بطير الراعي. ويلاحظ أن الشقراق الذي يكثر في العراق يخرج في أثناء موسم التلاقح.

وبدأ بسفرة طويلة... وصل أولاً إلى جبل "ماشو" الذي يحرس مدخله "البشر العقارب". فسأل "الرجل العقرب" جلغامش عن أهدافه فأخبره أنه يسعى وراء الوصول إلى أوتنا بيشتيم فسمح له بالمرور وظل يسير في ظلام حتى جاء بستاناً عجيباً تحمل أشجاره الجواهر اللامعة، ووصل أخيراً إلى شاطئ واستقر عند حافة تقيم فيها "سابييو" إلهة البحار وشكا إليها حاله وطلب مساعدتها للوصول إلى أوتنا بيشتيم فأجابته قائلة:

"إيه جلغامش! لماذا أنت تهيم على وجهك

إن الحياة التي تبغي لن تجد

فحين خلقت الآلهة البشر قدرت عليهم الموت

واستأثرت هي بالحياة

أما أنت يا جلغامش فاملأ بطنك بالطعام

وكن فرحاً مبتهجاً ليل نهار، واخلق لنفسك مسرة كل يوم

واجعل ثيابك نظيفة زاهية واغسل رأسك واستحم بالماء

وهذا هو نصيب البشر".

غير أن هذه الحكمة المنتشرة جداً في أوساط الأرستقراطية البابلية، لم تقنع قط جلغامش[1]، وألح جلغامش في سؤاله فأرشدته إلى ملاّح "أوتنا بيشتيم" الذي نقله بسفينة إلى الجزيرة السعيدة التي يعيش فيها أوتنا بيشتيم المحتد أمين الدهر.

سأل جلغامش "أوتنا بيشتيم": قل لي كيف دخلت في مجمع الآلهة ونلت الحياة الخالدة؟ فبدأ أوتنا بيشتيم يقص عليه قصة الطوفان الذي حصل من بعده على الخلود(*). قال أوتنا بيشتيم مخاطباً جلغامش:

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 131.

(*) بسبب عجز الإنسان أمام الطبيعة فسر قدماء العراقيين الحوادث الطبيعية الكبرى الضارة على أنها من صنع الآلهة الغاضبة على الناس الأشرار، واعتبروها عقاباً للبشر لمخالفتهم إرادة الآلهة. وقد انعكس هذا المفهوم على الأسطورة البابلية عن الطوفان. ففي بلاد النهرين غالباً ما كانت تحدث طوفانات نتيجة فيضانات دجلة والفرات التي يسببها سقوط الأمطار وذوبان الثلوج على جبل أورارتو (أرمينيا) فتغمر ساحات واسعة حتى ظن سكان المنطقة في ذلك العصر أن الفيضانات تغمر العالم بأجمعه. لذا نسجوا أسطورة الطوفان وقالوا إنه باقتراح من الإله آنليل بعثت الآلهة إلى الأرض بوابل من المطر الغزير فأهلك الناس وحول الخليقة إلى طين ما عدا الإنسان الطاهر أوتنا بيشتيم (زيوسودرا في الأسطورة السومرية) الذي صنع بناء على نصيحة الإله أيا سفينة ونجا مع عائلته.

"سأطلعك على سر من أسرار الآلهة

كنت أعيش في "شروباك" الراكبة على شاطئ نهر الفرات

وعوّل الآلهة على أحداث الطوفان

كان أيا في مجلسهم

فنقل الحديث إلى كوخ القصب مسكني وخاطبه!

اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط(*)

يا رجل "شروباك" يا ابن "أوبارا - توتو"!

فوّض بيتك وابن سفينة وانجُ بحياتك

واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة

ولما وعيت ذلك قلت لربي، أيا

سمعاً يا ربي سأصدع بما أمرتني به

ولكن ما عساي أن أقول لأهل المدينة؟

قال لي: قل لهم إني علمت أن آنليل يبغضني

فلن أعيش في مدينتكم بعد اليوم

سأنزل إلى أبسو(**) وأعيش مع أيا إلهي

وعليكم سينـزل وابلاً من المطر غزيراً

وصنعت السفينة وأنشأتها من ست طبقات بالإضافة إلى أصلها فصارت سبع طبقات

ووضعت فيها المراوي وجهزتها بالمؤن

ثم حملت فيه كل ما أملك ووضعت فيها بذرة كل كائن حي

(*) الخطاب موجه بطريق المجاز إلى صاحب الكوخ أوتنا بيشتيم.

(**) يرجح أن المقصود هنا الأهوار الممتدة في رأس الخليج.

أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي

وأركبت فيها حيوان الحقل والبر وجميع الصنّاع

وحل أجل الموعد المعين

وفي المساء أنزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً

وتطلعت إلى الجو فكان مكفهراً مخيفاً

فولجت في السفينة وأغلقت بابها

وأرعد الإله أدد وانقلب النور ظلمة

وهبت العواصف وانكسرت السدود

وظلت زوابع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً

وازدادت شدة في مهبها حتى غمرت الجبال

وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان

وصار الأخ لا يبصر أخاه

وحتى الآلهة ذعروا وخافوا من عباب الطوفان

فانهزموا وعرجوا إلى سماء آنو

وصرخت عشتار كالمرأة في ساعة مخاضها

انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجي نادبة

واحسرتاه لقد تحولت الخليقة إلى طين

وصار البشر الذين ولدتهم يملأون المياه كصغار السمك

ومضت ستة أيام وسبع ليال

ولم تزل الزوابع تعصف وقد غطى عباب الطوفان الأرض

وفي اليوم السابع خفت حدة الطوفان

وهدأ اليم وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان

وتطلعت إلى الجو، فرأيت السكون عاماً

فتحت كوة فسقط النور على وجهي

ورأيت البشر قد استحالوا إلى طين

واستقرت السفينة على جبل "نصير" مدى سبعة أيام

وأطلقت حمامة لم تجد مستقراً فعادت

وأطلقت سنونوة فعادت كذلك

ثم أطلقت غراباً ولما رأى المياه قد انحسرت

أكل وحام وحط ولم يعد

وعند ذلك أطلقت كل شيء إلى الجهات الأربع وقربت قرباناً للآلهة اجتمعوا حوله كالذباب

ولما جاء آنليل وشهد السفينة غضب لأن بعض البشر نجوا

ولامه أيا لأنه تسرع فأحدث الطوفان

ثم صعد "آنليل" إلى السفينة

وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي

فسجدنا له ثم باركنا وقال

لم يكن "أوتنا بيشتيم" قبل الآن سوى بشر

ولكن منذ الآن سيكون وزوجه إلهين مثلنا

وسيعيش "أوتنا بيشتيم" بعيداً

فأخذوني وأسكنوني هنا

وأنت يا جلغامش: من سيجمع الآلهة من أجلك

وتوسل جلغامش إلى أوتنا بيشتيم أن يدله على ما يفعله

وأسرّ أوتنا بيشتيم إلى جلغامش بسر خفي

أجل سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة

يوجد نبات ينمو في غور البحر يجدد الشباب والحياة(*)

(*) أرشده للتغلب على الموت بوسائل سحرية.

فربط جلغامش حجراً في قدمه وغاص في الأعماق

ووجد النبات وأخذه وفكر في استنباته في بلاده

وسيكون اسمه "يعود الشيخ إلى صباه كالشباب"

وأنا سآكله في آخر أيامي حتى يعود شبابي

وفي طريق عودته أبصر جلغامش بركة ماء

فنـزل فيها ليستحم

وشمت حية شذى النبات

وخرجت من الماء واختطفت النبات

وحصلت على وسيلة تجديد الشباب والحياة

فجلس جلغامش يبكي

وخاطب ملاح أوتنا بيشتيم قائلاً:

لم أحقق لنفسي مغنماً(*)

أجل! لقد حققت المغنم لِـ"أسد التراب"(**)

إن نهاية الملحمة مفقودة، ويعتقد أن جلغامش قد مات دون أن يحل قضية الحياة والموت. وكان كفاح جلغامش الجريء ومثابرته الصامدة لمعرفة أسرار الحياة والموت جديرين بالاعتبار والتقدير. ففيها يجد القارئ أول محاولة لنقد الديانة، فقد جرؤ جلغامش على تحدي الآلهة، واتخذ أحياناً حتى موقف الاستعلاء عليها وأرغمها على طلب العفو عن ثورتها. وكان لملحمة جلغامش تأثير كبير في أدب العديد من شعوب العالم القديم(1).

قصة نزول أنكيدو إلى العالم السفلي

إن اللوح الثاني عشر من مجموعة ألواح جلغامش لا يمتّ في حوادثه بصلة قصصية فنية

(*) أي أنه فشل في نيل الخلود حتى بالوسائل السحرية.

(**) من نعوت الحية عند قدماء العراقيين.

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 132.

إلى مادة الملحمة ولكنه أدمج فيها إدماجاً اصطناعياً. ولعل مناسبة ذلك أو مبرّره أنه بعد أن عاد جلغامش خائباً من نوال الخلود شغله التفكير في مصيره في عالم ما بعد الموت فجاء وصف ذلك العالم وحال الموتى فيه باستعادة حادثة نزول صديقه أنكيدو إلى ذلك العالم.

ومما يقال بوجه الإجمال إن هذا اللوح يكاد يكون ترجمة أكادية حرفية لأصل سومري يدور حول الأعمال البطولية المنسوبة إلى جلغامش وصديقه ولا سيما قصة نزول أنكيدو إلى العالم الأسفل (عالم الأموات). ولكن ينخرم زهاء اثني عشر سطراً من أول اللوح الثاني عشر ورجح أنها تحتوي المادة الموجودة نفسها في الأصل السومري الذي تبدأ حوادثه من أزمان الخليقة بعد انفصال السماء عن الأرض وخلق البشر. وبعد أن تقاسم الآلهة العظام مسؤوليات الكون واختص كل منهم بجزء منه، حدث في تلك الأزمان أن شجرة - لعلها شجرة الصفصاف - قد اقتلعتها الريح الجنوبية وجرفها نهر الفرات، وحين اقتربت من مدينة أوروك رأتها الإلهة "أنانا" (عشتار) حينما كانت تتمشى على ضفاف النهر فانتشلتها من الماء وأخذتها إلى بستانها المقدس في أوروك وتعهدتها بالرعاية لتصنع من خشبها سريراً وكرسياً لها. ولكن لما كبرت الشجرة لم تستطع أنانا أن تحقق ذلك الغرض لأن ثعباناً اتخذ أسفلها مأوى له كما اتخذ أعلاها طير الصاعقة "زو" عشاً لصغاره واتخذت وسطها الشيطانة "ليلث" مأوى لها. فحزنت عشتار لما حل بشجرتها. ولكن لما سمع جلغامش بمحنتها خف لنجدتها وهجم على الثعبان وذبحه ففر طير الصاعقة وهرب تاركاً الشجرة. ومثل ذلك فعلت الشيطانة "ليلث". ثم عمد جلغامش ومعه رجال أوروك إلى قص الشجرة وسلمها إلى عشتار لتصنع منها سريراً وكرسياً. فصنعت عشتار من أسفلها ومن أعلاها آلتين غريبتين أولاهما بكو (الطبل) والثانية ميكو (مدق الطبل) وأهدتهما إلى جلغامش. ولكن حدث لسوء حظ جلغامش أن هاتين الآلتين سقطتا في أحد الأيام في العالم الأسفل وأخفق في جلبهما من ذلك العالم فحزن حزناً عظيماً وصار يندبهما. وإلى هنا ينتهي تقريباً النص السومري. ولكن يبدأ نص اللوح الثاني عشر من ملحمة جلغامش فنجد أن هذا اللوح يبدأ بحزن جلغامش على ضياع آلتيه فخف إليه أنكيدو وتطوع أن ينزل إلى العالم الأسفل ليجلب له تينك الآلتين. وعند ذلك أخذ جلغامش يحاور أنكيدو ويرشده كيف ينبغي له أن يسلك في ذلك العالم:

"إذا اعتزمت النـزول إلى العالم الأسفل هذا اليوم

فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتي

لا تكتسِ بالحلة النظيفة الزاهية وإلا هبّ بوجهك الأموات

لأنك تبدو غريباً عن عالمهم

لا تمسح جسمك بالزيت الفاخر لئلا يتجمعوا حولك بسبب عطره

لا ترم رمحاً في العالم الأسفل مخافة أن تصيب بعضهم فيحيطوا بك

لا تأخذ بيدك عصا وإلا فإن الأرواح سترتجف منك

لا تلبس نعلاً في قدميك ولا تحدث صوتاً في العالم الأسفل

وإذا وجدت الزوجة التي تحب فلا تقبلها

وإذا صادفت الزوجة التي تبغض فلا تضربها

ولا تقبل الابن الذي تحبه ولا تضرب الابن الذي تكرهه

وإلا فإن صراخ العالم الأسفل سيغلبك".

ولكـن أنكيـدو لـم يأخـذ بنصح سـيده بل سـلك عكـس الوصايـا التي أوصـاه بهـا... فغلبه صـراخ العالم الأسـفل. ولذلـك قـررت ملكـة العالم الأسـفل أن لا يخرج أنكيـدو من ذلك العالم لأن سـننه أن من يدخله لا يرجـع منـه. ولمـا لـم يعـد من العالم الأسـفل أخذ صاحبـه جلغامش يندبـه ويبكيه. فقصـد جلغامش معبد الإلـه آنليـل فـي نفـر، وشـكا إلـى آنليل اختفـاء آلتيـه في العالـم الأسـفل وأن ذلـك العالم أمسـك بصديقه أنكيـدو الـذي نـزل إليـه. ولكـن آنليـل لم يسـعفه. وكذلك فعل الإله سـين. فقصـد جلغامش معبـد الإله أيا فـي أريـدو وطلـب منـه العـون فاسـتجاب هذا لاسـتغاثته وخاطـب إلـه العالم الأسـفل نرجـال وطلب منه أن يحـدث فتحـة صغيـرة فـي العالـم الأسـفل حتـى تخـرج منـه روح أنكيـدو وتخبـر صديقـه بأحـوال ذلك العالـم فاسـتجاب نرجـال لطلـب الإلـه أيـا وأحدث ثقبـاً خرجت منـه روح أنكيـدو فتعانقا وأخـذ جلغامش يسأل شـبح صديقه:

"أخبرني يا صديقي بأحوال العالم الأسفل الذي رأيته

فأجابه صديقه: لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقي

وإذا كان لا بد من إخبارك بها فسيتحتم عليك أن تحكي وتبكي. فأجابه جلغامش:

سأجلس وأبكي. فأخذ أنكيدو يصور تلك الصور القاتمة التي رآها في عالم الأموات!

إن جسمي الذي كنت تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح، تلتهمه الديدان الآن كما لو كان لباساً خلقاً، وقد امتلأ بالتراب. فصاح جلغامش: ويلاه ثم ألقى بنفسه في التراب وخاطب شبح أنكيدو:

وهل رأيت الذي لا ولد له؟

أجل لقد رأيته.

هل رأيت الذي خلف وراءه ابناً واحداً؟

أجل لقد رأيته وهو ممدد أسفل الجُدر ويبكي بكاء مراً

والذي خلّف ابنين هل رأيته؟

أجل لقد رأيته، إنه يطبخ في إناء من الآجر ويأكل الخبز

هل أبصرت الذي خلّف ثلاثة أبناء؟

أجل رأيته، إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق

والذي له أربعة أولاد هل رأيته؟

أجل رأيته وهو فرح القلب

والذي له خمسة أولاد هل رأيته؟

نعم رأيته وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة.

يسمح له بدخول القصر

هل رأيت الذي له ستة أولاد؟

نعم رأيته".

ثم يسأل عن الذي خلّف سبعة وثمانية ولكن النص ينخرم في الجواب... وأوضح حالة سؤاله عن ذلك الذي قتل في المعركة حيث شاهده بصحبة أبيه وأمه ولكن زوجته تبكي. وسأله عن ذلك الذي لم يدفن بل ظل في العراء فأجابه بأن روحه لا قرار لها في العالم

الأسفل. وسأله عن ذلك الذي لا يقرب إليه أحد من الأحياء من بعد موته فأجابه بأنه يأكل الفضلات التي ترمى في المزابل[1].

الأدب التاريخي: كان الكتاب يجمعون الأحداث ويضعونها في سلسلة متصلة ويؤرخون بها للملوك منذ توليهم العروش. ولم تكن الأحداث تشتمل على أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمراني وحسب بل تضمنت كذلك بعض الحوادث الهامة كالكسوف والخسوف. والمدونات التاريخية مهمة لا من حيث ذكر الحوادث وحسب بل من حيث تتابع الملوك وتحديد سني الحكم[2].

وكانت النقوش البابلية تشير خصوصاً إلى مآثر الملوك وأعمالهم وحروبهم ومنشآتهم أما النقوش الآشورية التي اتصف أسلوبها بالأبهة والمبالغة المفرطة، فقد أضفت على الأدب التاريخي لوناً حربياً لا مثيل له في أدب بابل إلا في القليل النادر. فالملوك الآشوريون الفاتحون كانوا يشجعون الأدب الذي يُشيد بأمجادهم ويتحدث عن انتصاراتهم. وقلما كانوا يسمحون بذكر شيء عن الكوارث والانتفاضات أو الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي كانت تنتاب البلاد أثناء حكمهم. ويقسم ديلابورت الوثائق التاريخية الآشورية إلى أربعة أنواع هي:

1 - الحوليات: وفيها كانت تسرد الأحداث عاماً بعد عام في ترتيب تاريخي منسّق.

2 - تاريخ الحروب: ويشار فيها إلى ما قام به الملك من حملات.

3 - التقاويم: وتجمع فيها الوقائع حسب الأقاليم التي حدثت فيها.

4 - التقارير: وهي الكتب والوثائق والألواح الموجهة إلى الإله آشور عند العودة من كل حملة كتقرير عنها[3].

ويتضح من الشرح الذي يعطيه ديلابورت لكل نوع من أنواع هذه الوثائق أن محتواها لا يعدو أن يكون سجلاً للأعمال الحربية التي قام بها الملوك. وما عدا التقارير فإن الأنواع

---

(1) باقر، طه: ملحمة جلغامش، ص 105 – 108.

(2) إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 244/6 - 245.

(3) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 416.

الثلاثة الأولى من الوثائق التاريخية الآشورية كانت تنقش على جدران القصر الملكي أو على اسطوانات ودائع الأساس. وتتألف كل كتابة من ثلاثة أقسام رئيسية: الأولى تقريظ للملك يقدم ملخصاً لأعماله وغالباً سلسلة نسبه، وأما الثاني فيقص أحداث الحكم من حروب ومنشآت. وأما الثالث فهو عبارة عن لعنات تصب على من يحطم هذه الكتابة وأحياناً دعوات لمن يعاملها باحترام[1].

وقد تطورت الحوليات الملكية في العهد الآشوري تطوراً واسعاً، فهي من حيث سردها للأحداث عاماً بعد عام في ترتيب تاريخي منسق تشكل بالنسبة إلينا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكرية الآشورية، كما تقدم لنا أحياناً وضعاً جغرافياً لبلدان أخرى في الشرق القديم. وأشهر الحوليات الخالدة "حوليات شلمنصر الثالث" على مسلته المشهورة التي تضمنت أحداث واحد وثلاثين عاماً من حكمه[2]. ومن أهم النماذج التي نستطيع تقديمها ما ورد على أسطوانة "تغلات فلأسر الأول":

"آشور" السيد العظيم الذي يحكم مجموعة الآلهة، الذي يمنح الصولجان والتاج، الذي يدعم الملكية.

"إيلليل" ملك الـ "أنوناكي" أبو الآلهة سيد الأقطار.

"سين" العاقل سيد التاج الممجد في فخاره.

"شماش" قاضي السماء والأرض الذي ينهي بالعدم محاولات العدو ويساعد العدالة.

"أدد" القوي الذي يحطم الأقاليم المعادية والأراضي والبيوت.

"إينورتا" البطل الذي يحطم الأشرار والمعادين ويشبع رغبة القلب.

"عشتار" الأولى بين الآلهة سيدة الصراع التي تفض المعارك العنيفة.

.... الآلهة العظام الذين يحكمون السماء والأرض والذين يعني هجومهم المعارك والهلاك والذين عظموا مليكة "تغلات فلأسر" الأمير المحبوب المفضل في قلوبكم...

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 246/6.

البطل الرائع الذي اختارته قلوبكم العطوفة. ذلك الذي توجتموه بالتاج العظيم. ذلك الذي عينتموه في وقار ملكاً على أرض "إيلليل" وأعطيتموه الحكم والمجد والقوة، ورسمتم له إلى الأبد مصيره الملكي لتمام القوة ولذريته الكهنوتية مكاناً في "أي هارساج كور كورا"... تغلات فلأسر الملك القوي ملك (العالم) كله الذي لا منافس له، ملك الأقاليم الأربعة، ملك الأمراء جميعاً، سيد السادة، ملك الملوك القوي، الكاهن الأعظم الذي أعطي له بأمر "شماش" صولجان باهر، ذلك الذي حكم الأمم رعايا "إيلليل" في جموعهم. الراعي الشرعي الذي مجد اسمه فوق أسماء كل الأمراء. القاضي العظيم الذي قاد "آشور" ذراعيه والذي أعلن اسمه إلى الأبد ليكون راعياً للأقاليم الأربعة. غازي الأقاليم البعيدة على حدود مملكته في الأقاليم العليا والسفلى. الشعلة القوية التي تسقط على الأرض المعادية مثل العاصفة الراعدة... ذلك الذي بأمر "إيلليل" ليس له منافس والذي جندل وصرع أعداء آشور.

إن "آشور" والآلهة العظام الذين جعلوا ملكي عظيماً قد منحوني القوة والنفوذ وأمروني أن أمد حدود أراضيهم. لقد وضعوا في يدي أسلحتهم القوية "إعصار المعارك".

الأراضي والجبال والمدن والأمراء أعداء آشور قد هزمتهم وأخضعت بلادهم. لقد حاربت بشجاعة ستين ملكاً وكسبت النصر عليهم في الصراع. لم يكن هناك ضدي ند في حرب أو منافس في معركة. لقد أضفت إلى بلاد آشور أراضي أخرى وإلى أهلها أهلين آخرين. لقد وسعت حدود بلادي وغزوت كل بلادهم أي (بلاد الستين ملكاً) [1].

ويشير "آشور بانيبال" إلى نهب سوزا عاصمة عيلام بواسطة جيوشه في النقش التالي:

"لقد استوليت على سوزا العاصمة مقر آلهتهم ومكان عرافتهم. ودخلت بناء على أمر آشور وعشتار إلى مخابئ قصورهم ومكثت هناك في ابتهاج وفتحت خزائنهم المكدسة بالذهب والفضة والأموال والثروات التي جمعها وكومها ملوك عيلام من أقدمهم حتى معاصري والتي لم يضع عدو من قبلي يده عليها. لقد استخرجتها وعددتها غنيمة. وأخذت

(1) ديلابورت، ل: المصدر السابق، ص 416 – 418.

إلى آشور كغنيمة الفضة والذهب والأموال والثروات من سومر وأكاد وكذا من "كاردونياش" وكل ما كان قد أخذه ملوك عيلام الأقدمون في حملات عديدة وحملوه معهم إلى عيلام من "تساريرو" برّاق و"أشمارو" لامع وأحجار كريمة وأشياء ذات قيمة وحلي ملكية كان قد أعطاها ملوك أكاد الأقدمون و"شماش شوم أوكين" كحلفاء إلى عيلام، والملابس القيمة والحلى الملكية والأسلحة الخاصة بالاحتفالات والحروب وحلي أيدي المحاربين وكل أثاث قصورهم الذي كانوا يجلسون أو يضطجعون عليه، والأواني التي كانوا يستعملونها للطعام والشراب والغسيل والتضميخ والعربات والمركبات والـ"تسومبي"(*) المزين بالـ"تساريرو" والـ"زاهالو" والخيل والبغال الكبيرة بأطقمها الذهبية والفضية أخذتها كغنيمة وحملتها إلى آشور. وقد حطمت زقورة سوزا بواجهتيها من اللازورد وكسرت قمتها المحلاة بالبرونز اللامع. أما "شوشيناك" إله عرافتهم الذي كان يسكن مكاناً خضباً والذي لم يشهد عمله الإلهي أحد، وكذا "شومودو" و"لاجامارو" و"بارتكيرا" و"أمان كاسيبار" و"أدوران سباك" الذي كان ملوك عيلام يحترمون ألوهيته و"راجيا" و"سونجور سارا" و"مارسا" و"كيرساماس" و"شودانو" و"إيباكسينا" و"بيلالا" و"باينمري" و"نابيرتو" و"كندا كاربو" و"سيلاجارا" و"نابسا"... كل هؤلاء الآلهة والإلهات بكل ما يملكون من ثمين وغال وثرواتهم وأثاثهم... وحتى كهنتهم والـ"بوهلالي"... حملتها جميعاً إلى آشور كغنيمة كما حملت إلى آشور 33 تمثالاً من الذهب والفضة والبرونز والحجر الجيري لملوك مدن سوزا "ماداكتو" و"هورادي" وتمثال "أوما نيجاس بن أمبادارا" وتمثال "عشتار ناهونتي" وتمثال "هلوسي" وتمثال "تماريتو الثاني" الذي أخضعته بناء على أمر آشور وعشتار. وقد حطمت الـ"شيدو" والـ"لاماسو"(**) حراس المعابد بقدر ما يوجد فيها وألقيت الثيران المتوحشة زينة البوابات، وجعلت معابد عيلام تختفي تماماً وذهب مع الريح كل إله وإلهة. وقد دخلت جيوشي الصاعقة إلى الأحراش المقدسة حيث لم يكن يسمح لغريب أن يدخلها

(*) - نوع من العربات العيلامية.

(**) - الجنيات الحارسة (الحافظة) وثيران وسباع مجنحة ذات رؤوس بشرية.

أو يعبر حدودها وكشفوا عن سرها وأسلموها إلى النار. وفتحت توابيت ملوكهم الأقدمين والمحدثين الذين لم يعبدوا آشور والذين كان الملوك آبائي قد تركوهم في سلام وحطمتها وأخرجتها وأخذت عظامهم إلى آشور وأقررت القلق على أرواحهم وحرمتهم من التقدمات الجنائزية وسكب الماء.

ولمسيرة شهر وخمسة وعشرين يوماً اجتحت أقاليم عيلام ونثرت الملح وأشجار الشوك هناك وحملت معي كغنيمة إلى آشور أبناء الملوك وأخواتهم وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام صغاراً وكباراً والحكام ورؤساء المدن ورؤساء حملة الأقواس والقادة وراكبي العربات والفرسان وحملة الأقواس وحملة الدروع والفنانين على كثرتهم والسكان ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً والخيل والبغال والحمير وقطعان الماشية الكثيرة أكثر من أرجال الجراد.

وحملت تراب سوزا و"ماداكتو" و"هلتيماش" ومدنهم الأخرى... التراب الذي كنت أريد حمله إلى آشور.

وفي خلال شهر أخضعت عيلام بكل اتساعها وأسكت صوت الإنسان وخطى الماشية والقطعان وتركت حقولها للحمير والغزلان وكل الحيوانات البرية"[1].

أما صيغة البركات واللعنات فنستعيرها من النص الختامي لأسطوانة "آشور بانيبال" التي كتبت في العام 639 ق.م... ذلك أنه بعد أن يشير إلى إصلاح القصر المسمى "بيت ريدوتي" ينهي الملك قصته قائلاً: "أما الكتابة التي فيها اسمي واسم أبي واسم أبي أبي العنصر الملكي العتيد... ليقرأه وليضمخه بالزيت وليقدم التضحيات ويضعها بجانب النص الذي يحمل اسمه. ألا فلتمنحه الآلهة بقدر كثرتهم المذكورة في هذا النص، لتمنحه كما تمنحني القوة والسلطان"[2]

أما من يحطم الكتابة التي تحمل اسمي واسم ابي واسم أبي أبي ولا يضعها بجانب الكتابة التي تحمل اسمه... ألا فلينتقم "آشور" و"سين" و"شماش" و"أدد" و"بعل" و"نابو"

(1) المصدر نفسه، ص 419 – 422.

(2) المصدر نفسه، ص 422.

و"عشتار نينوى ملكة كدموري" و"عشتار أربيلا" و"إينورتا" و"نرجال" و"نوسكو" لينتقموا منه جميعاً لعدم ذكر اسمي[1].

الأدب الديني: سبق أن ذكرنا بأن القطع الأدبية السومرية - البابلية التي تناهت إلينا هي في مضمونها تتعلق بشكل أو بآخر بالدين. والكثير منها يدعو إلى تمجيد الآلهة والخوف منها والدعاء أو الصلاة والتضحية لها:

"قدم الخضوع كل يوم إلى إلهك

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك!

إن هذا ما يرضي المعبود

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح

فإنه سوف يمنحك كل الكنوز

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك

الخوف يولد الرفق أو العاطفة

والتضحية تطيل العمر

والصلاة تخلص من الاثم[2].

ومن الأدعية التي وصلتنا، دعاء إلى الإلهة عشتار، وفيه تخاطب عشتار بصفتها إلهة الشجاعة والحرب كأعظم إلهة بين الإلهات. ويصف المتوسل غمته المريرة ويصلي لإعادة رخائه. وقد كتب النص الذي بين أيدينا في العهد البابلي الحديث كما كانت الحال بالنسبة إلى النص الأقدم الذي استنسخ منه:

"إنني أصلي لك، يا سيدة السيدات، وإلهة الآلهات

أيا عشتار، ملكة كل الشعوب، التي تقود البشرية باستقامة.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر السابق، ص 196.

أنت حقاً نور السماء والأرض، أيا ابنة "سين" المقدامة

أيا معضدة السلاح التي تنهي المعركة

أيا مالكة كل القوة الإلهية التي تلبس تاج السلطان

أيا نجمة النواح التي تجعل الأخوة المسالمين يتقاتلون

والتي مع ذلك تهب الصداقة على الدوام

لقد بقيت لك، متوجعاً ومنهكاً ومحزوناً، كخادم لك

انظري إليّ أيا "سيدتي"، اقبلي صلواتي

انظري إليّ بإخلاص واسمعي توسلي

عدي بعفوي، ولتلطف روحك

رأفة! بجسمي التعيس المملوء بالارتباك والانزعاج

رأفة! بقلبي العليل المملوء بالدموع والعذاب

رأفة! بمشاعري المشبعة بالدموع والعذاب

رأفة! ببيتي المكروب الذي ينتحب بمرارة

أيا أرنيني(*) الممجدة، أسد كأسر، ليكن قلبك مرتاحاً

ليكن إحسان عينيك إليّ

بصفاتك المشرقة انظري إليّ بإخلاص

اطردي تعويذات جسمي الشريرة، ودعيني أرى نورك المشع

حتى متى يا "سيدتي" سيبقى أعدائي ينظرون إليّ

لك قد صليت اغفري خطيئتي

تجاوزي عن أفعالي المخجلة، تقبلي صلاتي

سددي خطاي باستقامة، مبتهجاً كبطل دعيني أدخل الطرقات مع الأحياء

تكلمي كي يصير الإله الحانق بأمرك ودوداً

(*) اسم آخر للإلهة عشتار.

وعين الإله الحانقة عليّ تتجه مرة أخرى نحوي

عسى أن تتأجج مجمرتي (التي هي الآن) مظلمة ومدخنة

وعسى أن يشتعل مشعلي (وهو الآن) خامد

ودعي عائلتي المشتتة تجتمع

عسى أن تتسع حظيرتي، وعسى أن يوسع اصطبلي

انظري إليّ بإخلاص واقبلي توسلي.

حتى متى، أيا "سيدتي" ستبقين غاضبة فيتحول عني وجهك؟

حتى متى، أيا "سيدتي" ستبقين ساخطة فتبقى روحك هائجة؟

دعيني أطأ أعدائي كالأرض

أخضعي كارهيّ، واجعليهم يجثون أمامي

ودعي صلواتي، وتوسلاتي تصل إليك

لتحل رحمتك العظيمة عليّ

دعي أولئك الذي يروونني في الطريق يمجدون اسمك

أما أنا فدعيني أمجد ألوهيتك وجبروتك أمام ذوي الرؤوس السوداء قائلاً:

إن عشتار حقاً مبجلة، إن عشتار حقاً ملكة

"السيدة" حقاً مبجلة، "السيدة" حقاً ملكة

"أرنيني" ابنة "سين" المقدامة، ليس لها ند[1].

ومن الأساطير الدينية التي وصلتنا: أسطورة الطوفان وأسطورة صراع الإله مردوخ مع تيامة[2] وأسطورة نزول الإلهة إنبانا السومرية (عشتار البابلية) إلى العالم السفلي[3].

نصوص فلسفية واجتماعية: شغلت قضايا أصل الوجود والأشياء ومسألة الحياة والموت وأصل الخير والشر اهتمام المفكرين العراقيين القدماء. وكانت لهم آراء مختلفة

(1) سومر المجلد العشرون. دار الجمهورية – بغداد، 1964، ص 69 – 74.

(2) انظر قصة الخليقة، ص 354 - 363.

(3) انظر موضوع الديانة، ص 442 - 443.

حول تلك الموضوعات. فقد سبق رجال الفكر العراقيون فلاسفة الإغريق بقولهم بنظرية العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء. وطرحت ملحمة جلغامش مسألة الحياة والموت من جديد بعد أن كانت قد سبقتها في معالجة الموضوع نفسه قصة آدابا. كما أبدى المفكرون العراقيون الأقدمون شكهم في عدد من المفاهيم والقيم الرسمية الدينية والاجتماعية الراهنة. فقد رفض جلغامش عروض عشتار وتصدى، مع أنكيدو رفيقه في السلاح، لمجابهة الآلهة وانتصر. ولم يقتنع جلغامش قط بما قالته "سابينو" إلهة البحار عن مقولة "خلود الآلهة وفناء البشر". ويمضي جلغامش خطوة أبعد في جرأته على التصدي للآلهة فيأخذ أحياناً حتى موقف الاستعلاء وتضطر الآلهة إلى التسامح على هذا التمرد.[1] وإذا كانت ملحمة جلغامش لم توفق التوفيق كله في الجواب على أصل الخير والشر ونوع السلوك الفردي، فإن قطعاً أدبية أخرى من بعدها عالجت الموضوع نفسه ووجدت له حلولاً مختلفة. ففي قطعة أدبية بعنوان "لأمجدن رب الحكمة" صورة لإنسان صالح أطاع الآلهة والسلطة ولم يذنب ومع ذلك فقد حلت به المصائب وخذلته الآلهة ولم تأت لمساعدته كما جاء على لسانه:

"لم أعرف سوى الصلاة والعبادة. وكانت أفكاري مشغولة بالتضرع إلى الآلهة والتضحية لها. وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور قلبي، والأيام التي أسير فيها في مواكب الآلهة أيام نصري وكسبي في الحياة. وكان تمجيد الملك سروراً لقلبي، والموسيقى التي تعزف له مصدر حبوري وغبطتي. وأوصيت أهلي وتبعي أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها وعلمت الجند ليطيعوا القصر، عارفاً بذلك أن هذه الأشياء مما تسر الآلهة[2]".

ولكن على الرغم من صلاحه وتقواه يجد نفسه وقد حلت بساحته المصائب والشرور إذ يقول: "لقد أتى مرض "آنو" على جسمي وغطاه كالرواء. وأصبح النوم كالشبكة التي تصطادني. أذناي مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان. لقد استولى على جسمي الضعف... لقد

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 132.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، 242/1.

خذلني الإله. لم يأت إله لمساعدتي. ولم تعطف عليّ إلهتي فتخلّصني من مصائبي". وقد حسبه الجميع أنه ميت فأخذ المتملصون يعملون بموجب ذلك "كأن القبر مفتوح حين نهبوا كنوزي، وحينما لم أكن قد مت فإنهم انقطعوا عن البكاء، وفرح بي حسادي ومبغضيّ"[1].

فهذه حالة واضحة عن إنسان صالح، ولكنه يقاسي العذاب والآلام مما يناقض تعاليم الكهنة بأن العبد الصالح تحسن إليه الآلهة[2].

وتعكس قطعة أدبية أخرى بعنوان "حوار بين سيد وعبده" مذهب الشك في إرادة الآلهة نفسها وفي أعمالها كما تعكس أيضاً فساد الأخلاق المستشري في أوساط قمة المجتمع العبودي في بلاد الرافدين. ويتلخص الحوار: "بأن أحد الأمراء غضب عليه الملك فتشاور مع عبده وسأله النصيحة ولكنه لم يجد مخرجاً من ذلك المأزق، حيث لا يأمل رحمة من الملك، والتمرد ضده دون جدوى. ولكنه يستطيع أن يتمتع بمسرات الحياة قبل فوات الأوان، كما يستطيع أن يقيم الولائم ويحب النساء. ولكن لا فائدة له في هذا. فالانتحار يعود بالألم، والمرأة في تصوره خبيثة وسكين حديدي قاطع يحز رقبة الإنسان. وقد أكد له عبده أن لا فائدة ترجى من الإله الذي لا تهمه أمور الإنسان ومصائبه، وهو أصم لا يستجيب للدعاء والتعاويذ السحرية. وفي نهاية الحوار يهدد الأمير الساخط بقتل عبده الماكر الذي لا يرغب في تهدئة روعه"[3].

وهذه مقاطع من الحوار:

"السيد: أيها العبد اتفق معي

العبد: أجل يا سيدي، أجل!

السيد: أريد أن أحب امرأة.

العبد: أجل حب يا سيدي، حب. فإن الرجل الذي يحب امرأة ينسى العوز والشقاء.

السيد: لا، أيها العبد، سوف لا أحب امرأة.

---

(1) المصدر نفسه، ص 242 – 243.

(2) المصدر نفسه، ص 243.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 140.

العبد: لا تحب يا سيدي، لا تحب.

فالمرأة شرك وفخ، إنها وجوه (للاصطياد).

المرأة سيف حديدي قاطع حاد

يقطع رقبة الرجل الشاب

السيد: عجل لي وأحضر الماء ليدي

واجلبه لي أريد أن أقوم بسكب الماء المقدس لإلهي

العبد: افعل يا سيدي، افعل، فإن الرجل الذي يسكب الماء المقدس لإلهه يصير قلبه في سلام وطمأنينة، إنه يضيف ديناً إلى دين.

السيد، لا، أيها العبد، لن أقوم بسكب الماء الإلهي.

العبد: لا تفعله يا سيدي، لا تفعله

علّم الإله أن يركض وراءك كالكلب... إلخ

السيد: اتفق معي أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، أجل

السيد: أقول أريد أن أتصدق عن أرضي..

العبد: افعل ذلك يا سيدي، افعل ذلك. لأن الرجل الذي يدفع الصدقات عن أرضه فإن صدقاته توضع في راحة (كف) الإله مردوخ نفسه.

السيد: لا، يا أيها العبد، سوف لا أدفع صدقة من أجل أرضي

العبد: لا تفعل ذلك يا سيدي، لا تفعله! ارتقِ إلى أطلال خرائب المدن القديمة

وتمشَّ فوقها، وانظر إلى جماجم أهل العصور القديمة والمتأخرة، فمن هم الأشرار ومن هم الصالحون[1].

ويبلغ الحال بالسيد أن يقول لعبده "اتفق معي أيها العبد، أي شيء صالح؟ لم يبق شيء سوى أن أدق عنقي وعنقك ونرمي بأنفسنا إلى النهر. وهذا هو الشيء الصالح". وهنا نجد

(1) باقر، طه: المصدر السابق، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص 245 – 246.

السيد يبدل رأيه في الموقف الأخير فيقول لعبده: "لا أيها العبد سوف أقتلك وحدك وأدعك تسبقني" فيجيبه العبد: "وهل يرغب سيدي في أن يعيش من بعدي حتى لمدة ثلاثة أيام؟"[1].

وقد وصلتنا مجموعة من الحكم والقواعد الأخلاقية، يعود تاريخ قسم منها إلى العهد البابلي القديم. وهذه التعاليم الموجهة دون شك إلى أعضاء المشاعيات تنتهي بنصيحة معبرة "التضحية تطيل العمر، والصلاة تخلص من الألم"[2].

أدب الأمثال: الأمثال هي حصيلة تجارب الإنسان مع مجتمعه. وتختلف تبعاً لذلك بشكل نسبي زمانياً ومكانياً. فالمجتمعات الإنسانية تعمل على استخلاص التجارب والعبر من خلال المعاناة اليومية لمشاكل الحياة وآلامها في صراع دائم، وعبر مسيرة طويلة، من أجل التغلب على مصاعبها.

ومن خلال تلك العملية الاجتماعية تتولد قيم ومثل. ويقوم الناس بالعمل على صياغة تلك المثل والقيم والتجارب والأفكار المستخلصة في جمل وعبارات قصيرة ذات أسلوب معبر لاذع تسمى "مثلاً" أو "قولاً سائراً" أو "كلاماً مأثوراً".

نشأ أدب الأمثال من أقوال وعبارات سائرة جرت على ألسن الناس خلال حياتهم اليومية وتناقلوها جيلاً بعد جيل قبل تدوينها. وقد تناهت إلينا من الفترة الممتدة بين العهد البابلي القديم والعهد البابلي الجديد مجموعات من الأمثال معظمها باللغة السومرية وقسم آخر باللغة الأكادية.

وهذه طائفة من الأمثال تعبّر عن بعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في العراق القديم خلال مرحلة تاريخية معينة:

"أولى للفقير أن يموت، فإنه إن ملك الخبز عدم الملجأ، وإذا كان عنده ملح عدم الخبز، وإذا كان لديه بيت فلا يكون عنده فراش"[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص 246.

(2) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 132.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 476.

"الفقير ليست له قوة"

"الفقير قلق على ما قد استدان"

"الفقير قلق دائماً على ما سيأكل"

"الجائع يقتحم البناية حتى ولو كانت مبنية من الطابوق المفخور".

"أنت كالكلب ليس لك مكان تنام فيه"[1].

"دع ما هو لي يبقى كما هو، دعني آكل ما هو لك، فهل هذا يعزز المرء في مجتمع أصدقائه؟"

"الذي يبني كالسيد يعيش كالعبد، والذي يبني كالعبد يعيش كالسيد"

"السماوات محملة فوقه، الأرض معلقة من بين يديه"

"لا تعمل الشر، وعندئذٍ لن تقاسي ألماً دائماً"

"عندما تعمل بجد، فإن إلهك لك، وعندما لا تعمل بجد فإلهك ليس لك"

"لا كسب بلا تعب"

"في المدينة المهملة المتهاونة يصير الجابي تاجراً"

"أنا كالحمار للركوب ومع ذلك فإنني مربوط إلى جحش، إنني أجر عربة وأعاني من عصا الضرب".

(تصوير للاستغلال الاجتماعي الناجم عن التمايز الطبقي).

"عندما تضاف يد إلى يد فإن بيت الإنسان يبنى، وإذا أضيف فم إلى فم فإن بيت الإنسان يحطم"

"ذهبت ونهبت مقاطعة عدوك، العدو جاء ونهب مقاطعتك". (إدانة لحروب العدوان والنهب).

"الزوجة المبذرة التي تعيش في بيت هي أسوأ من جميع الأشرار".

"المرأة المتبرمة في البيت تضيف عذاباً إلى عذاب".

---

(1) مجلة سومر المجلد التاسع والعشرون، 1973، ص 83 – 104.

"الطفل العاق، ليت أمه لم تلده، وليت ربه لم يخلقه".[1]

"أيحدث حمل بدون جماع".[2]

القصص على ألسنة الحيوانات: وصلنا من بلاد الرافدين نوع جديد من الأدب هو القصص على ألسنة الحيوانات كقصة النسر والحية والثعلب المغرور والحصان والحمارة والأسد السهم وغيرها.

1 - قصة النسر والحية: تتلخص القصة في أنه تعاهد النسر مع الحية على أن يتصادقا وأن يتقاسما ما يحصلان عليه وحلفا من أجل ذلك بالإله الشمس وظلا على ذلك متضامنين حافظين للعهد. ولكن النسر سولت له نفسه أن يخون العهد طمعاً في صغار الحية. وعلى الرغم من تحذير أبنائه له مغبة خيانة العهد والحنث بالقسم إلا أنه ركب رأسه وسطا على فراخ الحية وأكلها. وعندما عادت الحية إلى جحرها وجدته مخرباً لا أثر فيه لصغارها فبكت وعرفت الفاعل فتوجهت إلى الإله الشمس تشكو النسر وغدره فحكم لها الإله، ودلها على طريقة لعقاب النسر بأن تذهب إلى موضع في الجبل وستجد هناك ثوراً وحشياً مربوطاً أعده لها الإله، وعليها أن تبقر بطنه وتختبئ فيه، وستأتي الطيور لتأكل من الرمة ومعها النسر. ففعلت الحية ذلك واختبأت في جوف الثور. وجاء النسر وحط ليأكل. فما كاد ينقر نقرة حتى مسكته الحية، ولكن هذا بدأ يبكي ويستعطفها أن ترحمه فتطلقه ولكن الحية لم تسمع له لأن شماش هو الذي أوقع به العقاب، ولكنها لم تقتله بل نتفت ريشه وكسرت جناحيه ومخالبه ورمته في حفرة ليموت جوعاً وعطشاً.

وبعد حين سمع الإله شماش لاستعطافه وأخبره بأنه سيرسل إليه رجلاً يخلصه وهو "إيتانا" (أحد ملوك أسرة كيش الأولى وكان عقيماً لم ينجب ولداً يخلفه في الملك) الذي جاء إليه وخلصه واشترط عليه في ذلك أن يصعده إلى السماء ليجلب (نبات الولادة). فركب على ظهره وبدأ بالصعود إلى السماء حتى كادا يبلغان سماء "آنو". ويبدو أن النسر

(1) المصدر السابق، ص 83 – 104.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 141.

وإيتانا خافا من التحليق علواً أبعد فهبطا مسرعين. ولا يعلم مصير "إيتانا". ولكن يبدو أنه وصل إلى الأرض سالماً وأنه أنجب خليفة له في الحكم[1].

إن هذه القصة فضلاً عن كونها قد جاءت على ألسنة الحيوانات فهي أقدم محاولة في أحلام الإنسان بالطيران.

2 - قصة الثعلب المغرور: بال الثعلب يوماً في البحر، وبعد أن انتهى فكر برهة وقال: "تأمل أن كل هذا البحر من بولي".

3 - قصة الحصان والحمارة: همس الحصان في أذن الحمارة وهو على وشك أن يتزوجها فقال: "عسى أن تلدي مهراً عداءً سريعاً مثلي. وعساه لا يكون كالحمار يعاني من حمل الأثقال"، "الحمار رمز للشقاء والمعاناة في الحياة"[2].

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 474 – 475.

(2) مجلة سومر، المجلد السادس والعشرون، 1970، ص 89.

الفصل الواحد والثلاثون

التاريخ والجغرافيا

انطلق كتّاب الأدبيات في العراق القديم في تصورهم الكون والتاريخ من منطلقات غيبية أو مثالية. فقد اعتقدوا أن أسباب التحولات التاريخية إنما تعود إلى إرادة الآلهة أو إلى نشاطات الملوك والحكام والقادة. فخلق الكون والبشر وتقرير مصائرهم وإحداث الفيضانات والأوبئة والزلازل والبروق وثورانات البراكين والزوابع والمجاعات والحرب والسلم والنصر والهزيمة وتسيير التاريخ هي من صنع الآلهة[1]. وجاء في مقدمة شريعة حمورابي: "... أنا حمورابي الملك الذي اختارتني الآلهة نيابة عنها لحكم البشر وإسعادهم ونشر العدل بين الناس. ثم يعدد الأقاليم والمدن التي فتحها وطرفاً من أعماله كالرخاء الذي أحله بالبلاد وتجديده المعابد الرئيسة في المملكة". وورد في الخاتمة: "أنا حمورابي الملك العادل والكامل... أنا حمورابي الذي تسلم القوانين من شماش - إله الشمس والعدالة. كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها... بأمر مردوخ لِتَسُدْ عدالتي الأرض"..[2]

بدأ الكتاب يجمعون الأحداث ويضعونها في سلسلة متصلة ويؤرخون بها للملوك منذ تقلدهم السلطة. ولم تكن الأحداث تشتمل على أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمراني وحسب، بل تضمنت كذلك تعليقات وحوادث مهمة ومفيدة[3].

---

(1) انظر قصة الخليقة وملحمة جلغامش.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 293؛ د. نجيب ميخائيل إبراهيم: المصدر السابق، 80/6 - 81.

(3) المصدر نفسه، ص 320 - 322.

والمدونات التاريخية مهمة لا من حيث ذكر الحوادث فحسب بل من حيث تتابع الملوك وتحديد عدد السنين التي حكم فيها الملك ثم عدد السنين التي حكمت فيها الأسرة المالكة (سلالة هذا الملك)، وبجمع كل ذلك يكون عندهم إثبات (قوائم أو جداول) الملوك والسلالات[1]. وقد تناهت إلينا من هذا الإثبات نماذج مهمة، من بينها جداول مطولة بأسماء السلالات وملوكها الذين حكموا في العراق منذ ما قبل الطوفان حتى زمن تأليفها. ولعل ذلك كان في بداية سلالة أور الثالثة[2]. وجروا في هذا الإثبات على تقسيم تاريخ العراق إلى عهدين هما: التاريخ العتيق وهو ما سبق الطوفان، والتاريخ القديم ويبدأ عندهم بعد الطوفان[3].

وبالإضافة إلى قوائم الملوك والسلالات خلّف لنا الأكاديون والبابليون نماذج أخرى من التدوين التاريخي هي "النقوش والكتابات التاريخية" التي هدف منها تمجيد مآثر الملوك والأمراء وتخليد أعمالهم وحروبهم ونشاطهم العمراني، دونوها على الحجر والأنصاب والتماثيل وألواح الطين[4]. وقد بدأت هذه السجلات منذ مطلع الألف الثالث ق.م، وتناهت إلينا من ذلك نماذج كثيرة متنوعة تعد من المصادر الأساسية في معرفة تاريخ العراق القديم.

وتتميز النصوص التاريخية الآشورية بتركيزها على الفتوحات الخارجية وما قام به الملوك من حروب وما شنوه من حملات وما حكموه من بلدان وما غنموه من غنائم وكنوز وهي محشوة بالافتخارات والادعاءات والتخيلات الخرافية والتفسيرات الدينية المزيفة والتهويلات والمبالغات الكثيرة المختلفة مع الحقائق[5]. ومما لا شك فيه أنه كان يصحب الملوك في حملاتهم الحربية مؤرخون رسميون لتدوين أخبار تلك الحملات الرسمية. وكان الغرض من تدوينها تمجيد الملك والإشادة بذكره.

ويمكن تحديد أربعة أنواع من المدونات التاريخية الآشورية:

---

(1) المصدر نفسه، ص 321.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص 322.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 164.

1 - الحوليات: وفيها رتبوا الأحداث عاماً بعد عام إما بترتيب سني الملوك وإما بترتيب نظام التاريخ الدوري "اللمو" وتعد الحوليات ذات قيمة تاريخية وجغرافية. وأشهر الحوليات الخالدة "حوليات شلمنصر الثالث" على مسلته المشهورة التي نقشت بأخبار واحد وثلاثين عاماً من حكمه ولا سيما فتوحاته في أنحاء الشرق الأدنى القديم.

2 - مدونات تاريخية حربية: ويشار فيها إلى ما قام به الملك من حملات حربية وما حصل عليه من جزى.

3 - التقاويم: وتجمع فيها الأحداث طبقاً للأقاليم التي تمت فيها.

4 - التقارير: وهي الكتب والوثائق والألواح الموجهة إلى الإله آشور بعد العودة من الحملات كتقرير عنها.

وتعد المدونات التاريخية البابلية أقرب إلى وسائل التدوين التاريخي الحاضرة، ذلك لأن كتبتها لم يقتصروا على تدوين الحوادث المعاصرة فحسب، وإنما بحثوا أيضاً في حوادث الماضي وأخبار العلاقات بين بابل وآشور، وألفوا في التاريخ البابلي تأليفاً بالغ الأهمية يشتمل على الحوادث التاريخية في بلاد بابل وآشور وعيلام في زمن الملك الآشوري "آشور بانيبال" (668 – 626 ق.م) ويرقى حتى زمن الملك البابلي نبونصر[1] (747-734 ق.م).

وفي العهود المتأخرة، اشتهر المؤرخ البابلي برعوشا[*] (بيروسوس) الذي كتب تاريخ البلاد باللغة الإغريقية في القرن الثالث ق.م. ولم يصلنا الأصل المفقود لسوء الحظ ولكن حفظت مقتبسات منه في المصادر اليونانية[2].

وكان النبلاء الكلدانيون يسرون بسماع قصص الماضي الذي أرادوا إحياءه فأصبحت دراسة التاريخ عندهم من سمات الانتماء إلى المجتمع الأرستقراطي[4].

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 324.

(*) - كاهن كلداني كان يعيش في عهد الاسكندر المكدوني، استطاع أن يطالع الوثائق القديمة لبلاده.

(2) المصدر نفسه، ص 325.

(4) فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 175.

الجغرافيا: ساعد توسع التجارة والفتوحات الخارجية وعمليات مسح الأراضي على تنمية المعارف الجغرافية لدى قدماء العراقيين. فقد ألف كتّاب الجغرافيا جداول مطولة بأسماء البلدان والمدن والأنهار في العراق والبلدان المجاورة. فمن ذلك جدول مطول عثرت عليه مديرية الآثار العراقية أثناء تنقيباتها في "تل حرمل" يرقى عهده إلى الزمن البابلي القديم[1]. وتناهت إلينا نماذج أخرى من هذه الجداول من العهد الآشوري المتأخر وكذلك من العهد الكلداني، وفيها إضافات بأسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وهي مدونة باللغتين السومرية والبابلية. وهناك أيضاً جداول قديمة نظمت لأغراض إدارية ومالية أي تعداد المدن والمواضع بقصد جمع الضرائب والإدارة[2].

ورسموا خرائط للمدن والقنوات وللعالم المعروف لديهم. ولعل أقدم خريطة تناهت إلينا من هذا النوع خريطة مدينة نفر (نيبور) التي يعود تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد[3]. ومن ذلك مصور لمدينة سيبار وآخر لمدينة بابل[4].

ووصلتنا خريطة مفردة للعالم الذي يمثل على شكل دائرة مسطحة في وسطها نهر الفرات آتياً من الجبال الشمالية ويصب في منطقة الأهوار في الجنوب. ووضعت قرب المركز مدينة بابل وفي جانب منها بلاد آشور، وعلّمت مواضع المدن بدوائر ووضعت في وسطها أو بقربها أسماء تلك المدن. أما المثلثات المستقرة خارج محيط الخريطة فتشير إلى الأقاليم الأجنبية. أما التاج الدائري فيمثل النهر أو البحر الملح الذي يحيط بالعالم حيث يمتد النفوذ البابلي. ومن بين الأراضي الواقعة فيما وراء المحيط واحدة في الشمال "حيث لا ترى الشمس". ويعلق ديلابورت على ذلك قائلاً: "أفنستطيع من وراء ذلك أن نقرر أن البابليين، والخريطة المذكورة من العهد البابلي الأخير، عرفوا الأقاليم القطبية"[5].

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 327.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) ديلابورت، المصدر السابق، ص 286.

ولعل هذه الخريطة تعكس اعتقادات العراقيين القدامى بأن الأرض إله مولود من المحيط الأزلي، لذلك تصوروا أن اليابسة تحيط بها المياه من جميع الجهات، واعتقدوا أن البحار ناتجة من تدفق المحيط الكبير الذي يلف الأرض النافرة بأكملها[1]. كما تصوروا الجهات الأربع عبارة عن فضاء خارجي فسيح[2].

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 146.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثاني والثلاثون

العلوم الفلكية والرياضية

الفلك

إن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك، وهو الذي امتازوا به وذاع فيه صيتهم في العالم القديم كله. وقد عرف الإغريق مشاهير الفلكيين البابليين وترجموا لهم واقتبسوا منهم كما اقتبس منهم فيما بعد الفلكيون العرب. ويعود الفلك الأوروبي بأصوله إلى الفلك البابلي. وينظر علم الفلك الحديث إلى الفلك البابلي بمثابة نقطة انطلاقه[1].

اهتم العراقيون القدماء بملاحظة الأجرام السماوية، في سماء بلاد الرافدين الصافية، منذ أقدم الأزمان. وعندما بدأوا يدونون ملاحظاتهم وأرصادهم وحساباتهم منذ العهد الأكادي والعهد البابلي القديم انتقلوا من طور المعرفة العملية إلى طور علم الفلك الحقيقي.

نشأ الفلك من الحاجة الى ضبط الفصول والزمن والتقويم. وقد ساعدتهم الأسس الرياضية التي وضعوها على تقدم الفلك حتى أنهم كثيراً ما استبدلوا الملاحظة المباشرة والأرصاد بالحساب ويصدق هذا بالدرجة الأولى على العهود المتأخرة حين نشأ الفلك الرياضي[2].

---

(1) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 133.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 357.

وكانت أرصاد العراقيين هي الأساس الذي استندت إليه القواعد العامة لعلم الفلك. وقد استعملوا في أرصادهم الفلكية طرائق فنية من ذلك نوع من الآلة التي نسميها بآلة "ترانزيت". وجاء في الوثائق أن الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول (1260 - 1232 ق.م.) استعمل مثل هذه الآله عند بناء قصره في آشور[1]. ومع أن البرج المدرج والزقورة قد بنيا لأغراض دينية بالدرجة الأولى إلا أنه بالإمكان استعمالها أيضاً لرصد النجوم السماوية، فاستفادوا منهما للأغراض الفلكية[2].

ففي مجال التقويم اعتمد البابليون، ومن قبلهم السومريون والأكاديون، على الشهر القمري في حسابهم للزمن، واعتبروا بدء الشهر ظهور الهلال في السماء ونهايته ظهور الهلال الجديد الذي يعني بدء شهر جديد. وميزوا بين الشهور القمرية المؤلفة من 29 يوماً ومن 30 يوماً بصورة متعاقبة. وكان معدل مدة اثني عشر شهراً قمرياً 354 يوماً أي أقل من السنة الشمسية بنحو 11 يوماً. ورأوا أنه من الضروري إيجاد عدد ثابت من الشهور تتفق ودورة الفصول، غير أنهم لم يستطيعوا أن يوجدوا العلاقة بين الدورة الشمسية التي تحدد الفصول والدورة القمرية التي اتخذوها أساساً لتحديد الشهور فاضطربت حساباتهم.

وكانت أسماء الشهور في عصر ما قبل السارغونية تختلف من مدينة إلى أخرى. ولم ينجح ملوك أور في فرض قائمة واحدة لهذه الأسماء في كل أنحاء إمبراطوريتهم، إذ إن كل مدينة كانت لا تزال لديها طريقتها الخاصة للحساب والعد. ليس هذا وحسب بل إن بدء السنة كذلك كان مختلفاً[3]. وكانت السنة عند بعضهم 13 شهراً وعند بعضهم الآخر 14 شهراً وذلك من أجل تلافي الخلاف بين دورات الفصول والأشهر القمرية. وقد ضمن حمورابي إصلاحاته واحداً خاصاً بالتقويم. فقد جعل من حقه أن يقرر شخصياً متى يحين الوقت لاستبدال السنة العامة بسنة اعتراضية يكون فيها عدد الشهور أكثر من السنة العامة

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 282 - 283.

وذلك من أجل إيجاد توافق بين الفصول والأشهر. كما وحد أسماء الشهور في جميع أرجاء الإمبراطورية[1].

وهكذا قسم الفلكيون العراقيون السنة إلى اثني عشر شهراً قمرياً والشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة واليوم إلى اثنتي عشرة ساعة، في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أضعاف ما قد يوحي إلينا اسمها. وإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع، وتقسيم أوجه ساعاتنا إلى اثنتي عشرة ساعة وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر[2].

لقد استطاع الفلكيون العراقيون منذ عام 2000 ق.م أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس، وحددوا مواضع عدة نجوم، وأخذوا يصورون السماء على مهل. فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام. ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذنصر، فصور العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا الخسوف والكسوف، وعينوا مسارات الكواكب. وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتوي والصيفي، وتاريخ الاعتدالين الربيعي والخريفي، وقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار الأرض حول الشمس) بين الأبراج الاثني عشر. وبموجب هذا النظام قسم البابليون السنة الشمسية إلى اثني عشر قسماً يقابل كل قسم شهراً. وقسموا الدائرة إلى 360 درجة والدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وكانوا يقدرون الزمن بالساعات المائية لقياس أجزاء الليل والساعات الشمسية أو المزاول لقياس ساعات النهار. ولعل هيرودوت أصاب الحقيقة عندما قال: "تعلم الإغريق الـ"نومون" (المزولة) و"البولوس"[3] وتقسيم اليوم إلى اثني عشر

---

(1) المصدر نفسه. ص 283.

(2) ديورانت، ول: المصدر السابق، 251/2 – 252.

(3) البولوس: من الساعات الشمسية لقياس الزمن نهاراً. وكانت هذه عبارة عن نصف كرة يثبت في مركز جوفها ساق (ميل) رسم نهايته ظلها على الجوانب الداخلية المدرجة لنصف الكرة بحسب سير الشمس.

قسماً من البابليين[1]. وقد استخدم بعض فلاسفة اليونان وعلمائهم جداول الأرصاد البابلية لمعرفة الكسوف والخسوف قبل حدوثهما، وقد أثر ذلك تأثيراً بالغاً في الاتجاه العلمي عند اليونان وغيّر من عقائدهم بالنسبة إلى الظواهر الكونية. فقد استخدم طاليس الأرصاد الفلكية البابلية وتنبأ لأهل مدينته بحدوث الخسوف والكسوف قبل وقوعهما فاستطاع أن يبرهن لهم أن مثل هذه الظواهر تحدث بموجب قوانين طبيعية لا بتأثير الشياطين والأرواح أو القوى العلوية[2].

الرياضيات

إن أقدم الأرقام والحساب في تاريخ الحضارات البشرية نشأ في بلاد الرافدين. وكانت حاجات الحياة في العراق القديم هي التي قادت إلى نشوء الرياضيات ومن هذه الحاجات:

1 - الحاجة إلى التقويم بالنظر إلى اعتماد العراق على الزراعة وضبط الفصول.

2 - الحاجة إلى الرياضيات لتلبية متطلبات العمليات التجارية المتسعة.

3 - الحاجة إلى الرياضيات لتلبية متطلبات الأعمال الهندسية العمرانية كالأبنية والطرق وشق الأقنية.

تصنف النصوص والمؤلفات الرياضية التي تناهت إلينا إلى صنفين: يشمل الصنف الأول الجداول أو الأثبات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الأعداد ورفع الأعداد إلى القوى المختلفة وجداول بجذور الأعداد. ويتضمن الصنف الثاني قضايا ومسائل رياضية وضعت لتحل بموجب القواعد الرياضية، وقد وصلت إلى طور العلم النظري تقريباً.

الحساب

صحب ظهور الكتابة معرفة الأرقام وتسجيلها. وكانت معرفة الأرقام واستخدامها أمراً مهماً بالنسبة إلى التطور الحضاري. وقد توصل السومريون إلى اختراع الطريقة الستينية للعد

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 360.

(2) المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

والحساب. فهم من أول الأمر لاحظوا الأصابع الخمس لليد وبدأوا في العدد:

آش	1
مِنْ	2
إش	3
لِمّو	4
إي أويا[1]	5

ولما كان العدد 5 غير كاف كما هو واضح فإنهم أضافوا "إي" إلى الأرقام السابقة ليضاعفوها وهذا يعطينا:

آش (ياشي)	6
إيمين (إي - مين)	7
أوشّو (إي - إش)	8
إلمّو (إي - لمو) [2]	9

أما رقم 10 فكان له اسم آخر هو (أو) وضعفه (20) هو "نِش" ومن العشرة ومضاعفاتها جاءت مركبات هي:

أوشو (أوشى أو ثلاث عشرات) =	30
نيش مين = عشرونان 2×20 =	40
نينو[3] (نين أو= عشرونان + عشرة) =	50

أما 60 فلها اسم خاص وليست مركبة كغيرها فهي "جش" وهي أساس النظام العددي كذلك وكان مربعها هو "سار" (3600). وإلى هذا النظام يعود تقسيم اليوم إلى 24 ساعة والساعة إلى 60 دقيقة، والدائرة إلى 360 درجة، والسنة إلى 360 يوماً[4].

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 276.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 144.

ومن الإنجازات الهامة لدى السومريين والبابليين كان إنشاء النظام الموقعي الذي يتبدل فيه معنى الأرقام حسب موقعها في الأعداد المركبة.

فالإسفين العمودي عادة يشير إلى الرقم واحد، ولكنه إذا وقع أمام الرقم عشرة فيشير إلى العدد 60. وفي مركبات أخرى يشير إلى العدد 3600[1].

أما النقص الكبير في مجال الحساب فهو عدم وجود علامة صفر الذي لم يعرف إلا في العهد السلوقي، واستخدم لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد[2]. وقد توصل البابليون إلى معرفة جداول الضرب المطولة. وكان لهم جداول لرفع الأعداد إلى القوى المختلفة وجداول للجذور وجداول تبين معكوس العدد وهو الرقم الذي إذا ضرب فيه العدد كان حاصل الضرب 60 (لأن الرقم 60 هو أساس العد في الطريقة الستينية). وقد استعملت هذه الجداول الأخيرة نفسها للقسمة وذلك بضرب العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أي - = - ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجدول، ويؤخذ حاصل ضرب العدد في معكوس العدد الثاني من جداول الضرب كذلك[3]. وقد مكنت هذه الجداول الرياضيين من توفير الجهد والوقت في الحساب والانصراف إلى القضايا الرياضية[4]. واستطاع البابليون بهذه الجداول إجراء عمليات الضرب والقسمة في الأعداد الكبيرة[5].

ويبدو أنهم اهتدوا إلى أساس اللوغاريتم رغم أنهم لم تكن لديهم قاعدة عامة مشتركة يرتبون بموجبها الجداول لاستعمالها في الحسابات العملية. فقد جاء في بعض الألواح من العهد البابلي القديم سؤال رياضي يطلب فيه: إلى أي قوة يجب رفع عدد معين حتى تكون النتيجة عدداً معيناً آخر؟ ومعنى هذا إيجاد لوغاريتم عدد معين من قاعدة أو أساس معين[6].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 229/6.

(3) المصدر نفسه.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 336.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) المصدر نفسه، ص 337 – 338.

ولعل منشأ اللوغاريتم عند البابليين من حساب الربح والمسائل المتعلقة به. وعلى كل حال فإنه كان نتيجة منطقية لمعرفتهم الواسعة بضرب الأعداد ورفعها إلى القوى وأخذ جذورها[1]. وهكذا عرف قدماء العراقيين الأرقام واستخدموها في العمليات الحسابية الأربع.

الجبر

بلغ الجبر مرحلة متقدمة في بلاد الرافدين. ويقول بعض المؤرخين "إن العرب اعتمدوا على المعلومات الرياضية التي توصل إليها البابليون أكثر من اعتمادهم على اليونانيين في هذا المجال[2]. ويعتبر الجبر الحديث تطوراً للجبر البابلي الذي تعثر لدى الإغريق"[3].

لم يستعمل البابليون الرموز في الجبر ومع ذلك فقد توصلوا إلى أسس هامة في خصائص الأعداد كما عرفوا المعادلات الجبرية الأساسية من الدرجات الأولى والثانية والثالثة واتبعوا في حلها طرائق عملية تبعث على الإعجاب وبعضها يتضمن مبدأ المتواليات. ففي المتحف البريطاني لوح يحتوي مسائل تحل بمعادلات الدرجة الثانية ومنها المسألة التالية: لو أضفت مساحة مربع إلى طول ضلعه كان الناتج 3/4 فما هو طول الضلع؟ وقد حلها الرياضي البابلي بطريقة إكمال المربع للوصول إلى المجهول (س) الذي يرى أنه يساوي:

$$\frac{1}{2} = \frac{1}{2} - \sqrt{\frac{3}{4} + (\frac{1}{2})^2}$$

وذلك لأنه إذا أضفنا (1/2)2 الى طرفي المعادلة لإكمال المربع يحدث عندنا:

$$س^2 + س + (\frac{1}{2})^2 = \frac{3}{4} + (\frac{1}{2})^2 \text{ أي } (س + \frac{1}{2})^2 = \frac{4}{4} \text{ أي } س + \frac{1}{2} = 1 \text{ ومنه } س = \frac{1}{2}$$

وتحل بالطريقة الحديثة على الوجه التالي: إذا فرضنا أن طول الضلع (س) فإن المسألة بالمعادلة تصبح:

$$س2 + س = 3/4$$

---

(1) المصدر نفسه، ص 338.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 144.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 230/6.

ومن طريقة الحل البابلي في هذه المسألة وأمثالها نستطيع أن ندرك إلمامهم بقواعد مجموع عددين ومربع الفرق بينهما رغم عدم اعتمادهم على الرموز[1].

ورغم انتفاء الرموز فقد أمكنوا من القيام بعمليات في الجبر تدعو إلى الإعجاب، فعرفوا اختزال الحدود المتماثلة وحذف المجهول بالتعويض وإدخال كمية مجهولة مساعدة[2].

ومع ذلك فلم توجد لديهم قواعد عامة ثابتة، فليس هناك برهان وإثبات دائماً بل إن المسألة رغم هذا التقدم كانت تعتمد على التمرين[3].

الهندسة

كانت الهندسة تطبيقاً للجبر كما كان الجبر أساساً للهندسة وكلاهما يرتبطان معاً بالحساب، وذلك لأن الحياة العملية كانت تقتضي هذا الربط والاتصال.

لقد عرفوا خصائص بعض الأشكال الهندسية ومساحتها كما عرفوا حجوم بعض الأشكال المجسمة مثل حجم متوازي المستطيلات القائم والاسطوانة والمخروط المقطوع والهرم الرباعي المقطوع. وحسبوا محيط الدائرة ومساحتها، وعرفوا من الدائرة قطعة الدائرة ومساحتها بعد معرفة قوسها ووترها[4]. وعرف البابليون نظرية فيثاغورس قبل ظهوره بزمن طويل. وهناك عدد من المسائل حلت بها فيما وصلنا من نصوص. من ذلك المسألة التالية:

باب مستطيل عرضه 10 وطوله 40 فما هو قطره؟ ومسألة أخرى تخص مساحة حقل على هيئة شبه منحرف يطلب فيه إيجاد المساحة بعد حساب الارتفاع من المعلومات المعطاة بالفرض[5].

وقد عثر بين مكتشفات تل حرمل على مسألة هندسية - جبرية يعود تاريخها إلى حوالى

---

(1) المصدر نفسه، ص 231.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 355.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 232/6.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 341.

(5) المصدر نفسه، انظر طريقة الحل على الصفحة 405 من المصدر نفسه.

2000 ق.م، أي قبل زمن إقليدس بـ 1700 عام، تتضمن معرفة بخصائص المثلث القائم الزاوية (نظرية فيثاغورس) ومعرفة نظرية تشابه المثلثات (نظرية إقليدس) وإلى ذلك فإن هذه المسألة حالة خاصة من حالات تشابه المثلثات فيكون المثلثان المحدثان على جانبي العمود متشابهين ويشابه كل منهما المثلث الأصلي[1]. بل إنهم عرفوا مساحة شبه المنحرف وهي حاصل ضرب الارتفاع بنصف مجموع الضلعين المتوازيين. وتوصلوا إلى معرفة المتواليات الهندسية التي تعزى إلى أرخميدس واستخدموها في حساباتهم الفلكية.

(1) المصدر نفسه، ص 343 – 345.

الفصل الثالث والثلاثون

العلوم الطبية والطبيعية

الكيمياء

كان اكتشاف المعادن واستخدامها أحد العوامل التي ساعدت على ظهور الكيمياء وتقدمها في بلاد ما بين النهرين. فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدة نصر. وتشير المكتشفات التي عثر عليها في مقابر أور إلى معرفتهم مزج المعادن، فهناك مركبات الالكتروم (مزج الذهب والفضة) في بعض القطع الفنية المكتشفة. وقد مزجوا النحاس بالقصدير أولاً ثم بالرصاص فيما بعد. أما الحديد فلم يتسع استعماله إلا منذ الألف الأول ق.م وشاع كثيراً في العهد الآشوري الحديث. فقد عثر في قصر سارغون الثاني الآشوري (721 – 705 ق.م) في خرسباد على كتلة من الحديد الممتاز المصنوع تقدر بـ 160000 كيلوغرام[1]. وقد حاولوا صنع المعادن الثمينة من المعادن الخسيسة ووصلوا بمحاولاتهم إلى معلومات هامة من خصائص المعادن وبعض الطرائق الكيماوية[2]. كما توصلوا إلى صنع الأصباغ[*] والعطور

(1) المصدر نفسه، ص 363 – 364.

(2) المصدر نفسه. ص 364.

(*) كان قدماء العراقيين قبل تعدين المعادن قد بدأوا يجمعون معارفهم العملية الكيماوية. فمن صنع الفخار تعلموا خصائص الطين وتأثير الحرارة وغير ذلك. وعندما بدأوا يصنعون الفخار زادت معرفتهم ببعض المواد الكيماوية أيضاً، وكذلك عرفوا طريقة التزجيج وصنع الخرز من العجائن واللدائن الكيماوية.

والعقاقير والصابون والجعة والمشروبات والمينا المزججة واستخدام ذلك في الصبغ والرسم وتزجيج الآجر والفخار[1].

وقد اكتشف المنقبون أجهزة كيماوية أثرية كالدوارق والطواحين ومصافٍ للترشيح وجهاز للتقطير والتصعيد وأفران ومواقد متعددة الأنواع وأجهزة قياس الحجوم والأوزان والمعايير كان يستخدمها قدماء العراقيين في عملياتهم الكيماوية[2].

وقد اختلطت الكيمياء بالسحر والدين مما عرقل سيرها وتقدمها. ورغم ذلك فقد عرفوا التصعيد ومزج بعض المواد الكيماوية ببعضها الآخر، كما استخدموا الذهب لاستخراج الزجاج الأرجواني، وتوصلوا إلى معرفة المادة التي تذيب الذهب وهي المعروفة بـ"الماء الملكي" أو (التيزاب). وجاءنا من مؤلفاتهم المتأخرة أنهم كانوا يحصلون على النار من طريق القدح بالصوان. ولكن خصائص الكبريت الطبيعي كانت معروفة لديهم[3].

ومع أن معظم هذه الصناعات الكيماوية عملية، فقد تناهت إلينا بعض المؤلفات والكتابات في الكيمياء عثر عليها في خزينة الملك الآشوري "آشور بانيبال" وهي لا شك نسخ عن أصل أقدم[4].

الطب

نشأ الطب تجريبياً، وتولدت أصوله من المعارف العملية والمعلومات الشعبية عند الناس وكذلك من السحرة الذين لم يقتصروا في طرد الأرواح على الرقى بل استعملوا العقاقير لأنهم كانوا يرون أن الأدوية تقتل الشياطين أو تضطرها على الأقل إلى مغادرة الجسم.

وجاء في إحدى الوثائق السومرية أن الطب كان يمارس في مدينة أور حوالى 2700 سنة ق.م[5]. وكان السومريون يسمون الطبيب "آزو" (ومعناها العارف بالماء. وكان إله الطب

(1) المصدر نفسه.

(2) سومر: المجلد الخامس والعشرون، مطبعة الجمهورية، بغداد 1969، ص 93 – 94.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 365.

(4) المصدر نفسه، ص 364.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 145.

والأطباء إيا سيد الماء. ولهذا السبب ولأنهم استعملوا المياه في الطب فقد سموا الطبيب بكلمة "آزو"). وسماه البابليون "آسو" (التي استعملت في معظم اللغات السامية ومنها الكلمة العربية "الآسي")[1].

وكانت الأمراض في اعتقادهم من عمل الشياطين والأرواح التي لا تعالج بغير السحر. أما الأدوية فكان لها دور إضافي. ويمكننا حصر طرائق العلاج والتداوي عندهم بثلاث وسائل هي:

1 - العلاج الطبي وما يتعلق به من عقاقير وتمريض.

2 - العمليات الجراحية.

3 - الرقى والتعزيم لطرد الأرواح والشياطين التي تسبب الأمراض حسب اعتقادهم[2].

ويستدل من المصادر التي خلفها لنا قدماء العراقيين على أنه ظهر عندهم أصناف من الأطباء، منهم الأطباء المختصون بمعالجة الأمراض بالأدوية ومنهم الجراحون والبياطرة. وقد خص قانون حمورابي مهنة الطب بجملة من مواده يتعلق بعضها بتحديد الأجور الخاصة بالأطباء والجراحين والبياطرة وبعضها الآخر بتحديد العقوبات بحق الجراح أو البيطري إن أخطأ في إجراء عملية ما. فقد نصت المادة 218 من القانون: "إذا باشر طبيب عملية لرجل وتسبب بموته أو فتح خراجاً بعينه فأتلفها تقطع يده".

وإذا كان تنظيم الطب يكشف لنا عن المكانة الهامة التي بلغتها المهنة في بلاد ما بين النهرين، فإن استدعاء الأطباء العراقيين لمعالجة المرضى الأجانب في بلدانهم يؤكد تلك المكانة والشهرة العالمية لأطباء الرافدين. وتذكر الوثائق أن ملوك الحثيين في الألف الثاني ق.م. كانوا يطلبون إلى ملك بابل أن يرسل إليهم الأطباء إذا مرضوا هم أو مرض أحد أقاربهم مرضاً خطيراً[3].

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 366.

(2) المصدر نفسه، ص 367.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 284.

وقد عرف الأطباء العراقيون جملة من الأمراض والأوبئة وصنفوها بحسب أجزاء الجسم فهناك:

1 - أمراض الرأس عموماً (كأمراض العيون والأذن والأنف والفم والأسنان والحنجرة).

2 - أمراض الصدر (كالسل الرئوي وذات الرئة أو ذات الجنب وأمراض القلب).

3 - أمراض الجهاز الهضمي (كالتهاب المعدة وسرطانها والإسهال والإمساك ومرض الأمعاء ودودة الإسكارس وأوجاع الكبد ومرض المرارة واليرقان والأمراض الخاصة بالشرج ولا سيما البواسير والتهاب البروستات).

4 - ألأمراض الجلدية (كالجرب والجذام).

5 - الرضوض والأورام (الناتجة من دمامل أو حمى روماتزمية أو سرطان)

6 - الجراحة.

7 - أمراض القدم.

8 - الأمراض النسائية والولادة.

9 - التسمم الذي يسببه مثلاً لدغ العقرب أو الحية.

10 - أمراض الجهاز البولي والتناسلي (كبول الدم وانحباس الدم والسيلان والتهاب الكلية).

11 - أمراض عصبية ونفسية (كالصرع وفقدان الهمة والخور والخرع والتشنجات العصبية الهستيرية).

12 - أمراض أخرى كالتيفوئيد والملاريا[1].

وكان تشخيص المرض أولاً أمراً هاماً، وطريقتهم في التشخيص هي وصف أعراض المرض ويتبع ذلك ما يلزم للعلاج من وصفات طبية وعقاقير ومواعيد تناولها.

لقد وردت الأمراض في المؤلفات الطبية التي خلفها لنا الأطباء الأقدمون ووجد الكثير منها في مكتبة "آشور بانيبال". ومن طرائف هذه المؤلفات جداول مقسمة إلى ثلاثة حقول

(1) سومر، المجلد 30، دار الحرية -بغداد، 1974، ص 94 – 119. وديلابورت: المصدر السابق، ص 370.

ذكروا في الحقل الأول الدواء وفي الحقل الثاني اسم المرض وفي الثالث إرشادات حول كيفية الاستعمال حسب المثال التالي:

الدواء	المرض	كيفية الاستعمال
عرق السوس	دواء للسعال	يسحق ويشرب مع الزيت والخمر
عرق ورد الشمس	دواء لوجع الأسنان	يوضع على الأسنان[1]
صبر	دواء لمعالجة المرارة	يفتت ويدق ويسحق ويوضع في الجعةويشرب[2]

وكانت مصادر الأدوية عندهم ثلاثة هي:

1 - الأدوية النباتية المستخرجة من النباتات والأعشاب كالحبوب والخضروات والفواكه والزعتر وأشجار التين والسدر.

2 - الأدوية الحيوانية المأخوذة من نتاج الحيوانات كالعظام والشحم واللسان والحليب ومشتقاته.

3 - الأدوية المعدنية المستخرجة من المعادن والأحجار كملح الطعام ونترات البوتاسيوم وكاربونات الصوديوم والجبس إلخ..

وتأتي الأدوية النباتية على رأس العقاقير لدى الأطباء العراقيين تليها في الأهمية الأدوية الحيوانية. أما الأدوية المعدنية فكانت تسحق وتذاب أحياناً. وفرقوا بين نوعين من استعمال الأدوية: نوع يستعمل استعمالاً داخلياً (يشرب)، ونوع يستعمل استعمالاً خارجياً (يدهن أو يمسح) [3].

وكانت الجراحة أكثر العلوم تحرراً من السحر، لأنها تقوم على معالجة ظواهر واضحة للعيان. وتشير النصوص الطبية من العراق القديم إلى إجراء العمليات الجراحية للمريض في حالة النخر الحاد وإجراء شق الخراج الكبدي ونقب غشاء الجنب المتقيح[4].

(1) باقر، طه: المصدر السابق، 371/1..

(2) سومر، المجلد 24، 1968، ص 199.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، 372/1 – 373.

(4) سومر، المجلد 30، ص 117.

وقد جرؤ الجراحون البابليون في عهد حمورابي أن يقوموا بعمليات معقدة في العين كإزالة الماء الأزرق بواسطة سكين من البرونز - المبضع[1]. كما قاموا بعملية فتح الجمجمة[2] وكان الأكاديون قبلهم متمرسين في العمليات الجراحية لتجبير الكسور وعمليات العين[3].

وقد ظلت لغة النصوص الطبية اللغة السومرية التي لم يكن يفهمها المرضى. وتناهت إلينا مجموعات كثيرة من الوثائق واللوحات تشير بعضها إلى طرائق العلاج وهي أحياناً عبارة عن تقارير لرجال الحكم.

وقد عرفوا بعض الشيء عن تشريح جسم الإنسان، وإن كانت معرفتهم بالتشريح ووظائف الأعضاء معرفة بدائية. فقد استفادوا من تشريح الحيوان وتقطيعه كما أن ما كان يصيب الأفراد من إصابات في الحرب جعلتهم يقفون على أهم أعضاء جسم الإنسان وخصوصاً الكبد الذي عدوه مستودع الحياة والطحال والمعدة والكليتين والقلب والرئتين وكتبوا إثباتاً بأسماء الأعضاء والأحشاء[4].

وكانت دراسة الطب تتم في المعابد. ولا نعرف أي نص يذكر لنا تعليمات بموجبها كان يتم تدريب وتعليم الكهنة الأطباء في تلك العصور ولو أن هناك بعض الإشارات إلى طبيب تحت التدريب (آسو أكاشكو) مما يدل على أنه كان يتحتم على الطبيب أن يمر بفترة تدريبية[5]. وكانت أشهر مدارس الطب تقع في نيبور وبور وإيسن وبورسيبا[6].

علم الحيوان

تدل المكتشفات الأثرية على أن إنسان عصر العبيد بدأ لأول مرة يدرس بإمعان نماذج الحياة التي تدور في دائرتها مختلف الحيوانات أي أنه بدأ بدرس بيئتها الطبيعية. وبما أن

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 146.

(2) سومر، المجلد 30، ص 117.

(3) سومر، المجلد 30، ص 17.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، 372/1.

(5) سومر، المجلد 30، ص 86.

(6) سومر، المجلد 24، 1968، ص 194.

الكتابة لم تكن قد اكتملت لديه بشكلها الكامل الذي يساعده على ترجمة أفكاره البيئية فقد استمر على أسلوب التعبير الفني بالرسم.

ومن رسوم إنسان عصر العبيد ما نجده على أوانيه الفخارية الملونة. كأن يرسم لوحة واحدة يظهر فيها ثور مع سلحفاة وأسماك تعبيراً عن بيئة الأهوار التي كان يعيش قربها. وصورة أخرى لقطيع من الأبقار متجمعة في وضعية الحلب وبعض العجول وهي ترضع الحليب. وصورة لصقر مفتوح الجناحين ينهش بمخالبه حيواناً من الأيل. فإنسان عصر العبيد إذاً بدأ يتأمل حياة الحيوان بإمعان.

ولقد ظل هذا الأسلوب في دراسة بيئة الحيوان مستمراً عند السومريين بل حتى الأكاديين فيما بعد. غير أن السومريين بدأوا دراسة تصنيفية للحيوان أكثر مما كان لدى إنسان العبيد. فقد صنفوا الحيوانات التي عرفوها مجموعات نظمت بشكل قوائم. فقائمة الكلاب مثلاً ضمت حيوانات مثل الأسد والضبع والذئب. وقائمة الأسماك ضمت الحيوانات المائية وقائمة الحمار ضمت الحصان والجمل أيضاً. ورغم أن ذلك التصنيف لم يكن علمياً إلا أنه يعتبر أول محاولة بدائية للتصنيف الحيواني تستحق الذكر في طريق منهج البحث العلمي.

ولئن كان السومريون قد استمروا على غرار عصر العبيد في رسومهم دون تطوير كبير للدراسات الحيوانية ما عدا تنظيمهم للقوائم التصنيفية، فإن البابليين بعدهم ساروا شوطاً أبعد مما يمكن اعتباره بداية الدراسة العلمية الحقيقية للحيوان. على أن هذا التطوير البابلي للدراسات الحيوانية جاء بصورة غير مباشرة عن طريق العرافة.

ويبدو أن العرافة كانت ذات تأثير كبير في حياة البابليين اليومية. وكانت تمارسها طبقة من رجال الدين كمهنة. وكان أولئك العرافون الذين يسمون بارو (Baru) يمتلكون مؤهلات علمية وثقافية عالية. وكانت عرافتهم مبنية على قراءة الأعضاء الحيوانية المختلفة بعد تشريحها واستنباط المستقبل منها.

وفي ذلك يقول تاتون(Taton): لم يكن الـ"بارو" يعرفون شكل الأعضاء الحيوانية المختلفة ومواقعها فقط، بل كانوا يعرفون أيضاً علاقة بعضها بالبعض الآخر وقياساتها والتشابه والاختلاف فيما بينها بل كانوا يجرون عليها التجارب ويستخلصون منها البراهين.

وكانت لديهم حوالى عشرة آلاف ملاحظة عن الحيوانات. ويمكن القول بأن استنتاجات أولئك البابليين قد هيأت ولادة الروح العلمية لأول مرة في التاريخ[1].

إن القصص الخرافية التي كان البابليون يتداولونها فيما بينهم تدل على معرفة واضحة بسيكولوجية الحيوانات. كما أن رسوم الخيل والغزلان التي خلّفوها تدل على معرفة ظاهرة وبينة بتشريح هذه الحيوانات وتركيب عضلاتها إضافة إلى معرفتهم بتشريحها الداخلي.

ولقد اهتم الآشوريون أيضاً بدراسة سيكولوجية الحيوان. وكان لملكهم سنحاريب حديقة كبيرة في قصره. وكان رجال الدين أيضاً يدرسون تلك الحيوانات الوحشية والأليفة معاً من حيث سلوكيتها[2]. ووضع الآشوريون، مقتدين بالسومريين والبابليين، قوائم تصنيفية بأسماء الحيوانات. بيد أن تصنيفهم كان هو الآخر بسيطاً وساذجاً.

علم النبات

سبقت الإشارة إلى أن بدايات علمي الحيوان والنبات ترقى إلى مرحلة الصيد والجمع حين بدأ الإنسان البدائي يميز الحيوانات والنباتات الصالحة وغير الصالحة للأكل، وتعرف تدريجاً الى خصائص كل منها.

وبعد أن اكتشف العراقيون الأوائل الزراعة، نمت معارفهم عن النباتات وذلك بالنظر الى أهميتها كمصدر للغذاء والدواء وكمادة أولية للعديد من الصناعات الحرفية.

وفي الألف الثالث ق.م، وضع باللغة السومرية بحث في علم الزراعة درست فيه خصائص التربة والنباتات الزراعية[3]. وشرع العراقيون القدماء في تصنيف النباتات مجموعات متشابهة في أشكالها وثمارها، وميزوا في بعض الأشجار جنس الذكر من الأنثى مثل النخيل[4].

---

(1) سومر، المجلد 30، 1974، ص 17.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 145.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، 363/1.

واستخدم النبات كمصدر للأدوية النباتية. وخلّف لنا أطباء العراق القديم مجموعات كثيرة بأسماء الأعشاب والنبات والأزهار التي استعملوها أدوية. والعادة في استعمال النباتات والأعشاب أنهم يضعون شروطاً لاستعمالها منها المكان الذي تنبت فيه وأوقات قطفها[1].

لقد سبق العراقيون القدماء الإغريق بما حققوه من إنجازات في طريق وضع اللبنات الأولى لعلم النبات. وأخطأ هيرودوت في عد أصل هذه المعرفة من الإغريق[2]. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن أسماء جملة من النباتات بالانكليزية أصلها من الأسماء البابلية[3].

(1) المصدر نفسه، 372.

(2) المصدر نفسه، 363.

(3) المصدر نفسه، 362.

الفصل الرابع والثلاثون

الفن

وضع السومريون وأسلافهم أسس الفن في بلاد الرافدين وطورها من بعدهم الساميون والأكاديون والبابليون والآشوريون. وقد تميز فن العراق القديم بصفات خاصة حددتها طبيعة الظروف المحلية بالإضافة إلى تأثره بالعوامل السياسية والدينية. وحاول الفنان التوفيق بين التقاليد الفنية المقيدة وبين الحرية الفنية. واستخدم الحكام والكهنة الفن من أجل تمجيد الآلهة وتقديس السلطة الملكية وترويع الناس وإخضاعهم.

ويمكن تقسيم الفن العراقي إلى عدة أنواع هي: فن البناء، والفنون التشكيلية، والفنون الصغرى، والموسيقى والغناء.

1 - فن البناء: ويشمل المسكن والقصور والمعابد

المسكن: تشير مخلفات حضارة العبيد إلى أن قدماء العراقيين كانوا يسكنون أكواخاً من القصب المربوط بعضه بالبعض الآخر والمغطى بطبقة من الطين. والقصب والطين هما المادتان المتوافرتان في بيئة ميزوبوتاميا السفلى. والواقع أن أسلاف السومريين كانوا قد بدأوا بإقامة مساكنهم في ميزوبوتاميا السفلى بعد انحسار مياه البحر وجفاف الأهوار. وقد تطور المسكن في بلاد ما بين النهرين من كوخ مصنوع من سيقان القصب ومطلي بالطين إلى بيت مبني بالطوب أو قوالب اللبن المجفف بالشمس أو الآجر المشوي بالنار.

وكانت المساكن الأولى لسكان سومر وأكاد أكواخاً من القصب، وكان القصب يغرس في الأرض على شكل دائري أو صفين متوازيين ثم تثنى أطرافه من أعلى بحيث تصبح على شكل مجموعة من الأقواس (القباب). يؤيد ذلك بعض المناظر المرسومة على الأختام الاسطوانية[1]. ولما لم يكن في هذه المنطقة أحجار فإن المباني كانت تغطى بطبقة من الطين (طمي مختلط بالقش) وسرعان ما لوحظ أن الطين يكتسب من حرارة الشمس في الصيف صلابة. وقد أدى ذلك إلى تشكيله في صورة مكعبات تترك لتجف: ومن هنا كانت قوالب اللبن المجفف في الشمس[2]. وقد استطاعوا أن يبنوا مساكن سريعة الإنشاء صغيرة الحجم من اللبن المجفف صنعت سقوفها من القصب المغطى بالطين وترتكز على ركائز من أخشاب النخيل، وأما النوافذ ففتحات صغيرة في أعلى الجدران. ثم اخترع الآجر المشوي بالنار الذي يسجل خطوة متقدمة عن اللبن المجفف بالشمس. واخترع الفرن المغلق لشيّ الآجر فساعد كثيراً على نشر عادة استعمال الآجر في البناء.

وفي عهد الإمبراطورية البابلية الجديدة اخترع القاشاني، فساد استعماله في تغطية جدران القصور[3]. واستعمل الحجر في البناء في الفترات المتأخرة من تاريخ بلاد الرافدين، وكان استعماله مقصوراً على تغطية الدعائم، وسند روافد الخشب[4].

ولقد ظل طراز المباني لا يكاد يتغير على مر العصور من حيث التصميم. فالمبنى عادة على شكل مستطيل متوازي الأضلاع سواء أكان مسكناً عادياً أم قصراً أم معبداً يرتكز على مرتفع (تمنو) على شكل مصطبة مفتوحة تتخللها مجار بقصد حمايته وتجنباً لتجمع ماء المطر[5].

---

(1) ديلابورت، المصدر السابق، ص 208.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 209.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه.

وللبيت حوش مكشوف تدور حوله غرف فيها أنابيت من الفخار للتهوية[1]. ومعظم المنازل من طابق واحد، ومن النادر أن ترتفع إلى طابقين، وتكاد تكون متلاصقة ليس بينها سوى ممرات ضيقة[2]. وهي مدهونة من الداخل وأحياناً من الخارج كذلك. وأما الأرضية فمن بلاط من الإسفلت المختلط بالطين والقش. وكان يستخدم في إضاءة المساكن ليلاً المسارج التي تملأ بالزيت أو بالنفط وقد اهتدوا إلى المشاعل وإلى مواقد النار[3].

القصور: مساكن الملوك والأرستقراطية وعنوان القوة والعظمة. كانت تشيد على الرُبى. وكانوا يجعلونها منيعة. استخدم الآجر في بنائها، كما استعملت الحجارة أحياناً إلى جانب الطوب مادة البناء الأساسية.

وكانت القصور تتألف من ثلاثة طوابق أو أربعة. ومع اتساع الإمبراطورية وتدفق الأسلاب والجزى زادت مساحة وضخامة ومنعة وزخرفة. ولم يستعملوا النوافذ في قصورهم، بل استعاضوا عنها بالأبواب العريضة كوسيلة للتنوير والتهوية، وأقاموا في أعلى الجدران قرب السقوف فتحات صغيرة للغرض نفسه.

وفي العهد الآشوري، حيث تأسست الدولة العسكرية، اصطبغت العمارة بالصبغة العسكرية، وكانت قصور الملوك أشبه بقلاع تحيط بها الأسوار. وقد سخر الملوك الفاتحون الأسرى في بناء قصورهم، وجاءوا بالرخام واللازورد والبرونز والفضة والذهب من أجل تجميلها، وملأوها بالتحف التي غنموها في حروبهم.

ومن بين أفخم القصور التي كشف عنها المنقبون قصر دور شاروكين الذي بناه سارغون الثاني في خورسباد على بعد حوالى 16 كيلومتراً إلى شمال شرق نينوى. وبنى سارغون الثاني مدينته دور شاروكين وقصره العتيد في الوقت نفسه من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. وقد شيد قصره على مرتفع من الأرض على شكل قلعة حصينة يحيط بها سور عريض لحمايتها.

ويضم قصر سارغون حوالى 200 غرفة تطل على أكثر من 20 باحة. وفي الجانب المواجه

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 16/6.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

للمدينة كانت توجد واجهة تتخللها ثلاث بوابات فخمة تحيط بها أبراج مربعة، وكان يحرس البوابة الوسطى الرئيسية ثلاثة أزواج من الثيران المجنحة وصورة كبيرة الحجم لجلغامش يخنق أسداً. أما البوابتان الأخريان فعلى جانب كل منهما زوج من الثيران المجنحة كحراس.

وتؤدي البوابة الرئيسة إلى مساكن خاصة مرتبة حول جوانب ثلاثة من بهو مربع كبير الحجم يؤدي إلى جناحين غير متصلين هما المعبد وقاعات الاستقبال. وقد ألحقت بالمساكن الخاصة مخازن المؤونة والمطابخ والحظائر ودورات المياه. وفي وسط هذه المباني ممر يؤدي إلى المعبد[1]. وكانت المباني المخصصة للاستقبال تشتمل على حوالى 60 غرفة وتنقسم إلى مجموعتين متميزتين: إحداهما تعرف بالقسم المنقوش وهو قاعات الاحتفالات، والأخرى أقل زخرفة وهي قاعات المكاتب[2].

وقد صمم المدخل بحيث يحجب أية رؤية مباشرة من الخارج. وكان المرء يدخل أولاً إلى بهو صغير يخرج منه إلى دهليز ضيق طويل يؤدي إلى البهو الرئيس ومساحته 976 متراً مربعاً. وعند الدخول إلى هذا البهو كان الزائر يجد أمامه ثلاث بوابات جميلة مقببة واثنتين أخريين على كل جانب تؤدي كلها إلى غرف الاستقبال الرئيسة السبع وكلها مزينة ببلاط منقوش وطوب زخرفي. وكان البهو نفسه مزيناً بالطراز نفسه. وتحرس الأبواب الرئيسة ثيران مجنحة[3]. وكان أسفل الأفاريز العالية مقسماً بانتظام إلى قسمين: فالجزء العلوي مغطى بكتابات طويلة تتكرر في عدة قاعات. وبينما نجد في أحد الأجزاء أحداث الحكم تذكر في ترتيب تاريخي وهو الحوليات نجد في آخر الأعمال البارزة للخمس عشرة حملة الأولى تجتمع في ترتيب جغرافي وهي تكون "فخر" الملك وتقاويمه. وفي الجزء السفلي نحتت ونقشت نقوش بارزة ملونة تروي بالصور ما تقصه علينا النصوص المكتوبة فوقها[4].

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 390.

(2) المصدر نفسه، ص 390 - 391.

(3) المصدر نفسه، ص 391.

(4) المصدر نفسه، ص 391 – 392.

أما مكاتب الدولة فتشغل 49 غرفة متجمعة حول خمسة أبهاء وقلما كانت جدرانها مزينة بالنقوش ولكن كانت تغطيها طبقة من الملاط ملونة أو مصورة[1].

وإلى الجنوب الغربي من البهو الكبير للحي المشترك يقوم المعبد. وهناك مبنيان آخران على الجانب الجنوبي الغربي من القصر أحدهما "الزقورة" والآخر كان مبنياً من الحجر الجيري ومزيناً بنقوش من البازلت بمناظر الصيد والحرب والجزية[2].

ويشير سارغون إلى أنه استخدم في تزيين قصره الفضة والذهب والنحاس والحجر الرملي الأحمر والرخام والعاج وخشب الاسفندان والبقس والتوت والأرز والصنوبر والبلوط والزيتون، وزينه من الداخل بالمينا الزاهية المموهة بها ألواح الآجر المزججة وأما السقوف فقد طليت بطلاء من البورق. وقرب الأبواب وضعت تماثيل ضخمة من المرمر والعاج تمثل أبقاراً تحمل ما يشبه كؤوس الأزهار التي تستند إليها الأعمدة[3]. وكانت بوابات القصر مغطاة بالمعادن الثمينة[4].

وقد استعمل اللبن في جدران القصر قبل أن يتم تجفيفه حتى ترتبط طبقاته المتتالية بعضها ببعض دون استعمال الملاط أو المونة. أما بالنسبة الى القباب فقد استعمل الطوب التام التجفيف وكانت الفجوات تملأ بالطين[5]. ولم تقتصر مادة البناء على الطوب بل استخدمت الأحجار التي استخدمت أيضاً في بناء السور. ففي القصر استخدمت في تكسية واجهات الجدران وللأرضية ولتيجان الأعمدة ولسند شرفة القصر. وفي الأسوار استخدمت كأساس ارتفاعه 1.10 م[6].

وشاد سنحاريب في نينوى قصراً ملكياً سماه "المنقطع النظير" يفوق في ضخامته كل

---

(1) المصدر نفسه، ص 392.

(2) المصدر نفسه، ص 392 - 393.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 209/6.

(4) ديلابورت: المصدر السابق، ص 394.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه، ص 394 – 395.

القصور القديمة[1]. وكانت جدرانه وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة، وصب له صناع المعادن آساداً وثيراناً ضخمة من النحاس، ونحت له المثالون ثيراناً مجنحة من حجر الجير والمرمر[2].

وقد نهج ملوك الكلدانيين نهج ملوك الآشوريين في تجميل المدن وبناء القصور. ولعل قصر نبوخذ نصر الثاني في بابل يعد أروع مثال لفن العمارة في المرحلة الأخيرة من تاريخ العراق القديم، وهو تقليد للفن الآشوري المطعّم بالفن الحثي والمنقول عنه.

وكان القصر مكوناً من مبان موزعة حول أربعة أفنية رئيسية. أما قاعة العرش ومساحتها 884 متراً مربعاً فتقوم في ثالث الأفنية وأوسعها، وزينتها الوحيدة مشكاة ضخمة فيها عرش الملك ويمكن رؤيتها من الفناء. وكانت الجدران مطلية باللون الأبيض، وسماكة الجدار خمسة أمتار. وأما حيطان البهو فيغطيها طوب خزفي بالميناء وبها أعمدة مغطاة بالفسيفساء الصفراء على أرضية زرقاء تزينها ورود ملونة[3].

ووجد في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي بناء ضخم قوامه أربع عشرة غرفة معقود، كل سبع منها على جانب من رواق بين الصفين من هذه الغرف. ووجدت في هذا البناء آثار آبار. ويرجح أن يكون هذا البناء موضع "الجنائن المعلقة" التي عدها الإغريق من عجائب الدنيا السبع[4].

وكان يحيط بالقلعة التي يشغل القصر معظمها سور مزدوج. وقد جهز السور بأبراج ولعل أجمل ما فيه بوابة عشتار التي أعاد نبوخذ نصر بناءها وتقع عند النقطة التي يبدأ منها الطريق المقدس دخول المدينة القديمة.

وقد عثر المنقبون في قصر نبوخذ نصر الثاني على صفائح كتب عليها: "أنا نبوخذ نصر ملك بابل" عندما اختارني مردوخ ملكاً شرعياً وأمرني بتجديد المدن أظهرت له الطاعة

---

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 294/6.

(2) المصدر نفسه.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 212/6.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، 497.

والخضوع، فبنيت أسوار بابل عاصمة ملكي، وأقمت على أبوابها الثيران العظيمة والتنينات المرعبة، وأنزلت أسسها حتى عالم ما تحت الأرض، ورفعت أبراجها إلى علو الجبال، وجعلت من معبد الأياجيل قصر السماء والأرض ومقراً لنعيم الأرباب وكسوته بالذهب وقمت بتجديد زقورته[1].

المعابد: المعابد بيوت الآلهة وسند قوي للنظام العبودي. ولم يكن المعبد في العراق القديم مكاناً للعبادة والصلاة فحسب بل كان كذلك عنصراً هاماً للإدارة المدنية والحياة الاقتصادية والثقافية.

ومنذ عصور ما قبل الأسر كان المعبد مبنى عاماً... هو مقر الإله يعيش فيه مع زوجته وأولاده وحاشيته وخدمه. وكان يبنى من الآجر والقار أحياناً ومن اللبن أحياناً أخرى، وقد يغطى اللبن بالآجر[2]. وبعد أن كانت صغيرة بسيطة في عصور فجر السلالات، اتسعت في العصور التالية وتعقدت وأصبحت مكونة من مرافق كثيرة معقدة وألحقت بها بنايات خاصة مقدسة للكهنة والكاهنات ولحفظ السجلات وللتدريس والتدوين[3].

وهناك نوعان من المعابد: المعبد الأرضي والمعبد العالي الذي يعرف بالزقورة أو الصرح المدرج. فالمعبد الأرضي شيد ليعيش فيه الإله بين الناس يستمع إلى شكاواهم وينصت إلى صلواتهم ويتقبل قرابينهم ومنحهم وهداياهم. أما المعبد العالي أو "الزقورة" فهو مقر يستريح فيه الإله عند نزوله من السماء إلى الأرض[4]. وقد ظهرت الزقورة للمرة الأولى في عهد الوركاء ثم عم بناؤها بلاد الرافدين وأصبح المثل الهندسي الذي يحتذى في الكثير من الأبنية. وبعد أن كانت هذه العمارات بسيطة مكونة من طبقتين فوقهما معبد صغير في أواخر عصور ما قبل التاريخ، أصبحت في العصور التالية مكونة من عدة طبقات ضخمة واتسع حجمها وزاد ارتفاعها وكثر عددها في المدن المهمة[5].

---

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 173.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 164/6.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 493.

(4) المصدر نفسه، ص 277.

(5) المصدر نفسه، ص 492.

والزقورة مبنى أصم مكون من موشورات، مصاطب، على شكل مربع أو مستطيل يراوح عددها بين ثلاثة وثمانية مبنية بعضها فوق بعض وتقل حجماً كلما ارتفعت. وقد مثلت صورة هذا الجبل الاصطناعي على كودورو لـ"امروداش بالادان الأول"[1]. وهناك لوحة في اللوفر من القرن الثالث ق.م (229 ق.م) تقدم وصفاً هندسياً لهذا الأثر الضخم، وتشير إلى أن الزقورة مبنى مستطيل طوله 660 متراً وعرضه 365 متراً. وكان المدخل الرئيس إلى الشرق، على الطريق المقدس، يؤدي إلى شرفتين متتاليتين تسبقان الفناء المربع الذي كان شرفة كذلك تقوم فوق البرج. ويبلغ طول قاعدة البرج 185 متراً ويرتكز الطابق التالي على الجانب الغربي للقاعدة وطول ضلعه 95 متراً وبه مزارات لعدد من الآلهة وفناء به أربع بوابات وتقوم عليه خمسة طوابق متعاقبة يتوجها المزار الأخير[2].

ويقدم هيرودوت وصفاً لزقورة أخرى مربعة يقول عنها: "هي مربع منتظم طول ضلعه 370.6 متراً. وله بوابات من النحاس وفي الوسط بدا برج ضخم يبلغ كل من طوله وعرضه 185.3 متراً. وفوق هذا البرج يقوم آخر ثم ثالث وهكذا إلى أن يبلغ عددها ثمانية أبراج. والصعود إليها من الخارج عن طريق منحدر يدور تباعاً حول جميع الطوابق. وفي منتصف الطريق المنحدر تقريباً توجد غرفة ومقاعد يجلس ليستريح عليها أولئك الذين يرغبون في الصعود إلى القمة. وفي أعلى الطوابق هيكل به سرير مزخرف بزينة رائعة تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب. ولا يسكن هذا الهيكل أحد إلا أنه كانت تأوي إليه في كل ليلة امرأة يختارها الإله بنفسه ويقضي ليلته معها[3].

ويحيط بالزقورة عادة سور مقدس وبالقرب من قاعدته يوجد محراب. أما المزار الرئيس أو المعبد الصغير ففي الطبقة العليا وهو مخصص لنزول الإله وقضاء بعض الوقت فيه قبل حلوله على الأرض. وقد استخدم الفلكيون الكهنة الزقورة أيضاً لأغراض فلكية.

ولسنا نملك معلومات كافية عن التصميم الكامل للمعبد العراقي القديم قبل عهد

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 178.

(2) المصدر نفسه، ص 178 - 179.

(3) المصدر نفسه، ص 179.

الكلدانيين. وقد كشفت الحفريات الأثرية في أنقاض مدينة بابل عن أربعة معابد تعود كلها إلى عصر الإمبراطورية البابلية الجديد، وقد أمكن نتيجة دراسة هذه الأنقاض الكشف عن التصميم الكامل والقواعد العامة التي كان المعماريون يتبعونها في بناء المعابد.

لقد كانت المعابد تبنى على شكل مستطيل له زوايا، ويستعمل في بنائها الآجر والقار أحياناً والآجر وحده أحياناً أخرى. وكانت الجدران تقسم من الخارج وعلى مسافات متقاربة ومتساوية بواسطة أعمدة مربعة أو مستطيلة أو دائرية. وللمعبد ساحة داخلية تتوسطه يوصل إليها بمدخل واحد أو عدة مداخل أو ببوابات مزدوجة مغطاة بالبرونز ومرتكزة على دعائم حجرية. وكما هي الحال بالنسبة الى الفناء الخارجي فقد كانت الساحة الداخلية مزينة بأعمدة مربعة أيضاً. وكان البناء الرئيس في المعبد وأقدس ما فيه هو الهيكل (أي غال = البيت العظيم) وبه مقصورة يوضع فيها تمثال الإله وأمامه غرفة تحتوي على المتاع المقدس الذي يعود إليه. وكثيراً ما كانت جدران هذه المقصورة تغطى بالذهب واللازورد والرخام. أما سقفها فمن خشب أرز لبنان مغطى برقائق الذهب[1]. وتكون حجرة الهيكل في المعابد الآشورية في الجانب وليس باتجاه المدخل[2].

وقد صمم بناء المعبد بحيث لا يرى تمثال المعبود من الشارع الخارجي، وإنما يمكن للداخل، بعد ولوجه الساحة، أن يشهد تمثال المعبود في أقصى المبنى. ولا يستطيع الدخول إلى قدس الأقداس والمثول أمام الإله إلا الملك والكهنة[3].

وتتوزع الغرف الأخرى الملحقة بالمعبد حول الهيكل. ولسنا نعرف على وجه التحديد الأغراض التي كانت تستعمل هذه الغرف من أجلها ولربما كانت لسكن الكهنة أو لأداء طقوس العبادة.

ولم يكشف عن أي مذبح داخل معابد بابل، إلا أنه قد وجدت بعض المذابح خارج

---

(1) المصدر نفسه، 176 - 177.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 278.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 178. ود. نجيب ميخائيل إبراهيم: المصدر السابق، 166/6.

مدخل بعض المعابد. وقد استدل من هذا على أن الأضاحي كانت تقدم خارج المعبد[1]. ويؤيد هذا الرأي ما يذكره هيرودوت أنه كان "يُرى خارج قدس الأقداس (بالاياجيل) مذبح ذهبي وآخر كبير جداً لذبح الماشية"[2].

وسميت المعابد بنوعيها، الزقورة والمعبد الأرضي، بأسماء خاصة بها، وكان لكل مدينة مهما صغرت معبد. وأما المدن الكبرى فكان لكل منها أكثر من معبد إضافة إلى الزقورة[3]. وأهم ما تتميز به هذه المعابد كثرة الحدائق المحيطة بها، وحتى ساحة المعبد كانت تغرس بالأزهار والأشجار النضرة[4].

2 - الفنون التشكيلية

النحت والنقش: ظهرت طلائع فن النحت في الحجر في أواخر عصر الوركاء، فقد وصلتنا منه ومن عهد جمدة نصر الذي أعقبه نماذج جميلة، من بينها قطعة من البازلت تمثل صيد الأسود في العراق القديم. ومع قدم هذا النحت واتصافه بالسماجة بوجه عام فإن فيه قوة في التعبير. ويمكننا أن نتتبع فيه وفي القطع المنحوتة الأخرى، الخطوط الأساسية لفن النحت الراقي الذي ظهر في عهد ازدهار الحضارة السومرية في عصر فجر السلالات.

ومن القطع الفنية النفيسة التي وجدت في الوركاء إناء من حجر المرمر كبير الحجم (محفوظ الآن في المتحف العراقي). وقد زين هذا الإناء من الخارج بمشاهد منحوتة بالنحت البارز تمثل موكباً من الكهنة العراة يحملون سلال القرابين إلى معبد "إي - أنا" في الوركاء كما ظهر فيه بعض الآلهة. وقد نحتت هذه الأشكال بمهارة فنية فيها واقعية التعبير[5].

ووجد المنقبون في الوركاء من طور جمدة نصر رأساً منحوتاً نحتاً مجسماً من الرخام

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 278.

(4) المصدر نفسه، ص 279.

(5) باقر، طه: المصدر السابق، ص 481.

يمثل فتاة هو الآن من الآثار النفيسة في المتحف العراقي لا لأنه أقدم نحت مجسم في تاريخ الفن، بل لما يتصف به من الجمال الفني ودقة التعبير في الملامح البشرية[1]. كما وصلتنا من عهد جمدة نصر مجموعة من الأحجار الصغيرة المنحوتة على هيئة حيوانات وطيور مختلفة يشير نحتها والدقة في التعبير والتمثيل إلى مهارة فنية وصحة في المشاهدة وتناسب في الأعضاء[2].

وقبل أن يبدأ العراقيون الأقدمون بفن النحت في الحجر أو المعدن كانوا يستخدمون الطين لتمثيل الصور البشرية والحيوانية. وهذه هي دمى الطين التي كانوا يفخرونها بعد أن يضعوها في قوالب[3]. وقد بدأت صور الطين منذ أواخر العصر الحجري، وظلت مستعملة إلى أواخر أيام الحضارات القديمة في بلاد الرافدين[4]. وكانت، مثل الأختام الاسطوانية، متنوعة الأشكال والمواضيع، بعضها يمثل الآلهة، وبعضها صور للشياطين والعفاريت. كما أنهم صوروا الحيوانات المختلفة والطيور والأسماك. وهي إلى أهميتها الفنية ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والدينية.

وفي عصر الحضارة السومرية نضجت الفنون عموماً وفن النحت خصوصاً، وكثرت مقوماتها وتباينت عناصرها. وكثرت التماثيل التي تمثل الآلهة والملوك والكهنة كما كثرت المنحوتات البارزة التي كانت تنحت في ألواح من الحجر لتزين جدران المعابد. وكان نحت التماثيل يقوم على أسس ثابتة. ففي تماثيل الآلهة نلحظ مبالغة في تصوير بعض الأعضاء كالعيون مثلاً، وأما في تماثيل الأفراد فكانوا يتوخون الدقة بحيث تبدو وكأنما تمثل الأشخاص على طبيعتهم. وكانت تماثيل الآلهة والملوك ثمينة يسرفون في تزيينها بالذهب والأحجار الكريمة. ومعظم ما بقي من هذه التماثيل يمثل الملك غوديا. في متحف اللوفر ثمانية من الديوريت كان قد وضعها غوديا في معابد لاغاش وكلها تمثل الايشاكو في

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص 482.

مظهر الولاء أمام المعبود ويداه معقودتان وهو إما واقف وإما جالس ولكنها كلها مقطوعة الرأس[1].

وتسمح لنا مجموعة النقوش البارزة، وهي أكثر كمالاً من مجموعة نحت التماثيل، بأن نتتبع التطور الفني في تمثيل الشكل الإنساني ابتداء من الصورة ذات الريش حتى لوحات غوديا، مارين فيما بين هاتين المرحلتين بالنقش البارز الدائري وصورة أسرة أورنينا ولوحة العقبان والنقش البارز لـ"دودو" ولوحات سارغون ونارام سين[2]. وفي لوحة العقبان، وهي لوحة أقامها إيانا توم في لاغاش تخليداً لانتصاره على أومّا، نرى العقبان مقسمة إلى صفوف متعاقبة وهي تُظهر (تبرز) في وجهها التاريخي والأسطوري تنفيذاً أكثر حرية من نقوش أرنينا[3].

ولم يكتف النحاتون السومريون بتمثيل الآلهة والبشر بل مثلوا الحيوانات أيضاً بأشكالها وحجومها الطبيعية أو بأشكال وحجوم صغيرة. فقد أمر غوديا بنحت أسود بالحجم الطبيعي[4]. وفي النقش البارز لـ"دودو" نرى ثوراً مضطجعاً وفي لوحة العقبان نشاهد ثوراً مهيأً للتضحية به وهو مربوط إلى وتد.

وكانت مادة التماثيل الكبيرة من الحجر الصلب الصخري، أما الصغيرة فقد صنعوها في الغالب من حجر ليّن أو من المرمر أو الأونيكس[5]. وكانوا يطعّمون هذه التماثيل بالأحجار الثمينة أو المعادن أو يلبسونها الأساور والأقراط ويصنعون لها عيوناً من الحجر الملون لجعلها طبيعية تنبض بالحياة[6].

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 215.

(2) المصدر نفسه، ص 217.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 218.

(5) المصدر نفسه، ص 216.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولم يلجأ النحاتون إلى الحجر وحده كمادة لصنع التماثيل والنقوش بل إنهم مهروا منذ عصر ممعن في القدم في استعمال المعادن وخصوصاً النحاس. فقد اكتشفت في تللو تماثيل نحاسية كما اكتشف قرن ثور بالحجم الطبيعي مصنوع من صفيحة نحاسية ملفوفة حول قالب خشبي وملصقة به بواسطة مسامير صغيرة[1]. وصنع بعض الملوك تماثيل من الذهب والفضة تمثلهم بأوضاع مختلفة وبحجوم مصغرة أو صنعوا تماثيل معدنية لبعض الحيوانات ورصعوها بالأحجار الكريمة وصنعوا لها عيوناً من حجارة ملونة لإعطائها قيمة جمالية.

وكانت التماثيل المعدنية الأكبر حجماً تصب جوفاء. وهناك رأسان لثورين هما نموذج جيد لعصر ما قبل السارغونية[2]. وكانت هذه التماثيل الحيوانية المصنوعة من المعدن تستعمل لأغراض تزيينية عند مداخل القصور أو في ساحاتها أو قرب المعابد أو عند البوابات الكبيرة[3].

ويعد العصر الأكادي متابعة لتطور الفن في العصور السابقة. ودخلت فن النحت نزعات جديدة أبرزها التمثيل الحيوي القوي، وكذلك النزعات الدنيوية والروعة الفنية مما لم يكن موجوداً في عصور فجر السلالات. وأبرز مثل للنحت في هذا العصر "لوحة النصر" للملك الأكادي "نارام سين" يلاحظ فيها النقش البارز للتحرر من قيود الفن السابقة ومحاولة التعبير عن المنظور ومراعاة بُعد الشيء أو قربه من المشاهد ثم قوة وحيوية التعبير في نحت الأشخاص[4].

وقد عني الفن السومري - الأكادي بتمثيل الطبيعة في التماثيل ونجح في إبراز النواحي التي كان يستهدف في إبرازها تمثيل العضلات أو ثنيات الثياب. وكان الفنانون السومريون الأكاديون شديدي الميل إلى اختراع مخلوقات مختلفة غير متجانسة الأجزاء معتمدين في

(1) المصدر نفسه، ص 220.

(2) المصدر نفسه، ص 222.

(3) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 209.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 489.

ذلك على تشابه معين قل أو كثر بين الإنسان والحيوان. فالنسر برأس أسد والثور برأس إنسان[1].

ولجأ الفن السومري إلى التطعيم والتكفيت اللذين عرفا منذ عهد جمدة نصر ولكن الفن السومري - الأكادي أرسى قواعدهما. وكان التطعيم في الخشب بالمحار والأصداف والبلور، واللازورد على هيئة أشكال هندسية لمناظر حربية وحفلات دينية ومشاهد أسطورية، أما التكفيت فظهر في قطع جميلة الصنع من بينها وعاء فضي من عهد انتمينا فيه نسر ناشر جناحيه[2].

واستمر فن النحت والنقش في تقدم مطرد حتى عصر "غوديا" وملوك أور. ويبدو ذلك خصوصاً في قطعة حجر منحوتة بشكل ديني تمثل مؤسس الأسرة يسكب الماء المقدس أمام "سين" إله القمر في أور ويتسلم منه الأوامر المقدسة لبناء زقورة أور. وحفر النقاشون في الصدف واللؤلؤ والمعدن. وكانوا يفصلون الصدف إلى صفائح رقيقة يحفرون فيها المناظر المختلفة والأشكال البشرية والحيوانية. كما استعملوا المعادن المطروقة بشكل صفائح والمصنوعة على شكل آنية ومزهريات ونقشوا عليها مناظر من حياتهم اليومية أو مشاهد دينية وحربية. وقد بدأ اللؤلؤ يحل محل الأصداف. وانحدر الحفر في هذه المادة السريعة القصف إلى تخطيط مستقيم[3].

وقد صحب توحيد بلاد الرافدين في ظل الأسرة البابلية واختفاء السومريين عن المسرح السياسي عهد انحطاط بالنسبة إلى الفن. ولم يعثر المنقبون حتى الآن من زمن الدولة البابلية القديمة إلا على منحوتات قليلة يأتي في مقدمتها "مسلة شريعة حمورابي" والرأس المنحوت من حجر الغرانيت الذي يظهر أنه يمثل حمورابي نفسه[4].

وإذا وصلنا إلى العهد الكاشي فلا نجد طرازاً فنياً مميزاً خاصاً بالكاشيين، إذ الواقع أن

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 219.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 217/6.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 224.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 490.

هؤلاء ساروا على التقاليد الفنية القديمة وكذلك تأثروا بفنون البلدان المجاورة. فقد عثر المنقبون عام 1955م. في الوركاء على نصب منحوت من الحجر يمثل إلهة وفيه كتابة سومرية تذكر اسم الملك "نازي مركاش"[1]. واشتهر العهد الكاشي بالنقش البارز على أحجار الحدود التي تكاد تكون المثال الوحيد على فن النحت الكاشي.

وقد اقتبس الآشوريون مقومات الفن البابلي في الفترة الكاشية وطوروها وطبعوها بطابعهم الخاص. وتطور فن النقش في العهد الآشوري تطوراً سريعاً حتى بلغ الذروة فيما يتصل بتمثيل الحيوانات. وقد اتصف فن النقش الآشوري بأنه فن حربي يهتم أولاً وقبل كل شيء بتمثيل المشاهد الحربية والانتصارات العسكرية التي حققها الملوك الفاتحون على أعدائهم. والنقوش العديدة التي خلفوها لنا على جدران قصورهم عن حملاتهم العسكرية ودكهم الحصون والمدن وسوقهم الأسرى خير مثال على ذلك.

ولم يكتف الفنانون بالنقش على ألواح الجص والمرمر بل نقشوا أيضاً على المعادن. ولعل أهم النقوش البارزة المعدنية هي الواجهات البرونزية للقصر الذي بناه شلمنصر الثالث في أمجور إيلليل (بلاوات) في القرن التاسع ق.م ومثل فيها أهم أحداث حكمه[2].

وبدأ فن النقش بمزج الصور بالكتابة وانتهى بالفصل بينهما، ورغم ذلك ظل الضعف من سماته البارزة وظلت الدقة أبعد ما تكون من أن تتوخى، ولم يراع رسم المنظور، ولم تلاحظ الأبعاد كما لم يهتم بترتيب المناظر طبقاً لأهميتها الفعلية أو بتناسبها من ناحية الحجم بعضها مع بعض[3]. وكان الاهتمام بإبراز صورة الملك يدفع إلى التغاضي عن قاعدة المنظور، فهو يبدو بصدره كاملاً حين يجب ألا يبدو إلا من ظهره، وهو يبدو بذراعيه حين يجب أن تختفي إحداهما طبقاً لقواعد المنظور. أما الأقدام فتمثل دائماً منظورة من الجانب (بروفيل). أما العين فتظهر كأنما ترى من الأمام حتى لو كان منظر الرأس من الجانب[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 491.

(2) ديلابورت: المصدر السابق، ص 408.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 219/6.

(4) ديلابورت: المصدر السابق، ص 402.

ورسم الأشخاص ليس من الضروري أن تظهر فيه الملامح المميزة للجنس أو الشخصية، ولا يمكن التعرف الى الأعداء الذين يقدمون الخضوع ويأتون بالجزية أو يؤخذون أسرى إلا بواسطة زيهم الذي يختلف عن زي الآشوريين، أي إن الزي وحده أو الزي واللحية هما اللذان يميزان الناس[1].

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة الى تمثيل الحيوانات. وهو عمل بلغ فيه الآشوريون حد الكمال وكأنما الفنان الآشوري الذي حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم قد وظف حريته ووهب كل فنه وحذقه لتصوير الحيوانات. وهو يصور منها أنواعاً جمة، أسوداً وخيلاً، وحميراً، ومعزاً، وكلاباً، ودببة، وظباء، وطيوراً، وجنادب، يصورها في كل وضع من أوضاعها، وما أكثر ما يمثلها وهي جرحى تعاني سكرات الموت، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في لوحاته وفنه[2].

وهل هناك ما هو أروع من خيل سارغون الثاني في نقوش خرسباد، أو اللبوءة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنحاريب في نينوى، أو اللبوءة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر التي استخرجت من قصر آشور بانيبال، أو منظر اللبوءة المستريحة، أو الأسد الذي أطلق من الشرك، أو القطعة التي تمثل الأسد والسهم يخترق جسمه، أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبوءة يستظلان بالأشجار، أو مناظر صيد الأسود الذي أغرم به الملوك الآشوريون ومشاهد الخيل والحمر الوحشية التي صورت بحركة وعنف وبمهارة بحيث يحق لنا أن نضعها في مصاف فنون العالم الممتازة[3].

وقد ولع الآشوريون بنحت التماثيل الضخمة من الحجر، بعضها يمثل أشخاصاً من بينهم الملوك أنفسهم وبعضها يمثل الحيوانات الضخمة ولا سيما الثيران المجنحة التي ترى مليئة بالحياة والجلال[4].

---

(1) المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

(2) ديورانت: المصدر السابق، 290/2.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 484.

(4) ديورانت: المصدر السابق، ص 292.

وكانت هذه حيوانات مركبة رؤوسها رؤوس بشر وأجسامها أجسام ثيران أو أسود لمداخل القصور والمدن. وقد وجدت منها نماذج كثيرة في نينوى في مداخل المدينة المقدسة وفي خرسباد. أما تماثيل الأشخاص والآلهة فهي خشنة ثقيلة بدائية. مزينة ولكنها لا فروق بينها، منتصبة ولكنها ميتة. ولعل من الجائز أن نستثني من هذا الوصف تمثال آشور ناصر بال الثاني الضخم المحفوظ في المتحف البريطاني. ولعل مظهر القوة هو أول ما توخى المثال في إبرازه، ذلك أن في وسع الناظر إليه أن يرى الصولجان الملكي وقد قبض عليه قبضة قوية، والشفتين الغليظتين تنمان عن قوة العزيمة، والعينين القاسيتين اليقظتين، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء بالشر المستطير[1].

وقد استخدم الآشوريون المعادن أيضاً في صناعة التماثيل. فقد عثر على تمثال أسد من البرونز في قصر دور شاروكين كما وجدت سباع برونزية أخرى في غرود[2].

واستعمل الفن الآشوري كذلك عملية في النحت تتوسط بين النقش البارز والمجسم، ولجأ إلى هذا الطراز في أسفل الجدران في الأماكن الواجب أن تكون أكثر سماكة لتعرضها أكثر من غيرها للصدم، أي لوجودها عند مدخل القاعات والممرات. وفيها نرى أن مقدم العفاريت التي لها أجسام الأسود والثيران ذات الحجوم الضخمة أحياناً نراها منفصلة تبرز من الحائط بروزاً شديداً كما لو كانت تماثيل[3].

ومن ناحية أخرى نجد أن المخلوقات المركبة التي تتكون من جسم إنسان يرتبط بأعضاء أو رأس حيوانات معينة منقولة عن مصر عن طريق الحثيين لأن البابليين ظلوا يجهلون تقريباً مثل هذه الكائنات التي يندر جداً ظهورها في آثارهم[4].

الأختام الاسطوانية: اخترعت الأختام الاسطوانية في النصف الثاني من عهد الوركاء من أجل تحديد الملكية الشخصية للحاجات المختلفة. وكان النقش على الحجر يمارس في

(1) المصدر نفسه، ص 293.

(2) ديلابورت: المصدر السابق، ص 408.

(3) المصدر نفسه، ص 404.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بلاد ما بين النهرين منذ عهود سحيقة في القدم. وقد حفظت خرائب نيبور ولاغاش لوحات كبيرة الحجم. وتطور النقش على الأختام الأسطوانية التي ظل استعمالها شائعاً حتى العصر الفارسي كوسيلة لختم المستندات والوثائق[1].

وكانت الأختام منبسطة عبارة عن أقراص دائرية أو مستطيلة، أما الأختام الأسطوانية فكانت نادرة ولم يتسع استعمالها إلا في أزمنة متأخرة نسبياً.

وقد صنعت الأختام في العصور الأولى من الحجر الجيري والحجر الأخضر وغير ذلك، ومن ثم استعمل اليشب والبلور الصخري وحجر الحديد "هيماتيت" والعقيق. وكانت لحجر الحديد السيادة في عصر غوديا وملوك أور، وظلت له المكانة الأولى في زمن الأسرة العمورية في بابل[2]. ولكن في عصر الكاشيين كثر استعمال اليشب. أما العقيق الأبيض فقد استعمل في العصور المتأخرة وخصوصاً في صنع الأختام المسطحة[3].

وتختلف الأختام باختلاف المراحل التاريخية. وهي مصدر هام لمعرفة المعتقدات الدينية والأساطير، وبعضها مناظر للحياة اليومية. وقد بلغت القمة في العهد الأكادي[4].

وكانت الأشكال البشرية والحيوانية والنباتية تمثل بشكل خطوط هندسية على الأختام في أول الأمر، ثم تظهر على الأختام مناظر عراك الحيوانات بعضها مع بعض أو مع الأبطال مثل جلغامش وصاحبه الوفي أنكيدو. ويستمر من خلال حكم "نارام سين" و"شورغا ليشاري" ظهور صراع جلغامش وأنكيدو مع الأسد والثور[5]. وتمتاز إحدى الاسطوانات من تللو بعمق النقش وبراعة تصوير الوجوه. ولعل هذه هي أروع فترات صناعة النقش على الأحجار الكريمة حين يبذل الفنان قصارى عبقريته في تنويع الموضوعات المشتقة من الأساطير القديمة الهامة[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص 225.

(2) المصدر نفسه، ص 226.

(3) المصدر نفسه.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 222/6.

(5) ديلابورت: المصدر السابق، ص 227.

(6) المصدر نفسه، ص 227 - 228.

وفي عصر غوديا وملوك أور كانت تفضل المناظر الدينية التي كانت يمثل فيها المرء وهو يتعبد أمام المعبود عن طريق إلهه الخاص الحارس[1]. وظلت الحال كذلك خلال حكم ملوك الأسرة البابلية الأولى. ولكن في أثناء الفترة الكاشية نرى الموضوع يقتصر في كثير من الأحيان على تصوير شخص واحد فقط أو بضعة رموز مقدسة. وتغلب الكتابة على الرسم وتتضمن عادة دعاء للمعبود التماساً لعونه وحمايته ودعاء له ليمد في عمر صاحب الختم[2].

وبعد هذه المرحلة نرى الختم الاسطواني يفسح الطريق من جديد للختم المسطح الصغير الذي ظهرت فيه المناظر المميزة للبابلية الجديدة، ومنها صورة كاهن يقوم بشعائر الصلاة ويداه مرفوعتان أمام المذبح الذي توضع فوقه رموز مقدسة.

ولم تنتشر عادة استعمال الأختام الاسطوانية في عهد الاشوريين كما انتشرت في عهد البابليين. ولعل مرجع ذلك يعود إلى عدم ضرورة وجود الشهود للشهادة على العقد. والأختام الأسطوانية المتبقية من هذه الفترة قليلة، والموضوعات المحفورة فيها دينية في أغلب الأحيان، إلا أنه وجدت بعض الأختام وعليها موضوعات من الحياة كالصيد الملكي أو الحروب[3]. وهنا مناظر أسطورية تمثل الصراع بين الجن وحيوانات حقيقية أو خرافية. وقد عاد الختم المسطح للظهور كذلك في آشور في الألف الأول ق.م، ثم أصبح استعماله في الدولة البابلية الجديدة واجباً حتى استطاع في عهد السلوقيين أن يطرد الأختام الأسطوانية من الشرق كله. وكان هذا الختم يصنع عادة على شكل مخروط ناقص ذي قاعدة إهليلجية واستدارة عند القمة[4].

3 - الفنون الصغرى

عثر المنقبون في مقابر أور الملكية على كنوز لا تثمن من الفنون الصغرى السومرية في عصر فجر السلالات.

---

(1) المصدر نفسه، ص 229.

(2) المصدر نفسه، ص 230.

(3) المصدر نفسه، ص 411.

(4) المصدر نفسه، ص 412.

ونخص بالذكر منها النفائس الفنية من أواني الذهب وخناجر الذهب والخوذ المصنوعة من الذهب وأشهرها الخوذة الذهبية العائدة إلى الأمير السومري "مس كلام دك" المعروضة في المتحف العراقي، وكذلك القيثارة الذهبية ورؤوس الحيوانات المسبوكة من النحاس والبرونز، وكل ذلك يدل على ما وصل إليه فن الصياغة وسبك المعادن من تقدم[1].

وبرعوا في فن التخريم براعة مدهشة كما يشاهد في غمد الخنجر الذهبي المعروض في المتحف العراقي ومقبضه من حجر اللازورد، وقد عثر عليه في مقابر أور الملكية ويعود تاريخه إلى فجر السلالات الثالث 2600 ق.م[2].

ومن الصناعات الدقيقة التي برع بها السومريون في عصور فجر السلالات فن التطعيم أو التكفيت، وقد بدأ هذا الفن الجميل في طور جمدة نصر. فكانوا يطعّمون الحجر والأخشاب وغيرها بمواد أخرى جميلة كالمحار والصدف وحجر اللازورد والبلور بألوان مختلفة. وكان الفنان يؤلف من هذه الأحجار التي يطعّم بها المواد الأخرى طرزاً وأشكالاً بديعة، كالأشكال الهندسية، ومناظر الحرب والحوادث الأسطورية والحفلات الدينية، كما يشاهد في مقدم القيثارة الذهبية المعروضة في المتحف العراقي[3].

وتدل مخلفات البابليين من الفنون الصغرى على أنهم قد أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال. وأن قطع القرميد التي طليت وصقلت بأعظم عناية، والحجارة البراقة، وأدوات البرونز الدقيقة الصنع، والحديد، والفضة، والذهب، والتطريز الجميل، والسجاجيد الوثيرة، والثياب ذات الأصباغ الجميلة والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسي، إن هذه المخلفات كلها تخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق. والحلي التي عثر عليها كثيرة ولكنها تنقصها الدقة الفنية التي نشاهدها في حلي المصريين الأقدمين، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 484.

(2) المصدر نفسه، ص 484 و510.

(3) المصدر نفسه، ص 484.

الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل. ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب[1].

وقد حفز تدفق أسلاب الحروب والجزى على آشور وكالح ونينوى الفنانين والصناع الآشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونسائهم وللملوك وقصورهم حلياً مختلفة الأشكال. وإلى جانب الحلي المصنوعة من المعادن الثمينة كان الآشوريون يستعملون الخرز والحجارة الملونة والفصوص الثمينة ويصوغونها بشكل جميل ويلبسونها في آذانهم ورقابهم ومعاصمهم أو يزينون بها صدورهم وملابسهم. وقد عرفوا أنواع الطيوب والعطور والزيوت واستخدمها الأغنياء منهم بكثرة كما تدل على ذلك مخلفاتهم.

وكان الأثاث في القصور على درجة عالية من الفخامة، ولا سيما إذا قورن بالأثاث الذي كان مستعملاً في القصور البابلية.

وقد عرف الآشوريون العروش الضخمة والكراسي المحفورة والمزينة برؤوس الحيوانات، والأسرّة الناعمة الوثيرة، والمقاعد ذات الأذرع والوسائد. وكانت بعض قطع الأثاث تحلى بالذهب أو تطعم بالفضة والبرونز والأحجار الكريمة. ومن بين المخلفات الآشورية أيضاً آنية جميلة جداً مصنوعة من الزجاج أو المعدن أو الفخار، وهي مزينة بنقوش جميلة أو ملونة بالألوان الزاهية[2].

4 - الموسيقى

تدل صور الطبول والأبواق والصنوج والآلات التي عثر عليها المنقبون أن قدماء العراقيين عرفوا الموسيقى واستخدموها في شؤونهم الدينية والاجتماعية. فهناك مثلاً صورة عازف على القيثار في معبد تعود إلى زمن غوديا، وصورة أخرى مرسومة على شقفة مزهرية تمثل كاهناً يقرع طبلاً ترجع إلى ما بعد زمن غوديا بقليل[3].

---

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 244/2.

(2) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 232.

(3) هامرتن: تاريخ العالم. 614/1.

وتشير بعض الألواح إلى أن حفيدة نارام سين المدعوة "ليبوش ياد" كانت عازفة على القيثارة للإله سين[1].

وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة: ناي، وطبول، وقرون، ومزامير من القصب، وأبواق، وصنوج، ودفوف[2]. وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين في الهياكل والقصور وفي حفلات الأثرياء[3].

ومن العصر الكاشي مُثّلت على كودورو امرأة تحمل جعبة وقوساً في موكب من الكهنة الموسيقيين وهي تضرب على طبلة[4].

وعرف الكلدانيون الموسيقى وطوروها حتى أصبحت علماً له أصوله وقواعده[5].

ولسنا نعلم كيف كانت الأنغام الموسيقية ولكن وجدت ألواح من الطين بعضها على هيئة اسطوانات مثقوبة فيها بعض الرموز الغريبة رأى بعض الباحثين أنها "نوطة" موسيقية وأن إحداها تمثل ترتيلة سومرية خاصة بخلق الإنسان[6].

وكان في المعابد نوع من الكهنة هم المغنون والمرتلون الذين ينشدون التراتيل الدينية.

ويعرف الكاهن الذي يناط به تخفيف الغضب عن قلوب الآلهة بغنائه باسم "كالو". ويدعى كبير كهنة الكالو باسم "كلاماه". وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والأدوات النحاسية. وهناك في المعبد كاهنات مغنيات وعازفات في جوقة المعبد الموسيقية[7].

وكانت في المعابد غرف خاصة تعلم فيها الكاهنات الموسيقى للفتيات الراغبات في احترافها[8].

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 191.

(2) ديورانت: المصدر السابق، 244/2.

(3) المصدر نفسه.

(4) ديلابورت: المصدر السابق، ص 191.

(5) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 175.

(6) باقر، طه: المصدر السابق، ص 485.

(7) انظر موضوع الديانة في بلاد ما بين النهرين، في الفصل التالي ص 441.

(8) هامرتن: المصدر السابق. ص 567.

الفصل الخامس والثلاثون

الديانة

بدأت التصورات الدينية تتكون في بلاد ما بين النهرين في عصر ما قبل الأسر، العصر الحجري الحديث (النيوليتي). وقد حافظ قدماء العراقيين حتى في عهودهم التاريخية على معتقدات حيوية يرقى تاريخها إلى عصر المجتمع البدائي وفيها عبادة أرواح خيرة أو خبيثة تحكم الظواهر الطبيعية وترسل الأمراض والموت وتساعد في عملهم وفي حياتهم.

ومن بين المكتشفات الأثرية الهامة التي عثرت عليها مديرية الآثار العراقية عام 1943 – 1944م. في "تل حسونة" دمى طينية على هيئات مختلفة منها صور حيوانية كانت تستعمل في العبادة والتبرك[1].

والديانة في بلاد الرافدين، كما تظهر في نصوص الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد، تركيب من عناصر سومرية وسامية. وقد تطورت المفاهيم الدينية تحت تأثير التحولات الاقتصادية – الاجتماعية والتبدلات السياسية. فمع الانتقال من مرحلة الصيد وجمع القوت إلى مزاولة الزراعة وتدجين الحيوان (تربية الماشية) تطورت الديانة من الطوطمية فالحيوية إلى عبادة القوى الطبيعية ومن ثم إلى مبدأ التفريد أي خص إله ما بالتعظيم والعبادة وجعله سيد الآلهة. وصارت الآلهة بشراً تصور على شاكلة إنسان بعد أن كانت في السابق تصور على شاكلة حيوان.

(1) د. بصمه جي، فرح: دليل المتحف العراقي، ص 55.

ويرجح كثيراً أن عبادة الشمس بسبب أثرها في الزراعة قد بدأت على هيئة إلهة بعد عبادة "الأم الأرض" إلهة الزراعة ورمز الخصب كما تدل على ذلك دمى الطين التي وجدت في "جرمو" و"حسونة" وكثير من مستوطنات العصر الحجري الحديث وهي تمثل امرأة بدينة مبالغ في حجم ثدييها[1].

ومع إنتاج القوت فإن الإنسان لم ينبذ السحر كما تدل على ذلك التعاويذ المصنوعة من الحجر، والواقع أنه ظل يمارسه حتى في عهوده التاريخية. فإنه إذا كان بحاجة إليه لضمان جمع قوته بالصيد في طور جمع القوت فإنه وجده ضرورياً أيضاً لضمان إنتاج قوته باسترضاء القوى الطبيعية والعلوية التي صار يجسّمها على هيئة آلهة[2].

لقد عكست ديانة قدماء العراقيين الطبيعة المحيطة بهم ومختلف جوانب حياتهم. فبوسع الكاتب أن يستشف من الغلاف الأسطوري لقصة الخليقة البابلية أموراً تتعلق بالأحوال الجغرافية لبلاد ما بين النهرين. فالمياه الأولى التي كانت تغمر القسم الجنوبي من العراق والصراع بين بطل الآلهة الجديد "مردوخ" وآلهة الماء العتيقة وعلى رأسها "تيامة" إنما تعكس في واقع الحال صراع العراقيين القدماء مع بيئتهم الطبيعية وتغلبهم عليها بإنشاء أولى الحضارات البشرية. وفي ملحمة جلغامش، خصصت اللوحة الحادية عشرة لذكر حادثة الطوفان الكبير المخرب، كما يجد المرء في الأسطورة صورة رائعة عن الحياة البدائية وكيفية تدرجها إلى طور الحضارة[3]. وترمز أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي (عالم الأموات) بحثاً عن زوجها الميت تموز ثم بعثه وعودة ظهوره على الأرض إلى تبدل الربيع بالشتاء ونمو الحبوب المزروعة بعد أن دفنت في الأرض. وهذا يعني انتصار الحياة على الموت. وبوسع القارئ أن يستشف أيضاً من الأطر الأسطورية الدينية أموراً تتعلق بنظام الأمومة والانتقال منه إلى نظام الأبوة عندما أصبح الرجل يلعب الدور الرئيس في الزراعة بعد أن كانت المرأة تقوم بذلك في بدء مرحلة الانتقال من حياة الصيد إلى الزراعة. وقد

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 44.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) انظر: ملحمة جلغامش، ص 363 وما بعدها.

عكست الديانة تفسخ المشاعة العشيرية وظهور التمايز بين الأفراد في الثروة والحقوق ونشوء المجتمع الطبقي وتأسيس دويلات - المدن العبودية فالدولة العبودية المركزية الموحدة. فعندما كان نظام الديموقراطية العشيرية لا يزال سائداً في سومر وأكاد، ظل كذلك معمولاً به في المجال السماوي بين الآلهة. فمثلاً كان على الإله آنليل أن يحصل على موافقة الآلهة الأخرى من أعضاء المرتبة الأولى لإقرار فكرته حول الانتقام من الشر بالطوفان. ومع ازدياد الفروق في الثروة بين أعضاء القبيلة وظهور الطبقات الاجتماعية المتناحرة وتأسيس الدولة العبودية، تحل علاقات الاستغلال والاضطهاد محل علاقات المساواة والتضامن، ويركز الملك جميع السلطات السياسية والاقتصادية والدينية في يده. هذه النظم والعلاقات الجديدة تنتقل إلى المجال السماوي أيضاً، فلم يعد الإله الأعظم يشبه رئيس القبيلة، إنما أصبح سيداً مطلقاً يملك سلطة غير محدودة. فالإله "آنليل" صار يسمى الآن سيد الأرباب الرهيب الذي لا يجرؤ أحد من الآلهة على أن ينظر إليه ويخالف أمره[1]. وحل الإله مردوخ في عهد الإمبراطورية البابلية القديمة والإله آشور في عهد الإمبراطورية الآشورية مكان آنليل السومري - الأكادي في مرتبة السيادة على الآلهة الآخرين.

وقد وضع السومريون -الأكاديون نظرية أسطورية حول نشوء الكون، اقتبسها منهم فيما بعد البابليون والآشوريون والكلدانيون مع بعض التعديلات التي حتمتها التبدلات السياسية. فعندما عظمت مملكة بابل في زمن حمورابي وأصبحت عاصمة الإمبراطورية البابلية رفع حمورابي مردوخ إله بابل المحلي إلى المرتبة الأولى بين الآلهة، وتألفت أناشيد جديدة من القصص القديمة تتفق والوضع الجديد، وعدّل الكهنة قصة الخليقة السومرية[2] وجعلوا مؤداها أن مردوخ هو الذي هزم تيامة فكافأته الآلهة بالسلطة المطلقة على جميع الكون وجعلوه ملكاً عليهم، وحصل مردوخ على لقب "بعل" الذي كان حتى ذلك الوقت للإله آنليل، أي سيد وملك الآلهة... كل الآلهة... كل آلهة السماء والأرض... وكلمته

(1) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 137.

(2) انظر: قصة الخليقة، ص 354 - 363.

تخلق الخلق أو تمحوهم. وقد عممت السلطة المركزية في بابل عبادته في جميع أنحاء الإمبراطورية لما في ذلك من دعم لها. والإله مردوخ هو، بعد ذلك، الذي يمنح العرش والصولجان للملوك كرب للعالم وكإله وطني. ومنحه أبوه "أيا" اسمه آلا فليسمّ "أيا" مثلي. وكانت له بالإضافة إلى ذلك كل الحكمة بدليل أن "أيا" قال له: "أي بنيّ! ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت أيضاً" وهذا هو السبب الذي اعتبر من أجله، مثل أبيه، ساحر الآلهة وإله الكهنوت وخالق البشر. وكان يمثل بأذنين كبيرتين ترمزان إلى فهمه الكبير ويحمل السلاح المقدس الذي قهر به تيامة وتحت قدميه الوحش الذي أخضعه. وكانت الحربة رمزاً له على كودورو العصر الكاشي والأختام البابلية الجديدة[1]. ومن أجله بني الـ"ايساكل" (معبد الإله مردوخ في بابل). وكان آلهة بابل وبورسيبا يأتون سنوياً في يوم عيد السنة الجديدة ليقدموا إليه ولاءهم. وفي اليومين الثامن والحادي عشر من الاحتفالات كان الآلهة يجتمعون ويحيّون مردوخ في رهبة ويركعون أمامه ويمنحونه السلطات في تقدير مصائر الكون والناس للعام الجديد.

وزوجة مردوخ هي "ساربانيتو" ولها في "إيساكل" هيكل خاص. وتبدو كـ"سيدتي" في عيد رأس السنة. وهي تدعى من زوجها للخروج في رأس السنة من قدس الأقداس، ليتقدما موكب الآلهة الذين يؤتى بهم لتقديم الولاء ولتحديد المصائر والأقدار كما تقدم.

وفي عهد الأسرة البابلية الجديدة بلغت عبادة مردوخ الذروة. فقد ظل يمثل السلطة الإلهية العليا التي تحكم العالم وتتحكم في مصير البشر وتتوج الملوك وتسير التاريخ. وهو الإله الأكبر للدولة والشعب يحتفل بعيده في رأس السنة البابلية حيث يجدد سنوياً مآسيه وانتصاره في النضال من أجل بعث الطبيعة والحياة في الكون. وقد أقيمت أو جنّدت لتمجيده المعابد وكثر لخدمته كهنتها وأملاكها المهداة من أفراد الشعب والملك على السواء.

وعندما سيطر الآشوريون على بلاد ما بين النهرين وأنشأوا دولتهم العسكرية وضعوا إلههم آشور في مرتبة السيادة وأصبح إله الحرب والنصر بعد أن كانت وظائفه زراعية.

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 172.

كان الإلـه آشـور مثـل الإلـه مـردوخ فـي أول أمـره إلهـاً محلياً لمدينة آشـور أقـدم العواصم الآشـورية. وعندما أسـس الآشـوريون مملكة قوية سـيطرت على رقعة واسـعة من منطقة الشـرق الأوسـط، عظم شـأن إلههـم آشـور وصـار علـى رأس الآلهـة البابليـة والآشـورية. وفـي النـص الآشـوري لقصـة الخليقة السـومرية القديمـة نجـد الإلـه آشـور قد اسـتأثر بصفة خلق الكون والإنسـان ثم أصبـح إله العالم بعـد أن انتصر على آلهـة الشـعوب الأخـرى المغلوبـة. ولكـن الصفـة الحربيـة القاسـية تغلـب عليـه نظـراً الـى طبيعـة بلادهم الجبليـة القاسـية، والطابـع المميـز للدولـة العسـكرية التـي أنشـأها الملـوك الفاتحـون بالقـوة والعنـف بالاعتمـاد علـى الجيش والأرسـتقراطية العسـكرية.

وكان يمثـل دائمـاً مسـلحاً بقـوس في وسـطه سـهم كدليل علـى قوته وجبروتـه. وكانت زوجته عشـتار الآشـورية محاربـة كزوجهـا. ويسـميها آشـور "ريـش - إيشـي" (بطلة المعـارك التي لا تبقي علـى واحد من أعـداء آشـور). وآشـور مثـل مردوخ، يـرأس مجمع الآلهـة ليحدد مصائر البشـر.

وكان الملـوك الآشـوريون يقدمـون عنـد العـودة مـن كل حملـة "تقاريـر" فـي صـورة خطـب موجهـة إلـى الإلـه آشـور لإبلاغـه النجـاح الـذي تـم علـى العـدو، كمـا كانـوا يخصصون لـه جزءاً مـن غنائـم الحرب ويقطعـون الأراضـي للمعابـد ويقدمـون لهـا الأمـوال[1].

وأسـبغ الآشـوريون علـى آلهتهـم صفـات ومزايـا إنسـانية كمـا فعل مـن قبلهـم السـومريون والبابليون. فهـم يتزوجـون وينجبـون ويعقـدون الاجتماعـات ويحاربـون ويرضـون ويغضبـون. وصوروهم على شـاكلة الإنسـان وهـم يحملـون أسـلحة وأدوات مختلفة[2].

كان عـدد الآلهـة المعبـودة فـي بـلاد الرافديـن كبيـراً جـداً، لأن الأهليـن كان لهـم فـي خلقهـا خيـال واسـع لا ينضـب معينـه[3]. وقـد أحصـي عـدد الآلهـة إحصـاء رسـمياً فـي القـرن التاسـع قبـل

(1) انظر: الأدب التاريخي، ص 377 - 382.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 160.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 213/2.

الميلاد فكانوا حوالى 65000 [1]. فلكل مدينة أو قرية أو حي إله أو إلهة تحميها. وبعض الآلهة كانت تعبد في جميع أنحاء البلاد، وبعضها كانت آلهة محلية.

وقسم الكهنة الآلهة إلى مراتب، فوضعوا في المكانة الأولى "الآلهة العظام" الذين كانوا في السابق المعبودات المحلية لمدن سومر وأكاد. وفي الألف الثالث قبل الميلاد جمعوها في الثالوث الأعظم: أنو، وأنليل، وأيا. وقد خصوا الأول بمملكة السموات والثاني بمملكة الأرض والثالث بمملكة البحار ومياه العالم السفلي.

وإلى جانب هذا الثالوث، كان لديهم مجموعة أخرى من المعبودات معترف بها في جميع أنحاء البلاد، مثل: إله الشمس - شماش (إله مدينة سيبار). وإله القمر - سين (إله مدينة أور)، وإلهي الزراعة، دوموزي (تموز) وزوجته عشتار.

يعتبر دوموزي أشهر آلهة الزراعة ويمثل حياة الربيع والخصب ويعرف خصوصاً باسم تموز. واسمه البدائي لدى السومريين (دوموزي - زي - آبزو) أي ابن آبزو الحقيقي أو الابن الحقيقي. وله معابد وتماثيل منتشرة في أماكن متعددة، وكانت تقدم له تقدمات من حيوانات وزبد وعسل وبلح وزيت ونبيذ وأسماك ودقيق إلخ... ويحمل اسمه سادس الشهور في تقويم لاغاش والثاني عشر في تقويم أومّا. وأما إذا بدأت السنة بشهر نيسان/ أبريل فترتيب شهره هو الرابع[2].

ويبدو في قوائم الأسر الأركية كإله للصيد. وقد ورد ذكره في اللوحة السادسة من ملحمة جلغامش حين كان هذا يعيّر عشتار بكثرة عشاقها... "الإله تموز... حبيب شبابك... عاماً بعد عام... قدرت له الندب والبكاء"[3].

---

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 143/6.

(3) يشير هذا إلى العيد السنوي الخاص بالنوح على تموز إله الخضار والنبات والربيع. وقد اعتقدوا فيه أنه ينزل إلى عالم الأموات في كل خريف ويظل هناك حيث يقوم ويرجع إلى الحياة مع بشائر الربيع. وتصف قصة بابلية نزول عشتار إلى العالم الأسفل لإرجاع حبيبها تموز الذي مات بسبب حبها. باقر، طه: المصدر السابق، ص 463.

وفي نصوص دوموزي المتصلة بالبكاء عليه ورثائه نلتقي ما يشير إلى نزوله إلى "أرض الموت". وتشير أسطورة "نزول عشتار إلى الجحيم" إلى أن الاحتفال بعيد شهر تموز كان يتفق وموعد الرحلة إلى العالم السفلي[1].

وقد حفظت لنا مجموعة ضخمة من أصل سومري لتراتيل كانت تنشد لذكرى موت دوموزي. وفي صلته بالحقول والمراعي نلتقي لقبه "راعي" فهو "سيد سكن المراعي" وهو "سيد البساتين". ومنذ ذهابه إلى الأرض التي لا رجعة منها "تصبح الحملان والماعز وغيرها عرضة للنهب، ويسود القحط الحقول، لأن نزوله يوقف الإنتاج الزراعي"[2].

وكان دوموزي يولد من جديد في ربيع كل عام "هو يستقر صغيراً في إناء يغوص ثم ينام كبيراً في حصاد المحصول ويظل راقداً فيه"[3]. ففي شهر الصيف المكرس له حين يلقي الحاصد آلة حصاده ويجمع السنابل في الحزم يطعن خنزير بري تموز طعنة قاتلة فيهوي كما يهوي جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض. واسمه "آراللو" عند البابليين، وكانت تحكمه "إرشكيفال" أخت عشتار التي كانت تغار منها وتحسدها. وتحزن عليه عشتار، وتكرر النساء الولولة السنوية:

إلى متى ستظل الحبة أسيرة؟

إلى متى ستظل الخضرة مقيدة بالسلاسل؟

ويبرّح الحزن بعشتار، فتتقدم للنزول إلى "آراللو" الأرض التي لا رجعة منها، لتعيد الحياة إلى تموز، وذلك بأن تغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية. وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم في جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها بالدخول:

فلما سمعت إرشكيفال هذا

كانت كمن يقطع الطرفاء ارتجفت

وكما يقطع الإنسان قصبة اضطربت

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 144/6.

(2) المصدر نفسه، ص 144 – 145.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 174.

إذهب أيها الخازن، وافتح لها الباب

وعاملها بمقتضى القرار القديم.

وهـذا القـرار القديـم يقضـي بـألا يدخـل "آراللـو" إلا العـراة. وعلى هـذا فإن الخـازن يخلع عن عشـتار ثوبـاً مـن ثيابهـا أو حليـة مـن حليهـا عنـد كل بـاب يتحتـم عليهـا أن تجتـازه. فيخلـع عنهـا أولاً تاجهـا، ثـم قرطيهـا، ثـم عقدهـا، ثـم حليـة صدرهـا، ثـم منطقتهـا ذات الجواهر الكثيـرة، ثم الزركشـة البراقـة التي في يديهـا وقدميهـا، ثـم يخلـع عنهـا آخـر الأمـر منطقـة حقويهـا، وتمانع عشـتار فـي رقة، ثـم تخضع:

فلما نزلت عشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكيفال وأغضبها مجيئها

وألقت عشتار بنفسها عليها من غير تفكير، وفتحت إرشكيفال فاها وتحدثت

إلى نمتار رسولها

اذهب يا نمتار، واسجنها في قصري،

وسلط عليها ستين مرضاً،

مرض العيون على عينيها،

ومرض الجنب على جنبيها،

ومرض الأقدام على قدميها

ومرض الرأس على رأسها،

على جميع جسدها[1].

وبينمـا كانـت عشـتار حبيسـة فـي الجحيـم، شـعرت الأرض بأنهـا فقـدت مـا كان يوحـي بـه إليهـا وجودهـا علـى ظهرهـا. فلـم يعـد النبـت يلقـح النبـت وذبلـت الخضـر، ولـم تشـعر الحيوانـات بحـرارة، وأخـذ السـكان يتناقصـون، وارتاعـت الآلهـة حيـن رأت نقـص مـا ترسـله الأرض مـن القرابيـن، واسـتولى عليهـا الذعـر، فأمـرت إرشـكيفال أن يطلـق سـراح عشـتار، وتصـدع

(1) ديورانت، ول: المصدر السابق، 2/219 – 220.

إرشكيفال بأمر الآلهة، ولكن عشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها زوجها تموز. وتجاب إلى طلبها. وتجتاز وهي ظافرة الأبواب السبعة، وتتسلم منطقة حقويها ثم الزركشة البراقة التي كانت على يديها وقدميها، ثم منطقتها ثم حلي صدرها، وعقدها وقرطيها، وتاجها. فلما ظهرت وتموز على الأرض نما النبات وأينع من جديد. إن قصة موت تموز وبعثه ترمز إلى تجدد الحياة في النبات، وهذا يعني انتصار الحياة على الموت[1].

وعلى الرغم من أن عبادة تموز لم يكن لها محل كبير في العبادات الرسمية، إلا أنها كانت منتشرة بين الشعب، وترجع في أصلها إلى عهد قديم في حضارة وادي الرافدين، وكانت مقرونة في أغلب الأحيان بعبادة الإلهة عشتار[2].

أما عشتار فهي إلهة الحب والنبات والخصب في الميتولوجيا الشعبية، وكوكب الزهرة في الميتولوجيا الرسمية. عرفها السومريون باسم "إنينا" أو "إرنينا" (سيدة السماء). وعرفها الساميون الأكاديون تحت اسم "عشتار" وهي ابنة سين وأخت شماش. ورقمها 15 فهي تلي شماش مباشرة. وهي الشجاعة بين الآلهة والإلهات، وهي سيدة المعارك عند غوديا وحمورابي. وهي في بابل ملكة لها بابها التذكاري وشارعها ومعبدها. وخصها الآشوريون بالتقديس ولا سيما بصفتها الحربية لأنها إلهة الحرب والطعان. وكانت محاربة كزوجها آشور يسميها آشور "ريش إيشي" (بطلة المعارك تلك التي لا تبقي على واحد من أعداء آشور) [3]. وذكر بعض ملوك آشور أنها سارت معهم في طليعة جيوشهم وحققت لهم النصر[4]. وتمثلها النقوش وهي تحمل قوساً بيد وسيفاً بيد أخرى وعلى كتفيها جعاب تحوي السهام[5]. وكان

(1) المصدر السابق، ص 221.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 253.

(3) ديلابورت: المصدر السابق، ص 382.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 253.

(5) د. حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق، ص 225.

الأسد حيوانها المقدس بصفتها إلهة حرب كما نعتوها "باللبوة الضارية"[1]. وكانت تسمى في معظم الأحيان "بعليت" (السيدة أو الملكة) وتحتل بعد آشور أهم مكانة في مجمع الآلهة الآشورية[2]. وهي ربة العشق ملكة اللذة... السيدة... خالقة البشر... مؤلفة العالم والبشرية. ولقد استطاعت أن تطغى على اختصاصات غيرها من المعبودات في سومر وأكاد وآشور، وهي زوجة وعشيقة لكبار الآلهة آنوم وآنليل وآشور، وهي التي تحدد مصائر البشر[3]. وقد صحبت الأكاديين والبابليين والآشوريين في توسعهم الإمبراطوري[4].

وخلاصة القول: إن تموز وعشتار كانا إلهي النبات والخصب. وفي كل سنة كان يحتفل بأعياد موت تموز وبعثه. وكان يصحب هذه الاحتفالات طقوس وأسرار تصور بكاء عشتار على زوجها ونزولها إلى الأرض التي لا رجعة منها وكفاحها ضد إرشكيفال إلهة مملكة الظلام ثم عودة تموز وعشتار إلى الأرض.

وفي المشاعيات المتجاورة، كانت هذه الأعياد تشير إلى بدء الأعمال الحقلية ونهايتها. وكانت الشعائر الدرامية التي يقوم بها جميع المشاعيين تحت إشراف الكهنة إنما تهدف، حسب اعتقادهم، إلى ضمان نجاح الزرع وجني محصول جيد. وأما في المدن الكبرى، فكانت الاحتفالات الشعبية تنتهي بأبهة عظيمة وتقديم قرابين كثيرة[5].

وكانت عبادة القمر والشمس في الريف العراقي القديم تتصل أيضاً بالإنتاج الحيواني والزراعي: عبادة القمر للرعي والشمس للزراعة. أما في مجمع الآلهة الرسمي فكان شماش يمارس وظائف العدالة.

عرف السومريون والبابليون إله القمر تحت اسم سين، وسموه أيضاً "نانار" أو "ننا" ومعناه "رجل السماء". وكان يقيس الزمن ورقمه الحسابي 30 فهو يلي "أنكي، أيا" في ترتيب

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 253.

(2) ديلابورت: المصدر السابق، ص 382.

(3) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 133/6.

(4) المصدر نفسه، ص 134.

(5) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 127.

المعبودات، والرقم 30 يعني تمثيل الشهر تمثيلاً كاملاً فهو بذلك "سيد الشهر". وخص إله القمر بمدينة أور منذ أقدم الأزمان، وشيد له فيها معبد شهير ولا تزال بقايا الصرح المدرج (الزقورة) باقية. واشتهر الإله القمر بالحكمة ويشترك مع إله الشمس شماش في شؤون العدالة. وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التي تطيّر منها البابليون. وجاء في بعض الكتابات السحرية أن خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين أو أرواح شريرة على القمر. وكانوا يصلون للإله عند الخسوف ويقدمون القرابين حتى يظهر مضيئاً مرة أخرى بعد أن يقهر الشياطين والظلام أي الموت[1].

ويمثل الإله القمر بهلال وحده أو بهلال مع صورة هيئة البشر. وخصصوا له زوجة هي "ننغال" (السيدة العظمى) وعبدت معه في معبد أور وقد ولد لهما شماش (الشمس) وعشتار (الزهرة).

انتشرت عبادة سين من أور إلى كل كلديا وإلى حاران السوريا ومنها إلى فينيقيا. وقدس البدو الآراميون والبدو العرب كوكب الليل الذي يحدد لهم الزمن. وليس ببعيد أن تكون كلمة سينا مشتقة من اسمه سين.

أما إله الشمس شماش فيلي القمر في المنزلة، وقيمته العددية 20. وقد ولدت الشمس من القمر بحسب العقائد البابلية. عرفه السومريون تحت اسم "أوتو" ومعناه (الضوء والنور واليوم) ودعوه كذلك "يبار" أي النيّر وسماه الساميون باسم الشمس أي "شماش"[2].

عُبِد شماش بوجه خاص في مدينتي لارسا (سنكره) وسيبار (أبو حبة). وقدسه الآشوريون وشيدوا له بعض المعابد، وعُبدت معه زوجته "العزيزة" (آي) [3] وأفضل أسمائها هو "العروس" فهي عروس شماش[4].

وكان شماش فوق كل شيء القاضي الأعظم وسيد الكهانة والعرافة... وكان له طفلان

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 251.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 252.

(4) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 129/6.

هما "كِنّو" و"ميشار" أي العدالة والحق. وخلال الأسبوع المكرس لمعبد لاغاش نرى غوديا يشير إلى أن الشمس "تضيء على العدالة والإله أوتو يطأ بقدميه الظلم"[1]. ولقد أملى شخصياً قوانين العدالة على أورانجور وحمورابي[2]. وكثيراً ما كان يمثل برمز قرص ذي أربعة خطوط تنبعث منها حزم الأشعة ومثلوه أيضاً بهيئة آدمية كما صُوِّر في أعلى مسلة حمورابي على هيئة ملك جالس على عرشه وفي يمناه عصاً وحلقة (رمزا الملكية) وتاجه مزين بأربعة أزواج من القرون وتنبعث من كتفيه حزم الأشعة، وله لحية تتدلى على صدره[3] وينعت بأنه مضيء البلاد... هو ضوء العالم... ضوء الأعالي والأعماق. وهو الذي يولّد النهار من الليل ويجلو الدجى ويهب الحياة ويحيي الموتى[4] ولأنه ينير بضوئه الظلمات فهو إله العدل والحق والشرائع[5].

وإذا ما عرفنا أن الإلهة عشتار هي كوكب الزهرة (فينوس) في الميتولوجيا الرسمية، فإن الكهنة أنشأوا بهذا الشكل المجموعة الأولى من الآلهة الفلكية: سين، وشماش، وعشتار[6].

وإلى هذه الأجرام وغيرها، كانت تنسب الأحداث السعيدة أو السيئة التي تحدث بالبلاد، مثل الحملات الحربية والغزوات ومرض الأمير أو موته والقحط والفيضان إلخ[7]. وقد أضيفت إليها الظواهر الجوية كالزوابع والأمطار والبروق والزلازل كظواهر للإله "أدد" سيد العاصفة[8].

ولم تكن الديانة في بلاد الرافدين محدودة في إطار عبادة "الآلهة العظام" والمعبودات

---

(1) المصدر السابق 129/6.

(2) ديلابورت: المصدر السابق، ص 170.

(3) باقر، طه: المصدر السابق، ص 252.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق، ص 127.

(7) ديلابورت: المصدر السابق، ص 189.

(8) المصدر نفسه.

الزراعية فحسب، فقد عبد الشعب ومُلاّك العبيد أرواحاً كثيرة، أرواحاً خيرة وأرواحاً شريرة، اعتقدوا أنها تحكم ظواهر الطبيعة، وتبعث الأمراض والموت، وتساعد الناس في عملهم وفي حياتهم. وبين هذه الأرواح، نشير إلى أرواح الأنهار والقنوات، حيث كانت عبادتها تمارس على السواء في المشاعيات وفي الديانة الرسمية. وهناك الأرواح المستأنسة حارسات المحرق، وأرواح الموتى التي فارقت أجسادها بعد الموت وخرجت من عالم الأرواح فصارت نوعاً من الشياطين يؤذي البشر. ومن أسباب ظهورها عدم دفن الميت أو دفنه على غير السنّة المتّبعة أو عدم تقديم القرابين له أو نبش قبره وإخراج جثته فتخرج الأرواح على هيئة أشباح تحدث بالأحياء الأذى والضرر.

وأخيراً كان كل المجتمع في بلاد ما بين النهرين يعلق أهمية كبيرة على السحر الذي ارتبط بالدين منذ أقدم الأزمان. وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم "أيا" ثم "مردوخ" فيما بعد، وكانت التعاويذ تتلى خصوصاً لطرد الأرواح الشريرة[1].

وكان في كل مدينة معبد لمعبودها، وأما المدن الكبرى فكان في كل منها أكثر من معبد بالإضافة إلى الزقورة. ويخصص المعبد لمعبود المدينة الرسمي. وقد تضاف حجرات توضع بها تماثيل لمعبودات أخرى أقل أهمية بالنسبة إلى المعبود الرئيسي.

وكانت المعابد غنية تمتلك الأراضي الواسعة التي لا يجوز بيعها أو رهنها أو اغتصابها وإنما يمكن تأجير قسم منها لمصلحة المعبد، والقسم الآخر يستثمر مباشرة من قبل المشرفين على المعبد لتأمين حاجات ساكنيه[2].

وازدادت ثروة المعابد جيلاً بعد جيل كما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة[3]. ووقف الملوك على المعابد مساحات واسعة من الأرض، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام[4]. وكان يفرض على

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، ص 170.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 137.

(3) ديورانت، ول: المصدر السابق، 211/2.

(4) المصدر نفسه. ص 212.

بعض الأراضي أن تؤدي للمعابد ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة، فإذا لم تؤدها نزعت المعابد ملكيتها، وانتقلت هذه الملكية إليها في أغلب الأحوال[1]. وكان الأغنياء والفقراء على السواء يخصصون للمعابد من مكاسبهم الدنيوية القدر الذي يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة، وبذلك تكدس في خزائن المعابد الذهب، والفضة، والنحاس، واللازورد، والجواهر، والأخشاب الثمينة[2].

وإذا لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستنفدوها فقد حولوها إلى رأسمال منتج أو مثمر وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية. ولم يكن الكهنة يملكون مساحات واسعة من الأراضي فحسب، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيماً من العبيد ويسيطرون على مئات من العمال، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال أو يسخرونهم لخدمة المعابد بالعمل في حرف لا حصر لها، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمور[3].

كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ويساهمون بقسط موفور في تجارة البلاد. ولم يتورعوا من ممارسة الربا والتفنن في أساليب ابتزاز أموال الناس. وكانوا إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة، فكانوا يعملون في توثيق العقود، ويشهدون عليها، ويوقعونها بأسمائهم، ويكتبون الوصايا، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات[4].

وقد ساهمت المعابد أحياناً في دفع فديات الأسرى الذين لا يملكون الفدية اللازمة لاسترداد حريتهم، أو قدمت مساعدات للناس في سني القحط والمجاعات والمصاعب الكبرى[5].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه. ص 213.

(5) د. فرح نعيم: المصدر السابق، ص 137 – 138.

وكان الملك يعتبر الكاهن الأكبر أو رئيس الكهنة في البلاد، وهو نائب الإله على الأرض. وكان كبار كهنة المعابد الهامة شخصيات لها قدرها فكان يتطلع إلى شغل مراكزهم أبناء الأمراء. وكان رجال الكهنوت ينقسمون حسب مراتبهم ودرجاتهم إلى ثلاثة أنواع:

1 - السحرة: ومهمتهم استعطاف الآلهة وطرد الأرواح الشريرة وشفاء المرض عن طريق الرقى والسحر. وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم "أيا" ثم "مردوخ" فيما بعد[1]. والأمراض عادة ليست في اعتقادهم بسبب عضوي بل هي من فعل أرواح خبيثة يجب القضاء عليها عن طريق تلاوة التعاويذ[2]. وكان الساحر يستخدم إلى جانب التعاويذ أدوات أخرى معنوية يستعين بها على الإشفاء، منها تقديم الصلوات للمعبودات وسكب السكائب وتقديم التضحيات، أو أدوات مادية كدمية تكسر أو تحرق فيكسر أو يحرق نظيرها مما يراد عمل السحر ضده، أو يحرق[3].

2 - المنجمون والعرافون: ومهمتهم التنبؤ بالمستقبل وقراءة البخت بواسطة مراقبة النجوم والظواهر الطبيعية، أو النظر في أكباد الحيوانات (يعتبر كبد الحيوان في اعتقادهم مقر الحياة فهو يسمح للمرء أن يرى فيه نيات الإله الذي تقبل الحيوان المضحى كتقدمة)، أو دراسة انتشار نقطة من الزيت على سطح الماء[4].

وكانت معرفة الغيب أمراً مهماً لا في حياة الأفراد فقط بل في الأمور العامة كذلك، فلم يكن الملك يقبل على أمر مهم دون استخارة المعبود[5]. وكانت مهام المنجم وراثية ويجب ألا يكون فيه عيب جسماني[6].

3 - المغنون والمرتلون: الذين ينشدون التراتيل الدينية. ويعرف الكاهن الذي يناط به أن

---

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 170/6.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 171.

(4) ديلابورت: المصدر السابق، ص 185 – 186.

(5) المصدر نفسه، ص 184.

(6) المصدر نفسه، ص 185.

يخفف الغضب عن قلوب الآلهة الغضبى بغنائه باسم "كالو" ويدعى كبير كهنة الكالو باسم "كلاماه"[1]. وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والأدوات النحاسية. وكان من اختصاصات كهنة الكالو ممارسة طقوس التضحية عقب إعلان الفأل[2]. وهناك كاهنات من النساء ساحرات وعرافات ومغنيات وعازفات في جوقة المعبد الموسيقية.

والكاهنات في المعبد على درجات مختلفة أيضاً: "كالناديتو" و"الزيكروم"، و"القادشتو" (العاهرات المقدسات) وتعرف الواحدة منهن في العهد الآشوري باسم "قادلتو" و"العشتاريو" (بنات الهوى) و"شركاتو" المنذورات[3].

وكان للكاهنة مكانها الملحوظ في المعبد وملحقاته. وقد حددت القوانين أوضاعهن وحقوقهن.

وكان الكهنة يتمتعون بنفوذ واسع في المجتمع، إذ إنهم كانوا يملكون السلاح الماضي، سلاح العرافة في الحياة الدينية. والموارد المدرارة للمعابد كانت تتضخم بصورة دائمة بواسطة العمليات الربوية.

وكانت الضحايا والقرابين تقدم على شرف الآلهة وخصوصاً في أيام الأعياد. وتوضع ضحايا المؤمنين عادة على مذبح القرابين، فيأكل الكهنة وخدام المعبد القسم الأكبر من اللحم أو الخبز أو غيره من المنتوجات المقدمة للآلهة. أما الضحايا البشرية فاعتباراً من الألف الثالث قبل الميلاد حل محلها ذبح الخراف[4].

وكانت القرابين المنتظمة العامة تختلف بالضرورة تبعاً للموارد التي كانت تحت تصرف كل معبد وحسب مكانة المعبود أو المعبودة. وكانت الصحاف الرئيسة تقتضي وجود 21 خروفاً عمر الواحد منها سنتان، وأربع نعاج أطعمت باللبن و25 نعجة من المرتبة الثانية، وثورين وعجل رضيع و8 حملان و60 طيراً من نوعين مختلفين و3 دجاجات و7 بطات و4 خنازير من المستنقعات و3 بيضات لورمو و3 بيضات من بيض البط. وكانت وجبات

---

(1) المصدر نفسه، ص 182.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 173/6.

(3) المصدر السابق، ص 174 – 175.

(4) د. فرح نعيم: المصدر السابق، ص 137.

الصباح هي الأكثر أهمية فكان لإفطار الصباح 18 نعجة وثور واحد وعجل رضيع. وللغداء 6 نعاج والثور الآخر والحملان ومعظم الدواجن والبيض. وأما وجبة العشاء فعشر من النعاج ومثلها من الطيور[1].

وقد ورد في نص محفور في الصخر في وادي باريشا بلبنان يرجع تاريخه إلى عهد البابلية الجديدة ما يلي: يقول نبوخذنصر: "لقد أمرت بأن يحضر كل يوم على مائدة مردوخ والساربانيتو حيوانان سمينان، ثور كبير مليء الجوانب كامل الأعضاء ذو جسم نقي لإقامة الطقوس الدينية، أربع وعشرون نعجة سمينة، حيوانات نقية للتضحية تكريماً لآلهة بابل، أربعة ديوك، عشر حمامات، ثلاثة رؤوس من الثوم، كمية من سمك المياه العذبة، كميات كبيرة من الخضر، محاصيل الحقول، فواكه تلمع كالذهب من أجود ما في البساتين (الحدائق)، بلح وصبار من دلمون، تين أبيض، عسل مصفى، بيرة خفيفة، زبدة وقشدة وحليب، أصفى أنواع الزيوت، دقيق أسمر ذهبي، عصير السمسم، نبيذ مشع، كل ذلك أمرت بإحضاره كل يوم على مائدة مردوخ والساربانيتو أكثر من أي وقت مضى"[2].

القصائد الدينية: تتشابه العقائد والتصورات الدينية لدى السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين مع بعض الفروق البسيطة. فقد عزا قدماء العراقيين خلق الكون والإنسان وجميع الإنجازات التي حققوها في صراعهم مع الطبيعة إلى الإرادة الإلهية. أما دور البشر فكان فقط تنفيذ ما يخطط في السماء من قبل[3].

وكان الموت عندهم من طبيعة الإنسان وتركيبه أي أنه خلق ومعه حياته وموته. وتشير بعض النصوص في ملحمة جلغامش أنه حين سعى جلغامش للخلود واسته صاحبة الحانة المقدسة ونصحت له أن يكف عن طلب الخلود لأن "الآلهة عندما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت هي بالحياة"[4].

---

(1) ديلابورت: المصدر السابق، ص 198 – 199.

(2) د. فرح نعيم: المصدر السابق، ص 174.

(3) انظر قصة الخليقة، ص 354 – 363.

(4) انظر ملحمة جلغامش، ص 363 وما بعدها.

فالموت في تصورهم لا يعني الفناء وإنما يعني انفصال الجسد عن الروح. ومقر الجسد القبر حيث يوسد هناك ويرقد رقدته الأخيرة. أما الروح فتنتقل إلى عالم الأرواح وهو العالم السفلي تخلد فيه حيث لا قيامة عندهم ولا رجعة[1]. ومع هذا الانفصال بين الجسد والروح تبقى الصلة بين الاثنين بعد الموت. فمثلاً تتوقف راحة الروح في عالم الأرواح على العناية التي يبذلها الأحياء في دفن الجسد وفق الطرائق والسنن الدينية وعلى ما يودع في القبر من زاد وأثاث وعلى ما يقرب إلى الميت بمناسبات مختلفة[2]. ويمكن تفسير طرائق الدفن وما نجده في قبورهم من الأثاث الجنائزي منذ أقدم العهود بأنهم اعتقدوا برجوع الروح إلى الجسد وهو في القبر[3]. وإذا أهمل الأحياء العناية بدفن الميت وفق السنن الدينية أو لم يدفن أو نبش قبره فإن روحه لا تستقر في عالم الأموات وإنما تخرج على هيئة شبح يحدث بالأحياء الأذى والضرر[4].

وقد تصوروا موطن الأرواح الذي تذهب إليه بعد الموت أنه يقع في العالم السفلي تحت الأرض مباشرة، وهو عالم مخيف على هيئة مدينة ذات سبعة أسوار يحرسها حشد من المردة والشياطين. هو "الأرض التي لا رجعة منها" تجلس على عرشها وتحكمها إلهة شريرة قاسية هي إرشكيفال، يساعدها في حكمها الأموات مجموعة من الآلهة والشياطين والكتاب لتسجيل الموتى. ويتساوى الموتى في العالم. وقيامة أو رجعة منه. أي أنهم لم يعتقدوا بعالم آخر للثواب والعقاب أي لا جنة ولا نار عندهم[5]. وتشير مآثرهم إلى أنهم اعتقدوا بنوع من الحساب عندما تدخل الأرواح في عالم الأموات[6]. فإذا كان الأمر كذلك فالحياة الدنيا في اعتقادهم هي موطن الراحة والمتاعب، فالصالح تكافئه الآلهة بالحياة الطويلة السعيدة، والطالح تعاقبه بحياة سيئة ومعيشة ضنكة. وهكذا ينال كل واحد ما يستحقه في الحياة الدنيا.

---

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 233.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه، الصفحة 234.

(6) انظر أسطورة نزول عشتار إلى الجحيم، ص 447 وما بعدها.

العبادات والشعائر الدينية: الشعائر الدينية كثيرة ومتنوعة منها الصلوات والقرابين والأعياد الدينية ومنها ما يتخذ لمعرفة طالع الإنسان والوقوف على المستقبل عن طريق العرافة والكهانة، ومنها ما يتخذ لطرد الشياطين عن جسم الإنسان وشفاء المرضى بواسطة السحر.

ومن العبادات العامة الأعياد والمهرجانات الدينية التي كانت تقام في المدن المختلفة كالأعياد السنوية التي يحتفل بها في رأس كل سنة لتمجيد إله المدينة. وقد اشتهر خصوصاً في بابل عيدها السنوي. ويصادف زمنه في الربيع بين آذار/ مارس ونيسان/أبريل ويستغرق نحو اثني عشر يوماً. وكانت تجري فيه أنواع العبادات والطقوس الدينية من قبل كهنة بابل. وكان الآلهة يقومون بالأدوار الدينية فيه. ويعد اشتراك الملك في إحياء العيد أمراً أساسياً. ويعكس الاحتفال بالعيد أصل كثير من الرسوم الدينية المتعلقة بالزراعة وتبدل المواسم الخاصة بها. ويرمز بوجه عام إلى الصراع بين قوى الطبيعة ثم انتصار العناصر الخالقة المولدة التي يمثلها ظهور حياة النبات والخضرة في بداية الربيع، وكذلك انتصار الآلهة التي نظمت الكون على آلهة التدمير والتخريب فيه.

يسمي السومريون العيد باسم زكموك (Zagmuk) أي (رأس السنة) وسماه البابليون باسم "أكيتو" أي (عيد رأس السنة) وكذا كان اسمه لدى الآشوريين.

وما دام الأمر يتصل بإحياء الطبيعة فإن دور موت "تموز" وبعثه من أهم الأدوار إلى جانب الاحتفال بإحياء انتصار مردوخ على تيامة، وخلق الكون والإنسان وغير ذلك من العبادات العامة والطقوس الدينية الرسمية والشعبية.

وبالنظر الى أهمية هذه الرسوم في عقائد العراقيين القدماء نذكر بشيء من التفصيل بعض طقوسه الهامة. ففي الأيام الأربعة الأولى من العيد، تجري التطهيرات الدينية في معبد مردوخ "إيساكلا" في كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الأعلى بعد التطهير فيصلي لمردوخ وللآلهة الأخرى، وبعد ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المقررة. وفي مساء اليوم الرابع تتلى أسطورة الخليقة "حينما في العلى" في المعبد، لأن رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد. وفي اليوم الخامس من نيسان/ أبريل وهو يوم نوبة الملك أو الكفارة عنه يقوم الملك بالدور الرئيس من الطقوس.

ففي الصباح يصلي الكاهن الأعلى لمردوخ ابتغاء مرضاته، ثم يطهر المعبد وتقدم القرابين وتقرأ التعاويذ، ويقوم النجارون التابعون لمعبد "نبو" في بورسيبا بصنع منضدة للقرابين ومظلة من الذهب يقدمها ابن مردوخ هدية لأبيه. وبينما هم يجرون هذه الاستعدادات يدخل الملك إلى مزار مردوخ ومعه الكهنة. وحين يصل إلى ساحة المعبد يتركه الكهنة فيظهر الكاهن الأعلى من حجرة "قدس الأقداس" وفيها تمثال الإله مردوخ فيأخذ من الملك شارات الملك (الصولجان والحلقة والقامة والتاج) ويضعها على منضدة إزاء تمثال الإله ثم يعود إلى الملك فيلطمه على وجهه ويجعله يسجد أمام الإله معترفاً بعدم ذنبه أو إهماله ثم يعيد الكاهن الأعلى شارات الملوكية إلى الملك بعد أن يلطمه مرة أخرى، ويستحسن أن تكون لطمة شديدة بحيث إذا دمعت عينا الملك فتلك علامة فأل حسن بالنسبة الى السنة الجديدة. وحين يكون الملك قرب تمثال الإله يكون الناس في الخارج في هلع وخوف يبكون الإله الذي يعتقدون أنه أسر في العالم السفلي (عالم الأموات) وتهيج المدينة باحثة عن معبودها مردوخ الذي هو كـ"تموز" يمثل إحياء الطبيعة.

وفي اليوم السادس يقصد مدينة بابل مجاميع الآلهة تتقدم في قارب في نهر الفرات ومن بينهم "نبو" إله مدينة بورسيبا وابن مردوخ الذي يأخذ بثأر أبيه ويعيده من الأسر. وفي اليوم السابع يصل "نبو" إلى هدفه من تحرير مردوخ بمساعدة الآلهة الآخرين. وفي اليوم الثامن تجتمع الآلهة وتمنح مردوخ السلطان فيشرع في ممارسة اختصاصاته في تحديد مصائر الناس للعام الجديد. وفي اليوم التاسع يسير موكب مهيب يمثل انتصار مردوخ على تيامة متجهاً إلى معبد رأس السنة (بيت أكيتو) وعلى رأسه الملك. وفي اليوم العاشر يحتفل الإله مردوخ بانتصاره مع الآلهة الأخرى في وليمة تقام في معبد رأس السنة ثم يعود إلى بابل "للدخول بعروسه في تلك الليلة" حيث تنطلق القوى المولدة في الطبيعة والحياة وهو ما يعني ضمان خصب الأرض. وفي اليوم الحادي عشر تقرر الآلهة مرة أخرى مصائر الناس. وفي اليوم الثاني عشر، اليوم الأخير من العيد، ينتهي الاحتفال ويعود الآلهة كل إلى موضعه ومعبده الخاص[1].

(1) باقر، طه:المصدر السابق، 258/1 – 259.

الفصل السادس والثلاثون

القوانين والشرائع

القانون هو تحويل إرادة الطبقة المسيطرة إلى تشريع. وتحدد محتوى هذه الإرادة ظروف الحياة المادية للمجتمع الطبقي.

والقانون لا شيء في ذاته بدون جهاز يمكن أن يكره الناس على مراعاة قواعده وحدوده، ولم يكن الناس في ظل النظام البدائي يعرفون ما هو القانون. وكانت الأخلاق والعادات تنظم العلاقات الاجتماعية.

ونتيجة لانحلال النظام البدائي وظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء، إلى عبيد وملاك عبيد، وضعت الطبقة المسيطرة بدلاً من العادات والأعراف القديمة قواعد تعبر عن إرادتها فقط وليس عن مصالح المجتمع كله. وقد فرضت الدولة على الجماهير العاملة جميع الالتزامات المرهقة ووضعت للمستغلين الحقوق والامتيازات.

وهكذا كان الهدف الأول والرئيسي من وضع القوانين والشرائع في بلاد ما بين النهرين (قانون أورنمو وقانون بلالاما وقانون ليبيت عشتار وشريعة حمورابي والقوانين الآشورية إلخ..) حماية حياة وأموال قمة المجتمع العبودي، وتعزيز سلطتهم على جماهير الكادحين من العبيد والفلاحين والمعدمين والحرفيين الفقراء.

وقد لعب الدين دوراً هاماً ليس في بلاد الرافدين فحسب بل في جميع بلدان الشرق القديم. وفي سبيل تخليد الدولة العبودية وتقديسها وحمل الجميع على أن يخضعوا

لقوانينها، انتحل الملوك والأمراء الصفة الإلهية وزعموا أن القوانين والشرائع التي وضعوها مستمدة من الآلهة لأن الملك يمثل الإله في الأرض فأحكامه موحى بها من الآلهة. وهذا يعني أن انتهاكها وعدم الخضوع لها هما عصيان لأوامر الآلهة وأحكامها وتمرد على سلطتها.

والقوانين في العراق هي أقدم شرائع مدونة في تاريخ الحضارات البشرية. وهي كقوانين مدونة خطوة متقدمة بالنسبة إلى العادات والأعراف القبلية، وكان لها تأثير واضح في العديد من شرائع البلدان المجاورة. وباعتبار أنها وضعت لتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فهي أحد مصادرنا الأساسية لتاريخ العراق القديم.

وتدل الاكتشافات الأثرية الحديثة على وجود مجموعات قانونية متعددة وضعت في مختلف عهود العصر التاريخي للعراق القديم. فهناك القوانين السومرية وقانون حمورابي والقوانين الآشورية بالإضافة إلى مئات الألوف من العقود والمستندات القانونية والتجارية والإدارية مما يشكل مع القوانين المدونة أحد المصادر الهامة لدراسة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر السلطة المدنية والعسكرية والدينية والنظام القضائي والعقوبات وغير ذلك من أمور الحياة في كل من سومر وأكاد وبابل وآشور.

وتتشابه القوانين والشرائع في العراق القديم من حيث أسلوب تبويبها إلى مقدمة ثم مواد الأحكام (النص) والخاتمة.

وإليكم أهم القوانين والشرائع الوضعية في العراق القديم:

قانون أورنمو: اكتشف المنقبون حديثاً بين رقم الطين التي وجدت في ثغر (نيبور) شريعة جديدة ثبت أنها تعود إلى الملك أورنمو مؤسس أسرة أور الثالثة حوالى عام 2050 ق.م[1]. ومن المؤسف أن ما عثر عليه من الشريعة ناقص لم يبق منه سوى المقدمة وبضع مواد قانونية كثيرة الشبه بشريعة ليبيت عشتار وشريعة أشنونا من حيث الأخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلاً من القصاص كما في شريعة حمورابي.

وجاء في مقدمة قانون أورنمو: "إن تقرير مصير سومر بيد الآلهة التي اختارت أورنمو

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 287.

ليحكم البلاد نيابة عنها (لاحظ أثر الدين: إضفاء صفة القداسة على السلطة الملكية). ثم يعدد الملك أعماله من توطيد الحالة السياسية في المملكة وتغلبه على بعض المدن ولا سيما لاغاش وإصلاحاته الداخلية وإزالة المظالم ونشر العدل[1].

وقد سبق قانون أورنمو حمورابي بنحو ثلاثة قرون، وشريعة أشنونا بنحو قرن، وشريعة ليبيت عشتار بحوالى قرن ونصف قرن من الزمان.

قانون أشنونا: عثر عليه أثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية في "تل حرمل" بالقرب من بغداد. ويرجح أن هذه الشريعة لـ"بلالاما" أحد ملوك أشنونا[2]. وقد سبق قانون أشنونا شريعة حمورابي بنحو قرنين من الزمان وشريعة ليبيت عشتار ملك إيسن بحوالى نصف قرن، فهو أقدم شريعة كبيرة معروفة في تاريخ الحضارات البشرية بعد قانون أورنمو.

وقد أصدر بلالاما هذا القانون لتنظيم شؤون المملكة عندما استقلت زمناً طويلاً بعد سقوط سلالة أور الثالثة[3]. وهو بوضعه الراهن يتألف من مقدمة قصيرة كتابتها غير واضحة، يليها مواد الأحكام (61 مادة) تعالج تحديد الأسعار والأجور (المواد 1 – 11) ثم يذكر القانون الأحكام المختلفة مما يتعلق بالسرقات والاعتداءات والأضرار الواقعة على الأعضاء وديات الأعضاء والأضرار المسببة عن سقوط جدار متداع وجنايات الحيوانات والديون والبيع والشراء ومواد مختلفة في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وزنى وعقوبات[4]. وحول حماية حياة وأموال الأغنياء جاء في المادة 13 من القانون: "من يقبض عليه في بيت موشكينوم (عضو في هيئة أشنونا تتصل اتصالاً وثيقاً بالقصر أو المعبد) خلال

---

(1) المصدر نفسه، ص 288. كثيراً ما تتكرر مثل هذه العبارات الطنانة: إزالة المظالم ونشر العدل وإسعاد الناس في مقدمة القوانين والشرائع في بلاد ما بين النهرين وخاتمتها. وهي شكل من أشكال الديماغوجية كان يقصد منها امتصاص نقمة الجماهير العاملة وتضليلها وتمويه الطابع الطبقي الاستغلالي للدولة العبودية وقوانينها وإخفاؤه إذ تستحيل إزالة المظالم وتحقيق العدالة الاجتماعية وإسعاد الناس في مجتمع طبقي تتملك فئة قليلة منه وسائل الإنتاج الأساسية ويسمح فيه باستغلال الإنسان للإنسان.

(2) باقر، طه: المصدر السابق، ص 288.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص 289.

النهار يدفع عشرة شواقل ومن يمسك به ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً". وورد في المادة 12 من القانون: "من يقبض عليه في حقل موشكينوم أثناء المحصول خلال النهار يدفع عشرة شواقل من الفضة غرامة. ومن يمسك به ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً".

وعن وضع العبيد الاجتماعي والحقوقي خصص القانون جملة من المواد منها: "لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمر أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو زيتاً كرأس مال للمتاجرة" (المادة 15). والسبب في ذلك أن العبيد بحكم القانون لا يستطيعون أن يملكوا شيئاً لأنهم هم أنفسهم وما يملكون ملك لأسيادهم. وإذا اشترى رجل عبداً أو أمة أو ثوراً أو بضاعة ثمينة ولكن لا يستطيع أن يبين قانوناً من البائع فهو لص (المادة 40 من القانون). وإذا قبض حاكم أو ملاحظ نهر أو أي موظف آخر مهما يكن على عبد مفقود أو حمار مفقود يخص القصر أو موشكينوم ولا يسلمه إلى "أشنونا" بل يحتفظ به في بيته حتى ولو لم تمض سوى سبعة أيام فإن القصر يحاكمه كسارق (المادة 50 من القانون). والعبد أو الجارية في أشنونا الذي عليه علامة لا يغادر بوابة أشنونا بدون إذن صاحبه (المادة 51 من القانون). العبد أو الجارية ممن يدخلون بوابة أشنونا في موكب سفارة أجنبية توضع عليهم علامة[1]. ولكن يظلون في موكب مولاهم (المادة 52 من القانون).

وقد دُوّن هذا القانون على لوحين من الطين باللغة البابلية[2].

قانون ليبيت عشتار: عثر عليه حديثاً في نفر - وضعه ليبيت عشتار الملك الخامس من سلالة إيسن الذي حكم في بداية العهد البابلي القديم[3].

وقد دوّن ليبيت عشتار قانونه باللغة السومرية. وهو بوضعه الراهن يتألف من مقدمة و(38 مادة من أصل نيف ومائة) وخاتمة. وجاء في مقدمة القانون: "إن الآلهة اختارت ليبيت عشتار ليحكم البلاد نيابة عنها وليقر العدل وليحرر أبناء وبنات نيبور وأور وإيسن وسومر من العبودية التي كانت قد فرضت عليهم".

---

(1) باقر، طه: سومر، المجلد الرابع. الجزء الثاني - بغداد، 1948، ص 172.

(2) المصدر نفسه، ص 288. انظر: طه باقر: سومر، المجلد الرابع، ج 22، ص 158 - 159. قانون مملكة أشنونا.

(3) المصدر نفسه، ص 290.

وورد في خاتمة القانون أن ليبيت عشتار بالاتفاق مع كلمة الحق لـ"أوتو" أحل العدل والحق وأقرّ الخير لسومر وأكاد وأرسى أسس الثروة فيهما. وأما من يرتكب شراً قبلي ومن يشوه صنع يدي ومن يدخل المخزن ويغير في القاعدة ويمحو النقوش ويكتب اسمه عليها.. ألا فليقوّض "أوتو" قاضي السماء والأرض من أساسه.

بعد وضع القوانين الآنفة الذكر، حدثت في بلاد ما بين النهرين متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية. فقد وحّد حمورابي العراق وأنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف، وتوسعت الملكية الخاصة وازدهرت الزراعة والتجارة والحرفة، وازداد التمايز الاجتماعي والفروق في الثروة بين الأفراد، ونما الرق وازداد عدد العبيد. وبمعنى آخر فإن القوانين السومرية وقانون ليبيت عشتار لم تعد تتلاءم والشروط الاقتصادية والاجتماعية المستجدة في الإمبراطورية البابلية. ومن جهة أخرى فإن هذه القوانين كانت قد دوّنت باللغة السومرية التي لا يفهمها سكان البلاد. ولهذه الأسباب أقدم حمورابي على وضع قانون جديد يأخذ في الاعتبار التطورات والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المستجدة.

شريعة حمورابي(*): اكتشف قانون حمورابي عالم الآثار الفرنسيّ دومورغان عام 1901 - 1902م. في خرائب مدينة سوزا عاصمة دولة عيلام. وهو اليوم محفوظ في متحف اللوفر بباريس. وقد دونت شريعة حمورابي باللغة البابلية والخط المسماري على حجر من الديوريت على شكل أعمدة يبلغ عددها 51 عموداً، محيت منه خمسة أعمدة تحتوي على 33 مادة (من المادة 66 – 99). ولكن هذه الفجوة تعوضها بعض الأجزاء من نسخ قديمة محفورة في لوحات الطين وهي من الآثار الآشورية للعصر السارغوني أو تسد فراغها بعض المواد المتصلة بالقرض ذي الفائدة وعقود التوكيلات التي عثر عليها في خرائب نيبور(1).

يبلغ ارتفاع النصب 2.25 م ومحيطه عند القاعدة 1.9م. وفي أعلاه نقش بارز يمثل

(*) حمورابي (1728 – 1686 ق.م): سادس ملوك الأسرة البابلية القديمة (الأمورية). حكم حوالى 43 سنة. ويشير العام الثاني من حكمه إلى أنه العام الذي أصدر فيه قانونه.

(1) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 54/6 – 58. انظر مقدمة قانون حمورابي في ملاحق الكتاب.

حمورابي واقفاً أمام شماش، إله الشمس والحقيقة والعدالة الجالس على عرشه وبيده اليمنى القضيب والخاتم شعارا السلطة القضائية العليا، يتسلم منه الشرائع المقدسة.

لقد جمع حمورابي القوانين والأعراف السومرية - الأكادية وطورها بما يتلاءم والمتغيرات الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية المستجدة في عصره، وأصدرها في مجموعة قانونية شاملة تحتوي على 282 مادة بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة.

وجاء في المقدمة: أنا حمورابي الملك الذي اختارتني الآلهة نيابة عنها لحكم البشر وإسعادهم ونشر العدل بين الناس والقضاء على الشر والسوء حتى لا يطغى القوي على الضعيف. أنا حمورابي ملك الملوك... ثم يعدد الأقاليم والمدن التي فتحها وطرفاً من أعماله كالرخاء الذي أحلّه بالبلاد وتجديده المعابد الرئيسة في المملكة.

وورد في الخاتمة: "أنا حمورابي الملك العادل والكامل... أنا حمورابي الذي تسلم القوانين من شماش، إله الشمس والحقيقة والعدالة، كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها... بأمر مردوخ لتسد عدالتي الأرض. ثم تلي ذلك دعوات ضد من يجرؤ على تدمير لوحته التي نقش عليها شريعته"[1].

ومن خلال قوانين حمورابي نستطيع التعرف الى مختلف جوانب الحياة في العراق القديم، إذ تتناول تلك القوانين السلطة والإدارة والقضاء والجيش والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور.

وتكشف لنا قوانين حمورابي عن بنية المجتمع البابلي في ذلك العصر، وتطلعنا على أي الفئات الاجتماعية كان يعتمد الملوك في حكم البلاد، وعن مصالح أي الطبقات كانوا يدافعون بالدرجة الأولى.

ومن خلال قوانين حمورابي نستطيع التعرف الى الطبقات والفئات الاجتماعية للمجتمع البابلي وعلاقاتها الحقوقية.

فكان أفراد الطبقة العليا من الأحرار (الأميلو) يتمتعون بجميع الحقوق ولهم السيادة في

(1) المصدر نفسه. 6/80 - 81. انظر خاتمة قانون حمورابي في ملاحق الكتاب.

المجتمع، ومنهم أصحاب العبيد وملاك الأراضي. ومنهم تتشكل المجالس المحلية ويؤخذ الموظفون والكهنة. وهم بالتالي أصحاب الحقوق والامتيازات.

وتتألف الطبقة العامة (الموشكينوم) من فقراء الأحرار ومن الأرقاء الذين تحرروا وأبناء الرجال الأحرار الذين تزوجوا بإماء، وكان الموشكينوم يمارسون مختلف المهن ولهم الحق في التملك. وهم كالأميلو أصحاب عبيد وملاك الأراضي. ولكنهم غير متساوين في الحقوق المدنية. فلقاء التشويه الذي يسبب لشخص من الأميلو كان المذنب يعاقب بتشويه مماثل (العين بالعين والسن بالسن) حسب المادة 196 من القانون. أما لقاء التشويه المسبب لموشكينوم فكانت العقوبة تقتصر على دفع غرامة واحدة (مينا من الفضة) حسب المادة 198 من القانون. وإذا قام شخص ينتسب إلى موشكينوم بسرقة فإنه يدفع غرامة تزيد عدة أضعاف على مقدار الغرامة التي يدفعها الإنسان الأميلو في حالة مماثلة. وفي حالة سرقة العبد فقط، الأمر الذي كان يعتبر تطاولاً على أسس المجتمع ذاتها، كان الحكم بالموت يهدد المذنب بدرجة واحدة حسب المادة 19 من القانون.

وكان الموشكينوم الفقير من أجل الحفاظ على حياته يضطر إلى استدانة أدوات الإنتاج والبذار والفضة وغيرها من الأغنياء بفائدة عالية[1]. وكان عدم الدفع يستتبع فقدان الممتلكات بما في ذلك قطعة الأرض، إذا كان المدين يملكها، وكان الموشكينوم المفلس (وعادة أعضاء أسرته) يقع في عبودية الدين لمدة ثلاث سنوات كما جاء في المادة 117 من القانون.

ويمكن أن تدرج في طبقتي الأميلو والموشكينوم فئات عديدة من المواطنين الأحرار كأعضاء المشاعيات، والزراع الملكيين الذين يدفعون الضريبة العينية، والمحاربين الذين يتسلمون من الملك أراضي غير قابلة للبيع في مقابل خدماتهم العسكرية، والحرفيين، والتامكاروم الذين كانوا تجاراً ومرابين معاً، وأخيراً الكهنة والأرستقراطية العليا[2].

(1) انظر: ص 323.

(2) انظر: ص 324 وما بعدها.

وأما طبقة العبيد (أردو) فقد ازداد عددها نتيجة لتوسع الفتوحات وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعيات[1]. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الرئيسة في استثمارات الملك والمعابد في ممتلكات نبلاء البلاط والأرستقراطية المدنية والعسكرية. وغدا من ثم وجود المجتمع الرافدي يرتكز على عمل العبيد. وقد خص قانون حمورابي الرقيق بجملة من مواده (من 15 حتى 20 ومن 117 حتى 119 و226، 227، 231، 280، 281، 282).

وكان لكل عبد سمة خاصة تدل على مالكه. ولقاء محو هذه السمة كانت تهدد الإنسان الحر كذلك عقوبات قاسية (المادتان 226، 227 من القانون) وبموجب القانون نفسه لم تكن تؤخذ لقاء الضرر الذي يلحق بعبد الغير إلا غرامة قليلة (نصف مينا) كتعويض عن خسارة المالك شأنها شأن الغرامة لقاء الضرر الذي يلحق بالماشية (المادة 199 من القانون). وفي حالة قتل عبد الغير كان المذنب يقدم لمالكه عبداً من عنده (المادة 231). وكان يعاقب العبد بصلم أذنه إذا رفض طاعة سيده وقال له: "لست سيدي" (المادة 282). أما بالنسبة إلى الذين يناهضون حقوق الملكية التي أقامها مالكو العبيد، فكانت تطبق أقسى العقوبات. وكان الحكم بالموت يهدد كل من يسرق عبداً أو يحميه، وتوقع عقوبة الموت قتلاً أيضاً بكل من يؤوي عبداً آبقاً - أي يقتل من يساعد عبداً على التحرر (المادة 16 من القانون). وقد خصص القانون عدداً من مواده لحماية الملكية والدفاع عن مصالح الملاكين والأغنياء. فإذا سرق رجل مالاً يخص معبداً أو الملك فإنه يقتل وكل من وضع يده على المال المسروق أو قَبِلَه يقتل أيضاً (المادة 8 من القانون).

واهتمت قوانين حمورابي بتنظيم العلاقات الزراعية لمصلحة الملاكين العقاريين بين مالك الأرض والمستأجرين أو العمال الزراعيين. فمستأجر الحقل المهمل الذي لا يحرث الأرض أو لا يهتم بالمحصول عليه أن يدفع إلى مالك الأرض الأصلي حصته حتى ولو لم يكن هناك محصول، كما عليه أن يحرث الحقل ويعيده إلى صاحبه (المواد 42، 43، 44). وعلى الفلاح المستأجر أن يعوض كل عطل أو ضرر يسببه لأرض جيرانه إذا أهمل بإصلاح

(1) انظر: ص 325 وما بعدها.

السدود أو السواقي في أرضه فتسربت المياه إلى الأرض المجاورة المزروعة وأضرت بها (المادة 53) وإذا لم يكن قادراً على التعويض يباع هو نفسه كما يباع متاعه ويقسم المال بين المتضررين (المادة 54). وإذا أعطى ملاك أرضه لبستاني كي يحولها إلى بستان مشجر بالأشجار المثمرة تقاسم الطرفان المحصول مناصفة اعتباراً من العام الخامس، ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل (المادة 60). أما إذا لم يشجرها مطلقاً فعليه أن يعوض على صاحبها الأصلي حصته وتقاس على أساس إنتاج أرض مجاورة عن كل سنة خلال مدة استلامها، ومن ثم عليه أن يحرثها ويعيدها الى المالك الأصلي (المادة 62). وإذا أجر رجل بستانه لبستاني لاستغلاله ينال المؤجر ثلثي المحصول والمستأجر ثلثه الآخر (المادة 64). وأما إذا لم يقم البستاني بتلقيح الأشجار ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع إيجار البستان بما يعادل إيجار المثل المجاور (المادة 65).

لقد بحث قانون حمورابي في الجرائم، والأسرة، والملكية، والإرث، والالتزامات، وحقوق المشاعيين، والرق وغير ذلك من الأمور الاجتماعية والاقتصادية. وجاء القانون تعبيراً عن الدفاع عن حقوق ومصالح قمة المجتمع الراقي، حقوق الملاكين العقاريين، والكهنة، والتجار والمرابين، وخصوصاً حقهم في ملكية العبيد. أما ما ورد في مقدمة القانون من عبارات وجمل طنانة من أمثال: نشر العدالة وإسعاد الناس فهي شكل من أشكال الديماغوجية قصد منها امتصاص نقمة الجماهير وتضليلها وتمويه وإخفاء الطابع الطبقي الاستغلالي للقانون. إذ يستحيل تحقيق عدالة اجتماعية وإسعاد الناس في ظل مجتمع طبقي تكون فيه وسائل الإنتاج ملكاً بيد أقلية من أفراد المجتمع ويسمح باستغلال الإنسان للإنسان. فأية عدالة اجتماعية هذه وقوانين حمورابي تقسم المجتمع البابلي إلى طبقات مستغِلة ومستغَلة، وإلى أحرار وعبيد وأغنياء وفقراء يختلفون بعضهم عن بعض في الحقوق والواجبات والوضع الاجتماعي والاقتصادي؟

القوانين الآشورية: عُثر عليها مدونة على لوحات طينية في التنقيبات التي أجرتها بعثة ألمانية في آشور القديمة (قلعة شرفاطا حالياً) 1903 – 1904م.، يعود تاريخها إلى العهد

الآشوري الوسيط[1]. وهي لا تؤلف في الحال الذي تناهت فيه إلينا قانوناً كاملًا أو وحدة قانونية مثل قانون حمورابي، والمواد التي فيها لا يتمم بعضها بعضاً وخصص جزء كبير منها للأحكام الخاصة بالوضع الحقوقي للنساء وتبعيتهن بشكل مطلق مع أولادهن للرجال[2]. وهناك بعض الألواح التي تبحث في المعاملات التجارية والرهونات والديون والسرقة والغش وكلها تتميز بالقوة والشدة في فرض الأحكام وعدم الدقة في التعابير الحقوقية وشرح الأوضاع القانونية[3].

والقوانين الآشورية في هيكلها العام وفي محتواها تدافع، كالقوانين التي سبقتها، عن مصالح الطبقة السائدة، مصالح ملاك الأراضي والعبيد والتجار والمرابين. فالغرامات كانت تفرض، بموجب القوانين الآشورية، أضعافاً مضاعفة ولا سيما في حالة التعويض عن الشيء المسروق، فإذا كانت السرقة من المعبد أو القصر فالغرامة تكون 30 مرة بقدر المال المسروق وعشرة أمثاله إذا كانت السرقة من أفراد الطبقة الوسطى[4].

(1) باقر، طه: المصدر السابق، ص 300.

(2) د. فرح، نعيم: المصدر السابق، ص 161.

(3) المصدر نفسه، ص 162.

(4) باقر، طه: المصدر السابق، ص 306.

شريعة أشنونا[1]

المقدمة[2]

..... في الشهر .....

اليوم الواحد والعشرون.....

.....بلالاما

.....مملكة[3] "أشنونا"

..... (مدينة) "ظفر-شمس"

..... نهر دجلة

في تلك السنة التي أدخل فيها السلاح العظيم[4].

---

(1) في متحف العراق تحت رقمي 52614، و51059. وقد عثر عليها في تل حرمل بالقرب من بغداد على بعد نحو ستة أميال إلى الشرق من مركز المدينة. أصدرها «بلالاما» رابع ملوك أشنونا لتنظيم شؤون مملكته عند استقلالها بعد سقوط أسرة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد. أي قبل زمن إصدار قانون حمورابي بحوالى قرنين. وتعد شريعة أشنونا أقدم الشرائع المدونة التي تناهت إلينا من العراق القديم. وقانون بلالاما بحاله الحاضرة يحتوي على 61 مادة. وهو أوسع قانون بعد شريعة حمورابي/ سومر. المجلد الرابع، 153/2، 158 – 161.

(2) الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 1 – 6 منه مخرومة.

(3) أو «ملوكية».

(4) هذا هو تاريخ إصدار القانون، أي قانون بلالاما في مملكة أشنونا. وهذه حادثة وقعت في عهد الملك واتخذت تاريخاً لتقويم الحوادث، ولكن لم يأت ذكرها في موضع آخر غير هذا القانون. كما أننا لا نعرف في أي سنة من سني حكم بلالاما حدثت تلك الحادثة. وقد اتخذ هذا النظام من تقويم الحوادث منذ أقدم العهود السومرية حتى العهد الكاشي الذي أدخل فيه الملوك الكاشيون نظاماً جديداً وذلك بتأريخ الحوادث بالنسبة إلى سني حكم الملوك.

مواد القانون

المادة الأولى: في تحديد الأسعار (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 8 – 17).

كور[1] (Kur) واحد من الحب يعادل شيقلًا[2] (shekel) واحداً من الفضة

3 قا[3] (qa) من السمن الجيد تعادل شيقلًا واحداً من الفضة.

سوت[4] (sut) و2 "قا" من زيت الزيتون يعادل شيقلًا واحداً من الفضة.

"سوت" واحد و5 "قا" من الشحم تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

4 "سوت" من زيت النهر[5] (القير) تعادل شيقلًا واحداً من الفضة.

6 مينا (Minas) من الصوف تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

2 "كور" من الملح تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

"كور" واحد من الـ... يعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

3 "مينا" من النحاس تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

2 "مينا" من النحاس الخالص تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

المادة الثانية: أسعار بعض المواد (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 18 – 20).

"قا" واحد من زيت النبات شانشخاتم[6] (va-ni-is-ha-tim) قيمته من الحب 3 "سوت".

"قا" واحد من الشحم "شانشخاتم" قيمته من الحب 2 "سوت" و5 "قا".

"قا" واحد من زيت النهر "شانشخاتم" قيمته من الحب 8 "قا".

---

(1) الكور يساوي 300 قا. والكور كيل يسع ما زنته 500 رطل انكليزي وسعته 300 لتر.

(2) الشيقل: وزن يساوي 60/1 من «المينا» والمينا نحو نصف كيلوغرام فيكون الشيقل نحو 8 غرامات.

(3) قا: كيل وهو جزء من الكور 300/1 من الكور وسعته لتر واحد يزن حوالى 990 غراماً.

(4) السوت: كيل يساوي 30/1 من الكور أو 10 قا أي يساوي 10 لترات.

(5) زيت النهر: لا يعلم المقصود من هذا التعبير بوجه التأكيد.

(6) شانشخاتم: لا يعلم معنى هذا التعبير بوجه التأكيد. ولعله مصطلح يشير إلى سعر المواد المذكورة قد خفض ربما بسبب الضرائب على المواد التي عدلت قيمتها بالحب. فيكون المصطلح على ما يخمن نوعاً من الضريبة.

المادة الثالثة: أجرة عربة (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 21 – 23).

"أجرة العربة مع ثيرانها وسائقها" ماسكتم[1](Massiktum) واحد و4 "سوت" من الحب. وإذا دفعت الأجرة بالفضة فتكون أجرتها ثلث "الشيقل". وعلى السائق أن يسوقها اليوم كله."

المادة الرابعة: أجرة سفينة (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 23 – 24).

"أجرة السفينة 2 "قا" و4 "ماسكتم" للـ"كور" الواحد[2]. وأجرة الملاح "قا" واحد وعليه أن يقودها اليوم كله".

المادة الخامسة: إهمال الملاح (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 25 – 26).

إذا أهمل الملاح وسبّب غرق السفينة فإنه يعوض تعويضاً كاملاً عن كل شيء أغرقه".

المادة السادسة: سرقة سفينة (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 27 – 28).

"إذا وضع رجل يده على سفينة في مرساها لا تعود إليه فإنه يدفع عشرة شيقلات من الفضة" (غرامة)

المادة السابعة: أجرة الحاصد (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 28 – 29).

"أجرة الحاصد 2 "سوت" من الحب. وبالفضة اثنتا عشرة حبة"[3]

المادة الثامنة: أجرة الذاري (الرقيم أ، العمود الأول، السطر 29).

"أجرة الذاري[4] "سوت" واحد من الحب"

المادة التاسعة: إهمال الحاصد (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 30 – 34).

"إذا دفع رجل شيقلاً واحداً من الفضة لرجل استأجره للحصد. فإذا لم يحقق التزامه ولم يحصد له بالتمام فعليه أن يدفع (غرامة) عشرة شيقلات من الفضة. وسوف يقبض "سوتاً" واحداً و5 "قا" من الحب أجرة له ويترك العمل وتعاد جرايته من الحب والزيت واللباس".

---

(1) الماسكتم: يساوي 60 قا، أي 60 ليتراً. ويسمى هذا الكيل «بى» أيضاً.

(2) السفينة التي سعتها 60 كوراً تعادل سفينة حمولتها زهاء 15 طناً.

(3) «الشي» من الفضة أي الحبة. تعادل 180/1 من الشيقل.

(4) الذاري أو المذري الذي يذري (يذرو) الحنطة أو الشعير بالهواء لتنقيتها وفصل التبن عنها.

المادة العاشرة: أجرة حمار (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 34 – 35).

"أجرة الحمار "سوت" واحد من الحب وأجرة سائقه "سوت" واحد من الحب وعليه أن يسوقه طوال اليوم".

المادة الحادية عشرة: أجرة أجير (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 36 – 37). "أجرة الأجير شيقل واحد من الفضة و"حبة" واحدة من الفضة لأكله وذلك لشغل شهر واحد".

المادة الثانية عشرة: سرقة من حقل (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 37 – 40؛ والرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 1 – 3).

"من يقبض عليه في حقل موشكينوم[1](Muskènum) أثناء المحصول نهاراً يدفع عشرة شيقلات من الفضة (غرامة). ومن يقبض عليه ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً".

المادة الثالثة عشرة: سرقة من بيت (الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر 41 – 42؛ والرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 4 – 7).

"من يقبض عليه في بيت "موشكينوم" خلال النهار يدفع (غرامة) عشرة شيقلات من الفضة. ومن يقبض عليه ليلاً وهو في البيت يقتل ولا يخرج حياً".

المادة الرابعة عشرة: أجرة عامل (الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 8 - 9).

"أجرة.... شيقل واحد من الفضة إذا جلب خمسة شيقلات من الفضة، وإذا جلب عشرة شيقلات من الفضة فتكون أجرته شيقلين من الفضة"[2].

المادة الخامسة عشرة: بطلان المتاجرة مع الرقيق (الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 10 – 11).

"لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمرة (سابيتوم) أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو صوفاً أو زيتاً كرأس مال للمتاجرة"[3].

---

(1) موشكينوم: فئة من الناس تُشغل مركزاً وسطاً بين العبيد والطبقات الدنيا وبين الطبقة العليا.

(2) لا يعرف نوع العامل أو الأجير المراد في هذه المادة وذلك لأن العلامات المسمارية التي تعين صنف العامل ساقطة. والمادة تبين الأجرة التي يستحقها لما ينتجه من عمل متقوّم بالمال.

(3) والسبب في ذلك أنه لا يجوز للرقيق بحكم القانون أن يملك وإنما هو وما ملك ملك سيده. والمقصود بالمتاجرة تشغيل رأس المال قصد الربح.

المادة السادسة عشرة: رهن باطل (الرقيم أ، العمود الثاني السطر 1؛ الرقيم ب، العمود الثاني، السطر 12).

"لا يصح الارتهان من شريك بالإرث أو من عبد"[1].

المادة السابعة عشرة: موت الخاطب أو المخطوبة بعد دفع المهر (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 2 – 4؛ الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 13 – 15).

"إذا قدم رجل إلى بيت أبي مخطوبته مهر الزواج، فمات أحد الاثنين[2] من بعد ذلك فيرجع المال إلى صاحبه".

المادة الثامنة عشرة: إرث الزوجة المتوفاة (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 4 – 7؛ الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 16 – 20).

"إذا دخل بها وعاشت في بيته ثم توفيت من بعد ذلك، فإنه (أي أبوها) يسترجع ما قدمته من مال[3]، ويحصل كذلك على الفائدة المترتبة على ذلك بنسبة 6/1 شاقل و6 حبات من الفضة للشيقل الواحد وماسكتم واحد و4 سوت للكور الواحد".

المادة التاسعة عشرة: استئداء الدين (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 8 - 9؛ الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر 21 – 22).

"الرجل الذي يقرض بشرط إيفائه بالمثل (عيناً) له أن يستأدي المدين وقت الحصاد (بالمثل كذلك[4]).

---

(1) حصة الوارث مشاعة مع الورثاء ولذلك لا يصح له أن يرهنها، وكذلك مال العبد لأنه لا يملك إذ هو وماله ملك سيده.

(2) في المادة بعض الغموض. والمرجح أن يكون المقصود من أحد الاثنين، الخاطب أو المخطوبة.

(3) المعتاد في زواج العراقيين القدامى، ومنه البابلي، أن يتم انعقاده الشرعي بدفع بعض المال من جانب الزوج والزوجة. مبلغ يقدمه الزوج وهو «المهر» ومبلغ تجلبه الزوجة من بيت أبيها يكون وديعة عند الزوج لا يحق له التصرف فيه وإنما يعود بعد وفاة الزوجة إلى بيت أبيها.

(4) معنى المادة أنه إذا أقرض رجل آخر مالًا وكتب في العقد شرط تسلم الدين بنفس العين التي تم فيها القرض وجب الايفاء وقت جني الغلة حفظاً للسعر بدون معادلة سعر الحب بالفضة أو بالعكس كما في المادة العشرين من قانون أشنونا.

المادة العشرون: قرض مال ونسبة فائدته (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 10 – 13).

إذا أقرض رجل وعادل قيمة الفضة بالحب فإنه يقبض وقت جني الغلة (الحصاد) الحبوب والفائدة بنسبة "ماسكتم" واحد و4 "سوت" للكور الواحد من الحب".

المادة الواحدة والعشرون: قرض مال من الفضة (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 13 – 15).

"إذا أقرض رجل رأس مال من الفضة، فسوف يقبض ماله وفائدته بنسبة 6/1 "شيقل" وست حبات للشيقل الواحد من الفضة".

المادة الثانية والعشرون: الاستيلاء على أمة رجل (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 15 – 18).

"إذا لم يكن لرجل على آخر حق ما ولكنه مع ذلك وضع يده على أمة الرجل الآخر وحبسها عنده رهينة، فعلى صاحب الأمة أن يقسم بالإله معلناً "ليس لك حق عليّ" فيدفع الحابس تعويضاً كاملاً عن حبس الأمة"[1].

المادة الثالثة والعشرون: اغتصاب أمة رجل وموتها. (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 19 – 21).

"إذا لم يكن لرجل على آخر حق ما ولكنه مع ذلك وضع يده على أمة الرجل الآخر وحبسها رهينة في بيته وسبّب موتها فعليه أن يعوض صاحب الأمة أمتين".

المادة الرابعة والعشرون: حبس زوجة رجل وموتها (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 22 – 25).

"إذا لم يكن له حق عليه ومع ذلك وضع يده على زوجة "موشكينوم" أو على ابنه كرهينة وحبس الرهينة في بيته وسبّب موتها. فهذه قضية قتل النفس. فيقتل الذي حبس الرهينة".

المادة الخامسة والعشرون: فسخ الخطبة بعد دفع المهر (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 26 – 28).

(1) لعل ذلك من قبيل الغرامة على مدة بقاء الأمة في بيت الغاصب.

"إذا خطب رجل من أبي المخطوبة ابنته (ودفع له المهر) وقبله أبو المخطوبة ولكنه (من بعد ذلك) أعطى ابنته إلى شخص آخر فعلى أبي البنت أن يرجع إلى الخاطب المهر الذي قبضه مضاعفاً".

المادة السادسة والعشرون: غصب المخطوبة غير المدخول بها (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 29 – 31).

"إذا سلم رجل لابنة رجل مهراً ولكن رجلاً آخر خطفها ودخل بها (اغتصبها) بدون موافقة أبيها وأمها. فهذه جريمة كبرى وعقوبتها الموت".

المادة السابعة والعشرون: الزنى بامرأة أو (الزواج الفاسد) (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 31 – 34).

"إذا دخل رجل بابنة رجل آخر بدون إذن أبيها وأمها ولم يعقد عقداً بالزواج مع أبيها وأمها فلا تكون هذه زوجة (شرعية) حتى لو عاشت في بيته سنة واحدة"[1].

المادة الثامنة والعشرون: الزواج الشرعي وزنى الزوجة (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 34 – 37؛ الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 1 - 2).

"ولكن إذا عقد مع أبيها وأمها عقداً بالزواج ودخل بها فإنها زوجة شرعية، فإذا قبض عليها مضاجعة لرجل آخر تقتل ولا تخرج حية".

المادة التاسعة والعشرون: غياب الزوج عن زوجته (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر 38 – 45؛ الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 3 - 7).

"إذا فقد رجل في أثناء حرب أو غارة أو أنه أخذ أسيراً وبقي في بلد غريب زمناً طويلاً، فإذا أخذ رجل آخر زوجته (أي تزوجها) وولدت له طفلاً، ثم رجع (الزوج الأول) كان له الحق في استرجاع زوجته".

المادة الثلاثون: غياب الزوج بهجر وطنه (الرقيم أ، العمود الثاني، السطر 48 والعمود الثالث السطر 2، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 8 – 10).

---

(1) اقتصر حكم هذه المادة على إبطال الزواج وعده فاسداً غير شرعي. ولم يبين عقوبة الجاني على غرار المادة 26 من قانون «بلالاما». ولعل سبب ذلك أن الرجل لم يقسر المرأة بل زنى بها برضاها.

"إذا كره رجل مدينته وملكه (سيده) فهرب ثم أخذ زوجته رجل آخر، فإذا رجع الرجل فلن يكون له حق بزوجته".

المادة الواحدة والثلاثون: الزنى بأمة رجل (الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 11 – 12).

"إذا افتض رجل بكارة أمة رجل آخر فيدفع (تعويضاً) ثلثي "المينا" من الفضة. أما الأمة فترجع لسيدها".

المادة الثانية والثلاثون: أجرة رضاعة صبي (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 3 – 5؛ والرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 13 – 15).

"إذا سلّم رجل ابنه للرضاعة والتربية، ولم يعط الحاضنة تموينا من الحب والزيت والصوف مدى ثلاث سنوات فإنه يدفع 10 مينا من الفضة مقابل تربية ابنه حتى يمكن رده إليه".

المادة الثالثة والثلاثون: ملكية ولد الأمة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 6 – 9، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 16 – 18).

"إذا عصت أمة وسلمت ابنها إلى ابنة رجل (امرأة حرة) وكبر الولد ورآه سيده فله الحق في استرجاعه ولكن عليه أن يعنى به".

المادة الرابعة والثلاثون: ملكية أبناء أمة القصر (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 9 – 12؛ الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 19 – 21).

"إذا سلّمت جارية من القصر ابنها أو ابنتها إلى "موشكينوم" للتربية، فللقصر الحق في استرجاع الولد أو البنت (بعد تربيته أو تربيتها)".

المادة الخامسة والثلاثون: تملّك ابنة الأمة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 12 – 13؛ والرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 22 – 23).

"إن شاء من أخذ طفل أمة القصر أن يحتفظ به فعليه أن يدفع ثمنه".

المادة السادسة والثلاثون: تعويض الوديعة المسروقة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 14 – 17؛ الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر 24 – 28).

"إذا أودع رجلاً مالاً له وديعة للمحافظة عليه. فإذا لم يسرق البيت (المودع فيه) ولم

تكسر جبهته أو تحطم نوافذه، ومع ذلك فقد المال المودع فإنه (المؤتمن) سوف يعوضه المال المفقود".

المادة السابعة والثلاثون: تلف الوديعة قضاء وقدراً (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 1 - 6؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 18 – 23).

"إذا سقط بيت الرجل (المودع عنده) حقاً وتلفت الوديعة التي اودعها مع ماله، فإن صاحب المنزل يقسم في معبد الإله "تشباك"[1] قائلًا: "لقد تلف متاعي مع متاعك ولم يتسبب ذلك مني عن عمد أو إهمال" وبعد أداء القسم لا يكون عليه أي وزر.

المادة الثامنة والثلاثون: حق الشفعة بحصة أحد الورثة (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 7 – 9؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 23 – 25).

"إذا أراد أخ من بين الأخوة أن يبيع حصته من الإرث أو (المال المشترك) وكان أحد الإخوة راغباً في شرائها فبوسعه أن يدفع الثمن بمقدار نصف (ما يدفعه) أجنبي".

المادة التاسعة والثلاثون: تسليم البيت بتخليته في يوم دفع الثمن (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 10 - 11؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 25 – 27).

"إذا احتاج رجل وأراد بيع بيته، فعليه أن يخلي البيت في اليوم الذي يدفع فيه المشتري الثمن".

المادة الأربعون: شراء مال بلا شهود (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 12 – 13؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 28 – 29).

"إذا اشترى رجل عبداً أو أمة أو ثوراً أو أي شيء ثمين آخر ولكنه لم يستطع أن يعين البائع (أي أن يثبت صحة الشراء) فإنه سارق".

المادة الواحدة والأربعون: سعر الأشربة (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 14 – 16، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 30 – 31).

(1) تشباك: كبير الآلهة في مملكة أشنونا. وهذا يؤكد أن القوانين المكتشفة في تل حرمل تعود إلى مملكة أشنونا.

"إذا أراد أوباروم (ubarum) أو "نفطاروم -(naptarum) أو مودوم (mudum)[1] أن يبيع حصته فإن الـ سابيتوم (sabitum)[2] تبتاع حصته بالسعر الجاري للأشربة".

المادة الثانية والأربعون: ديات الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 17 – 20؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 32 – 34).

"إذا عض إنسان أنف آخر وقطعه فيؤدي مينا من الفضة، ودية العين مينا واحد من الفضة، وللسن نصف مينا من الفضة، وللأذن نصف مينا من الفضة، وللّطمة على الوجه عشرة شيقلات من الفضة".

المادة الثالثة والأربعون: دية بعض الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 21 – 22؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 35 – 36).

"إذا قطع إنسان إصبع آخر فإنه يؤدي ثلثي مينا من الفضة".

المادة الرابعة والأربعون: دية بعض الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر 23 – 24؛ الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 36 – 37).

"إذا رمى إنسان بآخر على الأرض في خصام فكسر يده، فإنه يؤدي نصف مينا من الفضة".

المادة الخامسة والأربعون: دية بعض الأعضاء (الرقيم أ، العمود الثالث، السطر 38؛ الرقيم ب، العمود الثالث، السطر 25).

"وإذا كسر قدمه فإنه يؤدي نصف مينا من الفضة".

المادة السادسة والأربعون: دية بعض الأعضاء (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 39 – 40).

"إذا ضرب رجل رجلاً آخر فكسر له... فإنه يؤدي ثلثي المينا من الفضة"[3]

المادة السابعة والأربعون: ضربُ رجل (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 40 – 41).

"إذا ضرب رجل آخر عن غير قصد فإنه يدفع عشرة شيقلات من الفضة".

---

(1) أوباروم ونفطاروم ومودوم: ثلاثة مصطلحات تطلق على ثلاثة أشخاص ممن يتعاطون تجارة الخمور.

(2) سابيتوم: المرأة التي يعهد إليها بتجارة الخمور.

(3) لم تبق من العلامات التي تعبر عن العضو المكسور إلا الضمير المتصل المذكر الغائب.

المادة الثامنة والأربعون: أحكام أخرى جزائية أو جنائية (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر 42 – 44؛ الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 1 – 3).

"إضافة إلى ما سبق ففي قضايا تتضمن جزاء من ثلثي المينا إلى المينا الواحد من الفضة فسوف يحاكمون الرجل (المعتدي) محاكمة رسمية. أما القضية التي تتعلق بالنفس أي (القتل) فيعود أمر البت بها إلى الملك".

المادة التاسعة والأربعون: سرقة عبد أو أمة (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 4 – 5).

"إذا قبض على رجل ومعه عبد مسروق أو أمة مسروقة، فعليه أن يعوض عبداً بعبد وأمة بأمة".

المادة الخمسون: الاحتفاظ بعبد وأمة آبقين (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 6 – 10؛ الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 1 – 7).

"إذا قبض حاكم أو ملاحظ نهر أو أي موظف آخر على عبد آبق أو أمة آبقة أو ثور مفقود أو حمار مفقود يعود إلى القصر أو إلى موشكينوم ولم يسلمه إلى "أشنونا" بل حبسه واحتفظ به في بيته، وحتى ولو كان ذلك مدة سبعة أيام من شهر واحد، فللقصر الحق في أن يحاكم ذلك الموظف كسارق".

المادة الواحدة والخمسون: بعض القيود على الرقيق (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 11 – 13؛ الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 7 - 9).

"ليس للعبد أو الأمة العائدين إلى أشنونا والمعلّمَين بعلامة كانوم (Kannum) أو ماشكانوم(maskanum) أو أباتوم (abbattum) أن يغادرا بوابة أشنونا بدون إذن سيدهما".

المادة الثانية والخمسون: وَسْم الرقيق الداخلين إلى أشنونا (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 14 – 16؛ الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 10 – 13).

"العبد أو الأمة ممن يدخلون بوابة أشنونا بمعيّة سفير أجنبي توضع عليهما علامة "كانوم" أو "ماشكانوم" أو "أباتوم" وسوف يبقيان بمعية سيدهما".

المادة الثالثة والخمسون: تناطح ثورين (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر 17 – 19؛ الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 13 – 15).

"إذا نطح ثور آخر فقتله فإن صاحبي الثورين يقتسمان فيما بينهما قيمة الثور الحي وما يعادل ثمن الثور المقتول".

المادة الرابعة والخمسون: ثور ينطح شخصاً فيقتله (الرقيم ب، العمود الرابع، السطر 20؛ الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 15 – 18).

"إذا كان لشخص ثور نطّاح وحذرت سلطة المحلة صاحب الثور، ولكنه (مع ذلك) لم يحجز ثوره أو لم يقطع قرنيه فنطح رجلاً وقتله فعلى صاحب الثور أن يؤدي ثلثي المينا من الفضة".

المادة الخامسة والخمسون: ثور ينطح عبداً فيقتله (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 18 – 19).

المادة السادسة والخمسون: كلب يعض رجلاً فيميته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 20 – 23).

"وإذا نطح الثور عبداً وقتله فعلى صاحبه أن يؤدي خمسة عشر "شيقلاً من الفضة".

"إذا كان لشخص كلب شرس وأعلمت سلطة المحلة صاحبه بالأمر ولكنه (مع ذلك) لم يحبسه فعض رجلاً وأماته. فعلى صاحبه أن يؤدي ثلثي المينا من الفضة".

المادة السابعة والخمسون: كلب يعض عبداً فيميته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 23 – 24).

"وإذا عض الكلب عبداً وأماته فإن صاحبه يؤدي خمسة عشر "شيقلاً" من الفضة".

المادة الثامنة والخمسون: سقوط جدار على شخص وموته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 25 – 28).

"إذا كان لأحد جدار متداعٍ وأخبرت سلطة المحلة صاحب الجدار ولكنه لم يقم بتدعيمه، فسقط الجدار وأمات رجلاً من طبقة الأحرار، فإن هذه جريمة كبرى يفصل بها الملك".

المادة التاسعة والخمسون: طلاق زوجة بعد أن تلد أولاداً (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر 29 – 32).

"إذا طلق رجل امرأته بعد أن ولدت منه أولاداً وأخذ زوجة ثانية فسوف يطرد من بيته ويحرم من جميع ما يملك ومن بعد ذلك يذهب..."[1]

المادة 60 و61: مما يؤسف له أن الكتابة التي تتضمن هاتين المادتين مشوهة ولم يبق من العلامات المسمارية شيء واضح، ومن بعد ذلك تكون نهاية ما كتب له البقاء من هذا القانون[2].

(1) علامات غير واضحة.

(2) سومر. مجلة تبحث في آثار العراق القديمة. المجلد الرابع (الجزء الثاني). طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة – بغداد 1948. قانون مملكة أشنونا المكتشف في تل حرمل ص 153 – 173 بقلم الباحث طه باقر.

شريعة ليبيت عشتار[1]

المقدمة

حين... "أنو" أب الآلهة العظيم و"آنليل" ملك الأراضي والسيد الآمر... إلى "نيني سنا" (ابنة آنو)... والبهجة... لجبهتها اللامعة، حين عهد إليها بالحكم في "سومر وأكاد" حكماً صالحاً في مدينتها "إيمن"... التي أسسها "أنو". وحين دعا الإله أنو والإله آنليل ليبيت عشتار الراعي العاقل الذي نطق اسمه نونا منير[2] إلى ولاية إمارة الأرض ليقر العدل فيها، ويمنع الشكايات، وليرد العداوة والعصيان بقوة السلاح، وليصلح من أمر السومريين والأكاديين عندئذٍ، أنا، ليبيت عشتار، الراعي المتواضع لمدينة نيبور، ومزارع مدينة أور الذي لا يهجر أبداً مدينة أريدو، والإله الحق لمدينة الوركاء، ملك إيسن، ملك سومر وأكاد، الصالح القلب "إينانا"... أقررت العدالة في سومر وأكاد طبقاً لكلمة "آنليل"...

---

(1) أصدرها ليبيت عشتار خامس ملوك أسرة إيسن الذي حكم في النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ومن ثم فهي تسبق قانون حمورابي بقرن على الأقل. وقد وصلنا من شريعة ليبيت عشتار 38 مادة مكتوبة على سبعة ألواح من الطين اكتشفت في مدينة نيبور (نفر حالياً). لكن معظم هذه الألواح مشوّه، إذْ لا يمكننا قراءة النصوص بشكل كامل. قام بترجمة شريعة ليبيت عشتار من اللغة السومرية إلى الإنكليزية صموئيل كريمر العالم الأميركي بقراءة الخطوط المسمارية. ونقلها من الإنكليزية إلى العربية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم في كتابه «مصر والشرق الأدنى القديم». وتتألف شريعة ليبيت عشتار من: المقدمة والقانون والخاتمة.

(2) نونا منير: اسم آخر للإله آنليل.

حقاً إنني في تلك الأيام حررت أبناء نيبور وبناتها وأبناء أور وبناتها وأبناء إيسن وبناتها وأبناء سومر وبناتها الذين كانت قد فرضت عليهم العبودية. حقاً إنني وفقاً لـ... جعلت الأب يسند بنيه والأبناء يسندون أباهم. جعلت الأب يقف إلى جانب أولاده وجعلت الأولاد يقفون إلى جانب أبيهم... في بيت الأب وفي بيت الأخ... حقاً... أنا ليبيت عشتار بن آنليل جئت بسبعين إلى بيت الأب وبيت الأخ وأتيت إلى بيت العازب... مدة عشرة شهور... عشرة... زوجة الرجل... ابن الرجل[1].

القانون

1 -.... التي أقيمت...

2 -..... أملاك بيت الأب من.....

3 -..... ابن موظف الدولة.... ابن موظف القصر..... ابن المشرف....

4 -..... قارب..... قارباً سوف.....

5 - إذا استأجر إنسان قارباً وخرج به في رحلة....

6 - المنحة..... سوف.....

7 - إذا أعطى بستاناً لبستاني ليرعى..... فالبستاني..... لصاحب البستان.[2]

8 - إذا سلّم رجل أرضاً غير مزروعة إلى آخر ليحولها إلى بستان، ولم يكمل المستلم إصلاح الأرض البور وغرسها كلها بالأثمار فيجب أن تكون الأرض البور غير المشجرة من نصيب الفلاح المستلم بسبب إهماله.

9 - إذا دخل رجل بستان رجل آخر وقبض عليه كاللص فإنه يدفع عشرة شواقل من الفضة.

10 - إذا قطع رجل شجرة من حديقة رجل آخر دفع نصف مينا من الفضة.

11 - إذا كانت هناك أرض فضاء مجاورة لمنزل رجل تخص آخر وأهملها وكان صاحب البيت قد قال للرجل الآخر "لأن الأرض مهجورة وقد يتسلل رجل إلى

(1) هناك كسر كبير يعوق تفهم النص ويلي ذلك القانون نفسه.

(2) المواد الأولى (1 – 7) من القانون ناقصة وغير واضحة.

بيتي، فدعّم بيتي" ووافق الرجل الآخر على ذلك فإن صاحب الأرض الفضاء مسؤول أمام صاحب المنزل عما يضيع من مقتنياته.

12 - إن هربت أمة أو عبد إلى قلب المدينة وثبت أنها (أو أنه) تعيش في بيت رجل آخر مدى شهر من الزمان، فإن ذلك الرجل يعيد إلى صاحب العبد عبداً آخر إضافة إلى عبده (عقوبة على إيواء العبد الهارب عنده).

13 - وإذا لم يكن له عبيد فإنه يدفع 15 شاقلاً من الفضة.

14 - إذا عوّض عبد عبوديته لمولاه وثبت أنه عوض تعويضاً مضاعفاً فإنه يعتق.

15 - إذا كان (مقتوم) هبة من الملك فإنه لا يؤخذ.

16 - إذا سلم إنسان "مقتوم" برضائه فإن "مقتوم" لا يربطه... إنه يترك لمن يشاء صاحبه.

17 - إذا كان رجل يربط آخر بغير سلطان بأمر لا علم للأخير به فإن الأخير غير ملزم وأما الأول فإنه تقع عليه طائلة العقوبة فيما يتصل بما ربطه به.

18 - إذا تأخر صاحب ضيعة (أو صاحبة ضيعة) عن الوفاء بضريبة الضيعة، ثم نقلت ملكية تلك الضيعة إلى شخص آخر غريب، فإن صاحب الضيعة الأول يظل فيها ثلاث سنوات دون أن يطرد، وبعد ذلك يمتلكها من تحمّل دفع ضريبتها، وليس لصاحبها الأول دعوى بذلك.

19 - إذا كان رب ضيعة.....

20 - إذا أخذ واحد من الورثة.....

21 -..... بيت الأب.... تزوج..... يأخذ هبة البيت لأبيها التي قدمت إليها كوريثة....

22 - إذا كان الأب حياً فإن ابنته سواء كانت "أنتو" (طبقة من الكاهنات) أو "ناتيتو" (طبقة من الكاهنات) فإنها تعيش في بيته كوريثة له.

23 - إذا كانت الابنة في بيت أبيها الحي...

24 - إذا حملت زوجة الرجل الثانية بأطفال، فإن البائنة التي أتت بها من بيت أبيها تكون إرثاً لأطفالها، لكن أطفال الزوجة الأولى وأطفال الزوجة الثانية يرثون بالتساوي أنصبتهم من ممتلكات والدهم.

25 - إذا تزوج رجل ورزقت زوجته بأطفالٍ وكانوا أحياء، ثم رزق من أمة له بأطفالٍ،

فإن الأمة وأطفالها يحررون، لكن أطفال الأمة لا يشاركون أطفال أبيهم من زوجته الحرة في وراثة ممتلكاته.

26 - إذا ماتت الزوجة الأولى واتخذ أمة بعدها كزوجة فإن ورثته هم أبناء الزوجة الأولى ويكون أبناء الأمة كـ... وبيته يكون كـ...

27 - إذا لم يرزق رجل من زوجته أطفالاً، وتحمل منه عاهرة في الطريق بطفل أو أطفال، فعليه أن يقدم الحبوب والزيت والملابس إلى العاهرة ويكون أبناؤها منه ورثة له... ولكن العاهرة لا تعيش في بيته ما دامت زوجته حية.

28 - إذا أدار رجل وجهه عن زوجته الأولى ولكنها لم تغادر البيت. فإن الزوجة التي يتزوجها كأثيرة ومفضلة لديه تصبح زوجته الثانية، ويظل مع ذلك يرعى زوجته الأولى.

29 - إذا دخل خطيب الابنة بيت حميه المقبل وقام بمراسم الخطبة، ثم طردوه بعد ذلك وأعطوا خطيبته رجلاً آخر رفيقه، فإن جميع هدايا الخطبة ترد إلى الخطيب الأول.

30 - إذا تزوج شاب عاهرة من الطريق وأمره القاضي ألا يزورها، ثم طلق زوجته بعد ذلك فإنه... مبلغ.

31 -.... الذي أعطاه إياه بعد موت أبيهم فإن الورثة يقسمون ضيعة أبيهم، ولكن ميراث الضيعة لا يقسم... إنهم "لا يطبخون كلمة أبيهم في الماء".

32 - إذا احتجز أب خلال حياته هدية خطبة ابنه الأكبر... وتزوج الابن خلال حياة أبيه فإن الورثة عند موت الأب...

33 - إذا ثبت أنه... لم يقسم الضيعة... فإنه يدفع عشرة شواقل من الفضة.

34 - إذا أجر رجل ثوراً وجرح جلده عند خزامة الأنف فإنه يدفع ثلث ثمنه.

35 - إذا أجر رجل ثوراً وفقأ عينه أو أصابها فإنه يدفع نصف ثمنه.

36 - إذا أجر رجل ثوراً وكسر قرنه فإنه يدفع ربع ثمنه.

37 - إذا أجر رجل ثوراً وأصاب ذيله فإنه يدفع ربع ثمنه.

38 -..... فإنه يدفع.....

خاتمة

الحق إنني بالاتفاق مع كلمة الحق للإله "آنو" جعلت سومر وأكاد تتمسكان بالعدالة الحقة. الحق إنني وفقاً لما نطق به آنليل، أنا ليبيت عشتار بن آنليل محوت العداوة والعصيان وأوقفت النواح والنحيب والصراخ والحرمان... كما أحللت العدل والحق، وأقررت العدالة والخير للسومريين والأكاديين.

الحق إنني حين أرسيت أسس الثروة في سومر وأكاد أقمت هذه اللوحة.... كل من لا يرتكب شراً قبلها وكل من لا يشوه كتابتي وكل من لا يمحو نقوشي وكل من لا يكتب عليها... ألا ليمنح الحياة والعمر الطويل وليعلُ مركزه في "إكور"[1]. ألا فلتطلّ عليه جبهة آنليل اللامعة.... وأما من يرتكب شراً قبلي ومن يشوه صنع يدي ومن يدخل المخزن ويغير في القاعدة ومن يمحو النقوش ومن يكتب اسمه عليها..... فإنه سوف..... سواء أكان.... ألا فلتنزع عنه وليحدث له..... ألا فليأخذ منه "أشنان" و"سوموجان" سادة الاكثار.... هـ. ألا فليقوّض "أوتو" قاضي السماء والأرض.... هـ.... من أساسه.... ألا لا تثبت أرضه... ليصب "نينورتا" البطل القوي ابن آنليل[2].

---

(1) إكور: معبد آنليل الرئيس في نيبور.

(2) د. إبراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق، 49/6 – 53.

قانون حمورابي[1]

المقدمة

1 - حين حدد "أنوم"[2] المتعالي ملك "أنوناكي"[3] و"آنليل"[4] سيد السماء والأرض ومحدد أقدار البلاد... لـ"مردوك"[5] بكر "أنكي"[6] وظائف "آنليل" على البشر جميعاً... جعلاه سيداً على الـ"أجيجي" وسميت بابل باسمها المبجل وجعلت أعظم ما في العالم... أسست له في وسطها ملكية خالدة أسسها ثابتة ثبات السماء والأرض... في ذلك الوقت عينني "أنوم" و"آنليل" لأعمل على إسعاد الناس... أنا حمورابي... المكرس... الأمير الذي يخاف الله... لأقيم العدل حتى يسود الأرض ولأقضي على الشر والسوء حتى لا يطغى القوي على الضعيف ولأرتفع كالشمس فوق الأقوام ذوي الرؤوس السوداء ولأضيء الأرض... أنا حمورابي... الراعي... الذي عينه "آنليل" أنا من أعمل على الإكثار وأنمي في

(1) انظر ص 465 وما بعدها.

(2) «أنوم» رب السماء: ويعبد في معبد «إيانا» مع المعبودة - إينانا - في الوركاء.

(3) الـ«أنوناكي» في هذا النص هم الآلهة الصغرى في خدمة «أنوم» والـ «أجيجي» هم الآلهة الصغرى في خدمة «آنليل».

(4) «آنليل» رب العاصفة وله معبد هو «ايكور» في «نيبور» وسط بابل «نوفر حالياً».

(5) «مردوك» هو ابن «أنكي» وزوج «ساربانيت» وهو إله بابل ثم إله الإمبراطورية في عهد حمورابي.

(6) «أنكي» رب الأرض وكتلة المياه التي تسبب الحياة فيها وهو أب «مردوك» ومعبده هو «إيابزو» في «أريدو» جنوب بابل «أبو شهرين حالياً».

وفرة كل مال "نيبور - دورانكي"[1] الحامي الوفي المكرس لـ "إيكور" الملك الكفء الذي أصلح "أريدو" وأعادها إلى مكانها.

2 - أنا من طهر عبادة "إيابزو" من يركض في أنحاء العالم الأربعة، من يجعل اسم بابل عظيماً، من يسعد قلب "مردوك" مولاه، من ظل طوال حياته يعد نفسه مسؤولاً عن "إيساجيل" سلالة الملكية، من ذرأه "سين"[2] ذلك الذي دفع "أور" إلى التقدم.. التقي.. المرتجى.. من وفر الثراء لـ"إجيش شرجال" المالك العاقل المطيع لـ"شماش"[3] القوي، من أعاد وضع أسس "سيبار" من زيّن بالخضرة هياكل "أيا" مصمم معبد "إيبابار" الذي يشبه المسكن السماوي.. الجندي.. حامي "لارسا"[4] من أعاد بناء "إيبابار" لـ"شماش"، معاونه... السيد المولى الذي أحيا "الوركاء"[5] ووفر الماء كثيراً لشعبها ورفع عالياً رأس "أيانا" ومن زاد في ثراء "أنوم" و"إينانا" ملجأ البلاد الذي جمع شمل قوم "إيسن"[6]، الذي أثرى معبد "إيجالما" حاكم الملوك الأخ الحق لـ"زاباباً"[7] معيد تأسيس قاعدة "كيش" الذي

---

(1) «دورانكي» رباط السماء والأرض وهو اسم سومري لـ«نيبور» يشير إلى تمجيدها. وهي مركز عبادة «آنليل» صاحب معبد «إيكور».

(2) «سين» هو إله القمر وهو ابن «آنليل» آب «شماش» وزوج «تنجال». وعبادته في معبد «إيجيش شرجال» في أور في جنوب بابل (المقير حالياً).

(3) «شماش» إله الشمس ورب العدالة، زوج «أيا» ومعبده «أبابار» يقع في «سيبار» شمالي بابل (أبو حبة حالياً).

(4) «لارسا» مقر آخر لعبادة «شماش» وهي إلى جنوب بابل (سنكرة حالياً) ومعبدها يدعى كذلك «إيبابار» وقد تم استيلاء حمورابي عليها في العام الثلاثين من حكمه بعد أن قضى على آخر ملوكها «رم سن».

(5) «الوركاء» (أوروك) مدينة مهمة في جنوب بابل، فتحها حمورابي في العام السادس من حكمه هي مقر عبادة «أنوم» و«إينانا» ويعرف معبدها باسم «أيانا».

(6) «إيسن» مدينة في جنوب نيبور فتحها «رم سن» في العام التاسع والعشرين من حكمه ثم فتحها حمورابي في العام السادس من حكمه، وهي مقر عبادة «نن كاراك» واسم معبدها «إيجالما».

(7) «زاباباً» صورة أخرى لـ«نينورتا» ويعبد خصوصاً في «إيمتي أورساج» في «كيش» شمال شرقي بابل (تل الأحيمر حالياً).

أحاط "إيميت أورساج" بالأبهة والفخار، الذي أمن الهياكل الكبرى لـ"إينانا" راعي معبد "هورساج كالاما"[1] رعب الأعداء.

3 - ذلك الذي جعله "إيررا"[2] رفيقه يحقق أطماعه والذي جعل "كوثة" متعالية والذي يسّر كل شيء لـ"مسلام" الثور البري المتوقد الذي يناطح العدو. محبوب "توتو"[3] من يجلب السرور لـ"بورسيبا" المكرس الذي لم يقف عائقاً أمام "إيزيدا"، الإله بين الملوك المعروف بالحكمة، ومن وسع الأراضي الزراعية الخاصة بـ"دلبات"[4] الذي يقوم بخزن الحبوب لـ"أوراش" القوي. السيد المولى حامل الصولج والتاج الذي أوصله الحكيم "ماما"[5] إلى الكمال والذي وضع تصميم "كش"... الذي يجعل ولائم "ننتو" فاخرة... الكامل الذي يحدد المراعي وأماكن الري لـ"لجش" و"جرسو"[6] والذي يكثر من التضحيات لـ"أنينو" من يقبض على العدو... المقرب لدى "تليتوم"[7] ومن ينفذ وحي "حلاب"[8] الذي يسعد قلب "عشتار"[9] الأمير الفاخر الذي يعرف "أدد" أدعيته وصلواته... ذلك الذي يهدئ قلب "أدد"[10] المحارب في "بيت كركار" الذي أعاد تأسيس التعيينات في "إيود جلجال" الملك الذي منح "أداب"[11] الحياة، مدير معبد "إيماه" رئيس الملوك.. المحارب بغير نظير...

---

(1) «هورساج كالاما» معبد «إينانا» في «كيش» حيث كانت تعبد كزوجة لـ«زبابا».

(2) «إيررا» رب الحرب، ويقرن كثيراً بـ «نرجال» وله معبد في «كوثة» شمال بابل هو «مسلام» (تل إبراهيم حالياً).

(3) «توتو» لقب من ألقاب «مردوك» أصلًا، وهو هنا لقب ابنه «نابوم» إله الكتابة ومقر عبادته «بورسيبا» قرب «بابل» بمعبدها «إيزيدا».

(4) «دلبات» مدينة لا تبعد كثيراً عن بورسيبا وهي مقر عبادة «أوراش».

(5) «ماما» ربة تعبد في «كش» قرب «لجش» في وسط بابل وهي تعرف كذلك باسم «ننتو».

(6) «جرسو» وهي «لجش» (تللو حالياً) مدينتان توأمان في وسط بابل، وإله المدينة هو «ننجرسو» ومعبده «أنينو».

(7) «تليتوم» لقب «إينانا».

(8) «حلاب» مدينة في بابل هي مقر عبادة عشتار ومكانها الحالي مجهول.

(9) «عشتار» الاسم السامي للمعبودة «إينانا».

(10) «أدد» رب ألجو ومعبده «أيود جلجال» في بيت كاركار (ومكانها غير معروف).

(11) «أداب» مدينة على الفرات في وسط بابل (بسمايا حالياً) ومعبودتها «ماه» ومعبدها «إي ماه»

4 - مـن منـح الحيـاة "ماشـكان شـبريم"[1] مـن يوفـر الشـراب لـ"مسـلام" العاقـل،... الإداري الذي غاص فـي أعمـاق الحكمـة. منقـذ قـوم "مالـكا"[2] من الشـقاء... مؤسـس أماكن السـكنى لهـم في وفـرة من أجل "أنكـي" و"دامجـال نونـا"، موسـع مملكتـه، الـذي قدم التضحيـات الفاخـرة كل الوقـت. أول الملوك مخضع الأقاليـم علـى طـول الفـرات بفضـل قـوة خالقه "داجـان"[3] مـن أنقذ قوم "ميـرا" و"توتـول"[4] الأميـر الورع الـذي يجعـل وجـه "إينانـا" وضـاء، المكثّـر مـن الولائـم لـ"نينـازو"[5] منقذ قومه مـن البلاء... مـن يدعم في أمـان نصيبهـم فـي وسـط بابـل... راعـي الناس، ذلك الـذي ترضي أعمالـه عشـتار... الذي أحلّ "عشـتار" في "إيولمـاش" فـي وسـط ميـدان "أكـد"[6]، الذي يجعـل القانون نافـذاً والذي يقـود قومه في الطريـق الحق... ذلـك الـذي أعـاد إلـى "أشـور"[7] عبقريتهـا الحاميـة العطوفة والذي غلـب المهتاجيـن... الملـك الذي جعل اسـم "إينانـا" ممجـداً فـي "نينـوى"[8] فـي "ايميـش ميـش" الـورع الـذي يدعو فـي حـرارة الآلهـة الكبرى... سـليل "سـومولاإيل"[9] الابـن القـوي، وريث سـن موبـا لليت.

(1) «مشكان شبريم» مدينة لا تبعد كثيراً عن «أداب».

(2) «مالكا» مدينة في أواسط الفرات، غزاها حمورابي في السنة التاسعة، وأخمد ثورة لها في العام الرابع والثلاثين، وهي مقر عبادة «أنكي» وزوجته «دامجال نونا» التي تعرف كذلك باسم «دامكينا» وهي أم «مردوك».

(3) «داجان» إله حبوب سامي، أصله سامي غربي، نقلت عبادته إلى «ميزوبوتاميا»، وعبد خصوصاً في أواسط الفرات.

(4) «ميرا» و«توتول» مدينتان في وسط الفرات، وربما كانت «ميرا» هي «ماري» (تل الحريري حالياً) التي غزاها حمورابي في العام الثاني والثلاثين.

(5) «نينازو» إله الطب ومقر عبادته خصوصاً هي «أشنونا» في معبده «إيسيكيل».

(6) «أكد» مدينة قديمة في شمال بابل أسسها سرجون العظيم وجعل منها عاصمة له، وهي مقر عبادة «عشتار» ومعبدها «يولماش».

(7) «أشور» العاصمة القديمة على الدجلة الأعلى (قلعة شرجات حالياً).

(8) «نينوى» عاصمة أشور فيما بعد على الدجلة الأعلى وهي مقر عبادة «إينانا» ومعبدها «ايميش ميش»

(9) «سومولاإيل» الملك الثاني للأسرة البابلية.

5 - البذرة العتيدة للملكية... الملك القوي... شمس بابل الذي يجعل الضوء يندفع فوق أراضي سومر وأكاد[1]، الملك الذي أخضع أنحاء المعمورة الأربعة...

أنا... محبوب إينانا.

حين أرسلني مردوك لأقود الشعب في طريق الحق.

ولأدير البلاد.

وضعت أسس القانون والعدالة في لغة الأرض.

مستهدفاً مصلحة الشعب.

في ذلك الوقت.

قررت:

القانون[2]

1 - إذا اتهم رجل آخر بجريمة قتل لم يستطع إقامة الدليل عليها، قتل.

2 - إذا اتهم رجل آخر بالسحر ولم يستطع إقامة الدليل اختبر بامتحان النهر فيرمي نفسه فيه فإن غلبه النهر على أمره استولى خصمه على ضيعته وإن أظهر النهر أنه بريء وخرج سالماً فإن المدعي يقتل ويأخذ المدعى عليه ضيعته.

3 - إذا شهد شاهد بشهادة زور في قضية ولم يستطع إثبات قوله وكانت القضية تتصل بالحياة، يقتل.

4 - إذا كانت شهادة الزور تتصل بالحبوب أو المال، أوقعت به العقوبة.

5 - إذا حكم قاض حكماً وأصدر قراراً وأبرز وثيقة مختومة ثم عدل في الحكم وأمكن إثبات أن القاضي غيّر في الحكم الذي أصدره، دفع 12 ضعف الدعوى موضوع القضية ثم عزل عن كرسي القضاء وطرد من الجماعة ولا يجلس مرة أخرى مع القضاة أثناء النظر في القضايا.

---

(1) «سومر» و«أكاد» سومر الاسم القديم لجنوبي بابل، وأكاد الاسم القديم لشمالها، والاسمان معاً اسم عام للإقليم جميعه.

(2) الرجل يقصد به دائماً المواطن من طبقة الأحرار.

6 - إذا سرق رجل متاع معبد أو متاع الدولة فإنه يقتل. وكل من وضع يده على متاع مسروق يقتل .

7 - إذا اشترى رجل أو أخذ كأمانة ذهباً أو عبداً أو جارية أو ثوراً أو نعجة أو جحشاً أو أي شيء آخر من يد ابن رجل آخر أو عبده بغير شهود أو عقود.... فهو لص.... ويقتل.

8 - إذا سرق رجل ثوراً أو نعجة أو جحشاً أو خنزيراً أو قارباً.... إن كانت للمعبد أو للدولة يدفع ثلاثين ضعفاً. وإن كانت لمواطن يدفع عشرة أمثال وإن لم يكن لديه ما يكفي لدفع التعويض، يقتل.

9 - إن عثر على بضاعة مسروقة من رجل في حيازة آخر وأقسم هذا الأخير أن بائعاً باعني إياها وقمت بالشراء في حضرة شهود وأعلن صاحب المسروقات "سأقدم الشهود على بضاعتي المسروقة" فإن المشتري ما دام قد قدم البائع والشهود الذين تمت الصفقة بحضورهم كما قدم صاحب البضاعة الشهود على ملكيته لها فإن القضاة يفصلون في النزاع.... الشهود الذين تم الشراء بحضورهم والشهود الذين يشهدون بملكيتها لصاحبها يشهدون بذلك في حضرة الإله..... فإذا ثبت أن البائع لص فإنه يقتل. أما صاحب البضاعة المسروقة فيستردها وأما المشتري فيأخذ من أملاك البائع المال الذي دفعه.

10 - إذا لم يرشد المشتري إلى البائع الذي باعه البضاعة والشهود الذين تم الشراء بحضورهم ولكن صاحب البضاعة قدم شهوده.... فالمشتري لص.... يقتل، وصاحب المتاع يسترد متاعه.

11 - إذا لم يقدم صاحب البضاعة المسروقة شهوده على ملكيته للبضاعة المسروقة فهو مخادع غشاش... يقتل.

12 - إذا كان البائع قد مات فإن المشتري يأخذ من ضيعته خمسة أمثال قيمة الدعوى في القضية.

13 - إذا لم يكن من الميسور وجود شهود الرجل فإن القاضي يمنحه أجلاً قدره ستة شهور فإذا لم يقدم الشهود خلالها فهو مخادع وينال الجزاء.

14 - إذا سرق رجل ابناً صغيراً لآخر حكم عليه بالموت.

15 - إذا عاون رجل عبداً للدولة أو جارية للدولة أو عبداً لمواطن أو جارية لمواطن على الهرب من بوابة المدينة، قتل.

16 - إذا آوى رجل في بيته عبداً هارباً أو جارية هاربة ممن يمتّون إلى الدولة أو إلى المواطنين ولم يقدمهم عند استدعاء الشرطة فإن صاحب البيت يقتل.

17 -إذا أمسك رجل بعبد هارب أو جارية هاربة في العراء وأخذه كملك له فإن صاحب العبد يدفع له عشرة شواقل من الفضة.

18 - إذا لم يعين العبد اسم صاحبه يأخذه إلى القصر حتى يتم التحري عنه ثم يعاد إلى صاحبه.

19 - إذا احتفظ بهذا العبد في بيته.... أو اتضح فيما بعد أن العبد بقي في حوزته، قتل ذلك الرجل.

20 - إذا هرب العبد من يد آسره يؤيد الرجل ذلك بقسم أمام الإله لصاحب العبد وعندئذ يطلق سراحه.

21 - إذا أحدث رجل صدعاً في منزل قتل أمام الصدع وحشر بداخله وسُدّ عليه.

22 - إذا ضُبط رجل متلبساً بسرقة، قتل.

23 - إذا لم يضبط السارق فإن صاحب المتاع المسروق يقدم تفصيلات المسروقات بحضرة الإله وعندئذ تعوضه المدينة، التي وقعت السرقة في ناحيتها وحاكمها، من متاعه المسروق.

24 - إذا كان ما سرق "حياة" دفعت المدينة إلى الحاكم مينا من الفضة تعويضاً لأهلها.

25 - إذا شبت نار في بيت رجل وذهب رجل لإطفائها ثم رنا بعينه إلى متاع صاحب البيت وحاول اختلاسه، قتل بإلقائه في النار.

26 - إذا كُلّف جندي خاص أو مبعوث مهمة للملك ولم يذهب أو استأجر بديلاً له قتل ذلك الجندي أو المبعوث ثم تسلّم أملاكه إلى بديله.

27 - إذا أسر جندي خاص أو مبعوث وهو في الخدمة العامة للملك وكانت حقوله وبساتينه قد أعطيت بعد اختفائه لآخر ارتبط بالتزاماته الاقطاعية فإنه في حالة العودة والرجوع إلى المدينة يُعاد إليه حقله وبستانه ويرعى بنفسه التزاماته الاقطاعية.

28 - إذا كان للجندي الخاص أو المبعوث الذي أسر وهو في الخدمة العامة للملك ابن يستطيع أن يرعى التزاماته الاقطاعية أعطي الحقل والبساتين ليرعى الالتزامات الاقطاعية لأبيه.

29 - إذا كان الابن صغيراً بحيث لا يستطيع رعاية الالتزامات الاقطاعية لأبيه أعطيت الأم ثلث الحقل والبستان حتى تقوم بتربيته.

30 - إذا سلّم جندي خاص أو مبعوث حقله وبستانه وبيته بسبب الالتزام الاقطاعي ثم غاب وبعد رحيله أخذ آخر حقله وبستانه وبيته ورعى الالتزامات الاقطاعية مدى ثلاث سنوات... فإن عاد وطالب بحقله وبستانه وبيته لا يُعطاها... إن من أخذها ورعى التزاماتها الاقطاعية تصبح من حقه الاقطاعي.

31 - إذا غاب لمدة سنة واحدة فقط ثم عاد فإن البستان والبيت يُردان إليه ويرعى الالتزام الاقطاعي.

32 - إذا دفع تاجر فدية جندي خاص أو مبعوث أسر في حملة للملك ومكّنه من الوصول إلى مدينته فإن المفتدى يدفع فديته عن نفسه إن كان لديه ما يكفي في بيته، أما إذا لم يكن لديه ما يكفي في بيته فيفتدى من أملاك إله المدينة فإذا لم يكن هناك ما يكفي من أملاك إله المدينة فإن الدولة تفتديه. وأما حقله وبستانه وبيته فلا تصفى مقابل الفدية.

33 - إذا تملّك "روكوم" أو "لوبوتوم" (منصبان عسكريان يعادلان شاويشاً وضابطاً) جندياً وقبل أن يذهب مستأجراً كبديل في حملة للملك فإنهما يقتلان.

34 - إذا اغتصب "روكوم" أو "لوبوتوم" متاع جندي أو أساء أحدهما إلى جندي أو استأجر أحدهما جندياً أو أصدر حكماً ضده ظلماً لمصلحة من هو أعلى منه رتبة أو اغتصب منحة منحه إياها الملك فإن الـ"روكوم" أو الـ"لوبوتوم" يعاقب بالموت.

35 - إذا اشترى رجل من جندي ماشية أو غنماً كان الملك قد أعطاها الجندي فإنه يدفع ماله غرامة.

36 - حقل الجندي أو بستانه أو متعلقات بيته.... هو أو المبعوث الاقطاعي.... لا تباع بحال من الأحوال.

37 - إذا اشترى رجل حقلاً أو بستاناً أو شيئاً من متعلقات بيت جندي أو مبعوث أو إقطاعي فإن لوحة التعاقد تكسر ثم يدفع ماله غرامة مع إعادة الحقل والبستان إلى صاحبهما.

38 - ليس من حق جندي أو مبعوث اقطاعي أن يتخلى عن حقله أو بستانه أو بيت اقطاعيته لزوجته أو ابنته وليس له بأي حال من الأحوال أن يتنازل عنها مقابل التزام عليه.

39 - يجوز له أن يتنازل لزوجته أو ابنته عن أي حقل أو بستان أو بيت اشتراه ثم تملكه كنتيجة لذلك وهو يستطيع أن يعينهما لالتزام خاص به.

40 - "الناديتوم" (طبقة كهنوتية) أو التاجر أو الاقطاعي الخاص يستطيع أن يبيع حقله أو بستانه أو بيته على أن يتقبل الشاري التزام ما اشتراه.

41 - إذا تملك رجل عن طريق المقايضة حقلاً أو بستاناً أو بيتاً خاصاً بجندي أو مبعوث اقطاعي ثم قام بدفع ثمن إضافي فإن الجندي أو المبعوث الاقطاعي يعاود تملك حقله أو بستانه أو بيته، كما يحتفظ بما دفع إضافياً.

42 - إذا استأجر رجل حقلاً للزراعة ثم لم ينتج حبوباً في الحقل فإن هذا يشير إلى أنه لم يقم بعمل في الحقل ومن ثم يدفع إلى مالك الحقل حبوباً على أساس الأرض المجاورة.

43 - إذا لم يزرع الحقل بل أهمله فإنه يدفع حبوباً إلى صاحب الحقل على أساس ما يجاوره بل إنه يقوم بحرث الحقل الذي أهمله ويُعاد إلى صاحبه.

44 - إذا استأجر رجل حقلاً بوراً لمدة ثلاث سنوات لتحسينه ولكن كسله أدى إلى أنه لم يقم بتحسينه فإنه يحرث أرضه في السنة الرابعة ويكسر كتله ويعيده إلى صاحبه بل - أكثر من ذلك - يكيل عشرة "كور" من الحبوب لكل 18 "إيكو".

45 - إذا أجر مالك حقله لمستأجر وتسلم إيجار حقله ثم أغرق "أدد" فيما بعد الحقل أو اجتاحه الفيضان فإن الخسارة تقع على المستأجر.

46 - إذا لم يكن قد تسلم الإيجار سواء كان أجر الحقل لنصف "المحصول" أو ثلثه فإن مستأجر الحقل ومالكه يقتسمان ما ينتجه الحقل من حبوب.

47 - إذا كان المستأجر قد طلب من آخر أن يزرع الحقل لأنه لم يستطع استغلاله في السنة السابقة فإن مالك الأرض ليس له أن يعترض ولمستأجره الجديد أن يزرع حقله وفي موسم الحصاد يأخذ الحبوب بما يتفق والعقود.

48 - إذا كان هناك دين في ذمة رجل ثم أغرق "أدد" حقله أو اجتاحه فيضان أو لم تتمُ الحبوب بسبب الماء في الحقل فليس له أن يعيد شيئاً من الحبوب إلى دائنه في هذه السنة بل يلغي لوحة العقد ولا يدفع فائدة عن تلك السنة.

49 - إذا اقترض رجل مالاً من تاجر ورهن عند التاجر حقلاً معداً للحبوب أو السمسم وقال له: "ازرع الحقل ثم اجمع المحصول وخذ الحبوب أو السمسم الذي تنتجه".... وإذا كان المستأجر أنتج حبوباً أو سمسماً من الحقل فإن صاحب الحقل نفسه يأخذ في موسم الحصاد الحبوب أو السمسم التي أنتجها الحقل ويعطي تاجر الحبوب مقابل ماله الذي استدانه منه مع الفوائد وكذا ما يقابل تكاليف الزراعة.

50 - إذا رهن حقلاً مزروعاً بالحبوب أو حقلاً استنبت به السمسم فإن صاحب الحقل نفسه يأخذ الحبوب أو السمسم الذي أنتجه الحقل ثم يرد المال وأرباحه إلى التاجر.

51 - إذا لم يكن لديه المال ليرده فإنه يعطي التاجر مقابل ماله حبوباً أو سمسماً بسعر السوق الذي يحدده الملك، ذلك المال الذي استدانه التاجر مع فائدته.

52 - إذا كان المستأجر لم ينتج حبوباً أو سمسماً في الحقل فله أن لا يغير عقده.

53 - إذا تكاسل رجل عن أن يقوّي سد حقله ولم يصنعه قوياً وحدث به صدع ثم كان من أثر ذلك أن اجتاح الماء الأرض المزروعة فإن الرجل الذي انصدع السد في أرضه يأخذ في مقابل الحبوب التي أصابها الخسار.

54 - إذا لم يكن قادراً على التعويض بالحبوب يباع كما يباع متاعه ويقتسم الزارعون الذين أتلف الماء محصولهم ماله.

55 - إذا حدث أن تكاسل رجل عند فتح قناته للري بحيث اجتاح الماء حقلاً مجاوراً لحقله فإنه يكيل تعويضاً بمقدار ما أصابه الخسار.

56 - إذا فتح رجل الماء ثم تركه يغتال ما تم من عمل في حقل مجاور يدفع 10 "كور" مقابل كل 18 "ايكو".

57 - إذا لم يتفق راع مع صاحب حقل لترعى أغنامه الحشائش بل تركها ترعى الحقل دون موافقة صاحبه فإنه حين يجمع صاحب الحقل المحصول فإن الراعي الذي رعى غنمه

في الحقل دون موافقة صاحب الحقل يدفع بالإضافة 20 "كوراً" من الحبوب لكل 18 "إيكو" إلى صاحب الحقل.

58 - إذا حدث بعد أن تركت الأغنام المرعى بعد أن احتجز القطيع كله داخل بوابة المدينة، أن ساق الراعي الأغنام إلى حقل ثم رعت فيه فإن الراعي ملزم بأن يرعى الحقل الذي رعت فيه الأغنام ثم إنه في موسم الحصاد يدفع 60 "كوراً" لكل 18 "إيكو" إلى صاحب الحقل.

59 - إذا قطع رجل شجرة من بستان رجل آخر دون موافقة صاحبه دفع نصف مينا من الفضة.

60 - إذا حدث أنه عندما يسلم رجل الحقل إلى بستاني ليصنع بستاناً فإن البستاني حين يفعل ذلك يجب عليه أن يرعاه لمدة أربع سنوات وفي السنة الخامسة يتقاسمه مناصفة مع صاحب الأرض. ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل.

61 - إذا كانت أرضاً بوراً فإنه يقوم بالعمل اللازم في الحقل ويعيده إلى صاحبه كما يكيل 10 "كور" من الحبوب لكل 18 "إيكو" عن كل سنة.

63 - إذا سلم رجل بستاناً إلى بستاني كي يلقحه، فإن البستاني يعطي صاحب البستان ثلث محصول البستان كإيجار للبستان طوال مدة استثمارة له. أما هو فيأخذ الثلث.

65 - إذا لم يقم البستاني بتلقيح البستان ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع إيجار البستان بما يعادل إيجار المثل المجاور.

66 - إذا استدان رجل من تاجر ثم ضيّق عليه التاجر ولم يكن لديه ما يدفعه، فإذا أعطاه البستان بعد التلقيح وقال له "خذ مالك بلحاً بقدر ما أنتج البستان" فإنه لا يسمح للتاجر بذلك لأن لصاحب البستان نفسه أن يأخذ ما أنتج البستان من بلح ويدفع إلى التاجر مقابل ماله وفائدته طبقاً لنص اللوحة كما لصاحب البستان بدوره أن يأخذ بقية البلح الذي أنتجه البستان.

67 - إذا بنى رجل بيتاً فإن جاره...

68 - .....

69 - .....

70 - ..... يعطيه .....

71 - إذا كان يعطي إقطاعية، يريد شراءها من ولاية مجاورة، حبوباً أو مالاً أو بضائع، فإنه يدفع غرامة ما سبق أن دفعه وتعود الضيعة إلى صاحبها. وإذا لم يكن للضيعة التزامات إقطاعية فله أن يشتريها ما دام يدفع لمثل هذه الضيعة حبوباً أو مالاً أو بضائع.

72-77 ... مواد ضائعة، إلا من ألفاظ ورد فيها أمر بناء المنزل.

78 - إذا أجر رجل آخر منزلاً ودفع المستأجر الأجر إلى صاحب البيت لمدة عام ثم قال المالك للمستأجر وعقده لا يزال نافذ المفعول "اترك المنزل" فإن صاحب البيت يدفع غرامة المال الذي دفعه المستأجر لأنه طلب إليه أن يترك المنزل وعقده نافذ المفعول.

79-87....

88 - إذا أقرض تاجر حبوباً بفائدة أخذ مقابلها 60 "قو" من الحبوب لكل "كور" كفائدة وإذا أقرض مالاً بفائدة أخذ سدس شاقل و6 "شي" (أي خمس شاقل) لكل شاقل من الفضة كفائدة.

89 - إذا لم يكن لدى رجل ما يسد له الدين ولكن كانت لديه حبوب فإن التاجر يأخذ حبوباً مقابل ماله مع فائدة تتفق والسعر الذي يحدده الملك.

90 - إذا زاد تاجر الفائدة على 60 "قو" للـ "الكور" من الحبوب أو سدس شاقل و 6 "شي" على شاقل المال ثم أخذها فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرض.

91 - إذا أقرض تاجر حبوباً بفائدة ثم أخذ ماله بفائدة كاملة من الحبوب فإن الحبوب مع المال قد لا....

92 - .....

93 - إذا كان التاجر .... أو لم يستنزل القدر الكافي من الحبوب الذي تسلمه ولم يكتب عقداً جديداً أو كان قد أضاف الفائدة إلى رأس المال فإن التاجر يردّ ضعف القدر الكامل الذي تسلمه من الحبوب.

94 - إذا أقرض تاجر بفائدة حبوباً أو مالاً وعند التسليم دفع المال بالوزن الصغير

والحبوب بالمكيال الصغير ولكن حين استرد فعل ذلك بالوزن الكبير والمكيال الكبير فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه.

95 - إذا أقرض تاجر حبوباً أو مالاً بفائدة وأعطى ... فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه.

96 - إذا استدان رجل حبوباً أو مالاً من تاجر ولم يكن لديه حبوب أو مال يرده بل بضائع فإنه يعطي تاجره ما يملك مثبتاً أمام شهود أنه سيأتي بها وعلى التاجر أن يقبل ذلك دون اعتراض.

97 - ..... فإنه يقتل.

98 - إذا سلّم رجل إلى آخر مالاً للشركة فإنهما يقتسمان مناصفة في حضرة الإله الربح أو الخسارة الناجمين.

99 - إذا أقرض تاجر مالاً بفائدة تاجراً متجولاً يقصد التجارة وأرسله إلى الطريق فإن التاجر المتجول... على الطريق ... المال الذي عهد إليه به.

100 - إذا كان قد حقق ربحاً حيث حل فإنه يسجل الفائدة على المبلغ بالكامل الذي استدانه ثم يحسبان الأيام عليه، ويرد إلى التاجر.

101 - إذا لم يكن قد حقق ربحاً حيث ذهب فإن التاجر المتجول يدفع إلى التاجر ما اقترضه من مال مضاعفاً.

102 - إذا كان تاجر قد أقرض تاجراً متجولاً قرض مجاملة وتحققت خسارة حيث ذهب فإنه يعيد رأس المال إلى التاجر.

103 - إذا هاجمه عدو في الطريق جعله يسلم إليه كل ما يحمل فإنّ التاجر المتجول يقسم بالإله وعندئذٍ يطلق حراً.

104 - إذا أقرض تاجر تاجراً متجولاً حبوباً أو صوفاً أو زيتاً أو أي بضاعة لبيعها بالقطاعي فإن التاجر المتجول يسجل القيمة ويردها إلى التاجر على أن يتسلم وصلاً بما يدفعه إليه من مال.

105 - إذا كان التاجر المتجول مهملاً بحيث لم يحصل على وصل مختوم بالمال الذي دفعه إلى التاجر فإن المال بغير وصل مختوم قد لا يضاف إلى الحساب.

106 - إذا استدان تاجر متجول مبلغاً من المال من تاجر ثم حدث نزاع فإنّ على التاجر أن يثبت في حضرة الإله والشهود أن التاجر المتجول استدان المبلغ وعندئذٍ يدفع التاجر المتجول إلى التاجر ثلاثة أمثال المبلغ موضوع الدين.

107 - إذا عهد تاجر بشيء إلى تاجر متجول ثم أعاد هذا إليه ما أعطاه فإنه في حالة حدوث نزاع بينهما وإنكار التاجر المتجول أنه تسلم شيئاً فإنه على التاجر المتجول أن يثبت ذلك بالقسم ضد التاجر في حضرة الإله والشهود وعندئذ يدفع التاجر ستة أمثال الشيء موضوع هذا النزاع.

108 - إذا تسلّمت بائعة خمور ثمناً للشراب نقوداً بالوزن الكبير بدلاً من أن تتسلم حبوباً وبذا جعلت سعر الشراب أقل من قيمة الحبوب فإنهم يثبتون ذلك ضدها ويلقون بها في ماء النهر.

109 - إذا تجمهر بعض المتشردين في حانة بائعة خمور ولم تقبض عليهم ولم تأخذهم إلى القصر فإنها تقتل.

110 - إذا كانت "ناديتوم" (من طبقة الكاهنات) أو "أنتوم" (من طبقة الراهبات) ممن لا يَعِشْن في دير - يفتتحنَ حانة أو يدخلنَ حانة بقصد الشراب فالعقوبة: الحرق.

111 - إذا أعطت بائعة قنينة من شراب "بيخوم" نسيئة فإنها تأخذ 50 " قو" من الحبوب عند جمع المحصول.

112 - إذا كان رجل في رحلة تجارية وأعطى رجلاً آخر فضة وذهباً وأحجاراً كريمة أو أية بضائع من متعلقاته وعهد إليه بنقلها فإن هذا الرجل إذا لم يسلّم ما كان يجب نقله إلى حيث كان يجب نقله بل أخذه لنفسه فإن صاحب البضائع التي كان مفروضاً أن تنقل يجب أن يثبت الاتهام ضد الرجل الأخير فيما يتصل بموضوع ما كان يجب نقله ولم يسلمه وعندئذ يدفع الرجل إلى صاحب البضاعة التي كانت يجب أن تنقل خمسة أمثال ما سلم إليه.

113 - إذا كان لرجل دين من حبوب أو مال على آخر ثم أخذ حبوباً من الشونة أو ساحة التذرية بغير موافقة صاحب الحبوب فيجب إثبات أن هذا الرجل أخذ حبوباً من الشونة أو ساحة التذرية دون موافقة صاحب الحبوب وعندئذٍ يعيد كمية الحبوب التي أخذها بأكملها ثم يدفع كذلك غرامة كل شيء آخر يكون قد اقترضه.

114 - إذا لم يكن لرجل دين حبوب أو مال على آخر ولكن احتجزه كرهن فإنه يدفع ثلث مينا من الفضة عن كل احتجاز.

115 - إذا كان لرجل دين حبوب أو مال على آخر ثم احتجز شخصاً كرهينة ثم ماتت الرهينة ميتة طبيعية في بيت المحتجز فليس هناك وجه لإقامة الدعوى.

116 - إذا كان موت الرهينة نتيجة ضرب أو إساءة في بيت المحتجز فإن صاحب الرهن عليه أن يثبت ذلك ضد تاجره فإن كان ابن الرجل قتل الابن، وان كان عبده دفع ثلث مينا من الفضة وغرامة عن كل ما يكون قد اقترضه.

117 - إذا حل أجل التزام على رجل ثم باع خدمات زوجته أو ابنه أو ابنته أو سخرهم للخدمة فإنهم يعملون في بيت مشتريهم أو ملتزمهم مدى ثلاث سنوات وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة.

118 - إذا سُخِّر عبد أو أمة للخدمة ثم أراد التاجر إشهار البيع فله أن يبيع دون وجه لإقامة الدعوى ضده.

119 - إذا قام التزام على رجل وكان من نتيجة ذلك أنه باع خدمات أمته التي ولدت أطفالاً فإن صاحب الأمة يستطيع أن يدفع فيما بعد ما كان التاجر قد دفعه ولم يسترد أمته.

120 - إذا أودع رجل حبوبه بيت رجل آخر فخزنها وحدث تلف في الشونة، أو كان صاحب البيت قد فتح المخزن وأخذ حبوباً أو أنه أنكر تماماً تسلّمه أيّ حبوب بقصد خزنها في بيته فعلى صاحبها أن يبين تفصيلات حبوبه في حضرة الإله وعندئذٍ يعطي صاحب البيت مالكَ الحبوب ضعف ما أخذ من حبوب.

121 - إذا أودع رجل حبوباً بيت آخر فعليه أن يدفع "قو" من الحبوب لكل "كور" مقابل التخزين لمدة سنة.

122 - إذا أراد رجل أن يودع آخر فضة أو ذهباً أو أي شيء آخر لحفظه (أمانة) فيجب أن يبيّن لشهود مقدار ما يود إيداعه ثم يحرر عقداً وعندئذٍ تتم عملية الحفظ (الإيداع).

123 - إذا سلم شيئاً لحفظه بغير شهود أو عقود ثم أنكروا تسلمها حيث أودعها فإن الحال لا يستدعي إقامة دعوى.

124 - إذا أعطى رجل آخر فضة أو ذهباً أو أي شيء آخر بصفة أمانة بحضرة شهود ثم أنكر الواقعة فيجب إثباتها ضده وعندئذ يدفع ضعف ما أنكره.

125 - إذا أودع رجل متاعه كأمانة ثم اختفى المتاع حيث أودعه كما اختفى متاع صاحب البيت إما بسبب دخول اللصوص وإما عن طريق نقب الحائط فإن صاحب البيت الذي كان إهماله سبباً في تبديد الأمانة يجب أن يعوض صاحب البضائع وعليه أن يبحث جدياً بحثاً كاملاً عن متاعه الضائع ويأخذه من اللص الذي سرقه.

126 - إذا لم يكن متاع الرجل قد سرق ولكنه أعلن "أن متاعي قد سرق" وبدا يحاول خدع مجلس مدينته فإن مجلس المدينة يستعرض الحقائق بحضرة الإله ويبيّن أن متاعه لم يسرق وعندئذ يدفع إلى مجلس مدينته ضعف ما ادعى به.

127 - إذا شهّر رجل براهبة أو زوجة رجل آخر ولم يستطع إثبات شيء جُرَّ ذلك الرجل إلى حضرة القضاة وقُصَّ كذلك نصف شعره.

128 - إذا كان لرجل زوجة ولكن لم يحرر معها عقوداً فإن هذه المرأة ليست زوجة.

129 - إذا ضبطت زوجة في حالة تلبّس مع رجل آخر رُبطا معاً وألقي بهما في ماء النهر. فإذا أراد الزوج إبقاء زوجته فللملك أن يحفظ على الرجل من رعيته حياته.

130 - إذا اتصل رجل بخطيبة آخر ولم يكن قد واقعها رجل من قبل وكانت لا تزال في بيت أبيها ثم رقد في صدرها وأمسك بها فإنه يقتل، أما المرأة فتطلق حرة.

131 - إذا اتهم رجل زوجته ولم تضبط متلبسة مع آخر وأثبتت دعواها بقَسَم أمام الإله عادت إلى بيتها.

132 - إذا شهّر بزوجة بسبب رجل آخر ولكن لم تضبط متلبسة في حالة اضطجاع مع رجل آخر فإنها تلقي بنفسها في النهر من أجل زوجها.

133 - إذا لم تحترس المرأة ثم دخلت بيت رجل آخر وجب إثبات ذلك ضدها ثم يلقى بها في النهر.

134 - إذا أُسِر رجل ولم يكن هناك في بيته ما يحفظ لأسرته الحياة فلزوجته أن تدخل بيت رجل آخر ولا لوم عليها.

135 - إذا لم يكن في بيت الأسير ما يكفي للإنفاق على أسرته ثم دخلت زوجته بيت رجل آخر قبل عودته وولدت له أطفالاً وأخيراً عاد زوجها ووصل إلى مدينته فإن هذه المرأة تُعاد إلى زوجها الأول وأما الأولاد فيبقون مع أبيهم.

136 - إذا هجر رجل مدينته ثم هرب ثم دخلت زوجته بيت رجل آخر بعد رحيله فإنه عند عودته ورغبته في استعادة زوجته لا تعود الزوجة إلى زوجها الهارب لأنه احتقر مدينته وفر هارباً.

137 - إذا عول رجل على أن يطلّق "شوجيتوم" رزقت منه أطفالاً أو "ناديتوم" جاءته بأطفال ردّت إلى هذه المرأة بائنتها. كما تعطى نصف الحقول والبستان والمتاع حتى يربّى أولادها وبعد أن تُتِمّ تنشئة أولادها تعطى نصيباً مماثلاً لأي وريث مما يوزع على أولادها حتى يستطيع الرجل الذي يختارها أن يتزوجها.

138 - إذا أراد رجل أن يطلق زوجته التي لم ترزق منه أطفالاً فعليه أن يسلّم إليها بالكامل كل ثمن زواجها وكذا بائنتها التي جاءت بها من بيت أبيها... ثم يطلقها.

139 - إذا لم يكن هناك ثمن زواج "فإنه يعطيها - مينا" واحدة من الفضة لإتمام الطلاق.

140 - إذا كان مزارعاً أعطاها ثلث مينا من الفضة.

141 - إذا كانت زوجة رجل تعيش في بيته قد عوّلت على أن تترك البيت لتعمل وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة فيجب إثبات ذلك ضدها، وإن عول زوجها بسبب ذلك على تطليقها فإنه يطلّقها دون إعطائها شيئاً لإتمام الطلاق عند رحيلها. وأما إذا لم يكن زوجها قد عول على تطليقها فله أن يتزوج غيرها وتبقى الزوجة السابقة في بيت زوجها كخادمة.

142 - إذا كرهت امرأة زوجها بحيث قالت "لا صلة لك بي" فيتحرى عن حالتها أمام مجلس المدينة فإذا كانت حريصة بحيث لا يبدو منها ما يعيبها رغم أن زوجها يخرج ويتحدث عنها بسوء فإن هذه المرأة يمكن تسريحها دون لوم إطلاقاً إلى بيت أبيها على أن تأخذ بائنتها معها.

143 - إذا لم تكن حريصة بل كانت دائمة الخروج للزيارات وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة فإنه يلقي بها في ماء النهر.

144 - إذا تـزوج رجـل "ناديتـوم" ثـم أسـلمت هـذه جاريـة لهـا إلـى زوجهـا ثـم رزق منها أطفـالاً وعول علـى التـزوج بكاهنـة فليـس لـه أن يفعـل ذلـك لأنـه ليس لـه أن يتـزوج كاهنة.

145 - إذا تـزوج رجـل "ناديتـوم" ولـم يـرزق منهـا أطفـالاً ثم عـول على التـزوج بكاهنة فلـه أن يتزوجها ويأتـي بهـا إلـى بيتـه ولكن هـذه الكاهنة لا ترتفـع إطلاقاً إلـى مرتبة الـ "ناديتوم".

146 - إذا تـزوج رجـل "ناديتـوم" وأعطتـه جاريـة حملـت منـه وجـاءت بأطفـال ثـم طالبـت بالمسـاواة بسـيدتها لأنهـا رزقـت أطفـالاً فليـس لسـيدتها أن تبيعها ولكـن لها أن تدمغها بميسـم الإمـاء وتعدّها ضمن عبيدها.

147 - إذا لم ترزق أطفالاً فلسيدتها أن تبيعها.

148 - إذا تـزوج رجـل ثـم مرضـت زوجتـه بالحمـى فإنـه فـي حالـة عزمـه علـى الـزواج بأخـرى فلـه أن يفعـل ذلـك دون أن يطلـق زوجتـه التـي مرضـت بالحمـى... إنهـا يجـب أن تعيـش فـي البيـت الـذي بنـاه ويسـتمر فـي إعالتهـا طـوال حياتها.

149 - إذا كانـت هـذه المـرأة قـد رفضـت أن تعيـش في بيـت زوجها ردّت إليهـا بائنتها التـي جاءت بها مـن بيـت أبيها وعندئـذ لها أن تتـرك البيت.

150 - إذا كان رجـل، عنـد إهـداء حقـل أو بسـتان أو بيـت أو متـاع إلـى زوجتـه، قد حرر عقـداً مختوماً معهـا فـإن أولادهـا لا يسـتطيعون الدخـول فـي دعـوى ضدهـا بعد وفـاة زوجها مـا دامت الأم تسـتطيع أن تمنـح إرثهـا ابنهـا الـذي تحبـه ولكن ليس لهـا أن تعطيـه غريباً.

151 - إذا كانـت امـرأة تعيـش فـي بيـت زوجهـا قـد نصّت فـي عقد زواجهـا إنّ دائن زوجها لا يسـتطيع ارتهانهـا بمقتضـى إبـراز وثيقـة مكتوبـة ... ثـم حـدث أن كان الرجـل مدينـاً قبـل الـزواج بتلـك المـرأة فإن دائنيـه لا يسـتطيعون احتجازهـا كمـا انـه إذا كانـت هـي مدينـة قبـل دخولهـا بيـت زوجهـا فـإن دائنيها لا يسـتطيعون احتجـاز زوجها.

152 - إذا حـدث الديـن بعـد دخـول المـرأة بيـت زوجهـا فعلـى الاثنيـن أن يسـاءلا أمام التاجـر (يقصد الدائن).

153 - إذا تسببت امرأة بموت زوجها بسبب رجل آخر وُضعت على الخازوق.

154 - إذا واقع رجل ابنته فعليه أن يترك المدينة.

155 - إذا اختار رجل عروساً لابنه ثم واقعها ابنه ثم ضبط هو بعد ذلك متلبساً معها رُبِط وألقي به في النهر.

165 - إذا اختار رجل عروساً لابنه ولم يواقعها ابنه ولكن ضاجعها هو فإنه يدفع لها نصف مينا من الفضة ثم يرد إليها كل ما جاءت به من بيت أبيها حتى يستطيع الرجل الذي تختاره أن يتزوجها.

157 - إذا ضاجع رجل أمه بعد موت أبيه أحرق كلاهما.

158 - إذا ضبط رجل بعد موت أبيه متلبساً بمضاجعة مرضعته التي كانت حاملة أطفال فإنه يقطع من بيت أبيه.

159 - إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ثم أحب امرأة أخرى وقال لحميه المقبل "لن أتزوج ابنتك" فإن أبا الفتاة يحتفظ بكل ما جيء إليه به.

160 - إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ثم قال والد الفتاة له "لن أزوجك ابنتي" فإنه يرد ضعف ما جيء إليه به.

161 - إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج وأساء إليه صديق له بأن قال أنّ حماه المقبل قال "لن تتزوج ابنتي" فإنه يرد مضاعفاً ما جيء إليه به. ولكن صديقه لا يتزوج تلك الزوجة.

162 - إذا اتخذ رجل زوجة ورزقت منه أطفالاً ثم ماتت فليس لأبيها أن يسترد بائنتها لأن هذه البائنة ملك لأولادها.

163 - إذا اتخذ رجل زوجة ثم ماتت دون أن تجيئه بأطفال وأعاد له حموه ثمن الزواج الذي كان قد قدمه إلى بيت حميه فليس لزوجها أن يدعي حقاً في بائنتها لأن هذه البائنة من حق بيت أبيها.

164 - إذا لم يردَّ حموه ثمن الزواج إليه فإنه يستنزل مبلغ ثمن الزواج بأكمله من بائنتها ويرد بقية البائنة إلى بيت أبيها.

165 - إذا كان رجل، عند إهداء حقل أو بستان أو بيت إلى بكر أولاده المحبوب في عينيه، قد كتب وثيقة مختومة له وجاء إخوته للتقسيم بعد وفاة أبيهم فإنه يحتفظ بالهدية التي أعطاه إياها أبوه مالاً كما أن ضيعة الأب تقسم بينهم بالتساوي.

166 - إذا كان رجل لم يختر زوجة لأصغر أبنائه عند اختياره زوجات لأبنائه فإن إخوته حين يقسمون تركته بعد موته يعطون أصغر الأبناء حصة إضافية تعادل ثمن الزواج من ضيعة أبيهم وهكذا يمكنونه من الحصول على زوجة.

167 - إذا تزوج رجل ورزق أطفالاً ثم ماتت زوجته فتزوج من بعدها بامرأة أخرى رزق منها أطفالاً كذلك فإنه حين يموت لا يقتسم الأطفال التركة تبعاً لأمهاتهم بل يستولون على بائنتي الأمّين، كل مجموعة على حدة ثم تقسم تركة الرجل بالتساوي بعد ذلك.

168 - إذا أراد رجل أن يحرم أحد أبنائه وقال للقضاة "أريد حرمان ابني من الإرث" فإن القضاة يتحرّون حالته فإذا لم يكن الابن قد ارتكب ذنباً خطيراً بحيث يحرمه حقه في البنوّة فليس من حق الأب أن يقطع عنه حقه في البنوّة.

169 - إذا كان قد ارتكب إثماً خطيراً يكفي لحرمانه من البنوّة فيجب العفو عن ذنبه الأول؛ فإن ارتكب خطأً خطيراً للمرة الثانية، فللأب أن يحرمه.

170 - إذا ولدت الزوجة الأولى لزوجها أطفالاً ثم جاءته جاريته بأطفال وقال الزوج في خلال حياته "أطفالي" لأبناء الجارية وبذا عدهم كأطفال الزوجة الأولى فإنه بعد موت الأب تقسم التركة بالتساوي بين أطفال الزوجة الأولى وأطفال الجارية على أن يكون لبكر الزوجة الأولى نصيب مفضّل.

171 - ومع ذلك فإذا لم يقل الأب خلال حياته "أطفالي" لمن جاءت بهم الجارية فإنه بعد وفاة الأب لا يشارك أبناء الجارية في متاع الأب أبناء الزوجة الأولى ولكن تحرّر الجارية وأولادها. وليس لأبناء الزوجة الأولى حق الخدمة على أبناء الجارية. وتأخذ الزوجة الأولى بائنتها وهدية الزواج اللتين كتبهما زوجها لها على لوحة وتعيش في بيت زوجها وتستمتع بالحياة فيه طوال عمرها دون أن يكون لها حق بيعه لأنه ميراث يخص أولادها.

172 - إن لم يكن زوجها قد أعطاها هدية زواج ترد إليها بائنتها وتحصل من متاع زوجها على ميراث يعد أحد الأنصبة. وإن ظل أولادها يضايقونها ليدفعوها إلى ترك الدار يتحرى القضاة الأمر ثم يلقون اللوم على الأولاد. وهكذا لا تترك المرأة البيت. أما إن عولت على تركه فتترك لأولادها هدية زواجها التي أعطاها إياها زوجها. أما البائنة التي أخذتها من بيت أبيها فتأخذها معها حتى يتزوجها الرجل الذي تختاره.

173 - إذا كانت تلك المرأة قد رزقت أطفالاً من زوجها الأخير في المكان الذي دخلته فإنه في حال موتها يقتسم أطفالها من زوجها القديم والجديد البائنة.

174 - إذا لم تكن قد رزقت أطفالاً من الزوج الثاني فأطفال الزوج الأول وحدهم يتقاسمون البائنة.

175 - إذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة رجل حر ورزقت منه أطفالا فليس لسيد العبد حق الخدمة على الأطفال من ابنة السيد.

176 - هذا إلى أنه إذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة سيد ثم إنها دخلت حين تزوجها بيت عبد القصر أو بيت عبد المواطن الخاص ببائنتها وارتبط بعضهما ببعض ثم أسسا بيتاً وأثثاه بمتاع ثم مات العبد فإن ابنة السيد تأخذ بائنتها ثم يقسم إلى قسمين ما اشتركت مع زوجها في شرائه بعد ارتباطهما ويأخذ صاحب العبد النصف وتأخذ هي النصف لأولادها.

176 "أ" - إذا لم يكن لابنة السيد بائنة يقسم إلى نصفين ما اشترته مع زوجها بعد ارتباطهما ويأخذ صاحب العبد نصفاً وتأخذ هي نصفاً لأولادها.

177 - إذا كان لأرملة أطفال قصر وعولت على دخول بيت رجل آخر فليس لها أن تدخل دون موافقة القضاة. فإنها حين تريد دخول بيت رجل آخر يتحرى القضاة حالة تركة زوجها السابق ثم يعهدون إلى زوجها الثاني برعاية تركة زوجها السابق وتحرر لوحة بينهم وبين المرأة تثبت أنهم سيرعون التركة ويربون القاصرين دون التعرض بالبيع لمتاع البيت لأن المشتري الذي يقدم على شراء متاع بيت أطفال أرملة يخسر ماله ويعاد المتاع إلى أصحابه.

178 - في حالة الراهبة أو الـ "ناديتوم" أو المنذورة "زيكروم" التي كتب أبوها لها لوحة عند تقديمه بائنتها فإنه إذا لم يكن قد سجل بها تصريحه بتوريثها لمن تشاء ولم يكن قد منحها مطلق التصرف بعد موته فإن إخوتها يأخذون حقلها وبستانها ولكنهم يطعمونها ويعطونها زيتاً وملابس تعادل قيمة نصيبها بحيث تبدو راضية. فإذا لم يقدموا إليها طعاماً وزيتاً وملابس مناسبة تعادل قيمة نصيبها بحيث تبدو راضية فلها أن تعطي حقلها وبستانها أي مستأجر ترضاه. والمستأجر في هذه الحالة سيرعاها ما دامت تستولي على ثمار الحقل

والبستان أو ما منحها أبوها طيلة حياتها دون حق تصرف في البيع أو التوصية للغير لأن نصيبها يخص إخوتها من بعدها.

179 - في حالة الراهبة أو الـ "نايدثوم" أو المنذورة التي كتب لها أبوها عند تقديم البائنة صكاً مختوماً وسجل في اللوحة التي كتبها تصريحه بالتصرف في ميراثها وفق هواها ومنحها مطلق الحرية، فإنه بعد وفاته لها أن تسلم ميراثها إلى من تشاء وليس لإخوتها حق الدعوى عليها.

180 - إذا لم يقدم أب بائنة إلى ابنته "نايدثوم" في دير أو منذورة فإنه بعد موته تتسلم كنصيب لها من متاع أبيها في تركته نصيباً مماثلاً لأي وريث ولكن لها فقط أن تستمتع باستثماره طيلة حياتها لأن نصيبها في الميراث ملك لإخوتها من بعدها.

181 - إذا كرس أب ابنته لمعبود كـ "ناديتوم" أو "عاهرة مقدسة" أو "كولماشيتوم" (متعبدة) ولم يقدم إليها بائنة فإنها بعد موته تأخذ نصيباً من تركته بمقدار الثلث ولها استثماره طوال حياتها فقط لأنه يخص إخوتها.

182 - إذا كان أب لم يقدم بائنة إلى ابنته الـ "ناديتوم" لـ "مردوك" بابل ولم يسجل وثيقة مختومة لها فإنها بعد موته تشارك إخوتها في تركة الأب بنسبة الثلث لها ولكن ليس لها أن تباشر أية التزامات إقطاعية لأن لـ "ناديتوم" "مردوك بابل" حق منح ميراثها من تشاء.

183 - إذا حرر أب وثيقة مختومة لابنته الكاهنة عند تقديم بائنتها فلها بعد موته أن تأخذ نصيبها في تركة أبيها.

184 - إذا لم يقدم رجل بائنة إلى ابنته الكاهنة لأنه لم يزوجها فعلى إخوتها بعد موته أن يقدموا إليها هدية تتناسب مع قيمة التركة التي خلّفها الأب ويقدموها إلى زوجها.

185 - إذا تبنّى رجل ولداً باسمه، ورباه، فإن الطفل المتبنّى لا يُستَرجع إطلاقاً.

186 - إذا تبنّى رجل ولداً عرف أبوه وأمه عند تبنّيه فللطفل أن يعود إلى بيت أبيه.

187 - الابن المتبنى لموظف القصر أو خادم أو منذور لا يُرَدّ إطلاقاً.

188 - إذا أخذ عضو من طبقة الصناع ولداً متبنى وعلمه حرفته فله الحق ألا يرده إطلاقاً.

189 - إذا لم يكن قد علمه حرفته فمن الممكن أن يعود الطفل المتبنى إلى بيت أبيه.

190 - إذا لم يَعدّ رجل من بين أبنائه الولد الذي تبناه ورباه فلهذا المتبنى أن يعود ألى بيت أبيه.

191 - إذا تبنى رجل ولداً ورباه ثم أسس أسرة له وجاءه أولاد فيما بعد، وعول على إبعاد المتبنى، فإن هذا الولد لا يذهب فارغ اليد، إذ إنه على من تبناه أن يعطيه من متاعه ثلث ما يملك وله أن يسرّحه بعد ذلك ما دام لم يعطه حقلاً أو بستاناً أو بيتاً.

192 - إذا قال متبنى موظف قصر أو منذور لأبيه بالتبني أو أمه بالتبني "لست أبي" أو "لست أمي" قُطِع لسانه.

193 - إذا وجد متبنى موظف قصر أو منذور أبويه وكره أباه بالتبني وأمه بالتبني ثم ذهب إلى بيت أبويه قُلِعت عيناه.

194 - إذا أعطى رجل ابنه مربية ثم مات وهو تحت رعايتها فإنه في حال تعاقد المربية مع ابن آخر دون علم الأب والأم فعليهما أن يثبتا ذلك ضدها ثم يقطعان ثديها لأنها تعاقدت مع ابن آخر دون علم أبيه وأمه.

195 - إذا ضرب ولد أباه قُطِعت يده.

196 -من يتسبب في إتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تقلع عينه.

197 - من يكسر عضم رجل آخر يكسر عظمه.

198 - من يُفقِد رجلاً من العامة عينه أو أحد عظامه يدفع مينا من الفضة.

199 - من يُفقِد عبداً عينه أو أحد عظامه يدفع نصف القيمة.

200 - من يُسقطْ سن رجل من طبقته تكسر سنه.

201 - من يُسقطْ سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة.

202 - من يلطمْ خدّ آخر أعلى منه مرتبة يجلد ستين جلدة بسوط من جلد الثور علناً.

203 - إذا لطم نبيل خدّ نبيل من نفس المرتبة دفع مينا من الفضة.

204 - إذا لطم رجل من العامة خد آخر دفع 10 شواقل من الفضة.

205 - إذا لطم عبد خدّ نبيل صُلمت أذنه.

206 - إذا ضرب رجل في معركة رجلاً آخر فأصابه فإنه يقسم قائلاً "أنا لم أضربه عمداً" وعليه كذلك أن يدفع أجر الطبيب.

207 - إذا مات بسبب الضربة أقسم نفس القسم. فإذا كان من النبلاء دفع نصف مينا من الفضة.

208 - إذا كان من العامة دفع ثلث مينا من الفضة.

209 - إذا ضرب رجل ابنة رجل آخر وأجهضت دفع 10 شواقل من الفضة بسبب إجهاضها.

210 - إذا ماتت المرأة قتلت ابنته.

211 - إذا وقعت الإصابة على ابنة رجل من العامة دفع 5 شواقل من الفضة.

212 - إذا ماتت هذه المرأة دفع نصف مينا من الفضة.

213 - إذا ضرب جارية فأجهضها دفع شاقلين من الفضة.

214 - إذا ماتت الجارية دفع ثلث مينا من الفضة.

215 - إذا باشر طبيب عملية كبرى لرجل بسلاح من البرونز فأنقذ حياته ثم فتح خراجاً بعين رجل بسلاح برونزي فأنقذ العين فأجره عشرة شواقل من الفضة.

216 - إذا كان من العامة أخذ خمسة شواقل.

217 - إذا كان عبد فإن صاحب العبد يعطي الطبيب شاقلين.

218 - إذا باشر طبيب عملية كبرى بسلاح برونزي وتسبب بموته أو فتح خراجاً بعينه فأتلفها قُطِعت يده.

219 - إذا كانت العملية لعبد رجل من العامة ومات عوضه منه عبداً.

220 - إذا باشر العملية لعين العبد بالسلاح البرونزي فأتلفها دفع نصف ثمنه من الفضة.

221 - إذا أصلح طبيب عظمَ مكسوراً أو شفى تمزقاً عضلياً فعلى المريض أن يدفع إلى الطبيب خمسة شواقل.

222 - إذا كان من العامة دفع ثلاثة شواقل من الفضة.

223 - إذا كان عبداً دفع صاحبه إلى الطبيب شاقلين من الفضة.

224 - إذا قام طبيب بيطري بعملية كبرى لثور أو حمار وأنقذ حياته فإن صاحب الثور أو الحمار يدفع إلى الجرّاح سدس شاقل من الفضة أجراً له.

225 - إذا قام بالعملية لثور أوحمار وتسبب في وفاته دفع إلى صاحب الثور أو الحمار ربع قيمته.

226 - إذا محا رجل ممن يقومون بالوشم علامة عبد لرجل آخر دون موافقة العبد قُطِعت يده.

227 - إذا خادع رجل أحد المختصين بالوشم بحيث أزال علامة العبد من عبد لرجل آخر قتل ذلك الرجل وعلّق على باب بيته؛ ويقسم المختص بالوشم قائلاً "أنا لم أقم بإزالتها عن علم" ثم يطلق سراحه.

228 - إذا بنى بنّاء بيتاً لرجل وأنجزه له فإنه يعطيه شاقلين من الفضة لكل "سار" من البيت أجراً له .

229 - إذا بنى بنّاء بيتاً لرجل ولم يقم البِناء بحيث انهار المبنى وتسبب بوفاة صاحب البيت قُتِل البنّاء.

230 - إذا أدى ذلك إلى موت ابن صاحب البيت قُتِل ابنه.

231 - إذا كان سبباً بموت عبد عوّض صاحب البيت منه عبداً.

232 - إذا تسبب بإتلاف متاع عوّض من كل ما أتلف، وكذلك لأنه لم يُقِم البيت متيناً فانهار أعاد بناء البيت الذي انهارعلى نفقته.

233 - إذا بنى بنّاء بيتاً لرجل ولم يكن عمله مأموناً بحيث أصبح الحائط خطراً وغير مأمون فعليه أن يدعم الحائط على نفقته.

234 - إذا صنع مراكبي مركباً سعته 60 كوراً لرجل فأجره شاقلان من الفضة.

235 - إذا صنع المركب ولم يقم بعمله قياماً حسناً بحيث تفكك أحد أقواسه في السنة نفسها .. وحيث إنه ظهر هذا العيب فعلى المراكبي أن يفك القارب ويقويه على نفقته ويسلم المركب المقوى إلى صاحبه.

236 - إذا أجر رجل مراكبياً مركبه وأهملمه هذا بحيث غرق أو غاص فإنه يعوّض صاحب المركب الأول منه مركباً آخر.

237 - إذا استأجر رجل مركباً وحمّله بالحبوب والصوف والزيت والملح أو أي نوع من

الحمولة ثم أهمله المراكبي بحيث غاص المركب وضاع ما يحمل فإن المراكبي يعوض منه مقدار ما غاص وما فقد.

238 - إذا أغرق مراكبي مركب رجل ثم أعاد تعويمه فإنه يدفع نصف قيمته فضة.

239 - إذا استأجر رجل مراكبياً أعطاه 6 "كورات" من الحبوب في السنة.

240 - إذا اصطدم قارب تجديف بمركب شراعي وأغرقه فإن صاحب المركب المغرق يقدم بحضرة الإله التفصيلات المتصلة بما فقد من مركبه وعلى المسؤول عن قارب التجديف الذي أغرق المركب الشراعيّ أن يعوضه من مركبه ومن بضاعته المفقودة.

241 - إذا احتجز رجل ثوراً كرهينة دفع ثلث مينا من الفضة.

242 - 243 - إذا استأجره رجل لمدة سنة أعطى صاحبه 4 "كورات" من الحبوب كإيجار لثور الجر و 3 "كورات" من الحبوب كإيجار لثور الشد الصغير.

244 - إذا استأجر رجل ثوراً ثم قتله أسد في الخلاء فإن الخسارة تعود على صاحبه.

245 - إذا استأجر رجل ثوراً وتسبب بموته بسبب إهماله إياه أو ضربه فيعوض صاحب الثور من ثوره بثور آخر.

246 - إذا استأجر رجل ثوراً ثم كسر إحدى قوائمه أو أحدث قطوعاً في عضلة رقبته عوّض صاحب الثور من ثوره بثور آخر.

247 - إذا استأجر رجل ثوراً ثم أتلف عينه دفع نصف قيمته فضة لصاحب الثور.

248 - إذا استأجر رجل ثوراً ثم كسر قرنه أو قطع ذيله أو أصاب لحم ظهره دفع ربع قيمته فضة.

249 - إذا استأجر رجل ثوراً ثم ضربه الإله فمات فمستأجر الثور يثبت ذلك عن طريق الإله ثم يطلق حراً.

250 - إذا نطح ثور رجلاً أثناء مسيره في الشارع فمات الرجل فليس الأمر موضع دعوى.

251 - إذا كان لرجل ثور معروف بالنطح وأخطره بذلك مجلس مدينته ولكنه لم يخفف قرنيه أو يربطه ثم نطح الثور واحداً من النبلاء فمات دفع نصف مينا من الفضة.

252 - إذا كان المقتول عبداً فإنه يدفع ثلث مينا من الفضة.

253 - إذا استأجر رجل آخر ليشرف على حقوله وأقرضه حبوب الإطعام وعهد إليه بالثيران وتعاقد معه على زرع الحقل ثم سرق الرجل الحبوب أو العلف ووجدت بين متعلقاته فإنّ يده تقطع.

254 - إذا اختلس حبوب الإطعام وبذا جاعت الثيران عوّض منه مقدار ضعف ما أخذه من حبوب.

255 - إذا أجر ثيران الرجل أو سرق حبوب البذر ومن ثم لم يزرع الحقل فثبت الأمر ضده ففي موسم الحصاد يكيل 6 "كورات" من الحبوب لكل 18 "إيكو".

256 - إذا لم يكن قادراً على الوفاء بالتزاماته أخذ إلى الحقل حيث تجره الثيران.

257 - إذا استأجر رجل مزارعاً فإنه يعطيه 8 "كورات" من الحبوب كل سنة.

258 - إذا استأجر راعي غنم فإنه يعطيه 6 "كورات" من الحبوب كل سنة.

259 - إذا سرق رجل محراثاً من حقل فإنه يدفع 5 شواقل من الفضة إلى صاحب المحراث.

260 - إذا سرق أداة بذر أو تقليب أرض فإنه يدفع 3 شواقل من الفضة.

261 - إذا استأجر رجل راعياً ليرعى غنمه أو معزه فإنه يعطيه 8 "كورات" من الحبوب كل سنة.

262 - ... إذا .... سيد ... ثور أو نعجة.

263 - إذا كان قد فقد ثوراً أو معزاً غعد إليه بها يعوض صاحبها من الثور ثوراً ومن المعز معزاً.

264 - إذا كان الراعي الذي عهد إليه بالماشية أو النعاج لترعى قد تسلم أجره بالكامل وفق رضاه ثم ترك الماشية تتناقص والنعاج تتناقص وبذا قلل من مقدار النسل فإنه يعطى زيادة وربحاً طبقاً لشروط العقد.

265 - إذا كان الراعي الذي عهد إليه بالماشية أو النعاج لترعى قد أصبح غير أمين ومن ثم غيّر من علامات الماشية أو باعها أثبت ذلك ضده وعوض صاحبها عشرة أمثال من الماشية أو النعاج.

266 - إذا حدثت زيارة إله لقطيع أو قتل أسد بعضه برّأ الراعي نفسه بحضرة الإله، ولكن صاحب الماشية يأخذ منه جثة الحيوان الذي ضرب من بين أفراد القطيع.

267 - إذا أهمل راع بحيث ترك العرج يدب في القطيع فإنه يعوض صاحب الماشية والنعاج منها مقدار الخسارة عن طريق العرج الذي دب فيها.

268 - إذا استأجر رجل ثوراً للدرس والتذرية فأجره 20 "قو" من الحبوب.

269 - إذا استأجر رجل حماراً للدرس والتذرية فأجره 10 "قو" من الحبوب.

270 - إذا استأجر رجل نعجة للدرس والتذرية فأجرها 1 "قو" من الحبوب.

271 - إذا استأجر رجل ثيراناً أو عربة أو سائقاً للعربة دفع 180 "قو" عن اليوم الواحد.

272 - إذا استأجر رجل عربة وحدها فإنه يدفع 40 "قو" عن اليوم الواحد.

273 - إذا استأجر رجل عاملاً فإنه يعطيه 6 "شي" من الفضة عن اليوم الواحد من بداية السنة حتى الشهر الخامس، وأما من الشهر السادس حتى نهاية العام فيدفع 5 "شي" من الفضة عن اليوم الواحد.

274 - إذا أراد رجل أن يستأجر صانعاً فإنه يدفع إليه يومياً كأجر لـ..... 5 "شي" من الفضة وكأجر لصانع الطوب 5 "شي" من الفضة وكأجر للنساج ... "شي" من الفضة وأجر لصانع الأختام ... "شي" من الفضة وكأجر للجواهري ... "شي" من الفضة وكأجر للحداد.... "شي" من الفضة وكأجر لصانع الجلود... "شي" من الفضة وكأجر لصانع السلال .... "شي" من الفضة وكأجر للبناء ... "شي" من الفضة.

275 - إذا استأجر رجل قارباً طويلاً فإيجاره 3 "شي" من الفضة عن اليوم الواحد.

276 - إذا استأجر رجل قارب تجذيف فأجره 2 ½ "شي" من الفضة عن اليوم الواحد.

277 - إذا استأجر رجل مركباً سعته 60 كوراً فأجره سدس شاقل من الفضة عن اليوم الواحد.

278 - إذا اشترى رجل عبداً أو أمة ولم يحل الشهر بعد وأصيب بصرع فإنه يعيده إلى بائعه ويسترد المشتري ماله الذي كان قد دفعه.

279 - إذا اشترى رجل عبداً أو أمة ثم تلقى دعوى على أحدهما فإن البائع مسؤول عن الدعوى.

280 - إذا اشترى رجل في بلد أجنبية عبداً الى أمة رجل آخر او عبده ثم حين عاد إلى بلده وتعرف صاحب العبد أو الأمة الى عبده أو أمته فإنه إذا كان العبد أو الأمة من أهل البلد حرّرا دون مال.

281 - إذا كان من أهل بلد آخر فإن المشتري يقرر بحضرة الإله مبلغ ما دفعه وفي هذه الحالة يعطي صاحب العبد أو الأمة التاجر ما دفعه من مال وهكذا يشتري حرية عبده أو أمته.

282 - إذا قال عبد لسيده "لست سيدي" وأثبت سيده أنه عبده عندئذ تصلم أذنه.

خاتمة

قوانين العدالة التي وضعها الملك الكفء حمورابي والتي أمن عن طريقها قيادة رشيدة وحكومة سديدة في البلاد - أنا حمورابي ... الملك الكامل الذي لم يهمل ذوي الشعور السوداء الذين قدمهم إليّ "آنليل" والذين عهد بهم إلى راعيهم "مردوك"... إني أوجدت لهم أقاليم هادئة وتغلبت على صعوبات مريرة وجعلت الضوء يشع فوقهم بالسلاح الماضي الذي منحني إياه "زابابا" و"إينانا" وبفضل الإلهام الذي منحني إياه "أنكي" والقدرة التي أعطاني إياها "مردوك" اقتلعت العدو من أعلى ومن أسفل وأنهيت الحرب وأصلحت أمور البلاد وجعلت الناس يعيشون إخوة ولم أدع أحداً يرعبهم... لقد عيّنني كبار الآلهة ومن ثم غدوت الراعي الخيّر الذي يعني صولجه الحق وظلي يخيّم فوق مدينتي وحملت في صدري شعوب أرض سومر وأكاد فتقدموا تحت حمايتي وحكمتهم في سلام وآويتهم إلى قوتي حتى لا يطغى القوي على الضعيف وحتى تتحقق العدالة لليتيم والأرملة في بابل التي رفع رأسها "آنوم" و"آنليل" وفي "إيساجيل" المعبد الذي توطدت أسسه كالسماء والأرض... لقد سجلت كلماتي القيمة على لوحتي بحضرة تمثالي كملك للعدالة... وأقمتها لتشرع القانون في الأرض وتسجل الأوامر في الأرض ولتعطي المظلوم العدالة. أنا الملك المقدّم على الملوك .... كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها...

بأمر "شماش" القاضي الأعظم للسماء والأرض.

ألا فَلتَسُدْ عدالتي الأرض.

باسم "مردوك" مولاي

ألا لا يسخرْ أحد من تماثيلي.

ثم تلا دعوات طويلة واستحلافاً للآلهة ودعوات ضد من ينال لوحته أو تماثيله بالتدمير أو السخرية أو التغيير أو التحوير.

القوانين الآشورية[1]

لم تنقش القوانين الآشورية على لوحة حجرية كما هي حال قوانين حمورابي، بل كتبت على لوحات طينية تهشّم جانب منها لسوء الحظ. وقد عثرت عليها البعثة الألمانية في حفائرها في آشور القديمة (قلعة شرجات حالياً) فيما بين عامي (1903-1914م.). وتاريخ اللوحات الآشورية من عهد تيغلات فلاسر الأول، أي من القرن الثاني عشر قبل الميلاد. أما القوانين نفسها فترجع على الأرجح إلى القرن الخامس عشر. وأما عدد اللوحات المحفوظة التي نشرت حتى الآن فإحدى عشرة لوحة.

اللوحة الأولى: وفيها /59/ مادة تتناول التشريع في ما يتصل بدخول المعابد وسرقة ما فيها والتجديف والسخرية وسرقة الزوجة مال زوجها وإخفاء الأشياء المسروقة وعقوبات السرقة عامةً وتفصيلاً وهتك العرض والزنا والتشهير والتحريض على الفسق وهجر الزوجة زوجها والميراث والطلاق والدين. وتشير المادة /40/ إلى العقوبات التي توقع بالزوجة أو الأرملة الآشورية والمحظية التي تصحب الزوجة عند الخروج إلى الطريق بغير غطاء رأس وكذا بالعاهرات المقدسات اللواتي عليهن ألا يخرجن غير محجبات. وأما العاهر فلا تخرج محجبة، بل تكشف رأسها. وتشير المادة /41/ إلى ضرورة وجود شهود حين يرغب الرجل في أن تتحجب محظيته. وتشير المواد بعد ذلك إلى هدايا الزوج وما يُردّ منها وما لا يُردّ وشرائط ذلك، ثم الرهن وحالة الزوجة عند أسر زوجها أو غيابه وعقوبة إحراز المعدات السحرية، ثم الإجهاض والاغتصاب... اغتصاب العذراء أو الثّيّب. والمواد الثلاث الأخيرة

(1) أنظر ص 449.

أشارة إلى نوع العقوبات الجوازية على الزوجة والنص عليها في لوحة الزواج، ثم التجاوز عن عقوبة إضافية هي شد الشعر وعرك الأذن.

اللوحة الثانية: وتحوي /20/ مادة تتناول التركة وتقسيمها والقوانين المدنية المتصلة بالزراعة والري.

اللوحتان الثالثة والسابعة: وفيها /11/ مادة تتناول الرهن والسرقة وخيانة الأمانة.

اللوحة الرابعة: وفيها /4/ مواد بينها واحدة فقط هي الأولى كاملة نسبياً وفيها إشارة إلى عقوبة الجلد والغرامة عن جريمة غير واضحة. وأما المواد الثلاث الأخرى ففيها إشارات إلى الاستئجار والإقراض.

اللوحة الخامسة: وفيها مادتان متصلتان بتغيير علامات الأغنام وبيع الراعي ما يعهد إليه من أغنام وخيل ليرعاها.

اللوحة السادسة: وفيها ثلاث مواد ليست واضحة.

اللوحة الثامنة: وفيها خمس مواد غير واضحة تتناول الرشوة.

اللوحة التاسعة: وفيها ثلاث مواد تتناول جانباً من خيانة الأمانة والتبديد.

اللوحة العاشرة: وفيها مادتان تتناولان الشهادة ضد آخر بالتجديف والعقوبة المترتبة على ذلك الذنب أو على الدعوى بالباطل.

اللوحة الحادية عشرة: وفيها سبع مواد متنوعة وأجزاء كثيرة منها ضائعة، وما بقي يشير إلى تركة المتوفى وإلى ري الأرض وإلى تحرير العبد. وهاك نصوص مواد اللوحات.

اللوحة الأولى

1 - إذا دخلت امرأة (سواء أكانت زوجة رجل[1] أم ابنته) معبد إله ثم سرقت شيئاً من متعلقات هيكل معبد الإله ووجد في حيازتها فإنه عند اتهامها يؤخذ ما يضبط ويسأل الإله وينفذ ما يأمر به من حيث معاملة المرأة.

2 - إذا جدفت امرأة (سواء كانت زوجة أو ابنة رجل) أو انغمست في حديث لا رابط له فإنها تتحمل العقوبة التي تستحقها، أما رجلها وأبناؤها وبناتها فلا يمسهم أذى.

(1) يقصد به الرجل الحر.

3 - إذا مرض رجل أو مات وسرقت زوجته من بيته شيئاً ثم سلمته إلى رجل أو سيدة أو أي شخص آخر فإن الزوجة تعدم كما يعدم كل من تسلم منها شيئاً. أما إذا سرقت زوجة من زوجها وهو على قيد الحياة شيئاً من متعلقات بيته وأعطته رجلاً أو سيدة أو أي إنسان آخر، فإن الزوج يقيم الاتهام ضد زوجته ويوقع بها العقوبة المناسبة. كما أن من تسلم من يدها شيئاً يعيده وتوقع به نفس العقوبة التي أنزلها الزوج بزوجته.

4 - إذا كان عبد أو جارية قد تسلم (أو تسلمت) شيئاً مسروقاً من يد زوجة رجل جُدع أنف العبد (أو الأمة) وصلمت أذناه عوضاً من المسروق. أما الرجل فيصلم أذني زوجته. ومع ذلك فإن ترك زوجته حرّة دون صلم أذنيها فلا تصلم أذنا العبد أو الأمة، وبذا لا يعوضان من المسروق.

5 - إذا سرقت زوجة شيئاً من بيت رجل آخر تزيد قيمته على /5/ مينا من الرصاص، فإن صاحب المسروقات يقسم قائلاً "أنا لم أسمح لها بتاتاً بأخذه - لقد حدثت سرقة في منزلي". فإذا أراد زوجها فإنه يسلم المسروقات ويفتديها ولكن لا يصلم أذنيها، فإذا لم يرغب في أن يفتديها فإن صاحب المسروقات يأخذها ويجدع أنفها.

6 - إذا كانت لزوجة وديعة بالخارج فإن مستلم الوديعة يعتبر سارقاً.

7 - إذا وضعت امرأة يديها على رجل أثناء مطاردتها فإنها تدفع /30/ مينا من الرصاص وتجلد بالعصا عشرين جلدة.

8 - إذا سحقت امرأة خصية رجل في معركة قُطع واحد من أصابعها. فإذا كانت الخصية الأخرى قد تأثرت نتيجة لذلك (حتى لو أن الطبيب ربطها) أو سحقت هي الأخرى في المعركة فإن عينيها تقلعان.

9 - إذا وضع رجل يده على زوجة رجل آخر، وبذلك عاملها كما يعاملُ طفل صغير فإنهم عند مطاردته واتهامه يقطعون إحدى أصابعه، فإن كان قبلها تسحب شفته السفلى بواسطة حد سلاح بلطة وتقطع.

10 - إذا دخل رجل أو سيدة بيت آخر وقتل (أو قتلت) رجلاً أو امرأة، فإنّ القتلة يسلمون إلى "سيد الحياة" وله أن يحكم بالإعدام وله أن يُعفي من هذه العقوبة ولكن بشرط الاستيلاء

على ما يملك (أو تملك)، فإذا لم يكن لدى القاتل (أو القاتلة) ما يؤخذ فابن وابنة ... من البيت... يخص...

11 - غير موجودة.

12 - إذا كانت زوجة سيد تسير في الطريق وأمسك بها رجل آخر قائلاً لها "لأضطجع معك" فما دامت لا توافق وظلت تدافع عن نفسها ولكنه أمسكها بالقوة واغتصبها واضطجع معها فسواء أمسك به في ذات الفعل مع الزوجة أو شهد عليه شهود أنه اضطجع مع المرأة فإنه يعدم ولا يمس المرأة لوم.

13 - إذا تركت زوجة رجل بيتها، وترددت إلى بيت آخر حيث يقيم، فإن هو اضطجع معها، مع علمه بأنها زوجة رجل، فإنهما يقتلان، كلاهما.

14 - إذا اضطجع رجل مع زوجة آخر سواء في ماخور المعبد أو الطريق مع علمه بأنها زوجة رجل، فإن الزاني يعامل بنفس المعاملة التي يأمر الرجل بأن تعامل بها زوجته. فإن كان قد اضطجع معها دون أن يعلم أنها زوجة رجل فلا جريمة ضد الزاني. وللرجل أن يوقع بزوجته العقوبة التي تروق له ويراها مناسبة.

15 - إذا ضبط رجلٌ آخر مع زوجته، فحين ترفع الدعوى عليه وإثبات الاتهام ضده يعدم الاثنان، دون أن تلحق به أية مسؤولية. وإذا حدث عند القبض عليه أن جيء به إلى حضرة الملك أو أمام القضاة فإنه حين رفع الدعوى وإثبات الاتهام ضده، إذا قتل الزوج زوجته فعليه أن يقتل كذلك الرجل (شريكها). ولكن إن جدع أنف زوجته فإنه يخصي الرجل ثم يشوهون وجهه كله. ومع ذلك فإذا عفا عن زوجته أطلق سراح الرجل.

16 - إذا اضطجع رجل مع زوجة آخر برضاها فلا لوم عليه، وللزوج أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها. أما إذا اضطجع معها اغتصاباً فإن عقوبته عند رفع الدعوى واثبات الاتهام تكون مماثلة لعقوبة الزوجة.

17 - إذا قال رجل لآخر "إن الناس اضطجعوا كثيراً مع زوجتك" ولم يكن هناك شهود، أخذ الرجل إلى اختبار النهر.

18 - إذا قال رجل لجاره سواء سراً أو علناً "إن الناس اضطجعوا كثيراً مع زوجتك

وسأقيم عليها الدعوى بنفسي"، فما دام غير قادر على إقامة الدعوى ضدها ولم يُقمها فإنه يجلد أربعين جلدة بالعصا، ثم يكلف بالعمل سخرة للملك مدى شهر كامل، ثم يخصى ويدفع غرامة وزنه من الرصاص.

19 - إذا بدأ رجل بنشر الشائعات ضد جاره سراً قائلاً: "الناس اضطجعوا مراراً معه"، أو قال علناً في حضرة آخرين "الناس اضطجعوا مراراً معك وسوف أقيم الدعوى عليك"، فما دام ليس قادراً على إقامتها عليه أو رفع الدعوى يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخّر في خدمة الملك لمدة شهر كامل ثم يخصى ويدفع كذلك غرامة وزنه من الرصاص.

20 - إذا اضطجع رجل مع جاره وأقيمت عليه الدعوى وأثبت الاتهام، فإنهم يضطجعون معه ثم يخصى .

21 - إذا ضرب رجل ابنة آخر فسبّب إجهاضها فعند رفع الدعوى وإثبات الاتهام ضده يدفع وزنتين وثلاثين مينا من الرصاص ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخّر في خدمة الملك شهر كامل.

22 - إذا حدث لزوجة أن دفعها إلى الدعارة رجل ليس أباها أو أخاها أو ابنها بل شخص آخر ولم يكن يعرف أنها زوجة فإنه يقسم على ذلك ثم يغرم بدفع وزنتين من الرصاص إلى زوجها. أما إذا كان يعرف أنها زوجة لرجل فإنه يدفع التعويض ويقسم "أنا لم أضطجع معها".ومع ذلك فإذا قررت الزوجة "أنه لم يضطجع معي" فإن الرجل بعد دفع الغرامة يؤخذ إلى النهر فإن عاد منه يعامل بنفس المعاملة التي عامل بها الآخر زوجته.

23 - إذا أخذت زوجة رجل زوجة رجل آخر إلى بيتها وسلمتها إلى رجل ليضطجع معها وكان الرجل يعرف أنها زوجة آخر عومل كمن يضطجع مع زوجة وتعامل صاحبة البيت معاملة الزانية. ومع ذلك فإذا لم يوقع الزوج عقوبة على زوجته الزانية فلا عقوبة على الزاني أو صاحبة البيت بل يطلق سراحها. ومع ذلك فإذا كانت الزوجة لا تدرك الموقف بمعنى أن صاحبة البيت التي جاءت بها إلى بيتها جاءت بالرجل عن طريق الحيلة واضطجع معها، ففي حالة إعلانها عند خروجها من البيت أنها اغتصبت يطلق سراحها ما دامت غير مذنبة، أما الزاني وصاحبة البيت فيقتلان. وأما إذا لم تعلن الزوجة ذلك يوقع بها زوجها العقوبة التي يراها مناسبة ويقتل الزاني وصاحبة البيت.

24 - إذا هجرت زوجة زوجها ودخلت إلى بيت آشوري سواء في المدينة نفسها أو في مدينة مجاورة حيث أدخلها بيته ومكثت مع سيدة البيت وقضت الليلة هناك ثلاث مرات أو أربع دون أن يعلم صاحب البيت أن زوجة الرجل تقيم في بيته ثم قبض فيما بعد على تلك المرأة فإن صاحب البيت الذي هجرته زوجته يصلم أذني الزوجة ولكنه يستردها ثم تصلم أذنا زوجة الرجل التي آوت المرأة إلى بيته. وإذا رغب زوجها في استرجاعها فإنه يستطيع أن يدفع غرامة ثلاث وزنات وثلاثين مينا من الرصاص ثمناً لذلك. كما أنه يستطيع أن يدعهم يأخذونها أي يطلقها. ومع ذلك فإذا علم ربّ البيت أن زوجة الرجل كانت تقيم في بيته مع زوجته فإنه يدفع الثلث الإضافي، فإذا أنكر ذلك قائلاً: "أنا لم أكن أعرف ذلك" أُخِذا معاً إلى اختبار النهر. فإذا عاد الرجل الذي كانت الزوجة في بيته من النهر دفع الثلث الإضافي . وإذا عاد الزوج المهجور من النهر فإنه بريء ما دام قد استوفى كل إجراءات النهر. وإذا لم يصلم الزوج المهجور أذني زوجته واستعادها فلا عقوبة إطلاقاً.

25 - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ومات زوجها، فما دام إخوة زوجها لم يقسموا التركة ولم يكن لها ابن فإن إخوة الزوج يستولون على الحلي التي كان زوجها قد منحها إياها ولم تكن قد بدّدت. وأما ما بقي فيفوّض أمره إلى الآلهة ثم يقيمون دعوى لاسترداده، وليس هناك ما يكرههم على الالتجاء إلى اختبار النهر أو اجراء القَسَم.

26 - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ومات زوجها وكان لزوجها أولاد فإنهم يأخذون ما قد يكون أعطاها من حلي، فإذا لم يكن له أولاد فإنها تأخذ الحلي لنفسها.

27 - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ويتردد إليها زوجها فإن زوجها يستطيع أن يسترد منحة الزواج التي كان زوجها قد منحها إياها، ولكنه لا يمس متعلقات بيت أبيها.

28 - إذا دخلت أرملة بيت رجل (كزوجة) وكان معها وليدها الطفل فإنه إذا ترعرع في بيت الزوج الثاني ولم تكتب وثيقة التبنّي، فليس له نصيب من أملاك زوج أمه ولا يكون مسؤولاً عن الديون بل يأخذ نصيباً يناسب حقه من تركة أبيه الحقيقي.

29 - إذا دخلت زوجة بيت زوجها فإن بائنتها وكل ما قد تكون جاءت به من بيت أبيها أو ما منحها إياه حموها عند دخولها يعطى لأولادها وليس لأولاد حميها حق الدعوى عليها. ومع ذلك فإذا كان زوجها قد هجرها فله أن يعطي أولاده ما يراه.

30 - إذا نقل أب هدية العرس إلى بيت حمي ابنه المقبل ولم تكن المرأة قد زوجت بعد ابنه وكانت زوجة ابن آخر له تعيش في بيت أبيها ومات الابن فإنه يزوج أرملة ابنه الذي مات لابنه الآخر الذي نقلت إلى بيت حميه هدية العرس. فإذا كان سيد الفتاة الذي تلقى الهدية لا يرغب في تسلم ابنته فإنه - إذا أراد - يسمح للأب الذي أحضر الهدية بأن يسترد كنّته المقبلة ويزوجها لابنه. ومع ذلك فإنه يستطيع، إذا أراد، أن يسترد كل ما كان قد أحضره من رصاص وفضة وذهب ولكن لا تقبل دعواه فيما يتصل بالمأكولات.

31 - إذا أحضر رجل هدية الزواج إلى بيت حميه المقبل ثم ماتت زوجته المقبلة وكان لحميه بنات أخريات فإذا وافق حموه فإنه يزوجه بابنة أخرى بدل المتوفاة وله أن يسترد ما سبق أن أعطاه إياه ولكن لا ترد الحبوب أو الأغنام أو المأكولات، إنه يسترد المال فقط.

32 - إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها وأعطيت هدية الزواج فسواء كانت أخذت إلى بيت حميها أو لم تؤخذ فإنها ترضخ للديون وسوء السلوك والجرائم الخاصة بزوجها.

33 - إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها ومات زوجها وكان لها أبناء فإنها تعيش معهم حيث تشاء. فإن لم تكن لها ذرية يزوجها حموها لواحد يختاره لها من أولاده أو يتزوجها هو. فإذا كان زوجها وحموها ميتين ولم يكن لها ابن تصبح أرملة وتذهب حيث تريد.

34 - إذا تزوج رجل أرملة دون أن يختم وثيقة (عقداً) وعاشت في بيته مدى عامين تصبح زوجة وليست في حاجة إلى أن تترك البيت.

35 - إذا دخلت أرملة بيت رجل كزوجة فإن كل ما تأتي به هوملك لزوجها فإذا كان زوجها هو الذي ينتقل إليها فإن كل ما يأتي به ملك للمرأة.

36 - إذا كانت امرأة لا تزال في بيت أبيها أو أن زوجها جعلها تعيش منفصلة ثم ذهب إلى الخلاء دون أن يترك لها زيتاً أو صوفاً أو ملابس أو طعاماً أو أي شيء إطلاقاً ولم يكن لديها حتى ولا سنبلة قمح يجيئها بها من الحقل بقيت هذه المرأة على عهدها لزوجها مدى خمس سنوات ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. وإذا كان لها أبناء وذهبوا ليؤجروا أنفسهم ويتكسبوا

فإن المرأة تنتظر زوجها ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. أما إذا لم يكن لها أبناء فإنها تنتظر زوجها مدى خمس سنوات. وعند حلول العام السادس تستطيع أن تذهب لتعيش مع الرجل الذي تختاره وليس لزوجها حين يعود أن يدعي عليها حقاً: إنها حرة لزوجها الثاني. أما إذا استطاع أن يثبت عند عودته أنه عطل أكثر من خمس سنوات وأنه لم يتغيب راغباً في ذلك عن طواعية بسبب خصم ألقى القبض عليه وأنه اضطر إلى الهرب أو أنه قبض عليه كشرير وهكذا تأخر مكرهاً عن العودة فإنه يقدم امرأة مقابل زوجته ويسترد زوجته. ومع ذلك فإذا كان الملك قد أرسله في بلاد أخرى وتأخر أكثر من خمس سنوات فإنه على زوجته أن تنتظره ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. ومع ذلك فإذا ذهبت لتعيش مع زوج آخر قبل انقضاء خمس سنوات ثم رزقت أطفالاً فإن زوجها يسترجعها عند عودته كما يأخذ أولادها لأنها لم تحترم عقد الزواج بل تزوجت.

37 - إذا أراد رجل أن يطلق زوجته: فإن كان ذلك بمحض رغبته فإنه يعوضها شيئاً وإذا كان ذلك رغم أنفه فليس من الضروري أن يعطيها شيئاً.. إنها تخرج فارغة.

38 - إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها ثم طلقها زوجها فإنه يستطيع أن يسترد الحلي التي كان قد منحها إياها ولكن ليس له أن يطالب بثمن الزواج الذي قدمه لأنه من حق المرأة.

39 - إذا تزوج رجل من ليست بابنته فإنه في حالة كون أبيها مديناً سابقاً وكانت هي تعيش في البيت رهينة وجاء الدائن الأول فإنه يعوض من ثمن المرأة بواسطة من قدمها كزوجة فإذا لم يكن لديه ما يقدمه فإن الرجل يأخذ من سلمها كزوجة. أما إذا كانت تعامل بقسوة فإنها حرة ممن يعاملها على هذه الصورة. ومع ذلك فإن الرجل الذي أصبح زوجاً لها سواء أكره على كتابة لوحة أو كانوا قد تسلموا منه ضمانة فإنه يستطيع أن يعوض من قيمة المرأة، ومن ثم يصبح من سلمها له كزوجة حراً.

40 - لا تستطيع زوجات الرجال (الأحرار) أو الأرامل أو الآشوريات أن يخرجن إلى الشوارع عاريات الرؤوس. وابنة الرجل ... سواء كانت ملفعة أو عباءة يجب أن تتحجب. ويجب ألا تكون رؤوسهن عارية. سواء ... أو ... أو ... فيجب ألا يحتجبن. ولكن حين

يخرجن إلى الشوارع وحدهن يجب أن يضعن نقاباً. والمحظية التي تخرج إلى الشوارع مع سيدتها يجب أن تتحجب.والعاهرالمقدسة المتزوجة يجب أن تتحجب عند خروجها إلى الشارع. أما التي لم تتزوج فتخرج عارية الرأس. ويجب ألا تتحجب المومس: لا تضع نقاباً ويظل رأسها عارياً. وكل من يرى مومساً محجبة عليه أن يقبض عليها ويقيم الشهادة ويقدمها إلى محكمة القصر وهناك لا ينزعون حليها ولكن لمن قبض عليها أن يأخذ ملابسها: إنها تجلد خمسين جلدة بالعصا ويُصب زفت فوق رأسها. وإذا رأى رجل مومساً محجبة وأطلقها دون أن يقدمها إلى محكمة القصر جلد خمسين جلدة بالعصا وأخذ ملابسه من ادعى عليه ثم تثقب أذناه وتربطان بخيط يعقد في ظهره ثم يقوم بأعمال السخرة للملك مدى شهر كامل. أما الإماء فيجب ألا يتحجبن، وكل من يرى جارية محجبة يجب أن يقبض عليها ويأتي بها إلى محكمة القصر حيث تصلم أذناها ويستولي من قبض عليها على ثيابها. وإذا رأى رجل جارية محجبة وتركها دون أن يقبض عليها ويقدمها إلى محكمة القصر فإنه عند توجيه الاتهام إليه واثباته يجلد خمسين جلدة بالعصا وتثقب أذناه وتربطان بالخيط الذي يعقد عند ظهره ويستولي من تولى الادعاء عليه على ملابسه ثم يسخر في خدمة الملك شهراً كاملاً.

41 - إذا أراد رجل أن يجعل محظيته تتحجب فيحضر خمسة أو ستة من جيرانه ويحجبها بحضرتهم قائلاً: "إنها زوجتي" وهكذا تصبح زوجة له. والمحظية التي لم تضع الحجاب أمام الشهود من الرجل ولم يقل زوجها "أنت زوجتي" ليست زوجة، إنها لا تزال محظية. وإذا مات الرجل ولم يكن لزوجته المحجبة أبناء فإن أبناء المحظية يصبحون أبناء شرعيين ويأخذون نصيبهم من التركة.

42 - إذا صب رجل زيتاً على رأس ابنة رجل آخر في يوم عيد أو جاء بهدية الخطبة في يوم وليمة فلا تُردّ هذه الهدايا.

43 - إذا كان الرجل قد صب زيتاً على رأسها أو أحضر هدايا الخطبة ثم مات الابن الذي اختيرت له الزوجة أو هرب فإنها تعطى من يريد من أبنائه الآخرين من أكبرهم إلى أصغرهم الذي لا يقل عمره عن عشر سنوات. أما إذا مات الأب وكذا مات الابن الذي اختيرت له الزوجة ولكن كان للابن المتوفى ابن عمره /10/ سنوات على الأقل فإنه يتزوجها. ولكن

إذا كان عمر الأحفاد أقل من عشر سنوات فإن لوالد الفتاة إذا شاء أن يعطيها أياً منهم، وله كذلك أن يرد ما يعدل الهدايا. أما إذا لم يكن هناك ابن فإنه يرد بالكامل بقدر ما أخذ أحجاراً كريمة ما ليس بمأكولات وليس من ضرورة لرد المأكولات.

44 - إذا كان هناك آشوري أو آشورية، يعيش في بيت رجل كرهينة تعدل ثمن الواحد منهما أو أنه أخذ كرهينة مقابل مبلغ كلي فإنه عند حلول موعد السداد له أن يقتلع شعره ويشوه أذنيه بأن يثقبهما.

45 - إذا تزوجت امرأة وقبض العدو على زوجها ففي حالة عدم وجود حمي أو ابن لها تبقى مخلصة لزوجها مدى عامين؛ فإذا لم يكن لها خلالها ما يكفيها لسد رمقها تقدمت لتعلن ذلك... إنها تصبح تحت وصاية القصر... سوف يعولها لتقوم هي بعمله إذا كانت زوجة لفلاح يعولها وهي تقوم بعمله. ومع ذلك إذا كان لزوجها حقل وبيت للالتزام في مدينته فإنها تتقدم إلى القضاء وتقول "ليس لدي ما أعيش به" ويتحرى القضاة من العمدة وشيوخ المدينة... وما دام له في المدينة - كالتزام - حقل فإنهم يسمحون لها بأن تتملك ريع الحقل والبيت مدى عامين لإعالتها وتعيش هناك وتكتب بهذا لوحة وتكمل العامين ثم تستطيع بعدها أن تذهب لتعيش مع الزوج الذي تختاره وتحرر لها لوحة كأنما هي أرملة. فإذا عاد زوجها المفقود فيما بعد فإنه يستطيع أن يسترد زوجته التي زوجت بغريب، ولكن ليس له أن يأخذ الأولاد الذين رزقتهم من زوجها الثاني بل يأخذهم هذا الزوج الأخير. أما الحقل والبيت اللذان أعطيا لغريب كقيمة مقابلة لإعانتها فإنه يستعيدهما بنفس الشروط. أما إذا لم يعد ومات في بلاد أخرى فإن الملك يوزع بيته وحقله على من يشاء.

46 - إذا لم ترغب امرأة مات زوجها في أن تترك بيتها عقب موته فإنها في حالة عدم تركه شيئاً لها كتابة تعيش في بيت أبنائها إن أرادت. وعلى أبناء زوجها واجب إعالتها ويحررون معها وثيقة يُنص فيها على تقديم الطعام والشراب إليها كما يقدم إلى عروس يحبونها. وإذا كانت زوجة أخيرة لم ترزق نسلاً فإنها تعيش مع واحد من أبناء زوجها ويشتركون معاً في إعالتها. أما إذا كان لها نسل ولم يشأ أولاد الزوجة السابقة أن يعولوها فإنها تعيش في بيت أولادها حيث تريد. إن أولادها هم الذين يجب أن يعولوها وهي تقوم بعملهم. ومع ذلك فإن كان هنالك فعلاً بين أبناء زوجها من تزوج بها فإن هذا هو الذي يعولها لا أولادها.

47 - إذا أعد رجل أو امرأة معدات سحرية ووجدت في حوزته فإنه، عند توجيه الاتهام إليه وإثباته، يقتل صانع هذه المعدات وكل من شهد صنعها أو سمع بها من فم شاهد عيان قال: "أنا رأيتها بنفسي" يتقدم كشاهد سماع ويعلن للملك فإذا أنكر شاهد العيان أمام الملك ما قاله يعلن ذلك بحضرة الإله الثور ابن شمش "إنه حقاً ما قالها" وعندئذ يصبح حراً. أما شاهد العيان الذي قرر الشيء ثم أنكره، فإن الملك يسأله ويتحرى ماضيه وحين يؤتى بمستحضر الأرواح الشريرة يجعل الرجل يتكلم ويقول بنفسه إنه - أي الملك - سوف لا يبرئك من قسمك الذي أمرت أن تقسم به أمام الملك وابنه. إنه طبقاً لنص اللوحة، "إنك دفعت للقسم فأقسمت للملك وابنه".

48 - إذا كان هناك رجل تعيش ابنة مدينة في بيته كرهينة لدين وطلب من أبيها أن يزوجها فله أن يفعل. أما إذا رفض فليس له أن يتزوجها. وإذا مات أبوها فإنه يسأل واحداً من إخوتها وهذا يتحدث إلى إخوته الآخرين، فإذا قال أخ "سأسترجع أختي خلال شهر" ثم لم يسترجعها في خلال الشهر، فللدائن، إن أراد، أن يعلن أنها حرة من كل التزام ثم يعطيها زوجاً. وله كذلك، إن أراد، أن يبيعها طبقاً لشروط التعاقد...

49 - ... كأخ ... ومع ذلك فإذا ماتت المومس وأعلن إخوتها ذلك ... أخذ نصيباً كنصيب الأخ مع الإخوة من أمهم.

50 - إذا ضرب رجل زوجة رجل آخر بحيث أجهضها تعامل زوجة الضارب نفس المعاملة ويدفع تعويضاً عن الجنين نفساً وإذا ماتت المرأة قتل الرجل، يعوض من جنينها حياة. وإذا لم يكن لزوج المرأة ابن وضربها رجل حتى أجهضت قتل الضارب حتى ولو كان جنينها أنثى... إنه يعوض منها نفساً.

51 - إذا ضرب رجل زوجة آخر لا تربي أطفالها وسبب إجهاضها دفع وزنتين من الرصاص.

52 - إذا ضرب رجل مومساً وسبب إجهاضها جوزي عن ضربة بضربة والتعويض نفساً بنفس.

53 - إذا أجهضت امرأة برضاها فإنه عند توجيه الاتهام إليها وإثباته توضع على الخازوق

ولا تدفن... أما إن ماتت أثناء إجهاضها فإنها توضع على الخازوق ولا تدفن. وإذا خبأ إنسان هذه المرأة حين أجهضت دون أن يخبر الملك...

54 - ....

55 - في حالة ابنة الرجل العذراء التي كانت تعيش في بيت أبيها الذي لم يطلب منه تزويجها ولم يمزق غشاء بكارتها، ما دامت لم تتزوج وليس لأحد دعوى على بيت أبيها... إذا اغتصب رجل العذراء وانتهكها إما في وسط المدينة وإما في الخلاء ليلاً في الشارع أو في الشونة أو في احتفال المدينة فإن والد الفتاة يأخذ زوجة مغتصب العذراء ويسلمها إلى من ينتهكها ولا بعيدها إلى زوجها بل يأخذها، ولوالد الفتاة أن يزوجها مغتصبها. فإذا لم يكن للمغتصب زوجة فإنه يقدم الثلث الإضافي فضة إلى أبيها كثمن لعذريتها ويتزوجها ولا يلقي بها خارجاً، فإذا لم يوافق الأب على ذلك يأخذ الثلث الإضافي للعذراء فضة ويعطي زوجته من يشاء.

56 - إذا كانت العذرراء قد أسلمت نفسها إلى رجل وأقسم هذا الرجل بذلك فلا تمس زوجته ويعطي مغويها الثلث الإضافي فضة ثمناً للعذرية ويعامل الأب ابنته على الصورة التي يراها.

57 - سواء كان جلداً أو ... لزوجة رجل هو ما ينص عليه في اللوحة فليتمم ذلك بحضرة القضاة.

58 - في كل العقوبات سواء قلع العين أو صلم الآذان لزوجة رجل فإنه يجب إخطار الموظف ليحضر ويفعل كما هو مثبت باللوحة.

59 - بالإضافة إلى العقوبات التي توقع بزوجة الرجل الواردة باللوحة حين تستحقها يستطيع الرجل أن يقطع شعر زوجته ويشوّه أو يعرك أذنيها دون مسؤولية.

اللوحة الثانية

1 - إذا قسم إخوة تركة أبيهم...البساتين والآبار في الأرض فإن الابن الأكبر يختار ويأخذ حصتين كنصيب له، ثم يختار إخوته من بعده واحداً بعد الآخر، ويقوم الإبن الأصغر بتقسيم الأرض المنزرعة وكذا كل محصولها، ثم يختار الأكبر حصة له، ثم يعمل قرعة بين إخوته لأنصبتهم.

2 - إذا كان أحد الإخوة الذين لم يقتسموا الميراث قاتلاً يسلمونه إلى الملك وله أن يقتله أو يمنحه الحياة ويأخذ نصيبه.

3 - إذا كان أحد الإخوة الذين لم يقتسموا الميراث قد نطق بالخيانة أو هرب فإن الملك يتصرف في نصيبه بما يراه مناسباً.

4 - إذا كان بين الاخوة الذين يعملون معاً في حقل لم يتم تقسيمه، واحد... بذر الحبوب ... زرع الحقل ولكن أخاً آخر جاء وأخذ الحبوب من حرث أخيه للمرة الثانية فحين يتهم ويثبت عليه الجرم يأخذ من زرع الحقل حصته بمجرد مجيء الأول.

5 - إذا كان بين الأخوة الذين يعملون معاً في حقل لم يتم تقسيمه واحد يكون قد شق الأرض بالفأس...

6 - ... يحصل عليه شراء قبل أن يحصل على الحق شراء والبيت شراء يجب أن يخرج منادٍ يعلن في مدينة آشور (إذا كانت الأملاك هناك) ثلاث مرات في الشهر أو يجعله يعلن ثلاث مرات في مدينة الحقل والبيت الذي سيشتريه قائلاً: "أنا على وشك التملك بالشراء، حقل فلان ابن فلان وبيته في مجاورات هذه المدينة؛ من له دعوى أو حق ليبرز وثائقه ويقدمها إلى المسجلين ثم يرفع دعواه ويدعمها ويأخذ العقار. كل أولئك الذين أبرزوا وثائقهم لي خلال هذا الشهر بينا كان لا يزال هناك وقت بغير نسيانها وقدموها إلى المسجلين... الواحد من هؤلاء مؤمن على حقله وسيأخذه". وحين يعلن المنادي ذلك في مدينة آشور فإن واحداً من الوزراء ممن يقفون أمام الملك وكذا كاتب المدينة والمنادي ومسجلي الملك يرفعون الدعوى في حالة كون مدينة أخرى يحتمل أن تأخذ الحقل والبيت ويرفع الدعوى كذلك العمدة وثلاثة من شيوخ المدينة ويطلبون إلى المنادي الإعلان ثم يكتبون لوحاتهم ويسلمونها قائلين: "نادى المنادي خلال هذا الشهر ثلاث مرات... كل من لم يقدم وثيقته خلال هذا الشهر أمام المسجلين يفقد دعواه في الحقل والبيت إنهما خالصان لمن جعل المنادي يقوم بالإعلان؛" ثم يكتبون للقضاة ثلاث لوحات تتضمن إعلان المنادي ولوحة المسجلين...

7 - إذا دمر رجل بيت جاره ... بقدر ما يدعي صاحب البيت.. وقيم البيت ... الذي

دمره ... مضاعفاً على قيمة البيت ... يعطى صاحب البيت ... لوزنه الرصاص يجلد بالعصا خمس جلدات ويسخر شهراً كاملاً لخدمة الملك.

8 - إذا اعتدى رجل على أهم جزء من حدود أملاك جاره فحين تقام ضده الدعوى ويثبت الاتهام يغرم بثلث حقل مثل ما اعتدى عليه ويقطع أحد أصابعه ويجلد مائة جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

9 - إذا تعدى رجل على حدود أقل أهمية لجاره من حصص القرعة (أو التقسيم، وهي عادة حصص ثانوية) فحين تقام ضده الدعوى ويثبت الاتهام يدفع وزنه من الرصاص ويؤخذ منه ثلث حقل يعدل ما اعتدى عليه ثم يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

10 - إذا حفر رجل بئراً أو أقام سداً في حقل ليس له فقد حقه في البئر أو السد وجلد ثلاثين جلدة بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً. وأما التعدي على الأرض ... السد ... يحلف ... أنا لم ... البئر، أنا لم ... السد ... وصاحب الحقل ... في ... البئر. و

11 - ... و... الدائن... ليعمل ... أو ... الدائن.... اللوحات ... ثمرة العمل ... ليعمل ... الحقل ... يعطى الدائن....

12 - إذا زرع رجل بستاناً أو حفر بئراً أو استنبت أشجاراً في حقل جاره ورأى ذلك صاحب الحقل، ولم يعترض فإن البستان لمن زرعه، ولكنه يقدم حقلاً مقابل حقل إلى صاحب أرض البستان.

13 - إذا زرع رجل بستاناً أو حفر بئراً أو استنبت خضراً أو أشجاراً في أرض ليست له، فإنه حين تقام عليه الدعوى ويثبت الاتهام فمجرد أن يتقدم صاحب الحقل يأخذ البستان بكل ثماره.

14 - إذا احتل رجل قطعة أرض ليست له ووضع طوباً فإنه حين أقامة الدعوى وإثبات الاتهام يعطى الثلث مما يعادل الأرض ويؤخذ الطوب ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

15 - إذا ... رجل على أرض ليست له ووضع طوباً أُخِذ الطوب وجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر لخدمة الملك شهراً كاملاً.

16 - ....

17 - إذا كان هناك في آبار الأرض ماء يمكن رفعه إلى الأرض المنزرعة لتجهيزها فإن أصحاب الحقل يعاونون بعضهم بعضاً... كل يخدم حقله بقدر ما يستطيع ويرويه. ومع ذلك فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم يشكو أحدهم إلى القضاة ويأخذ منهم أمراً مكتوباً وعندئذٍ يستطيع أن يقوم بالعمل ويأخذ الماء لنفسه ويروي الحقل ولا يروي منه سواه.

18 - إذا كان هناك ماء مطر يمكن إحضاره الى الأرض المنزرعة لتجهيزها فإن أصحاب الحقوق يساعدون بعضهم بعضاً ويعمل كل قدر ما يستطيع من أجل حقله وريّه. ومع ذلك فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم فإن المتعاون منهم يأخذ أمر أداء من القاضي ضد غير المتعاونين، ويقيم الدعوى العمدة وخمسة من شيوخ المدينة... يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر لخدمة الملك مدى شهر كامل.

19 - إذا زرع رجل أو استنبت حقل جاره أو احتله وأقسم صاحب الحقل بالملك قائلاً، "لقد زرعه واستنبته" فإنه حالما يعترض يحرم الزارع من دعواه في وقت الحصاد ويكيل الحبوب مسلماً إياها ويعيدها مكيالاً مقابل مكيال إلى صاحب الحقل بما يتفق ومحصول حقول المدينة ... يعطى صاحب الحقل..

20 - إذا... رجل... حقلاً ليس له... وسور بسور... ووضع لوحة حدود وأعلن "هذا الحقل كان هبة" فإنه حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها...

اللوحتان الثالثة والسابعة

1 - ... سيدهما .. وإذا كان المتسلم ... الذي أعتقه.. يعوض من العبد بسعر ... وزنات من الرصاص والجارية بسعر /4/ وزنات من الرصاص... ومع ذلك فإن أعلن المتسلم ... يقسم بذلك بحضرة الإله ويأخذ بقدر...

2 - إذا باع رجل آخر واحداً من الأرستقراطية أو واحدة، من نفس الطبقة يعيش في بيته كضمان لمال أو رهن أو باع أي واحد ممن يعيشون في بيته فإنه حين تقام الدعوى عليه

يغرم ماله ويعطي ما يعادل قيمته صاحب الشيء ثم يجلد... مرات بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً.

3 - إذا باع رجل في مدينة أخرى واحداً من أبناء السادة الذين يقيمون عنده كضمان لمالٍ أو رهن فإنه عند إقامة الدعوى عليه وإثباتها يدفع ماله غرامة ويدفع كذلك ما يعادل قيمته إلى صاحب الشيء ويجلد... مرة بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً. فإذا مات من بيع في البلد الآخر يعوض منه نفساً. أما الآشوري، أو الآشورية، الذي أخذ مقابل مبلغ كلي معين فيمكن بيعه في بلد آخر.

4 - إذا باع رجل ثوراً أو جحشاً أو حصاناً أو أي حيوان ليس له ولكن كان محفوظاً في حظائره كرهن قدم حيواناً بنفس القيمة ولكن ليس عليه أن يرد المال. فإذا لم يسلم الحيوان يغرم المال. وصاحب الشيء الذي كان حيوانه بالحظيرة يأخذ الحيوان. أما من تسلم الحيوان فيعاد إليه ماله بواسطة البائع.

5 - إذا باع رجل ثوراً أو جحشاً أو حصاناً أو أي حيوان يكون قد سرقه من المرعى من آخر بالسعر المناسب ودفع المشتري السعر المناسب دون أن يعلم بأن ما اشتراه مسروق فإن عثر عليه في حوزته يعوض البائع بالكامل من الشيء المسروق مهما يكن السعر الذي انتهى إليه.

6 - إذا وجد رجل .... أو حيواناً أو أي شيء آخر كان مفقوداً ورآه شهود ثم باعه وتعرّفه صاحبه في حوزة المشتري وقبض عليه ولكن الرجل قرر قائلاً "أنا اشتريته" فإن صاحب المتاع لا يأخذ متاعه منه بل يرده ثم يأخذ من يد البائع و... بل وأكثر من ذلك فإن السيد الذي اشترى المتاع والذي تسلم منه صاحب المتاع متاعه يعوّض منه بواسطة السيد الذي قام بالبيع له. وإذا قرر البائع قائلاً "أنا لم أعرف أن هذا المتاع كان مفقوداً" فإن الشهود يتهمونه ويقيمون الدعوى...

6 - أ... يأخذه و... مقابل مال... نعجتين إلى صاحب الفضة... ومهما ... لا يأخذه.

7 - إذا كان هناك... أو أي واحد يعيش في بيت آشوري كرهن أو ضمان لمال وانتهى الوقت... إذا هو ... مالا يقدر قيمته، ويأخذه... فإذا لم ... قيمة ماله... يحصل عليه ويجعله معروفاً... رأس المال...

8 - إذا سرق رجل ... أو حيواناً أو أي شيء آخر فإنه حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها يدفع... مينا من الرصاص. ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويعمل في سخرة الملك مدى... يوماً ويصدر الحكم قضاة الأرض. فإذا كان المتاع المسروق قد بلغت قيمته... مينا من الرصاص وكان قد باعه دفع بقدر ما سرق ثمناً كاملاً صغيراً أو كبيراً ويوقع الملك له العقوبة المناسبة.

9 - إذا عهد رجل بكل شيء من كل نوع إلى زوجته أو إلى عبده ثم حدث أن شيئاً من متعلقات البيت أودع مكاناً آخر ولم يبلغ المودّع عن الوديعة من عهد إليه بها وعثر عليها فإن صاحب المتاع يأخذ متاعه ويكون الرجل مسؤولاً عن إخفاء مسروقات.

10 - إذا بالغ رجل في تقويم وديعة من جاره وسجل ذلك كتابة فإنه حين رفع الدعوى عليه وإثباتها فما دام لصاً فإنه يتعرض للعقوبة التي يوقعها به الملك ويراها مناسبة.

11 - إذا بالغ رجل في تقويم... وسجل ذلك كتابة حتى يضيع مال الدين فإنه حين رفع الدعوى عليه وإثباتها فلأنه اشتطّ جداً في المبلغ يجلد ... مرة بالعصا... إلى يد مدينيه ... الكاتب و....

اللوحة الرابعة

1 - ... حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها... الذي ردة، يجلد، من ...، 30 مينا من الرصاص وأما باقي الـ /15/ مينا... أبناء الملك والقضاة الذي رده طبقاً لـ... الذي في الخارج إلى ابن ... الملك...

2 - ... ضرب ... إلى الرأس ... مينا.

3 - .... كل شيء، يقدر... يتسلم... ومع ذلك إذا ... قبض ... لا يعود... استئجاره... الموظف...

4 -... الفاعل ... يودعون... من المدين السابق... من المدين.

اللوحة الخامسة

1 - ... النعاج التي ... ومع ذلك فإذا كان الرجل... وأخذ نعجة من قطيع جاره وغيّر من

علامة المالك ووضع بدلاً منها علامته يجلد من أخذ النعجة مائة جلدة بالعصا ويقلع شعره ويسخر مدى شهر كامل في خدمة الملك ويتهم بأنه سارق نعاج.

2 - راعي الخيل لا يبيع الواحد منها مقابل مال أو... بدون الرجوع إلى صاحبها يجب عليه ألا... من يديه راعي القطيع ومن تسلم الحيوان ... الحيوان الذي باعه... ما دام لصاً يشوه وجه و...

اللوحة السادسة

1 - ... وهو نفسه...

2 - ... من الملك يجب ألا يأخذ ... كفالة مالاً من ... يجب ألا تؤخذ، كفالة... لا تؤخذ، كفالة.

3 - ... لينتج فضة... لا يكترث بها... دع هذه... من الفضة، ومال قاله...

اللوحة الثامنة

1 - ... لا تأخذ ... منه

2 - ... إلى النائب ... التي أسست.

3 -... رشا مواطناً من أرضه و... حين اتهامه وإقامة الدعوى وإثباتها... يكملها....

4 - ... للقاضي، مدينة إلى بيته ولا حاجة للمدين إلى أن يرد... إلى القاضي...

5 - ... التي يحتفظ بها... الرشوة... إلى...

اللوحة التاسعة

1 -... بمحض إرادته ... بعني إياها.... غرقت... سواء غرقت أو استبدلت... يجب إصلاح القارب وإعادة حمولته... أو يعوض منه صاحب الدعوى على القارب... أما المراكب... لم يحلف الملك فإنه لا يعاد إلى مركزه.

2 - ... قارب سواء نازلاً في النهر أو يعبر من ضفة إلى أخرى والتيار... صدم بإهمال مركباً محملاً فأغرقه... أو صدم مركباً فارغاً وأغرقه... فإنه بقدر الحمولة الضائعة...

3 - إذا أعطى رجل وهو في سياحة ملابسه غسالاً ليغسلها ثم قال هذا إنها ضاعت فإنه يعوض صاحبها بالتمام مما فقد. ومع ذلك فإذا كان قد باعها وعرف أمر ذلك في المدينة فإنه

عند إقامة الدعوى عليه وإثباتها أو عند العثور عليها في حوزة المشتري فإن الرجل يدفع... ضعفا عن المتاع المسروق.

اللوحة العاشرة

1 - إذا قال رجل لآخر ... في معركة "أنت جدفت ... ودنست معبد الإله" ... جلد أربعين جلدة...

2 - إذا قال رجل لآخر في معركة "أنت جدفت ... ودنست معبد الإله..." ... فما دام غير قادر على إقامة الدعوى جلد أربعين جلدة بالعصا وسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

اللوحة الحادية عشرة

1 -... إلى أبنائه...

2 - ... غير فكيرة... لم يعين بيته...

3 - ... في الأيام ... البيت التي... العبيد... والبساتين... بعد هذا... اللوحات التي... والشهود بقدر...

4 - إذا قسم أبناء تركة أبيهم... البساتين والآبار على الأرض يختار الابن الأكبر ويأخذ حصتين ثم يختار إخوته الواحد بعد الآخر أنصبتهم، الابن الأصغر يقسم أي أرض منزرعة مع كل محصولها ثم يختار الابن الأكبر حصة ثم يلقي القرعة مع أخوته للحصة التالية.

5 - إذا كان مالك... مياهاً... يقيمون دعوى ويعطون...

6 - إذا كان هناك ماء في آبار الأرض يمكن رفعه إلى الأرض التي تزرع بقصد إعدادها فإن أصحاب الحقول يعاونون بعضهم بعضاً، إن كلاً منهم يبذل جهده في حقله بقصد ريه فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم فإن من يعمل منهم مستهدفاً التعاون يطلب إلى القضاة وهؤلاء يصدرون أمر أداء كتابياً وعندئذٍ يستطيع أن يقوم بالعمل حتى يروي حقله بحيث لا يروي غيره من مصدر مائه.

7 - ... حريته... يدفع مينا من الفضة ... يدفع... مينا من الفضة...

المصادر والمراجع

- ابراهيم نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الأول. مصر من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة. دار المعارف، القاهرة 1965.
- ابراهيم نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الرابع. دار المعارف، القاهرة 1965.
- ابراهيم نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الخامس. دار المعارف، القاهرة 1963.
- ابراهيم نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء السادس حضارة العراق القديمة. دار المعارف، القاهرة 1961.
- إرمان، أدولف ورانكه، هرمان: مصر والحياة المصرية القديمة. ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، ومحرم كمال. مطبعة مصر، القاهرة. لا تاريخ.
- إنجلس، فريدريك: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة. ترجمة أديب يوسف. منشورات دار الفارابي والكتاب العربي. المطبعة التعاونية بدمشق 1958.
- باقر، طه، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. شركة التجارة والطباعة، الجزء الأول، تاريخ العراق القديم، بغداد 1962.
- برستد، جيمس هنري: انتصار الحضارة. تاريخ الشرق القديم. نقله إلى العربية الدكتور أحمد فخري. مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة 1955.
- برستد، جيمس هنري، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي. ترجمة الدكتور حسن كمال. المطبعة الأميرية، القاهرة 1929.

- برستد، جيمس هنري: فجر الضمير. ترجمة سليم حسن. دار مصر للطباعة، القاهرة 1956.
- بصمه جي، فرج (الدكتور): دليل المتحف العراقي. مطبعة الحكومة، بغداد 1934.
- بليخانون، جورج: فلسفة التاريخ. دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق. لا تاريخ.
- التوراة.
- جماعة من الباحثين السوفيات: تاريخ العالم باللغة الروسية، المجلد الثاني، موسكو 1956.
- جماعة من الباحثين السوفيات: الموسوعة التاريخية السوفياتية باللغة الروسية، المجلد السابع، موسكو 1965.
- جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي. الجزء الأول. دار التقدم، موسكو لا تاريخ.
- حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة. الجزء الأول. مطبعة الجامعة، دمشق1964.
- حداد، غبد الحق وحمش، عدنان: الحركات الفلاحية عبر التاريخ. الناشر مؤسسة العلاقات الاقتصادية. لا مكان ولا تاريخ للطبع.
- حسن، سليم: تاريخ الأدب المصري القديم. الجزء الأول. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1945.
- حسن، سليم: مصر القديمة. الجزء السابع. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1950.
- دريوتون، إتيين وفانديه، جاك: مصر. تعريب عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1974.
- ديلايورت، ل: بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال والدكتور عبد المنعم أبو بكر. المطبعة النموذجية، القاهرة لا تاريخ.

- ستالين، جوزيف: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق لا تاريخ.
- سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الإجنماعي - الاقتصادي. دار ابن خلدون، بيروت 1979.
- سومر. مجلة تبحث في آثار العراق القديمة. المجلد الرابع. مطبعة التفيض، بغداد 1948.
- سومر. المجلد الرابع (الجزء الثاني). شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد 1948.
- سومر. المجلد الخامس (الجزء الأول). مطبعة الرابطة، بغداد 1949.
- سومر. المجلد السادس (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الرابطة، بغداد 1950.
- سومر. المجلد العشرون (الجزءان الأول والثاني). دار الجمهورية، بغداد 1964.
- سومر. المجلد الرابع والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية، بغداد 1968.
- سومر. المجلد الخامس والعشرون. مطبعة الجمهورية، بغداد 1969.
- سومر. المجلد السادس والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية، بغداد 1970.
- سومر. المجلد التاسع والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية، بغداد 1973.
- سومر. المجلد الثلاثون (الجزءان الأول والثاني). دار الحرية للطباعة، بغداد 1974.
- الصفدي، هشام (الدكتور): محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دمشق 1966 - 1967.
- صفي الدين، محمد (الدكتور) وزملاؤه: دراسات في جغرافية مصر. مكتبة مصر، القاهرة 1957.
- عادل عبد الحق، سليم (الدكتور): نوطة عن مصر والشرق الأدنى القديم، دمشق 1947.

- غنيم، أحمد محمد: تطور الملكية الفردية. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة لا تاريخ.
- فخري، أحمد: مصر الفرعونية. موجز تارخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 قبل الميلاد. دار ممفيس للطباعة، القاهرة 1971.
- كاجدان، أ وزملاؤه: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية. بإشراف دياكوف وكوفاليف. طبع في الاتحاد السوفياتي، موسكو لا تاريخ.
- كوروفكين، ف. ب: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية. مترجم عن الروسية، موسكو 1963.
- كيللي، ف وكوفالزون، م: المادية التاريخية. ترجمة أحمد داوود. إصدار دار الجماهير، دمشق 1967.
- لويد، ستون: الرافدان. ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس بغداد 1934.
- متولي، محمد (الدكتور): وجه الأرض. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1949.
- نيكيتين، ب: أسس الاقتصاد السياسي. دار التقدم، موسكو لا تاريخ.
- الهاشمي، طه: مفصل جغرافية العراق. مطبعة دار السلام، بغداد 1930.
- هامرتن، جون. أ: تاريخ العالم. أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة التربية، المجلد الأول. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة لا تاريخ.
- هاولز، وليام: ما وراء التاريخ: ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد. دار نهضة مصر، القاهرة 1965.
- ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. دار النهضة للطبع والنشر، القاهرة 1965.

المحتويات

الفصل الأول: مقدمة في علم التاريخ 7
الفصل الثاني: عصور ما قبل التاريخ 13
الفصل الثالث: ثقافة عصور ما قبل التاريخ 33
الفصل الرابع : حضارة مصر في العصور القديمة وما قبل التاريخ 45
الأحوال الطبيعية 45
الفصل الخامس: مصادر حضارة مصر في العصور القديمة وما قبل التاريخ 57
1 - مصادر ما قبل التاريخ 57
2 - مصادر العصر التاريخي 57
أقسام تاريخ مصر القديمة 58
الفصل السادس: مصر في عصور ما قبل التاريخ 61
الفصل السابع: الدولة المصرية في العصر التاريخي 75
الفصل الثامن: نظام الحكم والإدارة – الجيش والأسطول 93
الفصل التاسع: البنية الاقتصادية 105
الفصل العاشر: البنية الاجتماعية 123
هرمية المجتمع العبودي في مصر القديمة: طبقاته وفئاته 123
الفصل الحادي عشر: الحركات الشعبية 139
نبوءة نفر روهو 153

إضراب العمال في عهد رمسيس الثالث 157
ثقافة مصر 159
الفصل الثاني عشر: الكتابة 161
الفصل الثالث عشر: الأدب 163
الفصل الرابع عشر: الفن في مصر القديمة 175
1 - فن البناء 176
2 - الفنون التشكيلية 183
3 - الفنون الصغرى 190
4 - الموسيقى والغناء والرقص 192
الفصل الخامس عشر: المعارف العلمية 195
الفصل السادس عشر: الديانة 205
الفصل السابع عشر : بلاد ما بين النهرين - ميزوبوتاميا 221
الأحوال الطبيعية 221
الفصل الثامن عشر: مصادر تاريخ حضارات العراق
في العصور القديمة وما قبل التاريخ 233
أولاً: مصادر عصور ما قبل التاريخ 233
ثانياً: مصادر العصر التاريخي 234
الفصل التاسع عشر: حضارة العراق في عصور 237
ما قبل التاريخ أو ما قبل السلالات 237
العصر التاريخي في بلاد ما بين النهرين 245
الفصل العشرون: سومر وأكاد 247
الدولة الأكادية تحقق توحيد بلاد ما بين النهرين 252
الفصل الواحد والعشرون: الدولة البابلية القديمة 261
نشأتها وتوسعها 261

الفصل الثاني والعشرون: الآشوريون 269
الفصل الثالث والعشرون: الدولة الكلدانية أو (الدولة البابلية الجديدة) 287
نشأتها وتوسعها 287
الفصل الرابع والعشرون: النظام السياسي ـ الجيش والأسطول 291
النظام السياسي 291
الفصل الخامس والعشرون: البنية الاقتصادية 301
تربية المواشي 311
الحرفة 312
التجارة والمواصلات 315
الفصل السادس والعشرون: المجتمع العبودي في العراق القديم 323
الأسرة 329
الفصل السابع والعشرون: الحركات الشعبية 337
الثقافة في العراق القديم 340
الفصل الثامن والعشرون: الكتابة 343
الفصل التاسع والعشرون: المدارس والمكتبات 349
الفصل الثلاثون: الأدب 353
قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش) 356
قصة نزول أنكيدو إلى العالم السفلي 376
الفصل الواحد والثلاثون: التاريخ والجغرافيا 395
الفصل الثاني والثلاثون: العلوم الفلكية والرياضية 401
الفلك 401
الرياضيات 404
الحساب 404
الجبر 407
الهندسة 408

الفصل الثالث والثلاثون: العلوم الطبية والطبيعية 411
الكيمياء 411
الطب 412
علم الحيوان 416
علم النبات 418
الفصل الرابع والثلاثون: الفن 421
1 - فن البناء: ويشمل المسكن والقصور والمعابد 421
2 - الفنون التشكيلية 430
3 - الفنون الصغرى 439
4 - الموسيقى 441
الفصل الخامس والثلاثون: الديانة 443
الفصل السادس والثلاثون: القوانين والشرائع 463
شريعة أشنونا 473
شريعة ليبيت عشتار 486
قانون حمورابي 491
القوانين الآشورية 520
المصادر والمراجع 539

بعد أن صدر كتابه «جزيرة العرب قبل الإسلام»، يستكمل الباحث والمؤرّخ الأستاذ برهان الدين دلّو، مشروع بحثه حول التاريخ القديم للبلدان العربية، فيقدّم في كتابه هذا «حضارة مصر والعراق» وبنفس السياق من المعالجة السابقة لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، من حيث اعتماده على تقديم المصادر التاريخية للبحث، وجغرافية المنطقة، والتاريخ السياسي لِتَشَكُّل الدول والبنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

يتميز هذا البحث في المنهجية المادية المعتمدة والرؤية الجدلية لترابط العناصر المختلفة لتكوُّن حضارة هذين البلدين: مصر والعراق.

ISBN 978-9953-71-979-5
9 789953 719795